الصـــراعـــات العرقيـــة واسـتقـرار العالم المعاصر

د. أحمد وهبان

الصـــراعـــات العرقيـــة
واستقرار العالم المعاصر

دراسة في الأقليات والجامعات والحركات العرقية

دكتــور

أحمد وهبان

قسم العلوم السياسية

كلية التجارة – جامعة الإسكندرية



القسم الأول

في التعريف بالظاهرتين القومية والعرقية

القسم الثاني

في التعريف بظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر

القسم الثالث

في الحركات العرقية وانهيار الاتحاد السوفييتي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند ا أتقاكم إن ا عليم خبير ﴾

(سورة الحجرات – الآية: ١٣)

"يا معشر قريش إن ا قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب".

(حديث شريف)

الإهـ ـداء

إلى: العالم العلم، والأستاذ الجليل

أستاذي وأستاذ الأجيال:

الدكتور محمد طه بدوي

جزاه ا عني وعن سائر تلامذته وكافة مريديه

خير الجزاء...

وإلى: العطاء في ذروة سخائه

والأستاذية في أوج رقيها

أستاذتي الكريمة:

الدكتورة ليلى أمين مرسي

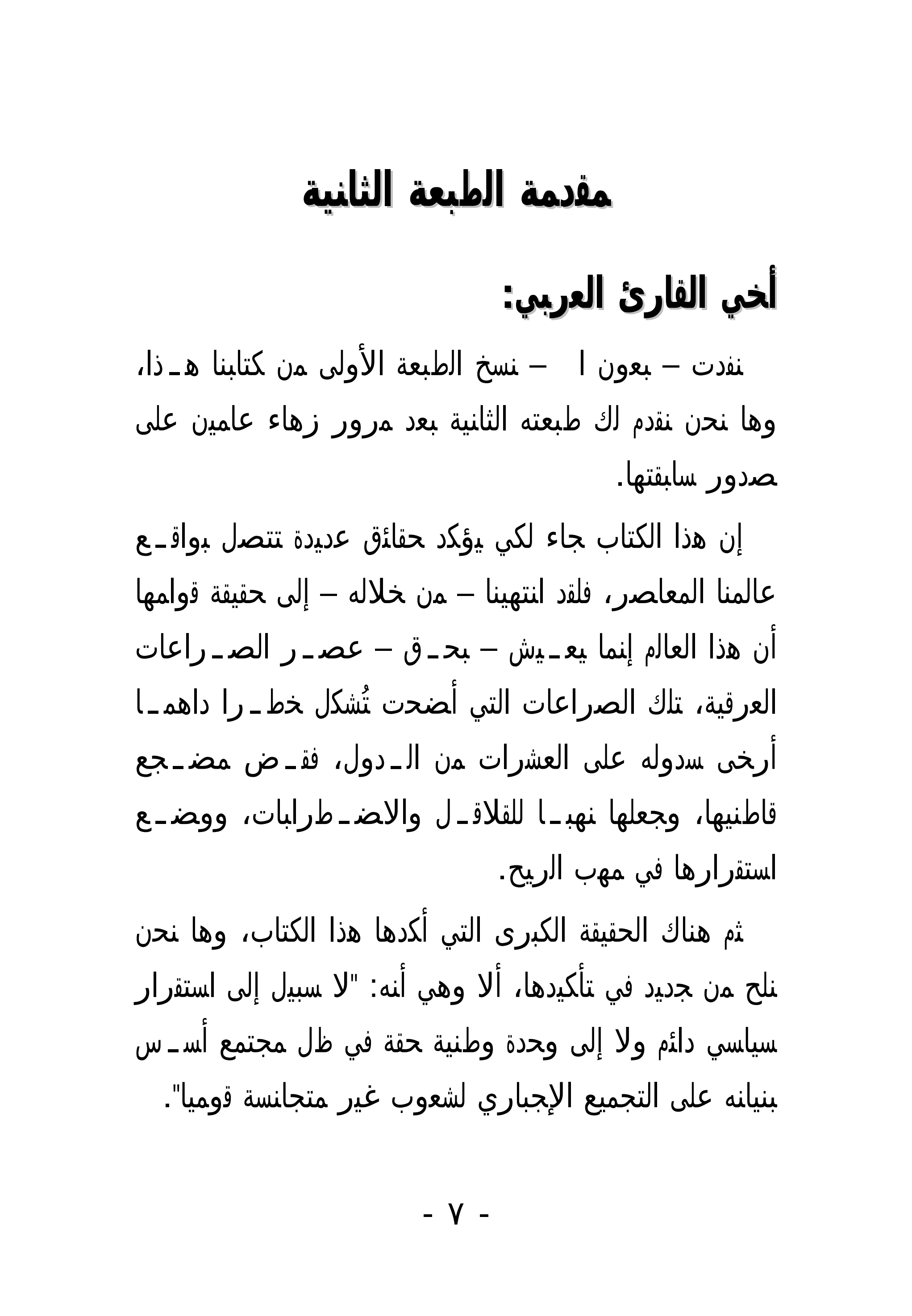
أثابها ا عني خير المثوبة...

مقدمة الطبعة الثالثة

يسعدنا أن نضع بين يدي القارئ العربي الطبعة الثالثة من كتابنا هذا، بعد أن نفدت طبعتها الأولى والثانية. وقد حرصنا أن تأتي هذه الطبعة منقحة مزيدة، بحيث تضم بين دفتيها ما استجد في سائر أرجاء البسيطة من صراعات عرقية، ذلك – بطبيعة الحال – فضلاً عما ستضمنه هذه الطبعة من تعريف بأظهر التطورات التي طرأت على حال الصراعات العرقية التقليدية والتي كنا قد عرضنا لها في الطبعتين السابقتين.

وا   الموفق،،،

أحمد وهبان



مقدمة الطبعة الثانية

أخي القارئ العربي:

نفدت – بعون ا   – نسخ الطبعة الأولى من كتابنا هذا، وها نحن نقدم لك طبعته الثانية بعد مرور زهاء عامين على صدور سابقتها.

إن هذا الكتاب جاء لكي يؤكد حقائق عديدة تتصل بواقع عالمنا المعاصر، فلقد انتهينا – من خلاله – إلى حقيقة قوامها أن هذا العالم إنما يعيش – بحق – عصر الصراعات العرقية، تلك الصراعات التي أضحت تُشكل خطرا داهما أرخى سدوله على العشرات من الدول، فقض مضجع قاطنيها، وجعلها نهبا للقلاقل والاضطرابات، ووضع استقرارها في مهب الريح.

ثم هناك الحقيقة الكبرى التي أكدها هذا الكتاب، وها نحن نلح من جديد في تأكيدها، ألا وهي أنه: "لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في ظل مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا".

أخي القارئ: إن كنت في ريب مما تقدم فانظر إلى عـالم اليوم، ونحن الآن في شهر يونيو ١٩٩٨، ها هم أبناء جنوب السودان لا يزالون يمتشقون الحسام في مواجهة الشـماليين، في حرب ضروس أتت على الأخضر وكثير من اليابس في تلك الدولة التي يعاني الملايين من أبنائها شـظف العـيش، ويئنون تحت وطأة الجوع، وبدلاً مـن أن توجـه المـوارد المحدودة للدولة إلى شراء الخبز اللازم لسد رمق الجـائعين يلقى بها في حومة الوغى كبارود يفتك بالكثيرين من أبنـاء ذلك البلد، ويعمق في أنفس النـاجين مـنهم أسـباب الحقـد والبغضاء في مواجهة بعضهم البعض.

وقبل أن تحول نظرك عن القارة الإفريقيـة انظـر إلـى منطقة القرن الإفريقي، وما يدور فيها الآن (يونيـو ١٩٩٨) من حرب طاحنة استعر أوراها بين إثيوبيا وإريتريـا كـل "يسعى إلى السيطرة على أكبر مساحة ممكنة مـن المنـاطق الحدودية معتبرا إياها جزءا من أراضيه. وهكذا فإنه علـى الرغم من خمود نيران الصراع العرقي في تلـك المنطقـة باستقلال الإريتريين عن إثيوبيـا عـام ١٩٩٣، إلا أن تلـك النيران أبت إلا أن تخلف وراءها نظيرة لها أشـد ضـراوة؛ هي نيران حرب بين دولتين متجاورتين، تختلفان حول تعيين

الحدود بينهما، ثم فلتتجه بنظرك إلى شبه القارة الهندية فـي آسيا؛ حيث السباق النـووي المحمـوم الـدائر بـين الهنـد والباكستان، وحيث قامت كلتا الدولتين – كما نعلم – بالعديـد من التفجيرات النووية خلال مايو المنصرم. وهذا التسـابق علام؟ وبمعنى آخر: لماذا يوجه الهنود والباكستانيون جانبـا عظيم الشأن من مواردهم – على تواضعها – إلـى سـباق التسلح بدلاً من توجيهه لملء البطون الخاوية؟ والإجابة: إنه العداء، وما هو سبب ذلك العداء؟ إنـه – ببسـاطة – ذلـك الصراع العرقي المتأجج في إقليم جامو وكشمير على نحـو ما سنعرض في هذا الكتاب.

وإذا يممت وجهك شطر أوروبا ستجد الباسكيين لا يزالون يناضلون من أجل الخـلاص مـن ربقـة الإسـبان، ونيـل الاستقلال، وإقامة دولتهم المنشودة التي تجسد هويتهم. فـإن أردت لنفسك إطلالة على البلقان – وما أدراك ما البلقـان – فسترى أبناء كوسوفا من المسلمين الألبان يواجهون عمليات الإبادة والتطهير العرقي من جانـب صـرب يوغوسـلافيا الجديدة، لا لشـيء إلا لأن أولئـك القـوم أرادوا لأنفسـهم الاستقلال، والتخاص من نير تلك الدولة التي هي أبعـد مـا تكون عن تحقيق آمالهم وصون هويتهم.

فإذا ما اتجهت إلى العالم الجديد فستجد فرنسـيي كيبيـك لا يزالون يتطلعون إلى يوم فيه يحصلون علـى اسـتقلالهم، ويقيمون دولتهم المبتغاة. وها هم الهنود الحمر من أبناء إقليم تشيباس المكسيكي يتحسسون طريقهم المشحون بالنار والـدم والدموع عساهم – في النهاية – يحصلون على شـيء مـن حقوقهم المفتأت عليها من قِبل الحكومة المكسيكية.

وبعد أخي القارئ: تلك هي – فحسب – بعـض الأمثلـة التي أردنا بها أن نشير إلى خطورة شأن الصراعات العرقية على استقرار عالمنا المعاصر، فإن كنت لازلت في شك من هذه الحقيقة فاقرأ هذا الكتاب لعلك تقتنع.

وا الموفق،،،

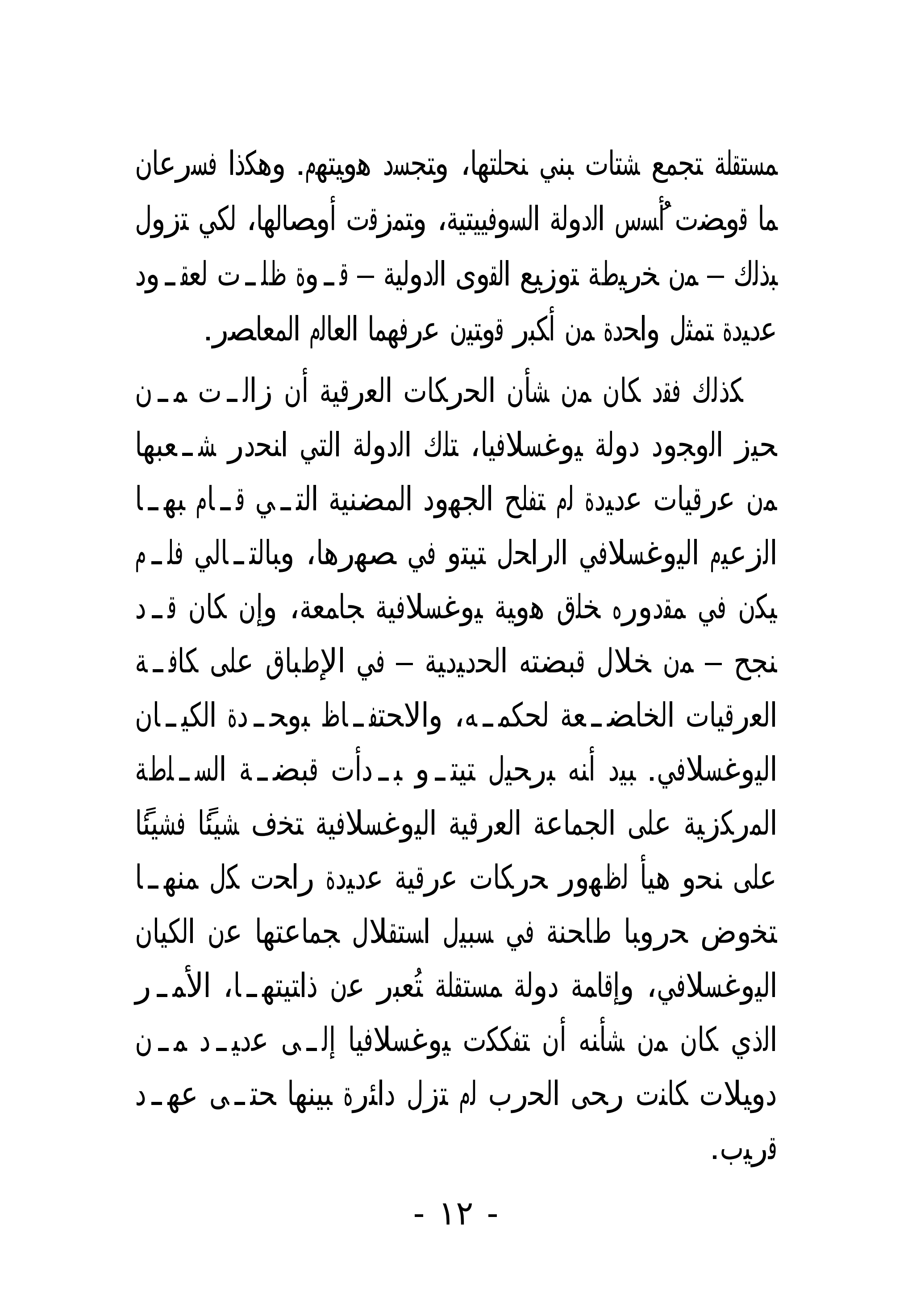
أحمد وهبان

تصدير

تشير ملاحظة الواقع السياسي في عالم اليوم إلى أن الحركات العرقية قد أضحت تُمثل – بحق – واحدة من أبرز ظواهر الحياة السياسية في العديد من البلدان. وترتبط هذه الظاهرة – من حيث وجودها – بالدول التي تتسم بتنوعها العرقي Multi – ethnic States، سواء أكانت تلك الدول تنتمي إلى العالم الثالث كالسودان، والعراق، وسريلانكا، أو كانت تدخل في مصاف الدول المتقدمة حال كندا والمملكة المتحدة.



والحق أن المتتبع لمجريات الواقع الدولي الراهن سرعان ما يدرك ما للحركات العرقية من آثار عظيمة الشأن على استقرار المجتمعات التي توجد بها. ولعل أظهر الأمثلة على ذلك ما أصاب الدولة السوفييتية السابقة من تفكك؛ إذ كان مرد ذلك التفكك إلى الحركات العرقية التي راحت تطفو على سطح الحياة السياسية السوفييتية خلال العهد الجورباتشوفي، ثم شيئًا فشيئًا شرعت كل منها – متوسلة بشتى الوسائل – في المطالبة بانفصال جماعتها العرقية عن الاتحاد السوفييتي، وإقامة دولة



مستقلة تجمع شتات بني نحلتها، وتجسد هويتهم. وهكذا فسرعان ما قوضت أُسس الدولة السوفييتية، وتمزقت أوصالها، لكي تزول بذلك – من خريطة توزيع القوى الدولية – قـوة ظلـت لعقـود عديدة تمثل واحدة من أكبر قوتين عرفهما العالم المعاصر.

كذلك فقد كان من شأن الحركات العرقية أن زالـت مـن حيز الوجود دولة يوغسلافيا، تلك الدولة التي انحدر شـعبها من عرقيات عديدة لم تفلح الجهود المضنية التـي قـام بهـا الزعيم اليوغسلافي الراحل تيتو في صهرها، وبالتـالي فلـم يكن في مقدوره خلق هوية يوغسلافية جامعة، وإن كان قـد نجح – من خلال قبضته الحديدية – في الإطباق على كافـة العرقيات الخاضـعة لحكمـه، والاحتفـاظ بوحـدة الكيـان اليوغسلافي. بيد أنه برحيل تيتـو بـدأت قبضـة السـلطة المركزية على الجماعة العرقية اليوغسلافية تخف شيئًا فشيئًا على نحو هيأ لظهور حركات عرقية عديدة راحت كل منهـا تخوض حروبا طاحنة في سبيل استقلال جماعتها عن الكيان اليوغسلافي، وإقامة دولة مستقلة تُعبر عن ذاتيتهـا، الأمـر الذي كان من شأنه أن تفككت يوغسلافيا إلـى عديـد مـن دويلات كانت رحى الحرب لم تزل دائرة بينها حتـى عهـد قريب.

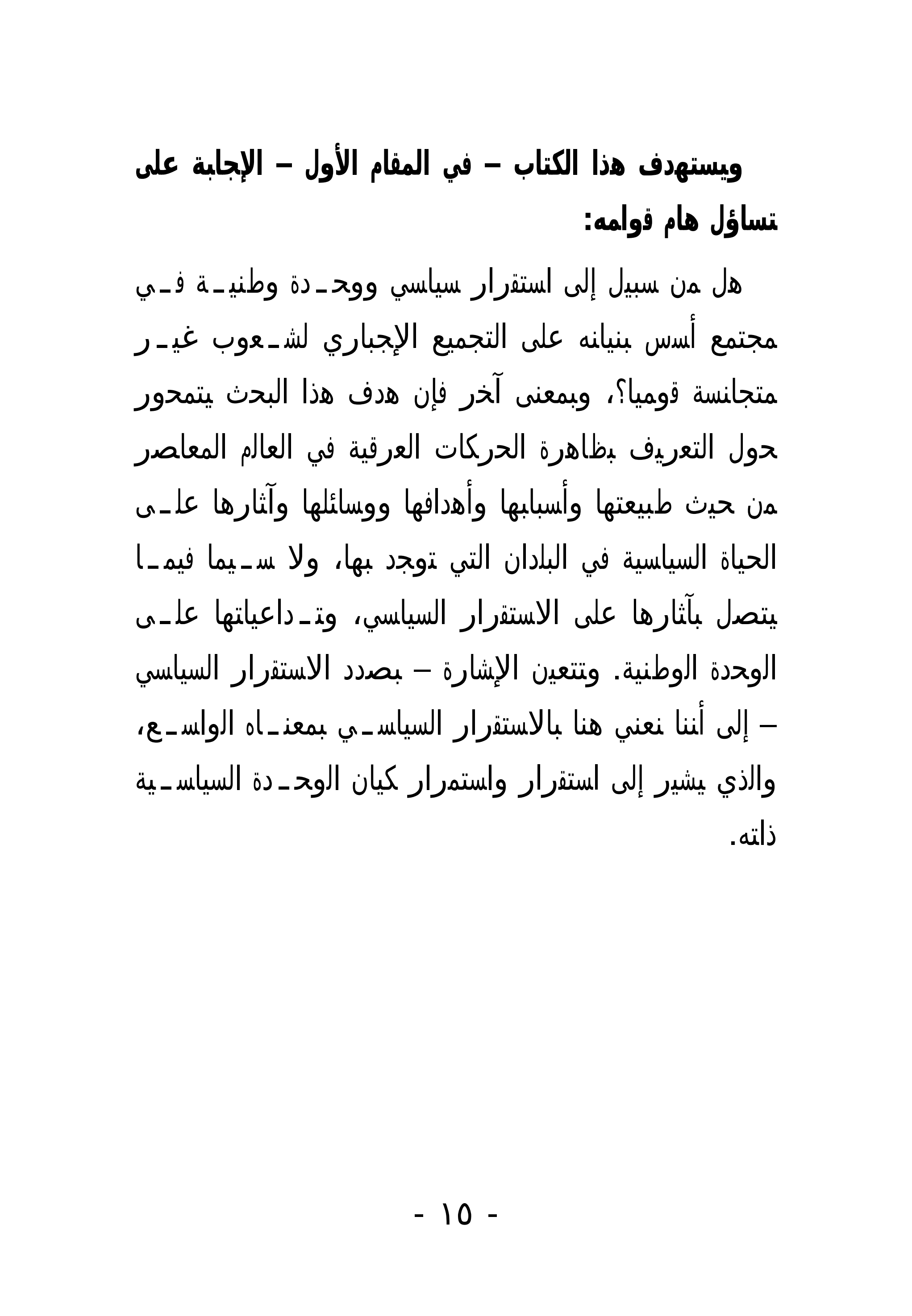
وفضلاً عما تقدم فبفعل الحركات العرقية مزقت أوصال كل من تشيكوسلوفاكيا، وإثيوبيا، كما بات الانقسام خطرا داهما يخيم على الكثير من دول العالم حال كندا، وسريلانكا، والعراق، وتركيا، ولبنان، والسودان، وإندونيسيا، وروسيا، وإيران، وغدت الوحدة الوطنية – وبالتالي الاستقرار السياسي – موضع تهديد دائم في كل من بوروندي، ورواندا، والجزائر، والهند... وغيرها.

وهكذا فإن كان المشتغلون بعلوم السياسة قد راحوا يطلقون على القرن التاسع عشر "قرن القوميات" Century of Nationalism فإننا لا نكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ما قلنا إن عالمنا المعاصر يعيش – بحق – عصر الحركات العرقية.

هذا وعلى الرغم من الأهمية البالغة لظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر على النحو المتقدم فإن المشتغلين بالدراسات السياسية لم يعيروها – بعد – الاهتمام اللائق، على نحو يمكننا معه القول بأن هذه الظاهرة لم تخضع – حتى الآن – للدراسة العلمية الحقة. ومن هنا كان موضوع كتابنا هذا:

الصراعات العرقية
واستقرار العالم المعاصر

ولما كانت الحركات العرقية قد برزت – في عصرنا – بجل صورها، وشتى مقوماتها في الاتحاد السوفييتي (السابق) وكانت الحركات العرقية السوفييتية هي أعظم نظيراتها المعاصرة شأنًا وأمضاها أثرا فقد اخترنا أن ينصب عليها موفور اهتمامنا، ولذا فقد أفردنا لها القسم الثالث من هذا الكتاب برمته. وذلك – بطبيعة الحال – على إثر الاهتمام البالغ بكافة الجوانب المتعلقة بالحركات العرقية، لا سيما سماتها العامة المشتركة التي تجعل منها وبحق "ظاهرة"، الأمر الذي حتم علينا أن نعرض لحالات متباينة أخرى في مناطق مختلفة من العالم على النحو الذي قمنا به في القسم الثاني، على أن تكون الدراسة المستفيضة للحركات العرقية السوفييتية (في القسم الثالث) بمثابة تتويج واستجلاء لما وقفنا عليه من حقائق تتصل بالظاهرة العرقية في القسمين الأول والثاني.



ويستهدف هذا الكتاب – في المقام الأول – الإجابة على تساؤل هام قوامه:

هل من سبيل إلى استقرار سياسي ووحـدة وطنيـة فـي مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشـعوب غيـر متجانسة قوميا؟، وبمعنى آخر فإن هدف هذا البحث يتمحور حول التعريف بظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر من حيث طبيعتها وأسبابها وأهدافها ووسائلها وآثارها علـى الحياة السياسية في البلدان التي توجد بها، ولا سـيما فيمـا يتصل بآثارها على الاستقرار السياسي، وتـداعياتها علـى الوحدة الوطنية. وتتعين الإشارة – بصدد الاستقرار السياسي – إلى أننا نعني هنا بالاستقرار السياسـي بمعنـاه الواسـع، والذي يشير إلى استقرار واستمرار كيان الوحـدة السياسـية ذاته.

وهكذا فإن صلب هذا الكتاب إنما يتمثـل فـي ظـاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر، مـن حيـث كنههـا وأسبابها وآثارها في الحياة السياسة، وذلك كلـه مـن ثنايـا العرض لبعض النماذج (الحالات) المعبرة عن هذه الظاهرة، وعلى رأس هذه النماذج كافة نماذج الحركات العرقية التـي شهدها الاتحاد السوفييتي السابق، والحركات العرقية الكردية، والحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي، والحركة العرقية في جنوب السودان.

وبصدد خطة البحث فإننا سنضمن كتابنا هذا ثلاثة أقسام، وتقرير ختامي، وذلك على النحو التالي:

القسم الأول: في التعريف بالظاهرتين القومية والعرقية:

وينطوي هذا القسم على فصلين نعنونهما كما يلي:

الفصل الأول: في التعريف بالدولة القومية:

وذلك على اعتبار أن الدولة القومية تُمثل الصورة المثلى للمجتمع السياسي؛ حيث يسودها الاستقرار السياسي، وتظللها الوحدة الوطنية، فهي دولة التكامل والوحدة، التي يتعين على الشعوب إقامتهـا إن هـي أرادت أن تنـأى بنفسـها عـن الصراعات العرقية. ويتضمن هذا الفصل أربعـة مباحـث، نعرض من ثناياها للجذور التاريخية لفكـرة القوميـة، ثـم للتعريف بمفهومي القومية والأمـة، فـالتعريف بمقومـات القومية، وانتهاء بالتعريف بالمفهوم المعاصر للدولة القومية.

الفصل الثاني: فـي التعريـف بالظـاهرة العرقيـة (الجماعات والحركات):

ويتضمن هذا الفصل خمسة مباحث نعرض مـن خلالهـا للتعريف بالجماعة العرقية، فبمقومات الذاتية العرقيـة، ثـم بمفهوم الأقلية، بتصـنيف الجماعـات العرقيـة، وانتهـاء بالتعريف بمفهوم الحركة العرقية، وسماتها والتي سنسعى إلى استجلائها من ثنايا القسم الثاني.

القسم الثاني: في التعريف بظاهرة الحركـات العرقية في العالم المعاصر:

وينصب هذا القسم برمته على تحليل الظاهرة محل البحث بغية الوقوف على سماتها العامة المشتركة. ونعرض في هذا الفصل للعديد من نماذج الحركات العرقية المعاصـرة حـال الحركة العرقية الكردية، والحركة العرقية في إقلـيم كيبيـك الكندي، والحركة العرقية في جنوب السودان... وغيرها.

القسم الثالث: في الحركات العرقية وانهيار الاتحاد السوفييتي (السابق):

وينطوي هذا القسم – بدوره – على فصلين، وذلك على النحو التالي:

الفصل الأول: في الحركات العرقية في الاتحاد السوفييتي خلال الفترة: ١٩١٧ – ١٩٨٤:

وهي الفترة التي سبقت وصول جورباتشوف إلى الحكم في الكرملين، والتي تمكن الزعماء السوفييت خلالها من الإطباق على كافة الجماعات العرقية الخاضعة لحكمهم من خلال قبضتهم الجبارة، كما سعى هؤلاء الزعماء – خلال الفترة المذكورة – بشتى السبل إلى طمس الهويات العرقية لتلك الجماعات. ونعرض في هذا الفصل كافة السياسات التي انتهجها قاطنو الكريملين بغية بلوغ غايتهم المتقدمة.

الفصل الثاني: في الحركات العرقيـة فـي الاتحـاد السوفييتي خلال عهد جورباتشوف وما بعده:

ويتضمن هذا الفصل ستة مباحث نعرض من خلال خمسة منها إلى كافة الحركات العرقية التي ظهرت فـي الاتحـاد السوفييتي خلال عهد جورباتشوف، أما المبحـث السـادس فنعرض فيه لتفكك الاتحاد السوفييتي وآثاره الدولية.

التقرير الختامي:

ويتضمن هذا التقرير – بإذن ا – أظهر الملاحظات التي توصلنا إليها بصدد هدف البحث.

وفي النهاية فإنني إذ أشرف بتقديم كتابي هذا إلى القـارئ العربي إنما أتمنى أن يمثل إضافة إلى مكتبتـه، ولبنـة فـي صرح معرفته.

وعلى ا قصد السبيل...

أحمد وهبان

القسم الأول

فـي التعريف بالظاهرتين القومية والعرقية

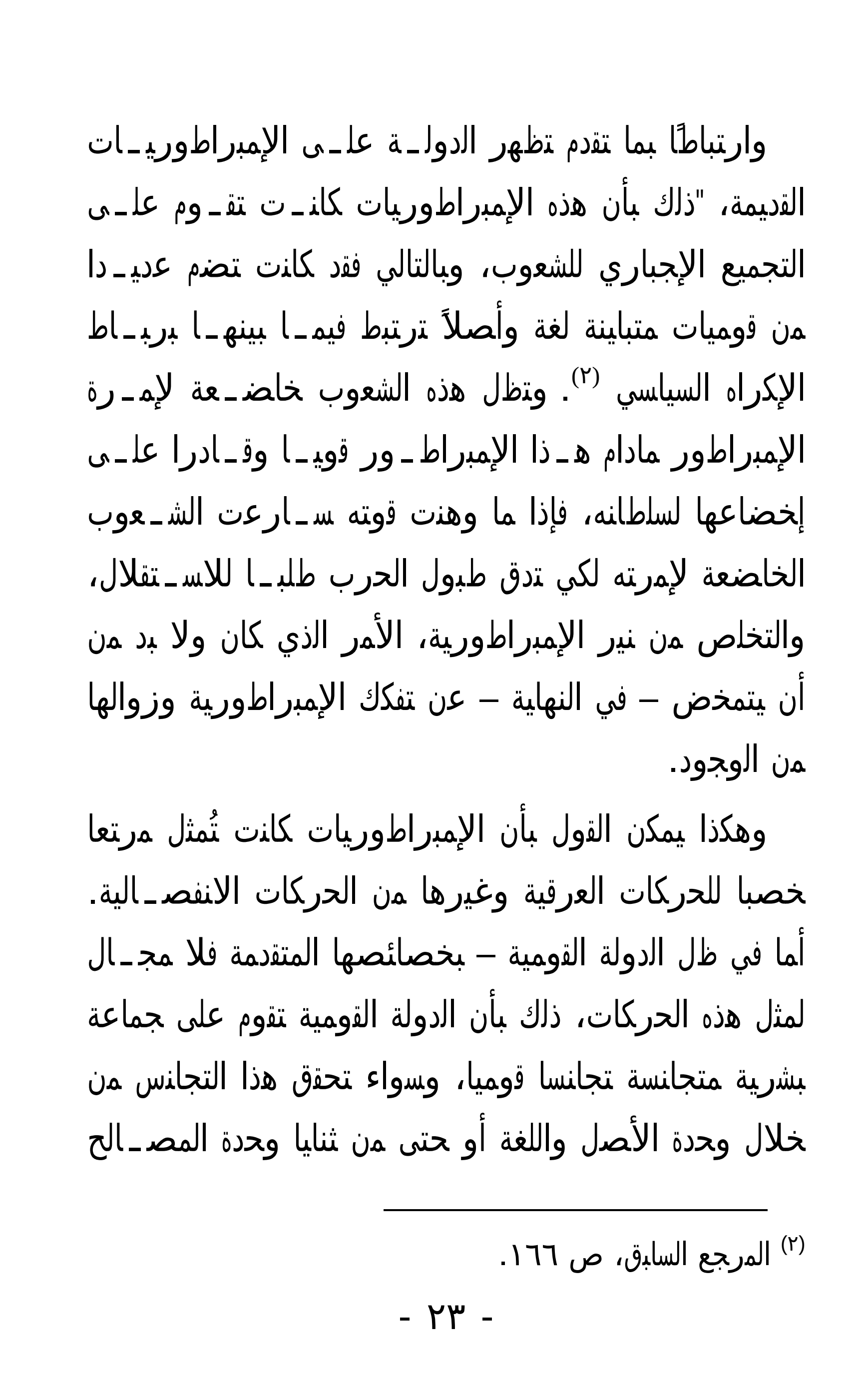
الفصل الأول
في التعريف بالدولة القومية

يتفق المعنيون بدراسة الظواهر السياسية على أن الصـورة المثلى للمجتمعات السياسية تتمثل في صورة الدولـة القوميـة National State، وهي الصورة التي راحت تسود التنظـيم السياسي للمجتمعات الإنسانية منـذ القـرن التاسـع عشـر، وباعتبارها أقدر صور التنظيم السياسي للمجتمعات استجابة إلى قيمة إنسانية اجتماعية مضمونها ألا تكره أمة على الحياة مـع غيرها في ظل وحدة سياسية واحدة، وألا تتفتت أمة لها وحدتها الذاتية – بما لها من خصائص متفردة – جبرا عنها بين وحدات سياسية متعددة [١]. ففي ظل الدولة القومية يتجـانس العنصـر البشري على نحو يهيئ لترسيخ الوحدة الوطنية بـين أفـراده، وبالتالي تتكامل الجماعة البشرية المشكلة للدولة تكاملاً يسـقط عنها أسباب التصادم المفضي إلى الضعف والتحلل.

---

[١] انظر في هذا المضمون:

- محمد طه بدوي – ليلى أمين مرسى، النظرية العامة للعلاقـات الدولية، الطبعة الرابعة – الإسكندرية، ١٩٩٢، ص ٢٠٧.



وارتباطًا بما تقدم تظهر الدولـة علـى الإمبراطوريـات القديمة، "ذلك بأن هذه الإمبراطوريات كانـت تقـوم علـى التجميع الإجباري للشعوب، وبالتالي فقد كانت تضم عديـدا من قوميات متباينة لغة وأصلاً ترتبط فيمـا بينهـا بربـاط الإكراه السياسي [٢]. وتظل هذه الشعوب خاضـعة لإمـرة الإمبراطور مادام هـذا الإمبراطـور قويـا وقـادرا علـى إخضاعها لسلطانه، فإذا ما وهنت قوته سـارعت الشـعوب الخاضعة لإمرته لكي تدق طبول الحرب طلبـا للاسـتقلال، والتخلص من نير الإمبراطورية، الأمر الذي كان ولا بد من أن يتمخض – في النهاية – عن تفكك الإمبراطورية وزوالها من الوجود.

وهكذا يمكن القول بأن الإمبراطوريات كانت تُمثل مرتعا خصبا للحركات العرقية وغيرها من الحركات الانفصـالية. أما في ظل الدولة القومية – بخصائصها المتقدمة فلا مجـال لمثل هذه الحركات، ذلك بأن الدولة القومية تقوم على جماعة بشرية متجانسة تجانسا قوميا، وسواء تحقق هذا التجانس من خلال وحدة الأصل واللغة أو حتى من ثنايا وحدة المصـالح

---

[٢] المرجع السابق، ص ١٦٦.

والرغبة في الحياة المشتركة فإنه لا بد – كما قدمنا – من أن يؤدي إلى ترسيخ الوحدة الوطنية، وتأكيد الصلابة السياسـية للدولة في الداخل والقوة الاستراتيجية لها في الخارج.

وهكذا فإن الدولة القومية تُعـد بحـق الصـورة المثلـى للمجتمعات السياسية، كما أنها تُمثل مصلاً واقيا من ظـاهرة الحركات العرقية وغيرها من الحركات الانفصـالية، تلـك الحركات التي تشكل – ولا شك – خطرا داهما يكاد يعصف بكيان المجتمعات التي توجد بها.

ونظرا لكل ما تقدم فإننا سنفرد هـذا الفصـل – والـذي ينطوي على أربعة مباحث – للتعريف بالدولة القومية، بمـا يقتضيه ذلك من العرض للجذور التاريخية لفكـرة القوميـة، وكذا التعريف بالأمة، فـالتعريف بمقومـات القوميـة، ثـم التعريف بالمفهوم المعاصر للدولة القومية.

وبذلك فإننا سنقسم هذا الفصل على النحو التالي:

المبحث الأول : في الجذور التاريخية لفكرة القومية.

المبحث الثاني : في التعريف بمفهومي القومية والأمة.

المبحث الثالث : في التعريف بمقومات القومية.

المبحث الرابع : في التعريف بالمفهوم المعاصـر للدولـة القومية.

المبحث الأول

من الجذور التاريخية لفكرة القومية [٣]

لعقود طويلة – وحتى قبيل نهاية القرن الثـامن عشـر – ظل مبدأ "حق العروش في تقرير مصائر الشـعوب" يمثـل واحدا من أظهر المبادئ التـي تحكـم دبلوماسـية القـارة الأوربية. وفي ظل هذا المبدأ – والذي عرف أيضـا بمبـدأ "الشرعية" – كانت السيادة تُمثل خاصة من خصائص الملوك الشخصية، وكان مصير المدن والأقاليم – بسكانها – يتقـرر تبعا لمصير أصحاب العروش وإراداتهم [٤]. وكانت الدولـة

---

[٣] تتعين الإشارة إلى أن لفظة "القومية" – في اللغة العربية – مشـتقة من كلمة القوم، ويقصد بهذه الكلمة "الجماعة مـن النـاس الـذين يقومون قومة رجل واحد للقتال، وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال إلا إذا تحقق لأعضاء هذه الجماعة قدر كبير من التجـانس والتضـامن ووحدة المشاعر". نقلاً عن صوفي أبو طالب في:

- محمد طه بدوي وآخرون، المجتمع العربي والقضية الفلسطينية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٦٨.

[٤] محمد طه بدوي – ليلى أمين مرسي، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٧.

تتمثل في شخص الملك، وهي تُعد ملكًا خالصا له وتخضـع لمشيئته خضوعا مطلقًا لا يتقيد بأي قيـد، حتـى أن لـويس الرابع عشر ملك فرنسا كان يقول "أنا الدولة". لقد كان يحـق للملوك – بمقتضى مبدأ الشرعية – أن يتصرفوا في الأقـاليم الخاضعة لهم تصرفًا مطلقًا مثلمـا يتصـرف الأفـراد فـي الأراضي والعقارات المملوكة لهم، كما كان يحق للملوك أن يهدوا بعض المقاطعات الخاضعة لإمرتهم إلى ملوك آخرين، أو يبادلوا هذه المقاطعات بمقاطعات تابعة لممالـك أخـرى. كذلك فقد كانت أقاليم الممالك خاضعة لقوانين الإرث وأنظمة الصداق وغيرها من التقاليد الموروثة من القرون الوسـطى. وعلى ذلك فكثيرا ما كانت الممالـك تتوسـع، أو تـتقلص، أو تنضم إلى بعضها البعض، أو تنفصل عن بعضها البعض حسب أهواء الملوك ورغباتهم، أو من جراء أية تغيرات قـد تطرأ على أحوالهم الشخصية من زواج وتوارث ووفاة، وكل ذلك علاوة على ما كان يكتسبه الملوك من حقوق من خـلال ما يخوضون غماره مـن حـروب أو مـا يعقدونـه مـن معاهدات[5].

---

[5] انظر في هذا المضمون:

وإبان الحقبة المذكورة كان الناس يعتقـدون أن الملـوك يحكمون البلاد بتفويض وتخويل من ا ، ويستمدون حقوقهم وسلطانهم من مشيئته، وبالتالي فإنه يتعين على رعايا الدولة أن يطيعوا أوامر الملك كما يطيعون أوامر ا . وهكذا فقـد انتشر هذا الاعتقاد بين الناس وتغلغل في نفوسـهم، وبـات يشكل واحدا من المبادئ العامة التي يتـولى رجـال الـدين تلقينها في المعابد خلال مختلف التعاليم والطقوس [٦]. وكأثر لمبدأ حق العروش في تقرير مصائر الشعوب – بمضـمونه المتقدم – نجد أن ألمانيا – على سبيل المثال – كانت – خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر – مقسمة إلى ما يربـو على ثلاثمائة وستين وحدة سياسية مسـتقلة عـن بعضـها استقلالاً تاما. وقد بدأ عدد هذه الوحدات يتناقص شيئًا فشـيئًا حتى وصل إلى مائتين وثمانية وأربعين وحدة سـنة ١٨٠٣، فإلى تسع وثلاثين وحدة سنة ١٨١٥، فخمس وعشرين وحدة

- أبو خلدون ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ٥٤.

[٦] المرجع السابق، ص ٥٥.

سنة ١٨٧١ [٧]، وهو العام الذي شـهد جمـع شـتات هـذه الوحدات في دولة ألمانية واحدة على النحو الذي سنعرض له لاحقًا.

وجملة القول في شأن ما تقدم أن مبدأ حق العروش فـي تقرير مصائر الشعوب – بمضمونه المتقدم – قد ساد لعقـود طويلة خلال الحقبة السابقة على حلول القرن التاسع عشـر. بيد أنه مع قيام الثورة الفرنسية عـام ١٧٨٩ راح المجـال ينفسح لعدد من مبادئ جديدة مناقضة تماما لمبـدأ الشـرعية القديم فيما يتصل بحقوق الشعوب والأمـم. "فلقـد ارتبطـت الثورة الفرنسية بفكرة الحقوق الطبيعيـة National rights نقلاً عن فلاسفة العقد السياسي، وهي الفكرة التي بزغت في القرنين السابع عشر والثامن عشر في فكر كل من جون لوك الإنجليزي وجان جاك روسو الفرنسـي. وارتباطـًا بفكـرة الحقوق الطبيعية هذه جاءت الثورة الفرنسية – متـأثرة فـي ذلك بفكر روسو بالذات – بمفهوم سياسي جديد هو مفهـوم القومية Nationalism. ومن هنا فإن البعض يرى أن فكـر

---

[٧] أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القوميـة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ٢٧.

روسو لم يكن له أبلغ الأثر على الثورة الفرنسية فحسب وإنما كان له كذلك عظيم الأثر على الأفكار المتعلقة بفكرة القومية في القرن التاسع عشر، ولا سيما تلك الأفكار التـي قامـت الوحدتان الإيطالية والألمانية إعمالاً لها" [٨].

ولقد كان من أظهر المبادئ التي ارتبطـت بهـا الثـورة الفرنسية – باعتباره واحدا من الحقوق الطبيعية – مبدأ حـق الشعوب في تقرير مصائرها، وذلك بطبيعة الحـال كبـديل لمبدأ حق العروش في تقرير مصائر الشعوب. وقد صـاحب هذا المبدأ الجديد – مبدأ حق الشعوب في تقرير مصائرها – ذيوع مبدأ آخر جديد هو مبدأ القوميات أو ما يعرف كـذلك بالمبدأ القومي، "ومؤدى هذا المبدأ الاعتراف لأبنـاء الأمـة الواحدة بالحق في تنظيم كيانهم القومي وتحقيق شخصـيتهم القومية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا على وجه الاستقلال عن غيرهم من الأمم" [٩].

---

[٨] بصدد مساهمات روسو الفكرية فيما يتصل بفكرة القومية، انظر:

- Carr. E. H. and others, Nationalism, Oxford University Press, London, ١٩٣٩, p. p. ٢٥ – ٣٤.

[٩] انظر في هذا الصدد: صوفي أبو طالب، مرجع سـبق ذكـره، ص ١٧١، وكذا:

وعلى الرغم من ارتباط المبدأ القومي بمبدأ حـق تقريـر المصير فإن ثمة اختلافًا بين المبدأين قوامه: "أن مبـدأ حـق تقرير المصير يشير إلى حق كل جماعة بشرية في أن تحدد مصيرها السياسي سواء بالانفصال عن الدولة التـي تنتمـي إليها وإنشاء دولة مستقلة تضمها، أو حتى بالانضـمام إلـى دولة أخرى. ويرتكز هذا الحق على الإرادة الشعبية الحـرة دون تقييدها سلفًا بضرورة وجود روابط موضـوعية بـين أفراد الجماعة كروابط اللغة أو التاريخ أو غيرها" [١٠]، وذلك على عكس المبدأ القومي الذي كان يقضي بضرورة الجمـع بين الوحدة القومية (الأمة) والوحدة السياسية (الدولة)، فـلا تقوم وحدة سياسية على أكثر من أمـة ولا تتـوزع الأمـة الواحدة بين عديد من دول.

- Weigall, David and Murphy, Michael, European History, BPP Letts Educational, London, ١٩٩٣. P. ٣١.

[١٠] انظر نفس المرجع السابق.

ومهما يكن من أمر ذلك التبـاين بـين مضـمون مبـدأ القوميات ومضمون مبدأ حق تقرير المصير فقد اعتمد أنصار القومية – منذ القرن التاسع عشر – على حق تقرير المصير في تبرير حق الأمم في تنظيم كيانها القومي على النحو الذي ترتضيه. وهكذا اختلط المبدآن ببعضهما، فأصبح حق تقرير المصير لا يقتصر على حق الشعب فـي تقريـره مصـيره السياسي، وإنما اتسع ليشمل حق الأمة في تقرير مصـيرها السياسي وإقامة دولة تجمع شمل شتاتها [١١].

وجملة القول في شأن ما تقدم أنه قد صاحب قيام الثـورة الفرنسية ذيوع عدد من مبادئ جديدة تتصل بحقوق الشعوب والأمم. وقد تمثل أظهر هذه المبادئ في مبدأي "القوميـات" و"حق تقرير المصير". ومن هنا فإننا نتفق مع الرأي القائـل "بأن الثورة الفرنسية هي التي علمت العالم معنى القومية"[١٢] غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن غزوات نابليون لأراضي أوربا – غداة نجاح الثورة الفرنسية – قد انحرفت عن مبادئ

---

(١١) في هذا المضمون انظر: صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٢.

(١٢) Kohn, Hans, The age of Nationalism, Harper & Prothers, Publishers, New York, ١٩٦٢, p. ٣.

هذه الثورة. ففي سبيل تكوين إمبراطورية واسـعة تجـاوز نابليون عن مبادئ الثورة الفرنسية – وعلى رأسـها المبـدأ القومي – إلى حد أنه نصب ملوكًا على دول لا تربطهم بهـا أية روابط بل ويجهلون لغات شعوبها، كما جمع في الدولـة الواحدة شعوبا تتنافر لغة وحضارة، وضم بعض الأراضـي إلى فرنسا. بيد أن الغزو الفرنسي لأراضـي أوربـا ألهـب شعور أبنائها في التخلص من الاحـتلال، وعمـق الفكـرة القومية في نفوسهم. وما كادت أوربا تتحـرر مـن جيـوش نابليون- على إثر هزيمته – حتى انهارت الحكومات والدول التي أقامها، واستمرت الشعوب الأوربية تلح في تنفيذ مبدأي حق تقرير المصير والسيادة الشعبية وما يؤديان إليه من إقامة الدولة على أساس قومي، فضلاً عن تقييد سلطات الملوك[١٣].

وفي عام ١٨١٥ – وعلى إثر اندحار جيـوش فرنسـا – انعقد مؤتمر في فيينا بغية إعادة تنظيم أوربا بعد الأعاصـير التي أثارتها والانقلابات التي أوجدتها الحـروب النابليونيـة الطويلة. غير أن مقررات فيينا جاءت – في جملتها – مخيبة

---

(١٣) انظر في هذا المضمون: صوفي أبو طالب، مرجع سـبق ذكـره، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

لما كانت تتطلع إليه شعوب أوربا من طموحات قومية. ذلك بأن المؤتمرين في فيينا لم يعيروا مطالب الشعوب في تقرير المصير والسيادة الشعبية أي اهتمام. فبدلاً من إقرار هـذين المبدأين، أكد المؤتمرون تمسكهم بمبدأ حق العـروش فـي تقرير مصائر الشعوب (مبدأ الشـرعية)، وبالتـالي إعـادة الأمور في أوربا إلى ما كانت عليه قبل قيام الثورة الفرنسية، وتوزيع الشعوب بين ملوكها القدامى. وقد أعقب مؤتمر فيينا عدة مؤتمرات استهدف الملوك من خلالها اتخـاذ إجـراءات موحدة لإخماد الحركات القومية وغيرهـا مـن الحركـات الثورية في شتى بقاع القارة الأوربية. وقد تمخضـت هـذه المؤتمرات عن عقد الاتفاق المعروف ببروتوكول تروبـاو، وبمقتضى هذا الاتفاق فإن الدول التي تتغير حكوماتها نتيجة لثورة تفقد عضويتها في الحِلف الأوروبـي، كمـا أعطـى البروتوكول للدول الموقعة عليه حق التدخل المسـلح ضـد الثورات لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل اندلاع هـذه الثورات [١٤].

---

[١٤] راجع في هذا الصدد:

- المرجع السابق، ص ٢٠٣.

وهكذا فقد انتهى مؤتمر فيينا – وما تبعه من مؤتمرات – بانتصار أصحاب الحقوق الشرعية القُدامى، وإعـادة مجـد العروش القديمة (الحقوق الشرعية) وذلك بطبيعة الحال على حساب حقوق الشعوب. بيد أن هذه المؤتمرات لم تكد تنتهـي حتى بات الإيمان راسخًا في قلوب شـعوب أوربـا جميعـا بوجوب إقامة الرباط السياسي (الدولة) على أساس من الرباط الطبيعي (الأمة). إنه مبدأ القوميات الذي يقضي بضرورة أن تأتي الوحدة السياسية (الدولة) متوجة للوحدة الطبيعية التـي تربط أبناء الأمة الواحدة، وبالتالي فلا بد من أن تكون الدولة قومية. وبطبيعة الحال فقد أصبح مؤدى هذا الإيمان الجديـد أن أضحى أمرا بغيضا لدى شعوب العصر أن ترى الأمـة الواحدة أبناءها مبعثرين بـين وحـدات سياسـية متفرقـة، أو خاضعين لسلطان أجنبي، أو مكرهين على الاتحـاد مـع أبناء أمة أخرى تحت نير سلطان سياسي واحد [15].

- أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سبق ذكره، ص ٩.

[15] محمد طه بدوي – محمد طلعت الغنيمي، دراسات سياسية وقومية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٣، ص ١٠٢، ١٠٣.

ولقد ساعد على ترسيخ الفكرة القومية في نفوس الشعوب الأوربية وزكي الجهاد في سبيلها اعتباران هما [١٦]:

١- سياسة الكبت التي حبكها المؤتمرون فـي فيينـا، والتي كان مؤداها كبت الأفكار الحرة ومن بينهـا فكرة القومية، وقمع كل حركة في سبيلها لحسـاب مبدأ الحقوق الشرعية، فلقد تمخض هذا الكبت عن انفجار ملأ جو القرن التاسع عشر كله برذاذ فكـرة القومية فراحت تنتشر كالنار في الهشـيم لتغطـي شتى أصقاع القارة الأوربية، ولم يعـد أصـحاب الحقوق الشرعية (الأوتوقراطيون) قادرين على قمع حركات المؤمنين بمبدأ القوميات، الأمر الذي كـان له أبلغ الأثر في التمكين للحركات القومية.

٢- إحساس بعض الأمم التي وقعـت فريسـة للغـزو النابليوني – وعلى رأسها ألمانيـا – بـأن تفتتهـا السياسي هو الذي مكّن هذا الغزو منها، ولكي يؤمن أبناء هذه الأمم بأنه لا سبيل إلى تفادي مثـل هـذا الغزو في المستقبل إلا باتحاد قومي يجمع شـتات الأمة ويقوي من شوكتها سياسيا.

---

[١٦] المرجع السابق، ص ١٠٣، ١٠٤.

وتأسيسا على ما تقدم ففي أعقاب مؤتمر فيينا تكونت فـي شتى أرجاء أوربا جمعيات سرية تدعو إلى العنف والثـورة في سبيل تحقيق الوحدة السياسية القومية، وأدى ذلـك إلـى التفاف القوى القومية حول إحدى الدويلات القوية (كبروسـيا في ألمانيا وبيدمونت في إيطاليا) واتخاذهـا مقـرا ومنطلقًـا للحركة القومية، وسرعان ما انضمت إلى هذه الدويلة بقيـة الدويلات استجابة للمشاعر القومية [(١٧)].

وجملة القول في شأن ما تقدم أن فكرة القومية قد بلغـت درجة من الرسوخ في أذهان الشعوب – إبان القرن التاسـع عشر – أضحت معها بمثابة زي القرن، ومـن هنـا جـاء وصف القرن التاسع عشر بأنه قرن القوميات Century of Nationalism؛ حيث ظهرت خلاله الفكرة القومية في أوربا مرتبطة بحق الشعوب في تقرير مصيرها، وبالتالي جـاءت بمثابة الثورة على الحقوق الشرعية القديمة (حقوق العروش)

[(١٧)] راجع بصدد هذه الحركات:

- صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، من ص ٢٠٣ إلى ص ٢٠٧.
- Kohn, Op. Cit., P. P. ٩ – ١٢.

مستهدفة الوحدة السياسية بالنسبة لأبناء الأمة الواحـدة مـن أجل القوة [١٨].

وكنتيجة لمبدأ القوميات – بمضمونه المتقدم – طرأ علـى أوضاع أوربا السياسية – خلال القرن الذي أعقـب مـؤتمر فيينا لعام ١٨١٥ – من التطورات والانقلابات ما لم يسـجل التاريخ مثيلاً له في أي عهد من العهود الغابرة [١٩].

فإبان الحقبة المذكورة ظهرت أغلب الدول القوميـة فـي أوربا. وإذا كانت هذه الدول قـد نشـأت كثمـرة مباشـرة لانتصارات حربية أو ثورات شعبية أو لاعتبـارات متعلقـة بالتوازن الأوربي وتحالف الدول الكبرى فـإن ثمـة حقيقـة كبرى لا سبيل إلى إنكارها قوامها أن استقرار الوعي القومي ورسوخ الإيمان بالقومية كان بمثابة القلب النابض فـي كـل الحركات القومية؛ إذ تبعث جميعها من هذا الإيمـان عاملـة على أن تستند الوحدة السياسية إلى وحدة طبيعية، فلا تفتيـت

---

(١٨) محمد طه بدوي – طلعت الغنيمي، مرجع سبق ذكـره، مـن ص ١٠٣ إلى ص ١٠٧.

(١٩) أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سبق ذكره، ص ٩.

لوحدة الأمة الواحدة لحساب سيادات سياسـية مختلفـة، ولا سيطرة أجنبية، ولا إكراه على اتحاد سياسي بين أبنـاء أمـم مختلفة لا تصدق رغبتهم فيه. ومن هنا فقد أتـت الحركـات القومية بثمارها في أوربا عن طريق التفتيـت أو التماسـك أو الانفصال. فمن خلال التماسك (بالاتحاد) ظهرت دولتـان كبيرتان (ألمانيا وإيطاليا)، وعن طريق التفتيـت بـالتحرير أو الانقسام أو الانفصال ثم التجمع – وفي مدى مائـة عـام تقريبا من تاريخ انعقاد مؤتمر فيينا ١٨١٥ – تـم انفصـام الرباط السياسي بين (بلجيكا وهولندا) و(السويد والنـرويج)، و(النمسا والمجر) وغيرها، وتم تحريـر اليونـان وبلغاريـا ورومانيا وألبانيا من التبعية لسيادة تركيا. وبعامل التحـرر، ثم الالتئام ظهرت دول جديدة كيوغسلافيا وتشيكوسـلوفاكيا، وبعثت بولندا التي كانت مقسمة بين روسيا والنمسا [٢٠].

---

[٢٠] راجع في هذا الصدد:

محمد طه بدوي، طلعت الغنيمي، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٤، ١٠٥.

صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٢، ١٧٣.

ولعل من أبرز الوحدات القومية التي ظهرت في القـرن التاسع عشر (قرن القوميات) الوحدتين الألمانية والإيطاليـة، وكذا الوحدات التي ظهرت في منطقة البلقان. لذا فإننا نـرى أنه من مقتضيات التأصيل التاريخي لفكرة القومية أن نعرض بإيجاز لكل من هذه الوحدات.

أولاً: الوحدة الألمانية [٢١]:

لقد كانت ألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر – كما سبق أن أشرنا – في حالة شبيهة بإقطاعيات القرون الوسطى، ذلك بأنها كانت مقسمة إلى عدد كبير من الدول والدويلات والمدن الحرة. وكان الحكم يعود في بعضها إلى رؤساء دينيين وفي بعضها الآخر إلى رؤساء زمنيين، وكان بين هؤلاء الرؤساء ملوك وأمراء ودوقات وجراندوقات، وكان – إلى جانب ذلك كله – ثمة مدن حرة عديدة مستقلة في إدارة شئونها ومتمتعة

---

[٢١] انظر بصدد الوحدة الألمانية:

Weigall & Murphy, Op. Cit., pp. ٨١ – ٨٢.

وأيضا: نور الدين حاطوم، حركة القومية الألمانيـة، معهـد البحـوث والدراسات العربية، ١٩٧١.

بسيادة تامة في أمورها الداخلية والخارجية. وعلى الرغم من وجود مـا يسـمى بالإمبراطوريـة المقدسـة إلا أن هـذه الإمبراطورية كانت لا تتمتع بأية سلطة حقيقية، فكانت كـل واحدة من الوحدات السياسية الكبيرة والصغيرة مستقلة فـي شئونها استقلالاً تاما؛ حيث كان لكل منها حكومـة خاصـة وجيش خاص وقوانين خاصة. وباستثناء مملكة بروسيا كانت جميع الوحدات الألمانية – على كثرتها – شديدة الضعف من جميع الوجوه السياسية والعسكرية [٢٢].

ومع اعتلاء نابليون سدة الحكم في فرنسا وسعيه إلى بناء إمبراطوريته كان من الطبيعي – في ظل ظروف التفكك التي كانت تعانيها ألمانيا – أن تتجـه أطماعـه إلـى الأراضـي الألمانية، فما أن دانت له السيطرة على هذه الأراضي حتـى شرع في تمزيق أوصال الدول أو الدويلات الألمانية الجنوبية المتصلة بنهر الراين؛ حيث ألحق قسما منها بفرنسـا إلحاقًـا مباشرا، وكون من قسم آخر منها مملكة جديدة أطلق عليهـا اسم مملكة وستفاليا ونصب أخيه جيروم ملكًا عليها، ثم كون

---

[٢٢] أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨.

اتحادا من بعض الدويلات الألمانية عـرف باتحـاد الـراين وأعلن نفسه حاميا على هذا الاتحاد، وفي أعقاب ذلـك قـام نابليون بمهاجمة بروسيا ودحر جيوشها في موقعة (يينا)، ثم زحف إلى برلين واستولى عليها، وفصل عن مملكة بروسيا أكثر من نصف أراضيها، كما فرض عليها غرامـة ماليـة باهظة ورقابة عسكرية قاسية. وفوق ما تقدم فقد جعل مـن ألمانيا الشمالية قاعدة للاستعدادات العسكرية التي كان يقـوم بها لغزو روسيا، كما جند مئات الآلاف مـن الألمـان فـي الحروب ضد روسيا [٢٣].

---

[٢٣] انظر في هذا الصدد:

المرجع السابق، ص ٣٠.

Featherstone, H. L., A Century of Nationalism, Thomas Nelson and Sons LTD, London. ١٩٣٩, p.p. ٥٧ – ٧٤.

ولقد كان لاكتساح نابليون الأراضي الألمانية أبلغ الأثـر في نفوس الألمان؛ إذ باتوا يدركون تمام الإدراك أن فقـدان الوحدة القومية هو السبب فيما أصاب بلادهم، ونظرا لـذلك فقد امتلأ جو القرن التاسع عشر فـي ألمانيـا علـى وجـه الخصوص بفلسفة القومية والعصبية الجنسية وسيادة الجـنس الألماني ورسالته السامية التي تقع على عاتقه نحو البشـرية بأسرها [٢٤]. ولقد سرى هذا التيار القومي في نفوس الألمان بسرعة كبيرة واستثار – بوجه خاص – همم رجـال الفكـر والسياسة ودفعهم إلى العمل عملاً متواصلاً في سبيل تخليص البلاد من ربقة السيطرة الفرنسية، وقد تمثـل مركـز هـذه المساعي والحركات في بروسيا التي اجتمع فيها كبار رجال الفكر والأدب والسياسة من جميع أنحاء ألمانيا، وتضـافروا على خلق روح جديدة في البلاد [٢٥].

---

[٢٤] محمد طه بدوي – طلعت الغنيمي، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٢.

[٢٥] أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سابق، ص ٣٠.

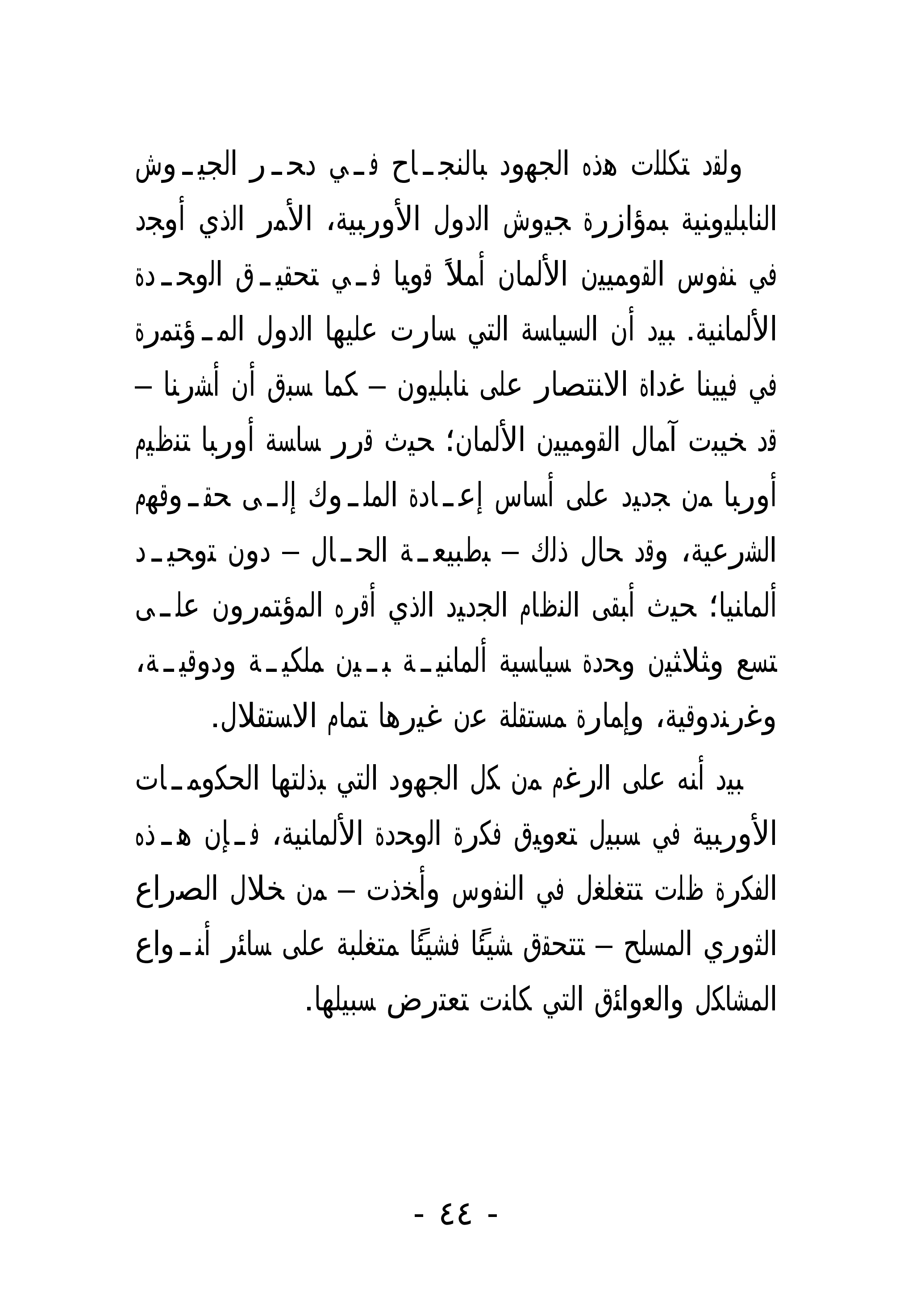
ولقد كان "فيخته" إمام دعاة القومية الألمانية وسمو الجنس الألماني [٢٦]؛ إذ عمد فيخته إلى نشر هذه الفكرة من خـلال الخطب والمقالات وإلقاء الدروس والمحاضرات، ومن هنـا فقد تمكن فيخته وغيره من المفكـرين مـن اسـتثارة روح التضحية وتقوية نزعة الاتحاد في النفوس. كما أخذ رجـال السياسة يقدمون على إجراء إصلاحات إداريـة واجتماعيـة لتهيئة السبيل أمام حركات الاستقلال والوحدة، وذلك فضـلاً عما قام به رجال الجيش من إعادة تنظيم الحيـاة العسـكرية على أُسس جديدة. وهكذا فإن الجهود التي بذلها رجال الفكر والسياسة والجيش في بروسيا على إثر كارثة "يينـا" كانـت تستهدف هدفين أساسيين هما: تخليص البلاد الألمانيـة مـن النير الفرنسي من ناحية، وتوحيدها سياسيا وعسـكريا مـن جهة أخرى [٢٧].

---

[٢٦] كذلك كان هيجيل من المبرزين من بعد فيخت في هـذه الناحيـة، وذلك في كتابه "فلسفة التاريخ" الذي نشر عام ١٨٣٧.

انظر في هذا الصدد: محمد طه بدوي – طلعت الغنيمي، مرجـع سبق ذكره، ص ١٠٢.

[٢٧] أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سبق ذكره، من ص ٣١ إلى ص ٣٥.



ولقد تكللت هذه الجهود بالنجاح في دحر الجيوش النابليونية بمؤازرة جيوش الدول الأوربية، الأمر الذي أوجد في نفوس القوميين الألمان أملاً قويا في تحقيق الوحدة الألمانية. بيد أن السياسة التي سارت عليها الدول المؤتمرة في فيينا غداة الانتصار على نابليون – كما سبق أن أشرنا – قد خيبت آمال القوميين الألمان؛ حيث قرر ساسة أوربا تنظيم أوربا من جديد على أساس إعادة الملوك إلى حقوقهم الشرعية، وقد حال ذلك – بطبيعة الحال – دون توحيد ألمانيا؛ حيث أبقى النظام الجديد الذي أقره المؤتمرون على تسع وثلاثين وحدة سياسية ألمانية بين ملكية ودوقية، وغرندوقية، وإمارة مستقلة عن غيرها تمام الاستقلال.

بيد أنه على الرغم من كل الجهود التي بذلتها الحكومات الأوربية في سبيل تعويق فكرة الوحدة الألمانية، فإن هذه الفكرة ظلت تتغلغل في النفوس وأخذت – من خلال الصراع الثوري المسلح – تتحقق شيئًا فشيئًا متغلبة على سائر أنواع المشاكل والعوائق التي كانت تعترض سبيلها.

وهكذا فقد ألف الدين الجديد (القومية) بين ثلاثمائة وستين ولاية ألمانية كانت لا تزال متمايزة حتى نهاية القرن الثـامن عشر، وما أن حل عـام ١٨٧١ حتـى انـدمجت الخمـس والعشرون وحدة – التي كان قد آل إليهـا حـال الثلاثمائـة والستين ولاية – في دولة اتحادية واحدة، ثم آل بها الأمر – بدافع ذات المحرك – في سنة ١٩٢٣ إلـى دولـة بسـيطة موحدة. إن هذا المحرك (القومية) هو الذي دفع أمراء تلـك الوحدات السياسية المتمايزة إلى قبول زعامة بروسيا بعد أن رسخ الإيمان بالقومية في قلوب أبناء الأمة الألمانية جميعـا على اختلاف تبعياتهم السياسية. وإذا كانت شخصية بسمارك وانتصار بروسيا على فرنسا في حرب سنة ١٨٧٠ قد هيـأ السبيل للوحدة الألمانية فإن الدين الجديد (القومية) هو الـذي نفخ من روحه في هذه الوحدة، فقد كان من معجزاتـه فـي القرن التاسع عشر أن تجمع أبناء الأمة الألمانية جميعا فـي اتحاد سياسي واحد بعد أن ظلوا لحقب طويلة مبعثرين بـين ذلك الرماد من الوحدات السياسية، وتلك هي غايـة الـدين الجديد [٢٨].... إنها الدولة القومية.

---

[٢٨] محمد طه بدوي – طلعت الغنيمي، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥.

ثانيا: الوحدة الإيطالية [٢٩]:

لقد تجلت المعجزة الثانية من معجـزات الـدين الجديـد (القومية) – إبان القرن التاسع عشر – في توحيـد إيطاليـا. ولقد كان الإيمان بالرباط المقدس فيما بين الإيطاليين والـذي قوامه وحدة اللغة ووحدة التاريخ – هـو جـوهر حركتـي التحرير (من السيطرة الأجنبية) والتوحيد السياسي. وقد كان أبناء الأمة الإيطالية مبعثرين بين عدد كبيـر مـن وحـدات سياسية متمايزة يقع بعضها تحت سيطرة دول أجنبية. لـذلك كان لا بد – لكي تتحقق غاية الدين الجديد (أي الوحـدة) – من حركتين تسيران جنبا إلى جنب، إنهما حركتـا التحريـر والتوحيد. وإذا كانت الظروف قد هيأت لهـاتين الحـركتين جهود زعماء قوميين ككافور وغاريبالدي ومعاونات حربيـة من الخارج بدوافع دبلوماسية كمساعدة فرنسـا وبروسـيا – لاعتبارات متصلة بالتوازن الدولي آنذاك – فإن التخلص من السيطرة النمساوية وتوحيد الولايات الإيطالية كانا بحق ثمرة

---

[٢٩] انظر بصدد الوحدة الإيطالية: نور الدين حاطوم، حركة القومية الإيطالية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١. وكذلك لنفس المؤلف: تاريخ الحركات القومية، الجزء الأول، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧.

إيمان أبناء الأمة الإيطالية بالدين الجديد (أي القومية)، ذلـك الإيمان الذي دعا الجمهوريين بزعامة غاريبالدي في الجنوب إلى التخلي بنفس راضية عن مراكزهم للملكيين في الشـمال تمكينًا للوحدة. وهكذا فقد كان الإيمان بالـدين الجديـد (أي القومية) هو الدافع إلى الوحدة الإيطالية في البداية والمتـوج لحركاتها في النهاية [٣٠].

ثالثًا: الوحدات القومية في منطقة البلقان:

لقد كانت البلاد البلقانية – في أوائل القرن التاسع عشر – تابعة برمتها للسلطان العثماني، وذلك على الرغم من أن هذه البلاد كانت موطنًا لشعوب وقوميات عديدة متباينة؛ حيث كان هناك اليونان والبلغار والصرب والألبان والبوشناق والبوماق والأفلاق والأتراك، وهي شعوب تُمثل قوميات متعددة تختلف فيما بينها اختلافًا كبيرا من حيث اللغة والدين والتاريخ [٣١].

---

[٣٠] انظر بصدد الوحدة الإيطالية كذلك:

- محمد طه بدوي – طلعت الغنيمي، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥، ١٠٦.

[٣١] أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٧، ٥٨.

وفي ظل هذه الأوضاع تجلـت المعجـزة الثالثـة مـن معجزات الدين الجديد (القومية) على البقاع البلقانية؛ إذ كان لا بد من أن ينفخ هذا الدين من روحه في تلك البقاع، الأمر الذي كان لا بد وأن يتمخض عن اندلاع الثورات التحريرية والانفصالية في صفوف الشعوب البلقانية في طـول البقـاع وعرضها. وقد انقشع غبار هذه الثورات عـن خمـس دول قومية هي اليونان ورومانيا ويوغسلافيا وبلغاريا وألبانيا [٣٢].

وإذا كانت هذه الحركات قد زكاها وهن الدولة المتبوعـة وتدخل الدول الكبرى، فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارهـا مفادها أن انتشار الوعي القومي بين أبناء الشعوب البلقانيـة، ورسوخ إيمانهم بالقومية كانا الدافع المحرك لتلك الحركات. وعلى سبيل المثال فقد جاء في البيان الذي أصدره المـؤتمر اليوناني سنة ١٨٢٢ بإعلان الاستقلال: "إن الحـرب التـي نخوضها اليوم هي حرب القومية المقدسة، وغايتها اسـترداد حقوق الأمة المهضومة وضمان كرامتها" [٣٣].

---

[٣٢] محمد طه بدوي – طلعت الغنيمي، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٦.

[٣٣] نفس المرجع السابق.

مصير الفكرة القومية خلال القرن العشرين:

باندلاع الحـرب العالميـة الأولـى نشـطت الأبحـاث والمناقشات والدعايات ذات الصلة بقضايا القوميات إلى حـد كبير. ذلك بأن الحلفاء عندما أصدروا تصريحاتهم المتعلقـة بأغراض الحرب أعلنوا أنهم سيعملون بمبـدأ حـق تقريـر المصير، وبالتالي فإنهم سيعملون علـى تحريـر الشـعوب الخاضعة للسيطرة الأجنبية ومساعدة هذه الشعوب في تكوين دول خاصة بها [٣٤].

وغداة انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولـى أكـد الرئيس الأمريكي ويلسون على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، وذلك في ثنايا نقاطه الأربع عشرة، وقد كان مـن شأن ذلك أن ظهرت دول جديدة كبولنـدا وتشيكوسـلوفاكيا والمجر، كذلك فقد تكرر تأكيد حق الشـعوب فـي تقريـر مصيرها في تصريح الأطلنطي أثناء اشتداد رحـى الحـرب العالمية الثانية، وفي الإعلان الصادر عن اجتماع يالتا فـي

---

[٣٤] أبو خلدون ساطع الحصري، حول القومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ٢٠٣.

أواخر سنين الحرب المذكورة. وفضلاً عن كل ما تقدم فقـد ورد مبدأ حق تقرير المصير بارزا في المادة الأولـى مـن ميثاق الأمم المتحدة باعتباره إحدى دعائم العلاقات الدوليـة التي يسعى الميثاق إلى إنمائها على أساس ودي [٣٥].

هذا ولا يزال عالمنا المعاصر يزخر بالحركات العرقيـة التي تعمل – مرتبطة بمبدأ حق تقريـر المصـير – علـى الانفصال عن الدولة التي توجد بها وإقامة دولة مستقلة تضم أبناء أمتها، ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك الحركة العرقية في جنوب السودان، والحركة العرقية الكرديـة، والحركـة العرقية في إقليم كيبيك الكندي، وغيرها من الحركات التـي سنعرض لها – بإذن ا – في القسم الثاني من هذا الكتاب.

وجملة القول في شأن ما تقدم فإن الفكرة القومية – ومـا تمخضت عنه من مبادئ – لم تمت بانقضاء القـرن التاسـع عشر (قرن القوميات)، ذلك بأن هذه الفكرة لا تزال راسـخة في ضمير العديد من الأمم والشعوب التي ما برحت تسـعى بدأب إلى بلوغ غايتها المتمثلة في الحصول على حقها فـي تقرير مصيرها.

---

[٣٥] أحمد سويلم العمري، أصول العلاقات السياسية الدوليـة، مكتبـة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٩، ص ٥٧٦.

المبحث الثاني
في التعريف بمفهومي "القومية" و"الأمة"

بصدد التعريف بمفهوم القومية – بادئ ذي بدء – يمكن القول بأن التعريفات التي قدمت في هذا الصدد قد تعددت بتعدد الباحثين الذين عنوا بهذا المفهوم. وعلى سبيل المثال فثمة من يرى أن القومية "تعني بمفهومها العام ميلاً أو شعورا بالانتماء إلى جماعة حضارية معينة، ورغبة في التجمع والترابط لتحقيق غايات وأهداف مشتركة في ظل إحساس عام بوحدة المصير" [٣٦].

وثمة من يقول بأن للقومية مفهومين أحدهما اجتماعي والآخر سياسي؛ حيث يبرز المفهوم الاجتماعي كيان القومية باعتبارها رابطة تربط الفرد بكائن اجتماعي يتحد أفراده في اللغة والتاريخ والثقافة والمصالح المشتركة، ويتمثل هذا الكائن الاجتماعي في الأمة. أما المفهوم السياسي للقومية –

---

[٣٦] إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٧١، ص ٩٧.

تبعا لهذا الاتجاه – فهو ينصرف إلى أن القومية هي عقيـدة سياسية قوامها الشعور القومي الذي يدفع أبناء الأمـة إلـى الاعتقاد بأنهم مجموعة بشرية متمايزة عـن غيرهـا مـن الجماعات، لها كيانها الذاتي وتطلعاتها القومية، كما أن لهـا الحق في أن تنتظم في وحدة سياسية مستقلة عن غيرها، وأن تنظم كيانها القومي تنظيما اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا بمـا يحقق شخصيتها القومية [٣٧].

وفي كتابه "قوة الأمم The Might of Nations" يعرف جون ستوسنجر John Stoessinger القومية بأنهـا وعـي تجمع بشري ما بمصيره المشترك وماضيه الواحد ورؤيتـه المستقبلية الموحدة [٣٨].

---

[٣٧] صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ١٧١.

[٣٨] Russett, Bruce & Starr, Harvey, World Politics, Themenu for choice, Second Edition, W. H. Freeman and Company, New York, Oxford, ١٩٨٥, p. ٤٧.

ويعرف هنسلي Hinsley القومية بأنها حالة عقلية – في ظلها – يصبح الولاء السياسي للفرد متجها لأمته [٣٩].

ولعل من أكثر التعريفات شمولاً وأوسعها إحاطـة بكنـه القومية ذلك التعريف الذي قوامه أن القومية تعنـي مجـرد التعبير عن ذات الأمة في مجال جماعـة الأمـم (الجماعـة الإنسانية الشاملة)، وهي من الداخل تعبير عن إحساس الفرد بارتباطه بالحياة المشتركة بمفاهيمها وأساليبها التي تخـتص بها أمته، وهو إحساس يؤدي إلى تضامن أبناء الأمة تضامنًا طبيعيا بما يستتبعه من تقييد الأنانية الفرديـة تقييـدا ذاتيـا مصدره ذات الفرد من أجل صالح الجماعة [٤٠].

وتُمثل القومية – بمفهومها المتقدم – صورة مـن صـور التمايز داخل الجماعة الإنسانية الكبرى، وهي تعتمـد علـى مجموعة خصائص واقعية تتوفر لمجموعة بشرية معينة تُولد لدى أفرادها إحساسا مشتركًا بالتجانس فيما بينهم وتميـزهم عما عداهم، ومن هنا فإن القومية تُمثل مبـدأ مـن مبـادئ

---

(٣٩) Hinsley, F. H., Nationalism and The International System, Hodder and Stoughton, London, ١٩٧٣, P. ١.

(٤٠) محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

التمايز الاجتماعي [٤١]. ذلك بأن ارتبـاط الدولـة الحديثـة بعناصرها البشرية على أساس ترابط هذه العناصر فيما بينها برباط القومية؛ قد أكد لظاهرة التمايز القديمة التي ارتبطـت بقيام المجتمعات السياسية، والتي كان مؤداها الارتياب فـي كل الذين يقيمون وراء حدود الإقليم، أو في كل من يأتي من ورائه على اعتبار أن الأصل فيهم أنهم أعداء. فلقـد أكـدت ظاهرة الدولة الحديثة لتلك النظرية القديمة على أساس مـن معيار القومية، ففي إطار إقليم الدولة ثمة وطنيون يرتبطـون فيما بينهم وبين الدولة برباط سياسي دعامته القومية. وهـو يؤدي بهؤلاء إلى مراكز قانونية وسياسـية معينـة بحقـوق وواجبات متبادلة بينهم وبين الدولة، فهم حين يبلغـون سـنًا معينة مواطنون، وفيمن عدا هؤلاء من المقيمين على إقلـيم الدولة أجانب في مراكز سياسية وقانونية مختلفة تماما عـن مراكز المواطنين الذين طالما سموا أيضا بالرعايا أي رعايا السلطة السياسية [٤٢].

---

[٤١] المرجع السابق، ص ٤٩.

[٤٢] المرجع السابق، ص ٤٤، ٤٥.

وتتعين الإشارة هنا إلى الاختلاف بين مفهومي "الوطنية" و"القومية"، فالحق أن الوطنية والقومية تُمثلان نزعتين من أبرز النزعات التي تربط الفرد بالجماعة وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها، ويضحي في سبيلها، غير أن مفهوم الوطنية يشير إلى حب الوطن، أو إن شئنا إلى ارتباط الفرد بإطاره الإقليمي، ومن يقطنه من أفراد، وما يسوده من نظام، وبالتالي يكون ولاء الفرد لوطنه. والشعور الوطني غريزة طبيعية تدفع الإنسان إلى التعصب للوطن والتضحية في سبيله، وهو شعور لازم الإنسان منذ انضمامه إلى غيره من بني البشر في حياة مشتركة مستقرة. أما فيما يتصل بمفهوم القومية فهو يشير إلى حب الأمة؛ أي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تُعرف اصطلاحا بالأمة، وبالتالي فإن الشعور القومي يعد حديث العهد؛ إذ ظهر بظهور فكرة القومية، وكذلك فإن ثمة اختلافًا بائنًا بين الشعور الوطني والشعور القومي؛ إذ يقتصر الأول على الوعي بمشاكل الدولة التي ينتمي إليها الشخص، أما الشعور القومي فينصرف إلى مشاكل الأمة وتطلعاتها القومية [٤٣].

---

[٤٣] انظر في هذا الصدد:

وجملة القول في شأن التعريف بمفهوم القومية أنه يشـير إلى حالة من الأحاسيس النفسية المشتركة؛ تولد لدى أفـراد الأمة الرغبة في الحياة المشتركة.

أما فيما يتصل بمفهوم الأمـة فقـد تعـددت – أيضـا – التعريفات بصدده، فبادئ ذي بدء نجد أن العديد من الكُتاب – وبالذات الأنجلوسكسون – لا يجدون حرجـا فـي اسـتخدام لفظتي أمة Nation ودولة State كلفظتين مترادفتين، فالأمة لدى هذا الاتجاه – شأنها في ذلك شأن الدولـة – ليسـت إلا كيانًا يتمتع بالاستقلال Independence ينطوي على تجمـع بشـــري Population، وإقلـــيم Territory، وحكومـــة Government [٤٤].

صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠، ١٧١.

أبو خلدون ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣.

[٤٤] انظر في هذا الشأن:

Roskin, Michael G. & others, Political Science, an introduction, Fourth Edition, prentice – Hall International, Inc., ١٩٩١, pp. ٢٧ – ٣١.

والحق أن هذا الخلط بين مفهومي الأمـة والدولـة فـي التعريف السابق يعد أمرا غير مقبول، ذلك بأنه لـيس ممـا يحتاج إلى بيان أن ثمة اختلافًا بائنًا بين المفهومين، فالعوامل المهيئة لقيام الدولة تتمثل فـي التجمـع البشـري والإقلـيم والسلطة السياسية، وهنا تختلف الأمة عن الدولة؛ حيـث إن توافر ركني التجمع البشري والإقليم يعـد أمـرا ضـروريا لوجود كل منهما، وعلى حين يقتضي قيام الدولة وجود ركن ثالث هو السلطة السياسية فإن هـذا الـركن لا يعـد مـن مقتضيات وجود الأمة. كذلك فإنه من الـلازم أن يتجـانس أفراد التجمع البشري المكون للأمة بينما لا يشترط التجـانس في شعب الدولة [٤٥]، ذلك بأن الدولة قد تكون قاصرة علـى أمة واحدة إعمالاً لمبدأ القوميات، كما قد تضم الدولة الواحدة عديدا من أمم وذلك حال الاتحاد السوفييتي السابق، وذلك كله فضلاً عن أنه قد توجد أمة بدون دولة مثل الأمـة البولنديـة أثناء الحرب العالمية الثانية [٤٦].

---

[٤٥] في هذا المعنى، انظر: صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٩.

[٤٦] إبراهيم أحمد شلبي، علم السياسة، دراسة في قواعـده الأصـولية وضوابطه النظرية، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٨.

ومن جانب آخر فإن ثمة من يعرف الأمة بأنهـا جماعـة بشرية متجانسة في الجنس واللغة والدين [٤٧]. ويـرد هـذا الرأي الترابط القومي إلى مجرد معايير موضـوعية بحتـة وهو أمر لا يستقيم مع الواقع. ذلك بأن من شأن الأخذ بهـذا الرأي نفي صفة الأمة عن التجمع البشري الأمريكي والتجمع البشري السويسري، وذلك نظرا لانحدار كليهما من أصـول عرقية مختلفة. وفي رأينا فإنه ليس بمقدور أحـد أن ينكـر وجود أمة سويسرية (وكذا أمة أمريكيـة) يتجـانس أفـراد تجمعها البشري من خلال وحدة المصالح والرغبة في الحياة المشتركة، وذلك على النحو الذي سنعرض له لاحقًا في ثنايا عرضنا لمقومات القومية في المبحث التالي.

وفي كتاب له نشـر عـام ١٩١٤ بعنـوان "الماركسـية والمسألة القومية" يعرف ستالين الأمة بأنها جماعة مسـتقرة من البشر تكونت تاريخيا من جراء وحدة اللغـة، والأرض، والحياة الاقتصادية، ووحدة التكوين النفسي التي تتجلى فـي

---

[٤٧] نفس المرجع السابق.

وحدة الثقافة [٤٨] ويؤخذ على هذا التعريف مـا أخـذ علـى التعريف السابق من إغفاله لدول عامل "الرغبة فـي الحيـاة المشتركة" في خلق الأمم.

وفي رأينا فإن التعريفات التالية تقترب شيئًا فشيئًا من كنه الأمة:

يعرف مانتشيني Mancini الإيطالي الأمة بأنها مجتمـع طبيعي من البشر يرتبط بعضه ببعض مـن خـلال وحـدة الأرض والأصل والعادات واللغة، فضلاً عن اشتراكه فـي الحياة وفي الشعور الاجتماعي [٤٩].

ويرى كابور Kapoor أن الأمة هي: "جماعة من الناس يجمعهم إحساس واع نابع من تراث ثقافي مشـترك وتطلـع مشترك إلى العيش معا في دولة مستقلة، ويلزم أن تسـتحوذ هذه الجماعة في صورة الأمة على الولاء السياسي والنهائي للأفراد المكونين لها" [٥٠].

---

[٤٨] أبو خلدون ساطع الحصري، ما هي القومية؟، مركـز دراسـات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٤٣.

[٤٩] المرجع السابق، ص ٣٥.

[٥٠] نقلاً عن: محمود إسماعيل محمد، دراسات في العلـوم السياسـية، مكتبة الإمارات – العين – الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص ٤٩.

وثمة رأي آخر قوامه أن الأمة هي "جماعة مـن البشـر تجمعهم وحدة نفسية (يعبر عنها بالوعي القومي)، وأهـداف مشتركة (يعبر عنها بالتطلعات القومية) تتولد عن اتحـادهم فيما بينهم في عدة عناصر كاللغة والتاريخ والثقافة... إلـخ، ويستأثرون بإقليم معين يمارسون فيه سيادتهم (يعبـر عنهـا بالسيادة الشعبية) بوضع تنظـيم معـين لكيـانهم السياسـي والاجتماعي والاقتصادي (يعبر عن هذا التنظيم بالأيديولوجية القومية)، وتتكون الأمة على مدى أجيال ولذا توصف بأنهـا ظاهرة اجتماعية حضارية" [(٥١)].

والحق أنه يؤخذ على هـذا التعريـف غمـوض بعـض المفاهيم واستخدام بعض العبارات غير الاصطلاحية وذلـك حال عبارة "السيادة الشعبية".

وأخيرا فإن أستاذنا الدكتور محمد طه بدوي يقدم تعريفًـا للأمة قوامه أنها: "مجموع الأفراد من سلف وخلف على مدى الأجيال الذين يشتركون في الإحساس بصفات واحدة تفضـي إلى حالة الضمير القومي، فيشكلون تبعا لذلك وحدة جماعيـة

[(٥١)] صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٨، ١٦٩.

تشعر بتميزها إزاء ما عداها من الجماعات الإنسانية، وبما تنطوي عليه من روابط وواجبات يحكمها الضمير القومي، تتمثل أكثر ما يكون فيما يفضي إليه هذا الضمير من تضامن القوميين فيما بينهم من أجل إزكاء الشعور القومي، والدفع به نحو تطلعاته الذاتية" [٥٢].

وتتميز كل أمة عن غيرها من الأمم بعدة سمات يعبر عنها اصطلاحا بعبارة "الطابع القومي". وتشير هذه العبارة إلى مجموعة التقاليد والمصالح والمثل العليا التي تسود أمة ما فتصبغ عقلية أبنائها وتفكيرهم وطرائق حياتهم وسلوكهم بطابع معين يميزهم عن غيرهم من أبناء الأمم الأخرى. فتقاليد الجماعة هي التي تربط الأمة بماضيها وتراث الأسلاف، ذلك بأن التقاليد هي عبارة عن مجموعة من أنماط السلوك التي توارثتها الجماعة وأنزلتها من نفسها منزلة القيم الثابتة التي لا تحيد عنها، والتي تعتبر أن في التمسك بها والحفاظ عليها ضمانًا لوجود الجماعة وتعبيرا عن ذاتها. أما عنصر المصلحة فهو يمثل حاضر الأمة، وهو يشير إلى كل ما يحقق للأمة وجودها، ويضمن لها تقدمها ورفاهيتها من

---

[٥٢] محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

نظم قانونية وسياسية واقتصادية تحكم علاقات أفراد الأمـة ببعضهم من ناحية، وعلاقة الأمة بغيرها من ناحية أخـرى. أما فيما يتصل بعنصر المثل العليا فهو يمثل ما تصبو إليـه الأمة من آمال وما تتطلع إليه من تقدم في المستقبل [٥٣].

وجملة القول – إذًا – أن الطابع القومي هو الذي يحفـظ على الأمة تماسكها، وتضامن أبنائها، وهو كذلك الذي يميزها عن غيرها من الأمم.

وغالبا ما ينطوي الطابع القومي على تمجيـد خصـائص الأمة والحط من قدر غيرها. وفضلاً عن ذلك فكثيـرا مـا تزعم الأمة أنها أرقى الأمم، وأنها خلقت لحمل رسالة سامية للبشرية، وهذه النزعة هي التـي دفعـت بعـض الشـعوب الأوربية إلى التسامي على غيرها من الشعوب، ولنـا فـي "عقيدة الجنس الآري" التي اعتنقها الألمان لعقـود طويلـة – لا سيما في العهد النازي – أظهر الأمثلة على ذلك [٥٤].

---

[٥٣] صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٤، ١٧٥.

[٥٤] انظر في هذا الصدد:

محمد طه بدوي – ليلى أمين مرسي، مرجع سبق ذكره، من ص ١٤٩ إلى ص ١٥١.

ومن جانب آخر فإن لكل أمـة جملـة مـن التطلعـات أو الأهداف يعبر عنها بالتطلعات أو الأهداف القومية، ومـن أبرز الأهداف القومية التي تتطلع إليها الأمم: تحقيق الوحـدة القومية، والحصول على الاستقلال، والتخلص من السـيطرة الأجنبية سواء في المجال السياسي أو الاقتصـادي أو حتـى الفكري والثقافي. كذلك فمن أبرز الأهداف القوميـة التطلـع على التفوق على الأمم الأخرى في جميع المجالات العلميـة والحربية والاقتصادية... إلخ، وعلى نحو يرفع مـن هيبـة الأمة ويزيد من كرامتها ويوسع من دائرة نفوذها [55].

وحين تتشكل الأمة (الوحدة القومية) فـي دولـة (وحـدة سياسية) تكتسب الأمة الشخصية الاعتبارية، ذلك بـأن نظـام الدولة وحده هو الذي ينقل الأمة من حالة الوجـود الجمـاعي المتمثل في مجرد الحدث إلى حالة الوجود القانوني بما يعنيـه من شخصية اعتبارية. ولهذا الاعتبار كان الالتقاء الكامل بين الدولة والأمة يمثل الصورة المثلى للدولة في فلسفة القوميـات في القرن التاسع عشر في أوربا، في معنى أن تقـوم الدولـة

---

[55] في هذا المعنى انظر، صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكـره، ص ١٧٨.

على جماعة قومية واحدة، وعلى الجماعة القومية كاملة، فـلا تقوم على عديد من قوميات، ولا تتفتت الأمة الواحدة بين عديد من دول. إن هذا الالتقاء الكامل بين الدولة والأمة هو الـذي يهيئ للتمكين لذاتية الأمة ويجعل منها شخصا اعتباريا، ومـن الدولة (بمؤسساتها) أداته العضوية المعبرة عن إرادته[٥٦].

ويسود الأمة شعور جماعي يعـرف بالشـعور القـومي (أو الوعي القومي)، وهو نوع من شعور الجماعة يؤلف بين أعضائها ويستهدف تحقيق تطلعاتها القومية، ويشمل الشعور القومي الإحساس الكامن في نفوس أبناء الأمة، والذي ينطوي على حبها والولاء لها والتمسك بلغتها وبتاريخها وبتقاليـدها. ويلاحظ أن الشعور القومي يبلغ ذروته حينما يجابه الأمة أمر جلل، وتتمثل مظاهر الشعور القومي في التباهي بما أسهمت به الأمة في تطور حضارة البشرية، وتخليد أعمال الأبطـال والموهوبين من أبنائها، وتفضيل ما هو قومي على ما عداه، والتحيز لأبناء الأمة ضد الأجانب، والولاء التام لكل القضايا القومية، والتضحية في سبيلها [٥٧].

---

[٥٦] محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.
[٥٧] صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٤، ١٨٥.

ويؤدي الشعور القومي – بمضمونه المتقدم – دورا مرموقًا في خلق الوحدة السياسية القوميـة، ذلـك بـأن انعقـاد إرادة القوميين جميعا وتصميمهم على تلك الوحدة، بدافع مـن ذلـك الشعور، هو الذي حقق الوحدات السياسية القومية الكبرى في القرن التاسع عشر (الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانيـة) [٥٨] على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه في المبحث السابق.

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن الدولة كثيرا ما تـؤدي دورا بناء في تكوين الأمة، فلا تأتي لاحقة لوجود الجماعـة القومية لتتوج وحدتها الطبيعية، وإنما تؤدي دور الناظم بـين عدة مجموعات بشرية متباينة قوميا (أصلاً ولغة... وهكذا)، وهي إذ توجه هذه المجموعات المتباينة نحو بلـوغ الغايـة المشتركة تُهيئ لعامل الرغبة في الحياة الجماعية، فيتألف من تلك المجموعات مجتمع قومي جديد تشكل تلك الرغبة عامل الترابط فيه، وذلك حال الأمـة الأمريكيـة (أمـة الولايـات المتحدة) والأمة السويسرية [٥٩] على النحو الذي سنعرض له في المبحث التالي.

---

[٥٨] محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤.

[٥٩] نفس المرجع السابق.

وجملة القول في شأن ما تقدم أن الدولة القومية تُعد بحـق الصورة المثلى للمجتمعات السياسية، ففي ظلها تتشكل الوحدة القومية (الأمة) في وحدة سياسية (دولة)، وبالتالي لا تتفتـت الأمة الواحدة بين عديد من دول، ولا تضم الدولـة الواحـدة عديدا من أمم، وإذن فلا تجميع ولا تفتيت للأمم بالإكراه. إنها الدولة القومية التي راحت تبزغ بحلول القرن التاسع عشـر في أوربا، ولكي تحل محل الإمبراطوريات التي راح نجمها يخبو ويأفل منذ ذلك الحين.

المبحث الثالث

في مقومات القومية

لقد تباينت الاتجاهات والآراء فيما يتصل بتعيين المقومات التي ترتكز إليها الأمة (مقومات القومية). والحـق أن هـذا التباين قد ارتـد – فـي بعـض الأحيـان – إلـى أسـباب موضوعية، غير أن مرجعه في أحيان أخرى كثيرة كان إلى أسباب غير موضوعية تتعلق بمصالح ونزعات الأمة التـي ينتمي إليها صاحب الاتجاه أو القائل بالرأي.

وفي إطار عرضنا لشيء من هذه الاتجاهات وتلك الآراء فإن ثمة من يرى أن المقومات التي ترتكـز عليهـا الأمـة تتمثل في [٦٠]:

١- الجوار الإقليمـي أو مـا قـد يعـرف بالإقليميـة Regionalism.

٢- وحدة اللغة Common Language.

٣- وحدة الدين Common religion.

---

(٦٠) انظر في هذا الصدد: ٤٦ - ٤٨ Russett and Starr, Op. Cit., pp.

٤- وحدة الثقافة Common Culture.

٥- وحدة نسق القيم الاجتماعيـة Common set of social rules.

٦- وحـدة الأصـل العرقـي Common ethnic background.

٧- وحدة التاريخ Common history.

وثمة رأي آخر يتمثل مقومات القومية في [٦١]:

١- وحدة اللغة.

٢- وحدة الأصل Common Origin.

٣- وحدة الدين.

٤- وجود شخصـية قوميـة متميـزة Distinctive national character.

وثمة رأي ثالث قوامه أن الرابطة القومية ترتكز إلى جملة مقومات مادية وأخرى معنوية.

---

(٦١) Carr and Others, Op. Cit. pp. ٢٥٤ – ٢٥٨.

أما المقومات المادية عند القائل بهـذا الـرأي فتتمثـل في[٦٢]:

١- عامل البيئة الجغرافيـة: حيـث يـرى المـؤرخ الإنجليزي بكل Buckle أن البيئة الجغرافية هـي التي تقرر تاريخ أية أمة من الأمم.

٢- عامل الجنس: حيث يفصل علمـاء الأحيـاء بـين الأجناس البشرية من حيث قياس الجمجمة، ونسـبة عرضها إلى طولها، ومن حيث طول القامة، ولون الشعر، والعينين.

٣- العامل الاقتصادي: وذلك علـى اعتبـار أن عـدد السكان وطرق معيشتهم عاملان يشـكلان أساسـا ماديا ذا أثر بالغ في تشكيل الشخصية القومية.

---

[٦٢] أحمد خاكي، فلسفة القومية، دار المعارف، القاهرة، بدون تـاريخ، من ص ١٨ إلى ص ٧٣.

ذلك بصدد المقومات المادية، أما فيما يتصل بالمقومـات المعنوية لدى القائل بهذا الرأي فإنها تتمثل في:

١- الحكومة من حيث نوعها ونظامها والقوانين التـي تصدرها.

٢- الدين وما له من أثر بالغ في تشـكيل الشخصـية القومية.

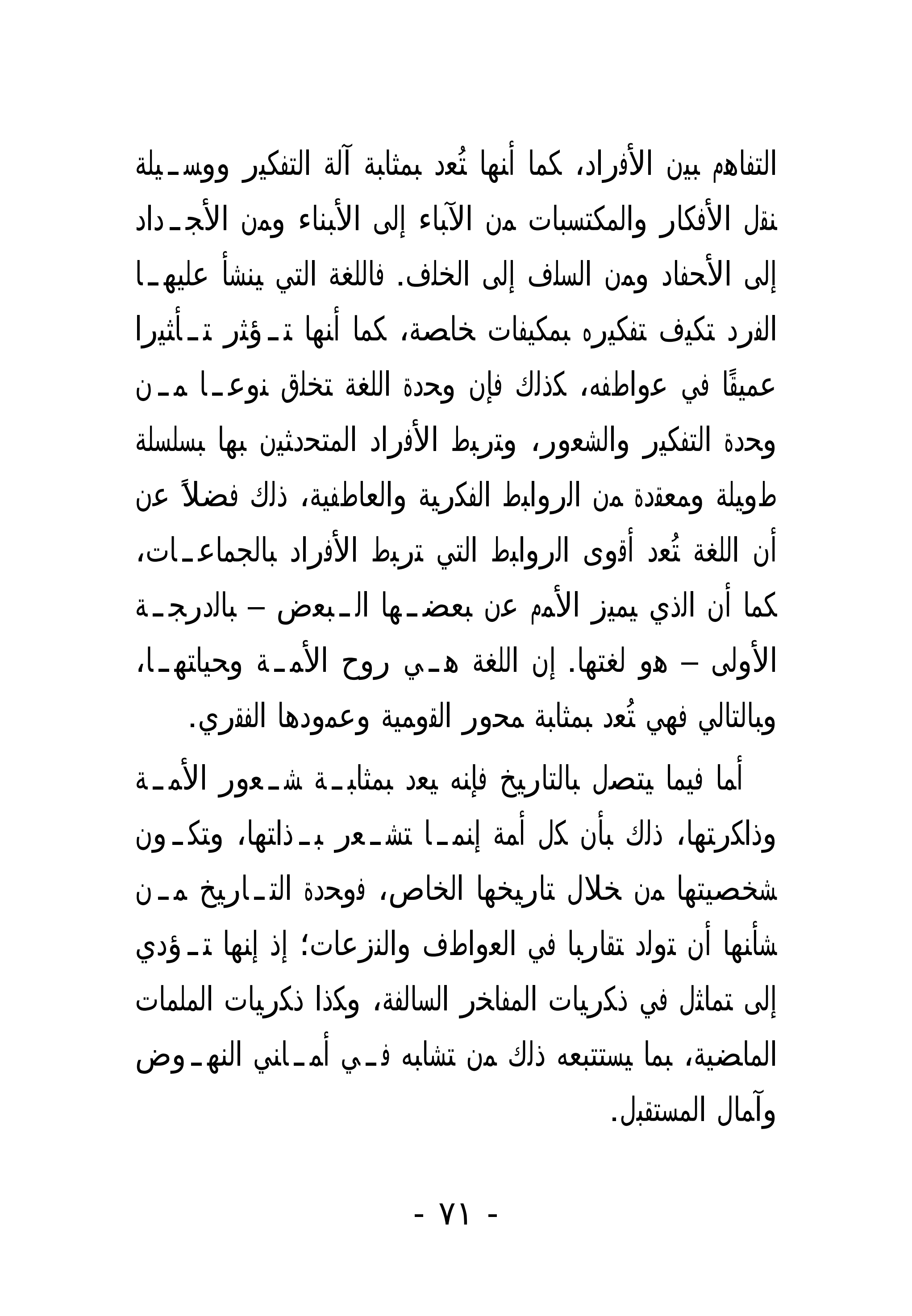
٣- عامل اللغة والأدب وما لذلك من أثر على توحيـد آراء الأفراد ومعتقداتهم وأفكارهم وطرق تفكيرهم.

٤- عامل التربية والثقافة وما لهما من أثر هـام علـى خلق الشخصية القومية بكل مقوماتها.

وفضلاً عن كل ما تقدم من آراء فإن أحد دعـاة القوميـة العربية البارزين [٦٣] يرى أن انعقاد الرابطة القومية لا بـد وأن يرتكز إلى وحدة اللغة ووحدة التاريخ. ذلك بأن اللغة – لدى القائل بهذا الرأي – تُمثل أهم الروابط المعنويـة التـي تربط الفرد بغيره من الناس، وذلك على اعتبار أنها واسـطة

---

[٦٣] أبو خلدون ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربيـة، مرجع سبق ذكره، من ص ٣٥ إلى ص ٤٠.


التفاهم بين الأفراد، كما أنها تُعد بمثابة آلة التفكير ووسـيلة نقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء ومن الأجـداد إلى الأحفاد ومن السلف إلى الخلف. فاللغة التي ينشأ عليهـا الفرد تكيف تفكيره بمكيفات خاصة، كما أنها تـؤثر تـأثيرا عميقًا في عواطفه، كذلك فإن وحدة اللغة تخلق نوعـا مـن وحدة التفكير والشعور، وتربط الأفراد المتحدثين بها بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية، ذلك فضلاً عن أن اللغة تُعد أقوى الروابط التي تربط الأفراد بالجماعـات، كما أن الذي يميز الأمم عن بعضـها الـبعض – بالدرجـة الأولى – هو لغتها. إن اللغة هـي روح الأمـة وحياتهـا، وبالتالي فهي تُعد بمثابة محور القومية وعمودها الفقري.

أما فيما يتصل بالتاريخ فإنه يعد بمثابـة شـعور الأمـة وذاكرتها، ذلك بأن كل أمة إنمـا تشـعر بـذاتها، وتكـون شخصيتها من خلال تاريخها الخاص، فوحدة التـاريخ مـن شأنها أن تولد تقاربا في العواطف والنزعات؛ إذ إنها تـؤدي إلى تماثل في ذكريات المفاخر السالفة، وكذا ذكريات الملمات الماضية، بما يستتبعه ذلك من تشابه فـي أمـاني النهـوض وآمال المستقبل.

وهكذا ينتهي صاحب هذا الرأي إلى القـول بـأن اللغـة والتاريخ هما مقوما القومية الفعليان، فالأمـة التـي تنسـى تاريخها تكون قد فقدت شعورها، وأصبحت في حالـة مـن السبات وإن لم تفقد الحياة، وبالتالي فإنه بمقدور هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومي. بيد أن الأمة إذا ما فقدت لغتها تكون عندئذ قد فقدت الحياة، ودخلت في عداد الأموات، فلا يبقى من سبيل إلـى عودتهـا إلـى الحياة[٦٤].

الاتجاهان الألماني والفرنسي بصدد مقومـات القومية:

ومهما يكن من أمر الآراء التي عرضنا لها سلفًا بصـدد مقومات القومية فإن ثمة معيارين تقليـديين للأمـة: معيـار موضوعي بحت يرد الترابط في الأمة – وبالتالي القومية – إلى مقومات واقعية حال الجنس أو اللغة أو الدين. ولقد لاقى هذا المعيار رواجا كبيرا في الفكر الألماني منذ أوائل القـرن التاسع عشر. أما المعيار الثاني – فيما نحن بصدده – فهـو

---

(٦٤) نفس المرجع السابق.

معيار ذاتي يعتمد بصفة أصلية في تحديد موطن الرباط القومي على الرغبة في الحياة المشتركة، وبالتالي فإن الأمة تعني، وفقًا له أكثر ما يكون – رابطة روحية، وهذا المعيار الذاتي يمثل الاتجاه اللاتيني عامة والفرنسي خاصة؛ إذ ينكر الفكر الفرنسي على المعيار الموضوعي صلاحيته مستندا في ذلك إلى الواقع، فالاتحاد السويسري – على سبيل المثال – يقوم على أمة سويسرية يعوزها الرباط الموضوعي (وحدة اللغة أو الدين أو الاعتقاد في الأصل البيولوجي)، بينما عنصر الترابط فيها روحي يتمثل في الرغبة في الحياة المشتركة [٦٥].

والحق أن نشأة هذين الاتجاهين اللذين نحن بصددهما قد جاءت مرتبطة بأسباب غير موضوعية (ذاتية) تتصل بالنزاع الألماني الفرنسي حول منطقة الألزاس الغنية بالفحم. فلقد كانت فرنسا – منذ عصور – تتطلع إلى التوسع شمالاً حتى نهر الراين لتضمن لنفسها حدودا طبيعية قوية، غير أن الألمان كانوا بعكس ذلك يحرصون على الاحتفاظ بنهر الراين داخل بلادهم، كما كانوا يتوقون إلى استرداد الألزاس

[٦٥] محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

من فرنسا؛ حيث كانت الألزاس مقاطعة ألمانية حتى أواسـط القرن السابع عشر، بيد أن فرنسا استولت عليها فـي عهـد لويس الرابع عشر وضمتها إلى إقليمها بمقتضـى معاهـدة وستفاليا [٦٦]، ومع ذلك فقد ظل سكان الألـزاس محتفظـين بلغتهم الألمانية وتقاليدهم الخاصة. ولقد كان القوميون الألمان يشعرون بالاستياء الشديد من جراء دخول الألـزاس تحـت حكم فرنسا، وقد عبر المؤرخ الفرنسي إدجار كينيه – آنذاك – عن ذلك بقوله: "إن معاهدة وستفاليا لا تزال تُدمي قلـوب الألمان كما تُدمي قلوبنا نحن مقررات فيينا" [٦٧]. كذلك فقـد علق زعيم الوحدة الألمانية بسمارك على احتلال الفرنسـيين للألزاس بقوله: "كلما ألقيت نظرة على خريطة أوربا ورأيت الألزاس داخلة فـي حـدود فرنسـا، وكلمـا تصـورت أن إستراسبورج تعيش تحت ظل العلم الفرنسي؛ شـعرت فـي أعماق نفسي بثورة غيظ شديدة" [٦٨].

---

[٦٦] أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤، ٤٥.

[٦٧] أبو خلدون ساطع الحصري، ما هي القومية، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠.

[٦٨] نفس المرجع السابق.

وعندما انتصرت بروسيا على فرنسا في حرب السبعين واستولت على ولاياتها الشمالية بما فيها الألزاس بفضل زعامة بسمارك وتدابيره المحكمة؛ كان من الطبيعي أن تطلب من فرنسا التنازل عن الألزاس، الأمر الذي كان من شأنه أن اشتدت المناقشات بين المفكرين الألمان ونظرائهم الفرنسيين حول أحقية ضم الألزاس، وكان من الطبيعي أن يتأثر هؤلاء المفكرون بنزعات الدولة أو الأمة التي ينتسبون إليها، ومن هنا فقد راح كل من الفريقين يقدم من الأسانيد ويسوق من الحجج ما يدعم موقف أمته. فقد كان المفكرون الألمان يقولون إن الأمة كائن اجتماعي حي يتكون بعمل اللغة والتاريخ، وينشأ نشأة طبيعية بدوافع ذاتية مثل سائر الكائنات الحية، فاللغة إنما هي العامل الأصلي في تكوين الأمة، ومن هنا يجب أن تكون كذلك العامل الأساسي في تحديد الدولة. بيد أن الفرنسيين كانوا يعارضون هذه النظرية، لأن الأخذ بها كان من شأنه أن يحول دون تحقيق تطلعاتهم في الوصول إلى نهر الراين، فتوصلوا إلى نظرية المشيئة (أو الرغبة) والتي قوامها أن الأمم إنما تتكون بمشيئة

الجماعات في العيش المشترك [٦٩]. ويقول في ذلك المـؤرخ الفرنسي فوستل دو كولانج: "قد يكون الألزاسـيون" ألمـان "باللغة، ولكنهم على كل حال فرنسيون بالنزعـة والمشـيئة، وليست فتوحات لويس الرابع عشر أو معاهدة وستفاليا هـي التي جعلتهم فرنسيين – كما يتوهم الألمان – بل هي الثـورة العظمى، تلك الثورة التي أدمجت الألزاس بفرنسا، وجعلـت الألزاسيين فرنسيين بكل معنى الكلمة، إن القومية لا تتعـين باللغة وإنما بالرغبة والمشيئة، ومن هنـا فالعدالـة تقضـي بمراعاة مشيئة الألزاسـيين وتحقيـق رغبـاتهم فـي هـذا المضمار"[٧٠].

وفي المقابل يقول المفكر الألماني مومسن: "لقد اسـتولى الفرنسيون على الألزاس بقـوة الحديـد والنـار وحكمـوا الألزاسيين منذ قرنين تحـت شـبكة تشـكيلاتهم الإداريـة والانضباطية، وخلال هذه المدة اتخذ الفرنسيون شتى التدابير لتخدير شعور الألزاسيين حتى أنسوهم تاريخهم وقـوميتهم،

---

[٦٩] في هذا المضمون انظر: أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤، ٤٥.

[٧٠] المرجع السابق، ص ٤٦.

وربما كان الألزاسيون قد فقـدوا وعـيهم القـومي لكـنهم لا يزالون "ألمان" باللغة، فمن حقنا نحن الألمان – بـل مـن واجبنا – أن نوقظ هؤلاء من سباتهم ونعيـد إلـيهم وعـيهم ونحيي شعورهم بقوميتهم" [71].

وعلى الرغم من أن مشكلة الألزاس قد حسمت بحكم القوة والغلبة بمقتضى معاهدة فرانكفـورت فـي أعقـاب حـرب السبعين فإن المناقشات المتصلة بها لم تنته بذلك. فبعد مرور أكثر من عشر سنوات على حرب السبعين قدم أرنست رينان الفرنسي نظرية عن القومية ترتبط تماما بما قدمه غيره مـن المفكرين الفرنسيين. وقد تبلورت هذه النظرية في الخطـاب الذي ألقاه رينان بجامعة السوربون في عـام ١٨٨٢ والـذي عنونه بـ "ما هي القومية؟". وقد استعرض رينان في خطبته مختلف الآراء والنظريات المتصلة بالأمة ومقوماتها، ولكـي ينتهي إلى القول بأن مقوم القومية الرئيسي يتمثل في الإرادة والمشيئة، ومن هنا فإن الأمة هي جماعة من الناس اتفقـت مشيئتهم على العيش المشترك [72]. وإذن فالرغبة في الحيـاة

---

[71] المرجع السابق، ص ٤٦، ٤٧.

[72] المرجع السابق، ص ٤٧.

المشتركة والعزم على الاستمرار فيها هما أس الأساس فـي تكوين الأمم [٧٣]، أو على حد قول رينان فـإن الأمـة هـي "روح Soul.. مبدأ روحـي Spiritual principle.. إنهـا ترتكز في وقتنا الحاضر علـى مقـوم ثابـت قوامـه إرادة واضحة معبرة عن رغبة في الحياة المشتركة" [٧٤].

وجملة القول في شأن الاتجاهين الألماني والفرنسي بصدد مقومات القومية أن ألمانيا قد تميزت بمغالاتها في الربط بين القومية وبين الجنس؛ مخالفة بذلك النزعـة اللاتينيـة التـي سادت في القرن التاسع عشر، والتي كانت ترى في القوميـة رباطًا إراديا، فأساسها رغبة الفرد في أن يحيا مع غيره فـي ظل جماعة سياسية واحدة، بينما القومية الألمانية هي قوميـة إجبارية تفرض على جميع الناطقين بلغـة واحـدة والـذين ينتمون إلى جنس واحد. واستنادا إلى ما تقدم كانت كل مـن فرنسا وألمانيا تدعي لنفسها الحق في الألزاس فهي ألمانيـة بجنسها ولغتها، وهي فرنسية برغبتها وشـعورها الـوطني.

---

(٧٣) أبو خلدون ساطع الحصري، ما هي القومية؟ مرجع سبق ذكره، ص ١٠٨.

(٧٤) Carr and others, Op. Cit., p. ٢٥٩.

وهكذا اختلفت مقومات القومية من بلد إلى بلد فهي العصبية الجنسية إذا كان ثمة سبيل إليها وإلا فهي وحدة الضمير [٧٥].

ومهما يكن من أمر الخلاف بين المعيارين الموضـوعي والذاتي بصدد مقومات القومية فإن القومية تعني في النهايـة التعبير عن الإحساس المتولد عن العناصر شبه البيولوجيـة أو النفسية لأفراد التجمع البشري. إن القوميـة هـي حالـة الأحاسيس النفسية المفضية إلى الرغبة في الحياة الجماعيـة. وهكذا يبدو المعيار الذاتي أكثر مـن المعيـار الموضـوعي تمثيلاً للصورة النهائية للقومية، وذلك مع الأخذ في الاعتبار ما تؤديه العناصر شبه البيولوجية (وحدة الأصـل أو اللغـة أو التاريخ أو الدين) من دور مرموق في كثير من الأحيـان كعناصر مفضية إلى حالة الأحاسيس النفسية [٧٦].

---

[٧٥] محمد طه بدوي، طلعت الغنيمي، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣.

[٧٦] محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكـره، ص ٤٩.

وانظر كذلك بصدد الاتجاهين الألماني والفرنسي:

صلاح الدين عبد الوهاب، أضواء على المجتمع العربـي، المؤسسـة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٣، من ص ٥٧

والحق أنه تأسيسا على ما تقدم يمكننا القـول إن العامـل المنشئ للوحدة القومية يتمثل في الرغبة في الحياة المشتركة، غير أن ثمة عوامل أخرى عديدة تُعد بمثابة العوامل المهيئة لهذه الرغبة وبالتالي للوحدة القومية، وفيمـا يلـي نعـرض لأظهر هذه العوامل بشيء من التفصيل.

العوامل المهيئة للوحدة القومية:

ويتمثل أبرز هذه العوامل في الجوار الإقليمـي، ووحـدة اللغة، ووحدة الأصل، والدين، والتاريخ المشترك:

أولاً: الجوار الإقليمي:

ليس ثمة شك في أن لعال الجوار الإقليمـي أبلـغ الأثـر كعامل مهيئ للتجانس القومي، وذلك على اعتبار أن أولئـك الذين يقطنون نفـس الإقلـيم يجـابهون نفـس المشـكلات والتحديات، الأمر الذي من شأنه أن يخلق نوعا من التجانس بينهم، فضلاً عما يؤدي إليه مـن تجـانس فـي المشـاعر والأحاسيس بين أفراد التجمع البشري، كذلك فالذين يعيشون

إلى ص ٦٤. وأيضا: إبراهيم أحمد شلبي، مبادئ القانون الـدولي العام، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٣١، ص ١٣٢.

في نفس الإقليم غالبا ما تكون لهم نفس الأنشطة الاقتصـادية نظرا لاعتمادهم على نفس الموارد، ومشاركتهم فـي نفـس أنماط النشاط، وانهماكهم في نمـط واحـد مـن التفـاعلات الاقتصادية. وليس من شك في أن لكل هذه العوامل أبلغ الأثر في توحيد نظرة أفراد التجمع البشري إلى العالم الخـارجي، وخلق جملة من المصالح المشتركة فيما بينهم (٧٧).

وفضلاً عما تقدم فإن الإقليم يؤدي دورا بارزا في تشكيل الطابع القومي، فالطبيعة الجبلية من مناخ وتضاريس تـتحكم إلى حد كبير في أنماط حياة الناس وسلوكهم وعـاداتهم بـل ونظمهم السياسية والاجتماعية. كما أن الطباع والخصـائص النفسية تتباين من بيئة جغرافية معينة إلـى بيئـة جغرافيـة أخرى، فهي في البلاد الحارة مغايرة تلك السائدة في الـبلاد الباردة، وهي في المناطق الجبلية مختلفة عنها في الصحاري والوديان (٧٨).

---

(٧٧) Russett and Starr, Op. Cit., p. ٤٦

(٧٨) صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٥.

وفوق ما تقدم فإن استقرار الجماعة في إقليم معين علـى وجه الدوام يحفظ لها كيانها وذاتيتها، كما يؤدي إلى الإبقـاء على تعلق أفراد هذه الجماعة بـإقليمهم علـى نحـو يهيـئ لتماسكهم ويوحد تاريخهم. وعلى العكس من ذلك فإن عـدم استقرار الجماعة في إقليم معين وتفرقها بين أصقاع شـتى، وبالتالي امتزاجها بجماعات أخرى، كلها أمور من شأنها أن تؤدي إلى ذوبان هذه الجماعة في الجماعات الجديـدة علـى نحو يقضي على كيانها الذاتي [٧٩]. وهكذا فمن شأن ارتبـاط جماعة ما بإقليم معين على وجه الدوام أن يؤدي إلى توحيـد تلك الجماعة داخل حدودها وتمييزهـا عـن غيرهـا مـن الجماعات القومية، أو على حد قول موير Muir: "إن الأمم البارزة في المجتمع الدولي هي التي تتمتع بأكبر قـدر مـن الوحدة الجغرافية وهي تدين بوجودها إلى هذه الحقيقة" [٨٠].

---

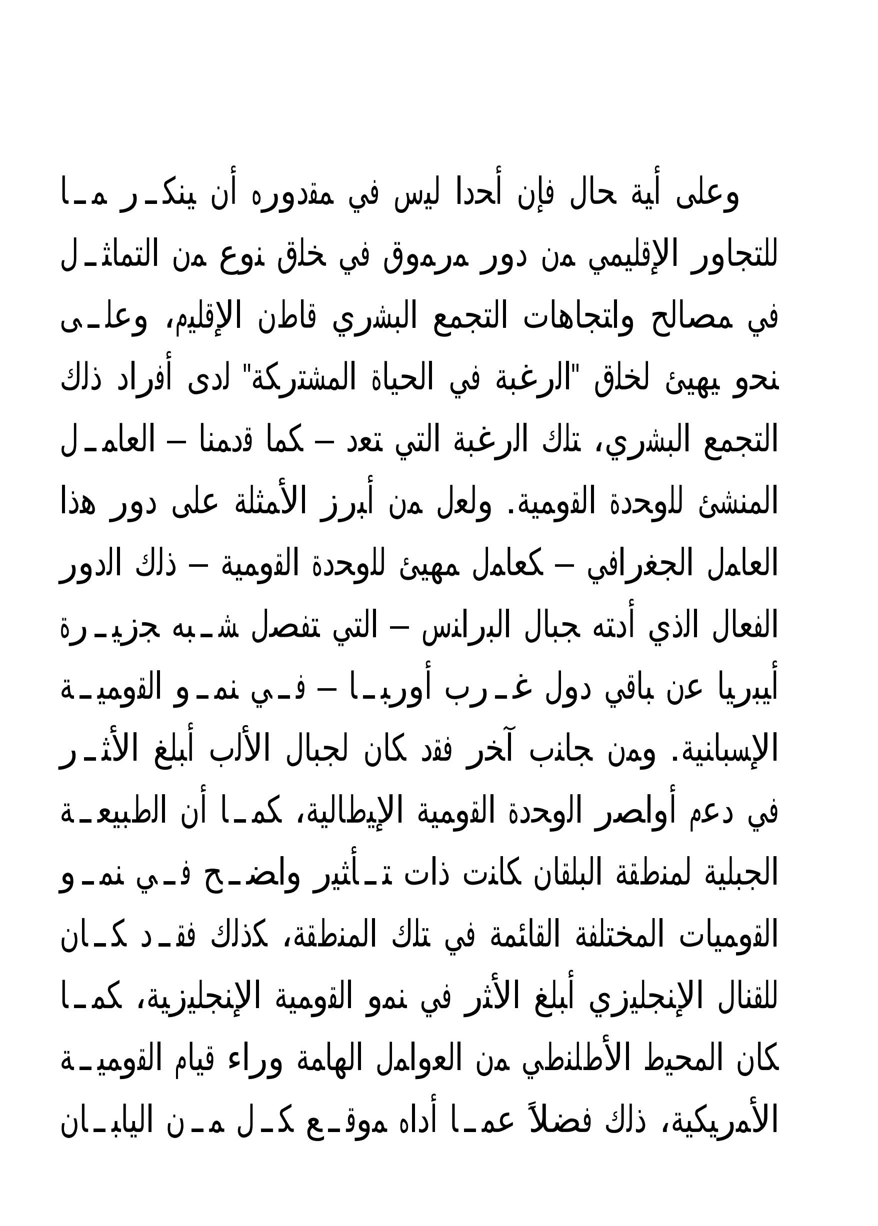
[٧٩] نفس المرجع السابق.

[٨٠] إسماعيل صبري مقلد، مرجع سبق ذكره، ص ٩٨.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن ابن خلدون يعد أول من نبه – في مقدمته في القرن الرابع عشر الميلادي – إلى أثر البيئة الجغرافية على أخلاق الناس وطبـاعهم وعـاداتهم وكذا في لون بشرتهم، ثم جاء مونتسكيو من بعد ابن خلدون بما يربو على الثلاثة قرون لكي يؤكد – في ثنايا كتابه "روح القوانين (١٧٤٨)" – على دور العوامل الطبيعية والجغرافية في تاريخ الجماعات البشرية، ولا سيما فيما يتصل بتكـوين الشعوب وخصائصها الأخلاقية والجسمانية. وعنـد المفكـر الألماني هيردر (١٧٤٤ – ١٨٠٤) فإن للبيئـة الجغرافيـة تأثيرا حاسما في تكوين الأمم وما يظهر بينها من اختلافات. وفضلاً عما تقدم فقد ظهرت في القرن التاسـع عشـر فـي إنجلترا مدرسة فكرية بزعامة مين Maine راحـت تلتـف حول مقولة مؤداها أن البيئة الجغرافية هي التي تميز الأمـم عن بعضها، كما أنها هي التي تحدد طابع أية أمة [٨١].

---

[٨١] في هذا المعنى انظر: صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤.



وعلى أية حال فإن أحدا ليس في مقدوره أن ينكر ما للتجاور الإقليمي من دور مرموق في خلق نوع من التماثل في مصالح واتجاهات التجمع البشري قاطن الإقليم، وعلى نحو يهيئ لخلق "الرغبة في الحياة المشتركة" لدى أفراد ذلك التجمع البشري، تلك الرغبة التي تعد – كما قدمنا – العامل المنشئ للوحدة القومية. ولعل من أبرز الأمثلة على دور هذا العامل الجغرافي – كعامل مهيئ للوحدة القومية – ذلك الدور الفعال الذي أدته جبال البرانس – التي تفصل شبه جزيرة أيبريا عن باقي دول غرب أوربا – في نمو القومية الإسبانية. ومن جانب آخر فقد كان لجبال الألب أبلغ الأثر في دعم أواصر الوحدة القومية الإيطالية، كما أن الطبيعة الجبلية لمنطقة البلقان كانت ذات تأثير واضح في نمو القوميات المختلفة القائمة في تلك المنطقة، كذلك فقد كان للقنال الإنجليزي أبلغ الأثر في نمو القومية الإنجليزية، كما كان المحيط الأطلنطي من العوامل الهامة وراء قيام القومية الأمريكية، ذلك فضلاً عما أداه موقع كل من اليابان

وإندونيسيا – كجزر بحرية منفصلة عن القارة الآسـيوية – من دور هام في قيام القوميتين اليابانية والإندونيسية [٨٢].

ثانيا: وحدة اللغة:

ويمثل هذا العامل واحدا من أبـرز المقومـات المهيئـة للوحدة القومية، بل ويذهب كارتلون هيز – على سبيل المثال – إلى اعتباره أبرز المقومات على الإطلاق في هذا الصدد. ذلك بأن من شأن وحدة اللغة أن تؤدي إلى تيسـير عمليـة الاتصال بين أفراد التجمع البشري، كما أنها تؤدي إلى حفظ التراث القومي المتمثل في الأدب والأخلاقيات والقيم والتقاليد والأفكار، على نحو يهيئ – في النهاية – إلى خلـق شـعور بالتجانس والتجاوب بين أفراد التجمـع البشـري ذي اللغـة الواحدة [٨٣]. ومن جانب آخر فإن اللغة تُعد بمثابة أداة لربط الأجيال الماضية بالأجيال الحاضرة بأجيال المستقبل؛ إذ من خلالها يتلقى الأفراد كل التراث الفكري للأمة [٨٤].

---

(٨٢) بصدد مضمون هذه الأمثلة انظر: إسماعيل صبري مقلد، مرجـع سبق ذكره، ص ٩٨، ٩٩.

(٨٣) في هذا المعنى انظر: المرجع السابق، ص ٩٩، ١٠٠.

(٨٤) في هذا المعنى انظر: صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٨.

وفضلاً عما تقدم فليس ثمة شك في أن اللغة المشتركة من شأنها العمل على خلق نوع من الثقافة القومية المشتركة Common National Culture، وفي المقابل فمن الصعوبة بمكان خلق ثقافة قومية موحدة دون أن تكون هناك وحدة في اللغة بين أفراد التجمع البشري. ولعل أبلغ الأمثلة على ذلك أنه على الرغم من وجود اختلاف في الثقافة بين الألمان السويسريين والألمان الذين يقطنون ألمانيا إلا أن هذا الاختلاف أقل بمراحل من الاختلاف القائم بين ألمان سويسرا وفرنسييها، كما أنه على الرغم من وجود بعض الاختلافات الثقافية بين الإنجليز والأمريكيين، فإن الأمريكيين يعتبرون أعمال شكسبير وميلتون جزءا لا يتجزأ من تراثهم الثقافي[٨٥]. وهكذا فمن شأن التجانس اللغوي أن يهيئ لخلق نوع من التجانس الثقافي بما لذلك من آثار بالغة على الطابع القومي والشخصية القومية، وكذا على التكوين الاجتماعي والسياسي للأمة، وكلها أمور من شأنها التأكيد لتميز الأمة عن غيرها من الأمم.

---

[٨٥] Carr and others. Op. Cit., p. ٢٥٥

ونظرا لذلك الدور البالغ الأثر الذي تؤديه اللغـة كعامـل مهيئ للوحدة القومية نجد أن بعض القيادات السياسية تلجـأ إلى إحياء لغات قديمة أو غير سارية إذا كان من شأن ذلـك ترسيخ التجانس القومي بين أفراد التجمع البشـري لـدولها. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك سعي القيادات الإسرائيلية المتعاقبة بكل السبل إلى إحياء اللغة العبرية، مسـتهدفة مـن وراء ذلك هدفًا قوامه صهر أولئك اليهود – المتبايني اللغـة والذين جاءوا إلى إسرائيل من شتى أصقاع البسيطة – فـي بوتقة قومية إسرائيلية موحدة [٨٦].

والحق أن استقراء التاريخ يشير إلى أن كـل الحركـات القومية التي ظهرت في أوربا في القرن التاسع عشـر قـد اعتمدت على وحدة اللغة، سواء للمطالبة بالانفصـال عـن غيرها وتكوين دولة مستقلة تقتصر على المتحـدثين بلغـة واحدة، أو للمطالبة بجمع شتات المتحدثين بلغة واحـدة فـي دولة واحدة، كذلك فإن تسويات الصلح التي تمت في أعقاب

---

[٨٦] انظر في هذا المعنى:

- Russett and Starr, Op. Cit., P. ٤٦.

الحربين العالميتين اعتمدت على اللغة كمعيار لتحديد الجماعة التي تمنح حق تقرير المصير [٨٧].

ويرى البعض أنه لولا اللغة الإيطالية – على سبيل المثال – لما كانت قد قامت للوحدة الإيطالية قائمة لا سيما في ظـل التفتت الذي كان عليه الإيطاليون في القرن التاسع عشر. كما أن بولندا مدينة في أمر حفظ كيانهـا إلـى لغتهـا بجانـب كاثوليكيتها، لأن كاثوليكيتها إن كانـت قـد اسـتطاعت أن تصونها من الاندماج في سائر البلاد السلافية ما كان يمكـن لها أن تصونها من مغبة الدمج في النمسا التي هي كاثوليكية مثلها. كذلك فإن أهمية اللغة فيما يتصل بأمور القومية تظهر للعيان بوجه خاص من حقيقة أن الحواجز اللغوية تنطبق في أكثر الأحوال على الحدود الفاصلة بـين القوميـات، ففـي الشلزفيج والهولشتاين – مثلاً – نجد أن الحدود الفاصلة بين الدانمركيين والألمان ليست الحدود السياسية؛ بل هي الحدود التي يرسمها حاجز اللغة [٨٨].

---

[٨٧] صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٨.

[٨٨] أبو خلدون ساطع الحصري، حول القومية العربية، مرجـع سـبق ذكره، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

وليس ثمة شك – تأسيسا على ما تقدم – في أن افتقاد التجمع البشري لوحدة اللغة هو أمر له تداعياته السلبية على روابط التضامن والاندماج القومي. وعلى سبيل المثال فقد أدى وجود جزء لا يستهان به من سكان كندا يتكلم الفرنسية إلى حدوث ازدواجية واضحة من الناحيتين الثقافية والحضارية تتمثل في ارتباط الكنديين الفرنسيين بالتراث الحضاري الفرنسي، في الوقت الذي يرتبط فيه الكنديون الإنجليز بالتراث الأنجلوسكسوني. وهذه الازدواجية الثقافية تُمثل عاملاً يغذي النزعات الانفصالية في كندا؛ حيث يعتقد الكنديون الفرنسيون أن لهم قومية متميزة تبرر انفصالهم في دولة مستقلة. وكمثال آخر توجد في دولة الهند أربع عشرة لغة ومئات اللهجات؛ مما يعقد من إمكانات الاتصال بين أفراد التجمع البشري [٨٩]، ويهدد التجانس القومي داخل تلك الدولة.

---

[٨٩] إسماعيل صبري مقلد، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠.

وتجدر الإشارة إلـى أن الاختلافـات اللغويـة لا تتفـق بالضرورة مع الاختلافات القومية، فأحيانًا ما نجد قوميـات عديدة تتحدث لغة واحدة، فاللغة الإنجليزية يتحدث بها عديـد من الشعوب في بريطانيـا والولايـات المتحـدة واسـتراليا ونيوزيلندا وأجزاء من كندا وجنوب إفريقيا، وغيرها، ومـع ذلك لا يمكن الادعاء بأن المتحدثين بهذه اللغة ينتسبون إلـى قومية واحدة. كذلك فاللغة الفرنسية هي لغة كل من فرنسـا وبلجيكا، والألمانية تستخدمها كـل مـن ألمانيـا والنمسـا، والإسبانية هي لغة إسبانيا وكذا معظم دول أمريكا اللاتينيـة. وفي كل هذه الحالات فإن اللغة المشتركة فضلاً عـن أنهـا تؤدي إلى زيادة الشعور بالاندماج والتجـاوب بـين أفـراد القومية الواحدة فإنها تزيل عائقًا من طريق التفاهم بين هـذه القومية وغيرها من القوميات التي تتحدث نفس اللغة [٩٠].

وهكذا – تأسيسا على كل ما تقدم – تُمثل وحـدة اللغـة واحدا من أبرز المقومات التي تهيئ للوحدة القومية.

---

[٩٠] نفس المرجع السابق.

ثالثًا: وحدة الأصل:

يرى بعض المهتمين بالقومية أن وحدة الأصل العنصري أو العرقي تُشكل الركيزة الأولى في قيام القومية، وأنه بدون التجانس السلالي في تركيب الأمة تفقد العوامل والمقومـات الأخرى فعاليتها [٩١]. والحق أن اهتمام الجماعات بأصـولها السلالية واعتزازها بهذه الأصول والتفاخر بها فيما بينها كلها أمور قديمة ترتد إلى عصور سحيقة؛ إذ كانت الجماعـات – منذ القدم – تزعم انحدارها من جد ذي صفات وخصـائص أسطورية [٩٢].

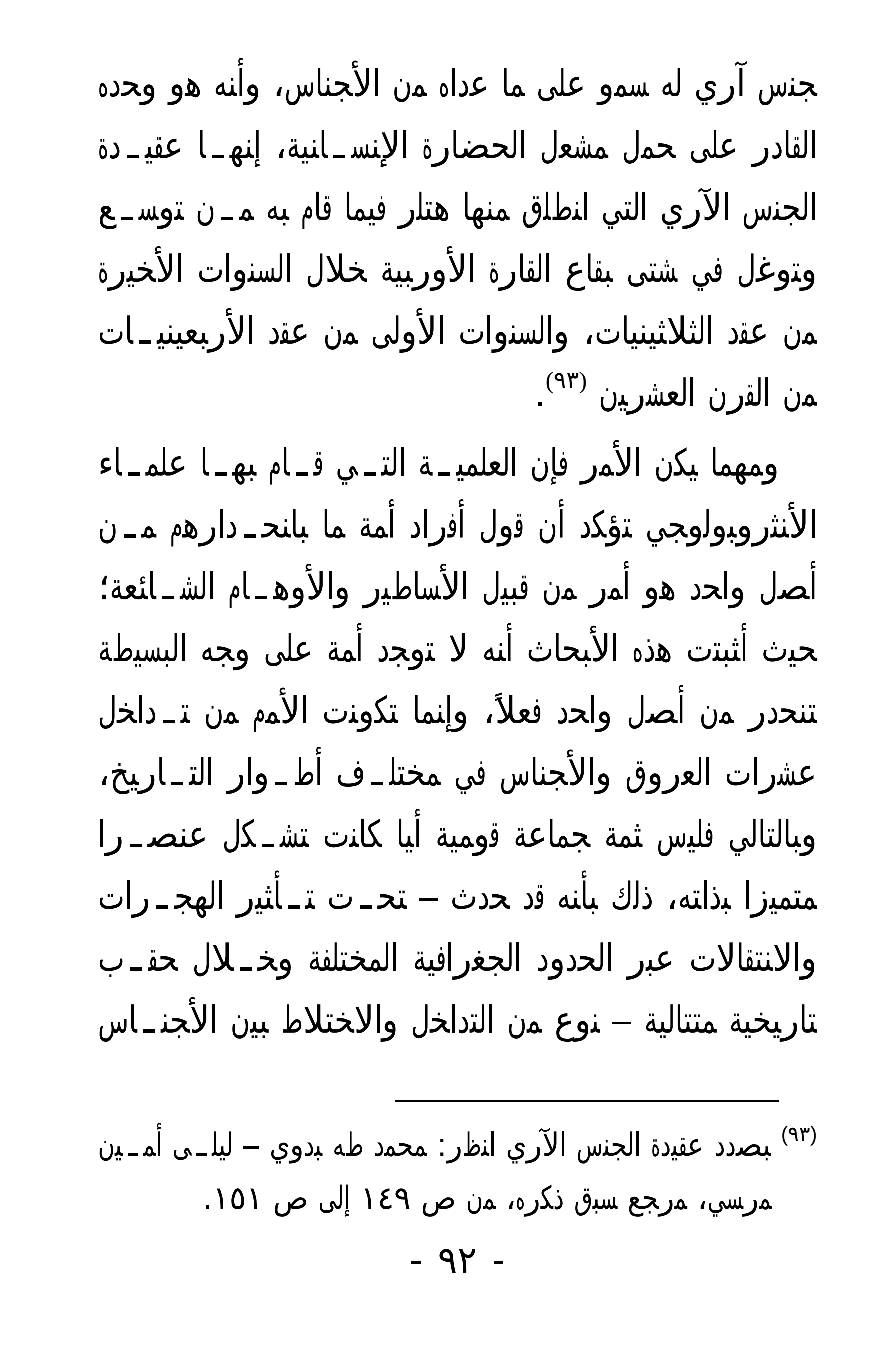
كذلك فإننا لا نعدم - في العصور الحديثة – أمثلة لأمـم راحت تزعم أنها أرقـى أمـم الأرض وأسـماها وأكثرهـا حضارة، وأنها ما خلقت إلا لتحمل علـى عاتقهـا مسـئولية الحضارة الإنسانية قاطبة، وذلك حال الشعب الألماني الـذي ظل – لعقود طويلة ولا سيما في العهد النازي – يزعم أنـه

---

[٩١] المرجع السابق، ص ٩٧.

[٩٢] انظر في هذا المعنى:

Carr and others, Op. Cit., pp. ٢٥٥ – ٢٥٦.



جنس آري له سمو على ما عداه من الأجناس، وأنه هو وحده القادر على حمل مشعل الحضارة الإنسـانية، إنهـا عقيـدة الجنس الآري التي انطلق منها هتلر فيما قام به مـن توسـع وتوغل في شتى بقاع القارة الأوربية خلال السنوات الأخيرة من عقد الثلاثينيات، والسنوات الأولى من عقد الأربعينيـات من القرن العشرين [٩٣].

ومهما يكن الأمر فإن العلميـة التـي قـام بهـا علمـاء الأنثروبولوجي تؤكد أن قول أفراد أمة ما بانحـدارهم مـن أصل واحد هو أمر من قبيل الأساطير والأوهـام الشـائعة؛ حيث أثبتت هذه الأبحاث أنه لا توجد أمة على وجه البسيطة تنحدر من أصل واحد فعلاً، وإنما تكونت الأمم من تـداخل عشرات العروق والأجناس في مختلـف أطـوار التـاريخ، وبالتالي فليس ثمة جماعة قومية أيا كانت تشـكل عنصـرا متميزا بذاته، ذلك بأنه قد حدث – تحـت تـأثير الهجـرات والانتقالات عبر الحدود الجغرافية المختلفة وخـلال حقـب تاريخية متتالية – نوع من التداخل والاختلاط بين الأجنـاس

---

[٩٣] بصدد عقيدة الجنس الآري انظر: محمد طه بدوي – ليلـى أمـين مرسي، مرجع سبق ذكره، من ص ١٤٩ إلى ص ١٥١.

إلى درجة لا يمكن معها القول بأن ثمة عنصرا يخلـو مـن شوائب الاختلاط بغيره من العناصر والقوميات [٩٤].

وعلى الرغم من كل ما تقدم فإنه ليس بمقـدور أحـد أن ينكر ما يؤديه "الاعتقاد في وحدة الأصل السلالي" مـن دور مرموق كعامل مهيئ للرغبة في الحياة المشتركة بين أفـراد التجمع البشري الذي يسوده ذلك الاعتقاد، وعلى نحو يفضي إلى ترسيخ التجانس القومي بين أفراد ذلك التجمع. وبمفهوم المخالفة فإن الاعتقاد في تباين الأصول السلالية لدى أفـراد شعب دولة ما هو أمر من شأنه أن يهيئ لظهـور حركـات عرقية انفصالية تسعى بشتى الوسائل إلـى الانفصـال عـن الدول التي توجد بها، وإنشاء دول جديدة تجمع شتات السلالة الذي قامت الحركات العرقية كتعبير عنها. ولنا علـى ذلـك العديد من الأمثلة حال الحركة العرقية الكرديـة، والحركـة

---

[٩٤] انظر في هذا الصدد:

Carr and others, Op. Cit., p. ٢٥٦.

أبو خلدون ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢، ٣٣.

إسماعيل صبري مقلد، مرجع سبق ذكره، ص ٩٧، ٩٨.

العرقية في جنوب السودان، والحركة العرقية في قبـرص، والحركة العرقية في إقليم كيبيـك الكنـدي، وغيرهـا مـن الحركات العرقية التي سنعرض لها لاحقًا.

رابعا: وحدة التاريخ:

يكاد الإجماع ينعقد بين الباحثين على أن التاريخ المشترك يعتبر عاملاً أساسيا في تكوين القومية، ذلك بأن القوميـة – كظاهرة اجتماعية – هي نتـاج تفاعـل عوامـل سياسـية واجتماعية واقتصادية وفكرية ونفسية حدثت خلال العديد من القرون، وأدت إلى دمج بعـض الجماعـات فـي بعضـها وصهرها في بوتقة واحدة فتميزت بذلك عـن غيرهـا مـن الجماعات من حيث تراثها وتقاليدها، ولا يقتصر أثر التاريخ على تكوين الأمة، بل يظهر كذلك هذا الأثر على الحركـات القومية؛ إذ كثيرا ما يعتمد القوميون على أمجاد الماضي في إشعال جذوة المشاعر القومية [٩٥]، على نحو يجعـل الأمـة تفيق من غفوتها، وتتطلب بدأب إلى الحصول على حقها في تقرير مصيرها.

---

[٩٥] صوفي أبو طالب، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٣، ٢٥٤.

ويعتبر التاريخ المشترك واحدا من أبرز العوامـل فيمـا يتصل بإثارة الشعور بالوحدة القومية، كما أن من شـأنه أن يؤكد الإحساس بالولاء والانتماء إلى قومية ما، كـذلك فـإن وحدة التاريخ تغذي الشعور بالفخر والاعتزاز بكل ما يمثلـه هذا التاريخ ويرمز إليه. وتُعد الحروب من أقوى الأحداث في تاريخ الأمم دعما للشعور القومي، ذلك بأن الحروب تُمثـل نوعا من المحن القومية التي من شأنها أن تصـهر الشـعور القومي في بوتقة من الانفعال الموحد بما يهيئ لصلابة الأمة في مجابهة التحديات الخارجية. وارتباطًا بما تقدم تحـرص الدول المختلفة على تدريس التاريخ القومي والتركيز عليه لما له من آثار إيجابية بالغة الأهمية على الترابط القومي [٩٦].

---

[٩٦] في هذا المعنى انظر: إسماعيل صبري مقلد، مرجع سبق ذكـره، ص ١٠٠، ١٠١.

خامسا: وحدة الدين:

يرى المفكر الفرنسي هنري هاوزر أن للدين دورا كبيـرا في أمور القوميات، وعلى سبيل المثال فإن كاثوليكية بولنـدا أدت دورا بالغ الأهمية في حفظ كيانها والحيلولة دون اندماج البولنديين مع سائر السلافيين المجاورين لهم، والذين هم من أرثوذكسي المذهب، كذلك فإن هذه الكاثوليكية هي التي حالت دون اندماج البولنديين مع سكان شرق ألمانيا الذين هم مـن اللوثريين. وكمثال آخر على دور الدين كعامل مهيئ للوحدة القومية وكعامل حافظ لكيان الأمم في مواجهة بعضها البعض نجد أن الأيرلنديين قد استطاعوا أن يحافظوا علـى كيـانهم بفضل اختلافهم في المذهب مع سكان الجزر البريطانية [٩٧]. كذلك فإن الكنيسة الأسكتلندية كانت بمثابة الدعامة الرئيسـية التي ارتكزت إليها وحدة الأسكتلنديين من جهة، كما أنها هي التي ميزتهم عن الإنجليز منذ القرن السابع عشر من جهـة أخرى [٩٨]. وفضلاً عن كل ما تقدم فهناك الدور الذي لعبـه

---

[٩٧] أبو خلدون ساطع الحصري، حول القومية العربية، مرجـع سـبق ذكره، ص ٢٠٥.

[٩٨] Carr and others, Op. Cit., p. ٢٥٨.

الدين في تقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتي الهند وباكستان، ذلك بأن كلا من الهندوسية والإسلام كـان يمثـل حضـارة وثقافة وفلسفة ونظاما للحياة يختلف جذريا عن الآخر، ومـن هنا فلم يكن من الميسور إذابة عوامل التناقض بـين هـاتين العقيدتين الدينيتين إلا من خلال قيام دولتين تُمثل كل منهمـا القيم والمعتقدات التي تدين بها. كذلك فهناك الدور الذي يلعبه الدين في المخططات السياسية للعقيدة الصهيونية وهو الدور الذي تبلور في إنشاء دولة إسـرائيل ارتكـازا إلـى وحـدة الدين[٩٩].

وفي النهاية فإن جملة القول في شأن مقومات القومية أنه يمكننا أن نخلص – تأسيسا على كل ما قدمنا – إلى أن قوام القومية هو رغبة تجمع بشرى ما في العيش المشترك وذلـك على تباين المقدمات المفضية إلى تلك الرغبة، وسواء تمثلت هذه المقدمات في الجوار الإقليمي وما يؤدي إليه من وحـدة المصالح بين أفراد التجمع البشري، أو وحدة اللغة أو الأصل أو التاريخ أو الدين... كلها أو بعضها، على النحـو الـذي عرضنا له سلفًا بالتفصيل.

---

[٩٩] إسماعيل صبري مقلد، مرجع سبق ذكره، ص ١٠١.

المبحث الرابع
في التعريف بالمفهوم المعاصر
للدولة القومية

وهكذا فإنه استنادا إلى كل ما تقدم يمكننا القول إن الدولة القومية لم تعد تعني في الاصطلاح ما كانت تعنيه الفلسـفات الغربية في القرن التاسع عشر من ضرورة الجمع بين الأمة الواحدة كاملة والوحدة السياسية الواحدة فـلا تتفتـت الأمـة الواحدة بين عديد من دول ولا تضم الدولة الواحدة عديدا من أمم (مبدأ القوميات)، وإنما الذي بات يعنيه اصطلاحا الدولـة القومية في عصرنا هو أن يتحقق للعنصر البشري في الدولة عامل التجانس المهيئ للوحدة الوطنية في الـداخل، وسـواء تحقق هذا التجانس من خلال وحدة اللغة أو الأصل أو وحدة اللغة والأصل معا، أو حتى بعامل وحدة المصالح وما تُهيـئ له من وحدة المصير، أو غير ذلك مما يهيئ لرغبة العنصر البشري المشكل للدولة في الحياة الجماعية الواحدة [١٠٠].

---

[١٠٠] انظر في هذا المضمون: محمد طه بدوي، النظريـة السياسـية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥.

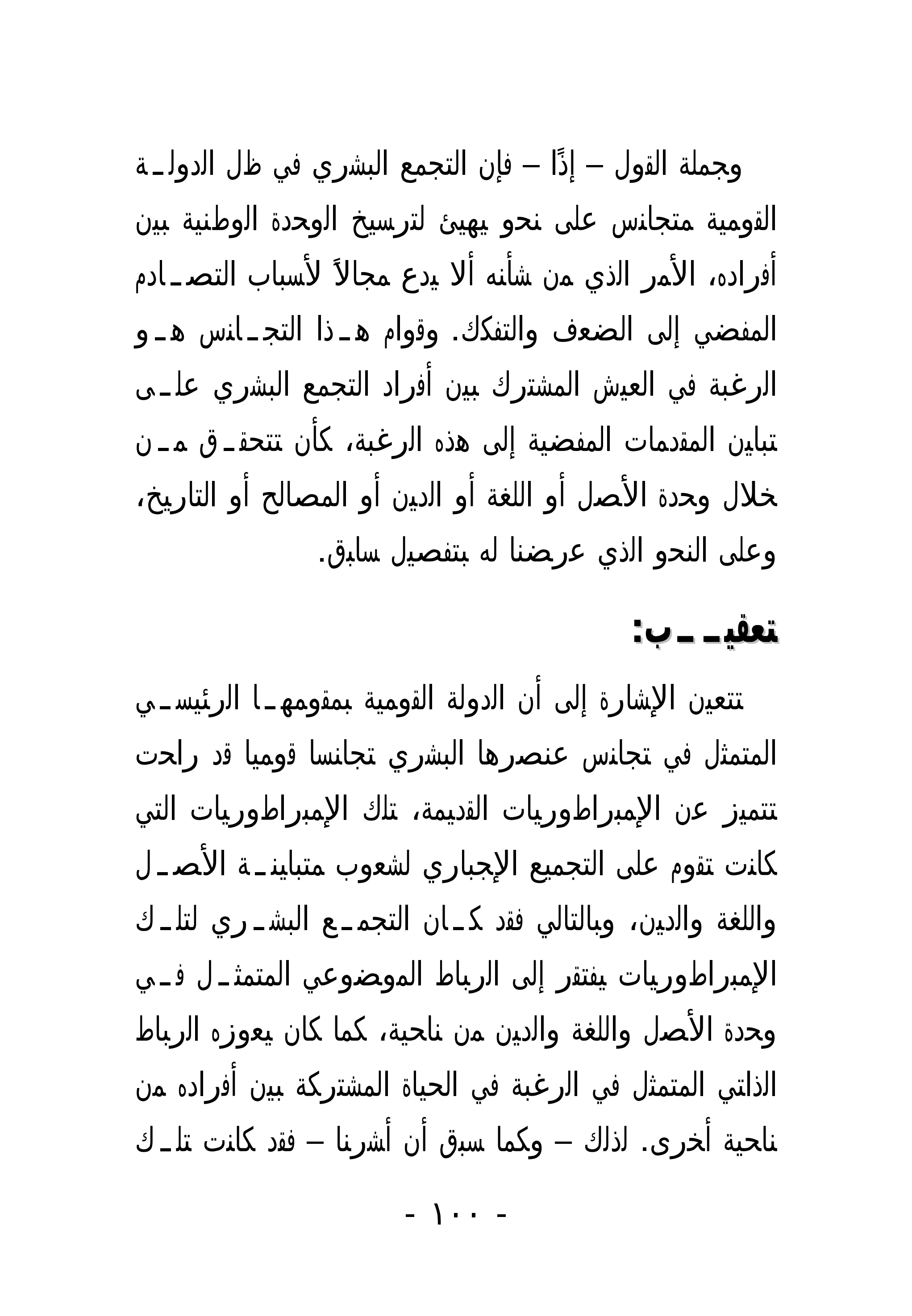
وارتباطًا بذلك فإنه لم يعد من المتعين في عصرنا بحـال لاعتبار الدولة قومية أن تضم شتى النـاطقين بلغـة واحـدة أو المنحدرين من أصل واحد، وإلا لاستبعدنا مـن وصـف الدولة القومية الولايات المتحدة، فهي وإن تجانست عناصرها البشرية (لغة إنجليزية) وانصهرت بعامل وحدة المصالح في ظل الدولة الفيدرالية، إلا أنها لا تضم شتى النـاطقين بتلـك اللغة في العالم. وكذلك الحال بالنسبة لسويسرا فهي تقوم على عناصر بشرية تنتمي إلى أجناس متباينة. فمنهـا الفرنسـيو الأصل والذين يتكلمون الفرنسية، ومنها الجرمانيو الأصـل والذين يتكلمون الألمانية، ومنها الإيطاليو الأصـل والـذين يتكلمون الإيطالية، بل وثمة مجموعة رابعة لها لغتها الخاصة (الرومانس)، وبرغم هذا التباين في الأصل واللغة فثمة قومية سويسرية يتحقق الرباط فيها بعامـل الرغبـة فـي الحيـاة الجماعية الواحدة المتولدة عن وحدة المصالح [١٠١].

---

[١٠١] انظر في هذا الصدد:

نفس المرجع السابق.

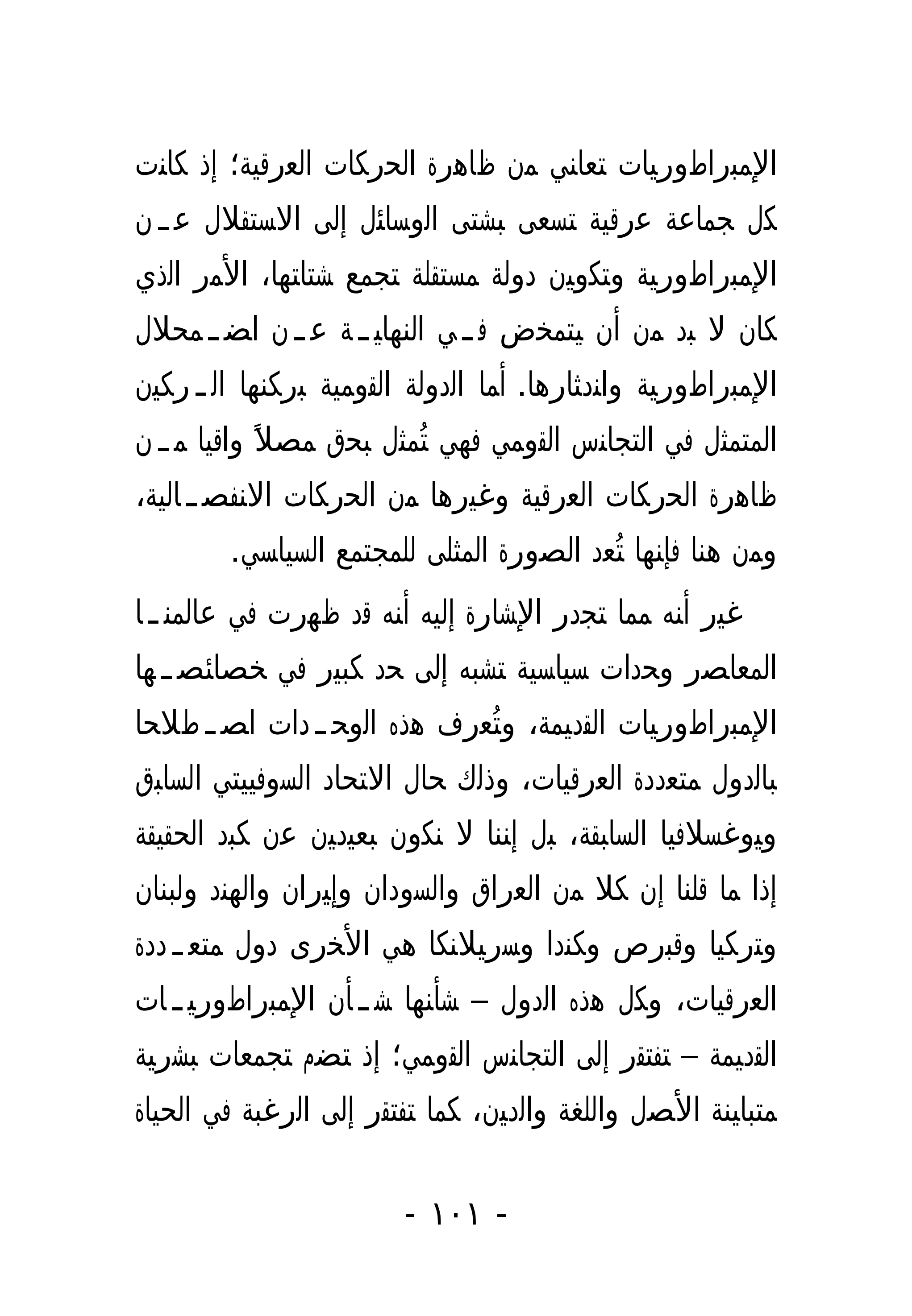
محمود إسماعيل محمد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩.



وجملة القول – إذًا – فإن التجمع البشري في ظل الدولـة القومية متجانس على نحو يهيئ لترسيخ الوحدة الوطنية بين أفراده، الأمر الذي من شأنه ألا يدع مجالاً لأسباب التصـادم المفضي إلى الضعف والتفكك. وقوام هـذا التجـانس هـو الرغبة في العيش المشترك بين أفراد التجمع البشري علـى تباين المقدمات المفضية إلى هذه الرغبة، كأن تتحقـق مـن خلال وحدة الأصل أو اللغة أو الدين أو المصالح أو التاريخ، وعلى النحو الذي عرضنا له بتفصيل سابق.

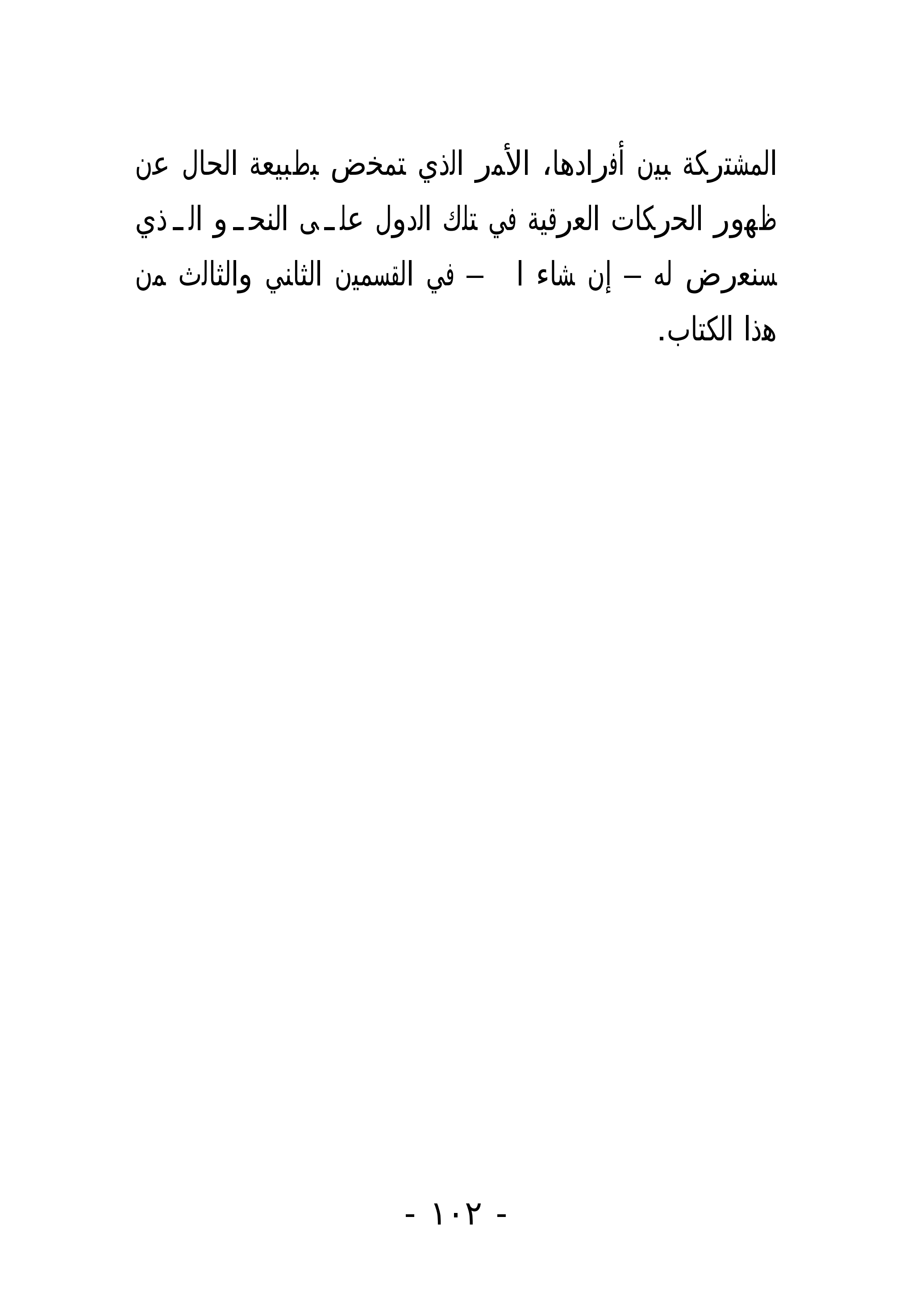
تعقيـــب:

تتعين الإشارة إلى أن الدولة القومية بمقومهـا الرئيسـي المتمثل في تجانس عنصرها البشري تجانسا قوميا قد راحت تتميز عن الإمبراطوريات القديمة، تلك الإمبراطوريات التي كانت تقوم على التجميع الإجباري لشعوب متباينـة الأصـل واللغة والدين، وبالتالي فقد كـان التجمـع البشـري لتلـك الإمبراطوريات يفتقر إلى الرباط الموضوعي المتمثـل فـي وحدة الأصل واللغة والدين من ناحية، كما كان يعوزه الرباط الذاتي المتمثل في الرغبة في الحياة المشتركة بين أفراده من ناحية أخرى. لذلك – وكما سبق أن أشرنا – فقد كانت تلـك



الإمبراطوريات تعاني من ظاهرة الحركات العرقية؛ إذ كانت كل جماعة عرقية تسعى بشتى الوسائل إلى الاستقلال عن الإمبراطورية وتكوين دولة مستقلة تجمع شتاتها، الأمر الذي كان لا بد من أن يتمخض في النهاية عن اضمحلال الإمبراطورية واندثارها. أما الدولة القومية بركنها الركين المتمثل في التجانس القومي فهي تُمثل بحق مصلاً واقيا من ظاهرة الحركات العرقية وغيرها من الحركات الانفصالية، ومن هنا فإنها تُعد الصورة المثلى للمجتمع السياسي.

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه قد ظهرت في عالمنا المعاصر وحدات سياسية تشبه إلى حد كبير في خصائصها الإمبراطوريات القديمة، وتُعرف هذه الوحدات اصطلاحا بالدول متعددة العرقيات، وذلك حال الاتحاد السوفييتي السابق ويوغسلافيا السابقة، بل إننا لا نكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ما قلنا إن كلا من العراق والسودان وإيران والهند ولبنان وتركيا وقبرص وكندا وسريلانكا هي الأخرى دول متعددة العرقيات، وكل هذه الدول – شأنها شأن الإمبراطوريات القديمة – تفتقر إلى التجانس القومي؛ إذ تضم تجمعات بشرية متباينة الأصل واللغة والدين، كما تفتقر إلى الرغبة في الحياة



المشتركة بين أفرادها، الأمر الذي تمخض بطبيعة الحال عن ظهور الحركات العرقية في تلك الدول علـى النحـو الـذي سنعرض له – إن شاء ا – في القسمين الثاني والثالث من هذا الكتاب.

الفصل الثاني

في التعريف بالظاهرة العرقية

(الجماعات – الحركات)

تتعين الإشارة – بادئ ذي بدء – إلى أن ثمة اختلافًا بائنًا بين المشتغلين بالدراسات الاجتماعية – ولا سيما الأنثروبولوجية منها – فيما يتصل بمدلول عبارة الجماعة العرقيـة Ethnic group. فثمة من لا يستشعر حرجا في القول بأن الجماعة العرقية هـي ذاتها الجماعة السلالية Racial Group، وثمـة مـن يسـتخدم مفهوم الجماعة العرقية كمرادف لمفهوم الأمـة Nation، ذلـك فضلاً عن أن فريقًا يعتد به من الباحثين في ضروب الظـواهر الاجتماعية لا يرى أن ثمة تباينًا في المدلول بين عبارة الجماعة العرقية ولفظة الأقلية Minority، غير أن الخلاف على أشـده بين باحثي هذا الفريق – لا بصدد تعريف الأقلية فحسب – وإنما كذلك بخصوص تسميتها، فثمة من يكتفي بلفظة الأقلية للدلالـة عليها، وثمة من يطلـق عليهـا الأقليـة القوميـة National minority، في حين أن ثمة من يستخدم عبارة الأقلية العرقيـة Ethnic minority كي يشير إليها.

وهكذا فقد اختلف الباحثون وتداخلت المفاهيم إلـى حـد استعصى في ظله الوقوف على مدلول اصطلاحي متفق عليه فيما يتعلق بعبارة الجماعة العرقية.

وعلى الرغم من كل ما تقدم ففي رأينا أن باحثًا ما إن هو أراد أن يدلو بدلوه في أمر تعريف الجماعة العرقية لا بد وأن يجيب على عديد من تساؤلات تتمثل في:

ما المقصود بالجماعة العرقية؟ وما هي مقومات ذاتيتها؟، وما الفارق بينها وبين الجماعة السلالية، وكذا بينهـا وبـين الأمة؟ ثم: أثمة فارق بين الجماعة العرقية والأقلية؟ وما هي أنواع الجماعات العرقية؟، وفي النهاية ماذا نعنـي بعبـارة الحركة العرقية Ethnic movement؟

وارتباطًا بما تقدم يأتي هذا الفصل كي يقدم الإجابة عن كل هذه التساؤلات، وذلك في ثنايا مباحث خمسة نعنونها كما يلي:

المبحث الأول : في التعريف بالجماعة العرقية.

المبحث الثاني : في مقومات الذاتية العرقية.

المبحث الثالث : في التعريف بمفهوم الأقلية.

المبحث الرابع : في تصنيف الجماعات العرقية.

المبحث الخامس: في التعريف بمفهوم الحركة العرقية.

المبحث الأول
في التعريف بالجماعات العرقية

يرتد الأصل اللغوي للفظة عرقية Ethnicity إلى اللفظة اليونانية القديمة Ethnos، والتي تقابل في المدلول لفظة أمة Nation، وقوامها – لدى اليونان – جماعة بشـرية ينحـدر أفرادها من ذات الأصل [(١٠٢)]. ومن جانب آخر فقـد كـان الأوربيون – في العصور الوسطى – يطلقون لفظة عرقيـة على من هم ليسوا مسيحيين أو يهـودا [(١٠٣)]، وإذن فعبـارة الجماعة العرقية – آنذاك – كانت تعني كل جماعـة يـدين أفرادها بدين غير المسيحية أو اليهودية. أمـا فيمـا يتصـل بالمدلول المعاصر لعبارة الجماعة العرقية فالاختلاف قائم – كما سبق أن أشرنا – بين المشتغلين بالدراسات الاجتماعيـة

---

(١٠٢) Conor. Walker, A nation is a nation, is a state. Is an ethnic group, is a …in John Hutchinson and Anthony D. Smith. Nationalism, Oxford University Press, ١٩٩٤, p. ٤٣.

(١٠٣) سعد الدين إبراهيم، تأملات فـي مسـألة الأقليـات، دار سـعاد الصباح، القاهرة – الكويت، ١٩٢٢، ص ٢٣.

حول فحوى هذه العبارة، وذلك إلى حد أن ثمة من يـرى أن عبارة الجماعة العرقية لا تعدو أن تكون بديلاً للفظة الأقلية. كما أنه من الأفضل استخدام المفهوم الثاني نظرا لأن المفهوم الأول لا يشيع استخدامه على نطاق شعبي واسع، كما أن ثمة اختلافًا حول تحديد نطاقه؛ إذ قد يتسع ليشمل كـل أشـكال التمايز لتصبح الجماعة العرقية بذلك بمثابة خط متواصل يبدأ بالقبيلة وينتهي بالأمة، كما أنه قد يضيق ليقتصر على التمايز العرقي دون سواه [(١٠٤)].

والحق أننا من جانبنا نرفض تماما هذا الرأي، ذلك بأنـه ينطوي على الخلط بين مفهومي الجماعة العرقيـة والأقليـة ويستخدمهما كمترادفين، في حين أن ثمة اختلافًا في المدلول بين هذين المفهومين، وذلك على النحو الذي سنفصله لاحقًا. من جانب آخر فإن القائل بهذا الرأي يعيـب علـى عبـارة الجماعة العرقية عدم ذيوعها على المستوى الشعبي وهذا هو ما نرفضه أيضا. ذلك بأن العبرة – لدى المشتغلين بـالعلم –

[(١٠٤)] بصدد مضمون هذا الرأي انظر: نيفين مسـعد، الأقليـات والاسـتقرار السياسي في الوطن العربي، مركز البحـوث والدراسـات السياسـية – جامعة القاهرة، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ١٩٨٨.

هي بالعبارات الاصـطلاحية المتفـق عليهـا فيمـا بيـنهم لا بالعبارات الشائعة لدى العامة والدهماء. وعلى صعيد ثالث فإنه يؤخذ على القائل بهذا الرأي عدم تحديده لمفاهيم عديـدة كالأمة والجماعة السلالية الأمر الذي كـان مـن شـأنه أن تداخلت لديه هذه المفاهيم، على نحو استعصى في ظله على ذلك الباحث الوقوف على المدلولات الدقيقة لتلك المفاهيم من جهة، وإظهار أوجه الاختلاف بينها من جهة أخرى.

ومهما يكن الأمر فإنه من ثنايا كتابات جمهرة يعتد بها من المشتغلين بالدراسات الاجتماعيـة؛ يمكننـا تقـديم تعريـف للجماعة العرقية قوامه أنها: "تجمع بشري يرتبط أفراده فيما بينهم من خلال روابط فيزيقية أو بيولوجية (كوحدة الأصـل أو السلالة) أو ثقافية (حال وحدة اللغة أو الدين أو الثقافـة)، ويعيش هذا التجمع في ظل مجتمع سياسي أرحـب مشـكلاً لإطار ثقافي حضاري مغاير للإطار الثقافي الحضاري لباقي المجتمع، ويكون أفراد هذا التجمع مدركين لتمايز مقومـات هويتهم وذاتيتهم، عاملين دوما من أجل الحفاظ علـى هـذه المقومات في مواجهة عوامل الضعف والتحلل".

والحق أن تعريفنا المتقدم يمثل محصلة لاطلاعنا على عديد من تعريفات قدمها الباحثون للجماعة العرقية، وفيما يلي نسوق جملة من هذه التعريفات:

١- **الجماعة العرقية هي:** تجمع بشري يشترك أفراده في بعض المقومات الفيزيقية (كوحدة الأصل) أو الثقافية (كوحدة اللغة أو الدين أو التاريخ أو غيرها من المقومات الثقافية) [١٠٥].

ويتميز هذا التعريف بتأكيد صاحبه على أن مقومات الذاتية العرقية ليست بالضرورة – كما قد يعتقد البعض – مقومات فيزيقية أو بيولوجية، وإنما قد تكون كذلك مقومات ذات طابع ثقافي كوحدة اللغة أو الثقافة أو غيرها. غير أنه يؤخذ على القائل بهذا التعريف تجاهله لاعتبار هام يتمثل في ضرورة كون الجماعة تعيش في مجتمع يضم جماعة أو جماعات أخرى، ففي تلك الحالة فحسب نكون بصدد جماعة عرقية، أما إذا كانت الجماعة تشكل منفردة الكيان البشري لمجتمعها – حال الألمان في ألمانيا مثلاً – فإننا

---

(١٠٥) Richmond, Anthony H., Reading in race and ethnic relations, Pergamon Press, Oxford, ١٩٧٢, p. ١٩٩.

نكون بصدد أمة Nation لا جماعة عرقية، وذلك على النحو الذي سنعرض له لاحقًا.

٢- **الجماعة العرقية هي:** جماعـة بشـرية يشـترك أفرادها في العادات والتقاليـد أو اللغـة أو الـدين أو أي سمات أخرى مميزة بما في ذلـك الأصـل والملامح الفيزيقية الجسمانية، كما يكـون هـؤلاء الأفراد – وكذا أفراد الجماعات الأخرى القريبة – مدركين لتباين الجماعة عن غيرها في أي من هذه السمات، على نحو يخلق لديهم الشعور بالانتماء كل لجماعته [١٠٦].

ويتميز هذا التعريف بما تميز به سابقه من حيث التأكيـد على كل مقومات الذاتية العرقية من فيزيقية وثقافيـة، ذلـك فضلاً عن أن صاحب هذا التعريف الذي نحن بصـدده قـد ضمن تعريفه إشارة إلى إدراك أفراد كـل جماعـة عرقيـة لتباينهم عما عداهم من أفـراد الجماعـات الأخـرى التـي تشاركهم ذات المجتمع أو الدولة، ذلك الإدراك الذي من شأنه التأكيد لتماسك الجماعة واستمرارها.

---

[١٠٦] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣.

٣- **الجماعة العرقية هي:** فئة متميزة من السكان تعيش في مجتمع أكبر لها ثقافتها المتمايزة، تشعر بذاتيتها ويرتبط أفرادها معا، إما بروابط السلالة أو الثقافـة أو القومية [١٠٧].

ويكاد هذا التعريف – من حيث فحـواه – يتطـابق مـع تعريف آخر مؤداه: أن الجماعة العرقية هي تجمـع بشـري يترابط أعضاؤه فيما بينهم من خلال روابط مشتركة كوحـدة الأصل أو القومية أو الثقافة، وهم يعيشون معا داخل إطـار حضاري ثقافي مخالف لإطارهم الحضاري الثقافي، بيد أنهم يظلون محتفظين بتميزهم الثقافي [١٠٨].

ويكاد هذان التعريفان يتطابقان – من حيث المضـمون – مع التعريف السابق عليهما.

---

(١٠٧) فاروق مصطفى إسماعيل، العلاقات الاجتماعية بين الجماعـات العرقية: دراسة في التكيف والتمثيل الثقافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص ٤١.

(١٠٨) Encyclopaedia of the social sciences, Volume Five, The Macmillan Company. New York, p. ٦٠٧.

٤- **الجماعة العرقية هي**: مجموعة من الأفراد يعيشون في مجتمع أكبر لهم سلف مشترك (سلالة واحدة)، أو تاريخ وذكريات مشتركة، أو ثقافة مشـتركة، أو تجمع بينهم صلة القرابـة، أو الجـوار، أو وحـدة السمات الفيزيقية، أو اللغة، أو اللهجة الواحـدة، أو الرابطة القبلية (الانتماء القبلي)، أو الانتماء الديني، أو أي تركيب من هذه العناصر معا [١٠٩].

ويتشابه هذا التعريف إلى حد كبير مع التعريفات الثلاثـة السابقة، غير أنه يختلف عنها في كونه ينطوي علـى سـرد تفصيلي لمقومات الذاتية العرقية من فيزيقية إلى ثقافية.

وهكذا يتضح في ثنايا كل ما قدمنا من تعريفات أن عبارة الجماعة العرقية لا تعني بالضرورة تلك الجماعة التي ينحدر أفرادها من ذات الأصل أو تلك التي يشترك أفرادهـا فـي سمات فيزيقية أو بيولوجية واحدة، ذلك بـأن مـدلول تلـك العبارة يمتد ليشمل كذلك تلك الجماعات التي يترابط أفرادها فيما بينهم من خلال روابط اجتماعية أو ثقافية كوحدة اللغـة

---

[١٠٩] انظر في هذا المضمون: فاروق مصطفى إسماعيل، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢.

أو الثقافة أو غيرها. وإذن فمقومات الذاتية العرقيـة ليسـت بالضرورة مقومات بيولوجية فيزيقية، وإنما قد تكون كـذلك مقومات اجتماعية ثقافية. وتأسيسا على ذلك يبدو جليا الفارق بين مدلولي عبارتين طالما خلط بينهما العديد من الباحثين في مجال الدراسات الاجتماعية، وتتمثل هاتان العبارتـان فـي عبارة الجماعة العرقية Ethnic group وعبـارة الجماعـة السلالية Racial group. فالحق أن تلك الأخيـرة لا تعنـي أكثر من جماعة بشرية ينحدر أفرادها مـن سـلالة واحـدة أو أصل واحد، أو على حد قول البعض [١١٠] فهي جماعـة من الناس يمتلكون في غـالبيتهم ملامـح فيزيقيـة سـلالية مشتركة حال لون الجلد، وشكل الرأس، وملامـح الوجـه، وطول القامة، وغيرها من السمات الفيزيقيـة التـي تميـز الجماعة عن غيرها من الجماعات السلالية.

---

(١١٠) في هذا المضمون يرجع إلى: المرجع السابق، ص ٤٣.

وفي ضوء ما تقدم يتضح أن عبارة الجماعة السلالية إنما تشير إلى الجماعات التي يشـترك أفرادهـا فـي السـمات الفيزيقية فحسب، في حين أن عبارة الجماعة العرقية قد تشير إلى جماعات يشترك أفرادها في السمات الفيزيقية، كما قـد تشير إلى جماعات يرتبط أفرادها من خلال روابـط ثقافيـة مشتركة كوحدة اللغة أو الثقافة، وإذن فالجماعـة السـلالية لا تعدو أن تكون نوعا من أنواع الجماعات العرقيـة، أو إن شئنا فإن كل جماعة سلالية تُمثل جماعة عرقية، في حين أن كل جماعة عرقية ليست بالضرورة جماعة سلالية. ولعل مما يدعم رأينا المتقدم أن غير واحد من الباحثين فـي ضـروب الظاهرة العرقية راح في تعريفه للجماعة العرقية يؤكد على مقوم الثقافة ويجعل منه الركن الركين للذاتية العرقية، ومـن أظهر هذه التعريفات ما يقول به علماء الاجتماع الأمريكيون من أن الجماعة العرقية هي: "جماعة ذات أعـراف ثقافيـة وحضارية مشتركة يسود أفرادها الشعور بالهوية الواحـدة، وهذه الجماعة تعيش كجماعـة تحتيـة Subgroup داخـل مجتمع أوسع" (١١١). كذلك فإن ثمة من ينحو ذات المنحى في

---

(١١١) Connor. Op. Cit., P. ٤٣.

التأكيد على المقوم الثقافي للذاتية العرقية؛ إذ يعرف الجماعة العرقية بأنها: "تجمع بشري يشترك أفراده في أنماط ومعايير السـلوك المتعلقـة بشـتى الأنشـطة الحياتيـة كـالزواج، والمصاهرة، والصداقة، وممارسـة الطقـوس، والشـعائر، وغيرها من أنماط ومعايير السلوك التي تنطوي عليها ثقافـة الجماعة، ويمثل هذا التجمع جزءا من تجمع بشرى أكبر، كما أنه يتفاعل مع غيره من التجمعات البشرية التي يشملها النسق الاجتماعي Social System" [١١٢].

وهكذا فإننا نخلص من خلال كل ما تقـدم – ولا سـيما تعريفنا للجماعة العرقية – أن هذه الأخيرة قد تكون جماعـة ذات مقومات فيزيقية (أي جماعة سلالية)، كما قـد تكـون جماعة ذات مقومات ثقافية (لغويـة أو دينيـة أو ثقافيـة)، أو حتى جماعة ذات مقومات فيزيقية ثقافية.

---

[١١٢] Cohen, Abner, Urban Ethnicity, Tavistock Publications, London, ١٩٧٤, PP. ix – xii.

كذلك فإننا نخلص من ذلك التعريف إلى أن الجماعة العرقية إنما تُمثل واحدة من بين عديد من جماعات أخرى (جماعتين على الأقل) تشكل فيما بينها الكيان البشري لمجتمع واحد. أما إذا كانت جماعة ما تشكل منفردة الكيان البشري لمجتمعها (حال الألمان في ألمانيا مثلاً) فإننا نكون بصدد أمة Nation.

والحق أن ثمة اتجاها مخالفًا لما نقول به في هذا الصدد؛ إذ يرى أنصار هذا الاتجاه أن الجماعة العرقية قد لا تكون بالضرورة مجرد جزء من الكيان البشري لمجتمعها، وإنما قد تُشكل منفردة هذا الكيان (حال الصينيين والإنجليز والفرنسيين في دولهم)، كما قد تُشكل جماعة واحدة الكيان البشري لعديد من دول (وذلك حال العرب) [١١٣]. وبطبيعة الحال فإننا نرفض هذا الرأي نظرا لأن من شأن الأخذ به عدم التمييز بين مفهومي الأمة والجماعة العرقية. غير أنه مما تجدر الإشارة إليه فيما نحن بصدده أن علماء الاجتماع في الاتحاد السوفييتي السابق كانوا قد درجوا على اعتبار

---

[١١٣] Connor, Loc. Cit.

الأمة ذاتها جماعة عرقيـة، كمـا درج علمـاء الاجتمـاع الغربيون على اعتبار كل جماعة مختلفة موضوعيا وتـدرك هذا الاختلاف ذاتيا بمثابة جماعة عرقية سواء أكانت جماعة قومية، أو دينية، أو مذهبية، أو لغوية، أو حتى جماعـة ذات نمط معيشي متميز كالبدو والغجر. بيد أن الفريقين على أيـة حال يتفقان على استخدام عبارة الجماعة العرقية للإشارة إلى أي من الجماعات التي لا تُشكل منفـردة الكيـان البشـري لمجتمعها؛ أي إننا مثلاً لا نطلق على الفرنسيين في فرنسـا عبارة جماعة عرقية، وإنما نقول الأمة الفرنسية أو الشـعب الفرنسي، في حين أننا نصف الفرنسيين في كندا (القـاطنين لإقليم كيبيك) بأنهم جماعة عرقية [١١٤] كذلك فإن الجماعـة البشرية الكُردية في جملتها تُمثل أمة، غيـر أن الجماعـات الكُردية في كل من إيران وتركيا والعراق وسوريا تُمثل كل منها جماعة عرقية.

---

[١١٤] انظر في هذا المعنى: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦، ٢٧.

وهكذا يتضح بجلاء الفارق بين مـدلولي لفظـة الأمـة وعبارة الجماعة العرقية، وإذن فإننا نكون بصـدد جماعـة عرقية في حالة وجود جماعة أو جماعات عرقيـة أخـرى تشاركها العيش في ذات المجتمع أو الدولة، وعادة لا يقتصر الاختلاف أو التباين بين هـذه الجماعـات علـى أي مـن المتغيرات العرقية كالدين أو اللغة أو السلالة، وإنمـا يكـون كذلك بصدد الحجم العددي ومظاهر الغلبة والقوة الاجتماعية في أشكالها السياسية والاقتصادية والثقافية؛ إذ نادرا – إن لم يكن مستحيلاً – أن تتساوى الجماعات العرقيـة فـي نفـس المجتمع من حيث العدد والمكانـة الاجتماعيـة والأوضـاع السياسية والمنزلة الثقافية... إلخ. وبذلك فإن التباين العرقـي عادة ما يقترن بتباين كمي سكاني، وتباين كيفي يتصل بموقع الجماعة داخل المجتمع بشتى قطاعاته [١١٥].

---

[١١٥] انظر في هذا المعنى: ذات المرجع السابق، ص ٢٧.

وفضلاً عن كل ما تقدم فإنه يستفاد من تعريفنـا المتقـدم للجماعة العرقية أن أفراد هذه الأخيرة لا بـد وأن يكونـوا مدركين لهويتهم المتميزة، واعين بمقومات ذاتيتهم العرقيـة على نحو يهيئ لخلق شعور بوحدة الهويـة داخـل نطـاق الجماعة، وهو شعور ينبع من التشابه في الخصائص الفكرية للجماعة وسواد روح الجماعة بين أفرادها بما يهيئ لتعاونهم، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى خلق عاطفة الولاء للجماعة، تلك العاطفة التي تؤدي دورا بارزا في إحداث نوع من التماسـك بين أفراد الجماعة، ودفعهم إلى إتباع ما تفرضه تلك الجماعة من معايير وقيم وأنماط سلوك، وكلها عوامل من شـأنها أن تظهر الجماعة كوحدة واحدة في تعاملها مع الغربـاء، أو إن شئنا أولئك الذين ينتمون إلى جماعات أخرى [١١٦]. ويتولـد الوعي العرقي بالذات لدى أفراد جماعة ما من خلال علاقات الجماعة وتفاعلها مع الجماعـات العرقيـة الأخـرى التـي تشـاركها ذات الإطـار الاجتمـاعي السياسـي (المجتمـع أو الدولة)، فالإدراك الذاتي للتفرد والاختلاف عن الآخـرين

---

[١١٦] انظر في هذا المضمون تفصيلاً: فـاروق مصـطفى إسـماعيل، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢، ٥٣.

لدى أفراد جماعة ما لا يعـدو أن يكـون نتاجـا لـرؤيتهم وإدراكهم لهوية الآخرين؛ إذ إن إدراك فرد ما لكونه أبـيض البشرة لا يتم إلا من خلال إدراكه لأن ثمة مـن هـم سـود البشرة، وإدراك فرد ما لإسلامه لا يتم إلا من خلال إدراكـه لمسيحية أو هندوكية فرد أو أفراد آخرين. وتقـوم الجماعـة العرقية ببث الوعي العرقي وإدراك الهوية في نفوس أفرادها عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية، وذلك بغية الحفاظ على كيان الجماعة وتراثها الثقافي. كما تتعين الإشـارة إلـى أن تنمية الوعي العرقي لدى أفراد جماعة عرقية ما قد ترتد إلى ما يلاقيه هؤلاء الأفراد من تفرقة أو تمييـز فـي المعاملـة أو اضطهاد من جانب أفراد الجماعات الأخرى [١١٧].

---

[١١٧] انظر في هذا المضمون بالتفصيل: سعد الدين إبـراهيم، مرجـع سبق ذكره، ص ٢٩، ٣٠.

والحق أن الوعي العرقي لدى أفراد جماعة عرقيـة مـا لا بد وأن يكون مقترنًا بسواد روح العصبية بينهم فيما يتصل بهويتهم وذاتيتهم ومقومـات هـذه الذاتيـة وتلـك الهويـة. "فالجماعة لا تكـون إلا بالعصـبية أي بشـعور التضـامن والتلاحم الجماعي تجاه الجماعات الأخرى" [١١٨]. وفي ذلـك يقول أحد المفكرين البارزين [١١٩]: "إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم ا بالفشل، وغفل بعضهم عن بعـض، وأعقـب الغفلة تقطع في الروابط، وتبعـه تقـاطع وتـدابر، فيتسـع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم ا كمـا بـدأهم بإفاضـة روح التعصب فيهم في نشأة ثانية". ويتعين التنويه إلى أن المقصود بالتعصب هنا صورته المعتدلة، ذلـك بـأن الإفـراط فـي التعصب يعد مذمة تبعث على الجور والاعتـداء [١٢٠]. وإذن

---

[١١٨] برهان غليون، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، سـينا للنشـر، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٤.

[١١٩] هو الإمام محمد عبده: انظر بصدد آرائه هذه المراجع السـابق، ص ٤٤ إلى ص ٤٧.

[١٢٠] في ذات المضمون: انظر نفس المرجع السابق.

فالتعصب للجماعة لدى أفرادها يتعين أن يكون بالقدر الـذي يحفظ للجماعة تماسكها، ويقوي شوكتها، ويلهب حماسـتها، ويجمع شتاتها في مواجهة أولئك الذين يريدون لهـا الهـزال والزوال.

وفي النهاية فإنه تجدر الإشارة إلى أن ثمة عـاملين مـن شأنهما حفظ الكيان البشري والثقافي للجماعة العرقية وتأكيد استمراريتها، ويتمثل هذان العاملان في [١٢١]:

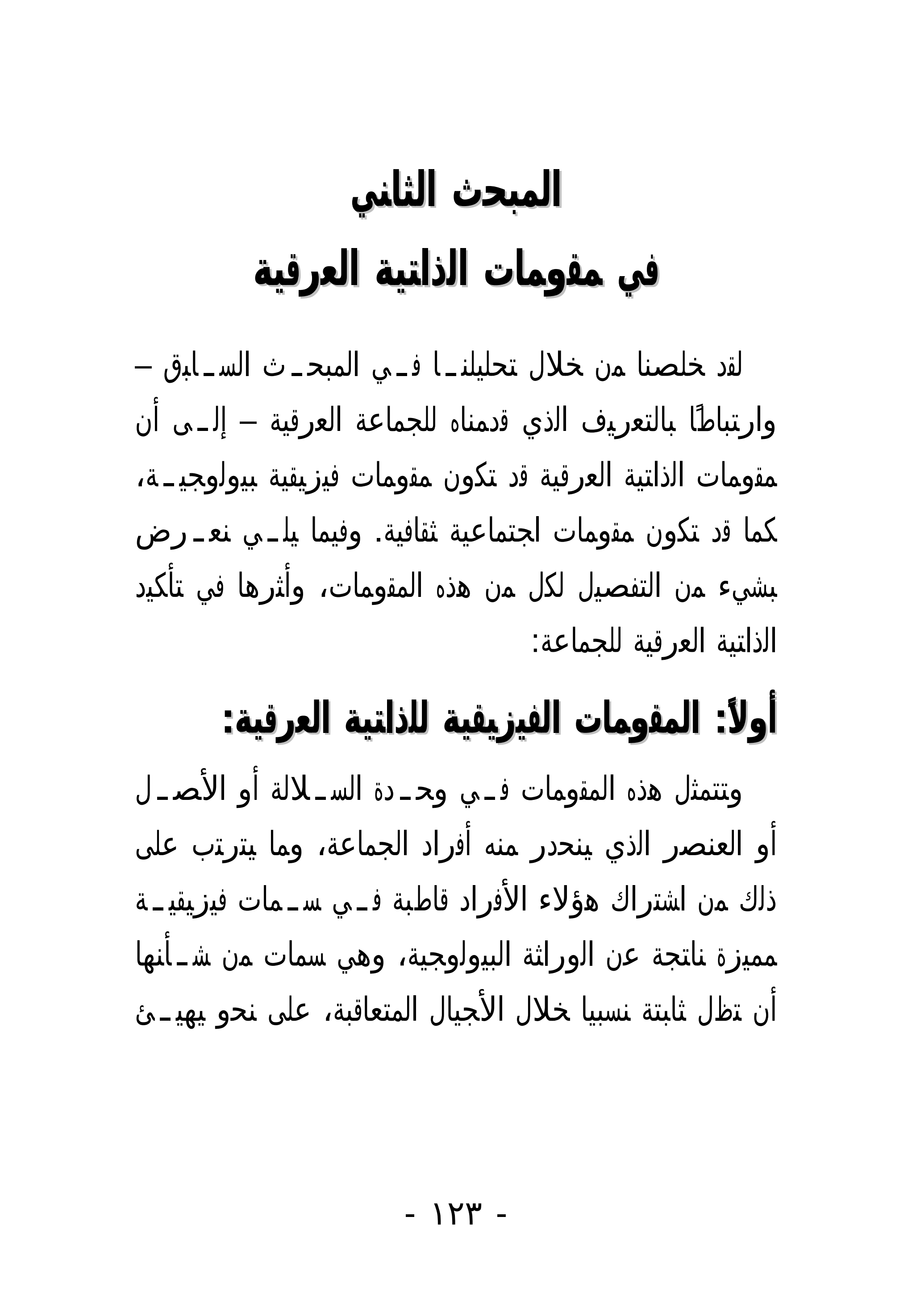
أولاً : إن عضوية الجماعـة العرقيـة هـي عضـوية إجبارية، في معنى أن أفراد الجماعة يولدون فيهـا ويرثون خواصها العرقية مثل الـدين أو اللغـة أو لون البشرة، كمـا يكتسـبون تـدريجيا خواصـها الثقافية. ومن خلال هـذا العامـل (أي العضـوية الإجبارية) تضمن الجماعة تجديد صفوفها وتتأكـد عملية الإحلال والتعويض عمن تفقدهم الجماعة من أعضائها نتيجة الوفاة.

---

[١٢١] انظر في هذا المضمون بالتفصيل: سعد الدين إبـراهيم، مرجـع سبق ذكره، ص ٢٥، ٢٦.

ثانيا : التزاوج الداخلي: في معنى أن الغالبية العظمى من أفراد أية جماعة عرقية ينتهي بهم الحال – في ظل القيود التي تفرضها الجماعة عليهم وأعرافها التي تورثها إياهم – إلى الزواج من أفراد نفس الجماعة العرقية من الجنس الآخر.

وجملة القول في شأن تعريف الجماعة العرقية هو أننا خلصنا في هذا الصدد إلى تعريف قوامه: أن الجماعة العرقية هي تجمع بشري يرتبط أفراده فيما بينهم من خلال روابط فيزيقية أو بيولوجية (كوحدة الأصل أو السلالة) أو ثقافية (حال وحدة الدين أو اللغة أو الثقافة)، ويعيش هذا التجمع في ظل مجتمع سياسي أرحب مشكلاً لإطار ثقافي حضاري مغاير للإطار الثقافي الحضاري لذلك المجتمع، ويكون أفراد هذا التجمع مدركين لمقومات هويتهم وذاتيتهم، عاملين دوما من أجل الحفاظ عليها ودعمها في مواجهة عوامل الضعف والتحلل.



المبحث الثاني

في مقومات الذاتية العرقية

لقد خلصنا من خلال تحليلنـا فـي المبحـث السـابق – وارتباطًا بالتعريف الذي قدمناه للجماعة العرقية – إلـى أن مقومات الذاتية العرقية قد تكون مقومات فيزيقية بيولوجيـة، كما قد تكون مقومات اجتماعية ثقافية. وفيما يلـي نعـرض بشيء من التفصيل لكل من هذه المقومات، وأثرها في تأكيد الذاتية العرقية للجماعة:

أولاً: المقومات الفيزيقية للذاتية العرقية:

وتتمثل هذه المقومات فـي وحـدة السـلالة أو الأصـل أو العنصر الذي ينحدر منه أفراد الجماعة، وما يترتب على ذلك من اشتراك هؤلاء الأفراد قاطبة فـي سـمات فيزيقيـة مميزة ناتجة عن الوراثة البيولوجية، وهي سمات من شـأنها أن تظل ثابتة نسبيا خلال الأجيال المتعاقبة، على نحو يهيـئ

للحفاظ على كيان الجماعة العرقية، وصـيانة ذاتيتهـا [١٢٢].

والحق أن ثمة اختلافًا بين الباحثين بصـدد تحديـد ماهيـة السمات الفيزيقية السـلالية التـي تُصـنف علـى أساسـها الجماعات سلاليا، فثمة من يقصر هذه السمات على الملامح الجسمانية الظاهرة حال لون البشرة، وكثافة وتجعـد شـعر الرأس، ومدى اكتساء الجسم بالشعر، وشكل ولون العينـين وطول القامة [١٢٣]، في حين أن ثمة من يميز بين نوعين من السمات الفيزيقية يتمثلان في[١٢٤]:

١- **السمات الهيكلية** (أو المستترة): وهي تلـك التـي تحتاج لآلات خاصة بغية قياسها وملاحظتها، ومن أمثلة هذه السمات شكل وحجم الجمجمة، والوجـه، والأنف، والأسنان، والحواجب، وعظام الوجنـات، وبنية الجسم، ونسبة الأطراف.

---

[١٢٢] انظر في هذا المعنى: فاروق مصطفى إسماعيل، مرجـع سـبق ذكره، ص ٥٨.

[١٢٣] سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣.

[١٢٤] انظر في هذا الصدد: يسري عبد الرازق الجوهري، السلالات البشرية، دار الطلبة العرب – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩، ص ١٥٧.

٢- **السمات السطحية** (أو الظاهرة): وهي التي يمكن إدراكها بالعين المجردة، وتشمل لون البشرة، وشكل الشعر ولونه، ولون العين وثنيتها، وشكل الشفاه... وغيرها.

وتتعين الإشارة إلى أن تمايز الجماعات الإنسانية استنادا إلى السلالة أو الجنس – أو إن شئنا الدقة الاعتقاد في هذا التمايز – هو أمر طالما أدى دورا بالغ الأثر في تحديد أنماط العلاقة بين تلك الجماعات، وتحريك شتى صور الصراع فيما بينها عبر حقب طويلة من التاريخ الإنساني. "ففي العهد الفرعوني – بداية – كان ثمة تمييز بين الأجناس قوامه علاقة بين سيد وعبد، وبين آسر وأسير؛ إذ كان المصريون القدماء ينظرون إلى سكان الجنوب (الزنوج) نظرة استخفاف، وذلك على النحو الذي تظهره اللوحات الساخرة التي رسمها الرسامون المصريون للزنوج، كما كان المصريون ينظرون نظرة استعلاء إلى الأجانب الآخرين حال الليبيين" [(١٢٥)]. وفي ظل الإمبراطورية الرومانية كان

[(١٢٥)] كينيث ليتل، السلالة والمجتمع، ترجمة محمد جلال عباس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٧، ٢٨.

الرومان ينظرون إلى غيرهم من الشعوب باعتبارهم شـعوبا لا تستحق الاحترام، ولا سيما تلك الشعوب التي كانوا يغزون أرضها، والتي كانوا لا يذكرونها إلا بكل احتقار [١٢٦].

من جانب آخـر فإنـان الحقبـة الاسـتعمارية نجـد أن مستعمري الأمريكتين من الإسـبان والبرتغـال والإنجليـز وغيرهم كانوا يفتئتون على حقوق السود والسكان الأصـليين للبلاد مستندين في ذلك إلى تبريرات من صنعهم قوامهـا أن السود وسكان الأمريكتين الأصليين ليسـوا مـن نسـل آدم وحواء، وأنهم ليست لهم روح بشرية تسمو إلـى اتصـالها بالرب، وأن روحهم مشتقة من فصيلة دون الإنسان، في حين أن روح البيض وفصائلهم إنسانية، وفي ضـوء ذلـك فإنـه يتعين التمييز بين الفريقين [١٢٧].

---

[١٢٦] المرجع السابق، ص ٢٩.

[١٢٧] انظر في هذا المضمون: أحمد سويلم العمري، التفرقة العنصرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعـة والنشـر، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٠.

وفي إطار ظاهرة الاستعلاء بالجنس – كذلك – نجـد أن انتصارات اليابان على روسيا في مطلع القرن الحالي قد بثت في اليابانيين روح الاعتزاز بجنسهم الأصفر، والاعتقاد فـي سموه على غيره من الأجناس. وارتباطًا بهذا الزهو نشـأت سياسة (آسيا للآسيويين) التي تبناها اليابانيون، والتي كانـت تعني عملاً أن آسيا هي للاستعمار اليابـاني، وأنـه يتعـين إقصاء الرجل الأبيض عن القارة الآسيوية، على أساس أنهـا تُمثل مجالاً حيويا لليابان [١٢٨]. وهكذا فإن ظاهرة الاستعلاء بالجنس كانت من وراء الحروب التوسـعية العديـدة التـي خاضتها اليابان منذ مطلع هذا القرن، تلك الحروب التي لـم توقفها إلا هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية.

---

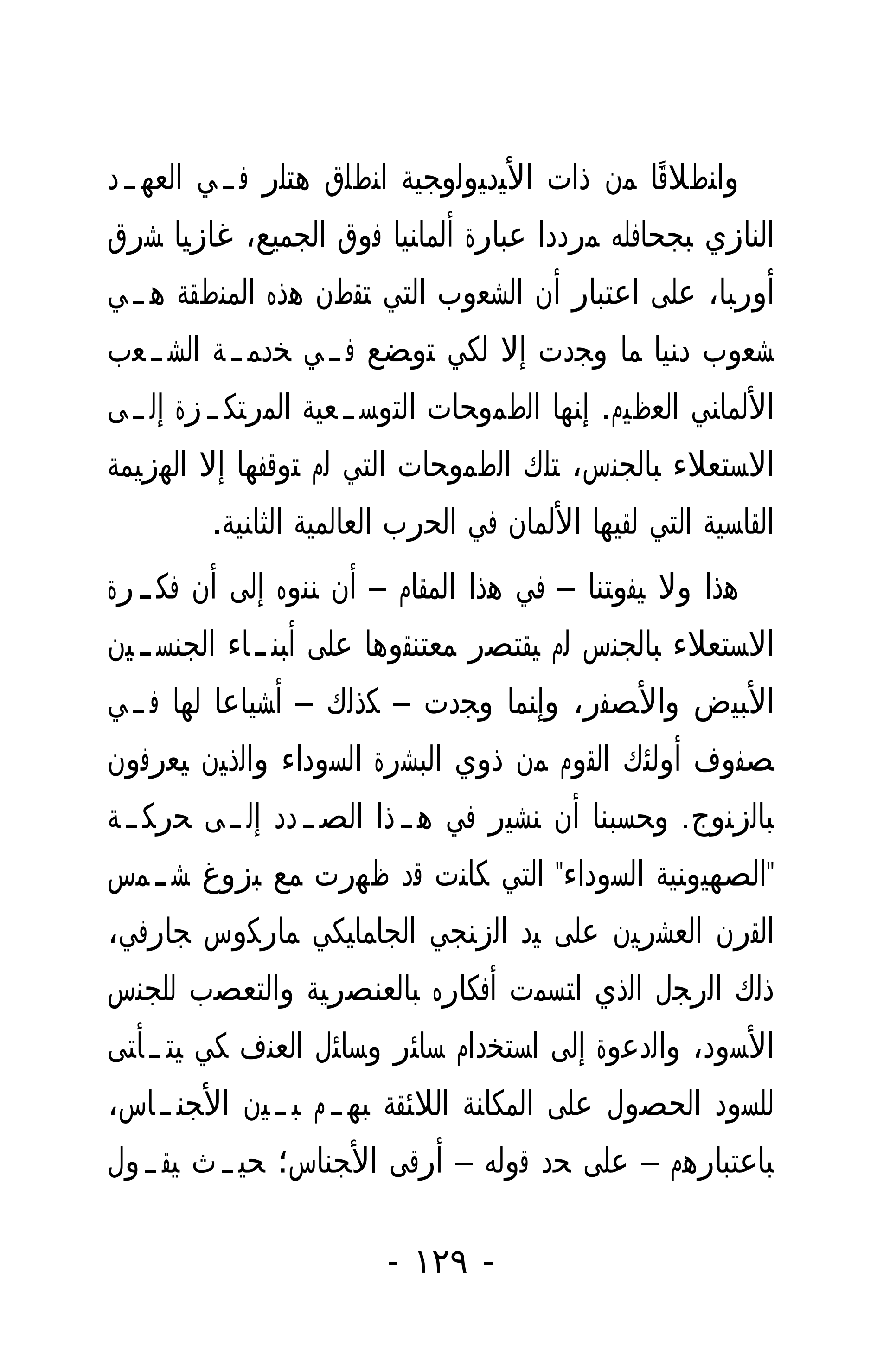
[١٢٨] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٤٥، ٤٦.

وفضلاً عن كل ما تقدم فلقد كانت لظاهرة الاستعلاء بالجنس آثارها البالغة على السياسة الألمانية للرايخ الأول والثاني والثالث، تلك السياسة التي استندت إلى أيديولوجية (سمو الجنس الآري) [129]. فارتباطًا بهذه الأيديولوجية راح الإمبراطور فيلهلم الثاني في أواخر القرن التاسع عشر يؤكد على سمو الإنسان الألماني على سائر البشر، وأنه يتعين أن يتبوأ الألمان موقعهم اللائق في إدارة دفة السياسة العالمية. كما أكد الإمبراطور الألماني على أن رسالته التي وكلها إليه ا – باعتباره راعي ألمانيا الكبرى – هي أن يأخذ بناصية الشعب الجرماني صوب صدارة سائر الشعوب، واحتلال القارة الأوربية [130].

---

[129] انظر بصدد هذه الأيديولوجية تفصيلاً: محمد طه بدوي – ليلى أمين مرسي، النظرية العامة للعلاقات الدولية، مرجع سبق ذكره، من ص ١٤٩ إلى ص ١٥١.

[130] في هذا المضمون انظر: أحمد سويلم العمري، التفرقة العنصرية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦.



وانطلاقًا من ذات الأيديولوجية انطلق هتلر في العهد النازي بجحافله مرددا عبارة ألمانيا فوق الجميع، غازيا شرق أوربا، على اعتبار أن الشعوب التي تقطن هذه المنطقة هي شعوب دنيا ما وجدت إلا لكي توضع في خدمة الشعب الألماني العظيم. إنها الطموحات التوسعية المرتكزة إلى الاستعلاء بالجنس، تلك الطموحات التي لم توقفها إلا الهزيمة القاسية التي لقيها الألمان في الحرب العالمية الثانية.

هذا ولا يفوتنا – في هذا المقام – أن ننوه إلى أن فكرة الاستعلاء بالجنس لم يقتصر معتنقوها على أبناء الجنسين الأبيض والأصفر، وإنما وجدت – كذلك – أشياعا لها في صفوف أولئك القوم من ذوي البشرة السوداء والذين يعرفون بالزنوج. وحسبنا أن نشير في هذا الصدد إلى حركة "الصهيونية السوداء" التي كانت قد ظهرت مع بزوغ شمس القرن العشرين على يد الزنجي الجامايكي ماركوس جارفي، ذلك الرجل الذي اتسمت أفكاره بالعنصرية والتعصب للجنس الأسود، والدعوة إلى استخدام سائر وسائل العنف كي يتأتى للسود الحصول على المكانة اللائقة بهم بين الأجناس، باعتبارهم – على حد قوله – أرقى الأجناس؛ حيث يقول

جارفي معبرا عن ذلك: "إننا لا نطالب بالمساواة بالرجل الأبيض... إننا نطالب بالسيادة والتفوق على الجنس البشري كله... إن العنف هو الطريق المؤدي إلى تحقيق أهدافنا، ويجب أن يكون الشعار الذي يتمسك به الزنوج في جميع أنحاء العالم هو القوة لا القانون، والسلطة لا العدالة" [(١٣١)].

وتأكيدا على فكرته عن سمو الجنس الأسود راح جارفي يؤسس الكنيسة الإفريقية الأرثوذكسية، التي فيها رسم الشيطان – على عكس كنائس البيض – باللون الأبيض، والملاك باللون الأسود. إنها ذات الفكرة التي عبر عنها الشاعر التوجولي الراحل أرماتو؛ حيث قال: "إلهنا أسود سواد سرمدي.. ذو شفاه غليظة مكتنزة وشعر مجعد، وعيونه بنية رقراقة لأنه قد خلقنا على صورته.. إن إلهنا لأسود"[(١٣٢)]. ويشار – أخيرا – إلى أن أيديولوجية الصهيونية السوداء بمضمونها المتقدم قد لاقت رواجا واسعا في صفوف

[(١٣١)] انظر في هذا الصدد: نزيه نصيف ميخائيل، النظم السياسية في إفريقيا: تطورها واتجاهها نحو الوحدة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧. ص ٥٢، ٥٣، ٥٤.

[(١٣٢)] المرجع السابق، ص ٢٩.

الزنوج الأمريكيين خلال عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، كما أن هذه الفكرة لا تزال ذات تأثير يعتـد به على زنوج الولايات المتحدة حتى يومنا هذا.

ومهما يكن من أمر كل ما تقدم فإن التمييز بين الجماعات البشرية استنادا إلى تمايزهـا سـلاليا؛ إنمـا يرتكـز إلـى افتراضين[١٣٣] قوامهما:

١- إن هناك نقاء سلاليا داخل الجماعات البشرية، فـي معنى أن كل جماعة تُمثل درجة عالية من التجانس السلالي في مواجهة الجماعات الأخرى.

٢- إن الاختلافات الفيزيقية السلالية بـين الجماعـات تنطوي بدورها على اختلافات أخرى غير فيزيقيـة مثل درجة الذكاء، والنشـاط، والانضـباط، وروح المسئولية، والأخلاق.

---

[١٣٣] انظر في هذا الصدد: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣.

غير أن أغلب المشتغلين بالدراسات الاجتماعية راحوا – من خلال دراسات عديدة – يؤكـدون افتقـار الافتراضـين السابقين إلى السند العلمي. فبصدد الافتراض الأول – بـادئ ذي بدء – نجد أن الأبحاث الأنثروبولوجية تؤكـد اخـتلاط الأجناس والأنساب كنتيجة للهجـرة والحـروب والغـزوات وتبادل المنافع بين الشعوب على مدى العصـور والأجيـال، وعلى نحو بات معه وجود جماعة بشرية ذات نقاء سـلالي بمثابة أمر من قبيل المستحيل. فعلى سبيل المثـال نجـد أن الفرنسيين والإيطاليين يمثلون خليطًا من الجرمـان والسـلت والفندال والعرب والمغول والبيض والسمر، أما الألمـان – فبرغم زعمهم أنهم ينحدرون من جنس آري وأنهـم بمثابـة سلالة نقية – إلا أنهم يمثلون خليطًا من المغـول، والتتـار، والسلت، والصقالبة، والآريين، في حين يمثل الإنجليز خليطاً من أبناء قبائل أوربا الذين غزوها في عهد رومـا القديمـة تحت إمرة يوليوس قيصر، وأما العرب فخليط من السـمر، والمغول، والتتار، والصقالبة، والسود، وأهل البادية، وقلـب نجد، وقريش، وأهالي حوض البحر المتوسط [١٣٤].

---

[١٣٤] هذه الأمثلة نقلاً عن: أحمد سويلم العمري، التفرقـة العنصـري،

أما فيما يتصل بالافتراض الثاني فصحيح أن ثمة تميـزا مورفولوجيا بيولوجيا بين الأجناس (أبيض – أصفر – أسود) إلا أن أحدا – حتى الآن – لم يكن بمقدوره أن يقنع إقناعـا علميا بأن لهذا التميز أثرا في خاصة العمل بالفكرة التي هي جوهر الإنسان [١٣٥] بحق.

وهكذا يتضح في ثنايا ما تقدم أن مقولة إن جماعـة مـا تنحدر من ذات الأصل أو تنتمي إلى سلالة واحدة نقية هـي مقولة يعوزها السند العلمي. وعلى الرغم من ذلك فإن أحـدا ليس في مقدوره أن ينكر ما يؤديـه الاعتقـاد فـي وحـدة الأصل[١٣٦] لدى أفراد جماعة ما من دور عظيم الشأن فـي دعم تماسك تلك الجماعة، والحفاظ علـى ذاتيتهـا، وتأكيـد استمراريتها وحفز همم أفرادها، وصهر طاقاتهم في بوتقـة

مرجع سبق ذكره، ص ١١٥.

(١٣٥) محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٧.

(١٣٦) استخدم عالم الاجتماع الشهير ماكس فيبر Max Weber عبـارة (الاعتقاد في وحدة الأصل) وليس عبارة (وحدة الأصـل) وذلـك بصدد تعريفه للجماعة العرقية. انظر هذا التعريف في:

Connor. Op. Cit., P. ٤٤.

واحدة بغية الوصول إلى ما تتغياه الجماعة من غايات. ذلـك فضلاً عما لا زال يؤديه الاعتقاد في التمايز السلالي – وكذا التمايز في السمات الفيزيقية – من دور هام في تحريك شتى صور الصراع بين الجماعات البشرية في عصـرنا، وذلـك على النحو الذي سنعرض له لاحقًا بالتفصيل.

ولا يفوتنا في النهاية واستكمالاً لكل ما تقدم أن نشير إلى ظاهرة عهدها العديد من مجتمعات العالم المعاصـر كـأثر للتباين في السمات الفيزيقية أو الاعتقاد في التمايز الســلالي بين أفراد الجماعات التـي تشـكل الكيـان البشـري لتلـك المجتمعات، إنها ظاهرة التفرقة العنصرية، والتي ترتكز على سياسة قوامها التمييز بين الأجنـاس فـي شـتى المجـالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية داخل المجتمع. وتعد دولة اتحاد جنوب إفريقيا فيما سبق من أظهر بلدان العالم المعاصر ممارسة لسياسة التفرقة العنصرية؛ إذ طالما اتبعـت الأقليـة الأوروبية البيضاء في تلك الدولة سياسة عـزل اجتمـاعي وسياسي إزاء سكان البلاد الأصليين من السود، فحرمتهم من شـتى حقـوقهم السياسـية وجـل حقـوقهم الاجتماعيـة

والاقتصادية[١٣٧]. غير أنه ممـا تتعـين الإشـارة إليـه أن السنوات الأخيرة قد شهدت – تحت وطأة تصـاعد الكفـاح المسلح من جانب السود – تراجعا واسع النطاق عن سياسـة التفرقة العنصرية من جانب الأقلية البيضاء، وعلى نحو هيأ لاعتلاء السود سدة الحكم في تلك الدولة.

من جانب آخر فإن استراليا تُعد مثالاً آخر لدولة مارست التفرقة العنصرية؛ إذ طالما وضعت العراقيل أمام الملـونين الراغبين في الهجرة إليها [١٣٨]. وفضلاً عما تقدم فإننا لانعدم آثارا واضحة لسياسة التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة ولا سيما في ولايات الجنوب؛ إذ يتخذ البيض مـن مقولـة التمايز السلالي سندا يبرر استغلالهم للسـود، وأيضـا فـإن الفئات الدنيا من البيض يمعنون في التمسك بتلك المقولة التي تهيئ لهم إحساسا بالسمو إزاء هؤلاء السود كرد فعل لمركب النقص الذي ينتاب أفراد تلك الفئات مـن جـراء مركـزهم

---

[١٣٧] انظر بصدد مضمون سياسة التفرقة العنصـرية: أحمـد سـويلم العمري، التفرقة العنصرية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩، ٤٠.

[١٣٨] انظر في هذا المضمون: كينث ليتل، مرجع سبق ذكره، ص ١٦.

الاجتماعي الأدنى [١٣٩]. كذلك فإن التمايز السلالي لا تـزال له آثاره البالغة على الحياة الاجتماعية وكذا الحياة السياسـية في الولايات المتحدة، فارتباطًا به لا يزال السود – لا سـيما على المستوى القومي – بمنأى عـن المراكـز الاجتماعيـة والسياسية المرموقة [١٤٠].

وهكذا فإننا نخلص من خلال كل ما تقدم إلى أن الاعتقاد في وحدة الأصل لدى أفراد جماعة ما – المصحوب بتشـابه سماتهم الفيزيقية – يمثل واحدا من أبرز مقومـات الذاتيـة العرقية لتلك الجماعة، كما أن التباين في السمات الفيزيقية – المرتبط بالاعتقاد في التمايز السلالي بين الجماعات المختلفة – يشكل عاملاً بالغ الأثر في تحديد طبيعة العلاقات بين هذه الجماعات.

---

[١٣٩] انظر في ذلك: محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سـبق ذكره، ص ١٥٨.

[١٤٠] محمد طه بدوي، محاضرات في مقومات الحياة السياسـية فـي الولايات المتحدة (غير منشورة)، ملقاة على طلبة ماجستير العلوم السياسية – كلية التجارة – جامعة الإسكندرية، ١٩٨٦.

ثانيا: المقومات الثقافية للذاتية العرقية:

ويتمثل أظهر هذه المقومات في مقومين هما: وحدة اللغة والثقافة، ووحدة الدين. وفيما يلي نعرض بشيء من التفصيل لكل من هذين المقومين، وأثره في تحديد هوية الجماعة العرقية، وكذا في تحديد طبيعة العلاقات بين الجماعات العرقية التي تشكل الكيان البشري للمجتمع:

١- وحدة اللغة والثقافة:

لا تُمثل اللغة أداة للتواصل والتخاطب بين الأفراد فحسب وإنما تُمثل كذلك وعاء للثقافة، ونمطًا للتفكير ومخزنًا للتراث، ومن هنا فإن المتكلمين بلغة ما – كلغة أصيلة – يشتركون معا في هذه الموروثات، ويختلفون في كل هذه الأمور عما عداهم من أفراد الجماعات التي تتحدث لغات أخرى. من جانب آخر فإن لغة الجماعة الأصيلة – التي تسمى بلغة الأم – تُمثل أداة التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها الأم والتي عن طريقها يتم إرساء الدعائم الأساسية للشخصية، كذلك فإن اللغة تُعد بمثابة مرآة لنسق القيم

والمعايير، وكذا قواعد السلوك السائدة فـي الجماعـة[١٤١].
وهكذا فإن تباين الجماعات الإنسانية اللغوي مـن شـأنه أن يجعلها متباينة من حيث أطرها الثقافية؛ إذ تأسيسا على تلـك ذلك التباين يكون لكل جماعة إطار ثقافي متميـز لـه مـن الخصائص والسمات ما يجعل أساليب معيشة الجماعة مغايرة – علـى نحـو واضـح – لأسـاليب معيشـة الجماعـات الأخرى[١٤٢].

والحق أن ثمة مجتمعات عديدة في عالمنا المعاصـر قـد اتسمت بالتعددية اللغوية أو الثقافية. ففي الاتحاد السـوفييتي السابق – مثلاً – نجد أنه كانت توجد جماعات عرقية لغوية عديدة، فإلى جانب المجموعة الروسية كان هناك اللتوانيـون والأسـتونيون (فـي أوربـا)، والتركمـانيون، والأرمـن، والأذربيجانيون، وغيرهم (في آسيا). كـذلك فقـد ضـمت يوغسلافيا السابقة عديدا من مجموعات ثقافية تُمثل أظهرهـا

---

[١٤١] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكـره، ص ٣٣، ٣٤.

[١٤٢] انظر في هذا المعنى: فاروق مصطفى إسماعيل، مرجـع سـبق ذكره، ص ٥٨.

فــي الصــرب، والكــروات، والألبــان، والبلغــاريين، والمقدونيين[١٤٣]. وفضلاً عما تقدم نجد أن اللغة تسهم بـدور بارز في تحديد الفواصل بين الجماعات العرقيـة المشـكلة للمجتمع الهندي؛ حيث يضم هذا المجتمع أكثر مـن اثنتـي عشرة لغة، وليس ثمة لغة واحدة مـن بينهـا تُمثـل اللغـة الرئيسية أو اللغة الأم [١٤٤].

وتتعين الإشارة إلى أن موقع الجماعة العرقية إزاء غيرها من الجماعات التي تشاركها ذات المجتمع قد يتحدد في ضوء ثقافتها، ففي الولايات المتحدة – مثلاً – تتـدرج الجماعـات العرقية – من حيث المكانة – تدرجا هرميا قوامـه أن ذوي الثقافة الأنجلوسكسونية يتبوءون قمة الهرم العرقي، يليهم ذوو الثقافة اللاتينية، فذوو الثقافة السلافية، ثم يأتي في النهاية ذوو الثقافات غير الأوربية. ويحتمـي هـذا التـدرج بـالعرف الاجتماعي الأمريكي الذي لا يقل صرامة عن القانون، ذلـك

---

[١٤٣] في ذات المضمون انظر: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥، ٣٦.

[١٤٤] انظر في هذا الصدد: فاروق مصطفى إسماعيل، مرجـع سـبق ذكره، ص ٦٠، ٦١.

العرف الذي في ظله لا أمل للأفراد أو الجماعات في شـق طريق الحراك الاجتماعي – اقتصاديا وسياسـيا – مـا لـم يكتسبوا كل أو بعض عناصر الثقافة الأنجلو سكسونية وعلى رأسها اللغة الإنجليزية [١٤٥].

ومهما يكن الأمر فإن أهمية عامل اللغة أو الثقافة كمقـوم للذاتية العرقية تتوقف على الإدراك الذاتي لـه مـن جانـب الجماعة، ففي بعض الأحيان تقدمه الجماعة على غيره مـن المقومات (كالسلالة أو الدين) وتُضفي عليه أهميـة كبـرى كمحور لعصبيتها الذاتية، غير أنه في أحيان أخرى قد تنحسر أهمية هذا العامل اللغوي الثقافي، وتبرز عوامل أخرى فـي المقدمة كمحاور لهوية الجماعة [١٤٦]. ففي الهند – على سبيل المثال – نجد أن كلاً من الهندوس والمسلمين الذين يتحدثون لغة التاميل قد يتضامنون – في ظل ظروف معينة – بغيـة الوقوف في مواجهة أولئك الذين يتحدثون اللغة الآرية، غير أنه في مواقـف أخـرى يتضـامن الهنـدوس الشـماليون

---

[١٤٥] انظر في نفس هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، مرجـع سـبق ذكره، ص ٤٢.

[١٤٦] انظر في ذات المعنى: المرجع السابق، ص ٣٤.

والجنوبيـون فـي مواجهـة المسـلمين وينظـرون إلـيهم كأعداء[147].

وهكذا يتضح في ثنايا ما تقدم أهمية وحدة اللغة والثقافـة كأحد مقومات الذاتية العرقية.

٢- وحدة الدين:

تشير الملاحظة إلى أن اشتراك أفراد جماعـة مـا فـي العقيدة الدينية يمثل – بحق – مقوما بارزا من مقومات الذاتية العرقية لهذه الجماعة. ذلك بأن العقيدة الدينية تـؤثر تـأثيرا بالغًا في سلوك الجماعة، وعلى نحو قد يفوق – في بعـض الأحيان – تأثيره وحدة السلالة أو اللغة في هذا الصدد. ففي ظل مواقف وأوضاع معينة قد يتغاضى المرء – في سـلوكه – عن رابطة السلالة أو اللغة أو حتى الأيديولوجية من أجل العقيدة الدينية، وذلك حال موقف اليهـود السـوفييت بشـأن الهجرة إلى إسرائيل، فعلى الرغم من أن هؤلاء اليهود كانوا يتحدثون ذات اللغات التي يتحدث بها غيرهم من السـوفييت، ويعيشون في مجتمع يتبنى الأيديولوجية الماركسية كأسـاس

---

[147] بصدد هذا المثال انظر: فاروق مصطفى إسماعيل، مرجع سـبق ذكره، ص ٦٠، ٦١.

للتنظيم الاجتماعي بشتى صـوره إلا أن كثيـرين مـنهم – ارتباطًا بعقيدتهم الدينية وتضامنًا منهم مع من يشاركونهم هذه العقيدة – آثروا الهجرة إلى إسـرائيل ذات اللغـة المغـايرة للغاتهم، والمجتمع الرأسمالي المذهب الذي يتباين – من حيث جل مقوماته – عن المجتمع السوفييتي الذي نزحوا منه[١٤٨].

وتجدر الإشارة – من ناحية أخـرى – إلـى أن تبـاين الجماعات العرقية المشكلة لمجتمع مـا مـن حيـث الـدين لا يكتسب أهمية سياسية إلا إذا ترتب عليه تنافس أو تنـازع أو صراع بين هذه الجماعات، سواء في مجال القيم أو الثروة أو السلطة أو غير ذلك من المجالات. ومن هنا يفرق كثيـر من الكُتاب بين مفهومي الطوائف والطائفية؛ إذ يشير المفهوم الأول إلى مجرد التنوع في المعتقدات والممارسات الدينيـة بين الأفراد أو الجماعات التي يتشكل منها المجتمع، في حين أن المفهوم الثاني – أي الطائفية – يشير إلى اسـتخدام هـذا التنوع الديني لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية أو ثقافيـة أو غيرها [١٤٩].

---

[١٤٨] بصدد مضمون مشابه إلى حد كبير: انظر المرجع السابق، ص ٥٩، ٦٠.

[١٤٩] سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧.

ولعل المجتمع الهندي يمثل واحدا من بين عديد من مجتمعات معاصرة يؤدي فيها الدين دورا بارزا في تحديد طبيعة العلاقات بين الجماعات العرقية المشكلة لها، وعلى نحو يمكن معه القول إن للطائفية – بمضمونها المتقدم – سماتها الواضحة في ذلك المجتمع. فالهند تُعد دولة متعددة الديانات يشكل الهندوس فيها نحو ٧٠,٥ % من إجمالي عدد السكان، ذلك فضلاً عن وجود أقليات أخرى لها نفوذها في مناطق معينة من الهند حال جماعة السيخ في إقليم البنجاب وجماعة المسيحيين في منطقة كيرالا. غير أن الطائفية لا تظهر بجلاء إلا فيما يتصل بالعلاقة بين الهندوس والمسلمين، وذلك على الرغم من أن الجماعتين تنتميان – في واقع الأمر – إلى سلالة واحدة؛ حيث إن معظم مسلمي الهند قد تحولوا إبان نشر الدعوة الإسلامية عن الهندوسية. غير أن الاختلافات الدينية بين الجماعتين أدت إلى اختلافات أخرى في طرق وأساليب الحياة. ومن هنا فالمسلمون والهندوس لا يختلفون فيما بينهم بصدد السمات الفيزيقية وإنما ينصب الاختلاف بين الجماعتين على العقيدة الدينية؛ إذ أمدت

كلتيهما عقيدتها بأساس واضح لتنظيم ذاتها بما يتعارض مـع الجماعة الأخرى [١٥٠].

ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نشير إلى أن ثمـة تـدرجا هرميا للجماعات التحتية (الطوائف) التـي تنطـوي عليهـا الجماعة الهندوسية في المجتمع الهندي، ويعـد الـدين هـو العامل الذي تتدرج على أساسه هذه الجماعات مـن حيـث المكانة؛ إذ تأتي طائفة (البراهما) في قمة الهرم، تليها طائفة (الكشاتريا)، ثم (الفيشا)، ثم طائفة (السودرا)، وأخيرا طائفـة (الباريا) أو المنبوذين. وفي ضوء موقع الطائفـة مـن هـذا التدرج تتحدد الوظائف الاجتماعية المنوط بأفرادها القيام بها، فالطائفة الأولى تقوم على الوظائف الروحية والقيادية، فـي حين تقوم الطائفة الثانية بوظيفة المحاربين، أما الطائفة الثالثة فتقوم بأمور التجارة والزراعة، وأما الرابعـة فهـي طائفـة العمال اليدويين، ثم تأتي الطائفة الخامسة في أسـفل السـلم الاجتماعي الاقتصادي وتؤدي الأعمال الوضيعة. وتحترم كل

---

[١٥٠] انظر في هذا المضمون: فاروق مصطفى إسماعيل، مرجع سبق ذكره، ص ٥٨، ٥٩.

طائفة في هذا التدرج ما يعلوها من طوائف، كما تقبل مكانتها الاجتماعية كأمر مقدس تمليه العقيدة الهندوسية [١٥١].

وعلى صعيد آخر وبصدد الصراع الطائفي بين الهندوس والمسلمين فإنه تجدر الإشارة إلى أن آثار هذا الصراع لم تقتصر – من حيث النطاق – على المجتمع الهندي؛ حيث امتدت هذه الآثار لكي تخلق صراعا دوليا بين الهند وإحدى الدول الإسلامية المتاخمة لها وهي باكستان؛ إذ كان من شأن الاختلاف في العقيدة بين الهندوس والمسلمين أن ظهرت حركة عرقية في إقليم كشمير ذي الأغلبية المسلمة، وقد جعلت هذه الحركة من الانفصال عن الهند والانضمام إلى باكستان هدفًا لها، ومن هنا فقد لقيت التأييد التام من جانب هذه الأخيرة، على نحو أدى إلى تأجج نيران الصراع بين الدولتين المتجاورتين إلى حد جعلهما تنساقان إلى الحرب غير مرة. إنه الصراع الذي لازالت رحاه دائرة حتى يومنا هذا، والذي في ظله بات اندلاع حرب جديدة بين الهند وباكستان أمرا محتمل الحدوث في أي وقت.

---

[١٥١] انظر في ذات المضمون: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، من ص ٤٠ إلى ص ٤٢.

وهكذا يتضح في ثنايا ما تقدم أن وحدة الدين لدى جماعة ما تشكل مقوما بارزا من مقومات ذاتيتهـا، كمـا أن تبـاين الجماعات المشكلة لمجتمع ما من حيث العقيدة الدينيـة مـن شأنه أن يهيئ لظهور الطائفية في ذلك المجتمع على النحـو المشار إليه سلفًا.

وتأسيسا على كل ما قدمنا في هذا المبحث نخلص إلـى أن مقومات الذاتية العرقية قد تكون مقومات فيزيقيـة بيولوجيـة (كوحدة الأصل أو السلالة أو تشابه السمات الفيزيقية)، كما قد تكون مقومات اجتماعية ثقافية (حال وحدة اللغـة والثقافـة أو وحدة الدين). واستكمالاً لما تقدم نضيف الملاحظات التالية:

١- إن ظاهرة العرقية – بمقوماتها المتقدمة – تُعد واحدة من أبرز الظواهر التي عهدتها المجتمعات الإنسـانية متقدمها ومتخلفها، وعلى مر الأزمان ماضيها حـال حاضـرها [١٥٢]؛ إذ وجـدت العرقيـة فـي ظـل الإمبراطوريـات القديمـة كالهنـد القديمـة وكـذا الإمبراطوريـة البيزنطيـة وأيضـا الإمبراطوريـة

---

[١٥٢] Cohn, Abner, Op. Cit., P. ١X.

العثمانية، ذلك فضلاً عن انتشار الجماعات العرقيـة في العديد من بلدان العالم المعاصر كالمملكة المتحدة، وكندا، والعراق، وتركيا، وقبرص، وإسبانيا، وغانا، ونيجيريا، والهند، وسيريلانكا... وغيرهـا. ويرتـد وجود تلك الجماعـات إلـى الهجـرات البشـرية، والحروب، والغزوات، والاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، وطرد الجماعات، والهروب مخافة الحـرب والدمار، أو البحث عن فرص اقتصادية معينـة، أو حتى الاستجابة لضغوط بيئية[١٥٣].

٢- إنه ليس من الضرورة أن يشترك أفراد جماعة مـا في كل مقومات العرقية من فيزيقية وثقافية حتـى تعتبر هذه الجماعة جماعة عرقية، وإنما يكفـي أن يرتبط أفراد الجماعة مـن خـلال أي مـن هـذه المقومات حال وحدة السلالة أو اللغة أو الدين، على أن يكونوا متباينين – بصدد هـذا المقـوم – مـع غيرهم من أفراد الجماعـات الأخـرى المشـكلة لمجتمعهم [١٥٤].

---

[١٥٣] انظر في هذا الصدد: فاروق مصطفى إسماعيل، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦.

[١٥٤] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٦١.

٣- إن أثر تباين الجماعات العرقية في أي من مقومات ذاتيتها على العلاقات فيما بينها يتوقف على مـدى إدراك أفراد هذه الجماعات لذلك التباين، وانعكاس ذلك على أنماط سلوكهم إزاء الجماعات الأخـرى التي تشاركهم ذات المجتمع. ذلك بـأن الاخـتلاف الموضوعي بين الجماعات في أي من المتغيـرات العرقية قد يكون كبيرا، ومع ذلك فإن أفـراد هـذه الجماعات قد لا يضفون على هذا الاختلاف أهمية تذكر، ولا يرتبون عليه آثارا ذات بال. غير أنه في أحيان أخرى قـد يكـون التمـايز العرقـي بـين الجماعات طفيفًا ومع ذلك فإن أفراد هذه الجماعات يضفون عليه أهمية قصوى، بما يهيئ لخلق مشاعر عدائية وسلوك صراعي متبادل بين تلك الجماعات. كما تجدر الإشارة إلى أن أحد المتغيرات العرقيـة كالتباين في السلالة أو اللغة قد تكـون لـه آثـاره البالغة على العلاقات بين الجماعات المتباينة بصدده في مرحلة تاريخية معينة، غير أن هذه الآثار قـد تتضاءل تماما في ظل مرحلة تاريخية أخرى [١٥٥].

---

[١٥٥] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤.

المبحث الثالث

في التعريف بمفهوم الأقلية Minority

تتعين الإشارة – بداية – إلى أنه رغم من أن ظهور جماعات الأقلية في المجتمعات الإنسانية أمر قديم العهد، وأن هذه الجماعات توجد في كثير من بلدان العالم المعاصر، إلا أن ثمة خلافًا بشأنها بين الباحثين لا بصدد تعريفها فحسب وإنما كذلك فيما يتصل بتسميتها؛ إذ إن ثمة فريقًا من الباحثين يطلق عليها – كما أسلفنا – الإشارة عبارة الأقليات القومية National Minorities [١٥٦]، في حين راح فريق آخر يكتفي بلفظة الأقليات Minorities بصدد التعبير عن هذه

---

[١٥٦] انظر في هذا الصدد على سبيل المثال:

Janowsky. Oscar I., Nationalities and National Minorities. Macmillan. New York. ١٩٤٥.

Encyclopedia of the social sciences, V. ٩, Op. Cit. P. ٥١٨.

وأيضا: إسماعيل صبري مقلد، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٦.

الجماعات [١٥٧]، ذلك فضلاً عن أن غير واحد من الباحثين ينحو إلى استخدام عبارة الأقليات العرقية Ethnic Minorities كي يشير إلى تلك الجماعات.

والحق أننا نميل إلى الأخذ بما يقول به الفريق الثاني، ذلك بأن لفظة القومية – التي يسـتخدمها الفريـق الأول – إنمـا تستخدم – من جانب أغلب المشتغلين بالدراسات الاجتماعية – مقترنة إما بمفهوم الأمة، وإما بمفهـوم الدولـة القوميـة Nation – State، على نحو يجعل في استخدام هذه اللفظـة ما يستدعي إلى الذهن أيا من هذين المفهومين أو كليهما، في حين أن الأقلية هي مجرد جماعة من بين أكثر من جماعـة متمايزة – من حيث السلالة أو الأصل أو الدين – تشكل فيما بينها الكيان البشري لمجتمع واحد. وتأسيسا على أن الأقلية – أيا كانت مقوماتها – هي بالضرورة جماعة عرقيـة، فـإن

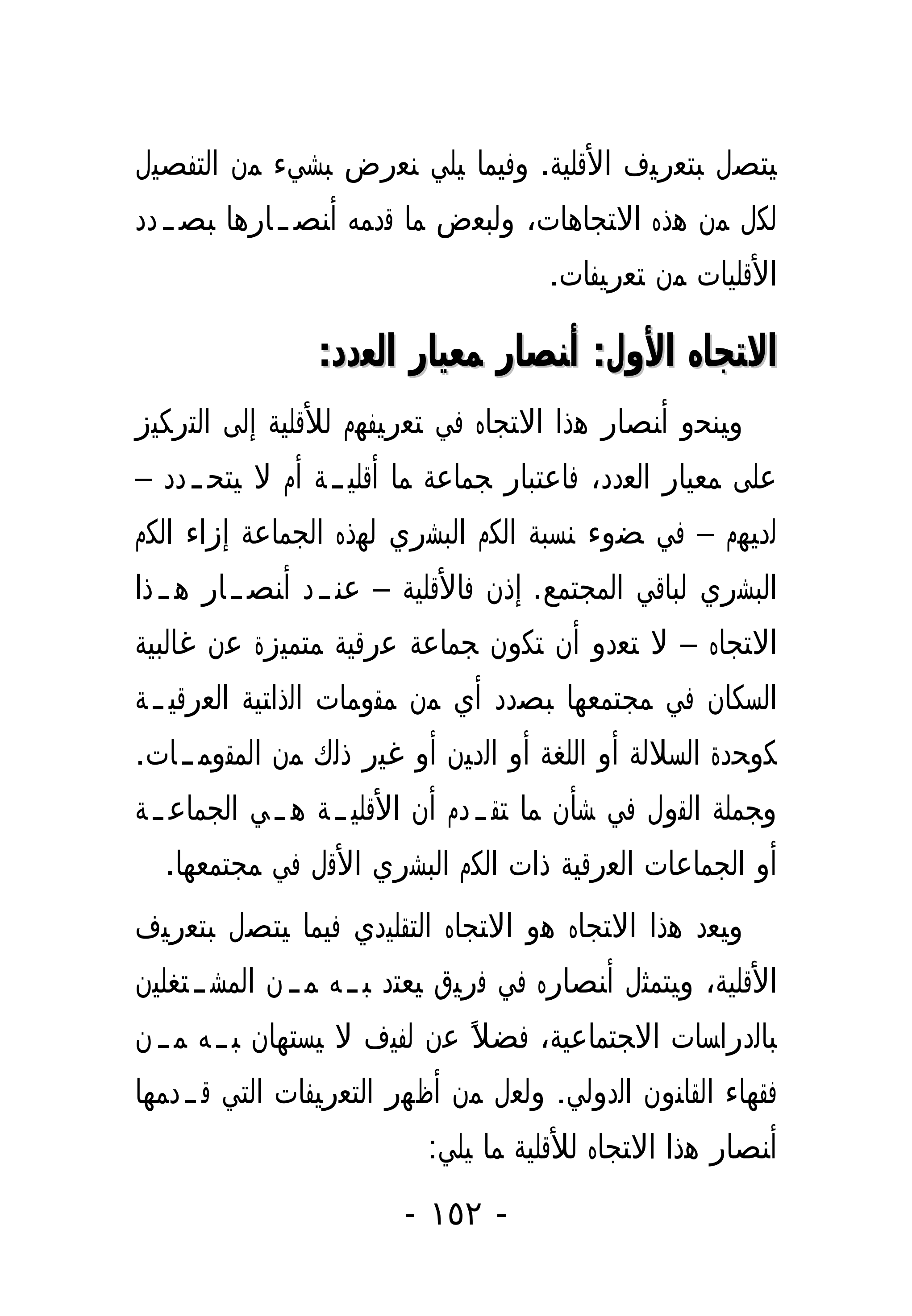
---

[١٥٧] انظر في ذلك: علي صادق أبو هيف، القـانون الـدولي العـام، الطبعة السابعة، منشأة المعارف، الإسـكندرية، ١٩٦٥، مـن ص ٣١٠ إلى ص ٣١٢.

Whitaker, Ben, Minorities: a question of human rights? Pergamon press. Oxford, ١٩٨٤.

إضافة لفظة عرقية إلى لفظة أقلية على النحو الذي يقول بـه أنصار الرأي الثالث يعد تزيدا ليس مقتضى؛ إذ ليس ثمة مـا يدعونا لأن نطلق على الأقلية عبارة الأقلية العرقية طالما أن كل الأقليات لا بد وأن تكون عرقية. غير أنه يتعين التنويه – قبل أن نشرع في تعريف الأقلية – إلى أنه إذا كانت كل أقلية هي حتما جماعة عرقية، فإن كل جماعـة عرقيـة ليسـت بالضرورة أقلية وذلك على النحو الذي سيتضح مـن ثنايـا تحليلنا اللاحق.

وإذا كان اختلاف الباحثين بصدد تسمية جماعة الأقلية قد جاء على النحو المتقدم فإن الاختلاف بينهم بصدد تعريفهـا كان أوضح صورة وأوسع هوة. ومهما يكن من أمـر هـذا الاختلاف فإننا يمكن أن نميز في أغواره بين ثلاثة اتجاهات فكرية بصدد تعريف الأقلية، فعلى حين يؤكد أنصار الاتجـاه الأول في تعريفاتهم للأقلية على معيار العدد (أي عدد أفـراد جماعة الأقلية مقارنًا بعدد باقي أفراد المجتمع)، ينحو أنصار الفريق الثاني في تعريفاتهم إلى التأكيد على معيار آخر هـو الوضع السياسي والاجتماعي للأقلية، أمـا الاتجـاه الثالـث فيذهب أنصاره إلى الجمع بين المعيـارين المتقـدمين فيمـا



يتصل بتعريف الأقلية. وفيما يلي نعرض بشيء من التفصيل لكل من هذه الاتجاهات، ولبعض ما قدمه أنصـارها بصـدد الأقليات من تعريفات.

الاتجاه الأول: أنصار معيار العدد:

وينحو أنصار هذا الاتجاه في تعريفهم للأقلية إلى التركيز على معيار العدد، فاعتبار جماعة ما أقليـة أم لا يتحـدد – لديهم – في ضوء نسبة الكم البشري لهذه الجماعة إزاء الكم البشري لباقي المجتمع. إذن فالأقلية – عنـد أنصـار هـذا الاتجاه – لا تعدو أن تكون جماعة عرقية متميزة عن غالبية السكان في مجتمعها بصدد أي من مقومات الذاتية العرقيـة كوحدة السلالة أو اللغة أو الدين أو غير ذلك من المقومـات. وجملة القول في شأن ما تقـدم أن الأقليـة هـي الجماعـة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشري الأقل في مجتمعها.

ويعد هذا الاتجاه هو الاتجاه التقليدي فيما يتصل بتعريف الأقلية، ويتمثل أنصاره في فريق يعتد بـه مـن المشـتغلين بالدراسات الاجتماعية، فضلاً عن لفيف لا يستهان بـه مـن فقهاء القانون الدولي. ولعل من أظهر التعريفات التي قـدمها أنصار هذا الاتجاه للأقلية ما يلي:

١- الأقلية هي: "مجموعة من السكان لديهم عادة جنسية الدولة غير أنهم يعيشون بذاتيتهم ويختلفـون عـن غالبية المواطنين في الجنس واللغة والعقيدة والثقافة والتاريخ والعادات" [١٥٨]. وإذن فمفاد هذا التعريف أن الأقلية هي جماعة عرقية متمايزة عـن غالبيـة سكان مجتمعها بصدد شتى مقومات الذاتية العرقية. ومن هنا فإننا لا نتفق مع القائـل بهـذا التعريـف بصدده، ذلك بأن الأقلية – شأنها في ذلك شأن أيـة جماعة عرقية – لا يشترط فيهـا بالضـرورة أن تختلف عن باقي سكان مجتمعها في شتى مقومـات الذاتية العرقية؛ إذ يكفي لاعتبار جماعة ما أقلية أو جماعة عرقية أن تتمايز هذه الجماعة عن غيرهـا من سكان مجتمعها بصدد أي من هذه المقومات أو بعضها، على أن يكون أفراد تلك الجماعة مدركين لذلك التمايز على نحو يكون له أثره الواضح علـى مواقفهم وسلوكهم إزاء الجماعات الأخـرى التـي تشارك جماعتهم ذات المجتمع.

---

[١٥٨] أحمد سويلم العمري، أصول العلاقات السياسية الدولية، مرجـع سبق ذكره، ص ٨٢١.

٢- "ينصرف اصطلاح الأقلية على وجه العموم إلى أية طائفة من البشر المنتمين إلى جنسية دولة بعينهـا متى تميزوا عن أغلبية المواطنين المكونين لعنصر السكان في الدولة المعنية من حيـث العنصـر أو الدين أو اللغة" [(١٥٩)]. ويكاد هذا التعريف يتطابق – من حيث مضمونه – مع عديد من تعريفات أخرى، من ذلك أن ثمة من يعرف الأقلية بأنها: "جماعة من بين رعايا الدولة تنتمي بجنسها أو بلغتها أو بدينها إلى غير ما ينتمي إليه غالبية الرعايا" [(١٦٠)]. وفـي ذات المضمون يعرف أحد المشتغلين بالدراسـات القانونية الأقلية بقوله:

[(١٥٩)] محمد سامي عبد الحميد، أصول القانون الدولي العـام، الجـزء الأول، الجماعة الدولية، مؤسسة الثقافة الجامعية، بدون تاريخ، ص ١١٥.

[(١٦٠)] انظر بصدد هذا التعريف: محمد حافظ غـانم، مبـادئ القـانون الدولي العام، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢، ص ٥٢٣، وكذا:

أحمد عطية ا ، القاموس السياسي، دار النهضـة العربيـة، القـاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠، ص ١١٩.

"الأقلية هي مجموعة من الأفراد داخل الدولة تختلف عن الأغلبية من حيث الجنس أو العقيدة أو اللغة، فاعتبار شخص ما من الأقلية مسألة واقـع يرجـع فيهـا إلـى العناصـر الموضوعية" (١٦١). وفضلاً عما تقدم فإن ثمة مـن يعـرف الأقلية بأنها: "ذلك الجزء من سكان الدولة الذي ينتسب أفراده إلى أصل قومي يختلف عن الأصل القومي الذي ينحدر منـه غالبية هؤلاء السكان" (١٦٢).

وهكذا يتضح في ثنايا ما تقدم تركيز أصحاب التعريفـات الأربعة السابقة على معيار العـدد؛ إذ يسـتفاد مـن هـذه التعريفات قاطبة أن الأقليـة لا تعـدو أن تكـون الجماعـة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشري الأقل في مجتمعهـا. غير أنه مما يؤخذ على هذه التعريفات أن أصـحابها – وإن التقوا على تضمينها سردا لمقومات الذاتية العرقيـة – إلا أن أحدا منهم لم يشر في تعريفه إلى عنصر هـام يتمثـل فـي إدراك أفراد الأقليات أو الجماعات العرقية لهـذه المقومـات

---

(١٦١) الشافعي محمد بشير، القانون الدولي العام في السلم والحـرب، مكتبـة الجلاء الحديثة، المنصورة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦، ص ١٠٨.

(١٦٢) إسماعيل صبري مقلد، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٦.

ولتباينهم بصددها عما عداهم مـن أفـراد المجتمـع، ذلـك الإدراك الذي يهيئ لظهور مفهوم "نحن" ليعبـر بـه أفـراد الجماعة عن أنفسهم، ومفهوم "هم" كي يشير أفراد الجماعـة إلى أولئك الذين ينتسبون إلـى الجماعـات الأخـرى التـي تشاركهم مجتمعهم.

٣- الأقلية هي جماعة يرتبط أفرادها فيما بيـنهم مـن خلال روابط معينة حال وحدة الأصـل أو اللغـة أو العقيدة الدينية، كما يشعر هؤلاء الأفراد بـأنهم مختلفون بصدد هذه الروابط عـن أغلبيـة سـكان دولتهم [١٦٣].

ويقترب من هذا التعريف – من حيث فحواه – تعريـف آخر قدمه أحد الباحثين المهتمين بالظاهرة العرقية، وقوام هذا التعريف: أن الأقلية "هي أية مجموعة بشرية تختلـف عـن الأغلبية في مجتمعها بصدد واحد أو أكثر مـن المتغيـرات التالية: الدين أو اللغة أو الثقافة أو السلالة، وذلك على اعتبار أن أيا من هذه المقومات يضفي على هذه المجموعة البشرية

---

(١٦٣) Encyclopedia Britannica, Volume ١٥, William Benton Publisher, London, p. ٤٥٢.

قسمات اجتماعية اقتصادية حضارية تلون سلوكها ومواقفهـا السياسية في مسائل مجتمعية رئيسية" (١٦٤). وفي موضع آخر يعرف ذات الباحث الأقلية بأنها: "أي كيان بشـري يشـعر أفراده بوحدة الانتماء لاشتراكهم الجماعي في امتلاك خاصية أو خصائص نوعية لا تشترك معهم فيها الجماعات الأخرى أو الأغلبية في المجتمع" (١٦٥).

وفي ضوء ما تقدم يتضح استناد القائلين بهذه التعريفـات الثلاثة – أيضا – إلى معيار العدد بمضمونه المتقـدم، ذلـك فضلاً عن تأكيدهم على عنصر إدراك أفراد جماعة الأقليـة لمقومات ذاتيتهم العرقية، فالأقلية – على حـد قـول أحـد الباحثين – يجب أن تكون واعية تماما بتلك المقومات التـي تحقق لها التضامن الداخلي والتمايز في مواجهة الآخـرين، ذلك بأن الأقلية هي نتاج عمليتين تتمثل أولاهما في استقطاب

---

(١٦٤) سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ١٨، ١٩.

(١٦٥) قدم هذا التعريف أيضا الدكتور سعد الدين إبراهيم انظر بصـدده: السيد محمد جبر، المركز الدولي للأقليات في القانون الدولي العام مع المقارنة بالشريعة الإسلامية، منشأة المعـارف، الإسـكندرية، ١٩٩٠، ص ٩٠.

كل من يشارك أفراد جماعة الأقلية في مقومات ذاتيتها، أما العملية الثانية فتتمثل في استبعاد كل من يتباين مع تلك الجماعة بصدد هذه المقومات [166].

وجملة القول في شأن هذا الاتجاه أن أنصاره ينحون – بصدد تعريفهم للأقلية – إلى التأكيد على معيار العدد، والذي مفاده أن الأقلية هي الجماعة (أو الجماعات) العرقية ذات الكم البشري الأقل في مجتمعها. ويؤخذ على هذا الاتجاه عدم إشارة أنصاره إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأقليات.

الاتجاه الثاني: الأقلية هي كل جماعة عرقية مستضعفة:

وينحو أنصار هذا الاتجاه – في تعريفاتهم لجماعة الأقلية – إلى التركيز على معيار الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي لهذه الجماعة؛ إذ تعد أقلية – لديهم – كل جماعة عرقية مستضعفة (أو مقهورة) من الناحية السياسية، ومفتأت على حقوقها من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، وذلك بغض النظر عن عدد أفراد هذه الجماعة، حتى ولو كانوا يمثلون أغلبية عددية إزاء ما عداهم من أفراد مجتمعهم.

---

[166] انظر في هذا المضمون: نيفين مسعد، مرجع سبق ذكره، ص (د).

وينتسب إلى هذا الاتجاه بصدد تعريـف الأقليـة فريـق لا يستهان به من المشتغلين بالدراسات الاجتماعيـة، فضـلاً عن العديد من فقهاء القانون، وتتلخص وجهـة نظـر هـذا الفريق في أنه: (ليست كل أقلية عدديـة هـي بالضـرورة مقهورة، كما أنه ليست كل أغلبية هي بالضـرورة قـاهرة، فالأوربيون في معظم أقطار آسيا وإفريقيا – إبـان الحقبـة الاستعمارية – كانوا يمثلون أقلية عددية، بيـد أنهـم كـانوا يسيطرون على مقاليد الأمور في تلك الأقطـار، ويقهـرون سكانها الأصليين الذين كانوا يمثلون أغلبية فائقة من حيـث العدد، ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك الشكل الاسـتعماري الذي كان قائما في كل من الجزائر، وزيمبابوي (روديسـيا)، وكذا جنوب إفريقيا (إلى عهد قريب)، وقد كان قـوام ذلـك الشكل الاستعماري تسلط أقلية وافدة أصـلاً مـن الخـارج استوطنت الأرض بالقوة، أو في حماية جيش احتلال، تمارس سياسة القهر إزاء الأغلبية من السكان الأصليين) [١٦٧] وهكذا فارتباطًا بما تقدم راح أنصار هذا الاتجاه من الباحثين – كما أسلفنا الإشارة – ينبذون المعيار العددي الكمي في تعريـف

---

[١٦٧] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨.

جماعتي الأقلية والأغلبية، ويستعيضون عن هـذا المعيـار بمعيار آخر في هذا الصدد في معيـار الوضـع السياسـي والاجتماعي والاقتصادي للجماعة.

وكأمثلة على التعريفات التي قدمها أنصار هـذا الاتجـاه بصدد مفهوم الأقلية نقدم التعريفات التالية:

١- الأقلية هي: (مجموعة من الأشخاص فـي الدولـة ليست لها السيطرة أو الهيمنة، تتمتع بجنسية الدولة إلا أنها تختلف من حيث الجنس أو الديانة أو اللغة عن باقي الشعب، وتصـبو إلـى حمايـة ثقافتهـا وتقاليدها ولغتها الخاصة) [١٦٨].

ويتضح من خلال هذا التعريف أن صاحبه لم يضمنه أية إشارة إلى معيار العدد بمضمونه المتقدم، وإنما ركز بدلاً من ذلك على معيار الوضع السياسي للأقلية؛ إذ يستفاد من هـذا التعريف أن الأقلية هي أية جماعة عرقية تتبوأ موقعا غيـر مسيطر في مجتمعها. والحق أننا نتحفظ على هذا التعريـف لأسباب سنعرض لها في موضع لاحق.

---

[١٦٨] ينسب هذا التعريف إلى فإن ديك، وقد نقلناه عن: السـيد جبـر، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦.

٢- الأقلية هي: (جماعة تشترك في واحد أو أكثر من المقومات الثقافية أو الطبيعية، وفي عدد من المصالح التي تكرسها تنظيمات وأنماط خاصة للتفاعل، وينشأ لدى أفرادها وعي بتمايزهم في مواجهة الآخرين نتيجة التمييز السياسي والاجتماعي – الاقتصادي ضدهم مما يؤكد تضامنهم ويدعمه) [١٦٩].

ويلاحظ أن هذا التعريف – شأنه في ذلك شأن التعريف السابق عليه – لم يتضمن أية إشارة إلى عنصر العدد كمعيار لتحديد الأقلية، كما أن القائل به قد استند – هو الآخر – إلى معيار الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي بشأن تعريف الأقلية. ويظهر هذا التعريف على غيره من التعريفات المتقدمة قاطبة بإشارة صاحبه فيه إلى عامل المصلحة المشتركة كواحد من العوامل التي تهيئ لتماسك جماعة الأقلية وتضامن أفرادها.

---

[١٦٩] نيفين مسعد، مرجع سبق ذكره، ص (د).

غير أننا لا نتفق مع القائل بهذا التعريف فيما ذهب إليـه من أن وعي أفراد جماعة الأقلية بتمايزهم عن الآخرين؛ إنما ينشأ كنتيجة للتمييز السياسـي والاجتمـاعي والاقتصـادي ضدهم، ذلك بأن هذا الوعي بالتمايز – في رأينا – إنما ينشأ لدى أفراد الجماعة من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، تلك العملية التي تتم في ضوء مقومات الجماعة الذاتية لا سـيما الثقافية منها حال اللغة أو الدين. وإلا فلمـاذا يشـعر أفـراد الأقلية الفرنسية التي تستوطن كندا بتمايزهم العرقـي بـرغم أنهم لا يعانون من أي من صور التمييز؟

٣- الأقلية هي: جماعة بشرية يرتبط أفرادها فيما بينهم من خلال روابط فيزيقيـة (بيولوجيـة) أو ثقافيـة تميزهم عن غيرهم من أفراد مجـتمعهم، ويعـاني أفراد هذه الجماعة من معاملة قوامها عدم المساواة مع الآخرين، ولذلك فهم يشعرون بأن ثمة تمييـزا جماعيا يمارس في مواجهتهم [١٧٠]. ويقترب هـذا

---

[١٧٠] انظر بصدد هذا التعريف:

Wagley, Charles, Minorities in the New World, Colombia University Press, New York, ١٩٨٥, p. ٤

التعريف – من حيث مضمونه – من تعريف آخـر قوامه أن الأقلية هي: (جماعة من الناس تختلف عن الآخرين في مجتمع ما من حيث العرق أو القومية أو الدين أو اللغة، وترى هـذه الجماعـة نفسـها كجماعة متميزة، وعلاوة على ذلك فهذه الجماعـة بعيدة عن السلطة، ومن ثم تكون عرضـة لـبعض الاستبعاد والتمييز والمعاملة المختلفة) [171].

وهكذا فإن صاحبي هذين التعريفين – أيضا – قد اسـتندا إلى معيار الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصـادي – دون معيار العدد – بصدد تحديد جماعة الأقلية؛ إذ إن مفـاد كـلا التعريفين أن الأقلية هي أية جماعة عرقية مستضعفة أو غيـر مسيطرة في مجتمعها، وبمفهوم المخالفة فإن أية جماعة عرقية مسيطرة أو تتمتع بالمساواة مع غيرها من سكان مجتمعهـا لا تعد أقلية حتى وإن كانت تُمثل أقلية من حيث العدد، وهذا هـو ما لا نوافق عليه لأسباب سنعرض لها لاحقًا.

---

[171] ورد هذا التعريف في الجزء العاشر من الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية، وقد نقلناه عن:

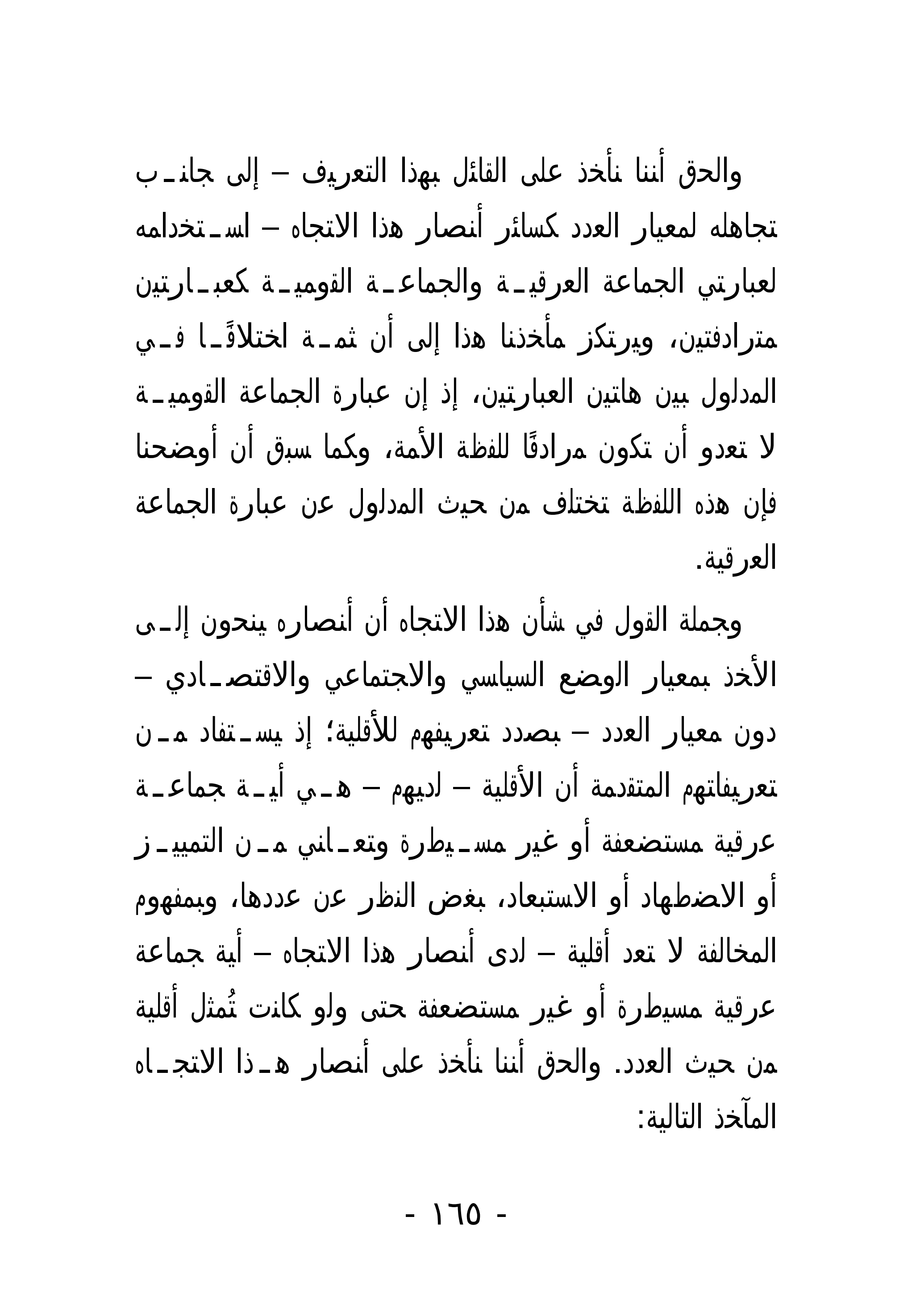
وائل أحمد علام، حماية حقوق الأقليات في القانون الدولي العـام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٨.

٤- الأقلية هي: (جماعة عرقية لها هوية قومية متميزة وذاتية ثقافية واضحة تعيش داخل دولة تسيطر على مقاليد الأمور فيها جماعة قومية أخرى، وتنظر هذه الأخيرة إلى الدولة باعتبارها تعبيرا خاصـا عـن هويتها) [١٧٢]. وتأكيدا على أخذه بمعيـار الوضـع السياسي والاجتماعي والاقتصادي – دون معيـار العدد – يضيف صاحب هذا التعريف أنـه: "علـى الرغم من أن ثمة أقليات تشكل عمـلاً الجماعـات المسيطرة والأكثر ثراء في مجتمعاتها فـإن لفظـة أقلية تستخدم في عصرنا – على حـد قـول هـذا الباحث – للدلالة على أولئك الذين هم فـي وضـع غير مسيطر أو دفـاعي "Defensive Position" [١٧٣].

---

(١٧٢) Encyclopedia of Social Sciences, Vol. ٩, Op. Cit., P. ٥١٨.

(١٧٣) Ibid, P. ٥١٨.



والحق أننا نأخذ على القائل بهذا التعريف – إلى جانب تجاهله لمعيار العدد كسائر أنصار هذا الاتجاه – استخدامه لعبارتي الجماعة العرقية والجماعة القومية كعبارتين مترادفتين، ويرتكز مأخذنا هذا إلى أن ثمة اختلافًا في المدلول بين هاتين العبارتين، إذ إن عبارة الجماعة القومية لا تعدو أن تكون مرادفًا للفظة الأمة، وكما سبق أن أوضحنا فإن هذه اللفظة تختلف من حيث المدلول عن عبارة الجماعة العرقية.

وجملة القول في شأن هذا الاتجاه أن أنصاره ينحون إلى الأخذ بمعيار الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي – دون معيار العدد – بصدد تعريفهم للأقلية؛ إذ يستفاد من تعريفاتهم المتقدمة أن الأقلية – لديهم – هي أية جماعة عرقية مستضعفة أو غير مسيطرة وتعاني من التمييز أو الاضطهاد أو الاستبعاد، بغض النظر عن عددها، وبمفهوم المخالفة لا تعد أقلية – لدى أنصار هذا الاتجاه – أية جماعة عرقية مسيطرة أو غير مستضعفة حتى ولو كانت تُمثل أقلية من حيث العدد. والحق أننا نأخذ على أنصار هذا الاتجاه المآخذ التالية:

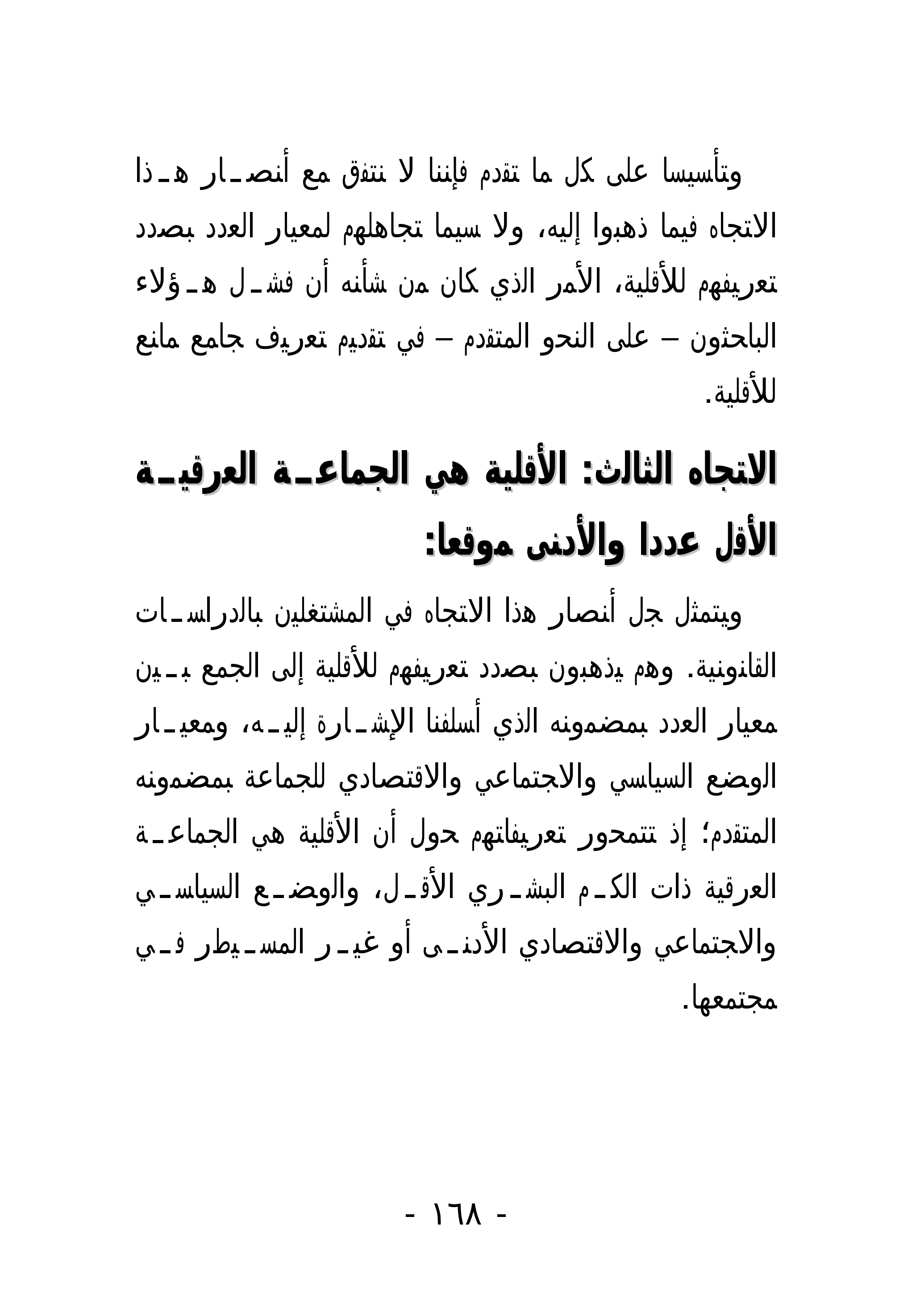
١- تجاهلهم لمعيار العدد بصدد تعريف الأقلية، وهذا أمر غير مقبول نظرا لأن من شأنه تمييع الفواصل بين مفهومي الأقلية والأغلبية، وعدم تحديد مدلوليهما تحديدا جامعا مانعا ينتفي في ظله الخلط والتداخل بين هذين المفهومين. فعلى سبيل المثال نجد أن الأغلبية العددية الهائلة من السود في جنوب إفريقيا كانت – إلى عهد قريب – تُمثل جماعة عرقية مستضعفة تعاني شتى صنوف التمييز والاضطهاد والاستبعاد من جانب أقلية عددية مسيطرة من البيض في مجتمعها [١٧٤]. فهل بمقدور أحد القول بأن السود – في ظل تلك الظروف – كانوا يمثلون أقلية في حين أن البيض كانوا لا يعتبرون كذلك؟

---

[١٧٤] بصدد ما يدعم وجهة نظرنا هذه انظر: سامي عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص ١١٥.

٢- إنه يستفاد من تعريفاتهم أن الأقليات هي بالضرورة جماعات عرقية غير مسيطرة في حين أن ملاحظة الواقع تشير إلى أن ثمة جماعات – اتفق على كونها أقليات – ومع ذلك فهي جماعات مسيطرة، وذلك حال أقليتي البيض في كل من زيمبابوي (روديسيا) وجنوب إفريقيا، واللتين كانتا – إلى عهد قريب – تُمثلان جماعتين مسيطرتين كل في دولته.

٣- القول بأن الأقليات – نظرا لكونها غير مسيطرة لديهم – هي بالضرورة جماعات تعاني من التمييز أو الاضطهاد أو الاستبعاد، وهذا قول مرفوض أيضا نظرا لأن ملاحظة الواقع تشير إلى أن ثمة أقليات غير مسيطرة إلا أنها تعامل على قدم المساواة مع غيرها من الجماعات المشكلة لمجتمعها، وذلك حال الأقلية الفرنسية في كندا، والتي لا تعاني من أية صورة من صور التمييز أو الاضطهاد أو الاستبعاد..



وتأسيسا على كل ما تقدم فإننا لا نتفق مع أنصـار هـذا الاتجاه فيما ذهبوا إليه، ولا سيما تجاهلهم لمعيار العدد بصدد تعريفهم للأقلية، الأمر الذي كان من شأنه أن فشـل هـؤلاء الباحثون – على النحو المتقدم – في تقديم تعريف جامع مانع للأقلية.

الاتجاه الثالث: الأقلية هي الجماعـة العرقيـة الأقل عددا والأدنى موقعا:

ويتمثل جل أنصار هذا الاتجاه في المشتغلين بالدراسـات القانونية. وهم يذهبون بصدد تعريفهم للأقلية إلى الجمع بـين معيار العدد بمضمونه الذي أسلفنا الإشـارة إليـه، ومعيـار الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للجماعة بمضمونه المتقدم؛ إذ تتمحور تعريفاتهم حول أن الأقلية هي الجماعـة العرقية ذات الكـم البشـري الأقـل، والوضـع السياسـي والاجتماعي والاقتصادي الأدنـى أو غيـر المسـيطر فـي مجتمعها.

ومن بين ما قدمه أنصار هذا الاتجاه من تعريفات للأقلية نسوق التعريفات التالية كأمثلة:

١- الأقلية هي: (مجموعة من مواطني الدولة تختلف عن أغلبية الرعايا من حيث الجنس أو الدين أو اللغة أو الثقافة، وغير مسيطرة أو مهيمنة، وتشعر بالاضطهاد مستهدفة حماية القانون الدولي لها)[(١٧٥)].

وعلى الرغم من عدم الدقة في صياغة هذا التعريف إلا أنه يتضح من ثناياه أن صاحبه قد جمع بين معيار العدد ومعيار الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي بصدد تحديد الأقلية. غير أنه يؤخذ على القائل بهذا التعريف أنه يرى أن الأقلية هي بالضرورة في وضع غير مسيطر، مع أن ملاحظة التاريخ – وكذا الواقع – تشير – كما أسلفنا القول – إلى أن ثمة أقليات مسيطرة حال الأقلية البيضاء في جنوب إفريقيا إلى عهد قريب، وكذلك أقليات أخرى سنشير لها في موضع لاحق.

[(١٧٥)] السيد جبر. مرجع سبق ذكره، ص ٩٦.

من جانب آخر فإن صاحب هذا التعريف يرى أن الأقليـة هي – بالضرورة أيضا – جماعة تعاني مـن الاضـطهاد؛ حيث يضيف بصدد شرح تعريفه أنه "إذا لم تكن الأقلية محلاً للاضطهاد فلا تدخل مناط تعريفنا للأقليات، وحسبنا أن نشير إلى أن أهل النوبة في مصر على الرغم مـن قلـة عـددهم واختلاف لونهم عن بقية أفراد الشعب إلا أن عدم شـعورهم وإحساسهم بأنهم محلاً للاضـطهاد تتـداعى معـه أوجـه الاختلاف بينهم وبين أفراد الشعب؛ مما يخرجهم من مصاف التعريف" [١٧٦]. والحق أننا نرفض هذا الرأي وما استند إليه من أسانيد. ذلك بأن ملاحظة الواقع تشير إلى أن ثمة أقليات لا تعاني من الاضطهاد، وذلك حال الأقلية الفرنسية في كندا كما سبق أن أشرنا. وتجدر الإشارة إلى أن اعتبار الفرنسيين في كندا أقلية وجماعة عرقية متميزة؛ إنما يرتد إلى إدراكهم العميق لتمايزهم عن باقي الشعب الكندي من حيث الأصـل واللغة، ولإضفائهم أهمية قصوى على هـذا التمـايز. أمـا النوبيون في مصر – فعلى الرغم من اختلافهم عن أغلبيـة الشعب المصري من حيث بعض السمات الفيزيقيـة كلـون

---

[١٧٦] المرجع السابق، ص ٩٧.

البشرة، إلا أن إدراكهم لهذا الاختلاف – وكذلك إدراك باقي الشعب له، هو إدراك غير عميق، كما أن المصريين جميعـا – بمن فيهم أهل النوبة – لا يضفون على هـذا الاخـتلاف أهمية تذكر. ويرتد ذلك إلى ارتباط أهل النوبة بأغلبية الشعب المصري من خلال وشيجة راسخة تتمثل في الدين المشترك المتمثل في الإسلام، ذلك الدين الذي يؤكد على رابطة الإخوة بين جميع المسلمين أيا كـان لـونهم أو أصـلهم، ويجعـل الأفضلية بينهم لأقـواهم إيمانـًا، لا لأبيضـهم أو أسـودهم أو أحمرهم.

٢- في عام ١٩٨٥ تبنت اللجنة الفرعية لمنع التمييـز وحماية الأقليات [١٧٧] تعريفًا قدمه أحـد أعضـائها للأقلية أنها: "جماعة من المواطنين في دولـة مـا يشكلون أقلية عددية، ويكونون فـي وضـع غيـر

---

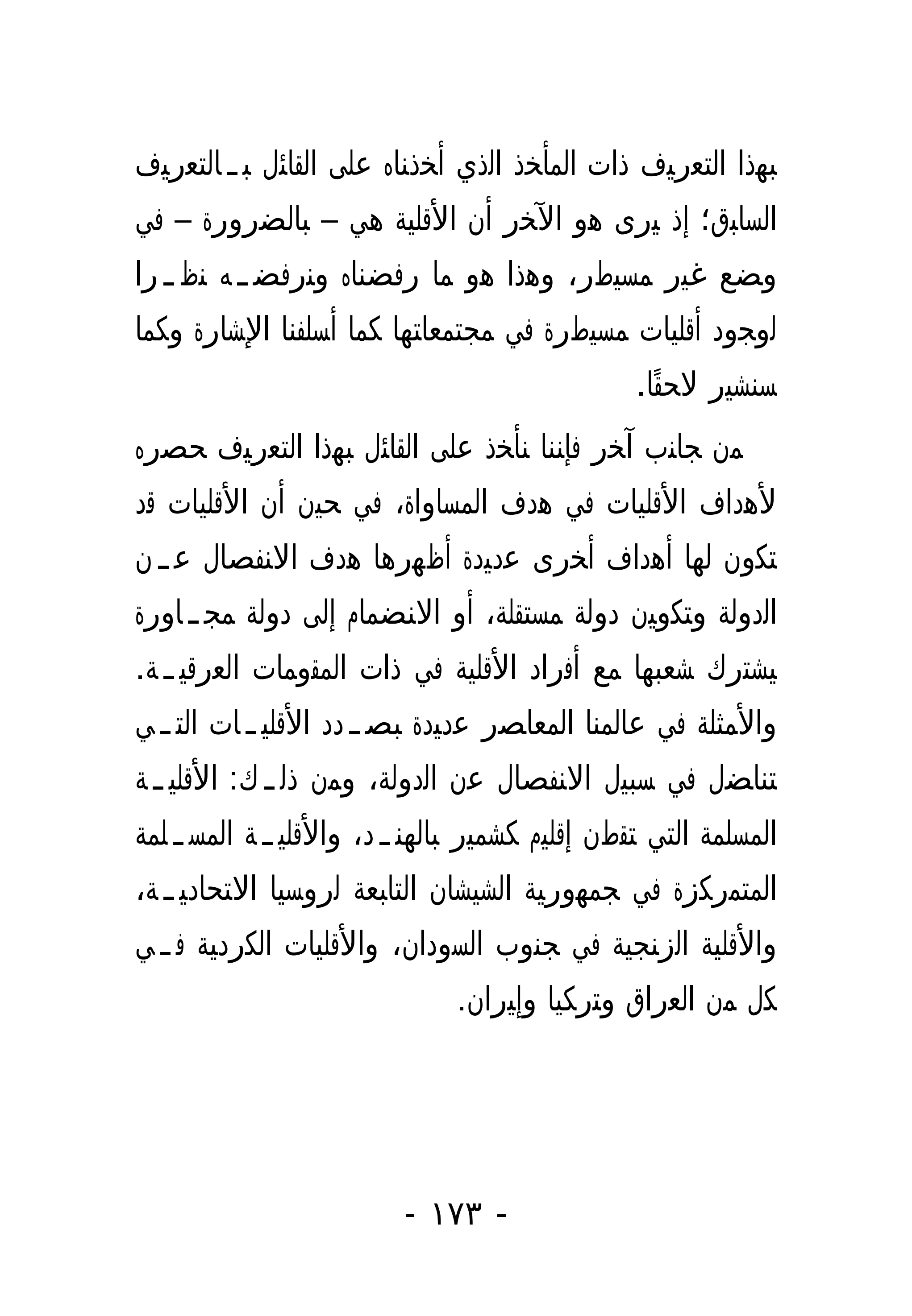
[١٧٧] تُمثل هذه اللجنة أحد أجهزة الأمم المتحدة، وقد أنشئت في عـام ١٩٤٧. انظر بصدد تعريفها المشار إليه: وائل أحمد علام، مرجع سبق ذكـره، ص ١٨، ١٩. وانظر كذلك: السيد جبر، مرجع سبق ذكره، ص ٨٢.

مسيطر في هذه الدولة، ولهم خصائص عرقية[١٧٨] أو دينية أو لغوية تختلف عن خصـائص أغلبيـة السكان، ويكون لديهم شعور بالتضامن فيما بيـنهم يشجعه وجود – ولو ضمنيا – إرادة جماعية فـي البقاء كجماعة متميزة، وهدفهم هو تحقيق المساواة مع الأغلبية في الواقع وفي القانون".

وهكذا فإن القانون بهذا التعريف قد جمع – هو الآخـر – بين معيار العدد ومعيـار الوضـع السياسـي والاجتمـاعي والاقتصادي بسدد تعريف الأقلية. ويتميز هذا التعريف بتأكيد صاحبه فيه على أهمية عنصر الإدراك والوعي بالتمايز عن الآخرين لدى أفراد جماعة الأقلية، وأثر هذا العنصر في دعم وجود الجماعة وتأكيد استمراريتها. غير أننا نأخذ على القائل

---

[١٧٨] يتعين التنويه إلى أن استخدام لفظة عرقية هنا غير دقيق، ذلك بأن الخصائص العرقية تتضمن الخصائص الدينية واللغوية التي ذكرها صاحب التعريف في تعريفه، وكان الأجدر به أن يقـول: "ولهـم خصائص سلالية أو دينية أو لغويـة" أو أن يكتفـي بـ ـ"ولهـم خصائص عرقية". راجع المبحثين السابقين بشأن تعريف الجماعة العرقية ومقومات ذاتيتها.



بهذا التعريف ذات المأخذ الذي أخذناه على القائل بـالتعريف السابق؛ إذ يرى هو الآخر أن الأقلية هي – بالضرورة – في وضع غير مسيطر، وهذا هو ما رفضناه ونرفضـه نظـرا لوجود أقليات مسيطرة في مجتمعاتها كما أسلفنا الإشارة وكما سنشير لاحقًا.

من جانب آخر فإننا نأخذ على القائل بهذا التعريف حصره لأهداف الأقليات في هدف المساواة، في حين أن الأقليات قد تكون لها أهداف أخرى عديدة أظهرها هدف الانفصال عـن الدولة وتكوين دولة مستقلة، أو الانضمام إلى دولة مجـاورة يشترك شعبها مع أفراد الأقلية في ذات المقومات العرقيـة. والأمثلة في عالمنا المعاصر عديدة بصـدد الأقليـات التـي تناضل في سبيل الانفصال عن الدولة، ومن ذلـك: الأقليـة المسلمة التي تقطن إقليم كشمير بالهنـد، والأقليـة المسـلمة المتمركزة في جمهورية الشيشان التابعة لروسيا الاتحاديـة، والأقلية الزنجية في جنوب السودان، والأقليات الكردية فـي كل من العراق وتركيا وإيران.

٣- الأقلية هي: (جماعة غير مسيطرة من مواطني دولة ما أقل عدديا من بقية السكان، يرتبط أفرادها ببعضهم عن طريق روابط عرقية[(١٧٩)] أو دينية أو لغوية أو ثقافية تميزهم بجلاء عن بقية السكان، ويتضامن أفراد هذه الجماعة فيما بينهم للحفاظ على هذه الخصائص وتنميتها[(١٨٠)]، [(١٨١)].

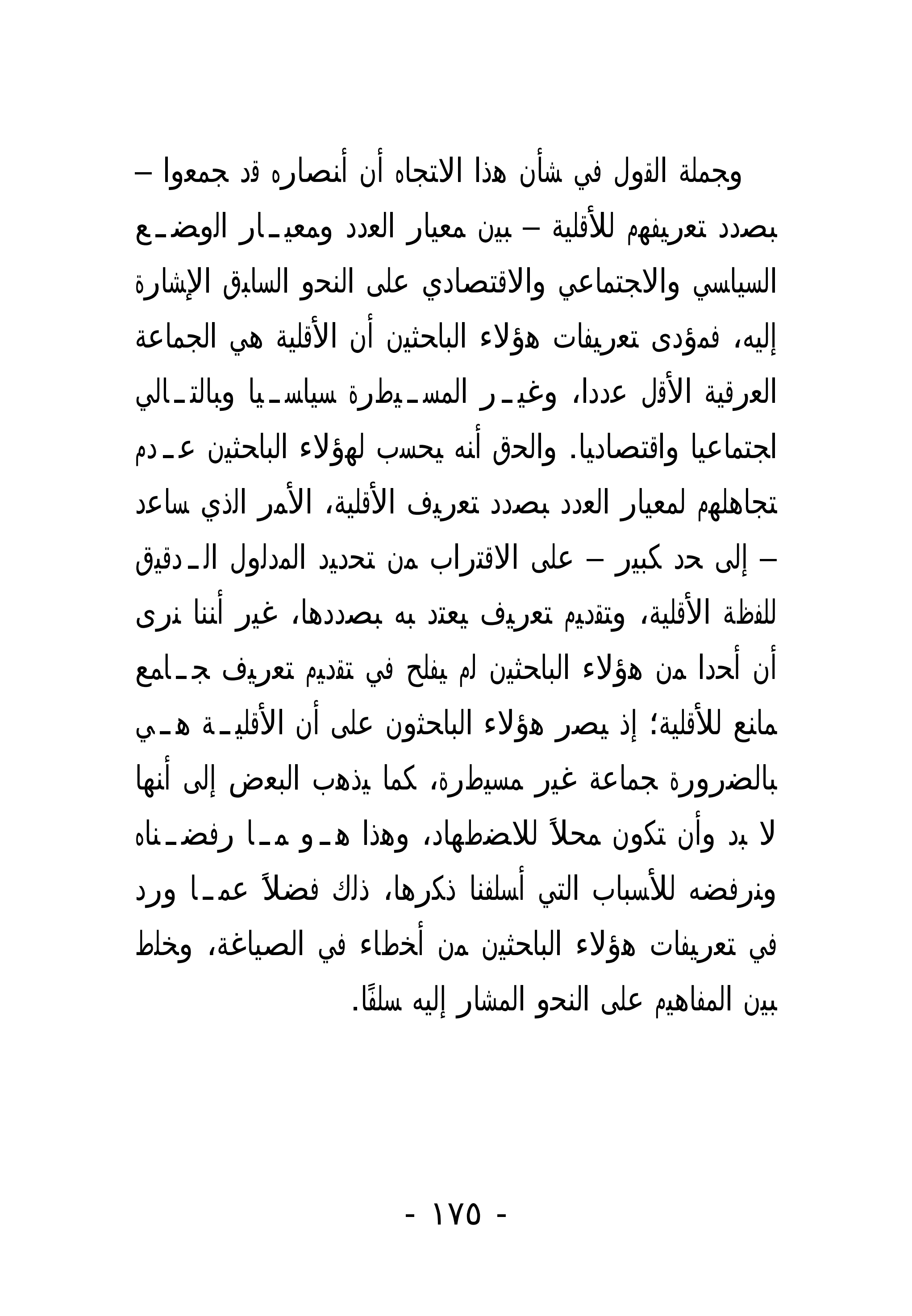
ويقترب هذا التعريف من حيث المضمون – إلى حد كبير – من التعريف السابق عليه، وإن كان هذا التعريف لم يتضمن أية إشارة إلى أهداف الأقلية. وعلى ذلك فإن لصاحب التعريف ما لصاحب التعريف السابق عليه، وعليه ما عليه باستثناء المأخذ المتصل بأهداف الأقلية.

---

(١٧٩) نفس التنويه السابق.

(١٨٠) أعتقد أن استخدام كلمة (تنميتها) هنا هو تزيد ليس له مقتضى، كما أنه استخدام غير دقيق؛ إذ كيف تنمي خصائص أو روابط فيزيقية أو دينية أو لغوية أو ثقافية؟

(١٨١) وائل أحمد علام، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠.



وجملة القول في شأن هذا الاتجاه أن أنصاره قد جمعوا – بصدد تعريفهم للأقلية – بين معيار العدد ومعيار الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي على النحو السابق الإشارة إليه، فمؤدى تعريفات هؤلاء الباحثين أن الأقلية هي الجماعة العرقية الأقل عددا، وغير المسيطرة سياسيا وبالتالي اجتماعيا واقتصاديا. والحق أنه يحسب لهؤلاء الباحثين عدم تجاهلهم لمعيار العدد بصدد تعريف الأقلية، الأمر الذي ساعد – إلى حد كبير – على الاقتراب من تحديد المدلول الدقيق للفظة الأقلية، وتقديم تعريف يعتد به بصددها، غير أننا نرى أن أحدا من هؤلاء الباحثين لم يفلح في تقديم تعريف جامع مانع للأقلية؛ إذ يصر هؤلاء الباحثون على أن الأقلية هي بالضرورة جماعة غير مسيطرة، كما يذهب البعض إلى أنها لا بد وأن تكون محلاً للاضطهاد، وهذا هو ما رفضناه ونرفضه للأسباب التي أسلفنا ذكرها، ذلك فضلاً عما ورد في تعريفات هؤلاء الباحثين من أخطاء في الصياغة، وخلط بين المفاهيم على النحو المشار إليه سلفًا.

وفي النهاية فإنه لا يسعنا إلا أن نقدم – من جانبنا – هـذا التعريف للأقلية آملين أن يكون بمثابة خطوة نحو الوصـول إلى تعريف جامع مانع في هذا الصدد:

الأقلية هي : الجماعة أو الجماعـات العرقيـة ذات الكـم البشري الأقل في مجتمعها، والتي تتمايز عـن غيرها من السكان من حيث السلالة أو السمات الفيزيقية أو اللغة أو الدين أو الثقافـة، ويكـون أفرادها مدركين لمقومات ذاتيـتهم وتمـايزهم، ساعين على الدوام إلى الحفاظ عليها، وغالبا ما تكون هذه الجماعة أو الجماعات في وضع غير مسيطر في ذلك المجتمع، كما يعاني كثير منهـا – بدرجات متفاوتة – من التمييز والاضـطهاد والاستبعاد في شتى قطاعات المجتمع السياسـية والاجتماعية والاقتصادية.

وتأسيسا على تعريفنا هذا للأقلية نؤكـد علـى النقـاط الآتية:

١- أن الأقلية هي الجماعة أو الجماعات العرقيـة ذات الكم البشري الأقل في مجتمعها، فعلى سبيل المثال نجد أن دولة كالصين تضم عديدا مـن جماعـات عرقية سلالية أهمها: جماعة الهان (وتشكل ٩٥ % من جملة عدد السـكان)، وجماعـة المنغـوليين، وجماعة الأتراك، وجماعة التاي، وجماعة التبتيين (وتشكل هذه الجماعات الأربع الأخيرة مجتمعـة ٥ % من عدد السكان) [١٨٢]. وفي ضوء ذلـك فـإن جماعة الهان تُمثل الأغلبية في الصين، فـي حـين تُمثل كل من الجماعات الأربع الأخـرى جماعـة أقلية. من جانب آخر فإن أفـراد كـل مـن هـذه الجماعات الخمـس يـدركون مقومـات ذاتيـتهم، وتمايزهم عن أفراد الجماعات الأخرى، ويعملـون

[١٨٢] انظر بصدد هذا المثال: فتحي حسن عطوة، اضطرابات التبـت: أسبابها وأبعادها. مجلة السياسـة الدوليـة، مؤسسـة الأهـرام – القاهرة، العدد (٩١) يناير ١٩٨٨. من ص ٢٥٠ إلى ص ٢٥٢.

على الدوام من أجل الحفاظ على هذه المقومـات، ولنا المثال الواضح على ذلك في النضـال الـدائم للتبتيين (سكان التبت) مـن أجـل الحفـاظ علـى مقومات ذاتيتهم كجماعـة عرقيـة تتمـايز عـن الجماعات العرقية الأخرى من حيث السلالة والدين واللغة.

٢- إن الأقليات غالبا ما تكون في وضع غير مسـيطر في مجتمعها، وإذن فليسـت كـل الأقليـات هـي بالضرورة في هذا الوضع [١٨٣]، ذلك بأن ملاحظة التاريخ – وكذا الواقع – تشـير إلـى أن بعـض المجتمعات قد عهدت الأقليات المسـيطرة، وذلـك حال مجتمعات كل مـن روديسـيا (زيمبـابوي)، وناميبيا، وجنوب إفريقيا، تلك المجتمعـات التـي كانت جماعات الأغلبية السوداء فيها – إلى عهـد قريب – تئن تحت نير سيطرة أقليات بيضاء أوربية الأصل، ذلك إلى جانب أن ثمة مجتمعـات – فـي

---

[١٨٣] انظر في هذا المعنى:

Encyclopedia Britannica, Op. Cit., p. ٥٤٢.

وقتنا هذا – تسيطر الأقليات فيهـا علـى مقاليـد الأمور، وذلك حال بوروندي ورواندا وإريتريا، على النحو الذي سنعرض له لاحقًا بشيء من التفصيل.

٣- إن كثيرا من الأقليـات يعـاني مـن التمييـز أو الاضطهاد أو الاستبعاد بدرجات متفاوتـة، وفـي قطاعات المجتمع المختلفة من سياسية واجتماعيـة واقتصادية. ومن أمثلة الأقليات التي تعاني من هذه الأوضاع السيئة كل من:

أ- الأقلية المسلمة في الهند والتي تشكل ما يربو على ١٧,٦ % من تعـداد السـكان هنـاك، وتتعرض هذه الأقلية لشتى مظاهر التمييـز والاضطهاد من جانب الأغلبيـة الهندوسـية والتي تشكل حـوالي ٧٠,٥ % مـن جملـة سكان الهند البالغ عددهم زهاء المليار نسمة. وتتجسد أبشع صور هذا الاضطهاد والتمييز فيما يلاقيه المسلمون البنغال من تنكيل على

يد الهندوس في ولاية آسام [١٨٤]، ذلك فضلاً عن لجوء السلطات الهندية المستمر إلى استخدام العنف بشتى صوره في مواجهة المسلمين في ولاية جامو وكشمير.

ب- أقلية الهنود الحمر في المكسيك، والتي تستوطن ولاية تشيباس، وهي تجابه العديد من صور الاضطهاد والتمييز؛ إذ يعاني أفرادها من أحوال اقتصادية واجتماعية متدهورة، دون الحصول على أية فرصة للتعبير عن أنفسهم، أو حتى إبداء رأيهم، في دولة يتشدق حكامها بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية [١٨٥].

---

[١٨٤] انظر في هذا المضمون: أحمد ناجي قمحة، العنف الإسلامي الهندوسي، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٢، أبريل ١٩٩٣، من ص ١٣٠ إلى ص ١٣٤. وكذا: - محمد عيسى الشرقاوي، المشكلة الطائفية في الهند، مجلة السياسة الدولية، العدد ٧٣، يوليو ١٩٨٣، من ص ١٢٩ إلى ص ١٣١.

[١٨٥] انظر في هذا المضمون: نرمين السعدني، تمرد الهنود الحمر والنظام السياسي المكسيكي، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٦، أبريل ١٩٩٤، من ص ٢٣٥ إلى ص ٢٣٨.

ج- الأقلية البربرية المقهورة سياسيا وثقافيا مـن جانب الأغلبية العربية في الجزائر، والتي لا يسمح لها باستخدام لغتها (وهي غير مكتوبة) إلا في أضيق نطاق [١٨٦].

د- الأقلية التبتية (سكان التبت) في الصين وآذين يعانون من الاضطهاد والتمييز فـي شـتى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية من جانب جماعة الهان التي تُمثـل جماعة الأغلبية في الصين [١٨٧].

ه- الأقلية المسلمة في إثيوبيا، والتي تقطن إقليم إريتريا، والتي طالما عانى أبناؤها من شتى صور الاضطهاد والتمييـز، حتـى تمكنـوا مؤخرا – على إثر نضالهم الطويل المسلح –

---

[١٨٦] انظر في هذا المضمون: جهاد عودة، الجزائر والمواجهـة بـين الدولة والبربر، مجلة السياسة الدولية، العدد ٦١، يوليـو ١٩٨٠، من ص ١٨١ إلى ص ١٨٣.

[١٨٧] فتحي حسن عطوة، اضطرابات التبت، مرجع سبق ذكـره، مـن ص ٢٥٠ إلى ص ٢٥٢.

من الحصول على استقلالهم كدولة، والـذي تم في ٢٤ مايو ١٩٩٣ [١٨٨].

و- الأقلية التاميلية في سريلانكا والتـي تسـكن الإقليم الشمالي والشرقي من الجزيرة (إقلـيم جافنا)؛ حيث يمـنح الدسـتور السـريلانكي الطائفة السنهالية (الأغلبية) كافة الامتيازات؛ إذ تعتبر لغتها هي اللغة الرسمية للبلاد إلـى جانب اللغة الإنجليزية، في حين حرم التاميل من أغلب الحقـوق السياسـية والعسـكرية والاقتصادية والاجتماعية، بحيث باتوا يمثلون أقلية مضطهدة من جانب السنهال. وإن كانت تجدر الإشارة إلى أن التاميل قد منحوا حـق الحكم الذاتي بمقتضى اتفاق كولومبـو بـين الهند (التي ينتمي إليها التاميل مـن حيـث الأصل والدين) وسريلانكا في يوليـو عـام

---

[١٨٨] انظر في هذا الصدد: أحمد يوسف القرعـي، مصـر واسـتقلال إريتريا، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٣، يوليو ١٩٩٣، من ص ١٤١ إلى ص ١٤٣.

١٩٨٧، وعلى الرغم من ذلـك فـلا يـزال التاميل يشعرون بالاضطهاد والتمييز، ولذلك فلا تزال منظمة نمور التاميـل الانفصـالية مستمرة في صـراعها المسـلح، مسـتهدفة انفصــال التاميــل بــإقليم جافنــا عــن سريلانكا[١٨٩].

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه إذا كـان كثيـر مـن الأقليات يعاني من التمييز والاضطهاد إلا أن ثمـة أقليـات تتمتع بالمساواة مع الأغلبية، ذلك فضلاً عن تمتـع الـبعض منها بالحكم الذاتي. ولعل من أظهر الأمثلة في هذا الصدد ما يلي:

---

(١٨٩) لتفاصيل أخرى انظر: جمال الدين محمد علي، اتفاق كولمبو بين الهندوس وسريلانكا، مجلة السياسة الدوليـة، العـدد ٩٠ أكتـوبر ١٩٨٧، من ص ٢٠٨ إلى ص ٢١٢، وكذا:

- Ethnic Conflicts Worldwide, Current History, April ١٩٩٣, p. ١٦٨.

١- الأقلية الفرنسية في كندا، والتي تختلف عن بـاقي الشعب الكندي من حيث السلالة واللغة والمـذهب الديني، وهي تقطن إقليم كيبيك. وتتمتع هذه الأقلية بالمساواة مع الأغلبية ولا تعاني مـن الاضـطهاد أو التمييز ومع ذلك فإن ثمة حركات عرقية عديدة ظهرت في كيبيك، راح بعضها يناضل مـن أجـل الحصول على الحكم الذاتي للإقليم، في حـين راح البعض الآخر يطالب بانفصال كيبيك عن كندا.

٢- أقلية الباسك في إسبانيا أو سـكان إقلـيم الباسـك الإسباني والذين ينتمون إلى أصول غير لاتينيـة، ويتحدثون لغة خاصة بهم، وهم يطالبون منذ قرون بأن يكونوا مع شركائهم في الجنس واللغـة علـى الجانب الآخر مـن الحـدود الفرنسـية (الباسـك الفرنسي) دولة مستقلة، وقد حصل الباسكيون على الحكم الذاتي مع نهاية عقد السبعينيات [١٩٠]، وعلى

---

[١٩٠] انظر في هذا الصدد: Ibid. P. ١١٦٧

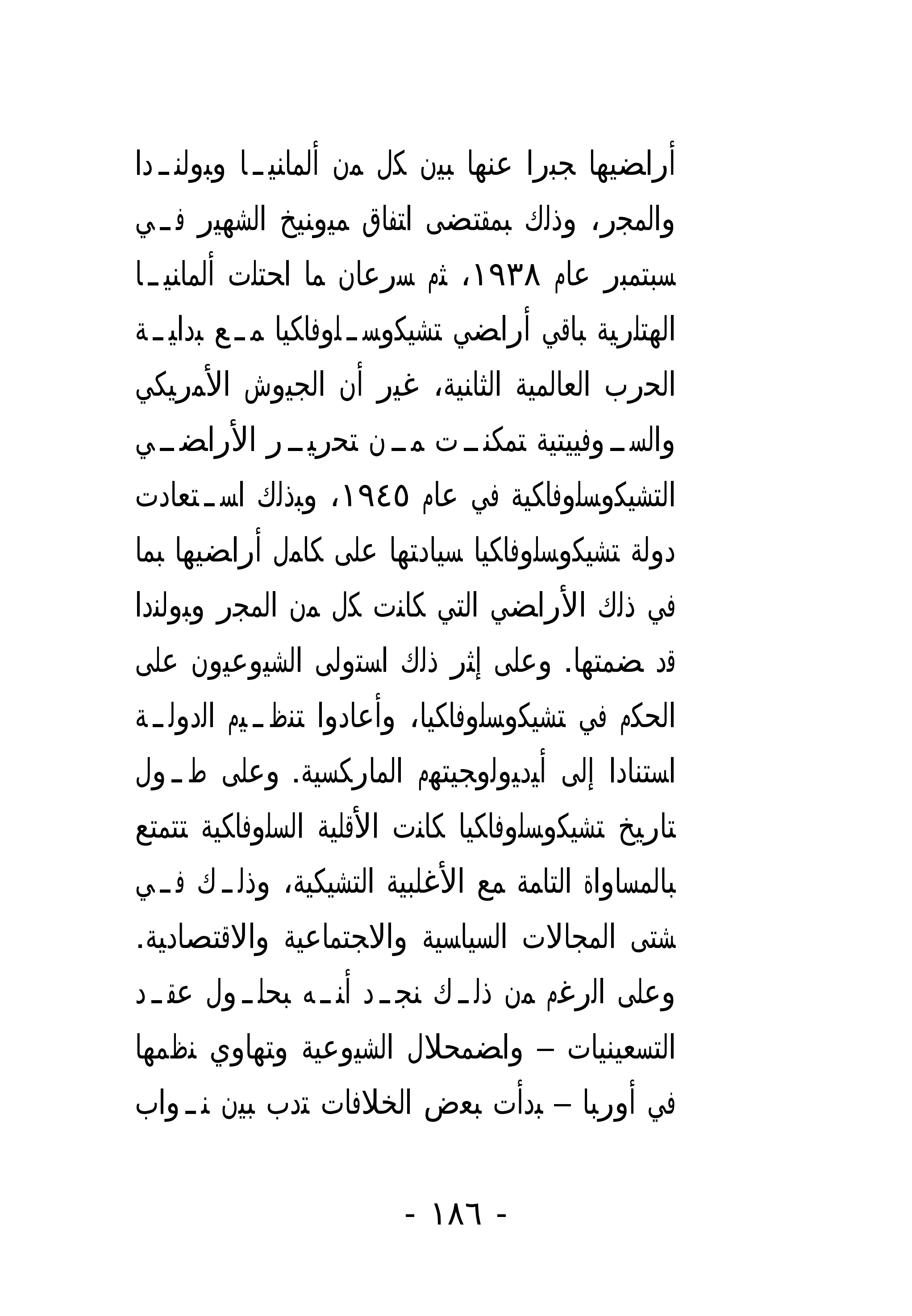
وكذا: محمد علي المداح، مشكلة الباسك بين الاستقلال والحكم الذاتي، العـدد ٥٩ مجلة السياسة الدولية – يناير ١٩٨٠، من ص ١٥٤ إلى ص ١٦٠.

الرغم من ذلك فلا تزال حركة (إيتـا) الانفصـالية مستمرة في صراعها الدامي مع الحكومة الإسبانية بغية تحقيق الانفصال التام وإقامة دولـة الباسـك المنشودة.

٣- الأقلية السلوفاكية في تشيكوسـلوفاكيا (السـابقة)، والتي كانت تشكل حوالي ٣٢ % من عدد السكان، في حين كان التشيك يمثلون جماعـة الأغلبيـة؛ إذ كانوا يشكلون حوالي ٦٣ % من عدد السكان، ذلك فضلاً عن وجود جمـاعتي أقليـة أخـريين همـا الجماعة المجرية والجماعـة الرومانيـة. وتجـدر الإشارة إلى أن الدولة التشيكوسلوفاكية خرجت إلى حيز الوجود في نوفمبر عام ١٩١٩، وعلـى إثـر انهيار الإمبراطورية النمساوية – المجريـة. وقـد ظلت هذه الدولة قائمة إلى أن تـم اقتسـام بعـض

وأيضا: الطاهر أحمد مكي، الضغوط الداخلية على المسرح الإسباني، العـدد ٣٩، مجلة السياسة الدولية، يناير ١٩٧٥، ص ١٣٠، ١٣١.

ونازلي معوض أحمد، النظام الإسباني ما بعد الجنرال فرانكـو، العـدد ٤٣، مجلة السياسة الدولية، يناير ١٩٧٦، من ص ١٦٧ إلى ص ١٧٠.



أراضيها جبرا عنها بين كل من ألمانيا وبولندا والمجر، وذلك بمقتضى اتفاق ميونيخ الشهير في سبتمبر عام ١٩٣٨، ثم سرعان ما احتلت ألمانيا الهتلرية باقي أراضي تشيكوسلوفاكيا مع بداية الحرب العالمية الثانية، غير أن الجيوش الأمريكي والسوفييتية تمكنت من تحرير الأراضي التشيكوسلوفاكية في عام ١٩٤٥، وبذلك استعادت دولة تشيكوسلوفاكيا سيادتها على كامل أراضيها بما في ذلك الأراضي التي كانت كل من المجر وبولندا قد ضمتها. وعلى إثر ذلك استولى الشيوعيون على الحكم في تشيكوسلوفاكيا، وأعادوا تنظيم الدولة استنادا إلى أيديولوجيتهم الماركسية. وعلى طول تاريخ تشيكوسلوفاكيا كانت الأقلية السلوفاكية تتمتع بالمساواة التامة مع الأغلبية التشيكية، وذلك في شتى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وعلى الرغم من ذلك نجد أنه بحلول عقد التسعينيات – واضمحلال الشيوعية وتهاوي نظمها في أوربا – بدأت بعض الخلافات تدب بين نواب

التشيك ونواب السلوفاك داخل البرلمان الاتحـادي، وقد تمحورت هذه الخلافات حول الأسـس التـي يتعين أن يستند إليها الإصلاح السياسي والاقتصادي في تشيكوسلوفاكيا، وسرعان ما بدأت المطالبـات بالانفصال تتصاعد داخل سلوفاكيا. وفي ١٧ يوليو ١٩٩٢ أعلن المجلس القومي السلوفاكي (البرلمان) سيادة سلوفاكيا على أراضيها، وفي أول سبتمبر من نفس العام أقر المجلس الدستور الجديد لجمهوريـة سلوفاكيا. وفي أول ينـاير ١٩٩٣ تـم الانفصـال الفعلي والتام بين التشيك والسلوفاك؛ حيث قامـت على أنقاض تشيكوسلوفاكيا دولتان جديـدتان همـا جمهورية التشيك، وجمهورية سلوفاكيا [١٩١].

---

(١٩١) لمزيد من التفاصيل في هذا الصدد انظر:

أماني محمود فهمي، تشيكولسلوفاكيا وأزمة البحث عن الهوية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١١ يناير ١٩٩٣، من ص ١٣٤ إلى ص ١٣٩. وكذا:

Svec, Milan, Czechoslovakia's Velvet Divorce, Current History, November, ١٩٩٢١, pp. ٣٧٦ – ٣٨٠.

وهكذا فإن ملاحظة واقع كل من الأقلية الفرنسية في كندا، والأقلية الباسيكية في إسبانيا، والأقلية السلوفاكية في تشيكوسلوفاكيا (السابقة) تشير إلى:

أنه على الرغم من تمتع كل من هذه الأقليات (أو الجماعات العرقية) بالمساواة مع الأغلبية، إلا أن ذلك لم يؤد إلى وأد الحركات العرقية الانفصالية داخلها؛ إذ ظل أفراد هذه الجماعات على إدراكهم العميق لمقومات ذاتيتهم وتمايزهم العرقي إزاء أفراد الجماعات الأخرى، على نحو جعل الانفصال – لديهم – يمثل هدفًا لا يمكنهم المساومة بشأنه.

المبحث الرابع
في تصنيف الجماعات العرقية

تجدر الإشارة – بداية – إلى أن ثمة اتجاهات عديدة متباينة بصدد تصنيف الجماعات العرقية [١٩٢]، ويرتد هذا إلى اختلاف الأسس التي يرتكز عليها الباحثون في التصنيف. وعلى أية حال فإننا نرى أن أظهر الاتجاهات في هذا الصدد تتمثل في اتجاهين وهما:

الاتجاه الأول : ويستند أنصاره في تصنيفهم للجماعات العرقية إلى المقومات الذاتية للجماعة كوحدة السلالة أو اللغة أو الدين.

الاتجاه الثاني : ويصنف أنصاره الجماعات العرقية استنادا إلى مواقعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مجتمعاتها.

---

[١٩٢] انظر في ذلك بتفصيل طويل: سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، من ص ٤٠ إلى ص ٥٢.

وفيما يلي نعرض لكلا الاتجاهين بشيء من التفصيل:

الاتجاه الأول: تصـنيف الجماعـات العرقيـة حسب مقومات ذاتيتها:

وارتباطًا بمعيار مقومات ذاتية الجماعة تصنف الجماعات العرقية إلى جماعات سلالية، وجماعات لغوية، وجماعـات دينية، وذلك على النحو التالي:

١- **الجماعة السلالية:** وهي جماعـة عرقيـة يـرتبط أفرادها فيما بينهم مـن خـلال رابطـة الأصـل المشترك (أو وحدة السمات الفيزيقية كلون البشرة)، وذلك على اعتبار أن هذه الرابطـة هـي المقـوم الأصيل لذاتيتهم، ولتمايز جماعتهم إزاء غيرها من الجماعات التي يتشكل منها مجتمعهم.

وتنتشر الجماعات السلالية في عديد من مجتمعات العـالم المعاصر، فعلى سبيل المثال نجد أن المجتمع الأفغاني يتكون من ثمان جماعات عرقية سلالية هي جماعة البشتون (وتُمثل جماعة الأغلبية)، وجماعة الطاجيك (وتُمثل كبرى الأقليـات وينحدر أفرادها من أصول إيرانية)، والأوزبك (وهم يمثلون

إحدى جماعات الأقلية وترتد أصولهم إلى الأوزبك في آسـيا الوسطى والقوقاز) والهزارة (وهي أيضا جماعة أقليـة مـن أصل تترى مغولي)، وذلك فضلاً عن أربع جماعات أقليـة صـغيرة هـي النورسـتاني، والبلوتشـي، والقرجيـز، والتركمان[١٩٣].

وفي إطار المجتمع الأمريكي ثمة عديـد مـن جماعـات سلالية تتباين فيما بينها من حيث السلالة والسمات الفيزيقية، ويتمثل أظهر هذه الجماعات في جماعة البيض (وهي جماعة الأغلبية والتي ينحدر أغلب أفرادها من أصـول أوربيـة)، وجماعة الزنوج (وهي أقلية يعتد بها وينحدر أفرادهـا مـن أصول أفريقية وهم من ذوي البشرة السوداء)، وعلى الـرغم من اشتراك البيض والزنوج في ذات اللغة والثقافة والدين إلا أن تباين الفريقين من حيث السمات الفيزيقية يجعـل منهمـا جماعتين عرقيتين متمايزتين [١٩٤]، وعلى نحو ما سـبق أن

---

[١٩٣] انظر في هذا المضمون: معتز محمد سلامة، الأزمـة ومسـتقبل الدولة في أفغانستان، العدد ١١١، مجلة السياسة الدوليـة، ينـاير ١٩٩٣، ص ١٥٦.

[١٩٤] انظر في هذا المضمون: كينيث ليتل، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢. وكذا:

ذكرنا فإن هذا التباين لا تزال لـه آثـاره علـى الأوضـاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لكل من الجماعتين، وكذا على أنماط العلاقات بينهما، لا سيما في ولايات الجنوب.

٢- **الجماعات اللغوية:** وهي كل جماعة عرقية يشترك أفرادها في التحدث بلغة واحدة، ويتمـايزون مـن خلالها عن أفراد الجماعات العرقية الأخـرى فـي مجتمعهم.

وكما سبق أن أشرنا فإن التباين اللغوي بـين الجماعـات لا بد وأن يتمخض عن تباين ثقافي فيما بينها، ولعـل مـن أظهر الأمثلة على المجتمعات ذات التعددية اللغوية الثقافيـة في عالمنا المعاصر كل من كنـدا، وإسـبانيا، وسـريلانكا، والهند، والعراق، وتركيا، وإيـران، والسـودان، والجزائـر وغيرها.

Encyclopedia of the Social Sciences, V. ٥, Op. Cit., p. ٦٠٧.

ففي كندا مثلاً نميز بين الجماعـة التـي تتحـدث اللغـة الفرنسية (في إقليم كيبيك)، والأغلبية التـي تتحـدث اللغـة الإنجليزية (في باقي الأقاليم). وفي إسبانيا هناك على سـبيل المثال جماعة الباسك التي تتحدث لغة غير الإسبانية التي هي لغة الأغلبية، وفي سريلانكا نميز بين الجماعة التي تتحـدث لغة التاميل في جافنا، والجماعة التي تتحدث لغة السنهال في باقي الأقاليم. وفي الجزائر نميز بين جماعة العـرب (التـي تتحدث العربية وهي تُمثل الأغلبية)، وجماعة البربر (التـي تتحدث اللغة الأمازيغية غير المكتوبة وهي تُمثل الأقليـة)... وهكذا.

٣- **الجماعة الدينية:** وهي كل جماعة عرقيـة يمثـل الدين المقوم الرئيسي لذاتيتها وتمايزها عن غيرهـا من الجماعات العرقية التي تشاركها ذات المجتمع.

ويوجد في عالمنا المعاصر الكثير من المجتمعات متعددة الديانات (أو المذهب الديني)، ومن هذه المجتمعـات علـى سبيل المثال نذكر كلاً مـن لبنـان، ومصـر، والسـودان، ونيجيريا، والهند، وسريلانكا، وبورما، والفلبين، والصـين، والمملكة المتحدة وغيرها. ففي لبنـان مـثلاً نجـد أن ثمـة

جماعات دينية عديدة أظهرها: جماعـة المسـلمين السـنة، وجماعة المسلمين الشـيعة، وجماعـة الـدروز، وجماعـة المارون المسيحية، وجماعة الروم الأرثوذكس، وغيرها[(١٩٥)]. وفي نيجيريا نميز بين جماعة المسلمين في الشمال، وجماعة المسيحيين في الجنوب. وفي الفلبين توجد جماعة أقلية مسلمة في الجنوب إلى جانب جماعة الأغلبية المسيحية... وهكذا.

وجملة القول في شأن هذا التصنيف للجماعات العرقية أنه يرتكز إلى مقومات الذاتية العرقية للجماعة حال وحدة الأصل أو اللغة أو الدين. غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن أغلـب الجماعة العرقية لا تقتصر الرابطة بين أفرادها على مقـوم واحد، فالتاميل مثلاً في شـمال سـريلانكا يتمـايزون عـن السنهال (الأغلبية) مـن حيـث الأصـل واللغـة والـدين، والفرنسيون في كندا يختلفون عن الأغلبية من حيث الأصـل واللغة والمذهب الديني... وهكذا.

[(١٩٥)] انظر بصدد الطائفية في لبنان: عبد العزيز سليمان نوار، الحرب الأهلية وأبعادها الطائفية، العدد ٤٣، مجلة السياسية الدولية، يناير ١٩٧٦، من ص ٨ إلى ص ١٣.

الاتجاه الثاني: تصـنيف الجماعـات العرقيـة حسـب مواقعهـا السياسـية والاجتماعيـة والاقتصادية:

ويقوم هذا الاتجاه تصنيف الجماعات العرقية إلى صنفين هما:

١- الجماعات المسيطرة.

٢- الجماعات غير المسيطرة.

والجماعة العرقية المسيطرة هي تلك الجماعة العرقية التي تهيمن على مقاليد السلطة في مجتمعها، والتي يتبوأ أفرادهـا أرقى المواقع الاجتماعية، كما يشكلون الفئة الأكثر ثراء فـي ذلك المجتمع الذي يعد بمثابة تعبير عن هـويتهم. وبمفهـوم المخالفة لما تقدم فإن الجماعة العرقية غير المسـيطرة هـي الجماعة أو الجماعات التي تكون بمنأى عن السلطة، والتـي يحتل أغلب أفرادها مواقع اجتماعية غير رئيسية، كما يشكل أغلبهم الفئة الأقل ثراء في مجتمعهم الذي تهيمن على مقاليد الأمور فيه جماعة مغايرة تعتبره بمثابة تجسيد لهويتها.

وعلى النحو المشار إليه سلفًا فإن كثيرا مـن الجماعـات العرقية غير المسيطرة يعاني مـن الاضـطهاد أو التمييـز أو الاستبعاد من جانب الجماعات المسيطرة، غيـر أن ثمـة جماعات عرقية غير مسيطرة تتمتع بالمساواة مع الجماعات المسيطرة في مجتمعها، ذلك فضلاً عن وجود جماعات غير مسيطرة تتمتع بالحكم الذاتي.

والحق أن تصنيف الجماعات العرقية إلى جماعات مسيطرة وجماعات غير مسيطرة يكاد يتطابق مع تصنيفها إلى جماعات أغلبية وجماعات أقلية، ذلك بأن الجماعات المسيطرة غالبا مـا تكون جماعات أغلبية في مجتمعاتهـا، فـي حـين أن أغلـب الأقليات تشكل جماعات غير مسيطرة. ومع ذلـك فالأقليـات ليست بالضرورة جماعات غير مسيطرة، ذلك بـأن ملاحظـة الواقع – وكذا التاريخ – تشير إلى أن ثمة أقليات تمتعت بوضع مسيطر في مجتمعاتها. فعلى سبيل المثال نجد أنه علـى إثـر انقسام إمبراطوريـة الهابسـبرج Habsburg empire عـام ١٨٧٦ إلى قسمين: غربي (نمساوي)، وشرقي (مجري)، وعلى الرغم من أن المجريين كانوا يشكلون أقلية في القسم الشرقي إلا أنهم كانوا يتبوءون موقع الأغلبية المسيطرة، كما كانت لغـتهم هي اللغة الرسمية الوحيدة في شتى أقاليم القطاع الشرقي ما عدا

الإقليم الكرواتي السلوفيني الذي كان يتمتع بدرجـة مـا مـن درجات الحكم الذاتي [١٩٦]. كذلك ففي ناميبيا نجـد أن الأقليـة البيضاء البالغ عددها مائة ألف فرد طالمـا تمتعـت بوضـع الجماعة المسيطرة على حساب الأغلبية السوداء والبالغ عددها مليونًا وأربعمائة ألف فرد، تلك الأغلبية التي عانـت لسـنوات طويلة من شتى صنوف الاضطهاد والتمييز في ظل الاحـتلال جنوب إفريقيا لناميبيا. وقد ظلت هذه الأوضاع قائمـة حتـى أواخر عام ١٩٨٨، عندما حصلت ناميبيـا علـى اسـتقلالها بمقتضى اتفاقية نيويورك التي أبرمت في ديسمبر من ذلك العام [١٩٧] من جانب آخر نجد أنه في روديسيا (زيمبابوي) كانـت الأقلية الأوربية البيضاء تستأثر بالسيطرة السياسية والاقتصادية والإدارية، وهو الوضع الذي سعت دوما إلى الحفاظ عليه مـن

---

[١٩٦] راجع بصدد هذا المثال:

Encyclopedia Britannica, Op. Cit., V. ١٥, p. ٥٤٤

[١٩٧] فتحي عبد الفتاح، ناميبيا: نهاية كابوس وبدايـة وطـن، مجلـة المنار، دار المنار – القاهرة، العدد ٦٠، ديسمبر ١٩٨٩، من ص ٤٠ إلى ص ٤٥.

خلال قمع الأغلبية الساحقة من السكان الأصليين [١٩٨]. غير أنه مع تصاعد الكفاح المسلح من جانب الأغلبية السـوداء خـلال السنوات الأخيرة من عقد السبعينيات تمكنت روديسيا من نيـل استقلالها، وذلك بمقتضى اتفاقية لندن التي أبرمت في ديسـمبر ١٩٧٩، والتي أجريت على إثرها أول انتخابات تشريعية فـي روديسيا (أو زيمبابوي)؛ حيث فاز فيها حزب الاتحاد الـوطني الإفريقي لزيمبابوي (زانو) بزعامة روبـرت موجـابي أحـد زعيمي حركة التحرير، ومن هنا فقد كلاف موجـابي بتشـكيل الوزارة، ولكي تنتهي بذلك سيطرة الأقلية الأوربية على مقاليد الأمور في زيمبابوي [١٩٩]. وأيضا فإنه لا يفوتنا في هذا الصدد أن نشير إلى الوضع المسيطر الذي احتلته الأقلية البيضاء فـي جنوب إفريقيا، وذلك على حساب الأغلبية السوداء من سـكان البلاد الأصليين والتي كانت – إلى عهد قريب – تعاني شـتى

---

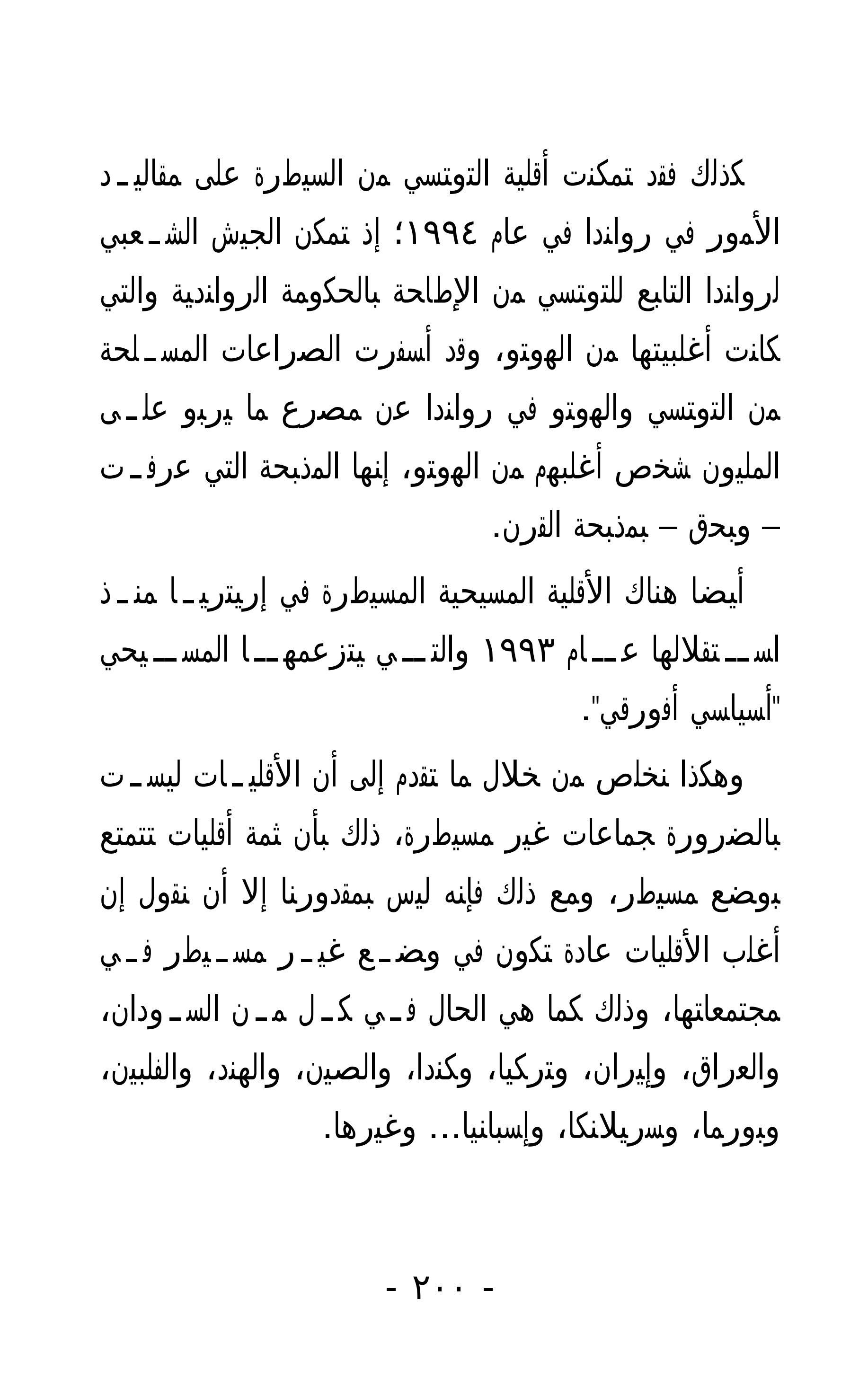
[١٩٨] انظر في هذا الصدد: محمود عبد المنعم مرتضى، قضية التمييز العنصري في روديسيا، العدد ٥ مجلة السياسـة الدوليـة، يوليـو ١٩٦٦، من ص ٤٨ إلى ص ٦٧.

[١٩٩] في هذا المضمون: انظر محمـد عيسـى الشـرقاوي، اسـتقلال زيمبابوي ومستقبل الجنوب الإفريقي، العدد ٦٠، مجلـة السياسـة الدولية، أبريل ١٩٨٠، من ص ١٤٩ إلى ص ١٥٣.

صنوف التميز والاضطهاد والاستبعاد من جانب تلك الأقليـة. وبحلول السنوات الأولى من عقد التسعينيات وتحت وطأة الكفاح المتصاعد من جانب السـود والضـغوط الدوليـة المناهضـة للعنصرية رضخت الأقلية البيضاء وراحت تتخلى إلى حد كبير عن وضعها المسيطر لحساب الأغلبية السوداء. وعلى إثر أول انتخابات غير عنصرية أجريت في جنوب إفريقيا تمكن الزعيم الإفريقي الأسود ذو التاريخي النضالي الحافل نيلسون مانـديلاً من الوصول إلى سدة الحكم، ولكي يصبح أول رئـيس أسـود لجنوب إفريقيا.

وفضلاً عن كل ما تقدم فإن عالمنا المعاصر لا يخلو مـن أقليات مسيطرة في مجتمعاتها، وذلك حال جماعة التوتسـي في بوروندي؛ حيث تُمثل هذه الجماعة أقليـة تُشـكل نحـو ١٤% من عدد السكان، وعلى الرغم من ذلك فهي تسـتأثر بالحكم وتتبوأ أرقى المواقع الاجتماعية والعلمية على حساب جماعة الأغلبية من الهوتو التي تشكل حـوالي ٨٥ % مـن عدد السكان والتي تعاني من الاضطهاد في بوروندي [(٢٠٠)].

[(٢٠٠)] انظر في هذا المضمون: طارق حسني أبـو سـنة، بورونـدي والانقلاب العسكري الثالث، العدد ٩١، مجلة السياسة الدولية، يناير ١٩٨٨، ص ٣٢١.



كذلك فقد تمكنت أقلية التوتسي من السيطرة على مقاليد الأمور في رواندا في عام ١٩٩٤؛ إذ تمكن الجيش الشعبي لرواندا التابع للتوتسي من الإطاحة بالحكومة الرواندية والتي كانت أغلبيتها من الهوتو، وقد أسفرت الصراعات المسلحة من التوتسي والهوتو في رواندا عن مصرع ما يربو على المليون شخص أغلبهم من الهوتو، إنها المذبحة التي عرفت – وبحق – بمذبحة القرن.

أيضا هناك الأقلية المسيحية المسيطرة في إريتريا منذ استقلالها عام ١٩٩٣ والتي يتزعمها المسيحي "أسياسي أفورقي".

وهكذا نخلص من خلال ما تقدم إلى أن الأقليات ليست بالضرورة جماعات غير مسيطرة، ذلك بأن ثمة أقليات تتمتع بوضع مسيطر، ومع ذلك فإنه ليس بمقدورنا إلا أن نقول إن أغلب الأقليات عادة تكون في وضع غير مسيطر في مجتمعاتها، وذلك كما هي الحال في كل من السودان، والعراق، وإيران، وتركيا، وكندا، والصين، والهند، والفلبين، وبورما، وسريلانكا، وإسبانيا... وغيرها.

المبحث الخامس
في التعريف بمفهوم الحركة العرقية

تتسم أية جماعة عرقية – كما أسلفنا القول – بارتباط أفرادها فيما بينهم من خلال روابط فيزيقية أو ثقافية، ويتمايزون بصددها عن أفراد الجماعات العرقية الأخرى التي تشارك جماعتهم ذات المجتمع، ومن جانب آخر فإن عدم المساواة بين الجماعات العرقية المشكلة للمجتمع غالبا ما يمثل إحدى السمات البارزة في المجتمعات متعددة العرقيات؛ إذ بينما تكون ثمة جماعات عرقية في وضع مسيطر تعتلي سدة الحكم ويتبوأ أفرادها قمة الهرم الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع فإن جماعات عرقية أخرى تكون في وضع غير مسيطر، بمنأى عن السلطة، ويقبع أغلب أفرادها في مواقع اجتماعية غير مرموقة، كما يشكلون الفئة الأقل ثراء في مجتمعهم، ذلك فضلاً عن أن كثيرا من الجماعات العرقية غير المسيطرة (لا سيما الأقليات منها) يعاني من الاضطهاد أو التمييز أو الاستبعاد من جانب الجماعات المسيطرة في مجتمعه. ومن هنا تتولد مشاعر

الاستياء والسخط لدى أفراد تلـك الجماعـات مـن جـراء أوضاعهم المتدنية من جهة، ومـن جهـة أخـرى كنتيجـة لوجودهم في مجتمع يضم جماعات عرقية مغايرة لا تربطهم بها أية رابطة موضوعية (كوحدة الأصل أو اللغة أو الـدين) أو روحية (حال الرغبة في الحيـاة المشـتركة). وكـإفراز لواقعها هذا تنشأ داخل الجماعات غير المسيطرة (والتي هي غالبا أقليات) حركات سياسية اجتماعية ترمـي إلـى: إمـا تخليص الجماعات من نير اللامساواة والاضـطهاد، وإمـا الانفصال بها عن مجتمع لا يعبر عن هويتها العرقية. إنها ما يعرف بالحركات العرقية Ethnic Movements.

وفي ضوء ما تقدم يمكن تعريف الحركة العرقيـة بأنهـا: "حركة سياسية اجتماعية منظمة تنشأ في إطار جماعة عرقيـة غير مسيطرة (غالبا ما تكون أقلية)، ويكـون لهـذه الحركـة برنامج عمل ينطوي على ما تصبو إليه من أهداف وما تتوسل به من وسائل بغية بلوغ هذه الأهداف التي قد تتمثل في إعمال مبدأ المساواة بصدد علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى لا سيما المسيطرة منها، كما قد تستهدف الحركة في بعـض الأحيـان تحقيق نوع من الحكم الذاتي لجماعتها على الإقليم الذي تقطنه،

ذلك فضلاً عن أن ثمة حركات قد تتغيا الارتقاء بجماعتها إلى تبوء موقع السيطرة في مجتمعها [*]، غير أن أغلب الحركـات ترمي إلى انفصال الجماعة عن المجتمع السياسي الذي يشملها، وإقامة دولة مستقلة تجسد هويتها، أو الانضمام إلى دولة أخرى مجاورة تشاركها ذات المقومات العرقية، وفي سـبيل تحقيـق أهدافها تلجأ الحركة إلى استخدام وسائل عديدة بعضها ذو طابع سلمى، وبعضها يرتكز إلى العنف".

ويتضح من خلال تعريفنا هذا أن الحركة العرقيـة هـي حركة منظمة في معنى أنها حركة يتوافر لها إطار تنظيمـي قوامه مؤسسة أو جملة مؤسسات سياسية وعسكرية؛ إذ نادرا ما تخلو حركة عرقية من جناح عسكري إلى جانب جناحهـا السياسي، وبطبيعة الحال تأتي على رأس الإطار التنظيمـي للحركة قيادة يلتف حولها عدد لا يسـتهان بـه مـن أفـراد الجماعة المؤمنين بأهداف الحركة ومبادئها [٢٠١].

---

[*] يمكن أن نطلق على هذه الحركات عبارة "حركات ارتقائية"، كمـا تتعـين الإشارة إلى أن ثمة من المحللين من يطلـق عليهـا عبـارة "حركـات استعلائية" ومن هؤلاء مثلاً: سعد الدين إبراهيم، المرجع السابق.

[٢٠١] انظر بصدد الإطار التنظيمي للحركة وأهدافها:

من جانب آخر فإنه يستفاد من تعريفنا المتقـدم أن لكـل حركة عرقية برنامج عمل يتضمن أهدافها، ووسائلها التـي تلجأ إليها بغية تحقيق هذه الأهداف. وقـد تتمثـل أهـداف الحركات العرقية إمـا فـي تحقيـق المسـاواة لجماعتهـا أو حصولها على الحكم الذاتي، وإما الارتقاء بها إلى موقـع السيطرة في مجتمعها (حركـات ارتقائيـة حـال الحركـة المارونية في لبنـان)، أو انفصـال هـذه الجماعـات عـن مجتمعاتها. والحق أن ملاحظة الواقع تشير إلى أن الهـدف الحقيقي لأغلب الحركات العرقية يتمثل في الانفصال، إنها – إذًا – لا تعدو أن تكون حركات انفصالية بطبيعتها [٢٠٢].

(ويدعم الدعوة الانفصالية تركـز الجماعـة فـي إقلـيم أو رقعة جغرافية واحدة لا سيما وإن كانت هذه الرقعة تقـع على أطراف إقليم الدولة بعيدا عن مركزها. كمـا تترسـخ الدعوة الانفصالية حين تتوافر للجماعة العرقيـة المقومـات الأساسية لقيام دولة مستقلة، وذلك حال الوفرة النسبية للسكان

سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤، وكذا:

Richmond, Op. Cit., pp. ٢٠٠ – ٢٠٢.

(٢٠٢) انظر في هذا المعنى: Ibid., P. ٢٠٠.

والموارد. وكما سبق أن أشرنا فإن ثمة حركات عرقية انفصالية لا ترمي إلى إنشاء دولة مستقلة، بل تستهدف الانضمام إلى مجتمع سياسي آخر مجاور له ذات الخصائص العرقية للجماعة الانفصالية، ومثال ذلك كفاح الأقلية التركية في قبرص من أجل الانضمام إلى مجتمعها الأم (تركيا) وكذلك كفاح سكان أوجادين في إثيوبيا بغية الانفصال والانضمام إلى المجتمع الأم المتمثل في الصومال) [٢٠٣].

كما يتضح في ثنايا التعريف السابق أن وسائل الحركات العرقية قد تكون ذات طابع سلمي (كإنشاء الأحزاب السياسية التي تتبنى أهدافها مثلاً)، كما قد ترتكز إلى العنف بشتى أساليبه سواء تمثلت هذه الأساليب في الحرب النظامية، أو حرب العصابات، أو عمليات الاختطاف، والاغتيالات، والتصفية الجسدية، وكل ذلك – بطبيعة الحال – في سبيل بلوغ غاياتها. وذلك كله على النحو الذي سيبدو جليا في ثنايا تحليلنا اللاحق.

---

[٢٠٣] سعد الدين إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

تقريـــر:

انتهينا في ثنايا هذا الفصل بمباحثه الخمسة علـى تقـديم تعريف للجماعة العرقية، والوقوف على مقومـات ذاتيتهـا، على نحو هيأ لاستجلاء الفارق بينها وبين ما قد يختلط بهـا أو يتداخل معها من مفاهيم حال الجماعة السـلالية والأمـة والأقلية. كما عرضنا أيضا لأبرز الاتجاهات فيمـا يتصـل بتصنيف الجماعات العرقية، ذلـك فضـلاً عـن التعريـف بالحركة العرقية ومقوماتها وأهدافها ووسائلها. ويتمثل أظهر ما انتهينا إليه بصدد ما تقدم فيما يلي:

١- إن الجماعة العرقية هي: تجمع بشري يرتبط أفـراده فيما بينهم من خلال روابـط فيزيقيـة أو بيولوجيـة (كوحدة الأصل أو السلالة) أو ثقافية (حال وحدة اللغة أو الدين أو الثقافة)، ويعيش هذا التجمـع فـي ظـل مجتمع سياسي أرحب، مشكلاً لإطار ثقافي حضاري مغاير للإطار الثقافي الحضـاري لبـاقي المجتمـع، ويكون أفراد هذا التجمع مدركين لتمـايز مقومـات هويتهم وذاتيتهم، عاملين دوما من أجل الحفاظ علـى هذه المقومات في مواجهة عوامل الضعف والتحلل.

٢- إن مقومات الذاتية العرقية لا تقتصر على المقومات الفيزيقية أو البيولوجية (كوحدة السلالة أو السمات الفيزيقية المشتركة)، وإنما تتضمن كذلك مقومات ثقافية حال وحدة الدين أو اللغة أو الثقافة.

٣- الأقلية هي: الجماعة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشري الأقل في مجتمعها، والتي تتمايز عن غيرها من السكان من حيث السلالة أو السمات الفيزيقية أو اللغة أو الدين أو الثقافة، ويكون أفرادها مدركين لمقومات ذاتيتهم وتمايزهم، ساعين على الدوام إلى الحفاظ عليها، وغالبا ما تكون هذه الجماعة أو الجماعات في وضع غير مسيطر في ذلك المجتمع، كما يعاني كثير منها – بدرجات متفاوتة – من التمييز أو الاضطهاد أو الاستبعاد في شتى قطاعات المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وهكذا فإن كل أقلية هي جماعة عرقية في حين أن كل جماعة عرقية ليست بالضرورة أقلية.

٤- إن الجماعات العرقية قد تكون جماعات سلالية أو لغوية أو دينية، وإن كانت أغلب الجماعات العرقية لا تقتصر الرابطة بين أفرادها على مقوم واحد؛ إذ غالبا ما تكون الجماعة العرقية جماعة سلالية ولغوية، أو سلالية ولغوية ودينية... وهكذا. من جانب آخر فإن الجماعات العرقية قد تكون جماعات مسيطرة، كما قد تكون جماعات غير مسيطرة في مجتمعها، كما أن أغلب الجماعات غير المسيطرة هي أقليات يعاني كثير منها من التمييز أو الاضطهاد أو الاستبعاد، ولذلك نجد أن الحركات العرقية يرتبط وجودها بالجماعات غير المسيطرة.

٥- الحركة العرقية هي حركة سياسية اجتماعية منظمة تنشأ في إطار جماعة عرقية غير مسيطرة (غالبا ما تكون أقلية)، ويكون لهذه الحركة برنامج عمل ينطوي على ما تصبو إليه من أهداف، وما تتوصل به من وسائل بغية بلوغ هذه الأهداف التي قد تتمثل في إعمال مبدأ المساواة بصدد علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى، لا سيما المسيطرة منها، كما

قد تستهدف الحركة في بعض الأحيان تحقيق نـوع من الحكم الذاتي لجماعتها على الإقليم الذي تقطنه، ذلك فضلاً عن أن ثمة حركات قد تتغيـا الارتقـاء بجماعتها إلى تبوء موقع السيطرة فـي مجتمعهـا، غير أن أغلب الحركات العرقية ترمي إلى انفصال الجماعة عن المجتمع السياسي الذي يشملها، وإقامة دولة مستقلة تجسد هويتها، أو الانضمام إلى دولـة أخرى مجاورة تشاركها ذات المقومـات العرقيـة، وفي سبيل تحقيق أهدافها تلجأ الحركة إلى استخدام وسائل عديدة بعضها ذو طابع سـلمي، وبعضـها يرتكز إلى العنف.

* * *

القسم الثاني

في التعريف بظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر

دهليــز:

خلصنا في القسم السابق إلى تقديم تعريف للحركة العرقية قوامه أنها حركة سياسية اجتماعية منظمة تنشأ فـي إطـار جماعة عرقية غير مسيطرة (غالبا ما تكون أقلية)، ويكـون لهذه الحركة برنامج عمل ينطوي على ما تصبو إليـه مـن أهداف، وما تتوسل به من وسائل بغية بلوغ هـذه الأهـداف التي قد تتمثل في أعمال مبدأ المساواة بصدد علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى لا سيما المسيطرة منها، كما قد تستهدف الحركة في بعض الأحيان تحقيق نوع مـن الحكـم الـذاتي لجماعتها على الإقليم الذي تقطنه، ذلك فضلاً عـن أن ثمـة حركات قد تتغيا الارتقاء بجماعتها إلى تبوء موقع السـيطرة في مجتمعها، غير أن أغلب الحركات العرقية ترمـي إلـى انفصال الجماعة عن المجتمع السياسي الذي يشملها، وإقامـة دولة مستقلة تجسد هويتها، أو الانضمام إلى دولـة أخـرى مجاورة تشاركها ذات المقومات العرقية، وفي سبيل تحقيـق أهدافها تلجأ الحركة إلى استخدام وسائل عديـدة بعضـها ذو طابع سلمى، وبعضها يرتكز إلى العنف.

والحق أنه يستفاد من تحليلنا المتقدم – في هذا القسم – أن الحركات العرقية قد أضحت تُمثل بحق إحدى ظواهر الحياة السياسية في عالمنا المعاصر. وتشير ملاحظة الواقع السياسي في عالم اليوم إلى أن ثمة سمات عامة تكاد تشترك فيها سائر الحركات العرقية. ويتمثل أظهر هذه السمات فيما يلي:

١- إن هذه الحركات ترتبط من حيث وجودها بالمجتمعات التي تتسم بتنوعها العرقي.

٢- إن هذه الحركات غالبا ما تكون ذات طبيعة انفصالية.

٣- إن هذه الحركات غالبا ما تلجأ إلى استخدام العنف من أجل تحقيق أهدافها.

٤- إن هذه الحركات تُمثل تهديدا بالغًا للاستقرار السياسي في المجتمعات التي توجد بها.

٥- إن هذه الحركات – برغم كونها حركات داخلية – إلا أنها كثيرا ما تنتج آثارا دولية.

وارتباطًا بما تقدم نعرض فيما يلي – بشيء من التفصيل – لكل من هذه السمات موزعة على فصول خمسـة تـأتي مرتبة على النحو التالي:

الفصل الأول : في ارتباط الحركات العرقية بالمجتمعـات متنوعة العرقيات.

الفصل الثاني : في غلبة الطابع الانفصالي علـى أهـداف الحركات العرقية.

الفصل الثالث : في غلبة طابع العنف على وسائل الحركات العرقية.

الفصل الرابع : الحركات العرقية كمصدر تهديد للاستقرار السياسي.

الفصل الخامس : في الآثار الدولية للحركات العرقية.

* * *

الفصل الأول
في ارتباط الحركات العرقية
بالبلدان متنوعة الأعراق

الحق أن الحركات العرقية ترتبط – من حيث وجودها – بالدول التي تتسم بتنوعها العرقي، سواء أكانت تلك الدول تنتمي إلى العالم الثالث، أو كانت تدخل في مصاف الدول المتقدمة. وإن كان يلاحظ أن ظاهرة التنوع العرقي هي أكثر التصاقًا بواقع مجتمعات العالم الثالث؛ حيث يتسم أغلب هذه المجتمعات بتعدد أعراقه، وانطواء كيانه البشري على أكثر من جماعة عرقية، الأمر الذي يصاحبه في الأغلب الأعم غيبة فكرة المواطنة بين أفراد الجماعات البشرية المشكلة للمجتمع، بما يعنيه ذلك من انتفاء الولاء السياسي الموحد الذي يتجه إلى حكومة قومية واحدة، وبالتالي تعدد الولاءات السياسية داخل المجتمع الواحد، بحيث يكون ولاء الفرد لجماعته العرقية – وليس ولاؤه للحكومة المركزية – هو المشكل لتوجهه السياسي، والمهيمن على سلوكه الاجتماعي.

إنها – إذًا – ظاهرة افتقاد فكرة الشعب الواحد، والأمة الواحدة، والوطن الواحد، والمصير الواحد، والولاء الواحد، والهوية الواحدة، والهدف الواحد [٢٠٤].

وفي ظل ذلك كله يصبح المجتمع متنوع العرقيات أرضا خصبة للحركات العرقية بشتى صورها من انفصالية، إلى ارتقائية... إلى غيرها.

وتتعين الإشارة إلى أن الطبيعة العرقية (غير المتجانسة) لمجتمعات العالم الثالث إنما ترتد إلى طبيعة جغرافية هذه المجتمعات، إنها الطبيعة المترتبة على الحدود المصطنعة للأقاليم، وهي الحدود التي خطتها يد المستعمر، والتي جاء تعيينها – بطبيعة الحال – مستهدفًا مصالحه، حتى ولو كان من شأن ذلك تمزيق كيان تجمعات سكانية كان من الممكن أن تشكل نوعا من التكامل القومي إن أحسن.

---

[٢٠٤] انظر في هذا الصدد: أحمد وهبان، التخلف السياسي وغايات التنمية السياسية: رؤية جديدة للواقع السياسي في العالم الثالث، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٢٠.

رسم الحدود الجغرافية فيما بينها، أما في ظل ما قام بـه المستعمر من تعيين للحدود فكثيـرا مـا تمزقـت أوصـال الجماعات العرقية، وتناثرت بين عديد من الـدول، كمـا أن الأمم التاريخية المستقرة كثيرا ما تم تقسيمها إلى عديد مـن دويلات تشيع داخلها أسباب الفرقة والانقسام [٢٠٥].

ومهما يكن الأمر فإن الحركات العرقيـة إنمـا يـرتبط وجودها بالبلدان متنوعة العرقيات سواء أكانت هذه البلـدان تنتمي إلى العالم الثالث، أو كانت – حتى – ضـمن بلـدان العالم المتقدم، ولا يقدح في ذلك كون غالبية البلدان متنوعـة العرقيات داخل حظيرة العالم الثالث. وتلكم هـي الملاحظـة التي تبدو جلية من خلال الجدول التالي، والذي نقـدم فيـه سردا لأظهر الحركات العرقية التي شهدها العالم المعاصـر سواء تلك التي ما تزال قائمة، أو التي انتهت ببلوغ أهدافها:

(٢٠٥) المرجع السابق: ص ٢٣.

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
إثيوبيا	الحركة الإريترية	انفصالية
إثيوبيا	حركة صوماليي أوجادين	انفصالية
السودان	حركات الجنوبيين (أظهرها حركة جون جارانج)	أغلبها انفصالية
جنوب إفريقيا	حركة الأغلبية السوداء	ارتقائية
روديسيا (زيمبابوي)	حركة الأغلبية السوداء	ارتقائية
ناميبيا	حركة الأغلبية السوداء	ارتقائية
تركيا	الحركة الكردية	انفصالية
تركيا	حركة عرب الإسكندرونة	انفصالية

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
العراق	الحركة الكردية	انفصالية
إيران	الحركة الكردية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة الليتوانية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة اللاتفية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة الإستونية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة القازاقية	ارتقائية ثم انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة التركمانية	ارتقائية ثم انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة القرجيزية	ارتقائية ثم انفصالية
الاتحاد السوفييتي	الحركة الطاجيكية	ارتقائية ثم

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
(السابق)		انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة الأوزبكية	ارتقائية ثم انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة الأوكرانية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة البيلوروسية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة الجيورجية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة الأذرية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة الأرمينية	انفصالية
الاتحاد السوفييتي (السابق)	الحركة المولدوفية	انفصالية

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
روسيا الاتحادية	الحركة الشيشانية	انفصالية
روسيا الاتحادية	الحركة الداغستانية	انفصالية
روسيا الاتحادية	الحركة الأنجوتشية	انفصالية
يوغسلافيا (القديمة)	الحركة الكرواتية	انفصالية
يوغسلافيا (القديمة)	الحركة السلوفينية	انفصالية
يوغسلافيا (القديمة)	حركة مسلمي البوسنة والهرسك	انفصالية
يوغسلافيا (القديمة)	حركة كروات البوسنة والهرسك	انفصالية
يوغسلافيا (القديمة)	الحركة المقدونية	انفصالية
يوغسلافيا (الجديدة)	حركة البان كوسوفا	انفصالية

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
كرواتيا	حركة صرب كرايينا	انفصالية
تشيكوسلوفاكيا	الحركة السلوفاكية	انفصالية
جيورجيا	الحركة الأبخازية	انفصالية
جيورجيا	الحركة الأوسيتية	انفصالية
أذربيجان	حركة أرمن ناجورنو كاراباخ	انفصالية
مولدافيا	الحركة الجاجوازية	انفصالية
إندونيسيا	حركة مسيحيي تيمور الشرقية	انفصالية
إندونيسيا	حركة مسلمي جزر الملوك	ارتقائية
الهند	حركة السيخ في البنجاب	انفصالية

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
الهند	حركة مسلمي جامو وكشمير	انفصالية
الفلبين	حركة المسلمين في الجنوب: جبهة تحرير مورو حركة أبي سياف	انفصالية انفصالية
فيجي	حركة السكان الأصليين	ارتقائية
الصين	حركة التبتيين	انفصالية
الصين	حركة المسلمين في سينكيانج	انفصالية
سريلانكا	حركة التاميل (نمور التاميل)	انفصالية
الباكستان	حركة البنغال	انفصالية

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
	وإقامة بنجلاديش	
الباكستان	حركة مهاجر قومي في كراتشي	انفصالية
بورما	الحركة الكارينية	انفصالية
قبرص	حركة القبارصة الأتراك	انفصالية
المكسيك	حركة الهنود الحمر في تشيباس	انفصالية
إسبانيا	حركة الباسك (منظمة إيتا)	انفصالية
المملكة المتحدة	حركة الشين فين في إيرلندا الشمالية	انفصالية
ليبريا	حركة الجيو والمانو	ارتقائية
كندا	حركة فرنسيي	انفصالية

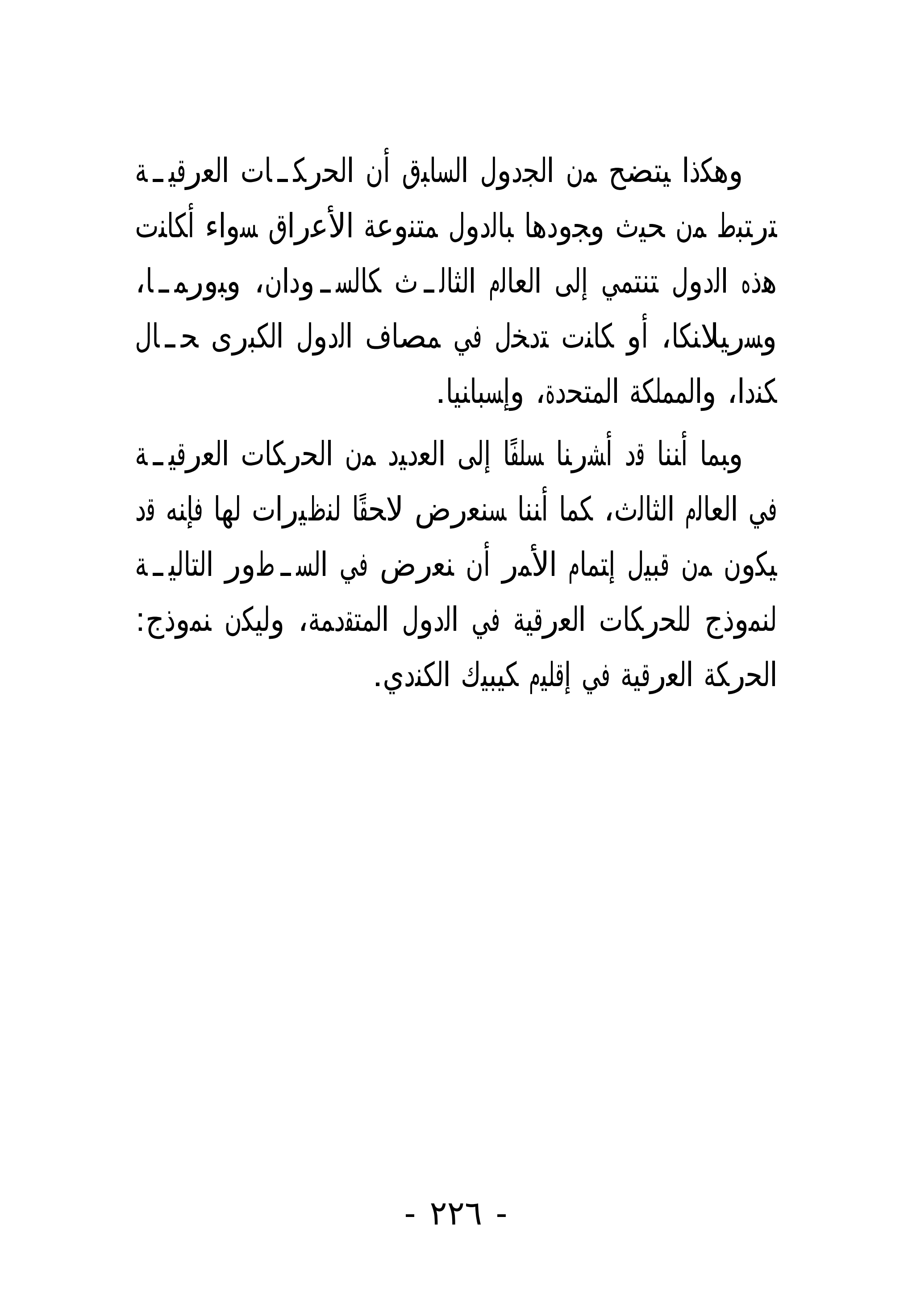
الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
	كيبك	
لبنان	حركة الموارنة	ارتقائية
لبنان	حركة الشيعة	ارتقائية
لبنان	حركة الدروز	ارتقائية
الجزائر	الحركة البربرية	ارتقائية
المغرب	الحركة البربرية	ارتقائية
تشاد	حركة عرب الشمال	انفصالية
بوروندي	حركة التوتسي	ارتقائية
بوروندي	حركة الهوتو	ارتقائية
رواندا	حركة التوتسي	ارتقائية
رواندا	حركة الهوتو	ارتقائية
بنجلاديش	حركة شيتاجونج	انفصالية
نيكارجوا	حركة ميسكيتو	انفصالية

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
الكونجو الديمقراطي	حركة التوتسي	ارتقائية

جدول رقم (١)

المصدر: اعتمدنا بصدد تركيبه على المراجع الآتية:

- تيد روبرت جار، أقليات في خطر، ترجمة مجدي عبد الحكيم، سامية الشامي، مكتبة مدبولي – القاهرة – ١٩٩٥.
- سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل والأعراق، هموم الأقليات في الوطن العربي، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية – القاهرة – ١٩٩٤.
- BURG. STEVEN L., Why Yugoslavia Fell a part, Current History, November, ١٩٩٣, pp. ٣٥٧ – ٣٦٣.



وهكذا يتضح من الجدول السابق أن الحركـات العرقيـة ترتبط من حيث وجودها بالدول متنوعة الأعراق سواء أكانت هذه الدول تنتمي إلى العالم الثالـث كالسـودان، وبورمـا، وسريلانكا، أو كانت تدخل في مصاف الدول الكبرى حـال كندا، والمملكة المتحدة، وإسبانيا.

وبما أننا قد أشرنا سلفًا إلى العديد من الحركات العرقيـة في العالم الثالث، كما أننا سنعرض لاحقًا لنظيرات لها فإنه قد يكون من قبيل إتمام الأمر أن نعرض في السـطور التاليـة لنموذج للحركات العرقية في الدول المتقدمة، وليكن نموذج: الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي.

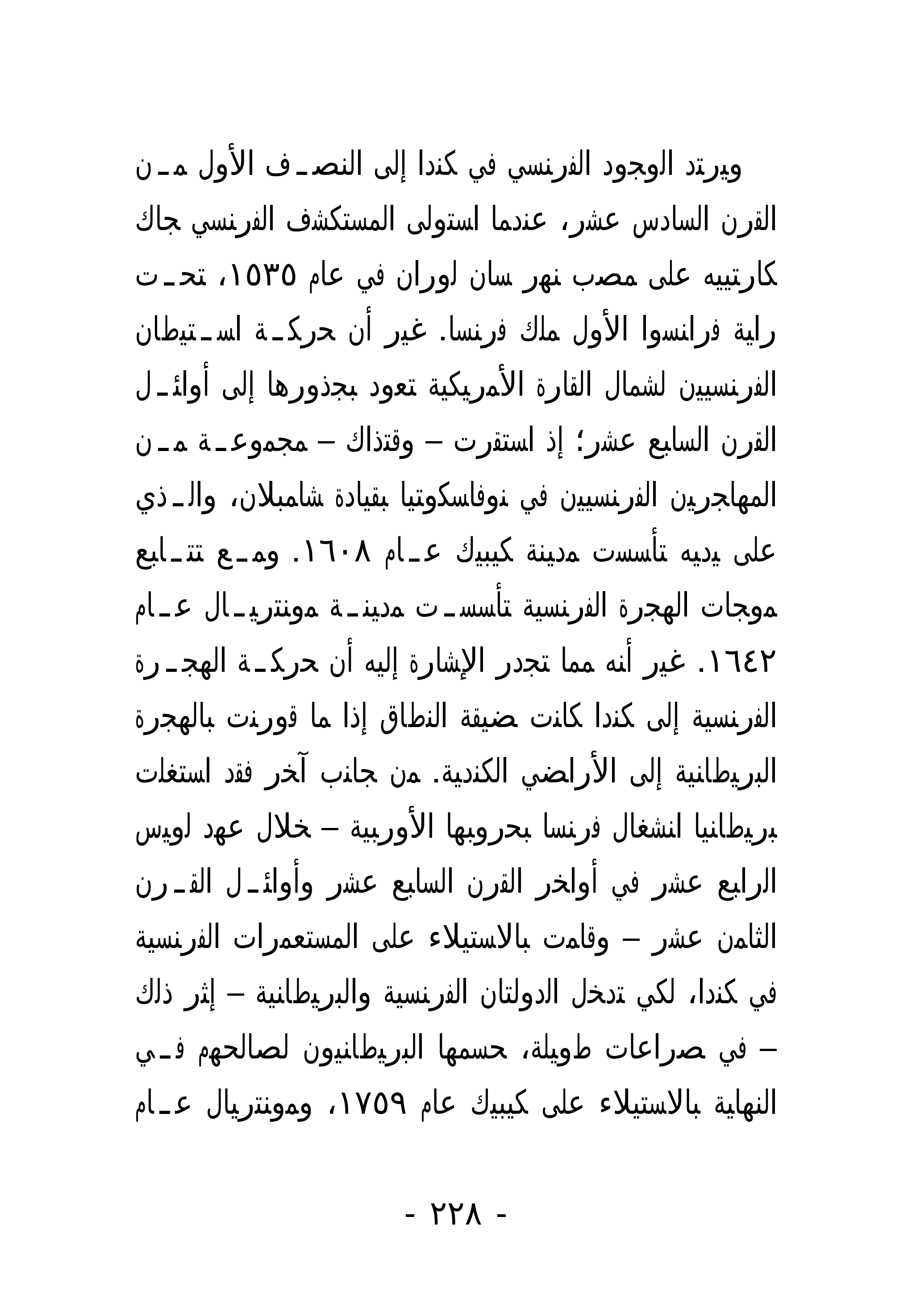
الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي

يمثل إقليم كيبيـك Quebec إحـدى مقاطعـات الدولـة الفيدرالية الكندية، ويشكل سكانه – حسب تعداد عـام ١٩٩٠ – حوالي ٢٥,٥ % من جملة سكان كندا البـالغ عـددهم – آنذاك – ٢٦,٧ مليون نسمة [٢٠٦]. وعلى عكس باقي الأقاليم الكندية فإن أغلبية عظيمة الشأن من سكان كيبيـك ينحـدر أفرادها من أصل فرنسي، ويتحدثون اللغة الفرنسية، فضـلاً عن اعتناقهم المذهب الكاثوليكي. ويطلق أفراد هذه الأغلبيـة على أنفسـهم وصـف "الكنـديين الفرنسـيين" "French Canadians". وعلى حين يشـكل الكنـديون الفرنسـيون ٨٠ % من جملة سكان كيبيك، فإن ثمة أقلية تتشكل من باقي سكان الإقليم، يتحدث أفرادها الإنجليزية، وينحـدرون مـن أصول أنجلو سكسونية في غـالبيتهم، ويعتنقـون المـذهب البروتستانتي [٢٠٧].

---

(٢٠٦) Holloway, Steven K., Canda Without Quebec. Orbis, Fall. ١٩٩٢. p. ٥٣٨.

(٢٠٧) Bercuson, David J., Why Quebec and Canada Must Part, Current History, March ١٩٩٥, p. ١٢٥.



ويرتد الوجود الفرنسي في كندا إلى النصف الأول من القرن السادس عشر، عندما استولى المستكشف الفرنسي جاك كارتييه على مصب نهر سان لوران في عام ١٥٣٥، تحت راية فرانسوا الأول ملك فرنسا. غير أن حركة استيطان الفرنسيين لشمال القارة الأمريكية تعود بجذورها إلى أوائل القرن السابع عشر؛ إذ استقرت – وقتذاك – مجموعة من المهاجرين الفرنسيين في نوفاسكوتيا بقيادة شامبلان، والذي على يديه تأسست مدينة كيبيك عام ١٦٠٨. ومع تتابع موجات الهجرة الفرنسية تأسست مدينة مونتريال عام ١٦٤٢. غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن حركة الهجرة الفرنسية إلى كندا كانت ضيقة النطاق إذا ما قورنت بالهجرة البريطانية إلى الأراضي الكندية. من جانب آخر فقد استغلت بريطانيا انشغال فرنسا بحروبها الأوربية – خلال عهد لويس الرابع عشر في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر – وقامت بالاستيلاء على المستعمرات الفرنسية في كندا، لكي تدخل الدولتان الفرنسية والبريطانية – إثر ذلك – في صراعات طويلة، حسمها البريطانيون لصالحهم في النهاية بالاستيلاء على كيبيك عام ١٧٥٩، ومونتريال عام

١٧٦٠. وإذعانًا للأمر الواقع فقد أقرت فرنسا – بمقتضى معاهدة باريس ١٧٦٣ – بسيادة بريطانيا على كندا [٢٠٨].

وبمقتضى دستور عام ١٨٦٧ أضحت كندا دولة فيدرالية، يمثل كيبيك أحد أقاليمها [٢٠٩]. وقد نص هذا الدستور على اعتبار اللغة الفرنسية لغة رسمية للدولة الكندية إلى جانب اللغة الإنجليزية [٢١٠].

وعلى أية حال فقد ظل الكنديون الفرنسيون مدركين لتمايزهم العرقي إزاء من عداهم من قاطني كندا، وبالتالي فقد ظلوا قابضين على هويتهم، عاضين بالنواجذ على مقومات ذاتيتهم المتمثلة في وحدة الأصل (الفرنسي)، واللغة

---

(٢٠٨) انظر بصدد هذا التطور التاريخي: سمعان بطرس فرج ا ، الحركة الانفصالية في كندا، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١، يناير ١٩٦٨، من ص ٩٨ إلى ص ١٠٢، وكذا:

Fulford, Robert, Canada: A great northern paradox?, World Politics, annual editions, ١٩٩٠ – ٩١, pp. ٧١ – ٧٢.

(٢٠٩) Bereuson, Op. Cit., P. ١٢٣.

(٢١٠) سمعان بطرس فرج ا ، مرجع سبق ذكره، ص ١٠١.

(الفرنسية) والمذهب الديني (الكاثوليكي). وفضلاً عما تقـدم فقد عاش الكنديون الفرنسيون – دوما – ينظرون إلى كنـدا باعتبارها دولتين، إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية، وإلى الشعب الكندي باعتباره شعبين هما الشعب الكندي الفرنسي، والشعب الكندي الإنجليزي [٢١١].

ويؤكد المهتمون بالشئون الكندية أن ظهـور الحركـات العرقية في كيبيك – بصورة جلية – إنما يرتـد إلـى عقـد الستينيات؛ إذ بدأت منذ ذلك الحين تطفو على سطح الحيـاة السياسية في كيبيك حركات عرقية بعضها انفصالي، والآخر يمكن أن نطلق عليه ارتقـائي. ويتمثـل أظهـر الحركـات الارتقائية التي ظهرت لدى الكنديين الفرنسيين فـي حـزب سياسي تمكن من الوصول إلى سدة الحكم في كيبيـك عـام ١٩٦٠، ألا وهو الحزب الليبرالي Liberal Party، والـذي تزعمه آنذاك جان ليساج Jean Lesage. وقد تبنى ليسـاج خلال الفتـرة (١٩٦٠ – ١٩٦٦) خطـة واسـعة النطـاق

---

[٢١١] Bereuson. Op. Cit., P. ١٢٥, and: Jockel, Josph T., And If Quebec Secedes: A view from the United States, current History, March, ١٩٩٥, PP. ١٢٧ – ١٢٨.

استهدفت تحديث شتى قطاعات المجتمع الكيبيكـي، وزيـادة مشاركة الكنديين الفرنسيين في إدارة الشئون الكندية قاطبـة. وقد أطلق ليساج على خطته هذه عبـارة "الثـورة الهادئـة" Quiet revolution [٢١٢]. وهكذا فإن الحزب الليبرالي لـم يكن يستهدف انفصال كيبيك عن كندا، وإنما كان يسـتهدف فحسب الارتقاء بشئون الإقليم، والسعي إلى توسـيع نطـاق مشاركة الكنديين الفرنسيين في إدارة الشئون الكندية.

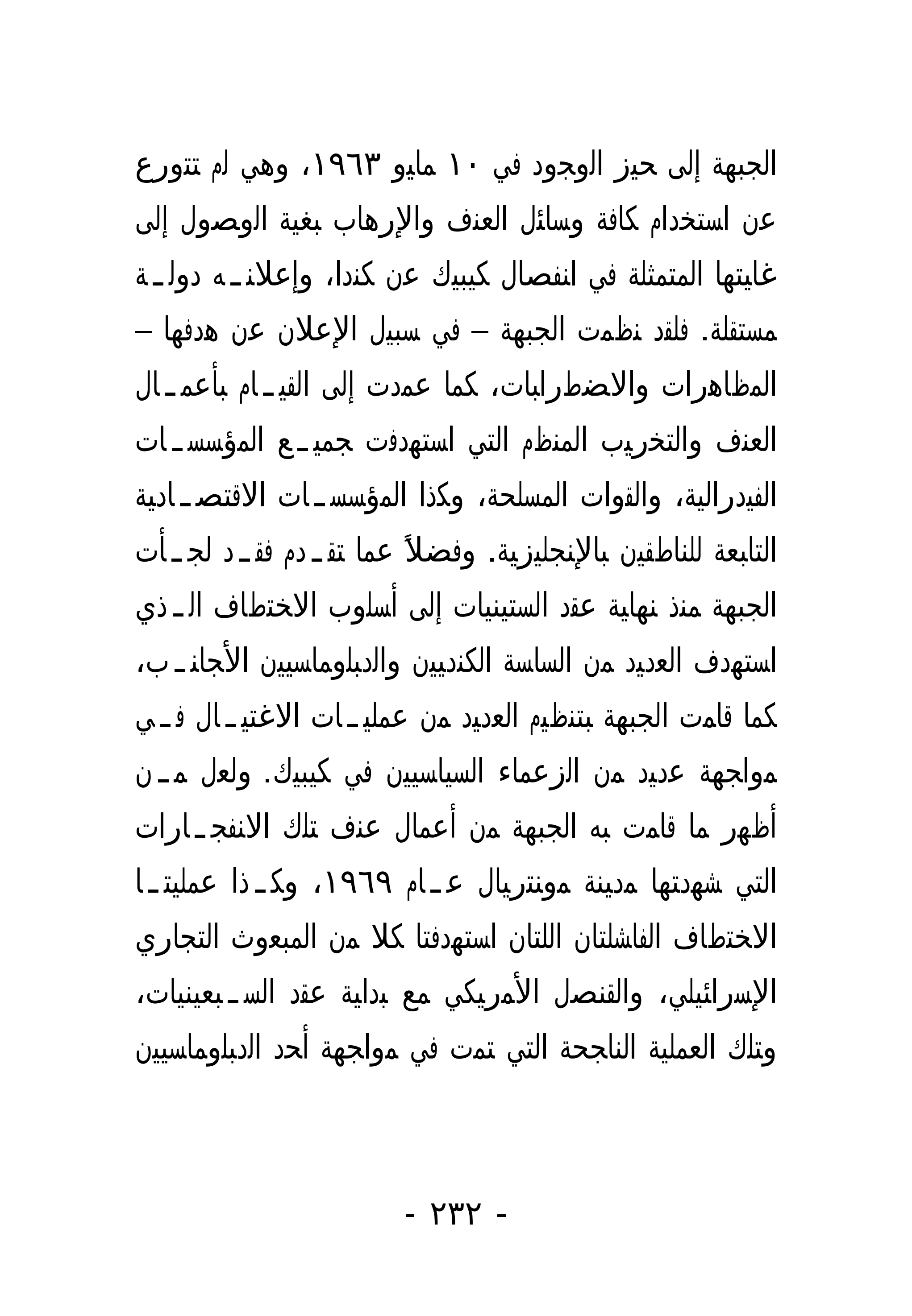
أما ما يتصل بالحركات العرقية الانفصالية فـي كيبيـك فيمكن أن نميز داخلها بين حركات تتوسل بالعنف في سـبيل بلوغ غايتها، وحركات يكسو وسائلها الطابع السلمي. فبصدد الحركات التي يغلب عليها طابع العنف – بادئ ذي بـدء – يتمثل أظهرهـا فـي جبهـة تحريـر كيبيـك Front de liberation du Quebec (FLQ) [٢١٣]. وقد ظهرت هـذه

---

[٢١٢] انظر بصددها:

Me Roberts, Kenneth, Quebec: Social Change and Political Crisis, Third Edition, M. & S., Canada, ١٩٨٨. pp. ١٢٨ – ١٤٧.

[٢١٣] Holloway, Op. Cit., P. ٥٣٣.



الجبهة إلى حيز الوجود في ١٠ مايو ١٩٦٣، وهي لم تتورع عن استخدام كافة وسائل العنف والإرهاب بغية الوصول إلى غايتها المتمثلة في انفصال كيبيك عن كندا، وإعلانـه دولـة مستقلة. فلقد نظمت الجبهة – في سبيل الإعلان عن هدفها – المظاهرات والاضطرابات، كما عمدت إلى القيـام بأعمـال العنف والتخريب المنظم التي استهدفت جميـع المؤسسـات الفيدرالية، والقوات المسلحة، وكذا المؤسسـات الاقتصـادية التابعة للناطقين بالإنجليزية. وفضلاً عما تقـدم فقـد لجـأت الجبهة منذ نهاية عقد الستينيات إلى أسلوب الاختطاف الـذي استهدف العديد من الساسة الكنديين والدبلوماسيين الأجانـب، كما قامت الجبهة بتنظيم العديد من عمليـات الاغتيـال فـي مواجهة عديد من الزعماء السياسيين في كيبيك. ولعل مـن أظهر ما قامت به الجبهة من أعمال عنف تلك الانفجـارات التي شهدتها مدينة مونتريال عـام ١٩٦٩، وكـذا عمليتـا الاختطاف الفاشلتان اللتان استهدفتا كلا من المبعوث التجاري الإسرائيلي، والقنصل الأمريكي مع بداية عقد السـبعينيات، وتلك العملية الناجحة التي تمت في مواجهة أحد الدبلوماسيين

البريطانيين، فضلاً عن عملية اختطاف وزير العمل والهجرة في إقليم كيبيك وإعدامه في عام ١٩٧٠ [٢١٤].

أما فيما يتصل بالحركات العرقية الانفصالية الكيبيكية التي يكسو وسائلها الطابع السلمي فيتمثل أظهرها في حزب كيبيك Parti Quebecois (PQ)، وهو الحزب الذي طفا على سطح الحياة السياسية في كيبيك عام ١٩٦٨، وراح يجعل غاية منتهاه انفصال الإقليم الكيبيكي عن كندا، وإعلانه دولة مستقلة [٢١٥]. وشيئًا فشيئًا ترسخت قاعدة الحزب وأخذت شعبيته في التنامي المستمر. ففي الانتخابات التي جرت في كيبيك عام ١٩٧٠ حصل حزب كيبيك على ٢٣ % من أصوات الناخبين، وبالتالي فقد كان يمثل حزب المعارضة

---

(٢١٤) انظر في هذا المضمون: نزيرة الأفندي، العنف والحركة الانفصالية في كندا، مجلة السياسة الدولية، العدد ٢٣، يناير ١٩٧١، ص ١٣٩.

(٢١٥) Meadwell, Husdon, The Politics of Nationalism in Quebec, World Politics, January, ١٩٩٣, p. ٢٠٣.

الرئيسي في مواجهة الحزب الليبرالي الحاكم آنذاك [٢١٦]. أما في ظل الانتخابات التي أجريت في الإقليم في ١٥ نـوفمبر ١٩٧٦ فقد تصدر حزب كيبيك الانفصالي الأحزاب الأخرى قاطبة من حيث عدد المقاعد التي حصل عليها؛ حيـث فـاز الحزب بحوالي ٦٩ مقعدا من جملة عـدد مقاعـد الجمعيـة الوطنية الكيبيكية البالغ عددها ١١٠ مقاعد. وهكذا فقد شـكل زعيم الحزب رينيه ليفيسك حكومة كيبيك، الأمر الذي كـان من شأنه أن استشعرت الحكومة الفيدرالية الخطر؛ إذ خشـي المسئولون الكنديون من أن يقوم ليفيسك بـإعلان اسـتقلال كيبيك [٢١٧]. ومن هنا فقد راح رئيس الوزراء الكندي يوجـه نداء قوميا إلى ما أسماه بالأمة الكندية، دعا فيه إلى ضرورة الحفاظ على الوحدة الوطنية فـي الـبلاد، وراح يؤكـد: "إن أرض كندا تتسع لكل الكنديين بلا تمييز، أو استثناء لغـوي،

---

[٢١٦] انظر في هذا المضمون: نزيرة الأفندي، العنف...، مرجع سـبق ذكره، ص ١٤٠.

[٢١٧] انظر في هذا المضمون: نازلي معوض أحمد، كويبك والحركـة الانفصالية في كندا، مجلة السياسة الدوليـة، العـدد ٤٨، أبريـل ١٩٧٧، ص ١١٧.

أو ثقافي، أو اجتماعي". غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أنـه على الرغم من تبني حزب كيبيك للانفصال وتأكيده عليه فإن ظروف كيبيك – عام ١٩٧٦ – لم تكن تسـمح بالانفصـال، ذلك بأن استطلاعات الرأي التي كان ليفيسك قد أجراها فـي الإقليم بشأن الانفصال أكدت أن نسبة مؤيدي استقلال كيبيـك عن كندا لا تتجاوز الخمسة عشرة في المائة من جملة سكان الإقليم، ذلك فضلاً عن أن الإقليم كان في حاجة إلى الـدعم الاقتصادي الهائل الذي كانت تقدمه له الحكومـة الفيدراليـة آنذاك. ومن هنا فقد راح حزب كيبيك يتبنى – بصورة مؤقتة – شعار "السيادة في ظل الفيدرالية الكندية" [(٢١٨)].

على أية حال فإنه بحلول عقد التسعينيات كان قد بدا جليا أن أنصار استقلال كيبيك قد حازوا تأييدا لا يستهان به مـن جانب الكيبيكيين. وقد تجلى هذا التأييد مـن خـلال نتـائج انتخابات الجمعية الوطنية الكيبيكية التي أجريت في سـبتمبر عام ١٩٩٤؛ حيث حصل حزب كيبيك بزعامة جاك بـاريزو

[(٢١٨)] انظر في هذا المضمون بالإضافة إلى المرجـع السـابق: نبيـل صباغ، كويبيك ومصير الوحدة الكندية، مجلة السياسـة الدوليـة، العدد ٥٣، يوليو ١٩٧٨، من ص ١٣٠ إلى ص ١٣٢.

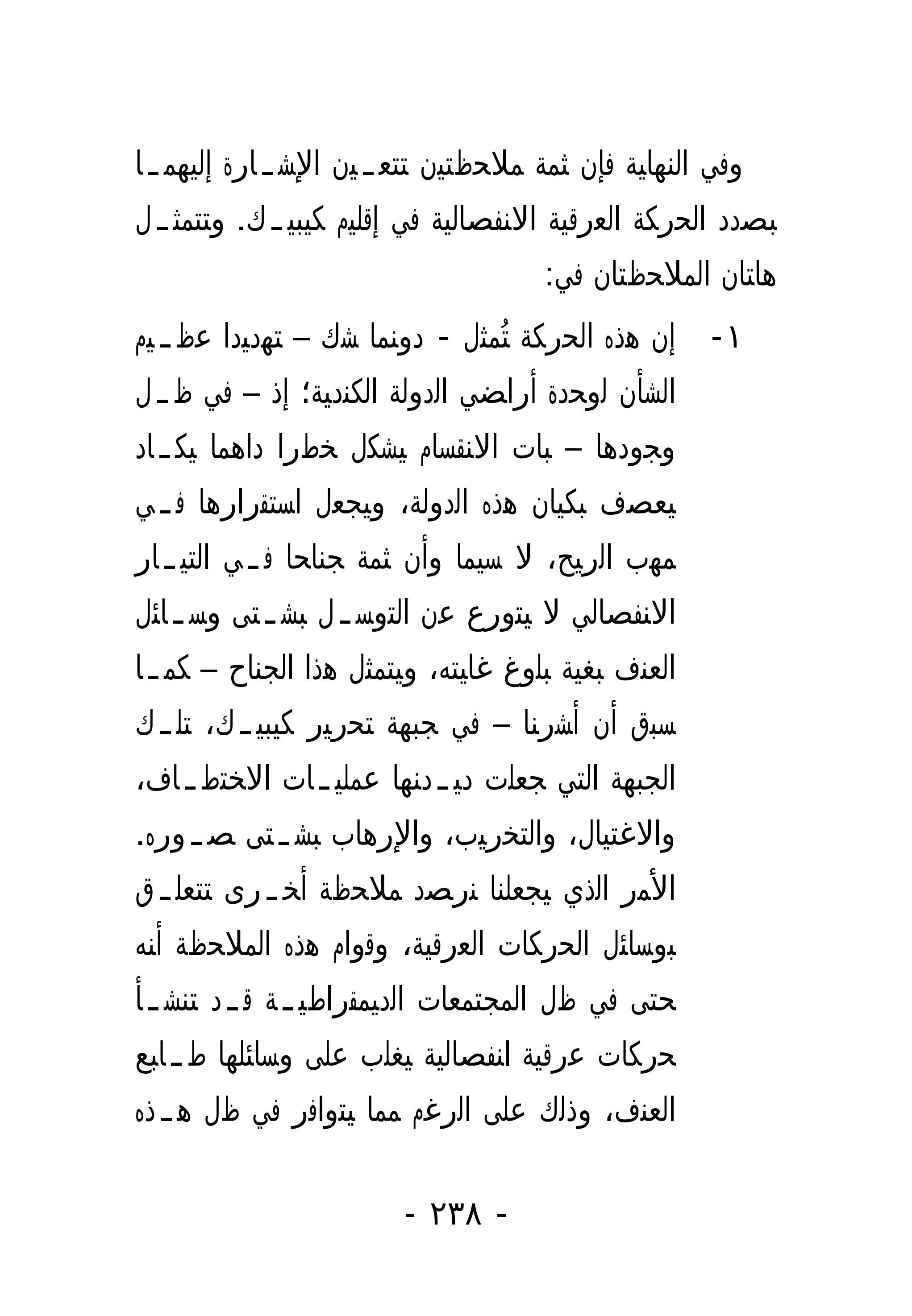
Jacques Pariweau على سبع وسبعين مقعدا مـن جملـة مقاعد الجمعية البالغ عددها ١١٠ مقاعد. الأمر الذي كان من شأنه أن أنيط بالزعيم الانفصالي بـاريزو تشـكيل حكومـة الإقليم. وعلى صعيد آخر فقد أكدت استطلاعات الرأي التي أجريت في كيبيك عام ١٩٩٥ أن حوالي نصف سكان الإقليم قد باتوا يؤيدون انفصاله عن كندا، وإعلانه دولـة مسـتقلة [٢١٩]. وتأسيسا على ذلك فقد راح باريزو يعلـن – بعـد أن أضحى رئيسا لوزراء كيبيك – أنه قـد آن الأوان لإجـراء استفتاء بين الكيبيكيين بصدد مصير إقليمهم. وبالفعل فقد تـم – في شهر أكتوبر ١٩٩٥ – إجراء استفتاء في كيبيك، طلب بمقتضاه من الكيبيكيين أن يعلنوا موقفهم من استقلال الإقليم. وقد أوضحت نتيجة هذا الاستفتاء أن ثمة انقساما حادا بـين قاطني كيبيك بصدد مواقفهم من مسـألة مسـتقبل الإقلـيم؛ إذ وافق ٤٩,٤ % منهم على انفصاله عن كندا وإنشاء دولة كيبيكية مستقلة، في حـين عـارض ذلـك ٥٠,٦ % مـن

---

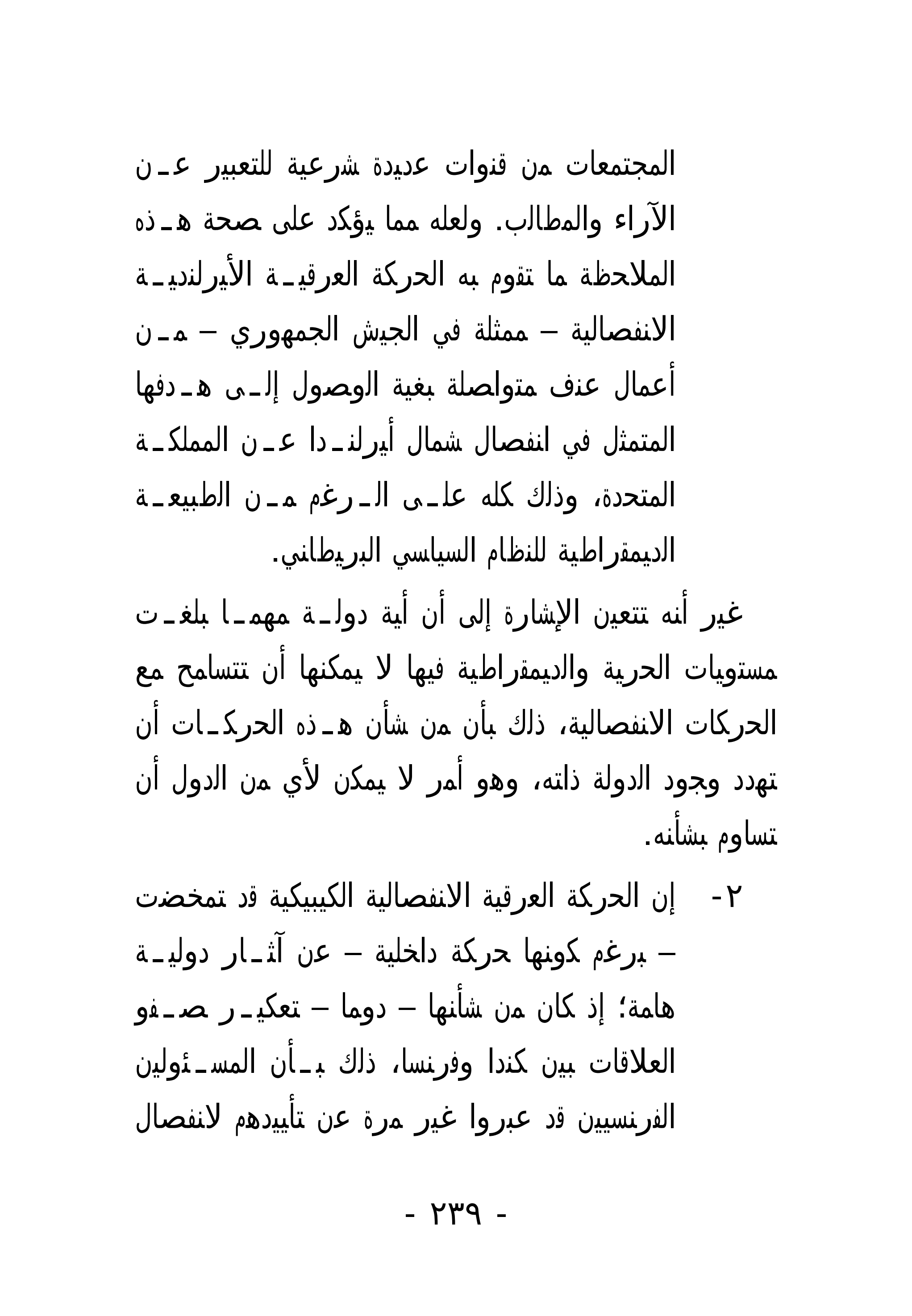
[٢١٩] انظر في هذا المضمون: مختار شعيب، "كيبيك" البركـان الـذي يهدد الوحدة الكندية، مجلة السياسة الدوليـة، العـدد ١٢٣، ينـاير ١٩٩٦، ص ٢٧٢.

الكيبيكيين. والحق أنه على الرغم من هزيمة التيار الانفصالي في استفتاء أكتوبر ١٩٩٥ فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها قوامها أن عدد مؤيدي هذا التيار قد تعاظم إلى حد كبير، لا سيما إذا قورن هذا العدد بنظيره الذي كان سائدا خلال عقد الستينيات. كما تتأكد هذه الحقيقة إذا ما نظرنا بعين الاعتبار إلى كون الكنديين الفرنسيين لا يمثلون سوى ٨٠ % فقد من جملة سكان كيبيك، وبالتالي – وفي ضوء نتائج هذا الاستفتاء – يمكن القول إن غالبيتهم تؤيد استقلال الإقليم.

على أية حال فإن باريزو راح يؤكد غداة إعلان نتائج استفتاء أكتوبر ١٩٩٥ أنه لن يتخلى البتة عن مسعاه الانفصالي، وأنه لا محالة مستفت الكيبيكيين – من جديد – بصدد استقلال إقليمهم. في حين راح رئيس الوزراء الكندي يؤكد أنه لن يسمح أبدا بإجراء أية استفتاءات أخرى تتصل باستقلال كيبيك، وأعلن عزمه على السعي إلى الحفاظ على وحدة الأراضي الكندية، وليظل مصير الإقليم معلقًا حتى يومنا هذا.


وفي النهاية فإن ثمة ملاحظتين تتعـين الإشـارة إليهمـا بصدد الحركة العرقية الانفصالية في إقليم كيبيـك. وتتمثـل هاتان الملاحظتان في:

١- إن هذه الحركة تُمثل - دونما شك – تهديدا عظـيم الشأن لوحدة أراضي الدولة الكندية؛ إذ – في ظـل وجودها – بات الانقسام يشكل خطرا داهما يكـاد يعصف بكيان هذه الدولة، ويجعل استقرارها فـي مهب الريح، لا سيما وأن ثمة جناحا فـي التيـار الانفصالي لا يتورع عن التوسـل بشـتى وسـائل العنف بغية بلوغ غايته، ويتمثل هذا الجناح – كمـا سبق أن أشرنا – في جبهة تحرير كيبيـك، تلـك الجبهة التي جعلت ديـدنها عمليـات الاختطـاف، والاغتيال، والتخريب، والإرهاب بشـتى صـوره. الأمر الذي يجعلنا نرصد ملاحظة أخـرى تتعلـق بوسائل الحركات العرقية، وقوام هذه الملاحظة أنه حتى في ظل المجتمعات الديمقراطيـة قـد تنشـأ حركات عرقية انفصالية يغلب على وسائلها طـابع العنف، وذلك على الرغم مما يتوافر في ظل هـذه



المجتمعات من قنوات عديدة شرعية للتعبير عن الآراء والمطالب. ولعله مما يؤكد على صحة هذه الملاحظة ما تقوم به الحركة العرقية الأيرلندية الانفصالية – ممثلة في الجيش الجمهوري – من أعمال عنف متواصلة بغية الوصول إلى هدفها المتمثل في انفصال شمال أيرلندا عن المملكة المتحدة، وذلك كله على الرغم من الطبيعة الديمقراطية للنظام السياسي البريطاني.

غير أنه تتعين الإشارة إلى أن أية دولة مهما بلغت مستويات الحرية والديمقراطية فيها لا يمكنها أن تتسامح مع الحركات الانفصالية، ذلك بأن من شأن هذه الحركات أن تهدد وجود الدولة ذاته، وهو أمر لا يمكن لأي من الدول أن تساوم بشأنه.

٢- إن الحركة العرقية الانفصالية الكيبيكية قد تمخضت – برغم كونها حركة داخلية – عن آثار دولية هامة؛ إذ كان من شأنها – دوما – تعكير صفو العلاقات بين كندا وفرنسا، ذلك بأن المسئولين الفرنسيين قد عبروا غير مرة عن تأييدهم لانفصال

كيبيك عن كندا، وإقامة دولة فرنسية على أراضيه.

ولقد كان أبرز هؤلاء المسئولين الزعيم الفرنسي الأسبق شارل ديجول، والذي في عهده بلغت العلاقات الفرنسية الكندية أوج توترها، ذلك بأن ديجول لم يتردد – وفي أثناء وجوده على الأراضي الكندية – في إعلان تأييده لاستقلال كيبيك عن كندا، وذلك في خطاب له ألقاه في مدينة مونتريال أثناء زيارته لها في ٢٤ يوليو ١٩٦٧؛ حيث راح يردد عدة مرات في خطابه عبارة عاشت كيبيك حرة Vive Quebec Liber. وقد اعترضت الحكومة الكندية بشدة على خطاب ديجول، بيد أنه لم يكترث بهذا الاعتراض، بل وراح يؤكد تمسكه بموقفه بأن راح يقطع زيارته لكندا قبل زيارة العاصمة أوتاوا. ولقد أعقب ذلك حدوث أزمة دبلوماسية حادة بين فرنسا وكندا [٢٢٠].

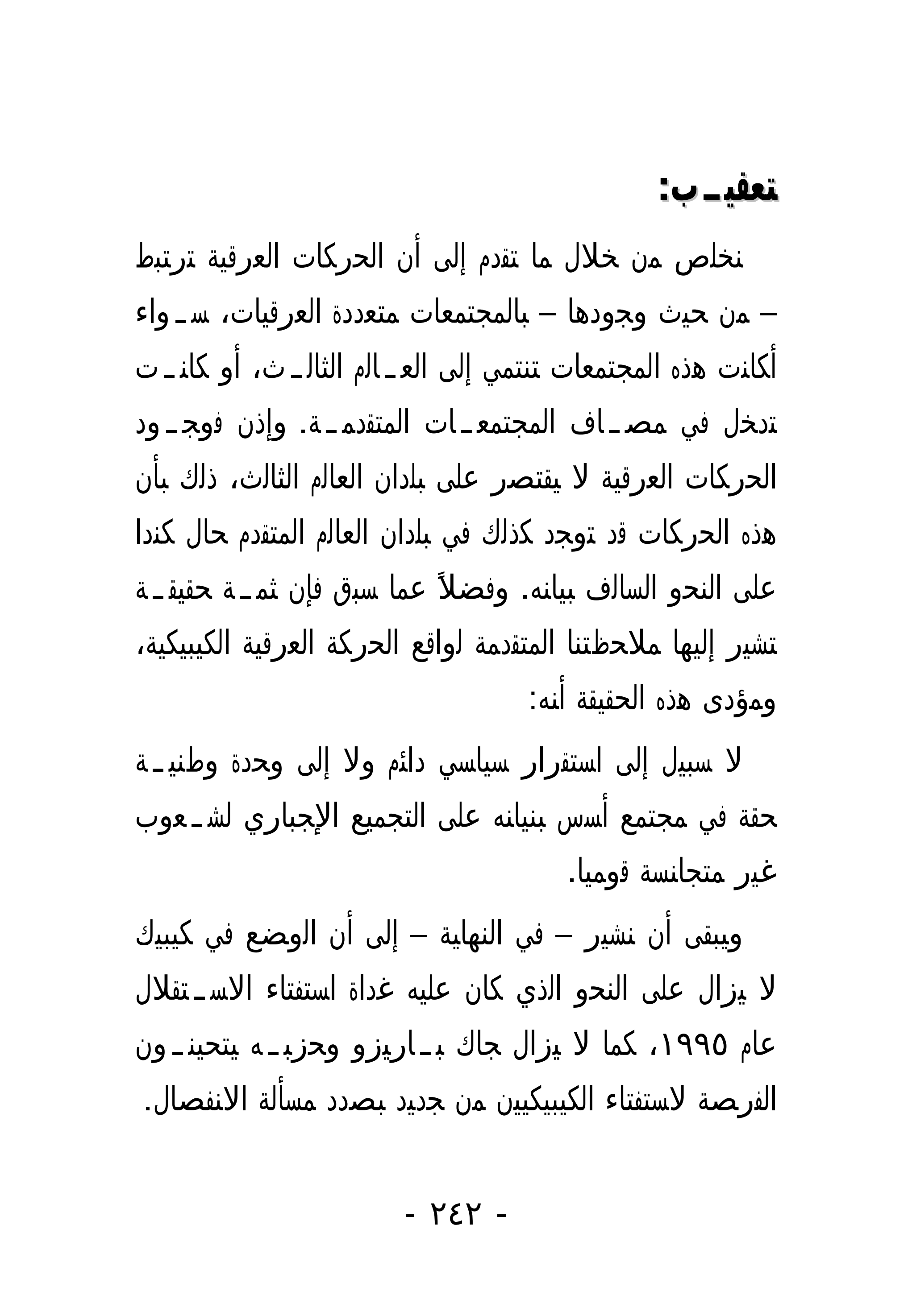
[٢٢٠] انظر في هذا المضمون: أحمد وهبان، العلاقات الأمريكية الأوربية بين التحالف والمصلحة، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٦١.

وتجدر الإشارة إلى أن موقف الرئيس الفرنسـي الحـالي جاك شيراك من الحركة الانفصالية الكيبيكية يعـد مطابقًـا لموقف ديجول، ذلك بأن شيراك أكد قبيل الاستفتاء الكيبيكـي في أكتوبر ١٩٩٥ أن فرنسا سوف تعتـرف بدولـة كيبيـك المستقلة في حالة التصويت في الاستفتاء بنعم للانفصال، كما أعلنت فرنسـا عـن ضـمانها لاعتـراف مجموعـة دول الفرانكوفون بالدولة الكيبيكية المستقلة [٢٢١].

ولعلنا لسنا في حاجة إلى القول بأن هذا الموقف الفرنسي من شأنه تعميق هوة الخلاف بين كندا وفرنسا فيمـا يتصـل بمشكلة الإقليم الكيبيكي.

---

[٢٢١] انظر في هذا المضمون، مختار شعيب، "كيبيك..."، مرجع سـبق ذكره، ص ٢٧٣.



تعقيـب:

نخلص من خلال ما تقدم إلى أن الحركات العرقية ترتبط – من حيث وجودها – بالمجتمعات متعددة العرقيات، سـواء أكانت هذه المجتمعات تنتمي إلى العـالم الثالـث، أو كانـت تدخل في مصـاف المجتمعـات المتقدمـة. وإذن فوجـود الحركات العرقية لا يقتصر على بلدان العالم الثالث، ذلك بأن هذه الحركات قد توجد كذلك في بلدان العالم المتقدم حال كندا على النحو السالف بيانه. وفضلاً عما سبق فإن ثمـة حقيقـة تشير إليها ملاحظتنا المتقدمة لواقع الحركة العرقية الكيبيكية، ومؤدى هذه الحقيقة أنه:

لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنيـة حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشـعوب غير متجانسة قوميا.

ويبقى أن نشير – في النهاية – إلى أن الوضع في كيبيك لا يزال على النحو الذي كان عليه غداة استفتاء الاسـتقلال عام ١٩٩٥، كما لا يزال جاك بـاريزو وحزبـه يتحينـون الفرصة لاستفتاء الكيبيكيين من جديد بصدد مسألة الانفصال.

الفصل الثاني
في غلبة الطابع الانفصالي
على أهداف الحركات العرقية

يرتبط وجود الحركات العرقية – كما قدمنا – بالمجتمعات متعددة العرقيات؛ حيث يضم المجتمع الواحد أكثر من جماعة عرقية واحدة لا يشعر أفراد أي منها بأن ثمة ما يربطهم بأفراد الجماعات الأخرى، على نحو يهيئ لغيبة فكرة المواطنة وانتفاء التكامل السياسي داخل المجتمع، وشعور أفراد الجماعات العرقية غير المسيطرة (التي هي أقليات غالبا) بأن الدولة التي تنتسب إليها لا تعبر عن ذاتيتها، ولا تجسد هويتها، وإنما هي تجسيد لهوية وذاتية الجماعية المسيطرة فحسب. وتأسيسا على ذلك فكثيرا ما تطل الحركات العرقية برأسها داخل مثل هذه الدول، ويصبح من الطبيعي أن يغلب على أهداف هذه الحركات الطابع الانفصالي. وذلكم هو ما تشير إليه ملاحظة واقع الحركات العرقية المعاصر؛ حيث يدخل أغلبها في نطاق الحركات الانفصالية، في معنى أن كلاً منها تتغيا غاية نهائية قوامها

انفصال بني نحلتها بإقليمهم عن الدولة التي تضمه بغية إنشاء دولة مستقلة تجمع شتاتهم وتعبر عن هويتهم، أو الانضـمام بهذا الإقليم إلى دولة مجاورة تشاركهم ذات الهوية العرقية.

ونقدم في الجدول التالي سردا لأظهر الحركات العرقيـة الانفصالية التي عرفها العالم المعاصر، مع الإشـارة – فـي ذات الوقت – إلى هدف كل منها:

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
الحركـــة الإريترية	إثيوبيا	يمثل الإقليم الإريتـري منطقـة فاصلة بـين الأراضـي الإثيوبيـة وسواحل البحر الأحمـر. ويقطنـه أناس ينحدر أغلـبهم مـن أصـول عربية، ويدين أكثر من ٧٠ % منهم بالإسلام أما لغتهم فتتمثل في العربية إلى جانب لغة محلية أخـرى هـي التيجرينية. خضعت إريتريا للحكـم المصري خلال عهد أسـرة محمـد علي، قبل أن تسيطر عليها إيطاليـا

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		خلال الفترة (١٨٩٠ – ١٩٤١)، ثم بريطانيا (١٩٤١ – ١٩٥٠)، إلى أن سيطرت عليها إثيوبيا عام ١٩٥٠ معتبرة إياها إقليما يتمتع بالحكم الذاتي (الذي كان شكليا) في ظل فيدرالية إثيوبية. عانى الإريتريون كثيرا من صنوف الاضطهاد لا سيما في عهدي الإمبراطور هيلاسلاسي، والرئيس منجستو هيلامariام. ظهرت العديد من الحركات العرقية الإريترية المطالبة بالانفصال عن إثيوبيا منذ عام ١٩٦٠، كان أهمها جبهة تحرير إريتريا، تلك الجبهة التي تمكنت تحت قيادة أسياسي أفورقي (وهو

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		مسيحي) وبعد كفاح مرير ومضن وطويل من إرغام الحكومة الإثيوبية (الرئيس زيناوي) على إجراء استفتاء بين الإريتريين بخصوص حق تقرير المصير، لكي تصبح إريتريا منذ ذلك الحين (٢٤ مايو ١٩٩٣) دولة مستقلة. • يلاحظ سيطرة جماعة الأقلية المسيحية على الحكم في إريتريا؛ الأمر الذي ينذر بدخول البلاد في دوامة الحرب الأهلية لا سيما في ظل شعور الأغلبية المسلمة بالاضطهاد. • توجد مشكلة حدودية بين

تعريف بالحركة وهدفها	الدولة التي ظهرت بها	الحركة العرقية الانفصالية
إريتريا وإثيوبيا لم تزل قائمة حتى الآن.		
تستهدف هذه الحركة انفصال إقليم أوجادين عن إثوبيا بغية الانضمام إلى الصومال التي تعتبر بالنسبة للأوجادينيين "الدولة الأم"؛ إذ ينحدرون من أصول صومالية. ويشار إلى أن تلك الحركة كادت تحقق هدفها من خلال حرب الأوجادين الشهيرة (١٩٧٤ – ١٩٧٧)، والتي كادت الميلشيات الأوجادينية فيها أن تسيطر على سائر أرجاء الإقليم لولا تدخل الاتحاد السوفييتي وكوبا وإقامة جسر جوي لنجدة نظام منجستو ماريام ذي الميول الماركسية، لكي	إثيوبيا	حركة صومالي أوجادين

تعريف بالحركة وهدفها	الدولة التي ظهرت بها	الحركة العرقية الانفصالية
يتمكن ذلك النظام في النهايـة مـن إعادة الإقليم إلى الحظيرة الإثيوبية. هذا ولا تزال الحركة الأوجادينية – حتى يومنا هذا – تناضل من أجـل بلوغ هدفها.		
شهد إقليم جنوب السـودان منـذ استقلال البلاد عام ١٩٥٦ (بل ومنذ عام ١٩٥٥) عديدا مـن الحركـات العرقية الانفصالية التـي تسـتهدف الانفصال بـالإقليم عـن السـودان وإقامة دولة جنوبية تجسـد الهويـة الزنجية. ولعـل أظهـر الحركـات القائمة حاليا هـي حركـة الجـيش الشعبي لتحرير السـودان بزعامـة جون جـارانج. وسـوف نعـرض للحركة العرقية في جنوب السودان	السودان	الحركـــة العرقيـــة في جنوب السودان

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		تفصيلاً من خلال صفحات تالية.
الحركـــة الكردية	تركيا	عرف التاريخ الكردي العديد من الحركات العرقية الانفصـالية منـذ تقسيم كردستان (أرض الأكراد) بين إيران الصـفوية الشـيعية وتركيـا العثمانية السنية عام ١٥١٤. ومنـذ ذلك الحين والأكراد يناضلون مـن أجل انفصال المناطق الكردية عـن تركيا وإيران والعراق بغية إقامـة دولة كردستان التي تجسـد الهويـة الكردية. ويتمثل أظهـر الحركـات الكردية المعاصرة داخل تركيا فـي حزب العمال الكردستاني بقيادة عبد ا أوجلان، والذي نشأ مـع بدايـة عقد الثمانينيات من القرن العشرين. وسوف نعرض للحركـة الكرديـة

تعريف بالحركة وهدفها	الدولة التي ظهرت بها	الحركة العرقية الانفصالية
بالتفصيل في صفحات لاحقة.		
انظر الحركة الكردية في تركيا، وكذا الفصل الثالث من هذا القسم.	العراق	الحركة الكردية
انظر الحركة الكردية في تركيا، وكذا الفصل الثالث من هذا القسم.	إيران	الحركة الكردية
تضم قبرص جماعتين عرقيتين هما: القبارصة اليونانيين ويشكلون ٤/ ٥ سكان الجزيرة القبرصية، والقبارصة الأتراك ويشكلون الخمس الباقي. ومنذ استقلال قبرص عام ١٩٥٩ والصراع قائم بين الجماعتين؛ حيث يرغب القبارصة اليونانيون في إعمال مبدأ الإينوزيس القاضي بضم قبرص إلى اليونان، الأمر الذي دفع القبارصة الأتراك إلى تبني مبدأ الانفصال وإقامة دولة	قبرص	حركة القبارصة الأتراك

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		قبرصية تركية مستقلة تجسد هويتهم تمهيدا للانضمام مستقبلاً إلى تركيا. وقد نجح القبارصة الأتراك بالفعل في بلوغ هدفهم، ولكن على يد تركيا التي غزت الجزيرة عام ١٩٧٤، وأعلنت قيام الدولة القبرصية التركية على قطاع يربو على ٣٠% من جملة الأراضي القبرصية. وباستثناء تركيا لم تعترف أية دولة بالدولة القبرصية التركية، كما لا يزال الصراع العرقي في قبرص قائما لم تحسم نتيجته حتى الآن.
حركة التبتيين	الصين	يقع إقليم التبت على الحدود بين الصين من جهة والهند ونيبال من جهة أخرى، وتبلغ مساحة الإقليم حوالي مليون وربع المليون من

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		الكيلومترات المربعة، ويقطنه زهاء المليوني شخص يدين أغلبهم بالبوذية اللامية، ويتزعمهم الزعيم الأشهر الدلاي لاما الموجود الآن في الهند، التي فر إليها خوفًا من بطش الصينيين عام ١٩٥٩، ولقد عاني التبتيون كثيرا من اضطهاد الحكومة الصينية، ولا سيما خلال ما يعرف بالثورة الثقافية (١٩٦٦ – ١٩٧٦)؛ حيث دمر أغلب معابدهم، وأديرتهم، وأجبر الرهبان على العمل في الحقول، كما حاولت الحكومة الصينية مرارا تغيير الخريطة الديموجرافية للإقليم من خلال توطين الصينيين داخله. وتستهدف الحركة العرقية التبتية منذ عام ١٩٥٩ انفصال إقليم التبت عن

تعريف بالحركة وهدفها	الدولة التي ظهرت بها	الحركة العرقية الانفصالية
الصين وإقامة دولة مستقلة تجسـد الهوية التبتية، ولا تزال هذه الحركة قائمة حتى يومنا هذا.		
كانت الصين – في عـام ١٨٤٤ – قد احتلتا إقليما يعرف بالتركستان الشرقية، وراحت تطلق عليه اسـم سينكيانج. ويقطن هذا الإقليم ما يربو على ١٥ مليـون نسـمة غـالبيتهم الساحقة من المسلمين، وتبلغ مساحته مـا يقـرب مـن مليـونين مـن الكيلومترات المربعة. ويرتبط سكان الإقليم بروابط دينية وسلالية ولغوية وتاريخية مـع سـكان التركسـتان الغربية التي يتشكل منها الآن خمس جمهوريات إسلامية (سوفيتية سابقة) تعرف بجمهوريات آسيا الوسـطى	الصين	حركـــة مســلمي سينكيانج (تركستان الشرقية)

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		وهـي قازقسـتان، وطاجيكسـتان، وأوزبكسـتان، وتركمانسـتان، وقرجيزسـتان. ويعـاني مسـلمو سينكيانج من الاضطهاد مـن قبـل الحكام الصينيين فـي ظـل تعتـيم إعلامي بـالغ علـى أوضـاعهم. وتستهدف حركة مسلمي التركستان الشرقية الانفصال عن الصين وإقامة دولة إسلامية مستقلة.
حركـة السيخ	الهند	والسيخ هم طائفة دينيـة تعتنـق عقيدة تُمثل خليطـًا مـن الـديانات المنتشرة في الهنـد (مـن سـماوية وأرضية)، وهم يشعرون بالاضطهاد من جانـب الأغلبيـة الهندوسـية، ويسـعون إلـى الانفصـال بـإقليم البنجاب (الـذي يشـكلون غالبيـة

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		سكانه) وإقامة دولة تجسد هويتهم.
حركة مسلمي جامو وكشمير	الهند	وتسعى هذه الحركة – منذ انفصال الباكستان عن الهند عام ١٩٤٧ – إلى الانسلاخ عن الدولة الهندية بغية الانضمام إلى الدولة الأم، والتي تجسد الهوية الإسلامية في المنطقة ألا وهي باكستان.
حركة التاميل	سريلانكا	تضم سريلانكا جماعتين عرقيتين رئيسيتين هما: السنهال ويشكلون جماعة الأغلبية، والتاميل وهم أقلية. ويرتبط التاميل بروابط دينية (هندوس) وسلالية وتاريخية مع سكان ولاية تاميل نادو الهندية، والتي هي شديدة القرب جغرافيا من شبه جزيرة جافنا التي يقطنها تاميل سريلانكا. ومنذ استقلال سريلانكا

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		عام ١٩٤٧ ظهرت العديد من الحركات الانفصالية في صفوف التاميل يعد أظهرها منظمة نمور التاميل التي ما برحت تناضل من أجل الانفصال بشبه جزيرة جافنا التي يشكلون غالبية سكانها وإقامة دولة مستقلة على أراضيها تعبر عن الهوية التاميلية بمنأى عن سريلانكا التي هي – في تصور التاميل – لا تعبر إلا عن هوية السنهال.
الحركة العرقية في تيمور الشرقية	إندونيسيا	استهدفت هذه الحركة انفصال تيمور الشرقية عن إندونيسيا؛ حيث يقطن الإقليم التيموري الشرقي أغلبية من المسيحيين الكاثوليك على خلاف أغلب الأقاليم الإندونيسية الأخرى، وقد نجحت الحركة

تعريف بالحركة وهدفها	الدولة التي ظهرت بها	الحركة العرقية الانفصالية
التيمورية مؤخرا من خلال نضالها المسلح – وفي ظل ضغوط أمريكية على الحكومة الإندونيسـية – فـي بلوغ هدفها، وحصـل التيموريـون الشرقيون على استقلالهم على إثـر استفتاء أجري في الإقليم خلال شهر أغسطس ١٩٩٩م.		
وقد نجحت هذه الحركة في بلوغ هدفها المتمثل في الانفصـال عـن الباكستان وإقامة دولة تُمثـل أبنـاء السلالة البنغاليـة، فكانـت دولـة بنجلاديش التي ظهرت إلـى حيـز الوجود عام ١٩٧١ والتـي لعبـت الهند (العدو اللدود لباكسـتان) دورا رئيسيا في إقامتها وتكريس وجودها.	الباكستان	حركـــة البنغال
وتستهدف هذه الحركة الانفصال	الباكستان	حركـــة

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
مهـــاجر قومي		بإقليم كراتشي عن الباكستان وإقامة دولة مستقلة على أراضيه.
الحركـــة العرقيـــة في أيرلندا الشمالية	المملكـــة المتحدة	كانت بريطانيا قد ضمت الجزيرة الأيرلندية كاملة عام ١٨٠٠ م، وظل الأيرلنـــديون يعـــانون اضـــطهاد الإنجليز حتى عـــام ١٨٢٩ عنـــدما أعطوا حقوقهم السياســـية والمدنيـــة كاملة كمواطنين بريطانيين. غير أن ذلك لم يمنع من ظهـــور حركـــات انفصالية سعت إلى استقلال الجزيرة التي يقطنها سكان كانوا يتحـــدثون بلغة مغايرة للإنجليزية، ويدينون – على خلاف الإنجليز – بالكاثوليكية. ولعل أهم الحركات الانفصالية التي ظهرت في أيرلندا حركة الشين فين. وهي الحركة التي ظلت تناضل منذ

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		منتصف القرن التاسع عشر تقريبـا من أجل استقلال أيرلنـدا إلـى أن وافقت بريطانيا عـام ١٩٢١ علـى إجراء استفتاء حصلت علـى إثـره أيرلندا الجنوبيـة علـى اسـتقلالها وأعلنت الجمهورية فيهـا، ونـص دستورها على حقها في ضم أيرلندا الشمالية واسـتمرت الشـين فـين (وجناحها العسـكري والمعـروف بالجيش الجمهوري) تناضل من أجل فصل شمال أيرلندا عـن المملكـة المتحدة، وإلحاقـه ببـاقي الجسـد الأيرلندي في الجنوب، وذلك علـى الرغم من أن الكاثوليك لا يمثلـون سوى ٣٨ % من سـكان أيرلنـدا الشمالية في حين يشكل البروتستانت الموالين لبريطانيا (وحزبهم السـتر

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		الاتحادي) ما يربـو علـى نصـف سكان الإقليم. وقد ظلـت الحكومـة البريطانية ترفض انفصال أيرلنـدا الشمالية عنها إلا أنه بحلول شـهر أبريل عام ١٩٩٨ وافق البريطانيون – في ظل تصاعد عمليات العنـف للجيش الجمهوري وتحـت وطـأة ضغوط الأمـريكيين (المتعـاطفين تاريخيا مع الأيرلنديين) – على منح شمال أيرلندا حكما ذاتيـا موسـعا وإقامة حكومة محلية يتقاسم مقاعدها كل من حزب ألستر البروتسـتانتي الموالي لبريطانيا، وحزب الشين فين الانفصالي. وقد عرف هذا الاتفـاق باتفاق رامبوييه والذي لـم يوضـع حتى الآن في حيز التنفيـذ نظـرا لرفض الجيش الجمهـوري إلقـاء

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		السلاح الأمر الذي عكس أزمة الثقة العميقة بين الطرفين، وبالتالي فـلا تزال المشكلة الأيرلندية قائمـة دون حل حتى الآن.
الحركـــة المقدونية	يوغسلافيا (السابقة)	حيث ينحـدر المقـدونيون مـن أصول يونانية، كما كانوا يشكلون – تاريخيـا – جـزءا مـن الشـعب اليونـاني، وبالتـالي لـم يكونـوا يرتبطون بأيـة رابطـة سـواء – موضـــوعية أو روحيـــة – باليوغسلاف. وقد تمكن المقدونيون بحلول عام ١٩٩٣ من نيل استقلالهم بحد السيف وأقاموا دولـة مقـدونيا التي تجسد هويتهم.
الحركـــة العرقيـــة	يوغسلافيا (السابقة)	استهدفت هذه الحركة انفصـال سلوفينيا عن يوغسلافيا، وقد تحقـق

تعريف بالحركة وهدفها	الدولة التي ظهرت بها	الحركة العرقية الانفصالية
لها ما أرادت مـن خـلال حـرب ضروس خاضـت غمارهـا عـام ١٩٩٣.		السلوفينية
استهدفت هذه الحركة انفصـال كرواتيا عن يوغسلافيا، وقد حققـت هدفها بالفعل على إثر صراع مسلح طويل انتهى عام ١٩٩٣.	يوغسلافيا (السابقة)	الحركـــة العرقيـــة الكرواتية
استهدفت هذه الحركة انفصـال جمهورية البوسنة والهرسـك عـن يوغسلافيا، وقـد أعلـن اسـتقلال الجمهورية بالفعل على إثر اسـتفتاء أجري عام ١٩٩٢ غيـر أن ثمـة حربا ضروبا انـدلعت فـي هـذه الجمهورية وانتهـى الأمـر عـام ١٩٩٦ بتوقيع الأطراف المتحاربـة على اتفاقية ديتون، والتي بمقتضاها	يوغسلافيا (السابقة)	الحركـــة العرقيـــة لمســلمي البوسنة

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		أصبحت البوسنة دولة مستقلة تضم رابطة فيدرالية بين المسلمين والكروات، ترتبط بدورها برابطة كنفدرالية مع صرب البوسنة.
الحركة العرقية في كيبيك (حزب كيبيك)	كندا	وتستهدف انفصال إقليم كيبيك ذي الأغلبية الفرنسية الأصل واللغة عن كندا ذات الأغلبية الأنجلوسكسونية (أصلاً ولغة) وذلك على النحو الذي عرضنا له سلفًا بالتفصيل.
حركة الباسكيين (منظمة إيتا)	إسبانيا	وتستهدف هذه الحركة انفصال إقليم الباسك عن إسبانيا، وإقامة دولة باسكية مستقلة تضم باسكيي أسبانيا، وبني نحلتهم الذين يقطنون في فرنسا بالقرب من الحدود الفرنسية الإسبانية. (وقد سبقت الإشارة إلى

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التي ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
		هذه الحركة).

جدول رقم (٢) (*)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بالمراجع الآتية:

١- جار، مرجع سبق ذكره.

٢- سعد الدين إبراهيم (مشـرف)، همـوم الأقليـات، التقرير السنوي الأول (١٩٩٣)، إصدارات مركـز ابن خلدون – القاهرة – ١٩٩٤.

٣- White, Stephen & Others (ed.), Developments in East European Politics, Macmillan, ١٩٩٣.

٤- محمد حرب، الصراع الصيني التركستاني ومستقبل تركستان الشرقية، العدد (١٣٢) من مجلة السياسية الدولية، أبريل ١٩٩٨، ص ١٠٧: ١١٣.

(*) لم ينطو هذا الجدول على العديد والعديد من الحركات الانفصـالية التي عرفها الاتحاد السوفيتي السابق وجمهورياته، وهي الحركات التي سنعرض لها بتفصيل طويل من خلال القسم الثالث.

٥- هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث: ١٧٨٩ – ١٩٥٠، تعريب أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع، القاهرة – دار المعارف – الطبعة الثامنـة، ١٩٨٤.

وفيما يلي نعرض بشيء من التفصيل لإحدى الحركـات العرقية الانفصالية في عالمنا المعاصر، وهي الحركة العرقية في جنوب السودان.

* * *

الحركة العرقية
في جنوب السودان

تبلغ مساحة إقليم جنوب السودان ما يربو على ربع مساحة الدولة السودانية؛ إذ تقدر مساحة الإقليم بحوالي ٦٥٠٠٠ كيلو متر مربع، في حين أن مساحة السودان قاطبة تصل إلى حوالي ٢,٥٠٥,٨١٣ كيلو متر مربع. وقد بلغ عدد سكان الإقليم الجنوبي – حسب إحصاء عام ١٩٨٣ – حوالي ٥,٣٧١,٢٩٦ نسمة، يشكلون زهاء ربع سكان الدولة السودانية البالغ عددهم – حسب ذات الإحصاء – حوالي ٢١,٥٩٢,٥٨٢ نسمة [٢٢٢]. وينطوي هذا الكيان البشري للدولة السودانية على تنوع عرقي هائل؛ إذ يضم المئات من الجماعات العرقية المتباينة سلاليا ولغويا ودينيا وثقافيا، وإن كان ثمة اختلاف بين الباحثين حول عدد هذه الجماعات؛

---

[٢٢٢] انظر في هذا المضمون: أحمد الصاوي، الأقليات التاريخية في الوطن العربي، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٨٦، ٨٧.

إذ يذكر البعض أن: "السودان بها ٧٥٢ قبيلة، وأن ثمة ١١٤ لغة متداولة داخل حدودها، أما فيما يتصل بالأصول السلالية للسودانيين فإن ٤٠ % منهم ينحدرون من أصول عربية، كما أن ٣٠ % جنوبيون أصول أفريقية، و١٢ % من قبائل غرب إفريقيا، و١٢ % نوباويون وبجـاة، و٣ % نوبيـون، ٣ % أجانب ومولودون. وبصدد التقسيم اللغوي في الـبلاد فـإن ٥١% من السودانيين يتكلمون العربية، في حين يتكلم بـاقي السودانيين لغات ولهجات أخرى" [(٢٢٣)].

وثمة من الباحثين من يذكر أن: "السـودان يتكـون مـن أجناس شتى وثقافات عديدة؛ حيث يضم بين جنباته نحو ٥٩٧ قبيلة يتحدثون أكثر من ٤٠٠ لغة ولهجة، ويمارسون طقوسا دينية متنوعة في إطار كل من الإسلام، والأديـان القلبيـة، والمسيحية، وذلك على الترتيب [(٢٢٤)]. ويشير باحث ثالث إلى

[(٢٢٣)] ورد في: عبد الملك عودة، مستقبل جنوب السودان بين وحدة الدولـة أو الانفصال، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٠٩)، يوليو ١٩٩٢، ص ٧.

[(٢٢٤)] طلعت محمود عبد الرازق (مقرر) وآخرون، الأقليات في المنطقة العربية وتأثيرها على الأمن القومي العربي، تقرير صـادر مـن وزارة الدفاع المصرية (بدون تاريخ)، ص ٨٣.

أن "السودانيين ينقسمون إلى أكثر من ٥٣٠ قبيلـة تختلـف أصولها العرقية بين العروبة والزنجية، كما تختلـف لغاتهـا ولهجاتها المحلية". ويشير رابع إلى أن "٤٠ % مـن سـكان السودان من العرب، و٦٠ % من الأفارقة، وأن المسـلمين يشكلون ثلثي السكان، في حين يشكل المسيحيون وأصـحاب الديانات الطبيعية الثلث الباقي". ويذكر سادس أن: "السـودان يضم ٥٨٣ قبيلة تتحدث ٢٠٧ لهجة". ويشير سابع إلـى "أن السودان يضم أكثر من ٦٠٠ مجموعة عرقية" [٢٢٥].

ومهما يكن من أمر ذلك الاختلاف بين البـاحثين حـول التركيب العرقي للكيان البشري السوداني فإنه يلاحظ أن ثمة اتفاقًا عاما بينهم على أن عدد الجماعات العرقيـة القاطنـة للسودان يبلغ بضع مئات. الأمر الذي يؤكد – دون ريـب – صدق مقولتنا السابقة بأن ثمة تنوعا عرقيا هائلاً ينطوي عليه الكيان البشري للدولة السودانية.

---

[٢٢٥] انظر بصدد هذه الأطروحات: طلعت رميح، مسـتقبل السـودان: أزمة الحكم، أزمة الجنوب، أزمة الهوية، (بدون ناشـر)، ١٩٩٤، ص ٤٩، ٥٠، ٥١.

واستكمالاً لما تقدم نـذكر أن سـكان شـمال السـودان ينحدرون من أصول حامية/ سامية؛ إذ جاءوا إلى مـوطنهم هذا من خلال موجات متتابعة من الهجرات العربيـة[٢٢٦]. في حين ينتمي شعب الجنوب إلى ثلاث مجموعات سـلالية كبرى تتمثـل فـي النيلـين Nilots، والنيلـين الحـاميين Nilohamites، والسـودانيين Sudanic. وتضـم هـذه المجموعات الثلاث الكبرى عشرات من الجماعات العرقيـة التحتية (القبائل)، ويتمثل أظهر قبائل جنوب السـودان فـي: الدينكا، والنوير، والشلوك (مجموعـة قبائـل)، والبـاري، والمنداري، والأزاندي، والبونجو[٢٢٧]. ويتوزع الجنوبيـون على ثلاث مديريات تشكل مجتمعة إقليم جنـوب السـودان، وهي مديريات بحر الغـزال، وأعـالي النيـل، والمديريـة الاستوائية. أما بصدد الأديان المنتشرة في الجنـوب فيشـير الكتاب السنوي للتبشـير Annual Mission Book لعـام

---

[٢٢٦] أحمد بشير حامد، نشر السلطة والتكامل القـومي فـي جنـوب السودان، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩١، يناير ١٩٨٨، ص ٩٠.

[٢٢٧] راجع في ذلك بتفصيل طويـل: سـعد الـدين إبـراهيم، الملـل والنحل...، مرجع سبق ذكره، من ص ٣١٥ إلى ص ٣٢٢.

١٩٨١ (والذي يصدره مجلس الكنائس العالمي) إلى أن ٦٥ % من سكان الجنوب لا يعتنقون ديانات سماوية، وأن ١٨ % منهم مسلمون، و١٧ % يدينون بالمسيحية [٢٢٨].

ويتضح في ثنايا ما تقدم أن ثمة تنوعا عرقيا هائلاً ينطوي عليه الكيان البشري لإقليم جنوب السودان، وبالتالي فإن سكان الجنوب هم أبعد ما يكونون عن تشكيل أمة واحدة، كما أنهم ليسوا – كما قد يعتقد البعض – على قلب رجل واحد. وتلكم هي الحقيقة التي يعبر عنها أحد كبار الساسة السودانيين الجنوبيين وهو أبيل ألير بقوله: "إن أهل الجنوب ينحدرون من أصول وجذور متعددة، جغرافيا وتاريخيا، وهم لم يكونوا في يوم من الأيام شعبا موحدا متسق السياسة، محدد الخطط أمام القوى الأجنبية، بل على نقيض ذلك كان كثير من الجنوبيين يقاتل جيرانه، وبالتالي فقد كانت الصدامات بينهم أمرا شائعا وسمة بارزة على نحو أدى إلى إضعافهم إزاء التدخل الأجنبي الذي تعرضوا له، بيد أنهم برغم هذا التنافر يجمع بينهم الرفض للقوى الأجنبية، وللسخرة وللابتزاز، ولمصادرة أمولهم وممتلكاتهم، والحد من

---

[٢٢٨] انظر في هذا المضمون: أحمد الصاوي، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧، ٩٠.

حـريتهم الفرديـة التـي عليهـا يحرصـون ويعضـون بالنواجذ"[229].

ويبقى التساؤل: إذا كان الشماليون لا ينتمون إلى أصـل سلالي واحد، وكذا الجنوبيون ما الذي يجمع كلا الفـريقين – إذًا – في مواجهة الآخر؟

يجيب على ذلك أحد المثقفين الجنوبيين وهو دانستان بقوله: "يعتبر السودانيون الشماليون أنفسهم عربا، ويعتبر السودانيون الجنوبيون أنفسهم أفارقة، وهذا الشقاق الأفرو – عربي الحـاد ينفي فكرة السودان الواحد، والشعب الواحد"[230].

على صعيد آخر فإن ثمة تساؤلاً آخر يطـرح نفسـه ألا وهو: كيف تم تجميع تلك الفسيفساء العرقية التـي ينطـوي عليها الكيان البشري السوداني في دولة واحدة؟ وبمعنى آخر ماذا كان السبيل إلى تخليق دولة كالسودان تنطوي على كـل هذا التنوع العرقي؟

---

[229] انظر في هذا المضمون: أبيل ألير، جنوب السودان: التمادي فـي نقض المواثيق والعهود، ترجمة بشير محمد سـعيد، ميـد لايـت المحدود، لندن، ١٩٩٢، ص ١٣، ١٤.

[230] انظر في هذا الصدد: محمد بشير حامد، مرجع سبق ذكره، ص ٩٠.

يؤكد المهتمون الدولة السودانية أن هذه الدولة إنما قامـت – منذ البداية – على التجميع الإجباري لعديد من شعوب غير متجانسة قوميا؛ حيث تأسست الدولة السودانية على يد والـي مصر محمد علي، الذي راح يرسل جحافله إلى الجنوب بدءا من عام ١٨٢١، مؤسسا بذلك الكيان السوداني المعاصر من خلال القوة المسلحة. ويقول في ذلك الباحث السوداني إيزانا أنوك: "إن السودان هو كيان مفتعل أوجده الحكـم التركـي المصري خلال الفترة (١٨٢١ – ١٨٧٥) [٢٣١].

ويؤكد على ذلك أبيل ألير بقوله: "عندما غزا محمد علـي السودان، واحتل أراضيه في الربع الأول من القرن التاسـع عشر لم يكن هناك كيان سياسي موحد باسم ذلك القطر، بـل كانت هناك سلطتا سنار ودارفور تسـيطران علـى الجـزء الأكبر مما نسميه اليوم بالسودان الشمالي. وكانت الممـرات المائية الواقعة في الجنوب وهي بحر العرب، وبحر الغزالي، والنيل الأبيض، والسوباط، خاضعة لسيطرة الدينكا، والنوير، والشولك، والأنواك، وهي من أكبر القبائـل فـي السـودان الجنوبي، ولم تكن قبضة هذه القبائـل قاصـرة علـى هـذه

---

[٢٣١] طلعت رميح: مرجع سبق ذكره، ص ٧٧.

الممرات المائية، بل كانت تمتد إلـى المراعـي والسـهول المحيطة بها" [٢٣٢].

وجملة القول في شأن ما تقدم أن بنيان الدولة السـودانية إنما أسس على التجميع الإجبـاري لشـعوب عديـدة غيـر متجانسة قوميا، وأنه على الرغم من التنوع العرقي الهائـل الذي ينطوي عليه الكيان البشري لكل من الجنوب والشـمال فإن الجنوبيين – عموما – يعتبرون أنفسهم أفارقة، في حـين يعتبر الشماليون أنفسهم عربا. ويمكن القول إن هذا الإدراك – لا سيما من جانب الجنوبيين – قد تعمق بفعـل عـاملين رئيسيين هما:

١- السياسة الجنوبية التي اتبعها المحتلون الإنجليز في السودان خلال الفترة (١٩٢٠ – ١٩٥٠)، والتـي كانوا يسعون من ورائها إلى عزل جنوب السودان تماما عن الشمال، وإلحاقه بمستعمرات بريطانيا في شرق إفريقيا. وفي سبيل ذلك عمد الإنجليـز إلـى محاصرة الوجود العربي الإسلامي في الجنـوب،

---

[٢٣٢] أبيل ألير، مرجع سبق ذكره، ص ١١.

من خلال إبدال كافة الموظفين والإداريين والفنيين العرب – من مصريين وسودانيين شماليين العاملين في المديريات الجنوبية الثلاث بنظراء لهم جنوبيين، كما شرع الإنجليز في التضييق على التجار الشماليين العاملين في الجنوب، فضلاً عن تشجيع استخدام اللغات المحلية الجنوبية (غير العربية)، والسعي إلى أن تكون الإنجليزية لا العربية هي لغة التفاهم بين قبائل الجنوب. وفوق ما تقدم فقد قام الإنجليز بإنشاء شريط أرضي بعرض عدة كيلومترات، ليفصل بين المديريات الشمالية والمديريات الجنوبية؛ حيث أفرغ هذا الشريط من سكانه تماما وأخليت كل قراه ونسفت مؤسساته ومرافقه بهدف وأد كل فرص الاتصال والتفاعل بين الشماليين والجنوبيين [٢٣٣].

---

[٢٣٣] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٣، ٣١٤.

٢- قرارات لجنة السودنة التي صـدرت عـام ١٩٥٤ خلال فترة الإعداد لاسـتقلال السـودان. ويقصـد بالسودنة إبدال الكوادر الإدارية والفنية الإنجليزيـة التي كانت تدير شئون البلاد بأخرى سودانية تمهيدا للاستقلال. ويؤكد المهتمون بشـئون السـودان أن قرارات لجنة السودنة كانـت متحيـزة لسـودانيي الشمال، وبالتالي فقد كانت تتضمن افتئاتًـا علـى حقوق سودانيين الجنوب، الأمر الذي كان من شأنه أن آثار اسـتياء الجنـوبيين، وعمـق شـعورهم بالاغتراب إزاء الشماليين. وهذه هي الحقيقة التـي يؤكدها أحد الباحثين السودانيين – وهو محمد عمر بشير – بقوله: "لقد قامت لجنة السودنة وفقًا لأفضل التقاليد التي أرسـتها الإدارة الإنجليزيـة للخدمـة المدنية بالتعيين وبالترقيات تبعا للخبر والمؤهلات، ولكن لما كانت الوظائف التي تولاها الجنوبيون - وقتذاك – أقل وأدنى بكثير من تلك التـي تولاهـا الشماليون فإن الجنوبيين لم يستفيدوا استفادة تـذكر من سودنة الوظائف العمومية، ذلك بأنه لـم يعـين

منهم غير أربعة في وظيفة مساعد مفتش، واثنين في وظيفة مأمور، وكانت تلك الوظائف هي أعلى ما عينوا فيه، الأمر الذي كان مخيبا لآمال المتعلمين الجنوبيين، الذين بدءوا ينظرون للسودنة وكأنها عملية استبدال سيد (سودانيو الشمال) بسيد آخر (الإنجليز)، بل وراحوا ينظرون للأمر وكأنه استعمار جديد من الشمال" [(٢٣٤)].

وهكذا شيئًا فشيئًا تعمقت أسباب استيلاء الجنوبيين إزاء الشماليين، لكي تغرس في الواقع السوداني – قبيل الاستقلال عن إنجلترا – بذور حرب أهلية ضروس لا تزال رحاها دائرة حتى يومنا هذا.

ولقد تمثلت الشرارة الأولى التي أشعلت أوار هذه الحرب في التمرد الذي قامت به الفرقة العسكرية الجنوبية الاستوائية في أغسطس عام ١٩٥٥، على إثر سريان إشاعة عن مقتل جندي جنوبي على يد نظير له شمالي [(٢٣٥)]. وسرعان ما شرعت هذه الفرقة في مهاجمة القوات الشمالية؛ حيث أسفر

[(٢٣٤)] ورد في: عبد الملك عودة، مرجع سبق ذكره، ص ١٢.

[(٢٣٥)] سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل... مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٦.

القتال بين الطرفين عن مصرع ٢٦١ من الشـماليين، و٧٥ من الجنوبيين. كما فر رتل من جنـود الفرقـة الاسـتوائية بأسلحتهم إلى الغابات والأحراش، وقاوموا قوات الحكومـة، واعتدوا على الأهالي وأفراد القبائل، وأحالوا المنطقـة إلـى بؤرة نزاع مسلح [٢٣٦]. وتجدر الإشارة إلى أن فلول الفرقـة الاستوائية التي فرت إلى الأحراش إبـان تمـرد أغسـطس ١٩٥٥ قد مثلت النواة التـي تشـكل منهـا جـيش حـرب العصابات الانفصالي المعروف "بالأنيانيا" Anayanya، ذلك الجيش الذي كان بمثابة الجناح العسكري لمنظمـة جنوبيـة انفصالية هي منظمة سانو Sanu أو إن شئنا منظمة الاتحـاد الوطني السوداني الإفريقـي Sudan African National Union. وقد تشكلت منظمة سانو في أوغندا من جانب لفيف من أبناء جنوب السودان كان أفراده قد نزحوا إلـى الدولـة الأوغندية غداة اعتلاء العسكريين سدة الحكم في الخرطـوم على إثر انقلاب عسكري تزعمه إبـراهيم عبـود فـي ١٧

[٢٣٦] انظر في هذا المضمون: عبد الملك عودة، مرجع سبق ذكره، ص ١٢.

ديسمبر عام ١٩٥٨ [٢٣٧]. وعلى الرغم من تعدد المنظمـات والأحزاب السياسية ذات الطابع العرقي التي نشأت بغية تبني قضية الجنوب فإن منظمة سانو كانت أوسعها قاعدة، وأكثرها تنظيما، وأمضاها تأثيرا. وإن كان قد عابها عدم التقاء سائر أعضائها حول هدف واحد بصدد مستقبل جنوب السـودان؛ إذ كان ثمة جناح يطالب بإقامة دولة سودانية فيدرالية تضم الشمال والجنوب، في حين أن جناحا آخر كان يتبنى مطالب انفصال جنوب السودان تماما عن شماله، وإقامة دولة جنوبية مستقلة [٢٣٨].

---

[٢٣٧] انظر في هذا المضمون: السيد السيد حجاج، الحياة السياسية فـي السودان من الاستقلال يناير ١٩٥٦ حتى مايو ١٩٦٩، مجلة كلية التجارة، جامعة الإسكندرية – (المجلد ١٩) العـدد الثـاني لسـنة ١٩٨٢، ص ٦٥.

[٢٣٨] انظر بصدد الإشارة إلى هذين الجناحين: المرجع السابق.

على صعيد آخر فإنه بوصول عبـود إلـى الحكـم فـي الخرطوم عام ١٩٥٨ واستتاب حكمه مع بداية عقد الستينيات راح الزعيم السوداني يشرع في تنفيذ برامج لتعريب التعلـيم في الجنوب، وفتح المعاهد الدينية الإسلامية، كما عمد إلـى زيادة عدد الضباط الشماليين في المناصب الإدارية (وخاصة المحافظين ونوابهم) في المديريات الجنوبية الثلاث. وفضـلاً عن ذلك فإن الحكومة العسكرية الجديدة لم تتردد في اللجوء إلى كافة أساليب البطش والعنف مع دعاة الانفصال، وكذا مع دعاة الفيدرالية في الجنوب [٢٣٩].

ولقد كان من شأن كل ذلك أن تأججت مشاعر الاسـتياء إزاء الشماليين لدى أبناء الجنوب، وراحت قـوات الأنيانيـا تباشر نشاطها العسكري بدءا من شهر سبتمبر عـام ١٩٦٣؛ حيث قامت هذه القوات – وقتذاك – بشن العديد من الهجمات على مراكز الجيش والشـرطة السـودانية قـرب المنـاطق الحدودية مع إثيوبيا، وشيئًا فشيئًا تعددت مثل هذه الهجمات، واتسع مجال نشاط الأنيانيا خلال الشهور التالية، لكي تبلـغ ذروة اتساعها بحلول عام ١٩٦٤ إثر حصول الأنيانيا علـى

---

[٢٣٩] سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٧.

كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة قام بنقلها إلى مقاتليها أحد القساوسة الجنوبيين من خلال أراضي الكونغو؛ حيث كـان هذا القس أحد أعضاء منظمة سانو. وبتلقيهم لتلك الأسـلحة راح مقاتلو الأنيانيا يعمدون إلى توسيع وتكثيف هجماتهم ومد عملياتهم إلى مديرية بحر الغزال [(٢٤٠)]، لكي يتسع بذلك نطاق الحرب الأهلية في السودان، ويستعر أوارها.

وفي ٢٩ أكتوبر ١٩٦٤ اضطر عبـود – تحـت وطـأة الضغوط الشعبية – إلى التخلي عن الحكم لصـالح حكومـة مدنية ترأسها سر الختم خليفة. وقد راح الـزعيم السـوداني الجديد يعلن اعتزامه إتباع سياسة جديدة قوامهـا التفـاوض بصدد مشكلة جنوب السودان؛ حيث دعـا الجنـوبيين إلـى مؤتمر مائدة مستديرة في الخرطوم خلال شهر مارس عـام ١٩٦٥، وسرعان ما لقيت دعوة سر الخـتم هـذه قبـولاً لا يستهان به من جانب المنظمات والأحزاب الجنوبية ومن بينها سانو. وبالتالي فقد انعقد المـؤتمر بالفعـل فـي العاصـمة السودانية خلال شهر مـارس عـام ١٩٦٥، وإن كـان لـم يحضره قادة الأنيانيا. وعلى أية حال فقد فشل المؤتمر فـي

---

(٢٤٠) انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٣٢٨.

التوصل إلى صيغة يقبلها جميع الأطراف بصـدد مسـتقبل الجنوب، كما بات واضحا خلال هذا المؤتمر أن ثمة انقساما بائنًا بين الجنوبيين بصدد موقفهم من المشكلة؛ إذ كان ثمـة تنظيمات جنوبية تطالب بقيام نظام فيدرالي في السودان يضم الشمال والجنوب معا، فيما كانت هناك تنظيمات أخرى تعض بالنواجذ على مطلب استقلال جنوب السودان عـن شـماله، وإقامة دولة جنوبية مستقلة [٢٤١].

وبفشل مؤتمر المائدة المستديرة اشتعل مـن جديـد أوار الحرب بين قوات الأنيانيا والقوات الحكومية، وسرعان مـا تأججت المعارك بين الجانبين مع وصـول حكومـة محمـد محجوب ذي النهج المتشدد إلى الحكم في الخرطوم بحلـول أواخر شهر أبريل عام ١٩٦٥؛ حيث كان محجوب من دعاة استخدام الصرامة مع المتمردين الجنوبيين، كما كـان مـن أنصار تعريب وأسلمة الجنوب [٢٤٢]. لذلك فقد شـهد شـهرا

---

[٢٤١] انظر بصدد مؤتمر المائدة المستديرة: محمد بشير حامد، مرجـع سبق ذكره، ص ٩٢.

[٢٤٢] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل....، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٠.

يونيو ويوليو من ذات العام (١٩٦٥) تصعيدا لعمليات الجيش وقوات الأمن الحكوميين في مواجهة المنظمـات العسـكرية والسياسية الجنوبية. وقد أسفر القتال بين الفريقين وقتذاك عن مصرع وإصابة حوالي ٥٠٠ شـخص فـي مـدينتي "واو" و"جوبا"، كما أدى احتدام المعارك بين الجانبين إلـى فـرار عشرات الآلاف من المدنيين الجنوبيين إلى الدول الإفريقيـة المجاورة، وتحولهم إلى لاجئين [٢٤٣].

على صعيد آخر فقد تزايدت الانشقاقات داخـل صـفوف الجنوبيين، وقد كان أظهر هذه الانشقاقات ذلك الانشقاق الذي طال منظمة سانو في شهر يونيو عام ١٩٦٥؛ إذ انسلخ عنها – وقتذاك – لفيف من قياداتها وراحوا يؤلفون جبهة انفصالية جديدة عرفت بجبهة تحرير أزانيا، والتي تبنت هدفًا رئيسـيا قوامه الانفصال الكامل للجنوب عن الشمال [٢٤٤].

---

[٢٤٣] المرجع السابق، ص ٣٣٠، ٣٣١.

[٢٤٤] انظر في هذا المضمون: طلعت عبد الرازق (محرر) وآخـرون: مرجع سبق ذكره، ص ٩٣.

وفي أغسطس ١٩٦٧ عقد بمدينـة أنجـوردي بجنـوب السودان مؤتمر هام شاركت فيـه عـدة فصـائل جنوبيـة بالإضافة إلى قادة الأنيانيا. وقد تمخض هذا المـؤتمر عـن إعلان تكوين حكومة مؤقتة لجنوب السودان، على أن تكـون بلدة بانجو عاصمة مؤقتة لتلك الحكومة. غير أن زعيم جبهة أزانيا لم يحضر مؤتمر أنجوردي، الأمر الـذي تأكـد معـه الانقسام الحاد بين الجنوبيين أنفسهم، بصـدد مـوقفهم مـن مشكلة جنوب السودان [٢٤٥]، وهو الانقسام الذي ظل يمثـل السمة الرئيسية للحركة العرقية في جنوب السـودان. ففـي مارس ١٩٦٩ اجتمع في باجو باندي بجنوب السودان ممثلون عن عديد من المنظمات الجنوبية؛ حيث راحوا يعلنون إلغـاء حكومة جنوب السودان المؤقتة، ويشكلون حكومـة جنوبيـة جديدة أطلقوا عليها حكومة النيل. وقد كان أهم توجهات هذه الحكومة هو التأكيد على استقلال الجنوب تماما عن الشمال، واستخدام الكفاح المسلح طريقًا لذلك، بالتعاون مع الأنيانيـا، بغية القضاء المبرم على سيطرة العرب على الجنوبيين. غير

---

[٢٤٥] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل...، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٢.

أنه سرعان ما تصاعد الانقسام في صفوف الجنوبيين؛ حيث ظهرت تنظيمات جديدة منافسة لحكومة النيل حـال منظمـة نهر سو، ومنظمة أزانيا السودانية، كما أعلن قائد الأنيانيا عن معارضته لحكومة النيل، وتكوينه لحكومة دولة أنيدي تحـت رئاسته. وفي يوليو من عام ١٩٧٠ تم حل حكومـة النيـل، وبات القائد العام للأنيانيا الجديد – جوزيف لاجـو – أقـوى زعماء الجنوب. وقد راح لاجو يعلـن عـن قيـام منظمـة انفصالية جديدة تحت إمرته، وهي جبهـة تحريـر جنـوب السودان. وذلك في الوقت الذي كان الصراع الدامي يدور فيه على أشده بين الأنيانيا وقوات حكومة الخرطوم [٢٤٦].

على صعيد آخر فإن زعامة سودانية جديـدة كانـت قـد جاءت إلى الحكم على إثر انقلاب عسكري تزعمته فـي ٢٥ مايو ١٩٦٩، وتتمثل هذه الزعامة فـي الـرئيس السـوداني الأسبق جعفر النميري. وقد كان توجه النميري إزاء مشـكلة الجنوب مغايرا إلى حد كبير لمواقف أسلافه، ففي ٩ يونيـو عام ١٩٦٩ راح الزعيم السوداني يعلن: أن سياسة حكومتـه في الجنوب تقوم على أساس العمل على منح الجنوبيين حكما

---

[٢٤٦] راجع في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٣٣٣، ٣٣٥.

ذاتيا إقليميا في إطار السودان الموحد، نظرا لأن ثمة فوارق تاريخية وثقافية بين الشمال والجنوب، وبالتالي فـإن وحـدة البلاد يجب أن تُبنى في ضوء هذه الحقائق الموضوعية[٢٤٧].

وعلى الرغم من التغير الكبير في موقف الخرطوم مـن مشكلة الجنوب، والذي تجسد في مبادرة نميري المتقدمة فإن الصراع الدامي بين الأنيانيا وقوات الجـيش السـوداني قـد استمر، بل وقد شهد عاما ١٩٧٠، ١٩٧١ تصعيدا للعمليـات العسكرية بين الطرفين [٢٤٨]. غير أنه علـى إثـر انتخـاب نميري رئيسا للسودان – في أكتوبر ١٩٧١ – راح الـزعيم السوداني يجري اتصالات سرية مع قادة الجنوب، كما سعي الإمبراطور الأثيوبي هيلاسلاسي إلى التقريب بين مواقـف الفصيلين السودانيين المتنازعين [٢٤٩]، الأمر الذي تمخـض في النهاية عن توقيع اتفاقية أديس أبابا للمصالحة السـودانية

---

[٢٤٧] انظر في هذا المضمون: طلعت عبد الرازق (محرر) وآخـرون، مرجع سبق ذكره، ص ٩٣.

[٢٤٨] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل...، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٥.

[٢٤٩] محمد بشير حامد، مرجع سبق ذكره، ص ٩٣.

في فبراير عام ١٩٧٢، تلك الاتفاقية التي أنهت حربا أهليـة استمرت خلال الفترة (١٩٥٥ – ١٩٧٢)، وكانـت تكلـف السودان حوالي ٥٠ مليون من الجنيهات الإسترلينية سـنويا، فضلاً عن أنها حصدت آلاف الأرواح، ودمـرت عشـرات القوى والمرافق، وشردت مئات الآلاف من المدنيين، وعمقت الحقد والكراهية في نفوس أبناء البلد الواحد، وعطلت مسيرة السودان نحو تحقيق وحدته الوطنية، وأعاقت تدعيم استقلاله، ووقفت حائلاً بينه وبين التغلب على مشـكلاته الاقتصـادية والاجتماعية [(٢٥٠)].

على أية حال فإنه فـي ٢٧ فبرايـر ١٩٧٢ تـم – فـي العاصمة الإثيوبية – التوقيع على اتفاقية أديس أبابا من جانب ممثلين عن الحكومة السودانية ونظراء لهم عن حركة تحرير جنوب السودان، وبحضور ممثل عن إمبراطـور إثيوبيـا، وآخرين عن كل من مجلس الكنائس العالمي، ومجلس كنائس إفريقيا، ومجلس الكنائس السوداني. وبمقتضى هذه الاتفاقيـة منحت المديريات السودانية الجنوبية الثلاث حكما ذاتيا فـي

[(٢٥٠)] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل...، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٥.

إطار دولة السودان؛ حيث تم التوقيع على ما يعرف "بالقانون الأساسي لتنظيم الحكم الذاتي الإقليمي في المديريات الجنوبية لجمهورية السودان الديمقراطية". ويتمثل أهم ما تضمنه هـذا القانون فيما يلي [٢٥١]:

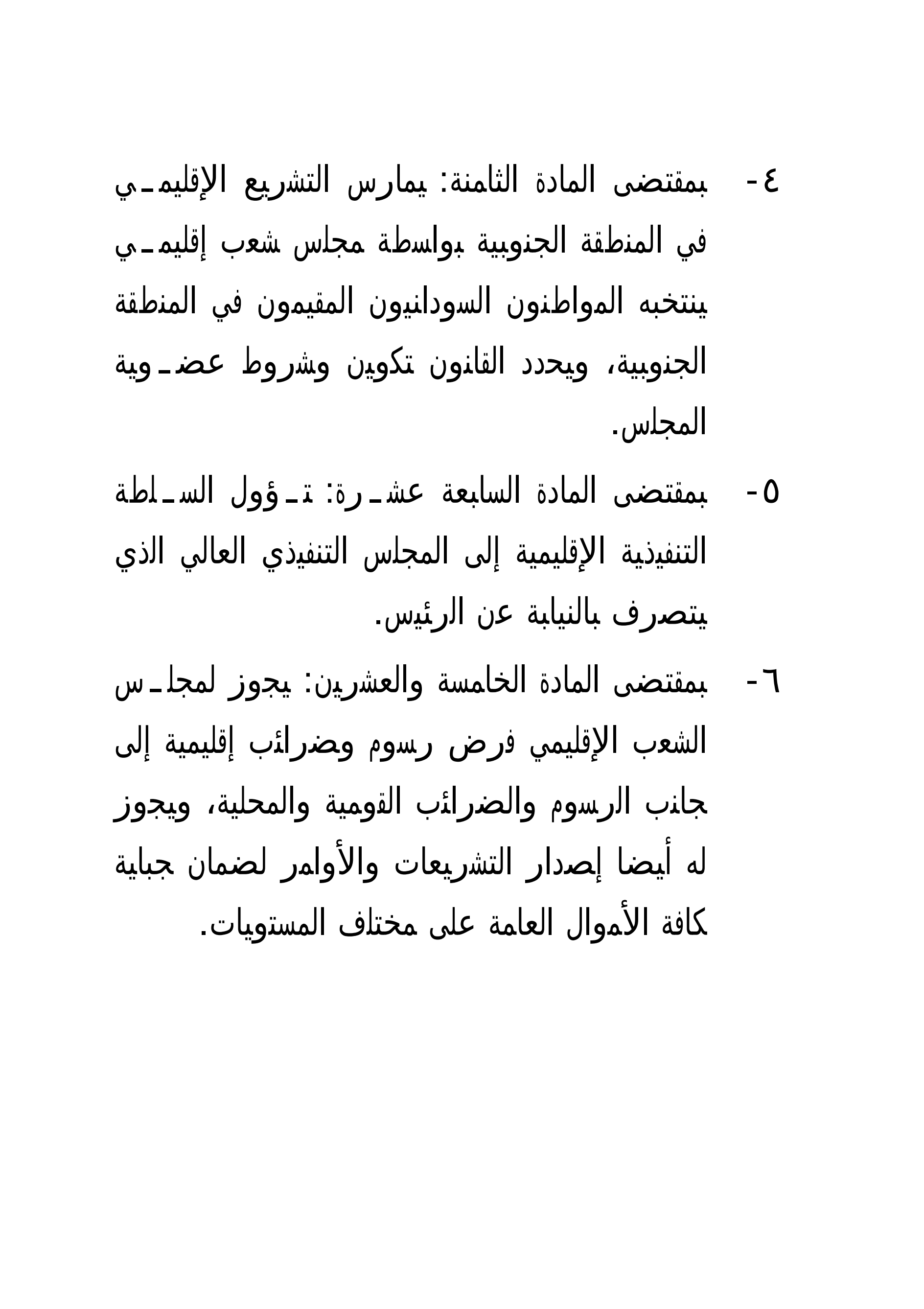
١- بمقتضى المادة الرابعة: تشكل مديريات بحر الغزال والاستوائية وأعالي النيل منطقة حكم ذاتي داخـل إطار جمهورية السودان الديمقراطية، وتعرف باسم المنطقة الجنوبية.

٢- بمقتضى المادة الخامسة: تضم المنطقـة الجنوبيـة أفرعا تنفيذية وتشريعية، ويحدد هذا القانون وظائفها وسلطاتها.

٣- بمقتضى المادة السادسة: العربية هي اللغـة الرسـمية للسودان، والإنجليزية هي اللغـة الرئيسـية للمنطقـة الجنوبية، دون المساس باستخدام أية لغة أو لغات أخرى قد تخدم الضرورة العملية لتأدية الوظـائف الإداريـة، والتنفيذية في المنطقة على نحو كفء وسريع.

---

[٢٥١] اعتمدنا بصدد هذا القانون على: وثيقة منشورة بمجلـة السياسـة الدولية، العدد ٩١، يناير ١٩٨٨، بعنوان: اتفاقيـة أديـس أبابـا، ترجمة مجدي علي عطية، من ص ١٤٦ إلى ص ١٥٠.



٤- بمقتضى المادة الثامنة: يمارس التشريع الإقليمـي في المنطقة الجنوبية بواسطة مجلس شعب إقليمـي ينتخبه المواطنون السودانيون المقيمون في المنطقة الجنوبية، ويحدد القانون تكوين وشروط عضـوية المجلس.

٥- بمقتضى المادة السابعة عشـرة: تـؤول السـلطة التنفيذية الإقليمية إلى المجلس التنفيذي العالي الذي يتصرف بالنيابة عن الرئيس.

٦- بمقتضى المادة الخامسة والعشرين: يجوز لمجلـس الشعب الإقليمي فرض رسوم وضرائب إقليمية إلى جانب الرسوم والضرائب القومية والمحلية، ويجوز له أيضا إصدار التشريعات والأوامر لضمان جباية كافة الأموال العامة على مختلف المستويات.

والحق أنه يتضح في ثنايا النصوص السـابقة أن اتفاقيـة أديس أبابا لعام ١٩٧٢ قد منحت الجنوبيين دورا عظيم الشأن في إدارة شئونهم الخاصة، ويمكن القول إن الاختصاصـات والصلاحيات التي حصل عليها الجنوبيون بمقتضى الاتفاقية كانت تجاوز نظيراتها الممنوحة للحكومات المحلية (حكومات الولايات) في ظل الدول الفيدرالية. وفضلاً عمـا تضـمنته اتفاقية أديس أبابا من صلاحيات واسعة لصالح الجنـوبيين – على النحو المتقدم – فقد سمح لهم بأن تكون لهـم حيـاتهم السياسية ذات الطابع الليبرالي، على الرغم من أن التنظـيم السياسي في الشمال كان يقوم على أسـاس نظـام الحـزب الواحد. وهكذا فعلى حين سمح للجنـوبيين بالأخـذ بنظـام التعددية الحزبية، كان الشماليون يئنون تحـت نيـر نظـام الحزب الواحد (الاتحاد الاشتراكي) الذي فرضه النميـري، وعلى ذلك فقد كان الجنوب – في ظل اتفاقية أديس أبابـا – يكاد يمثل دولة داخل دولة.

ولعله يكون قد اتضح من خلال ما تقدم لماذا وافقت جبهة تحرير السودان على التخلي عن مسعاها الانفصالي، وإلقـاء أسلحتها، والانضواء تحت لواء اتفاقية أديس أبابا.

على أية حال فإنه يمكن القول إن اتفاقية أديس أبابـا قـد نجحت في إخماد نيران الحرب الأهلية في السودان، وإعـادة الاستقرار إلى ربوعه. وقد استمر هذا الاستقرار لمدة عشـر سنوات، ولم تخل من تعبير الجنوبيين عن سخطهم غير مرة إزاء كل ما يعتبرونه انتهاكًا من جانب النميري لاتفاقية أديس أبابا. غير أن هذا السخط قد تزايد مع بداية عقد الثمانينـات وبلغ أوجه مع بداية عام ١٩٨٣، على نحو هيأ لانهيار اتفاقية أديس أبابا، وظهور حركة عرقية جنوبية جديدة راحت تُعلن تمردها على حكومة الخرطوم، لكي يشتعل من جديـد أوار الحرب الأهلية في السودان. ويمكن القول إن أهـم أسـباب انهيار اتفاقية أديس أبابا – من وجهة نظر الجنوبيين – قـد تمثلت في [٢٥٢]:

١- تدخل الحكومة المركزية في عمليات تعيين قيادات الإقليم الجنوبي.

---

[٢٥٢] انظر بصدد هذه الأسباب على سبيل المثال: طلعت عبد الـرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥.

٢- قيام الحكومة المركزية بشكل غير دستوري بحل حكومات ومجالس شعب الإقليم الجنوبي في أعوام ١٩٨٠، ١٩٨١، ١٩٨٣.

٣- اتجاه حكومة الخرطوم إلى التكامل مع مصر، وعقد اتفاقية دفاع مشترك بين الجانبين. وقد عبر أحد السياسيين الجنوبيين (المسلمين) وهو – مانجو الجاك – عن موقف الجنوبيين الرافض للتكامل مع مصر بقوله: "أما عن موقف الجنوبيين من العرب والوحدة العربية وموقفهم من مصر خصوصا فقد مر بمراحل عديدة، فإلى وقت قريب جدا كانت هناك عداوة شديدة لكل ما هو عربي... ومن هنا كان رفض الجنوبيين لمشاريع الوحدة أو الاتحاد بين السودان ومصر وليبيا على أساس أن ذلك سيجعل منهم أقلية داخل أقلية، ولما علق في أذهان الجنوبيين عن دور العرب في تجارة الرقيق.. إننا نخاف من سيطرة وهيمنة الشمال علينا... فما بالك بمن هم أكثر تقدما وأكبر عددا من الشماليين... وبرغم أن صورة العرب قد

تحسنت كثيرا في الجنوب منذ اتفاقية أديـس أبابـا وخاصة بسبب ما لمسه الجنوبيون من مسـاعدات مصر والكويت لهم.. إلا أن مخـاوفهم مـا تـزال قوية.. لذلك فحين عرض مشروع التكامـل بـين مصر والسودان للنقاش في مجلس الشعب السوداني عام ١٩٧٦ انسحب النواب الجنوبيون من الجلسة.. إذ كانوا متخوفين من الابتلاع والهيمنـة بواسـطة مصر" [٢٥٣].

٤- القرار الذي اتخذه نميري في ٦ يونيو عـام ١٩٨٣ بإقامة ثلاث حكومات إقليمية في الجنـوب (هـي حكومـات بحـر الغـزال، الاسـتوائية، أعـالي النيل)[٢٥٤]؛ إذ اعتبر بعض الجنوبيين ذلك بمثابـة محاولة من جانب حكومـة الخرطـوم لإضـعاف الجنوب عن طريق سياسة "فرق تسد" [٢٥٥].

---

[٢٥٣] سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٥.

[٢٥٤] محمد بشير حامد، مرجع سبق ذكره، ص ٩٦.

[٢٥٥] انظر في هذا المضمون: طلعت عبد الرازق (محرر) وآخـرون، مرجع سبق ذكره، ص ٩٦.

تلكم كانت بعض الأسباب التي أججت مشاعر الاستياء لدى الجنوبيين، ذلك الاستيلاء الذي بلغ أوجه – كما أسلفنا القول – مع بداية عام ١٩٨٣، أما الشرارة التي فجرت بركان الاستياء لدى الجنوبيين وعجلت باندلاع الحرب الأهلية من جديد فقد تمثلت في سعي حكومة الخرطوم – في مايو ١٩٨٣ – إلى إعمال قرار كانت قد اتخذته سلفًا بنقل فرق القوات الجنوبية إلى الشمال؛ إذ راحت القوات الجنوبية تعلن تمردها ورفضها لتنفيذ القرار، الأمر الذي أدى إلى وقوع اشتباكات بين هذه القوات وقوات تابعة للقيادة العسكرية الشمالية، فر على إثرها الجنود والضباط الجنوبيون إلى مناطق الغابات، والمناطق الحدودية مع إثيوبيا، ثم انضم إليها أحد الضباط الجنوبيين كان قبل عام ١٩٧٢ يعد أحد مقاتلي الأنيانيا ألا وهو العقيد جون جارانج [٢٥٦]. وسرعان ما تزايدت عمليات هروب الجنود الجنوبيين إلى الغابات بالأسلحة والعتاد، وراحوا يطلقون على أنفسهم "أنيانيا ٢. كما ظهرت واجهة سياسية للمتمردين؛ حيث تزعمهم جون

---

[٢٥٦] انظر في هذا المضمون: عبد الملك عودة، مرجع سبق ذكره، ص ١٧.

جارانج، وراح يؤسس حركة جنوبية جديـدة أطلـق عليهـا الجيش الشعبي لتحرير السودان، والتي تعرف أيضا بحركـة تحرير شعب السودان، والتي حـرص جـارانج مـن وراء تسميته إياها بهذا الاسم إلى إظهار أنها ليس حركة انفصالية، كما راح يعلن أن هدف حركته هـو الـتخلص مـن حكـم النميري. على أية حال فقد ازداد اشتعال الصراع بين حركة جارانج والقوات الحكومية غداة إصدار النميـري لقـرارات تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان، وهي القرارات التـي صدرت في سبتمبر عام ١٩٨٣ [٢٥٧].

وعلى إثر ذلك شنت حركة جارانج هجمات عديدة علـى المراكز الحكومية، وكذا على مواقع العمل في قناة جونجلي، وحقول البترول خلال عامي ١٩٨٣، ١٩٨٤. وقـد أفـادت التقارير في عام ١٩٨٤ بأن قوات جارانج قد نجحت في قطع الملاحة النهرية بين الشمال والجنـوب بـإغراق بـاخرتين نهريتين قرب ملكال، بحيث أصبحت الاتصالات بين شطري السودان مقتصرة على رحلات الطيران السـوداني، والتـي

---

(٢٥٧) راجع في هذا المضمون على سبيل المثال: طلعت عبد الـرازق (مقرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥.

تقاص عددها إلى حد كبير خلال عام ١٩٨٤، بل وتوقفـت تماما الرحلات إلى مدينة واو عاصمة إقليم بحر الغزال. كما أفادت التقارير بأن حوالي ٣٠٠٠ طالب من طلاب المدارس الثانوية في الجنوب قد انضموا إلى الأنيانيـا خـلال عـام ١٩٨٣، وأن قوات جارانج قد نجحت في الاسـتيلاء علـى كميات ضخمة من الأسلحة والذخيرة من مخـازن الجـيش السوداني في بور، وبيبور، وأويل، وأيود، كما حصلت على كميات أخرى من أوغندا. وفضلاً عما تقدم فقد أنشأت حركة جارانج محطة إذاعة خاصة بها، تبث برامجها مـن منطقـة الحدود الإثيوبية [٢٥٨].

وفي أبريل ١٩٨٥ تمت الإطاحة بالرئيس السوداني جعفر النميري من خلال انتفاضة شعبية استولى على إثرها الجـيش بزعامة الفريق عبد الرحمن سوار الذهب على الحكم؛ حيـث أعلن بقاءه في السلطة لمدة عام كفترة انتقاليـة يـتم خلالهـا انتخاب برلمان سوداني جديد، ونقل السلطة إلى حكومة مدنية. وقد أعلنت حكومة سوار الذهب عن دعوتها إلى إيجـاد حـل

---

[٢٥٨] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل....، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٩.

سلمي لمشكلة الجنوب، ولقيت هذه الدعوة بالفعل قبـولاً مـن جانب جارانج، وأسفرت هذه النوايا الطيبة عن عقد اجتمـاعي في كوكادام بإثيوبيا في مارس عام ١٩٨٦. وقد حضـر هـذا الاجتماع ممثلون عن حركة جارانج، ونظراء لهم عن تحالف النقابات المهنية والاتحادات العماليات والأحزاب السياسية فـي السودان. وتمخض هذا الاجتماع عن إصدار ما يعرف بوثيقة كوكادام. ولعل أبرز ما جاء في هذه الوثيقة ما يلي [٢٥٩]:

١- التعهد بالبحث عن السلام مـن خـلال التشـاور والسعي إلى عقد مؤتمر دستوري قـومي ينـاقش مختلف جوانب القضية.

٢- ارتباط انعقاد المؤتمر الدستوري بإلغـاء قـوانين الشريعة الإسلامية الصادرة في سبتمبر ١٩٨٣.

٣- العودة إلى دستور ١٩٥٦ ذي الطابع العلماني.

٤- ضرورة إلغاء الاتفاقيات التي تمس السيادة الوطنية (إشارة إلى اتفاقيات التكامل مع مصر).

٥- تعهد حركة جارانج بوقف إطلاق النار فور انعقـاد المؤتمر الدستوري وإلغاء قوانين سبتمبر.

---

[٢٥٩] انظر في هذا الصدد: المرجع السابق، ص ٣٥٢.

وعلى إثر مؤتمر كوكادام أجريت انتخابات برلمانية فـي السودان أصبح الصادق المهدي بمقتضاها رئيسا للـوزراء. وما أن وصل المهدي إلى الحكم حتى استجد حـدث أطـاح بمقررات كوكادام؛ إذ قامت قوات جارانج بإسـقاط طـائرة سودانية مدنية فوق ملكال بالجنوب بعد الاشتباه في أنها تنقل معدات عسكرية. وقد ترتب على ذلك إعلان المهدي وقـف أي اتصالات أخرى مع حركة جارانج، معتبرا إياها منظمـة إرهابية [٢٦٠]، وليستمر بذلك الصراع الأهلي الـدامي فـي السودان، والذي لم تفلح كافة الجهود – التـي بـذلت لحلـه بالطرق السلمية – في إخماد نيرانه لسنوات عديدة تالية.

وفي ٣٠ يونيو عام ١٩٨٩ وصل إلى الحكم في السودان – على إثر انقلاب عسكري – الـرئيس السـوداني الحـالي الفريق عمر البشير. وعلى الرغم من أن البشير قد أعلن عن أمله في حل مشكلة الجنوب بالطرق السلمية إلا أنه أكد عدم تخليه عن قوانين الشريعة الإسلامية، فضلاً عن رفضه لأية محاولة انفصالية في الجنوب. وفي ذات الوقت أكد جـارانج رفضه التام لاستمرار الجنوب في كنف دولة دينيـة، وراح

---

[٢٦٠] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق.

يعلن أنه لن يتخلى عن موقفه إلا إذا أصبح السـودان دولـة علمانية ديمقراطية [٢٦١]. وهكذا فقد راحت قوات الحكومـة السودانية تشن حربا شعواء لا هوادة فيها ضد حركة جارانج الذي كان لا يزال حتى بداية عقد التسعينيات يعلن أن حركته ليست انفصالية، وإنما تستهدف فحسب إقامة دولـة علمانيـة ديمقراطية في السودان. غير أنه في أغسطس ١٩٩١، أعلنت مجموعة من قيادات حركة جـارانج – بشـقيها العسـكري والسياسي – انسلاخها عن الحركة. وكان علـى رأس هـذه المجموعات كل من رياك مشار (من قبيلـة النـوير)، ولام أكول (من قبيلة الشلوك)، وبالتالي فهما يختلفان سلاليا عـن جارانج ومعظم أعضاء حركته الذين ينتمـون إلـى قبيلـة الدينكا[٢٦٢]. وقد عرفت المجموعة التي استقلت عن حركـة جارانج بحركة الناصر، نظرا لأن قادتها عقـدوا مـؤتمرهم الأول في مدينة الناصر؛ حيث راحوا من خلاله يعلنـون أن

---

[٢٦١] انظر في هذا المضمون: عبد الملك عودة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠، ٢١.

[٢٦٢] انظر في هذا المضمون: طلعت عبد الرازق (محرر) وآخـرون، مرجع سبق ذكره، ص ٩٨.

هدف حركتهم إنما يتمثل في انفصال جنوب السودان تمامـا عن الشمال، وإقامة دولة جنوبية مستقلة [٢٦٣].

وهكذا فقد أصبح ثمة حركتان عرقيتـان رئيسـيتان فـي جنوب السودان، وعلى حين راحت إحداهما (حركة جارانج) تعلن تبنيها لهدف قوامه السعي إلى إيجـاد دولـة سـودانية علمانية ديمقراطية موحدة، ذهبت الأخـرى إلـى المطالبـة بالاستقلال التام للجنوب. وسرعان ما انـدلع القتـال بـين الحركتين، وراح جارانج يعلن: "أنا لا أفرق بـين ميلشـيات الناصر والجيش السوداني أو كتائب الإسـلاميين المسـاندة له"[٢٦٤]. غير أن جارانج – أمام تزايد الانقسامات في حركته – راح يعلن في توريت في ١٢ سبتمبر ١٩٩١ عن تعـديل أهداف حركته لكي يجعل الانفصال التام بجنوب السودان أحد بدائل ثلاثة تتبناها الحركة؛ إذ راح يقول إنه إذا لـم توافـق حكومة الخرطوم على مطلب السـودان الموحـد العلمـاني الديمقراطي الفيدرالي فإن الحركة تطرح بديلين آخرين هما:

---

[٢٦٣] انظر في هذا المضمون: عبد الملك عودة، مرجع سبق ذكره، ص ٢١، ٢٢.

[٢٦٤] سعد الدين إبراهيم (مشرف)، هموم الأقليات، التقريـر السـنوي الأول (١٩٩٣)، مرجع سبق ذكره، ص ٨٤.

"الكونفدرالية" بين دولتين مستقلتين ذواتي سـيادة، أو مـنح شعب الجنوب حق تقريـر مصـيره مـن خـلال اسـتفتاء يجريه[٢٦٥]. وهكذا فقد راح جـارانج – مـع بدايـة عقـد التسعينيات – يعلن تبنيه لهدف انفصال جنوب السودان، ذلك الهدف الذي كان – من قبل – يحرص دوما على تأكيد عدم ارتباط حركته به. وبتبني جارانج لهدف الانفصال أضـحت الحركتان العرقيتان الجنوبيتان الرئيسيتان انفصاليتين. وعلى الرغم من ذلك فقد استمر الصـراع المسـلح الـدامي بـين الحركتين لعدة سنوات، ذلك الصراع الذي راح يعكس عـدم التجانس العرقي الذي ينطوي عليه الكيان البشـري لجنـوب السودان؛ إذ بدا الأمر وكأنه صراع بين قبيلة الدينكا (وتمثلها حركة جارانج) من ناحية، وقبيلتي النوير والشلوك (وتمثلهما حركة الناصر "مشار – أكول") من ناحية أخرى. وقد شـهد عام ١٩٩٣ تصعيدا هائلاً في المعارك الدائرة بين الحركتين الجنوبيتين؛ حيث بلغت المعارك أوج اشتعالها في ثلاث مدن ريفية جنوبية هي واط، وأيور، وكونفور. ونظـرا لتعـاظم أعداد القتلى في منطقة المدن الثلاث، فقد باتت تعرف بمثلث

---

[٢٦٥] انظر في هذا المضمون: عبد الملك عودة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢.

الموت؛ حيث قتل وشرد من سكان هذه المنطقة – من جراء الصراع المسلح بين حركتي جارانج والناصر خلال عام ١٩٩٣ – عشرات الآلاف، وعلى سبيل المثال ففي معارك اندلعت بين القوات الحركتين في ١٤ فبراير ١٩٩٣ قامت قوات جارانج التي تنتمي إلى قبائل الدينكا بقتل أكثر من عشرة آلاف من أبناء قبيلتي الشلوك والنوير اللتين ينتمي إليهما مشار وأكول، وعمدت إلى حرق أكواخهم. وفي ١٠ يناير ١٩٩٣ راحت قوات جارانج تهاجم قوات مشار في كونفور؛ حيث أسفر القتال بين الجانبين عن مصرع الآلاف، وتشريد ما كان قد تبقى من سكان المدينة. وفي ١٢ أكتوبر من ذات العام شهد مثلث الموت قتالاً ضاريا بين الفصيلين الجنوبيين، أسفر عن مقتل ما يربو على نصف سكان مدن المثلث [٢٦٦]. وقد استمرت المعارك مشتعلة بين الجانبين حتى نهاية عام ١٩٩٣ برغم الجهود المضنية التي بذلتها الولايات المتحدة (ممثلة في سفيرها بالخرطوم) بغية تحقيق المصالحة بين جارانج ومشار. غير أنه مع نهاية عام ١٩٩٤

---

[٢٦٦] راجع في هذا الصدد بالتفصيل: سعد الدين إبراهيم (مشرف) هموم الأقليات (١٩٩٣)، مرجع سبق ذكره، ص ٨٠.

بات واضحا أن الجهود الأمريكية قد آتـت أكلهـا أخيـرا؛ إذ شيئًا فشيئًا بدأ التقارب بين جارانج ومشار. وفي ٨ يناير ١٩٩٤ اتفق الجانبان على التقـدم بمشـروع مشـترك فـي مفاوضات السلام مع الحكومة السوداوية يتضمن حق تقرير المصير لجنوب السودان، وإجراء استفتاء في هـذا الشـأن. وعلى الرغم من ذلك فإن مشار لم ينضو تحت لواء جارانج، وإن كانت الحرب بين قوات الطرفين قد توقفت، فـي حـين استمرت بطبيعة الحال الحرب بين القوات الحكومية، وقوات سائر الفصائل الجنوبية. وقد ذكر تقرير عسكري حكومي أن ما يربو على خمسين ألف مسلح قتلوا في ظل الحرب الأهلية خلال السنوات (١٩٨٩ – ١٩٩٤)، ويعادل هذا العدد خمسة أضعاف عدد الجنود الذين قتلوا في ظل الصـراع الأهلـي خلال الفترة (١٩٧٥ – ١٩٨٨) [٢٦٧].

[٢٦٧] راجع في هذا الصدد: سعد الدين إبراهيم (مشرف)، الملل والنحل والأعراق، التقرير السنوي الثـاني، ١٩٩٥. دار الأمـين للنشـر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥، من ص ٢٤٧ إلى ص ٢٦٠.

وعلى الرغم من وقوع أحداث عنف متقطعة بين قـوات جارانج وقوات مشار خلال عام ١٩٩٤ فإن تقاربا يعتد بـه بين الزعيمين الجنوبيين قد بدا واضحا مع بداية عام ١٩٩٥. وفي ٢٧ أبريل من ذات العام وقع الطرفـان اتفاقًـا عـرف باتفاق لافون، راحا من خلاله يعلنان الوقف الدائم لإطـلاق النار بين الحركتين، وحرية تحرك قواتهمـا، وكـذا سـكان الجنوب قاطبة في المناطق التي يسيطران عليهـا، والسـعي المشترك نحو حصول شعب جنوب السودان على حق تقرير المصير، فضلاً عن دعوة كافة المجموعات الجنوبية المسلحة الأخرى لوقف إطلاق النار فيما بينها [٢٦٨].

على صعيد آخر فقد عقدت سـائر فصـائل المعارضـة السودانية (من شمالية وجنوبيـة) مـؤتمرا فـي العاصـمة الإرتيرية أسمرة خلال الفترة من ١٥ إلى ٢٣ يونيو ١٩٩٥. حيث أطلق على هذا المؤتمر (مؤتمر القضايا المصـيرية). ولعل أهم ما اتفق عليه المؤتمرون بصـدد مشـكلة جنـوب

---

[٢٦٨] انظر في هذا المضمون: محمد أبو الفضل، المصالحة والحـرب في جنوب السودان، مجلة السياسة الدولية، العـدد (١٢٣)، ينـاير ١٩٩٦، ص ٢٤٤، ٢٤٥.

السودان هو إقرارهم بأنه لا سبيل إلى إنهاء الحرب الأهلية في السودان إلا من خلال منح الجنوبيين حق تقرير المصير[٢٦٩].

وقد عاودت هذه القوى ذاتها الاجتماع في العاصمة الإريترية خلال شهر مارس عام ١٩٩٧؛ حيث تم توقيع ما يعرف باتفاق أسمرة الذي اتفقت بمقتضاه غالبية القوى المناوئة لحكم البشير (من شمالية وجنوبية) على العمل المشترك من أجل إسقاط الحكومة السودانية القائمة ذات النهج الإسلامي. ولقد كان من شأن استضافة إريتريا لاجتماعات القوى السودانية المتمردة أن تفاقمت الخلافات وتنامي ميراث العداء بين النظامين الحاكمين في الخرطوم وأسمرة.

---

[٢٦٩] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٢٤٦.

على صعيد آخر فقد نجحت الحكومة السودانية في استقطاب زعماء العديد من الحركات الجنوبية الانفصالية التي كانت قد شقت عصا الطاعة على جون جارانج؛ إذ في أعقاب اجتماع أسمرة المشار إليه وفي شهر أبريل من عام ١٩٩٧ أبرمت حكومة الخرطوم اتفاق سلام مع قادة ثلاثة من تلك الحركات؛ حيث وقع الاتفاق في شهر أبريل كل من: رياك مشار زعيم حركة استقلال جنوب السودان، وكاربينو كوانين قائد ما يعرف بالحركة الشعبية لتحرير السودان، وهارون كافي زعيم مجموعة جبال النوبة [٢٧٠]. وفي يوليو التالي أعلنت الحكومة السودانية قبولها إعلان المبادئ الصادر عن منظمة الإيجاد، والذي يقضي بإعطاء الجنوبيين حق تقرير المصير على إثر فترة انتقالية مدتها أربع سنوات، تكون بمثابة هدنة بين القوات الحكومية وقوات الحركات الجنوبية الثلاث المذكورة، وكذا حركة لام أكول الذي وقع اتفاق السلام في وقت لاحق من شهر سبتمبر عام ١٩٩٧.

---

[٢٧٠] راجع في هذا المضمون على سبيل المثال: أيمن عبد الوهاب، الأزمة السودانية: المحددات والقيود، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٣٢ – أبريل ١٩٩٨. ص ١٩٨: ٢٠٠.

وقد اعتبر جون جارانج أن موافقة حكومة البشير علـى إعلان المبادئ المذكورة هي مجـرد شـرك نصـبته هـذه الحكومة بغية الإيقاع بالجنوبيين، وشق صفوفهم، وإجهـاض وحدتهم إعمالاً لسياسة فرق تسد. وعلى ذلك فلا تزال قوات ما يعرف بالجيش الشعبي لتحرير السودان (حركة جـارانج) تمتشق السيف في مواجهة قوات الحكومة السودانية. وهكـذا فلا تزال رحى الحرب الأهلية دائرة فـي السـودان، تفتـك بعشرات الآلاف من أبنائه، وتقف حجر عثـرة فـي سـبيل استقراره، وتشكل عقبة كئود أمام جهود إنمائه. وهـا هـو الانقسام يطل برأسه مشكلاً خطرا داهما يكاد يعصف بكيـان الدولة السودانية، الأمر الذي يؤكد صحة الحقيقة التي سـبق أن سقناها والتي قوامها: أنه لا سبيل إلى اسـتقرار سياسـي دائم، ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع تكون من خـلال التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.

تعقيـــب:

اتضح من خلال عرضنا للحركة العرقيـة فـي جنـوب السودان أن هذه الحركة هي حركة يغلـب عليهـا الطـابع الانفصالي؛ إذ يسعى الجنوبيون إلى الانفصال بمنطقتهم عـن شمال السودان، وإقامة دولة جنوبية مستقلة. من جانب آخـر فإنه يستفاد من عرضنا المتقدم أن الحركة العرقية في جنوب السودان إنما يغلب على وسائلها طابع العنف؛ إذ تجمع بـين أسلوبي حرب العصابات والحرب شبه النظامية فـي سـبيل بلوغ هدفها، الأمر الذي باتت الحرب الأهلية في ظله تُمثـل إحدى الظواهر البارزة والدائمة في الواقع السوداني؛ إذ ظلت هذه الحرب زهاء خمس وثلاثين عاما تخللت الفترة (١٩٥٥ – ٢٠٠٠ م) وهي الفترة الممتدة من قبيل استقلال السـودان وحتى عام ٢٠٠٠ م.

يبقى أن نشير إلى أن الحركة العرقية في جنوب السودان كانت – ولا تزال – لها آثار دولية؛ إذ كان من شـأنها فـي الماضي أن توترت العلاقات بين السودان وإثيوبيـا، خـلال فترة حكم الإمبراطور الإثيوبي هيلاسلاسي، وكذا فترة حكم الرئيس مانجستو هيلاماريام؛ إذ كان كـل مـن الـزعيمين

الإثيوبيين يقدم – خـلال فتـرة حكمـه – دعمـا للحركـة الانفصالية في جنوب السودان، الأمر الذي حـدا بالحكومـة السودانية إلى تقديم الدعم لحركة تحرير إريتريا، من خـلال فتح مكاتب لها في الخرطوم، فضلاً عن إعـداد معسـكرات تدريب لمقاتليها على الأراضي السـودانية [٢٧١]. غيـر أن العلاقات بين السودان وإثيوبيا قد تحسنت إلـى حـد كبيـر بسقوط حكومة منجستو في إثيوبيـا فـي ٢٧ مـايو ١٩٩١ واعتلاء ميليز زيناوي سدة الحكم في أديس أبابا؛ حيث راح زيناوي يعلن في أول يونيو ١٩٩١: "أنه لن يسـمح بوجـود معسكرات على الأراضي الإثيوبية تهدد أمن السـودان، وأن متمردي الجيش الشعبي لتحرير السودان قد أغلقوا مكـاتبهم في العاصمة الإثيوبية، وأن زعيمهم جارانج قد غادرها"[٢٧٢].

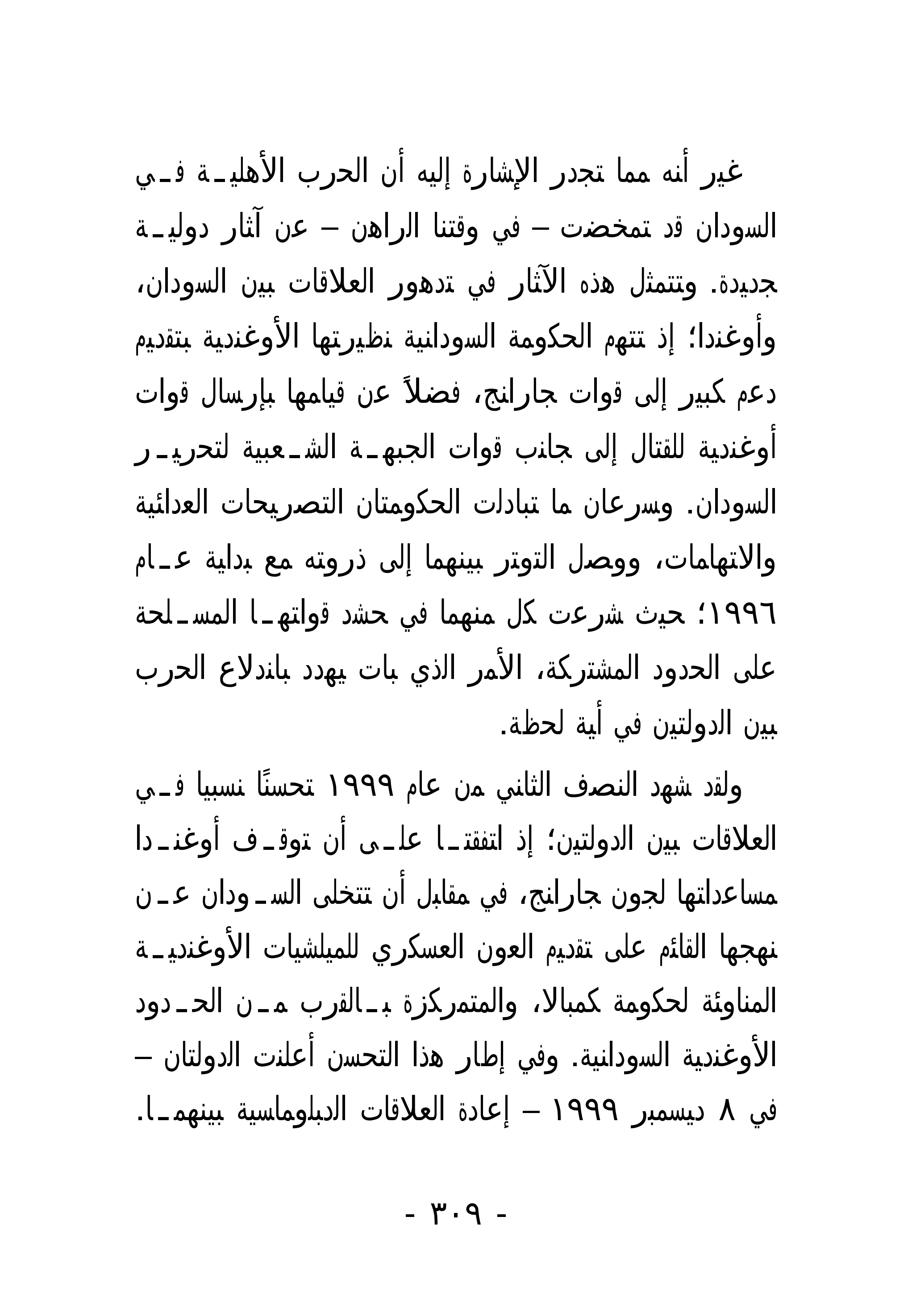
---

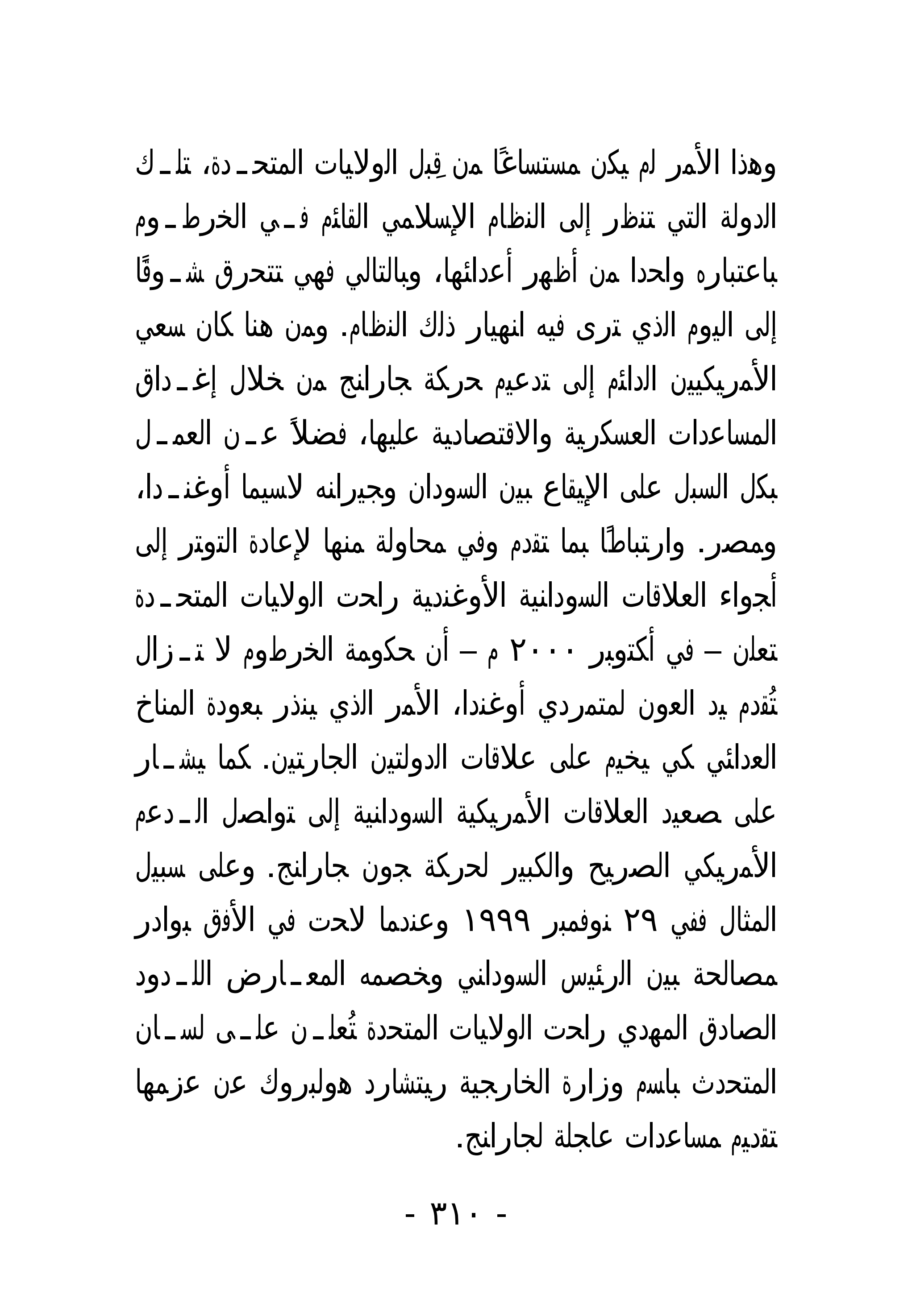
[٢٧١] انظر في هذا المضمون: عبد العزيز المهنـا، السـودان وسـط اللهب، الكتاب العالمي، قبرص، ١٩٩٤، ص ٨٦، ٨٧.

[٢٧٢] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل...، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥٨.

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن الحرب الأهليـة فـي السودان قد تمخضت – في وقتنا الراهن – عن آثار دوليـة جديدة. وتتمثل هذه الآثار في تدهور العلاقات بين السودان، وأوغندا؛ إذ تتهم الحكومة السودانية نظيرتها الأوغندية بتقديم دعم كبير إلى قوات جارانج، فضلاً عن قيامها بإرسال قوات أوغندية للقتال إلى جانب قوات الجبهـة الشـعبية لتحريـر السودان. وسرعان ما تبادلت الحكومتان التصريحات العدائية والاتهامات، ووصل التوتر بينهما إلى ذروته مع بداية عـام ١٩٩٦؛ حيث شرعت كل منهما في حشد قواتهـا المسـلحة على الحدود المشتركة، الأمر الذي بات يهدد باندلاع الحرب بين الدولتين في أية لحظة.

ولقد شهد النصف الثاني من عام ١٩٩٩ تحسنًا نسبيا فـي العلاقات بين الدولتين؛ إذ اتفقتـا علـى أن توقـف أوغنـدا مساعداتها لجون جارانج، في مقابل أن تتخلى السـودان عـن نهجها القائم على تقديم العون العسكري للميلشيات الأوغنديـة المناوئة لحكومة كمبالا، والمتمركزة بـالقرب مـن الحـدود الأوغندية السودانية. وفي إطار هذا التحسن أعلنت الدولتان – في ٨ ديسمبر ١٩٩٩ – إعادة العلاقات الدبلوماسية بينهمـا.





وهذا الأمر لم يكن مستساغًا من قِبل الولايات المتحـدة، تلـك الدولة التي تنظر إلى النظام الإسلامي القائم فـي الخرطـوم باعتباره واحدا من أظهر أعدائها، وبالتالي فهي تتحرق شـوقًا إلى اليوم الذي ترى فيه انهيار ذلك النظام. ومن هنا كان سعي الأمريكيين الدائم إلى تدعيم حركة جارانج من خلال إغـداق المساعدات العسكرية والاقتصادية عليها، فضلاً عـن العمـل بكل السبل على الإيقاع بين السودان وجيرانه لاسيما أوغنـدا، ومصر. وارتباطًا بما تقدم وفي محاولة منها لإعادة التوتر إلى أجواء العلاقات السودانية الأوغندية راحت الولايات المتحـدة تعلن – في أكتوبر ٢٠٠٠ م – أن حكومة الخرطوم لا تـزال تُقدم يد العون لمتمردي أوغندا، الأمر الذي ينذر بعودة المناخ العدائي كي يخيم على علاقات الدولتين الجارتين. كما يشـار على صعيد العلاقات الأمريكية السودانية إلى تواصل الـدعم الأمريكي الصريح والكبير لحركة جون جارانج. وعلى سبيل المثال ففي ٢٩ نوفمبر ١٩٩٩ وعندما لاحت في الأفق بوادر مصالحة بين الرئيس السوداني وخصمه المعـارض اللـدود الصادق المهدي راحت الولايات المتحدة تُعلـن علـى لسـان المتحدث باسم وزارة الخارجية ريتشارد هولبروك عن عزمها تقديم مساعدات عاجلة لجارانج.

وفضلاً عما تقدم فإن ورقة جارانج كانت إحـدى الأوراق الهامة التي استخدمتها مصر للضغط على النظام الإسـلامي في السودان، والذي تعتبره الحكومة المصرية مصدر تهديـد لها. فارتباطًا بذلك أجرت تلك الحكومة اتصالات عديـدة – سرية وعلنية – مع جون جـارانج، ولعـل المشـهد الـذي لا ينسى في هذا الصدد هو استقبال ذلك الرجل في القـاهرة عام ١٩٩٧ استقبالاً كاستقبال الزعماء الشرعيين. غير أنـه في ظل تحسن العلاقات بين النظامين المصري والسوداني – على إثر إبعاد البشير لشريكه فـي الحكـم والعـدو اللـدود للحكومة المصرية حسن الترابي عن السـلطة – يلاحـظ أن النظام المصري راح يتملص من علاقاته مع جارانج.

كذلك على صعيد الآثار الدولية للحركة العرقية في جنوب السودان يتعين التنويه إلى أن هذه الحركة لها آثارها الجليـة على العلاقات السودانية الإريترية؛ إذ طالما نظـر الـزعيم الإريتري (المسيحي) أسياسي أفورقي بعين ملؤها الريبة إلى النظام (الإسلامي) القائم في الخرطوم، لا سـيما وأن هـذا النظام يستضيف على أراضيه جانبا كبيـرا مـن ميلشـيات جماعة الجهاد الإسـلامي الإريتـري المناوئـة لأفـورقي،

والرافضة لهيمنة الأقلية المسيحية على مقاليد السلطة في أسمرة، والداعية إلى استعادة جماعة الأغلبية المسلمة لموقعها الطبيعي كجماعة مسيطرة يشكل أفرادها أكثر من ثلاثة أرباع سكان إريتريا. وفي مقابل تدعيم الحكومة السودانية لحركة الجهاد الإسلامي؛ نجد أن الحكومة الإريترية راحت تستخدم ورقة جارانج للضغط على نظام الخرطوم، فشرعت في تقديم كل ما في جعبتها من مساعدات للمتمردين في جنوب السودان. وتؤكد بعض المصادر أن العداء بين الحكومتين كان من التأجج إلى حد تورط كلتيهما في إشراك قواتها بصورة مباشرة في الحرب إلى جانب القوات المناوئة للأخرى. يبقى أن نشير إلى أن العلاقات السودانية الإريترية قد شهدت تحسنًا يعتد به خلال الشهور الأخيرة من عام ١٩٩٩، كما أعلنت الدولتان – في ٤ يناير ٢٠٠٠ – إقامة علاقات دبلوماسية بينهما.

* * *

الفصل الثالث
في غلبة طابع العنف
على وسائل الحركات العرقية

تشير ملاحظة واقع الحركات العرقية إلى أن هذه الحركات غالبا ما تتوسل بالعنف بغية بلوغ غاياتها، لا سيما إذا كانت هذه الغايات انفصالية أو ارتقائية. ذلك بأن تلك الحركات لا تدخر – في سبيل تحقيق أهدافها – أيا من وسائل العنف إلا وتلجأ إليها، سواء تمثلت هذه الوسائل في الحرب النظامية، أو حرب العصابات، أو التطهير العرقي، أو عمليات الاغتيال، أو الاختطاف، أو ما يعرف بالعمليات الانتحارية، أو المظاهرات ذات الطابع العنفي، أو عمليات التفجير.. أو غيرها. ونظرا لما تقدم فإن الصراعات العرقية دائما ما تتمخض عن وقوع خسائر بشرية ومادية جسيمة. وذلكم هو ما يبدو جليا في الجدول التالي، والذي نقدم من خلاله أمثلة لشيء؛ مما نتج عن بعض الصراعات العرقية المعاصرة من آثار:

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
تشهد رواندا منذ عام ١٩٩١ صراعا عرقيا عنيفًا بين قبيلتي الهوتو (وهي جماعة الأغلبية) والتوتسي (التي تمثل جماعة الأقلية). وقد تأجج هذا الصراع وبلغ ذروة اشتعاله عام ١٩٩٤ على إثر اغتيال رئيسي رواندا وبوروندي – في ٦ أبريل – من خلال إسقاط طائرة كانا يستقلانها فوق العاصمة الرواندية كيجالي، وأشارت أصابع الاتهام – وقتذاك – إلى ميلشيات التوتسي. الأمر الذي أدى إلى اشتعال حرب نظامية ضروس، خاضها الجيش الشعبي الرواندي التابع للتوتسي، في مواجهة جيش الحكومة الرواندية الذي كانت أغلبيته – آنذاك – من الهوتو؛ حيث استطاع التوتسيون أن يطيحوا بالحكومة	رواندا

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	الرواندية ذات الأغلبية الهوتووية التـي كانت قائمة يومذاك، لكي تصبح بـذلك جماعة التوتسي – برغم كونها أقليـة – هي الجماعة المسيطرة في رواندا. وقـد أسفرت المعارك الضارية بـين قـوات الجانبين عام ١٩٩٤ وحده عن مصـرع زهاء المليون شخص أغلبهم من الهوتو، وتلكم هي المذبحة التي راح المحللـون يطلقون عليها "مذبحة القرن". على صعيد آخر فقد أسـفرت تلـك المعارك عن تشريد ثلاثة ملايـين مـن الروانـديين، وفـرارهم إلــى الـدول المجاورة كلاجئين. هذا ولا تزال الأمور غير مستقرة في رواندا حتى يومنا هـذا (٢٠٠٠ م) إذ يرفض أبنـاء الهوتـو – بطبيعة الحال – أن تكون جمـاعتهم –

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	التي هي جماعة الأغلبية – الجماعة غير المسيطرة، في حين يأبى أبناء قبيلة التوتسي إلا أن يكونوا هم المسيطرين[٢٧٣].
بوروندي	على غرار الصراع العرقي في رواندا تشهد بوروندي منذ بداية عقد التسعينيات صراعا عرقيا داميا بين التوتسي (جماعة الأقلية) والهوتو (جماعة الأغلبية التي تشكل نحو ٨٥ % من جملة السكان). وعلى الرغم من كونها أقلية لا تربو نسبة عددها إلى جملة سكان بوروندي عن ١٣ % فإن قبيلة التوتسي تُمثل الجماعة المسيطرة داخل الدول البوروندية، وتحتل التوتسي

(٢٧٣) تم الاعتماد بصدد كتابة هذه النبذة على متابعتنا الدقيقة للمشكلة الرواندية من خلال وسائل الإعلام العربية والأجنبية.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	موقعها المسيطر هذا منذ ما يربو على خمس وثلاثين عاما. ويأبى التوتسيون إلا أن يكونوا هم المسيطرين برغم كونهم أقلية. لذلك فقد قامت القوات المسلحة التوتسية باختطاف الرئيس البوروندي ميلشيور نداداي (الهوتووي الانتماء) وإعدامه في أعقاب انتخابه رئيسا للبلاد بمقتضى أول انتخابات حرة أجريت فيها عام ١٩٩٣. وفي أبريل من العام التالي ١٩٩٤ – وبعد حوالي ستة أشهر تقريبا من اغتيال نداداي – اغتيل خلفه كارميرا مع نظيره الرواندي عن طريق إسقاط طائرتهما المشتركة فوق العاصمة الرواندية كيجالي. هذا ولا تزال رحى الصراع الدامي بين الهوتو والتوتسي دائرة حتى يومنا

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
هذا (نهاية أكتوبر ٢٠٠٠ م)، ذلك الصراع الذي انطوى على مذابح مروعة قام بها كلا الفريقين المتناحرين في مواجهة أولئك الذين ينتمون إلى الفريق الآخر. وقد تمخضت تلك المذابح حتى الآن عن مصرع مائتي ألف شخص، منهم مائة ألف لقوا حتفهم خلال عامي ١٩٩٤، ١٩٩٥ وحدهما حسب تقدير الأمين العام للأمم المتحدة – وقتذاك – بطرس غالي. ولم تفلح الجهود المضنية التي تقوم بها مجموعة من الدول الإفريقية وعلى رأسها جنوب إفريقيا – حتى يومنا هذا – في إخماد نيران ذلك الصراع.	
لا تزال الحرب الأهلية في السودان – كما أسلفنا القول – مستعرة الأوار بين	السودان

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
قوات الحكومة السودانية، وقوات الحركات الانفصالية الجنوبية وعلى رأسها حركة الجيش الشعبي لتحرير السودان بزعامة جون جارانج. كما يشهد الجنوب بين الفينة والفينة صراعات دامية بين الجنوبيين أنفسهم. وحسب تقديرات الحكومة السودانية فقد تمخضت الحرب بين القوات الحكومية وحركة جارانج خلال الفترة (١٩٨٩ – ١٩٩٤) وحدها عن مصرع ما يربو على الخمسين ألف عسكري، ذلك فضلاً عما لم يدخل في هذه التقديرات الحكومية من إحصاء لعدد الأشخاص الذين أودت بحياتهم المعارك بين الجنوبيين أنفسهم، والذي يقدر بعشرات الآلاف على نحو ما أسلفنا	

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	الإشارة. كذلك فقد تمخضت الصراعات العرقية الدامية في السودان عن تـدمير عشرات القرى والمدن، وفـرار الآلاف من أبناء جنوب السودان إلـى الـدول المجاورة كلاجئين [٢٧٤].
ليبريا	شهدت البلاد خلال الفترة (١٩٨٩ – ١٩٩٧) صـراعا عرقيـا داميـا بـين جماعتي الجيو The Gio والمانو The Mano من جهة، والجماعـة العرقيـة المسيطرة المتمثلة في جماعـة كـراهن Krahn من جهـة أخـرى؛ إذ شـنت جماعتا الجيو والمانو بزعامة تشـارلز تيلـور Charles Taylor حـرب

[٢٧٤] انظر في هذا المضمون تفصيلاً وعلى سبيل المثال: سعد الـدين إبراهيم (مشرف)، الملل والنحل...، (تقرير ١٩٩٥)، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٧ – ٢٦٠.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	عصابات شعواء ضد الجيش الليبيـري الذي تسيطر عليه جماعة كراهن، وقـد استهدف تيلور – المعروف بدمويتـه – من وراء تلك الحرب الإطاحة بجماعـة كراهن من الحكم، والارتقاء بجمـاعتي الجيو والمانو إلى موقع السـيطرة فـي ليبيريا. وفي سبيل ذلك قامـت قـوات تيلور – فـي عـام ١٩٩٠ – باغتيـال الرئيس الليبيـري الكراهنـي الأصـل صـاموئيل دو Samuel Doo وعلـى الرغم من ذلك استمرت الحرب الأهلية دائرة الرحى في ليبيريـا حتـى عـام ١٩٩٧ عندما دانت لتيلور السيطرة على مقاليد السلطة في البلاد. وقد أسفرت تلك الحرب حتى بدايـة عـام ١٩٩٣ عـن مصرع ما يربو على العشـرين ألـف

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
شخص، وتشـريد مئـات الآلاف مـن الليبيريين، وفرارهم إلى الدول المجاورة كلاجئين. ولعل جسامة خسائر ليبيريـا من جراء الصراع العرقي تتضح بجلاء إذا ما ذكرنا أن عدد سكانها لا يتجـاوز المليونين ونصف المليون نسمة.	
كانت جماعة الأغلبية السوداء – كما سبق أن أشرنا – قد شرعت فـي شـن حرب عصابات فـي مواجهـة قـوات الحكومة العنصرية للأقلية البيضاء. وقد بدأ السود كفاحهم عـام ١٩٦١ وظلـوا مستمرين فيه لحقبـة تجـاوز الثلاثـين عاما؛ حيث تبنى هذا الكفاح تسعة عشر تنظيما سياسيا، أظهرها المؤتمر الوطني الإفريقي، والذي تكفل الجناح العسكري له (رمح الوطن) بالجانب الأكبـر مـن	جنوب إفريقيا

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
كفاح الجماعة السوداء من أجـل تبـوء موقع السيطرة في وطنها، وقـد أسـفر الصراع المسلح الـدامي بـين السـود والأقلية البيضاء عن مصرع أعداد هائلة من أفراد الجانبين. وعلى سبيل المثـال فقد قتل من جراء هذا الصـراع زهـاء ١٥٠٠٠ شخص خلال الفترة الممتدة من عــام ١٩٨٤، وحتــى بدايــة عقــد التسعينيات. وتجدر الإشـارة إلـى أن الجماعة السوداء قد تمكنت – مع بدايـة عام ١٩٩٤ – من بلوغ غايتها، فأمـام الكفاح الضاري للسود أذعـن الحكـام البيض لمطالبهم. وفـي أبريـل ١٩٩٤ أجريت أول انتخابات غير عنصرية في البلاد؛ حيث اعتلى – علـى إثرهـا – زعيم المؤتمر الوطني الإفريقي نيلسون	

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	مانديلا سدة الحكم في جنوب إفريقيا. وعلى الرغم من ذلك فإن ثمة صراعا عرقيا لما يزل قائما هناك، بين حركة إنكاتا الممثلة لجماعة الزولو، وغيرها من الجماعات السوداء. ويرتد هذا الصراع إلى أسباب قبلية؛ إذ يرفض الزولو استئثار أبناء قبيلة الهاوسا – التي ينتمي إليها مانديلا – بأغلب مواقع السلطة في البلاد. وقد أسفر الصراع الدامي بين الزولو وغيرها من الجماعات السوداء – على سبيل المثال – عن مصرع ثلاثة آلاف شخص في عام ١٩٩٢ وحده [٢٧٥].

[٢٧٥] اعتمدنا في هذا الصدد على:

Ethnic Conflicts Workdwide in: Current History, Op. Cit., P. ١٦٨.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
سرذيلانكا	ثمة صراع دام لا تزال رحاه دائـرة منذ ما يربو على ١٦ عاما وحتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠ م) بين أبناء الأقلية التاميلية، وقوات الحكومة التـي تنتمـي إلــى جماعــة الأغلبيــة الســنهالية؛ إذ يستهدف التاميـل – كمـا قـدمنا – انفصال موطنهم (شبه جزيرة جافنا فـي شمال البلاد) عن سريلانكا، وإقامة دولة تاميلية مستقلة. وتتبنى كفاح التاميل عدة تنظيمات سياسية وعسـكرية أظهرهـا جبهة تحرير إيلام (أو نمور التاميـل). وقـد أودى الصـراع بـين الفصـيلين المتصارعين بحياة عشرات الآلاف من

وكذا: نيفين القباج، جنوب إفريقيا: والتوجه الصعب نحو التسوية، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٠٩)، يوليو ١٩٩٢، من ص ١٢٨ إلـى ص ١٣٠.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	الأشخاص. وعلى سبيل المثال فإن أحد التقارير يشير إلى أن هذا الصراع قـد تمخض خلال الفترة (١٩٨٣ – ١٩٩٣) وحدها عن مصـرع ٢٨٠٠٠ تـاميلي، و٥٠٠٠٠ سنهالي[٢٧٦]. وتلجأ منظمة نمور التاميـل – فـي سبيل بلوغ غايتها – إلى استخدام كافـة وسائل العنف من حرب شبه نظاميـة، إلى حرب عصابات، وعمليات اغتيـال، واختطـ ـاف، وتفجيـ ـر، وعمليـ ـات انتحارية... إلـخ. ولعـل مـن أظهـر عمليات نمور التاميل ذات الطابع العنفي ما يلي: ١- اغتيال الرئيس السـريلانكي

(٢٧٦) Ethnic Conflicts…, Op. Cit.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	رانا سينج بريما داسا فـي ١ مايو ١٩٩٣ من خلال هجوم انتحـاري اسـتخدمت فيـه دراجة بخارية.
	٢- اغتيال زعـيم المعارضـة السريلانكية في ٢٤ أكتـوبر ١٩٩٤ من خـلال عمليـة انتحارية.
	٣- القيام بعدة عمليات تفجير في الحي التجـاري بالعاصـمة السريلانكية كولمبو فـي ٣١ يناير ١٩٩٦، وهي العمليات التي أسفرت عن مصرع ما يربـو علـى ٨٠ شخصـا، وإصابة بضع مئات آخرين.
	٤- قيام زعيم نمور التاميل برابا

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	كاران بتدبير عملية لاغتيال رئيسة سريلانكا السابقة تشاندريكا كومارا تونجا، وهي العملية الانتحارية التي قامت بها امرأة تاميلية داخل كولمبو في ١٨ ديسمبر ١٩٩٩، والتي نجت فيها كومارا تونجا من الموت بأعجوبة؛ حيث أصيبت إصابة بالغة في إحدى عينية، كما أودت العملية بحياة ما يقرب من ٤٠ شخصا. وقد تمت تلك العملية أثناء قيام الرئيسة السريلانكية بإحدى جولاتها الانتخابية. ويشار كذلك إلى

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	نجاة كوماراتونجا من محاولة اغتيال أخرى دبرها نمور التاميل من خلال رسالة ملغومة تمكنت الشرطة من إبطال مفعولها في ١٨ يناير ٢٠٠٠ م.
	٥- العملية الانتحارية التي دبرها نمور التاميل في ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠ حيث قامت جماعة منهم بمهاجمة ميناء ترنكومالي في شمال شرق سريلانكا على ظهر أربعة زوارق ملغومة ومزودة بأسلحة مضادة للطائرات، الأمر الذي أسفر عن إغراق سفينتين للبحرية السريلانكية،

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	وإسقاط طـائرة مروحيـة، فضلاً عن مقتـل القـائمين بالهجوم، واثنين من البحارة الســريلانكيين، وإصــابة العشرات مـن الأشـخاص المتواجدين في الميناء. هـذا ولا تــزال الحــرب شــبه النظامية دائرة الرحى حتـى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠م)؛ حيـث شـهد عـام ٢٠٠٠ تصعيدا خطير الشـأن فـي الصراع بين قـوات نمـور التاميل، والقوات الحكوميـة السريلانكية.
الهند	تمثلت أولى الحركات العرقية التـي شهدتها الدولة الهندية في تلك الحركـة

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	التي تمخضت جهودها عن قيام دولة الباكستان المستقلة عام ١٩٤٧. وقد أسفر الصراع الدامي الذي شهدته الهند – وقتذاك – بين قوات تلك الحركة وقوات الحكومة الهندية عن مصرع زهاء ربع مليون شخص، كما أدى ذلك الصراع إلى تشريد ١٢ مليوناً آخرين[٢٧٧]. أما فيما يتصل بوقتنا الراهن فإن الهند تشهد العديد من الصراعات العرقية التي تأتي كانعكاس لكونها دولة تنطوي على تنوع عرقي هائل. ويتمثل أظهر هذه الصراعات في:

(٢٧٧) انظر في هذا المضمون: محمد السماك، الأقليات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٣١.

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
أ- الصراع بين المسلمين والهندوس، وهو صراع دام ما يكاد يتوقف – لفترة – حتى يستعر أواره من جديد. ولعل من أبرز المصادمات التي تمت بين المسلمين والهندوس مؤخرا تلك المصادمات الدامية التي اندلعت على إثر قيام مسلحين هندوس بتدمير مسجد للمسلمين في ولاية أوتار براديش Uttar Pradesh خلال شهر ديسمبر ١٩٩٢. وقد	

---

(٢٧٨) Ethnic Conflicts Worldwide in: Current History., Loc. Cit.

(٢٧٩) انظر في هذا المضمون: جمال الدين محمد علي، اغتيال إنديرا غاندي ومستقبل القارة الهندية، مجلة السياسة الدولية، العدد ٧٩، يناير ١٩٨٥، ص ٢٠٦: ٢٠٤.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	أسفرت تلك المصادمات التي امتدت إلى كافة أرجاء الدولة الهندية عن مصرع ٢٠٠٠ شخص (حسب التقديرات الرسمية) [٢٧٨]. ب- الصراع بين الانفصاليين السيخ وقوات الحكومة الهندية في إقليم البنجاب Punjab. وقد تمخض هذا الصراع الدامي خلال الفترة (١٩٨٢ – ١٩٩٢) عن مصرع زهاء عشرين ألف شخص، وذلك في إطار سعي السيخ إلى إقامة دولتهم المستقلة المنشودة (خالستان). وتجدر الإشارة إلى أن عمليات الاغتيال تُمثل إحدى الوسائل الرئيسية

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
التي يلجأ إليها الانفصاليون السيخ، ولعل أبرز الاغتيالات التي قـاموا بتـدبيرها يتمثل في اغتيال رئيسـة وزراء الهنـد السابقة إنديرا غاندي فـي ٣١ أكتـوبر ١٩٨٤، والذي جاء كرد فعل من جانب السيخ على قيام القوات الهندية باقتحـام معبدهم الذهبي في مدينة أمريستار مـع بداية شهر يونيو ١٩٨٤، وهو الاقتحـام الذي أسفر عن مصرع ما يقـرب مـن ألف شخص من الجانبين [٢٧٩]. كـذلك فقد دبر السيخ عملية اغتيـال راجيـف غاندي في ٢١ مايو ١٩٩١ داخل ولاية تاميل نادو، وقد كان راجيـف يومـذاك زعيما للمعارضة؛ حيث كـان خـارج السلطة (رئيس وزراء سابق). على صعيد آخر قام انفصاليون سيخ	

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	فـي ٢٥ أغسـطس ١٩٨٤ باختطـاف طائرة ركاب هندية مـن مطـار إقلـيم البنجاب بغية لفت نظـر الـرأي العـام الدولي إلى قضيتهم، وقد انتهـت هـذه العملية باستسلام الخـاطفين لسـلطات مطار دبي الـذي كـانوا قـد توجهـوا بالطائرة إليه؛ حيث تم تأمين حياتهم. ج- الصراع الدامي بـين ميلشـيات الحركة الانفصالية لمسلمي جامو وكشمير وقوات الحكومة الهندية. وتضم هذه الحركة ثلاثين حزبـا انفصاليا يطلق عليهـا مجتمعـة (مؤتمر الحرية لعموم التنظيمات الانفصالية بكشمير)، ويعد حزب المجاهدين أقوى هذه الأحـزاب وأمضاها تأثيرا. وقـد تمخـض

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	الصراع بـين القـوات الهنديـة والانفصاليين الكشميريين خـلال الفترة (١٩٩٠ – ١٩٩٢) عـن مصرع حوالي ٥٠٠٠ شـخص من الجانبين، فضلاً عن نـزوح حــوالي ١٢٠٠٠٠ شــخص – أغلبهم من الهندوس عن كشمير، وتشتتهم بين الولايـات الهنديـة الأخرى. كما أسفر هذا الصـراع ذاتـه خـلال الفتـرة (١٩٩٣ – ٢٠٠٠) عن مصرع مـا يربـو على ٢٠٠٠٠ شخص، فضلاً عن جرح آلاف آخرين. ويشار إلى أن بعـض الانفصـاليين الكشميريين قـاموا باختطـاف طـائرة ركاب هندية من مطار العاصمة النيبالية

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	كاتمندو في ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩؛ حيث احتجزوا على متنها ١٦٠ راكبا كرهائن لمدة ثمانية أيام قبل أن يفرجوا عن الرهائن في مطار قندهار الأفغاني على إثر إذعان رئيس الوزراء الهدي فاجباي لمطالبهم وعلى رأسها الإفراج عن ثلاثة من أبرز الزعماء الإسلاميين الكشميريين في مقدمتهم الزعيم الفذ مسعود أزهر، الذي ما أن خرج من السجن حتى راح يتوعد الهند مؤكدا أن الجهاد الكشميري سيستمر حتى يحقق أهدافه كاملاً. هذا ولا تزال رحى الصراع العنيف الدامي دائرة حتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠ م) بين الانفصاليين الكشميريين والقوات الهندية؛ حيث يشن الكشميريون

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
بدعم من باكستان حرب عصابات شعواء على كل مظاهر الوجود الهندي في الإقليم.	
يشهد إقليم التبت الصيني – كما سبق أن أشرنا – صراعا عرقيا بين الانفصاليين التبتيين وقوات الحكومة الصينية. وتشير التقارير إلى هذا الصراع قد أسفر خلال الفترة (١٩٥٩ – ١٩٩٢) عن مصرع ما يزيد عن ٧٨٠٠٠ تبتي[٢٨٠]. كما يشهد إقليم سينجيانج صراعا آخر داميا بين الانفصاليين المسلمين وقوات الحكومية الصينية غير أن ضحايا هذا الصراع غير معروف عددهم نظرا	الصين

(٢٨٠) Ibid.

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
للتعتيم الشديد والصارم الـذي تفرضـه الحكومة الصينية على ما يجري في ذلك الإقليم.	
أسفرت الحرب الأهلية الدامية (ذات الطابع العرقي) التي شهدتها لبنان خلال الفترة (١٩٧٥ – ١٩٩٠) عن مصـرع حوالي ١٠٠٠٠٠ شخص، وجـرح مـا يربو على ٢٠٠٠٠٠ آخرين، فضلاً عن تشريد نصف مليون لبناني، وذلك كلـه من بين سكان لا يتجاوز عددهم الثلاثـة ملايين نسمة. أما بصدد الخسائر المادية لتلك الحرب فتقدر بما يربو علـى ١٥ مليار دولار [٢٨١].	لبنان
يشن الانفصاليون الأكـراد (حـزب	تركيا

[٢٨١] سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠٢.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	العمال الكردستاني) حـرب عصـابات شعواء في مواجهة القوات التركية. ففي عام ١٩٩٠ قامـت ميلشـيات الحـزب بحوالي ٨٠١ عملية مسلحة، في حـين بلغ عدد عملياتها المسـلحة فـي عـام ١٩٩١ حوالي ١٦٥ عملية، أما في عام ١٩٩٢ كـان عـدد العمليـات ٣٥٨٣ عملية، ثم ٢١٦١ عملية في عام ١٩٩٣ وما يزيد على ١٨٨١ عملية خلال عام ١٩٩٤ [٢٨٢]. ويشـار إلـى أن حـدة عمليات حزب العمال قد خفت في الآونة الأخيرة على إثر نجاح الحكومة التركية في اعتقال زعيم الحزب عبد ا أوجلان على النحو الذي سنعرض له بتفصـيل لاحق.

---

[٢٨٢] سعد الدين إبراهيم (تقرير ١٩٩٥)، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٨.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
إندونيسيا	شهدت إندونيسيا صراعا عرقيا داميا بين ميلشيات الحركة الانفصالية لسـكان تيمــور الشــرقية (ويــدين أغلــبهم بالكاثوليكية الرومانية)، وقوات الحكومة الإندونيسية. وقد بدأ هذا الصراع غـداة انسحاب البرتغال من تيمور الشرقية عام ١٩٧٥؛ حيث طالب التيموريون منذ ذلك الحين بالانفصال عن إندنونيسـيا (ذات الأغلبية المسلمة)، وإقامة دولة مسـتقلة بجسد هويتهم. وتشـير تقـارير منظمـات حقـوق الإنسان إلى أن الصـراع فـي تيمـور الشرقية قد تمخض – حتى نهاية عـام ١٩٩٢ – عـن مصـرع عــدد مــن الأشخاص يتراوح ما بين المائة والمائتي ألف من سكان الجزيرة البـالغ عـددهم

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	حاليا ٦٠٠ ألف شخص. وتـذكر هـذه التقارير أن ارتفاع عدد القتلى في تيمور الشرقية يرتد إلى أسباب عديدة أهمهـا المجاعات وعمليات الإعدام التي كانـت تـــدبرها وتنفـــذها الحكومـــة الإندونيسية[٢٨٣]. يبقى أن نشير إلى أنه في ظل تصاعد كفاح انفصاليي تيمـور بزعامة جوشماو (قائدهم الأشهر) وتحت وطأة الضـغوط الأمريكيـة اضـطرت الحكومة الإندونيسية إلى إجراء استفتاء لتقرير مصير الإقلـيم؛ حيـث وافـق التيموريـون بأغلبيــة كبيــرة علــى الاستقلال، وبالتالي فقد نالوا اسـتقلالهم بمقتضى نتيجة ذلـك الاسـتفتاء الـذي أجري في أغسطس ١٩٩٩. على صعيد

(٢٨٣) Ethnic Conflicts…., Op. Cit., P. ١٦٨.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	آخر – وفي أعقاب استقلال تيمور الشرقية تصاعدت حدة المصادمات العرقية في العديد من الجزر الإندونيسية الأخرى. وتُعد جزر مالوكو المعروفة بجزر الملوك (وكذا جزر البهار) أكثر مناطق إندونيسيا معاناة من الصراعات العرقية الدامية؛ حيث تشهد الجزر وعلى رأسها جزيرتا هالما جيرا وسيرام منذ بداية عام ١٩٩٩ صراعا عرقيا طائفيا داميا بين المسيحيين والمسلمين. وهو الصراع الذي أسفر حتى الآن عن مصرع ما يربو على ٤٦٠٠ شخص أغلبهم من المسلمين، فضلاً عن إحراق حوالي تسعة آلاف مبنى منها ما يزيد عن ١٢٠ مسجدا وكنيسة، وتشريد نصف مليون فرد. وقد بلغ الصراع

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	ذروته خلال الأسبوع الأخير من عـام ١٩٩٩ والأسبوعين الأولين مـن عـام ٢٠٠٠؛ حيث قتل خلال هـذه الفتـرة الوجيزة وحدها زهـاء ألـف شـخص غالبيتهم من المسلمين. وقـد أدت هـذه الأحداث إلى اندلاع الاضطرابات فـي جزر إندونيسية أخرى؛ حيـث شـهدت جزيرة لومبوك فـي منتصـف ينـاير ٢٠٠٠ اضطرابات طائفية بين المسلمين والمسيحيين والهنـدوس قـام خلالهـا المسلمون بإحراق ١٣ كنيسة كرد فعـل لما قام به مسيحيو أمبون (عاصمة جزر الملوك) من مذابح طالت المسلمين. كما كانت جاكرتا قد شهدت فـي ٧ يناير ٢٠٠٠ مظاهرة حاشـدة ضـمت ٣٠٠ ألف من المسلمين طالبوا خلالهـا

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
بإعلان الجهاد نصرة لمسلمي جزر الملوك رافعين شعارات "الجهاد.. الجهاد"، "أحرقوا الكنائس" الأمر الذي وضع استقرار إندونيسيا فوق فوهة بركان.	
أسفرت حرب الانفصال التي خاضها الكروات بغية الانفصال بكرواتيا عن الاتحاد اليوغسلافي عام ١٩٩١ عن مصرع حوالي عشرة آلاف شخص[٢٨٤]. من جانب آخر فإن ثمة حركة صربية انفصالية في إقليم كرايينا الكرواتي تسعى منذ عام ١٩٩١ إلى انفصال الإقليم عن كرواتيا تمهيدا للانضمام به إلى صربيا. وقد أسفر	يوغسلافيا (القديمة)

[٢٨٤] التقرير الاستراتيجي العربي، (١٩٩٢)، الأهرام، القاهرة، ١٩٩٣. ص ٨٩.

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
الصراع الدامي بين الكروات والصرب في كراييـنـا خـلال الفتـرة (١٩٩١ – ١٩٩٣) عن مصرع حـوالي ٢٥٠٠٠ شخص [٢٨٥]. أما فيما يتصل بالصراع العرقي الذي أنهاه اتفاق ديتون عام ١٩٩٧ والخاص بالبوسنة والهرسـك فإنـه لـيس ثمـة تقديرات دقيقة لعدد ضحاياه، وإن كـان ثمة اتفاق بين المراقبين علـى إن هـذا العدد يقدر بعشرات الآلاف. وعلى سبيل المثال فقد نشرت صـحيفة الواشـنطن بوست الأمريكية في ٥ فبرايـر ١٩٩٣ تقريرا ذكرت فيه أنه خـلال الأشـهر العشرة الأخيرة (التي تبدأ مـن مـارس	

(٢٨٥) Ethnic Conflicts…., Op. Cit. P. ١٦٧.

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
١٩٩٢) تم إخراج سبعمائة ألف بوسني مسلم من بيوتهم وأصبحوا لاجئين. كما أكد تقريـر للمجموعـة الأوربيـة أن الصرب قاموا باختطاف ما يزيد علـى ٢٠ ألف امرأة مسلمة، وعمـدوا إلـى اغتصـابهن مـرارا كجـزء مـن استراتيجيتهم في إذلال الخصوم. وقـدر الرئيس البوسني علي عزت بيجـوفيتش عدد الضحايا المسلمين (حتى نهاية عام ١٩٩٣) بحوالي مائتي ألـف شـخص. وذلك في إطار عمليات الإبادة الجماعية أو ما يسمى التطهير العرقي الذي قام به الصرب في مواجهة المسلمين.	
لا تزال حرب الشيشان مشتعلة منـذ منتصف سبتمبر ١٩٩٩ وحتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠) بين القوات الفيدراليـة	روسيا الاتحادية

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
الروسية من جهة، وقوات الانفصاليين الشيشان بزعامة أصلان مسخادوف من جهة أخرى. ويشار إلى أن حرب الشيشان الأولى (١٩٩٤ – ١٩٩٦) قد أودت بحياة زهاء مائة ألف شخص من الروس والشيشانيين، فضلاً عن تشريد عشرات الآلاف من الشيشان، وكانت هذه الحرب قد انتهت بخروج مذل للقوات الروسية من شيشينيا على إثر تكبد الروس خسائر فادحة. أما الحرب الدائرة حاليا فقد بدأت كحرب نظامية في سبتمبر عام ١٩٩٩ ثم ما برحت أن حولها الشيشانيون – إثر تمكن الروس من دخول العاصمة الشيشانية جروزني – إلى حرب عصابات شعواء يشنونها من معاقلهم الجبلية الجنوبية التي كانوا	

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	قد انسحبوا إليها بحلول أول فبراير عام ٢٠٠٠ م. وتشير التقـديرات الرسـمية الروسية إلى أن خسائر القوات الروسية في الحرب تقدر – حتى أكتوبر ٢٠٠٠ – بحوالي ٢٥٠٠ قتيل، وزهـاء ٧١٠٠ جريح، غير أن المصادر المحايدة تؤكد أن خسائر الروس الحقيقية تقدر بما يربو على أربعـة أضـعاف هـذه الأرقـام الرسمية. وبطبيعة الحال فقد قتل في هذه الحرب آلاف الشيشانيين، وكانت غالبية القتلى من المدنيين الذين دكت منـازلهم ومدنهم؛ حيث جندت الحكومة الروسـية لحرب الشيشان ما يزيد على مائة ألـف عسكري مسـلحين بالأسـلحة الثقيلـة تدعمهم الطائرات الحربية. ولم يتـورع الروس خلال هذه الحرب عن ضـرب

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
المدن الآهلة، وتدمير مقومـات البنيـة التحتية في شيشينيا، على نحو استحالت معه العاصمة الشيشانية جروزني إلـى أطلالها يسكنها الخراب بعـد أن كانـت واحدة من أجمل مدن الدنيا، كما دمرت في الحـرب ثانيـة المـدن الشيشـانية أو أوروس مارتان، وفر ما يربو علـى ٢٠٠ ألـف شيشـاني إلـى أنجوتشـيا كلاجئين. ويشار إلى أن القوات الروسية قد ارتكبت في هذه الحرب – فضلاً عما تقدم – جرائم بشعة في حق الإنسـانية؛ حيث عمدت إلى اغتاب النساء وقتلهن، وإقامة معسكرات لتعذيب الشيشانيين هي من البشـاعة بحيـث شـبهها الـبعض بمعسكرات هتلار وستالين. على أية حـال لا يـزال المقـاتلون	

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
الشيشانيون يشنون حرب عصابات شعواء في مواجهة القوات الروسية، وقد تصاعدت عملياتهم خلال شهر أكتوبر ٢٠٠٠ الذي شهد العشرات من العمليات الموجعة التي طالت الروس. يبقى أن نشير إلى أن المقاتلين الشيشان قد أعلنوا من خلال موقعهم على شبكة المعلومات الدولية مسئوليتهم عن إغراق الغواصة النووية الروسية (كورسك) في بحر بارنتس بالقطب الشمالي في ١٢ أغسطس ٢٠٠٠، والتي قتل سائر بحارتها البالغ عددهم ١١٨ بحارا. كما أعلن المقاتلون كذلك مسئوليتهم عن تفجير برج أوستانكينو (٥٤٠ مترا) والذي يعد ثاني أعلى برج تليفزيوني في العالم، وذلك في ٢٧	

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
أغسطس ٢٠٠٠، هذا ولم يتأكـد حتـى الآن ضـلوع الشيشـانيين فـي تينـك العمليتين.	
منذ وصـول الـرئيس (المسـيحي) أوباسونجو إلى السلطة في مايو ١٩٩٩ والبلاد تشهد صدامات عرقيـة بالغـة الخطورة. ففي أواخر نوفمبر من ذلـك العـام شـهدت لاجـوس (العاصـمة الاقتصادية لنيجيريا) اضطرابات عرقية عنيفة بين قبيلتي الهاوسـا واليوروبـا، أسفرت عن مصرع ٥٠ شخصا، حيـث مزقت عشرات الجثث وأصبحت أشلاء داخل سوق المدينة في ٢٥ نوفمبر. كما امتدت أعمال العنف إلى منطقة دلتا نهر النيجر؛ حيث اضطرت قـوات الجـيش إلى التدخل بعد مصرع ١٢ شرطيا على	نيجيريا

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	يد عصابات مسلحة من قبيلة إيجاو، وفي نفس الوقت كانت ولاية كانو في الشمال تشهد أوضاعا مضطربة بعد الإعلان عن عزم البرلمان المحلي تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الولاية التي تزيد نسبة المسلمين فيها على ٨٠ % من جملة السكان. وبحلول بداية عام ٢٠٠٠ شهدت مدينتا لاجوس وإبيدان مزيدا من الصدامات العرقية الدامية، أسفرت عن مصرع ٣٥ شخصا، فضلاً عن تدمير عشرات المنازل، والمؤسسات العامة والخاصة، والمحال التجارية، وانتشار أعمال السلب والنهب. وفي ٢١ فبراير ٢٠٠٠ تجددت الاشتباكات العنيفة بين المسلمين

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	والمسيحيين في ولايات الشمال ذات الأغلبية المسلمة، وذلك على إثر إعلان تلك الولايات واحدة تلو الأخرى عزمها تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية. فارتباطًا بذلك شهدت ولايات كادونا، وزمفارا، وآبا، وسوكوتو، وكيبه صدامات دامية. وقد أسفرت تلك الصدامات في كادونا عن مصرع ما يزيد على ٤٠٠ شخص، وتدمير عشرات المنازل، والسيارات، ودور العبادة من مساجد وكنائس. وفي نفس الوقت تمخضت الصدامات العرقية في آبا عن مصرع ٤٠٠ شخص، كما شهدت ذات الفترة صراعا داميا قتل فيه ٣٠٠ شخص من مسلمي الهوسا على يد أبناء قبيلة إيبو في جنوب

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	شرق نيجيريا. وهكذا باتت نيجيريا تعيش على فوهة بركان الاشتعال لا سـيما مـع رفـض أوباسونجو لتطبيق الشريعة الإسـلامية في ولايات الشمال، بل وإساءته للشريعة وتحقير شأن أحكامها، في الوقت الـذي أصر فيه مسلمو الشمال على المضـي قدما في إعمال مبادئ الشريعة وانضـم إليهم في هذا المسـعى مسـلمو ولايـة بوشي الذين يشكلون أكثر مـن ٧٥ % من سكان الولاية. وفي ظل تلك الظروف راحت تطفو على السطح اقتراحات بتحويل نيجيريـا إلى اتحاد كونفيدرالي (بدلاً من كونهـا دولة فيدرالية موحدة) الأمر الذي بـات ينذر بتفكك كبرى الدول الإفريقية مـن

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	حيث عدد السكان.
المملكة المتحدة	ظلت منظمـة الجـيش الجمهـوري الأيرلندي (الجناح العسـكري لمنظمـة شين فين الانفصـالية) لعقـود عديـدة تمارس عملياتها ذات الطـابع العنفـي داخل الأراضي البريطانية. ولعل مـن أبرز هذه العمليات على الإطلاق ذلـك الهجوم الـذي قـام بـه الجمهوريـون الأيرلنـديون علـى مقـر الحكومـة البريطانية (١٠ داونينج سـتريت) فـي وسط العاصمة لنـدن فـي ٧ فبرايـر ١٩٩١. وهو الهجوم الذي استخدمت فيه قذائف الهاون؛ حيث أطلقها المهـاجمون من سيارة كانت تقف علـى بعـد ٢٠٠ متر من مقر الحكومة البريطانية، فـي الوقت الـذي كـان مجلـس الحـرب

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	البريطاني مجتمعا فيه برئاسة رئيس الوزراء آنذاك جون ميجور لمتابعة تطورات حرب الخليج. وعلى الرغم من أن أحدا من المجتمعين لم يصب بسوء إلا أن هذا الهجوم أصاب البريطانيين بالهلع. كذلك ففي مساء ٩ فبراير ١٩٩٦ نفذت عناصر الجيش الجمهوري عملية تفجير هائلة في منطقة شرق العاصمة البريطانية لندن أسفرت عن مصرع شخصين، وإصابة ما يربو على مائة آخرين. أما عن الخسائر المادية التي ترتبت على هذه العملية فقد قدرتها الحكومة البريطانية بحوالي ١٠٠ مليون من الجنيهات الاسترلينية. يبقى أن نشير إلى أن الشين فين

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	(وجناحها العسكري الجيش الجمهوري) كانت قد دخلت في هدنة مع الحكومـة البريطانية بدءا من صيف عام ١٩٩٧، ثم أجريت مفاوضـات بـين الجـانبين برعاية الولايات المتحدة أسفرت – كما أسلفنا الإشارة – عـن توقيـع اتفاقيـة رامبوييه (المعروفـة باتفـاق الجمعـة العظيمة) والتي تقضي بمـنح أيرلنـدا الشمالية حكما ذاتيا موسعا يتقاسم السلطة المحلية في ظلـه حزبـا الشـين فـين الكاثوليكي الانفصالي بزعامـة جيـري آدامز، وألستر البروتستانتي الاتحـادي بزعامة ديفيد ترمبل. وقد وقعـت هـذه الاتفاقية في ٢٢ مـايو ١٩٩٨، وعلـى الرغم من ذلك فهي لم توضع موضـع التنفيذ حتى يومنا هذا؛ حيـث يـرفض

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	الجيش الجمهوري إلقـاء أسـلحته فـي الوقت الذي يصر فيـه ترامـب علـى تجريد الجمهوريين مـن السـلاح قبـل تطبيق الاتفاقية، الأمر الذي عكس عمق أزمة الثقة بين الجانبين. وراح جيـري آدامز يؤكد أن اتفاقية الجمعة العظيمة لم تتضمن نصا صـريحا يلـزم الجـيش الجمهوري بإلقاء أسلحته. وفـي ظـل تمسك كـلا الطـرفين بموقفـه أعلـن البرلمان البريطاني – فـي ٦ فبرايـر ٢٠٠٠ – موافقته على مشروع قـرار تقدم به توني بلير رئيس الوزراء يقضي بإعادة الحكم البريطاني المباشـر إلـى أيرلندا، الأمر الذي اعتبره جيري آدمز تهديدا خطيرا لاتفاق الجمعة العظيمـة، لكي يـزداد التـوتر بـين الجمـاعتين

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
الأيرلنديتين لا سيما مع تنظيم جماعة الأورانج البروتستانتية لمظاهرات – خلال الصيف الماضي – ابتهاجا بانتصار تاريخي قديم كان البروتستانت قد حققه على الكاثوليك. كما زاد من عمق الخلافات رفض جماعة منشقة عن الجيش الجمهوري (تعرف باستمرارية الجيش الجمهورية) إيقاف عمليات العنف. ويذكر أن هذه الجماعة قامت – في ٦ فبراير ٢٠٠٠ – بإحداث تفجير كبير في فندق إيرفينستاون داخل العاصمة الأيرلندية بلفاست، كما فجرت ذات الجماعة سيارة ملغومة قبيل ساعات من انطلاق مسيرات الأورانج في الصيف الماضي.	
لا يزال الانفصاليون الباسكيون	إسبانيا

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
يناضلون من أجل استقلال الباسك عن أسبانيا، وإقامة دولة باسكية مستقلة، وتشير التقارير إلى أن عدد ضحايا الصراع العرقي الباسكي الإسباني يعتبر ضئيلاً إذا ما قورن بعدد ضحايا أي صراع عرقي آخر في العالم المعاصر؛ إذ على طول الفترة (١٩٦٨ – ١٩٩٢) لم يسفر ذلك الصراع – على صعيد الخسائر البشرية – سوى عن مصرع ٧١٧ شخصا فقط[٢٨٦]. وعلى الرغم من ذلك فإن هجمات منظمة إيتا الانفصالية الباسكية تكون جد موجعة للإسبان؛ حيث تقوم باختيار ضحاياها دائما من بين الشخصيات الكبرى المؤثرة.	

---

(٢٨٦) Ethnic Conflicts.., Op. Cit., P. ١٦٧.

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	وكانت منظمة إيتا قد دخلت في هدنة مع الحكومة الإسبانية استمرت ١٥ شهرا أعلنت انتهاءها في ٣ ديسمبر ١٩٩٩، ومنذ ذلك التاريخ وجهت إيتا للإسبان عدة ضربات شديدة الإيلام أسفرت حتى الآن – نوفمبر ٢٠٠٠ – عن مصرع ٢١ شخصا، فضلاً عن إحداث خسائر مادية جسيمة. ولعل أهم عمليات إيتا خلال الفترة الأخيرة هي ما يلي: - في ٢١ يناير ٢٠٠٠ قامت المنظمة بتفجير سيارتين ملغومتين في حي يقطنه العسكريون داخل العاصمة الأسبانية مدريد؛ مما أسفر عن مصرع أحد كبار الضباط

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
الأسبان، وإصابة ٤ أشخاص آخرين، فضلاً عن إلحاق دمار شديد بالمباني المجاورة. - في سبتمبر ٢٠٠٠ محاولة (فشلت) لتفجير متحف الباسك أثناء زيارة ملك إسبانيا خوان كارلوس، ورئيس وزرائه خوسيه ماريا أزنار وضيفهما المستشار الألماني شرودر للمتحف. وجاءت هذه العملية على إثر اعتقال قوات الشرطة الفرنسية للزعيم العسكري البارز في إيتا إيجناسيو جراثيا أوريجي الذي كان قد حاول اغتيال خوان كارلوس عام ١٩٩٥.	

نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها	الدولة (متنوعات العرقيات)
- ١٦ أكتوبر ٢٠٠٠ قيام إيتا باغتيال أحد أبرز الشخصيات السياسية في إشبيلية (ويدعى أنطونيو كارينوس) من خلال تفجير سيارته. - ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٠ قيام إيتا باغتيال ضابط أسباني كبير من خلال تفجير سيارة ملغومة في بلباو. - ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٠ قامت عناصر إيتا من خلال تفجير سيارة ملغومة باغتيال أحد قضاة المحكمة الأسبانية العليا، كما قتل في الحادث حارس القاضي وسائقه، فضلاً عن جرح زهاء ٣٥ شخصا،	

الدولة (متنوعات العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقي داخلها
	وتدمير العديد من السيارات والحافلات الموجودة بالقرب من مكان الانفجار، وكذا المباني المجاورة. - ٢ نوفمبر ٢٠٠٠ تفجير سيارة ملغومة على بعد أمتار من مكان كان من المزمع أن يعقد فيه خوسيه أزنار (رئيس الوزراء) مؤتمرا صحفيا في مدينة برشلونة.

جدول رقم (٣)

وهكذا يتضح في ثنايا الجدول السابق مدى ضخامة حجم الخسائر الناجمة عن الصراعات العرقية، الأمر الذي يؤكد غلبة طابع العنف على وسائل الحركات العرقية.

ونعرض في الصفحات التالية بشيء من التفصيل لواحدة من هذه الحركات بغية الوقوف على مدى لجوئها إلى العنف:

الحركة العرقية الكردية

١- تعريف بالأكراد وكردستان:

تتعين الإشارة – بداية – إلى أن ثمة اختلافًا بين المهتمين بالشئون الكردية حول الأصل السلالي للأكراد. فعلى سـبيل المثال نجد أن المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي يقول بأن الأكراد ينحدرون من أصل آري، كما أن لغتهم تنتمـي إلى عائلة اللغات الآرية، وأن تاريخ ولوجهم منطقة كردستان يرتد إلى قرون عديدة سبقت ميلاد المسيح [(٢٨٧)]. وفي بحـث لاحق راح مينورسكي يؤكد على أن الأكـراد هـم أحفـاد المديين، الذين كانوا – إلى جانـب الفارسـيين – يشـكون مجموعتين من القبائل الإيرانية، يرتاد تاريخهما إلى النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد. ويضيف مينورسكي أن الميديين هم بناة أول دولة إيرانية كبيرة، وأن دولتهم مكثـت زهاء مائة وخمس وسبعين عاما إلى أن اسـتطاع مؤسـس الدولة الفارسية قورش خلع آخر الملوك الميديين فـي عـام

[(٢٨٧)] ف. ف. مينورسكي، الأكراد، ملاحظات وانطباعـات، ترجمـة: معروف خزنة دار، دار الكاتب – بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٣.

٥٥٠ ق. م [٢٨٨]. وفي رأي آخر يشير أستاذ التـاريخ مـار (وهوروسي أيضا) إلى أن الأكراد هم السـكان الأصـليون لجبال آسيا الصغرى شـأنهم فـي ذلـك شـأن الأرمـن، والجيورجيين، والخالديين. ويرد مار أصل الأكراد إلى قـوم ورد ذكرهم كثيرا في الكتابات القديمة تحت اسـم كـردوخ، والذين تحدث عنهم المؤرخ اليوناني القديم إكزينوفـون فـي كتابه أناباس عام ٤٠٠ ق. م [٢٨٩].

كذلك فإن ثمة رأيا ثالثًا يقول به سيدني سميث؛ إذ يشـير إلى أن: الأكراد هم من الأقوام الهندو أوربية، وأنهم قـدموا إلى موطنهم الحالي في الوقت الذي قدم فيه الميـديون إلـى ميديا، والإيرانيون إلى إيران؛ حيث وفدت كافة هذه الشعوب إلى هذا الموطن بعد عام ٦٥٠ ق. م [٢٩٠].

---

[٢٨٨] ف. ف. مينورسكي، الأكراد: أحفاد الميديين، ترجمة: كمـال مظهـر أحمد، من نفس المرجع السابق، من ص ١٢٧ إلى ص ١٣٢.

[٢٨٩] عزيز الحاج، القضية الكردية في العشرينيات، المؤسسة العربيـة للدراسة والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٢٤.

[٢٩٠] محمد فتحي الشاعر، الأكراد في عهد عماد الدين زنكي، توزيـع دار المعارف، ١٩٩١، ص ٨.

ويذكر أحد الباحثين أن الأكراد ينحدرون من قبيلة كـوتي التي كانت تعيش في مرتفعات زجروس منذ عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد [٢٩١].

ويربط نولدكة الأكراد بالإكريتي، وهم قوم كانوا يعيشون في المنطقة الجبلية غربي بحيـرة وان، وتفرقـوا بصـورة واسعة في البلاد (ما بين إيران وميديا). ويضيف نولدكة أن كلمة: "كيرتي" تطورت إلى كلمة "كورتو" أو "كـوردو" أولاً، ثم إلى كلمة "كورت" وهي كلمة أصلية [٢٩٢].

أما سافر استيان فهو يربط الأكراد بشعب "كوتـو" الـذي عاش في مملكة "كوتيام" الواقعة على الضفة الشرقية لنهـر دجلة، بين نهري الزاب الصغير وديالي، ويعتقـد أن كلمـة الأكراد مأخوذة من الكلمة الأشورية "كورتو" [٢٩٣].

---

[٢٩١] محمد السماك، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩.

[٢٩٢] مازن بلال، المسألة الكردية: الوهم والحقيقـة، بيسـان للنشـر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٤٠.

[٢٩٣] نفس المرجع السابق.

ومهما يكن من أمر ذلك الخلاف بـين البـاحثين حـول الأصل السلالي للأكراد فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارهـا قوامها أن الأكراد يمثلون جماعة سـلالية تقطـن موطنهـا الحالي (كردستان) منذ عشرات القرون. ومن نافلة القول إن إقليم كردستان مفتت حاليا بـين خمـس دول هـي تركيـا، وإيران، والعراق، وسوريا، وأرمينيا. وكما أن ثمة اختلافًـا بين الباحثين حول الأصل السلالي للأكراد، فإنهم لا يتفقـون – كذلك – بصدد حدود الإقليم الكردستاني ومساحته. فيـرى جافان Gavan أن: "كردستان هي المنطقـة التـي يقطنهـا الأكراد، وهي منطقة جبلية فسيحة تغطـي جنـوب شـرقي تركيا، وشمال شرقي العراق، وغرب إيران، وتمتد في نتوء محصور في شمال شرقي سوريا، أو هي الأرض التي تقـع بين سلسلة جبال بونتيك والقوقاز، وخطوط التماس الفارسي، وهضاب بلاد النهرين من جانب، وجبال طوروس والهضبة الإيرانية من الجانـب الآخـر، وتقـدر مسـاحتها بمـائتي ميل"[(٢٩٤)].

[(٢٩٤)] س. س. جافان، كردستان: أمة مقسمة في الشرق الأوسط، بدون ذكر اسم المترجم، أو الناشر، ١٩٦٣، ص ١٩.

ويقول الباحث الكردي عبد الرحمن قاسـملو أن الحـدود التقريبية لكردستان يمكن رسمها كالآتي: "يبدأ خـط مسـتقيم عند قمة أرارات في الشمال الشرقي، ينحدر جنوبا إلى الجزء الجنوبي من زاجروس ويشتكوه (في غرب إيران)، ومن تلك المنطقة نرسم خطًا مستقيما نحو الغرب إلى الموصـل فـي العراق، ثم خطًا مستقيما نحو الغرب يمتد من الموصل إلـى المنطقة الكردية من لواء الإسكندرونة، ومن تلك النقطة يمتد نحو الشمال الشرقي حتى أضروم في تركيا، ثم من أضروم يمتد الخط نحو الشرق إلى قمة أرارات. والمسـاحة الكليـة للأراضي الواقعة ضمن هذه الحدود ٤٠٩٦٥٠ كيلـو متـرا مربعا، ومن هذه المساحة يوجد ١٩٤٤٠٠ كيلو مترا مربعـا في تركيا، و١٢٤٩٥٠ في إيران، و٧٢٠٠٠ فـي العـراق، و١٨٠٠٠ في سوريا، وتقع كردستان بين خطى عرض ٣٠ و٤٠ شرقًا، و٣٧، ٤٨ غربا" [٢٩٥].

---

[٢٩٥] عزيز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الباحثين يميلون إلى الأخـذ بما ورد عن قاسملو بصدد مساحة كردستان [٢٩٦].

وفضلاً عما تقدم فإن ثمة اختلافًا واسعا بـين البـاحثين بصدد عدد الأكراد؛ إذ يذكر البعض أن عددهم يتراوح بـين ٣٠، و٣٥ مليون نسمة موزعين على النحو الآتي [٢٩٧]:

- تركيا: ويعيش بها عدد يتـراوح بـين (١٢، ١٦) مليون كردي.
- إيران: ويقطنها ما يتـراوح بـين (٦، ٨) مليـون كردي.
- العراق: ويبلغ عدد الأكراد داخلهـا مـن (٤، ٥) ملايين كردي.
- سوريا: وبها حوالي مليون ونصف المليون كردي.
- أرمينيا: وبها بضعة آلاف من الأكراد.

---

[٢٩٦] انظر في هذا الصدد مثلاً: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٤.

وكذا: التقرير الاستراتيجي العربي (١٩٩١)، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٠.

[٢٩٧] انظر في هذا الصدد: درية عوني، عرب وأكراد: خصام أم وئام، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٦.

ويذكر باحث آخر أن عدد الأكراد قد يبلغ عشرين مليونًا موزعين كالآتي [٢٩٨]:

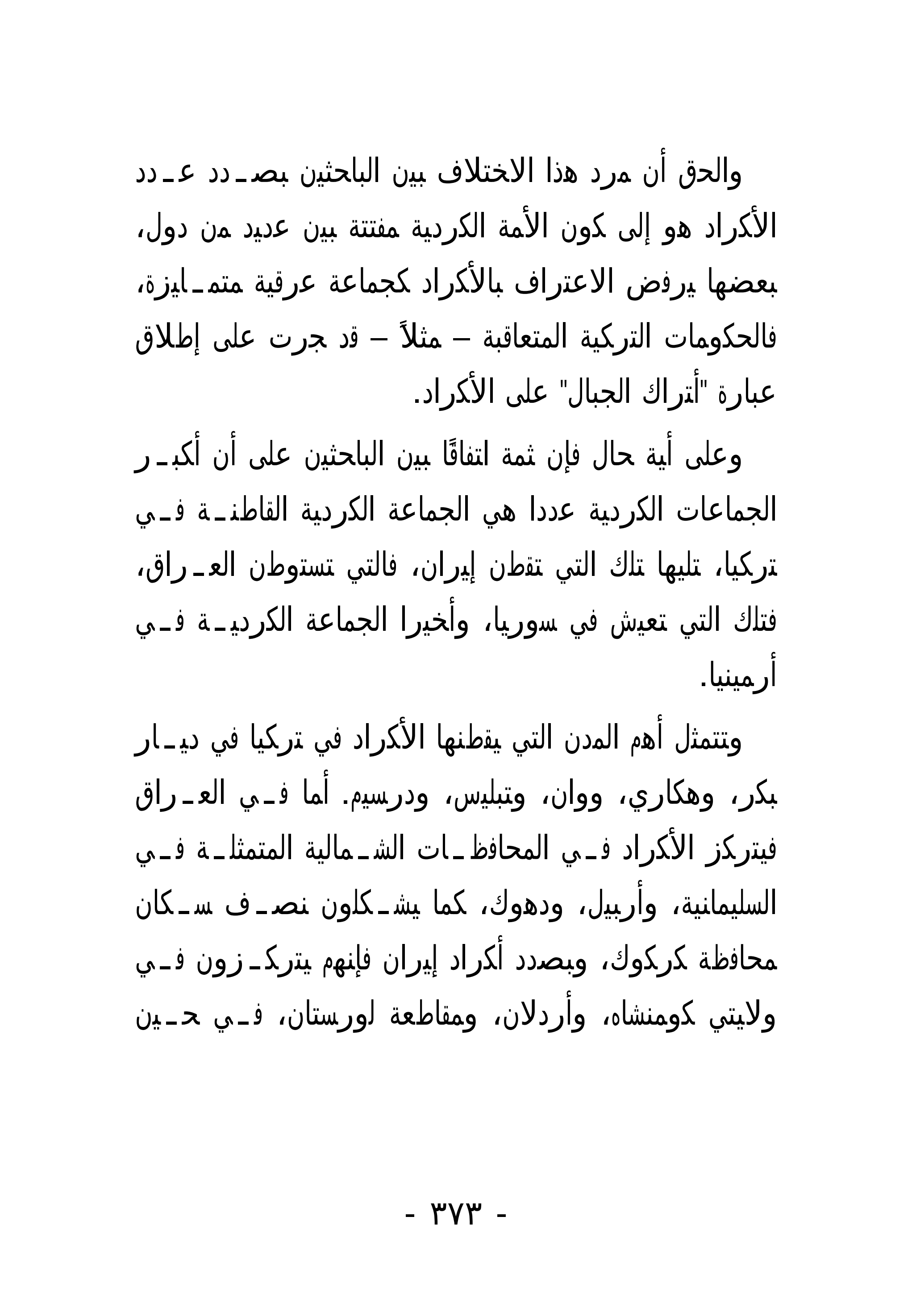
- تركيا: ويعيش بها عدد يتراوح بين (٩، ١٠) مليون كردي.
- إيران: ويوجد بها من (٦ إلى ٧) ملايين كردي.
- العراق: ويبلغ عدد الأكراد فيها ٣,٥ مليون كردي.
- سوريا: وبها مليون كردي.
- أرمينيا: ويبلغ عدد أكرادها ٤٥٠ ألف نسمة.

وثمة رأي ثالث – وليس أخيرا – بصدد تعـداد الأكـراد قوامه أن [٢٩٩]: عدد أكراد تركيا يتراوح بين ٧، ١٢ مليون نسمة، في حين يبلغ عدد أكراد العراق مليوني نسـمة، أمـا أكراد إيران فيبلغ عددهم كذلك مليوني نسمة، فـي حـين أن أكراد سوريا يصل عددهم إلى حوالي ٢٥٠ ألف نسمة، أمـا أكراد أرمينيا فيصل عددهم إلى ١٢٠ ألف نسمة.

---

[٢٩٨] عزيز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٩، ٢٣٠.

[٢٩٩] التقرير الاستراتيجي العربي (١٩٩١)، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٠، ١٤١.



والحق أن مرد هذا الاختلاف بين الباحثين بصدد عدد الأكراد هو إلى كون الأمة الكردية مفتتة بين عديد من دول، بعضها يرفض الاعتراف بالأكراد كجماعة عرقية متمايزة، فالحكومات التركية المتعاقبة – مثلاً – قد جرت على إطلاق عبارة "أتراك الجبال" على الأكراد.

وعلى أية حال فإن ثمة اتفاقًا بين الباحثين على أن أكبر الجماعات الكردية عددا هي الجماعة الكردية القاطنة في تركيا، تليها تلك التي تقطن إيران، فالتي تستوطن العراق، فتلك التي تعيش في سوريا، وأخيرا الجماعة الكردية في أرمينيا.

وتتمثل أهم المدن التي يقطنها الأكراد في تركيا في ديار بكر، وهكاري، ووان، وتبليس، ودرسيم. أما في العراق فيتركز الأكراد في المحافظات الشمالية المتمثلة في السليمانية، وأربيل، ودهوك، كما يشكلون نصف سكان محافظة كركوك، وبصدد أكراد إيران فإنهم يتركزون في ولايتي كومنشاه، وأردلان، ومقاطعة لورستان، في حين

يتركز أكراد سوريا في منطقة كرداح بولاية حلب، وكذا في لواء دير الزور، أما أكراد أرمينيا فيتركزون في بريفان[٣٠٠].

وتدين الغالبية العظمى من الأكـراد بالإسـلام، وتعتنـق المذهب السني، أما بصدد اللغة الكردية فهـي تنتمـي إلـى مجموعة اللغات الهندو أوربية والتي تضـم – إلـى جانـب الكردية – كـلاً مـن الفارسـية، والأفغانيـة، والبلوجيـة، والبشتونية، والطاجيكية، والأسيتينية [٣٠١]. ويـتكلم الأكـراد لغتهم بلهجات عديدة، أظهرهـا الكورمـانجي Kurmanji والصوراني Sorani. فالكور مانجي هـل لهجـة أغلبيـة الأكراد، ويتكلم بها أكراد تركيا، وسوريا، وبعـض أكـراد العراق، وأكراد أرمينيا. أما الصوراني فتتكلم بهـا غالبيـة أكراد إيران والعراق [٣٠٢].

---

[٣٠٠] راجع في هذا المضمون نفس المرجع السـابق، وكـذا: عزيـز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٠.

[٣٠١] درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧.

[٣٠٢] جافان، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.

٢- الحركات العرقية الكردية:

يستفاد مما سبق أن كردستان – في عصرنا – لا تعدو أن تكون كيانًا إقليميا ممزقًا بين عديد من الدول، علـى رأسـها تركيا، وإيران، والعراق. وتتعين الإشارة إلى أن هذا التقسيم قد تم على مرحلتين، كما أنه كان تقسيما تحكميا قام به أولئك الذين كانوا يحتلون كردستان، ويخضعون الأكراد لنيـرهم، وقد تمثلت أولى مراحل تمزيق الجسد الكردستاني في التقسيم الذي طاله غداة معركة جالديران (أوتشالديران)، التي اندلعت في ٢٣ أغسطس عام ١٥١٤ بين إيران الصفوية الشـيعية، وتركيا العثمانية السنية في عهد السلطان سليم الأول. فعلـى إثر تلك المعركة قسمت كردستان بـين الـدولتين، بحيـث حصلت تركيا العثمانية – التي انتصرت في الحرب – علـى الجزء الأكبر من كرستان [٣٠٣]. وقد تم إقرار هـذا التقسـيم بصورة نهائية بمقتضى اتفاقية ١٦٣٩ التي أبرمت بين الشاه الإيراني عباس، والسلطان العثماني مراد الرابع [٣٠٤].

---

[٣٠٣] انظر بصدد هذا التقسيم: صلاح بدر الدين، القضية الكرديـة والنظـام العالمي الجديد، رابطة كاوا للثقافة الكردية، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٢.

[٣٠٤] درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٣.

أما التقسيم الثاني الذي أصاب الجسد الكردستاني قـد تـم بمقتضى اتفاقية سايكس – بيكو السرية لعام ١٩١٦، والتـي بموجبها اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا على اقتسـام أقـاليم الإمبراطورية العثمانية، بحيث تحصل بريطانيا على أراضي الرافدين من خانقين شمالاً (كردستان الجنوبية) حتى الخلـيج العربي، وفي المقابل تحصل فرنسا علـى معظـم أراضـي سوريا الكبرى (سوريا ولبنان)، وجزءا من كردستان الشمالية الغربية (جنوب شرقي تركيا)، أما فلسـطين فقـد تقـرر أن تصبح كيانًا دوليا تحت الوصاية البريطانية. غير أن روسـيا قد علمت بفحوى اتفاقية سايكس – بيكو، لذلك فقد سـارعت كل من إنجلترا وفرنسا إلى ترضيتها بالموافقة على منحهـا الجزء الشمالي الغربي من كردستان [٣٠٥]، وهو الجزء الذي تنازلت روسيا عن معظمه لتركيا بمقتضى معاهدة برست – ليتوفسك لعام ١٩١٨، ومن جانب آخر فقد تنازلت فرنسا عن منطقة الموصل لبريطانيا بمقتضى اتفاقية وقعت بين الدولتين في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كما تنازلت فرنسـا عـن

---

[٣٠٥] انظر بصدد اتفاقية سايكس – بيكو: سعد الدين إبـراهيم، المـال والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٠.

منطقة ديار بكر الكردية لتركيا بموجب اتفاقية وقعـت بـين الدولتين في أنقره خلال شهر أكتوبر ١٩٢١ [٣٠٦].

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى والشروع في تسويات ما بعد الحرب لاحت للأكراد فرصة هائلـة لنيـل اسـتقلالهم، لا سيما وأن مبادئ ويلسون الأربعة عشر لعام ١٩١٨ كانت قد تضمنت نصا قوامه: "حق الشعوب الخاضـعة للسـلطان العثماني في تقرير مصيرها" [٣٠٧]. على أية حال ففـي ١٠ أغسطس ١٩٢٠ عقدت – في إطار تسويات ما بعد الحـرب – معاهدة سيفر، وهي المعاهدة التي انصب اهتمـام بعـض موادها على إيجاد حل للمسألة الكردية، ويتمثل أظهر هـذه المواد في المادتين (٦٢)، (٦٤)؛ حيث جـاء بالمـادة (٦٢) أنه: "تجتمع في الآستانة لجنة من ثلاثـة أعضـاء تعيـنهم حكومات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا على التوالي لتضع – في مدى ستة شهور من تاريخ بدء تنفيذ هذه المعاهدة – مشروعا للحكم الذاتي يتعلق بالمناطق التي للأكـراد فيهـا الأغلبيـة،

---

[٣٠٦] انظر في هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ٥٨، ٥٩.

[٣٠٧] انظر بصدد هذا النص: التقرير الاستراتيجي العربـي (١٩٩١)، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٠.

والتي تقع شرق الفرات، وجنوب الحدود الجنوبية لأرمينيـا (على ما ستقرر فيما بعد)، وشمال حدود تركيا وسوريا وبلاد النهرين" [٣٠٨].

أما المادة (٦٤) فقد ورد فيها: "إذا حدث خلال سنة مـن التصديق على هذه الاتفاقية أن تقدم الأكراد إلى عصبة الأمم طالبين الاستقلال عن تركيا، وإذا اعترفت العصـبة بأهليـة هؤلاء السكان في حياة مستقلة، فإن تركيا تتعهد بقبول هـذه التوصية، والتخلي عن كل حق في هذه المنطقـة، وسـتكون الإجراءات التفصيلية لتخلي تركيا عن هذه الحقوق موضوعا لاتفاقية منفصلة تعقد بين كبار الحلفاء وتركيا، وإذا مـا تـم تخلي تركيا عن هذه الحقوق، فإن الحلفـاء لـن يثيـروا أي اعتراض ضد أي قيام أكراد ولايـة الموصـل بالانضـمام الاختياري إلى هذه الدولة (أي الدولة الكردية)" [٣٠٩].

---

[٣٠٨] جافان، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦.

[٣٠٩] سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢١.

وهكذا فقد اعترف للأكراد لأول مرة – بمقتضى اتفاقيـة دولية – بوجودهم كشعب يتعين أن يكون له الحق في تقرير مصيره. غير أن الآمال التي علقها الأكراد على اتفاقية سيفر سرعان ما ذهبت أدراج الرياح. ففـي عـام ١٩٢٣ تمكـن مصطفى كمال أتاتورك من اعتلاء سدة الحكم فـي تركيـا، وإلغاء الخلافة الإسلامية. وما أن تحقق له ذلـك حتـى راح أتاتورك يرفض معاهدة سيفر، ويطالب بإلغائها. وبالفعل فقد وافق الحلفاء على إلغاء معاهدة سيفر، وراحوا يوقعون كبديل عنها اتفاقية لوزان مع تركيا الكمالية في يوليو ١٩٢٣، وهي الاتفاقية التي بمقتضاها احتفظت تركيا بكافة أراضيها (عـدا الأقاليم العربية). ولم تذكر اتفاقية لوزان أي شـيء بصـدد المسألة الكردية، الأمر الذي كان يعني عملاً بقاء كردسـتان مقسمة بين كل من تركيا، وإيران، والاتحاد السوفييتي (وهي دول مستقلة)، والعراق وسوريا (وهما وحـدتان سياسـيتان خاضعتان – آنذاك – للانتداب) [٣١٠]. وإذا كانت تركيا لـم تعترف – آنذاك – بضم العراق إلى ولاية الموصـل، غيـر

---

[٣١٠] المرجع السابق.

أنها عادت وأقرت هذا الضم بمقتضى معاهدة ثلاثية وقعتها مع بريطانيا والعراق في ٥ يونيو ١٩٢٦ [٣١١].

أ- الحركات العرقية الكردية في تركيا:

تتعين الإشارة – بداية – إلى أن الحركات العرقية الكردية في تركيا لم تكن وليدة هذا القرن، ذلك بأنه قد ظهر العديد من الحركات العرقية الكردية الانفصالية داخل تركيا خلال القرن التاسع عشر، بل وثمة حركة كردية انفصالية ظهرت في كردستان التركية في أواخر القرن الثامن عشر، وهي الحركة التي تزعمها عبد الرحمن باشا بابان، والتي قامت بانتفاضة استمرت خلال الفترة (١٨٧٧ – ١٩١٢).

وعلى أية حال فقد شهدت كردستان التركية خلال الفترة (١٧٨٨ – ١٩٣٩) ما يربو على خمس عشرة ثورة وانتفاضة وحركة مسلحة قام بها الأكراد طلبا للاستقلال، والتخلص من ربقة الأتراك [٣١٢]. وفيما يلي نعرض لأظهر هذه الحركات.

---

[٣١١] حامد محمود عيسى، المشكلة الكردية في الشرق الأوسط، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٧٠.

[٣١٢] صلاح بدر الدين، مرجع سبق ذكره، ص ١٤، ١٥.

انتفاضة ميـر محمـد فـي راونـدوز (١٨١٢ – ١٨٣٦):

وقد تمكن مير محمد حاكم راوندوز مـن تأسـيس قـوة مسلحة تسليحا جيدا، ثم راح يسعى إلى ضـم العديـد مـن المناطق الكردية إلى مقاطعتـه. وفـي عـام ١٨١٨ أعلـن استقلال المناطق الخاضعة لإمرته عن الدولة العثمانية، كمـا شرع في سك عملات ذهبية خاصة براوندوز كتعبيـر عـن استقلالها. وبحلول أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر كـان مير محمد قد بسط سلطته على أراض شاسـعة تمتـد مـن الموصل حتى الحدود الإيرانية، ثم ما لبث أن عقد العزم على ضم المناطق الكردية في إيران إلى أراضيه؛ حيـث نجـح بالفعل في ضم بعض هـذه المنـاطق. غيـر أن السـلطان العثماني سرعان ما أدرك الخطر الذي يمكن أن يحيق به في حالة قيام دولة كردية مستقلة فتية، لذلك فقـد جـيش جيشًـا ضخما، راح يهاجم قوات مير محمد التي أخذت تنهار شـيئًا فشيئًا أمام الزحف التركي، لكي يعلن مير محمد استسـلامه في نهاية عام ١٩٣٦، وتدخل القوات التركية راوندوز؛ حيث قامت بقتل حوالي عشرة آلاف كردي، وإحراق عدد كبير من

القرى، أما مير محمد فقد اقتيد إلى اسـطنبول؛ حيـث تـم إعدامه بأمر السلطان العثماني – آنذاك – محمود الثاني[٣١٣].

ثورة بدرخان (١٨٣٠ – ١٨٤٧):

وهي الثورة التي بلغت أوج عنفوانها خلال عامي ١٨٤٢، ١٨٤٣. وقد استهدفت هذه الثورة تحريـر كردسـتان مـن الدولتين العثمانية (التركية)، والقاجارية (الإيرانية)، وإقامـة دولة كردستان المستقلة. ولقد أدى رجال الـدين المسـلمين دورا بارزا في توجيه دفة هذه الثورة [٣١٤]، التـي تزعمهـا أميربوتان بدرخان، ذلك الزعيم الكردي الـذي سـعى إلـى الإفادة من حالة الاضطراب التي انتابت الأتراك علـى إثـر معركة نصيبين، التي خاضوها في مواجهة قوات محمد علي حاكم مصر. ففي ظل هذه الأوضاع راح بـدرخان يبسـط سيطرته على وان، والموصل، وسـوجبولاق، وأورومية، وديار بكر، كما تمكن بدرخان من إقامة محالفات مـع عـدد

---

[٣١٣] راجع في ذلك بالتفصيل: جليلي جليل وآخرون، الحركة الكرديـة في العصر الحديث، ترجمة: عبدي حاجي، دار الرازي، بيـروت ١٩٩٢، من ص ١٥ إلى ص ١٧.

[٣١٤] مازن بلال، مرجع سبق ذكره، ص ١٦١.

لا يستهان بها من زعماء الأكراد. وفضلاً عما تقدم فقد عمد الزعيم الكردي إلى الاقتداء بتجربة محمد علي في مصـر، بأن سعي إلى بناء جيش، وإنشاء مصانع للـذخيرة. بيـد أن الأتراك تمكنوا في النهاية من إخماد ثورة بدرخان، وتبديـد طموحاته في إنشاء الدولة الكردية المستقلة. وقد نفي بدرخان هو وأسرته إلى خارج كردستان عام ١٨٤٧ [٣١٥].

ثورة الشيخ عبيد ا النهري (١٨٧٨ – ١٨٨١):

وقد مهد الشيخ النهري لثورته بالعمل على توحيد رؤساء العشائر، وخلق أكبر إجماع كردي ممكن. كما تحالف النهري مع مسيحيي كردستان، والحركة القوميـة الأرمينيـة. ذلـك فضلاً عن أنه لم يحصر حركته في الكردستان العثماني، بل تجاوزها إلى كردستان إيران؛ حيث كان يرى – كما جاء في إحدى رسائله إلى الممثل البريطاني فـي نشـخال (التابعـة لتركيا) – أن: "الأمة الكردية هي أمة قائمة بذاتها، كمـا أن زعماء كردستان وقاطنيها، من مسلمين ومسيحيين، وسـواء

---

[٣١٥] انظر في هذا المضمون: حامد محمود عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٦، وكذا: محمد السماك، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩.

أكانوا خاضعين لتركيا أو لإيران إنما هم متحدون ومتفقـون على عدم قبول خضوعهم للحكومتين التركيـة والفارسـية". وأضاف النهري: "إننا نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا" [٣١٦].

وعلى أية حال فعلى الرغم من اتساع نطاق ثورة النهري وتعاظم شعبيته بين الأكراد فإن ثورته قد سحقت في النهاية، كما تم نفيه مع أسرته إلى مكة؛ حيث توفي عام ١٨٨٣[٣١٧].

ثورة الشيخ سعيد البيراني (١٩٢٣ – ١٩٢٥):

تُمثل ثورة الشيخ سعيد واحدة من أبرز الثـورات التـي شهدتها كردستان التركية خلال النصف الأول مـن القـرن الحالي. وقد أشعل الأكراد فتيل هذه الثورة في إطار تصديهم لجهود أتاتورك التي استهدفت تتريكهم؛ حيث كـان الـزعيم التركي قد عمد – غداة اعتلائه سدة الحكم في تركيـا عـام ١٩٢٣ – إلى اتخاذ جملة إجراءات معادية للأكراد؛ إذ حظر عليهم استخدام لغتهم، كما قام بنفي زعمائهم إلى مناطق بعيدة عن كردستان، وفضلاً عن ذلك فقد سعي أتاتورك إلى محـو

---

[٣١٦] انظر في هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٨.

[٣١٧] مازن بلال، مرجع سبق ذكره، ص ١٦١.

كلمة "أكراد" من الوجود، فراح يطلق على الأكـراد "أتـراك الجبال". وقد جاءت المادة ٨٨ مـن الدسـتور الجمهـوري التركي بمثابة إضفاء للطابع القانوني على إجراءات أتاتورك المتقدمة؛ إذ نصت هذه المادة على أن: "جميع سكان تركيـا هم أتراك، أيا كانت ديـانتهم، أو قـوميتهم". كمـا راحـت الصحف التركية – آنذاك – تؤكد على أنه "يجب على غيـر الأتراك أن يندمجوا في المجتمع التركي، وإلا تعـين علـيهم الرحيل" [٣١٨].

وفي مواجهة تلك الإجراءات التي استهدفت طمس هويتهم راح الأكراد يسارعون في تنظيم صفوفهم بغية الدخول فـي حلقة جديدة من حلقات كفاحهم المضني مـن أجـل تقريـر المصير. ففي أعقاب إعلان الجمهورية التركية بأيـام قليلـة كان الأكراد قد كونوا منظمة انفصالية عرفت بلجنة استقلال الكردي "آزادي". وراح الزعيم الكردي البارز سعيد البيراني (الشيخ سعيد) يجوب القرى في حملـة لتوعيـة الفلاحـين الأكراد بضرورة السعي إلى إقامة دولة كردية، والـتخلص

---

[٣١٨] انظر بصدد هذه الإجراءات: حامد محمود عيسى، مرجع سـبق ذكره، ص ٣٥٩.

من النير التركي، وشيئًا فشيئًا اندلعت الثورة في شتى أرجاء كردستان، وراحت قيادة الثورة تعلن في عام ١٩٢٤ عن قيام حكومة كردية مؤقتة [(٣١٩)]، وبحلول عام ١٩٢٥ كانت الثورة قد امتدت إلى أربع عشرة ولاية من ولايات شرق البلاد، كما تمكن الأكراد من حشد جيش قوامه عشرون ألـف مقاتـل، راحوا يقاتلون تحـت شـعارات انفصـالية حـال: "عـاش الاستقلال"، و"عاشت كردستان". وبمرور الوقـت تزايـدت أعداد القوات الكردية حتى بلغت ٤٠ ألف مقاتـل، وتمكـن الثوار من الاستيلاء على مناطق واسعة من كردستان، ثم ما برحوا أن راحوا يسعون إلى الاستيلاء على ديار بكر بغيـة إعلان دولتهم المستقلة. غير أن الحكومة التركيـة جابهـت الأكراد بقوات لا قبل لهم بها، وبالتالي فقـد فشـل الهجـوم الكردي على ديار بكر، وراح الشيخ سعيد يصـدر أوامـره لقواته بالانسحاب، وشيئًا فشيئًا ساءت أوضاع الثـوار، كمـا قامت قوات حكومية قوامها سبعون ألف مقاتل بمهـاجمتهم، وطردهم بمنأى عن ديار بكر، وبحلـول منتصـف إبريـل ١٩٢٥ قامت أعداد هائلة من القوات التركية بمحاصرة مـا

---

(٣١٩) انظر في هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠.

تبقى من قوات الأكراد في وادي كينجو، وسرعان ما انهارت مقاومة الأكراد، وتحطمت قواتهم. كما تم إلقاء القبض علـى الشيخ سعيد وعشرات من مساعديه [٣٢٠]. وفي أعقاب ذلـك قدم هؤلاء الزعماء للمحاكمة؛ حيث حكم على ٤٦ مـنهم – وعلى رأسهم الشيخ سعيد – بالإعدام [٣٢١].

يبقى أن نشير إلى أن ثورة الشيخ سعيد كانت من العنفوان بحيث شاركت في قمعها قوات تركية قوامهـا مـائتي ألـف مقاتل، تسلحوا بشتى أنواع الأسلحة، حتى أن سلاح الطيران التركي قد ساهم في إخماد الثورة. وفضلاً عما تقدم فقد كلفت ثورة الشيخ سعيد الميزانية التركية حوالي ٥٠ مليون ليـره، كانت تشكل – وقتذاك – ٢٥ % من جملة النفقات في تلـك الميزانية [٣٢٢].

---

[٣٢٠] راجع في هذا الصدد بالتفصيل: جليلي جليل وآخـرون، مرجـع سبق ذكره، من ص ١٣٧ إلى ص ١٤٤.

[٣٢١] جافان، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩.

[٣٢٢] جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٥.

انتفاضة آرارات (١٩٢٧ – ١٩٣١):

في أعقاب نجاح الأتراك في إخماد ثورة الشـيخ سـعيد راحت المنظمات الوطنية الكردية تتوحد تحت قيادة عناصـر كردية تعيش خارج كردستان؛ حيث ظهرت جبهـة كرديـة واحدة أطلق عليها اسم حزب خويبون. وقد قام هذا الحـزب بالتنسيق مع المنظمات والأحزاب الأرمينيـة التـي كانـت تناضل بدورها – آنذاك – مـن أجـل اسـتقلال الأرمـن الخاضعين لربقة الأتراك [٣٢٣].

وقد تمثل الهدف المحوري لحزب خويبون – والذي ضمنه برنامجه التأسيسي – في النضال ضد الأتراك حتى جلاء آخر جندي تركي من الأراضي الكردية المقدسة. وفي سبيل ذلك فقد وضع الحزب نصب عينيه تشكيل فصـائل كرديـة خاصـة وتدريبها وتسليحها بالأسلحة الحديثة. وبالفعل فقد تم تشكيل هذه الفصائل؛ حيث وضعت تحت قيـادة إحسـان نـوري باشـا، وسرعان ما بدأت قوات الأكراد نضالها من أجل بلوغ غايتهـا وقد نجحت هذه القوات خلال عامي ١٩٢٨ و١٩٢٩ في تحقيق

---

[٣٢٣] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٢.

انتصارات لا يستهان بها في مواجهة قوات الحكومة التركيـة. وبحلول بداية عام ١٩٣٠ كانت قد دانت للأكراد السيطرة على معظم الولايات الشمالية الشرقية. وإزاء ذلك راحت الحكومـة التركية ترسل تعزيزات هائلة إلى قواتها في المنطقة. واسـتعر أوار المعارك بين الجانبين طيلة عام ١٩٣٠. وبطبيعة الحال لم يكن بمقدور القـوات الكرديـة – ذات الإمكانـات التسـليحية المتواضعة – أن تصمد أمام جحافل الجيش التركي المدجـة بأحدث الأسلحة، وبالتالي فقد تمكن الأتراك بحلول عام ١٩٣١ من سحق قوات الأكراد، وإخماد انتفاضـتهم [٣٢٤]. يبقـى أن نشير إلى أن الهجوم التركي واسع النطاق على المناطق الكردية خلال انتفاضة آرارات قد أسفر – حسب ما ذكرتـه صـحيفة "زاريا فوستوكا" – عن تدمير زهاء ٢٠٠ قرية وبلدة كرديـة، ومصرع عدة آلاف من الثوار الأكراد، أما بصدد عدد الضحايا من المدنيين فقد تراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشـر ألـف شخص. وحسب إحصاءات لجنة خويبون فقد دمرت القـوات التركية ٦٦٠ قرية، وأحرقت ١٥٢٠٦ منازل [٣٢٥].

---

[٣٢٤] انظر في هذا المضمون بالتفصيل: جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، من ص ١٦٣ إلى ص ١٦٨.

[٣٢٥] المرجع السابق، ص ١٦٩.

وثمة ملاحظة أخيرة تجدر الإشارة إليها وهي أن الحكومة الإيرانية كانت – في بداية انتفاضة آرارات – تقدم مساعدات للثوار الأكراد، بيد أن الحكومة التركية نجحت في إقناع شاه إيران بالتخلي عن الأكراد، في مقابل أن يقدم الأتراك للإيرانيين تنازلات إقليمية في منطقة الحدود التركية الإيرانية. وبذلك فقد وقعت الدولتان اتفاقًا بمقتضاه أوقفت إيران مساعداتها للثوار الأكراد، كما قدمت مساعدات للقوات التركية في مواجهاتها مع الثوار، وفي المقابل قدمت تركيا للإيرانيين بعض التنازلات عند إعادة تخطيط الحدود بين الدولتين [٣٢٦]. وهكذا فإن الحركة العرقية الكردية كانت لها آثار دولية طالت العلاقات بين الدولة المعنية بها.

ثورة درسيم (١٩٣٦ – ١٩٣٨):

وقد اندلعت هذه الثورة بزعامة سيد رضا بغية التصدي لمحاولات تتريك منطقة درسيم الكردستانية؛ حيث تمكن رضا مع بداية عام ١٩٣٧ من إقناع العديد من العشائر الكردية بالانضواء تحت قيادته، الأمر الذي هيأ له تأسيس

[٣٢٦] انظر في هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ١٣١.

جيش كردي قوامه ٣٠ ألف مقاتل، راحـوا يصـبون جـام غضبهم على القوات التركية، كما قـاموا بتـدمير الجسـور والطرق وخطوط التلغراف [٣٢٧]. غير أن عام ١٩٣٧ شـهد حدثين كان من شأنهما تحطيم الـروح المعنويـة للأكـراد، وإضعاف بأسهم. وقد تمثل الحدث الأول في تمكن الحكومـة التركية من اعتقال سيد رضا ثم إعدامه، أما الحدث الثاني قد تمثل في التوقيع على معاهدة سعد آباد في يوليو ١٩٣٧ من جانب حكومات كل من تركيا وإيران والعراق، تلك المعاهدة التي اتفقت الدول الثلاث بمقتضاها على اتخاذ تدابير مشتركة والوقوف صفًا واحدا في مواجهـة الخطـر الكـردي [٣٢٨]. وهكذا فقد كانت للحركة العرقية الكردية – دوما – آثار هامة على العلاقات بين الدول المعنية بها.

---

[٣٢٧] انظر في هذا المضمون: جليلي وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٨١.

[٣٢٨] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٨١، ١٨٢.

على أية حال فإنه على الرغم مما تقدم فقد واصل الأكراد نضالهم في مواجهة الأتراك واضطر الجيش التركـي إلـى استخدام الغازات السامة على نطاق واسع، كما عمد الأتراك إلى استخدام سلاحي المدفعية والطيـران بكامـل رجالهمـا وعتادهما في محاصرة الثوار الأكراد داخـل درسـيم [٣٢٩]. وبحلول شهر يوليو عام ١٩٣٨ شهدت درسيم معارك طاحنة بين الجيش التركي والثوار الأكراد، وقد اسـتمر الصـراع الدامي بين الفريقين إلى أن تمكن الأتراك من إخمـاد ثـورة درسيم تماما بحلول شهر أكتوبر عام ١٩٣٨ [٣٣٠]. وعلـى إثر ذلك انتقم الجيش التركي من سكان درسيم انتقاما عنيفًـا؛ حيث قام بإحراق الغابات، والقرى، وقتل آلاف المدنيين، كما اضطرت مئات أخرى إلى الانتحار الجماعي غرقًا في نهـر منذور خوفًا من بطش الأتراك. ويقدر البعض خسائر الأكراد في نضـالهم ضـد الأتـراك خـلال عقـدي العشـرينيات

---

[٣٢٩] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٢.

[٣٣٠] انظر في هذا المضمون: جليلي جليل وآخـرون، مرجـع سـبق ذكره، ص ١٨٣.

والثلاثينيات بمئات الآلاف من القتلى. وفضلاً عن ذلك فقد تم اجتثاث زهاء مليون ونصف المليون كردي من كردستان وتوطينهم في أواسط الأناضول. وحتى لا تقوم للمقاومة الكردية قائمة مرة أخرى فرضت السلطات التركية على المنطقة الكردية حصارا دام إلى عام ١٩٥٠. كما حظرت دخول الأجانب إلى هذه المنطقة خلال الفترة (١٩٣٩ – ١٩٦٥). وفوق ما تقدم فقد محيت من قواميس اللغة التركية كلمات "أكراد"، و"كردستان"، و"لغة كردية"، وظلت الحكومة التركية على نهجها في الإشارة إلى الأكراد بأتراك الجبال[٣٣١].

---

[٣٣١] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

الحركة العرقية الكردية المعاصرة في تركيا:

تتعين الإشارة – بداية إلى أن كردستان التركية قد شهدت هدوءا نسبيا خلال العقود الأربعة اللاحقة لثـورة درسـيم، بحيث خلت الفترة (١٩٤٠ – ١٩٨٠) من وجود أية حركـة عرقية كردية يعتد بقوتها؛ إذ اتسمت كافة المنظمات الكردية التي ظهرت خلال تلك الفترة بالضعف المتناهي، بحيث لـم يكن بمقدورها التصدي للقبضة الحديدية التي أطبقـت بهـا الحكومة التركية على كردستان خلال العقود التاليـة لثـورة درسيم [٣٣٢]. غير أنه بحلول عقد الثمانينيات طفـت علـى سطح الحياة الكردية منظمة انفصالية راحت تجب بقوتها قوة ما عداها من تنظيمات كردية، وتتمثل هذه المنظمة في حزب العمـال الكردسـتاني Partiya Karkaren Kurdiistan (PPK)، ذلك الحزب الذي تأسس على يد الزعيم الكـردي عبد ا أوجلان Abdullah Oculan، ووضـعت اللبنـات الأولى في بنيته خلال عقد التسعينيات، وإن كان أوجلان قـد اضطر مع بداية عقد الثمانينيات إلى الفرار إلى لبنان؛ حيث

---

[٣٣٢] انظر في هذا المضمون على سبيل المثال: المرجع السابق.

بدأ في إعداد ميلشيات عسكرية كردية راحت تتسلل بمساعدة سوريا إلى كردستان التركية، وأخـذت فـي شـن حـرب عصابات شعواء في مواجهة الأتراك [٣٣٣]. وسـرعان مـا تعاظمت قاعدة الحزب في كردسـتان التركيـة، وبلـغ أوج عنفوانه في عام ١٩٨٤؛ حيث اتسع نطاق كفاحه المضـني من أجل انفصال كردستان عن تركيا، وإقامة دولـة كرديـة مستقلة. ويتوسل حزب العمال الكردستاني في سـبيل بلـوغ هدفه بحرب العصابات، التي تعتمد على أسلوب الكر والفر. وكما سبق أن أشرنا فقد قام الحـزب خـلال عـام ١٩٩١ بحوالي ٨٠١ عملية مسلحة في مواجهة قوات الجيش التركي ومنشآته، في حين بلغ عدد العمليات التي قام بها الحزب عام ١٩٩١ حوالي ١٦٥ عملية. أما عام ١٩٩٢ فقد شهد ٣٥٨٣ عملية عنف قامت بها ميلشيات حزب العمال الكردستاني في مواجهة الأتراك. وفي عام ١٩٩٣ قامـت هـذه الميلشـيات بحوالي ٢١٦١ عملية، في حين بلغ عدد عملياتها فـي عـام

---

(٣٣٣) Gunter, Michael M., The Kurdish Problem in Turkey. The Middle East Journal, Summer, ١٩٨٨, pp. ٣٩٤ – ٣٩٧.

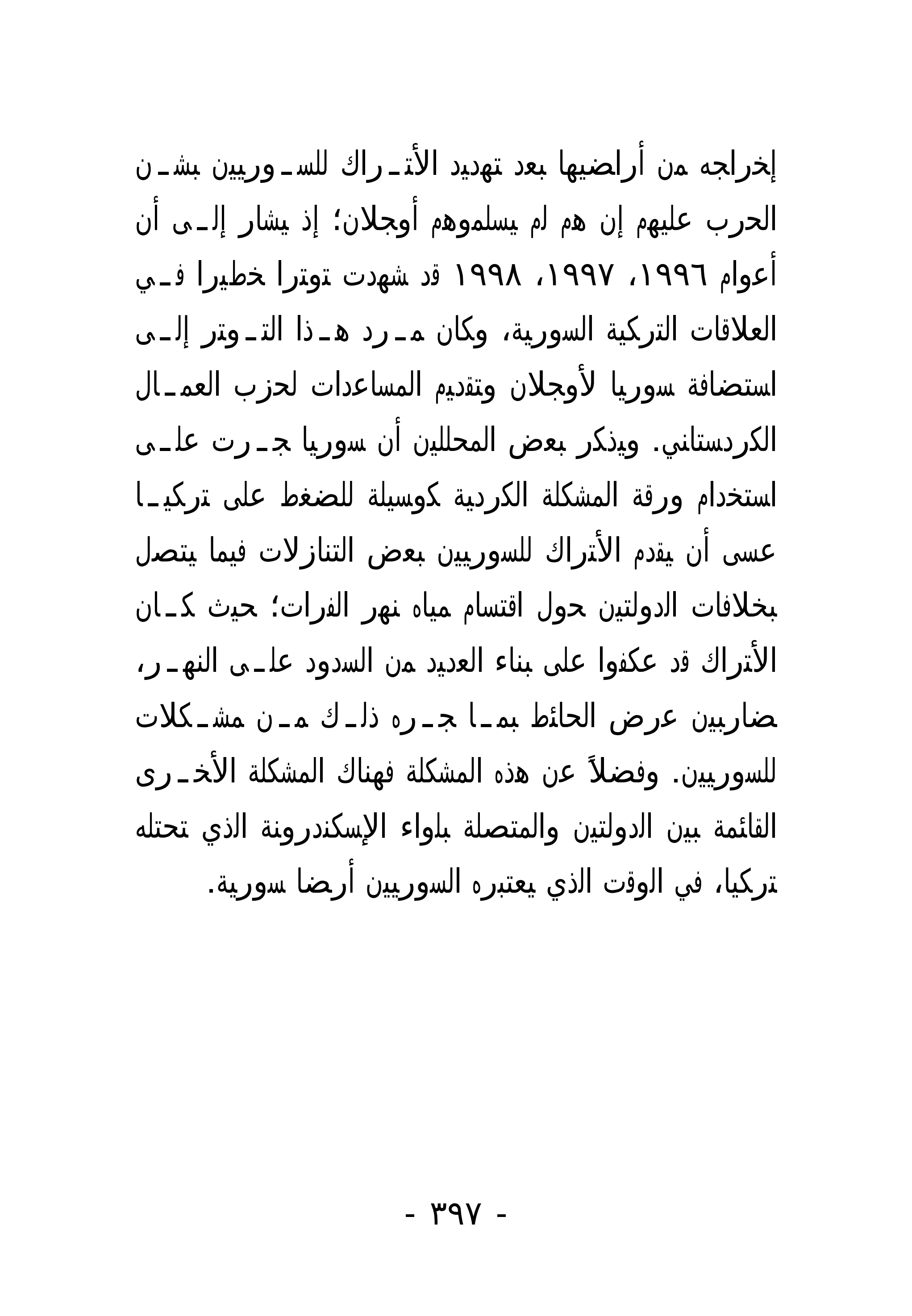
١٩٩٤ حوالي ١٨٨١ عملية. وبطبيعة الحال قد كلفت هـذه العمليات الحكومة التركية آلاف الملايين من الليرات [(٣٣٤)].

وفضلاً عما تقدم يقوم حزب العمال الكردستاني من حين إلى آخر بمهاجمة المباني والمنشـآت التركيـة الموجـودة بالخارج، فعلى سبيل المثال قام أتباع الحزب – فـي يونيـو ١٩٩٣ – بهجمات مسلحة طالـت السـفارات والقنصـليات والمصارف التركية في أكثر من ثلاثين مدينة داخل كل مـن ألمانيا، وفرنسا، وسويسرا، والدانمارك، والسويد [(٣٣٥)].

ومهما يكن من أمر ما تقدم فإن حزب العمال الكردستاني تلقى في فبراير ١٩٩٩ ضربة ساحقة أضعفت إلى حد كبيـر من قدراته العسكرية والتنظيمية، ففي منتصف ذلك الشـهر تمكنت المخابرات التركية – بمساعدة أمريكية إسـرائيلية – من القبض على عبد ا أوجلان في كينيا، تلك الدولة التـي كان قد دخلها قادما من إيطاليا التي كان قـد وصـلها إثـر خروجه من ملاذه الأصلي في سوريا، التي اضـطرت إلـى

[(٣٣٤)] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم (محـرر)، الملـل والنحل...، (تقرير ١٩٩٥)، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٨.

[(٣٣٥)] سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٤.



إخراجه من أراضيها بعد تهديد الأتـراك للسـوريين بشـن الحرب عليهم إن هم لم يسلموهم أوجلان؛ إذ يشار إلـى أن أعوام ١٩٩٦، ١٩٩٧، ١٩٩٨ قد شهدت توترا خطيرا فـي العلاقات التركية السورية، وكان مـرد هـذا التـوتر إلـى استضافة سوريا لأوجلان وتقديم المساعدات لحزب العمـال الكردستاني. ويذكر بعض المحللين أن سوريا جـرت علـى استخدام ورقة المشكلة الكردية كوسيلة للضغط على تركيـا عسى أن يقدم الأتراك للسوريين بعض التنازلات فيما يتصل بخلافات الدولتين حول اقتسام مياه نهر الفرات؛ حيث كـان الأتراك قد عكفوا على بناء العديد من السدود علـى النهـر، ضاربين عرض الحائط بمـا جـره ذلـك مـن مشـكلات للسوريين. وفضلاً عن هذه المشكلة فهناك المشكلة الأخـرى القائمة بين الدولتين والمتصلة بلواء الإسكندرونة الذي تحتله تركيا، في الوقت الذي يعتبره السوريين أرضا سورية.

على أية حال فإنه في ظل التهديد التركي بإعلان الحرب على سوريا وتوتر العلاقات بين الدولتين ووصـولهما إلـى حافة الحرب؛ اضطرت سوريا إلى إخـراج أوجـلان مـن أراضيها وإن كانت لم تسلمه إلى تركيا. وقد غادر الـزعيم الكردستاني الأراضي السورية وراح يتنقل بين عديـد مـن الدول (منها روسيا واليونان وإيطاليا) حتى تم القبض عليـه في كينيا على نحو ما قدمنا. وفي ظل ضغوط شعبية تطالب بإعدامه تمت محاكمة أوجلان في تركيا؛ حيث قضت محكمة الاستئناف في أواخر نوفمبر ١٩٩٩ بتأييد حكم محكمـة أول درجة بإعدامه. والحق أن عمليـة القـبض علـى أوجـلان ومحاكمته صاحبتها آثار دولية هامة؛ إذ على إثـر القـبض عليه توتر إلى حد كبير العلاقات بين تركيا وكل من اليونان وإيطاليا اللتين أثار الأتراك إيواؤهما لأوجلان إثر خروجـه من سوريا، وقد وصل التوتر ذروته عندما انطلقت حنـاجر الأتراك بعبارات تهديدية لاذعة إزاء الدولتين.

على صعيد آخر فإن الحكم بإعدام الزعيم الكردي قد أثار استياء وغضب دول الجماعة الأوربية إزاء الأتراك، وراحت الجماعة الأوربية تهدد تركيا بأن فرصتها في الانضمام إلى الجماعة ستكون في حكم المنعدمة لو أن الأتراك أقدموا على تنفيذ حكم الإعدام الذي تجرمه الجماعة الأوربية، وتعتبره اعتداء بالغًا على حقوق الإنسان. ومن المعروف أن تركيا تسعى حثيثًا منذ عقود لاسترضاء الجماعة الأوربية عساها ترضى وتقبل بمنح الأتراك عضويتها. وفي ظل هذه الضغوط لم يكن أمام الحكومة التركية سوى الإذعان لمطالب الجماعة الأوربية؛ إذ راح رئيس الوزراء التركي بولنت أجاويد يعلن في بداية عام ٢٠٠٠ تأجيل تنفيذ حكم الإعدام في أوجلان إلى أجل غير مسمى. وبرر أجاويد ذلك بأن المصلحة العليا للبلاد تقتضي مثل هذا القرار، برغم تعارضه مع المطالبات الشعبية واسعة النطاق بإعدام الزعيم الكردستاني.

وهكذا فإن الحركة العرقية الكردية في تركيا كانت لها دوما آثارها الدولية على الرغم من كونها حركة داخلية.

ب- الحركة العرقية الكردية في إيران:

لقد قام الأكراد الخاضعون للنير الإيراني – خلال القرن الراهن – بالعديد من الثورات التي استهدفت الحصول على حق تقرير المصير. وفيما يلي نعرض لأظهر هذه الثورات.

ثورة إسماعيل أغا سيمكو (١٩٢٠ – ١٩٢٥):

كان سيمكو يمثل – وقت قيامه بثورته هذه – رئيسا لقبيلة الشيكاك. وقد استطاع هذا الزعيم الكردي أن يجند تحت إمرته زهاء ٤٠ ألفًا من أبناء قبيلته [٣٣٦]، راحوا جميعا يقاتلون من أجل إقامة دولة كردستان المستقلة عن إيران. وقد تمكنت قوات سيمكو من بسط سيطرتها على سائر الأراضي الكردية الواقعة غرب بحيرة أورمية، والتي تضم مدن مهاباد، وماكو، وخوي، وقوتور، وديلمان، وسقز، وسردشت، وبانه، وبوقان، وفي أعقاب ذلك راح سيمكو يعمل على إعادة تشكيل جيشه بغية تحويل الفصائل الإقطاعية الكردية المتطوعة الخاضعة لقيادته إلى وحدات عسكرية نظامية، كما تمكن الزعيم الكردي من بناء ترسانة

---

[٣٣٦] انظر في هذا المضمون: حامد محمود عيسى. مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٨.

أسلحة يعتد بها، ثم ما لبث أن نصب نفسه ملكًا على كردستان، وقام بتشكيل حكومة كردية، راحت تسعى إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول الأجنبية، كما قامت هذه الحكومة بإصدار مجلة كردستان لكي تكون بمثابة لسان حالها [٣٣٧].

وعلى صعيد آخر فقد راح سيمكو يدعو إلى استقلال سائر الأقاليم الكردية التي تحتلها الدول المجاورة الأخرى، لذلك فقد عمد إلى الاتصال بالقيادات الكردية الأخرى في كل من تركيا، والعراق، بغية تنسيق نضال الأكراد قاطبة في سبيل إقامة كردستان المستقلة الموحدة [٣٣٨].

---

[٣٣٧] انظر في هذا المضمون: جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٢.

[٣٣٨] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٣.

وعلى أية حال فإن قوات سيمكو لم تتمكن من الصمود طويلاً أمام جحافل القوات الإيرانية التي راحت تجتاح المناطق الكردية، وسرعان ما انهارت مقاومة الأكراد لا سيما وأن ثمة قوات تركية قد شاركت القوات الإيرانية في دحرهم. ويمكن القول بأن ثورة سيمكو قد فقدت جل عنفوانها خلال النصف الأول من عقد العشرينيات، ومع ذلك فإن إسماعيل سيمكو – الذي كان قد تمكن من الفرار إلى خارج إيران – ظل يحاول محاولات يائسة لحشد الأكراد حول قضية استقلال كردستان. وقد ظل سيمكو يناضل من أجل القضية الكردية حتى عام ١٩٣٠، عندما نجحت عملية كانت الحكومة الإيرانية قد دبرتها لاغتياله.

حركة القاضي محمد وإنشـاء جمهوريـة مهابـاد الكردية المستقلة (١٩٤٥ – ١٩٤٦):

كانت جيوش الحلفاء قد دخلت الأراضي الإيرانية أثنـاء الحرب العالمية الثانية. وقد راحت القوات السوفييتية تعمـد إلى حث الأقليات في المناطق الإيرانية الخاضعة لهـا علـى السعي إلى تقرير مصيرها. وفي عام ١٩٤٥ – وبتشجيع من السوفييت – أنشأ الأذربيجانيون دولـة مسـتقلة فـي إقلـيم أذربيجان الإيراني [٣٣٩]. وفي أواخر عام ١٩٤٥ نشـأ فـي كردستان الإيرانية حزب سياسي راح يتبنى القضية الكردية، ألا وهو الحزب الديمقراطي الكردستاني، وقد تـزعم هـذا الحزب القاضي محمد قاضي مهاباد [٣٤٠]. وفـي ٢٢ ينـاير ١٩٤٦ – ومن خلال اجتماع كردي حاشد شهده ميدان جوار جرا (المشاعل الأربعة) – أعلن القاضي محمد قيام جمهورية مهاباد الكردية التي تتمتع بالحكم الذاتي فـي إطـار الدولـة الإيرانية، وذلك استنادا إلى مبدأ حق الشـعوب فـي تقريـر

---

[٣٣٩] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

[٣٤٠] جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠١.

مصائرها، وباعتبار أن الأكراد يمثلون شعبا قائمـا بذاتـه، يعيش على أرضه [٣٤١].

وقد ضمت الجمهورية الكردية الوليدة منـاطق مهابـاد، وشنو، ومياندواب، وسردشت، وبانه، وسقز، وسنندج. أمـا فيما يتصل بحكومة الجمهورية فقد أصبح القاضـي محمـد رئيسا لها، كما تشكلات حكومة ضمت ثلاثة عشر وزيرا[٣٤٢]، وقام الأكراد بتأسيس جيش كردي منفصل عن المقاتلين مـن رجال القبائل [٣٤٣].

وقد كتب القاضي الأمريكي و. دوجلاس عن جمهوريـة مهاباد قائلاً: "لقد عادت التقاليد الكردية التي كان قد ألغاهـا الشاه، وأعدت المدارس لكل طفل حتى الصـف السـادس، وأعدت الكتب لطلاب المدارس الأوليـة باللغـة الكرديـة، وصدرت صحيفة يومية كردية باسم "كردستان"، كما صدرت مجلتان أدبيتان، وأعد الدستور الذي نص على دولة كرديـة

---

[٣٤١] انظر في هذا المضمون: درية عوني، مرجع سـبق ذكـره، ص ١٤٥، ١٤٦.

[٣٤٢] جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٣.

[٣٤٣] حامد محمود عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠٠.

جمهورية الطابع، وطالب الدستور الحكومـة بالـدفاع عـن مصالح العامل الكردي، وتنظيم الاتحادات العمالية. كما نص الدستور على أن الناس يجب أن يمكنوا من التعلـيم بغـض النظر عن الجنس والدين، وأعلن الدسـتور أنـه يجـب أن تحصل النساء على كـل الحقـوق السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية التي للرجـال، كمـا حـرم الربـا بمقتضـى الدستور"[٣٤٤].

على أية حال فإن جمهورية مهاباد لم يدم عمرها أكثر من عام؛ إذ بمجرد انسحاب القوات السوفييتية من شمال إيران – مع نهاية عام ١٩٤٦ – زحفت قوات الحكومة الإيرانية نحو الجمهورية الكردية (وكذا الجمهورية الأذربيجانية)، وتمكـن الإيرانيون من القبض على زعماء جمهورية مهاباد وإبـادة الآلاف من سكانها، وسرعان ما حوكم الزعماء الأكراد، وتم إعدام القاضي محمد ووزير دفاعه [٣٤٥]. لكي تزول بذلك – من الوجود – الجمهورية الكردية الوليدة في مهاباد.

---

[٣٤٤] جافان، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦، ٥٧.

[٣٤٥] سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٤.

انتفاضة الأكراد غداة نجاح الثورة الإسلامية في إيران:

شهدت العقود الثلاثة التي تلت انهيار جمهورية مهاباد انتهاج الشاه للعديد من السياسات المتشددة إزاء الأكراد، بغية وأد كل نزعة استقلالية لديهم؛ إذ عمد الشاه إلى استخدام كافة وسائل سياسة الصهر القسري، وتهجير الأكراد إلى مناطق البلاد الأخرى، فضلاً عن قيام الشرطة السرية الإيرانية باعتقال الزعماء الأكراد، والزج بهم في غياهب السجون، وتعريضهم لشتى صور التعذيب. وعلى الرغم من ذلك فإن الحزب الديمقراطي الكردستاني لم يتوقف عن نضاله في سبيل رفع الوعي السياسي لدى الأكراد، وتذكيرهم دوما بغايتهم الرئيسية والمتمثلة في إقامة كردستان المستقلة [٣٤٦]. ومع اندلاع الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩ راح الأكراد يساندون الثوار ضد العدو اللدود للفريقين وهو الشاه. وقد كان الأكراد وقتذاك يعلقون آمالاً كبارا على الحكام الجدد في طهران؛ إذ كانوا يعتقدون أن موقف هؤلاء الحكام من

[٣٤٦] انظر في هذا المضمون: جليلي وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٤.

القضية الكردية سيختلف جذريا عن موقف سلفهم الشاه [٣٤٧].

وبنجاح الثورة واعتلاء الإسلاميين سدة الحكم فـي طهـران خـلال شـهر فبرايـر ١٩٧٩ راح الحـزب الـديمقراطي الكردستاني يعقد اجتماعا حاشدا في مهاباد، ليعلن من خلاله ظهوره إلى العلن. كما أكد قادة الحزب – وعلى رأسهم عبد الرحمن قاسملو – أنهم سيعملون على إقناع السلطة الجديـدة في طهران بتقديم تنازلات للأكراد [٣٤٨]. وفي إطـار هـذا المناخ المفعم بالمشاعر القومية كانت فصائل الثوار الأكـراد المسلحة – وعلى رأسها البيشمركة – قد بسـطت إشـرافها على مساحات واسعة من أراضي كردستان إيـران، بحيـث قامت المجالس الثورية بممارسة سلطتها داخل هذه المـدن، وراحت الإذاعة تبث برامجها باللغة الكرديـة داعيـة إلـى النضال في سبيل الحكم الذاتي للأكراد فـي إطـار الدولـة الإيرانية، وأضحى الشعار الذي رفعه الحزب الـديمقراطي الكردستاني في نضاله يتمثل في: "الديمقراطية لإيران والحكم

---

[٣٤٧] انظر في هذا المعنى: حامد محمد عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٤١٨، ٤١٩.

[٣٤٨] المرجع السابق، ص ٤٢.

الذاتي لكردستان" [٣٤٩]. ومن جانب آخر فقـد راح الحـزب يصيغ مشروعا للحكم الذاتي بغية تقديمه للحكومة الإسـلامية في طهران، وقد تمثل أظهر بنود هذا المشروع في ضرورة أن يسجل في الدستور الإيراني كون كردستان منطقة تتمتـع بالحكم الذاتي، فضلاً عن تعيين حـدودها، وقيـام سـكانها بانتخاب مجلس عمومي لإدارة شئونها الداخلية، وجعل اللغة الكردية – إلى جانب اللغة الفارسـية – لغـة رسـمية فـي كردستان، وأن تصبح كافة الشئون الداخلية الكردستانية – بما فيها الأمن – تحت إشراف أجهزة الحكم الذاتي المحلية [٣٥٠].

ومهما يكن الأمر فإن الآمال الكبار التي كـان الأكـراد يعلقونها على حكومة الثورة – فيما يتصل بمـنحهم الحكـم الذاتي – سرعان ما ذهبت أدراج الريـاح، وأثبـت الواقـع طوباويتها. ففي ٢٨ مارس عام ١٩٧٩ توجد وفـد كـردي برئاسة قاسملو إلى قم بغية عرض مطالب الأكراد على آيـة ا خوميني، وخلال الاجتماع مع الزعيم الإيرانـي فـوجئ الزعماء الأكراد بما لم يكن في حسبانهم؛ إذ رفض خـوميني

---

[٣٤٩] جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٥.

[٣٥٠] المرجع السابق نفسه.

تماما فكرة منح الأكراد حكما ذاتيا فـي إطـار الجمهوريـة الإسلامية [٣٥١]. والحق أن الزعيم الإيراني كان يرفض أيـة نعرة عرقية؛ إذ كان يؤمن فحسب بفكـرة التضـامن بـين المسلمين أيا كانت سلالتهم. فإذا كان الأكراد مسلمين فعن أي حكم ذاتي يتحدثون إذن؟

على أية حال فإنه برفض الخـوميني لمطالـب الأكـراد المتصلة بالحكم الذاتي اندلعت المصادمات بـين البيشـمركة الكردية والحرس الثوري الإيراني بدءا من شهر أبريل عـام ١٩٧٩، وراح الحزب الديمقراطي الكردستاني يسـعى إلـى تعبئة الأكراد في سبيل النضال من أجل نيل حقهم في تقرير المصير [٣٥٢]. وفي صيف عام ١٩٧٩ شملت المصـادمات كل من مهاباد، وسـنندج، وبوقـان، وبانـه، وسردشـت، وأورمية، وكاميران، ومريوان. وبحلول شهر أغسطس جرت معارك ضارية بين القوات الحكومية والثوار شملت جميـع المناطق التي يسكنها الأكراد بما فيها المدن الكبيـرة مثـل:

---

[٣٥١] انظر في هذا المعنى: حامد محمود عيسى، مرجع سـبق ذكـره، ص ٤٢٠، ٤٢١.

[٣٥٢] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٤٢٢.

بانه، وباوة، وسقز، ومياندواب، وغيرها. وقـد اسـتخدمت قوات الجيش الإيراني – خلال هذه المعـارك – الطيـران، والدبابات، والمعدات الصاروخية في مواجهة الأكراد علـى نطاق واسع[(٣٥٣)].

وبحلول شهر مايو عام ١٩٨٠ اشتد القتال في كردستان، وتعرضت مدينة سنندج للقصف الجوي بطائرات الفـانتوم، وبالتالي فقد ألحقت خسائر فادحة بالسكان المدنيين وبالمدينـة نفسها [(٣٥٤)]. وقد استمرت المعارك الطاحنة بـين الجـانبين الإيراني الكردي حتى أواخر عـام ١٩٨٠، عنـدما دانـت لجحافل الحكومة الإيرانية السـيطرة علـى معظـم المـدن الكردستانية. في حين فرت فلول القوات الكردية إلى المناطق الجبلية لتبدأ في اللجوء إلى حرب عصابات طويلة الأمد في مواجهة قوات الحكومة الإيرانية لكي تتضـاءل بـذلك قـوة الحركة العرقية الكردية في إيران. والحق أن السياسة التـي انتهجتها الحكومة الإسلامية في طهـران بصـدد المسـألة الكردية كان لها أعظم الأثر في إضعاف موقف الاستقلاليين

[(٣٥٣)] جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

[(٣٥٤)] حامد محمود عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٢.

الأكراد. ذلك بأن هذه السياسة لم ترتكز إلى مجرد اسـتخدام القوة الغاشمة، وإنما بنيت كذلك علـى اسـتخدام "الفكـرة"؛ إذ راحت الحكومة الإيرانية ترسل رجال الدين المسلمين إلى المناطق الكردستانية بغية الـدعوة إلـى فكـرة التضـامن الإسلامي كبديل للفكرة العرقية. ومؤدى فكرة التضامن هـذه أن المسلمين أخوة أيا كانت سلالتهم، وبالتالي فإنه يتعين على الأكراد – الذين هم مسـلمون – أن يوقفـوا حـربهم ضـد الحكومة الإيرانية "الإسلامية".

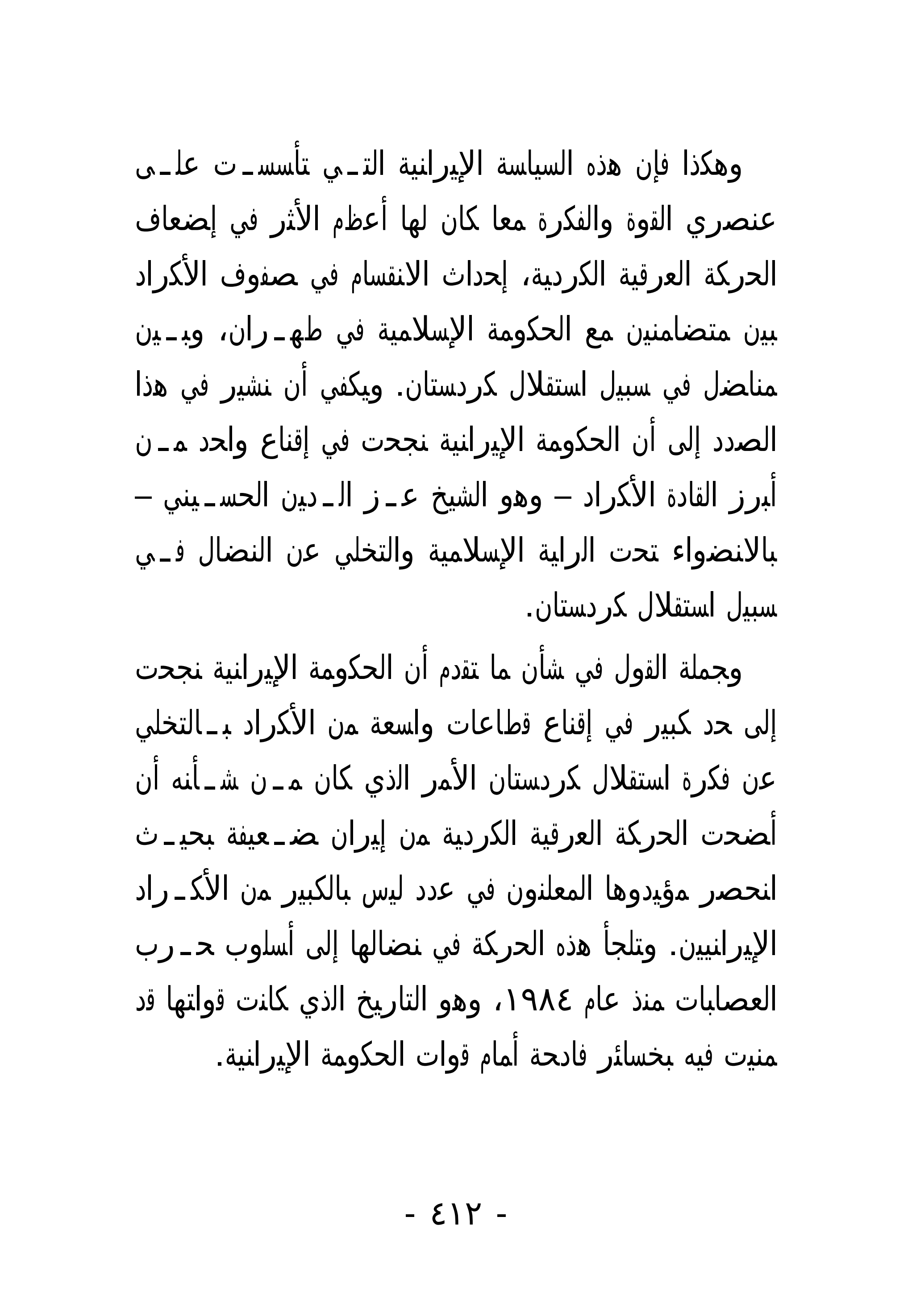
من جانب آخر فقد راحت الصحافة الإيرانية تدعو إلـى ترسيخ فكرة التضامن الإسلامي بمضمونها المتقـدم، فعلـى سبيل المثال نجد أن صحيفة "اطلاعات" راحت تؤكـد علـى أن: "عامل تضافر الإيرانيين ووحدتهم لم يكن أبدا اللغة ولون البشرة ومبدأ التوزيع السكاني والتقاليد والثقافة، وإنما كـان الإسلام"، وأضافت الصـحيفة: "إن الحاجـة إلـى العدالـة الإسلامية وتطبيق الحكم الإسلامي كان الدافع الذي أدى دوما إلى تكاتف الشعوب الإيرانية مع بعضها البعض" [٣٥٥].

---

[٣٥٥] انظر في هذا المضمون: جليلي جليل وآخـرون، مرجـع سـبق ذكره، من ص ٢٨١ إلى ص ٢٨٣.

وهكذا فإن هذه السياسة الإيرانية التي تأسست على عنصري القوة والفكرة معا كان لها أعظم الأثر في إضعاف الحركة العرقية الكردية، إحداث الانقسام في صفوف الأكراد بين متضامنين مع الحكومة الإسلامية في طهران، وبين مناضل في سبيل استقلال كردستان. ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن الحكومة الإيرانية نجحت في إقناع واحد من أبرز القادة الأكراد – وهو الشيخ عز الدين الحسيني – بالانضواء تحت الراية الإسلامية والتخلي عن النضال في سبيل استقلال كردستان.

وجملة القول في شأن ما تقدم أن الحكومة الإيرانية نجحت إلى حد كبير في إقناع قطاعات واسعة من الأكراد بالتخلي عن فكرة استقلال كردستان الأمر الذي كان من شأنه أن أضحت الحركة العرقية الكردية من إيران ضعيفة بحيث انحصر مؤيدوها المعلنون في عدد ليس بالكبير من الأكراد الإيرانيين. وتلجأ هذه الحركة في نضالها إلى أسلوب حرب العصابات منذ عام ١٩٨٤، وهو التاريخ الذي كانت قواتها قد منيت فيه بخسائر فادحة أمام قوات الحكومة الإيرانية.



جـ- الحركة العرقية الكردية في العراق:

قام أكراد العراق – شأنهم في ذلك شأن بني نحلتهم داخل كل من تركيا وإيران – بالعديد من الثورات خـلال القـرن الراهن في سبيل نيل الحق في تقرير المصير. وفيمـا يلـي نعرض لأظهر هذه الثورات:

ثورة الشيخ محمود البرزنجي (١٩١٩):

ينتمي الشيخ محمود البرزنجي إلى إحدى العائلات الكبرى في كردستان الجنوبية، وقد كان له موقع الزعامة في عائلته، كما تمتع بمنزلة دينية عظيمة الشأن بين قطاعات عريضـة من الأكراد، وفضلاً عن ذلك فقد تعاظم نفوذه في كردسـتان نظرا لكون العديد من المسلحين يخضعون لإمرته. وعنـدما هزمت القوات التركية في العراق – إبان الحـرب العالميـة الأولى – راح القائد التركي علي إحسان باشا يتصل بالشـيخ محمود، ويغدق عليه الأموال بغية استخدامها فـي تشـكيل مجموعات مسلحة تتولى مهاجمة المعسكرات الإنجليزية في منطقة كركوك، كما أبرق إحسان باشا على حامية السليمانية طالبا منها تسليم إدارة اللواء إلى الشيخ محمود، كـي يحكـم

باسم الدولة العثمانية. بيد أن الشيخ راح – في أعقاب ذلك – يتقرب إلى الإنجليز ويرسل إليهم برسائل فحواها أنه على استعداد لتسليم السليمانية لهم؛ حيث كان الشيخ يعتقد أن الإنجليز سوف يمنحون الأكراد الحق في تقرير مصيريهم، لا سيما وأن الحكومة البريطانية كانت قد أعلنت مرارا – خلال الحرب العالمية الأولى – اعتزامها منح الشعوب الخاضعة لربقتها حق تقرير المصير [356].

على أية حال فإن الإنجليز ما أن دانت لهم السيطرة على كردستان الجنوبية حتى قاموا بتعيين الشيخ محمود حكمدار على السليمانية، ومنحه صلاحيات واسعة. وقد اعتقد الشيخ – وقتذاك – أن تعيينه حاكما للسليمانية لا يعدو أن يكون خطوة سوف تتبعها خطوات عديدة نحو قيام الدولة الكردية المستقلة. لذلك ففي أول ديسمبر عام ١٩١٨ راح الشيخ محمود يقدم للمندوب السامي البريطاني في العراق – والذي كان في زيارة للسليمانية وقتذاك – عريضة موقعة من قِبل أربعين زعيما كرديا راحوا يطالبون فيها الحكومة البريطانية

---

[356] راجع في هذا المضمون: عزيز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ٩٦، ٩٧.

بمساعدة الأكراد في نيل الاستقلال [٣٥٧]. غير أن مواقف الحكومة البريطانية – في أعقاب ذلك – جاءت مخيبة لآمال الشيخ محمود؛ إذ راح الإنجليز يصدرون قرارات انطوت على تقليص لاختصاصاته، وبالتالي فقد بات جليا لديه أنهم لا يعتزمون السير قدما في إقامة الدولة الكردية التي طالما طالب بها الشيخ، وجعل من إنشائها هدفه المحوري. وهكذا فسرعان ما راح الشيخ يعلن الثورة على الإنجليز تلك الثورة التي اندلعت ابتداء من ٢١ مايو ١٩١٩ في السليمانية، ثم ما لبثت أن تأججت واستشرت نيرانها استشراء النار في الهشيم، وامتدت إلى مناطق واسعة من كردستان الجنوبية، بل ومن كردستان الإيرانية [٣٥٨].

---

[٣٥٧] انظر في هذا المعنى: جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠.

[٣٥٨] انظر في هذا المحتوى: عزيز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣، ١٠٤.

وقد أذاعت السلطة العسكرية البريطانية في ٢٨ مايو ١٩١٩ بيانًا جاء فيه: "أن الشيخ محمود قد قبض على زمام الأمور في السليمانية بغتة في ٢١ مايو، وأخذ بعض الضباط والأفراد البريطانيين هناك كأسرى" [٣٥٩]. وهكذا فقد دانت للشيخ – في ٢١ مايو – السيطرة التامة على السليمانية فراح يضع يده على الخزينة، ويقطع المواصلات السلكية مع كركوك، ويرفع العلم الكردي على الدوائر الحكومية، بعد إنزال العلم البريطاني من فوقها [٣٦٠]. وشيئًا فشيئًا راح الشيخ يتجه بقواته نحو كركوك؛ حيث تمكنت هذه القوات من دحر فصيلة من القوات البريطانية مزودة بأحد الأسلحة والسيارات المصفحة كانت تعسكر عند شعب طاساوجة الجبلي بالقرب من كركوك. وفضلاً عن ذلك فسرعان ما اندلعت انتفاضة كردية في منطقة جم جمال شمال السليمانية، وقدم محمد جباري – الذي كان يشرف على ١٢ قرية – مساعدات كبيرة للشيخ محمود، كما قاد عبد ا عسكري انتفاضة سكان عشر قرى كردية في منطقة قلاسيوكة [٣٦١].

---

[٣٥٩] نفس المرجع السابق.

[٣٦٠] حامد محمود عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٢، ١٢٣.

[٣٦١] جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٢.

وفي ١٨ يونيو ١٩١٩ كان الشيخ محمود على موعد مع المعركة الفاصلة في منطقة ديربند بازيان؛ إذ التقت قواته في ذلك التاريخ مع قوات إنجليزية في معركة غيـر متكافئـة؛ إذ حشد الإنجليـز للمعركـة فرقـة معـززة بالمـدرعات والطائرات والمدافع. وقد استطاعت هذه القوات – بمسـاعدة بعض الأغوات الأكراد الموالين لها – أن تتسلل مـن وراء قوات الشيخ محمود، وتطوقها ومن ثم تدحرها. وقد جـرح الشيخ محمود ذاته في هذه المعركة، كما تمكن الإنجليز مـن القبض عليه وإرساله إلى بغداد؛ حيث حكم عليه بالإعـدام، ثم خفف الحكم إلى السجن، ومن ثم نفي الشيخ إلى الهنـد؛ حيث ظل أسيرا حتى أواخر عام ١٩٢٢ [٣٦٢]. وهكـذا فقـد أسدل الستار على ثورة الشيخ محمود، تلك الثورة التي مثلت بحق حلقة هامة من حلقات نضال أكراد العراق من أجل نيل الحق في تقرير المصير.

---

[٣٦٢] عزيز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥.

انتفاضـة المـلا مصـطفى البـارزاني (١٩٤٣ – ١٩٤٥):

تجدر الإشارة – بداية – إلى أن كردستان الجنوبيـة قـد شهدت – خلال الفترة الواقعة بـين ثـورة الشـيخ محمـود (١٩١٩) وانتفاضة مصطفى البارزاني (١٩٤٣) – عديدا من الانتفاضات التي قام بها الأكراد في سبيل نيـل الحـق فـي تقرير المصير، فخلال الفتـرة (١٩٢٩ – ١٩٣١) شـهدت المنطقة انتفاضة أخرى تزعمها الشيخ محمـود البرزنجـي، وفي عام ١٩٣٢ اندلعت في كردستان الجنوبية ثورة للشـيخ أحمد البارزاني، كما شهدت الفترة (١٩٣٣ – ١٩٤٢) العديد من الاضطرابات والحركة المسلحة التي قام بها الأكراد فـي إطار نضالهم من أجل تقرير المصير [٣٦٣].

أما فيما يتصل بانتفاضة الملا مصطفى البـارزاني فقـد اندلعت غداة نجاحه في الفرار من منفاه بالسليمانية في عـام ١٩٤٣؛ أي إنه هذه الانتفاضة قد اندلعت وكانـت الحـرب العالمية الثانية لما تزل دائرة الرحي، وحيث شهدت كردستان

---

[٣٦٣] صلاح بدر الدين، مرجع سبق ذكره، ص ١٦.

الجنوبية وقتذاك صعوبات اقتصادية جمة، على نحـو أثـار استياء الأكراد، وأدى إلى تذمرهم، الأمر الذي هيأ لالتفـاف الكثيرين منهم حول البارزاني في انتفاضته [٣٦٤].

وقد تمثلت أولى المشاكل التي جابهت الزعيم الكردي في نقص الأسلحة، لذلك فقد قام بتشكيل قوة مسلحة ووضع لهـا خطة استهدفت الهجوم على مراكز الشرطة والاستيلاء على ما بداخلها من أسلحة. ففي صيف عام ١٩٤٣ – على سـبيل المثال – بلغ عدد مراكز الشرطة التي استولت عليها قـوات البارزاني في مناطق شـيروان مـزن وميركـة سـور ٢١ مركزا[٣٦٥].

على صعيد آخر فقد اكتسب البارزاني تأييد العديـد مـن المنظمات الاستقلالية الكردية حال منظمات هيوا (الأمـل)، ورزكاري (الحرية)، وشورش (الثورة)، وغيرها، وفضـلاً عما تقدم فقد راح الأكراد يقدمون تترا على الالتفاف حـول البارزاني. ومع بداية الانتفاضة أرسلت السـلطات العراقيـة

---

[٣٦٤] انظر في هذا المعنى: حامد محمود عيسى، مرجع سـبق ذكـره، ص ١٦٤، ١٦٥.

[٣٦٥] جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٨.

قوة بوليسية لمواجهة الثوار، بيد أنهم تمكنوا من دحرها، كما استطاعوا تحطيم طابور من القوات الحكومية عنـد منطقـة ميركة سور [٣٦٦]، لتزداد بذلك شـيئًا فشـيئًا قـوة الثـوار، ويتعاظم نفوذهم في كردستان، على نحو كان من شـأنه أن تدخل السفير الإنجليزي لدى العراق مهددا البـارزاني بـأن الحكومة البريطانية قد تبحث التدخل لمساعدة القوات العراقية في سحق الثورة الكردية إذا لم يلق الثوار السلاح، ويجلسون مع الحكومة العراقية إلى طاولة المفاوضات. وعلـى ذلـك فسرعان ما بدأت المفاوضات بين ممثلي الحكومة العراقيـة والبارزاني؛ حيث تقدم البارزاني بعديد من المطالب للسلطات العراقية كان أظهرها: تشكيل ولاية كردية تضـم كركـوك، والسليمانية، وأربيل، والموصل، ودهوك، وزاخو، وعقـرة، وسنجار، والشيخان، وخالقين، على أن تتمتع هـذه الولايـة باستقلال ذاتي في المسائل الثقافية والاقتصادية والزراعيـة. كما طالب البارزاني باعتبار اللغة الكردية لغة رسـمية فـي الولاية الكردية، وتعيين وكيـل وزارة كـردي فـي جميـع

---

[٣٦٦] المرجع السابق، ص ١٨٩.

الوزارات العراقية، ووزير كردي يكون مسئولاً عن ولايـة كردستان [٣٦٧].

وقد وافقت الحكومة العراقية – خلال المفاوضـات التـي أجريت مع البارزاني في بداية عام ١٩٤٤ – على المطالـب الكردية، غير أن هذه الحكومة سرعان ما نقضت عهودهـا، ورفضت تنفيذ تعهداتها تحت وطأة المعارضة القويـة التـي لقيتها من قبل جانب لا يستهان به من الساسـة العـراقيين. وعلى ذلك فسرعان ما راح الأكراد يحملون السـلاح مـن جديد، لتبدأ بذلك حلقة أخرى من حلقات الصـراع الـدامي بينهم وبين قوات الحكومة العراقية – بمساعدة قوات إنجليزية فضلاً عن دعم تركي – من حسم نتيجة المعارك لصـالحها في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٤٥، وبعد أن كبدها الأكراد خسـائر فادحة في الأرواح والعتاد، وإن كانت هذه القوات قد دمرت خلال زحفها أكثر من ٥٠ مركزا سكانيا كرديا [٣٦٨].

---

[٣٦٧] انظر في هذا المحتوى: حامد سليمان عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٢، ١٧٣.

[٣٦٨] جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، من ص ١٩٣ إلى ١٩٥.

وهكذا فقد أخدمت انتفاضة البارزاني الأولى، والتي على إثرها تمكن الرجل من الفرار إلى إيران؛ حيث شارك أكراد إيران في إنشاء جمهورية مهاباد على النحو السابق الإشـارة إليه، ثم فر البارزاني من إيران غداة القضاة على الجمهورية الكردية واتجه إلى الاتحاد السوفييتي؛ حيث ظل هناك حتـى الإطاحة بالنظام الملكي في العراق في يوليـو عـام ١٩٥٨، فعاد إلى العراق من جديد.

انتفاضة البارزاني الثانية (١٩٦١ – ١٩٧٥):

شهدت العراق فـي ١٤ يوليـو عـام ١٩٥٨ – انقلابـا عسكريا تزعمه أحد ضباط الجيش وهو عبد الكـريم قاسـم، ومن خلال هذا الانقلاب تمـت الإطاحـة بالنظـام الملكـي وإعلان الجمهورية في العراق. وقد راح الـزعيم العراقـي الجديد – غداة نجاح انقلابه – يعلن اعتزامه إعـادة الحيـاة الديمقراطية إلى البلاد، والاعتراف بالأحزاب بما فيها الحزب الديمقراطي الكردستاني (البارتي)، كما أعلـن قاسـم عـن سماحه بإصدار صحف ومجلات كردية، وبعـودة الزعمـاء الأكراد – وعلى رأسه البارزاني – إلى وطنهم. وفضلاً عن ذلك فقد أعلن دستورا مؤقتًا بهدف تأكيد عودة الديمقراطيـة

إلى العراق، وقد جاء بهذا الدستور بند اعتبر – مـن قِبـل الأكراد – مغنما يعتمد به؛ إذ نص هذا البند على أن الشـعب العراقي يتكون من قوميتين هما العرب والأكـراد، وأنهمـا شركاء في الوطن. ولعل ابتهاج الأكراد بهذا الدستور كـان مرده إلى أنه كان أول دستور حديث لدولة من الدول التـي تقتسم كردستان ينص على وجود شعب كردي داخـل هـذه الدولة [٣٦٩].

وبالسماح له بالعودة عاد البارزاني من الاتحاد السوفياتي إلى العراق؛ حيث شهدت الشهور التالية تقاربا بينـه وبـين قاسم، كما راح البارزاني يدعم نظام قاسم بأن وضع كثيرين من الأكراد في خدمة الميلشيات الشعبية التي كونهـا قاسـم للدفاع عن نظامه [٣٧٠]. غير أنه بحلول عـام ١٩٦١ بـدأت الخلافات تنشب بين الزعيمين نتيجة لتخلي قاسم عن وعوده المتصلة بالديمقراطية، وشروعه فـي محاربـة الأحـزاب والقوى السياسية الأخرى بمـا فيهـا الحـزب الـديمقراطي الكردستاني، وفضلاً عن ذلك فقد قام قاسم بـإغلاق جريـدة

---

[٣٦٩] انظر في هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ٨١، ٨٢.

[٣٧٠] طلعت عبد الرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٩.

الحزب المعروفة باسم "خبات" (الكفـاح)، وتقـديم رئـيس تحريرها إلى المحاكمة. كما راح الزعيم العراقي يلغي كل ما جاء بالدستور المؤقت. ونظرا لما تقدم فقد شعر البـارزاني بالخطر على حياته ففر من بغداد إلى برزان. وسرعان مـا انفجر القتال في كردستان؛ إذ راح قاسـم يرسـل طـائرات سلاح الجو العراقـي – فـي ٩ سـبتمبر ١٩٦١ – لقـذف المناطق الكردية – بما فيها بارزان – بالقنابل. وإزاء ذلـك راح البارزاني يعبئ الأكراد في سبيل المقاومة، وعلى حـين كان تحت إمرته في عام ١٩٦٢ حوالي ألف مقاتل، وصـل عدد جنوده خلال العامين التاليين إلى ٢٠٠٠٠ مقاتـل، ثـم ارتفع هذا العدد على ٧٥٠٠٠ مقاتل خلال السنوات العشـر التالية [٣٧١].

على أية حال فإن القتال ظل مشتعلاً بين قوات البارزاني (البيشمركة) وقوات الحكومة العراقية إلى أن تمت الإطاحـة بعبد الكريم قاسم – في ٨ فبراير ١٩٦٣ – من خلال انقلاب تزعمه كل من عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر، وكان

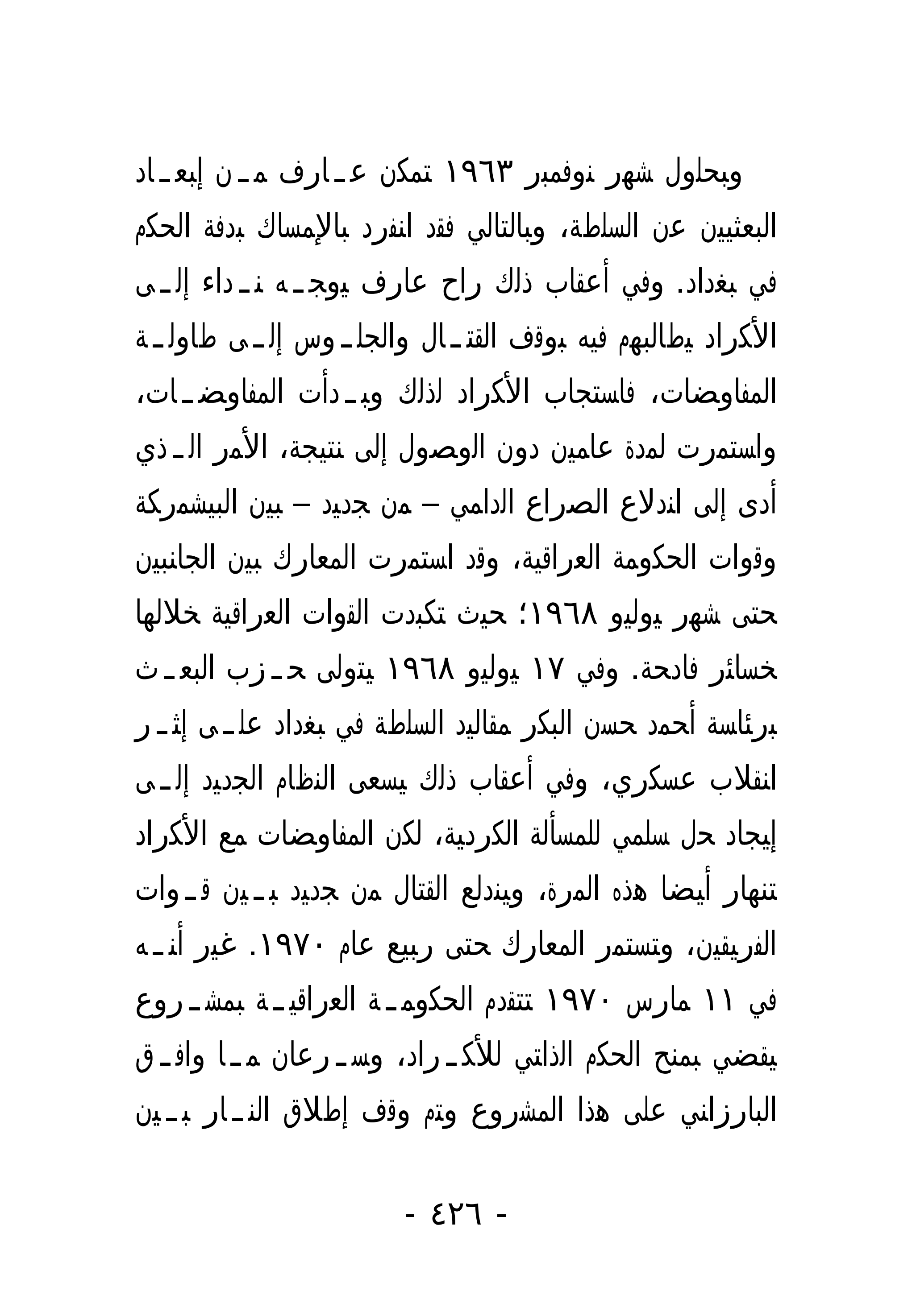
---

[٣٧١] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملـل والنحـل... مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٩.

الأخير ينتمي إلى حزب البعث. وسرعان ما أعلـن الحكـام الجدد في بغداد عن عزمهم حل القضـية الكرديـة بطريقـة سلمية. وعلى ذلك فقد بدأت المفاوضات بين ممثلي الحكومة العراقية وممثلي الحركة الكردية في منتصف فبرايـر عـام ١٩٦٣؛ حيث طالب الأكراد بأن ينص الدستور العراقي على أنه: "تعتبر الجمهورية العراقية دولة موحـدة تتـألف مـن قوميتين رئيسيتين هما العرب والأكراد"، وأن: "يتمتع الأكراد بالحكم الذاتي في إطار الدولـة العراقيـة" [٣٧٢]. غيـر أن الجانبين العراقي والكردي فشلا في الوصول إلـى تسـوية مرضية لكليهما، الأمر الذي كان من شأنه أن اندلعت الحرب من جديد بين البيشمركية وقوات الحكومة العراقيـة؛ حيـث أسفر القصف الجوي العراقي للمناطق الكردية عـن تـدمير ١٦٧ قرية كردية، ومصرع ٦٣٤ مدنيا، فضلاً عـن ١٤٣ من المسلحين الأكراد [٣٧٣].

[٣٧٢] انظر في هذا الصدد: جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٢.

[٣٧٣] طلعت عبد الرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١١.


وبحلول شهر نوفمبر ١٩٦٣ تمكن عارف من إبعاد البعثيين عن السلطة، وبالتالي فقد انفرد بالإمساك بدفة الحكم في بغداد. وفي أعقاب ذلك راح عارف يوجه نداء إلى الأكراد يطالبهم فيه بوقف القتال والجلوس إلى طاولة المفاوضات، فاستجاب الأكراد لذلك وبدأت المفاوضات، واستمرت لمدة عامين دون الوصول إلى نتيجة، الأمر الذي أدى إلى اندلاع الصراع الدامي – من جديد – بين البيشمركة وقوات الحكومة العراقية، وقد استمرت المعارك بين الجانبين حتى شهر يوليو ١٩٦٨؛ حيث تكبدت القوات العراقية خلالها خسائر فادحة. وفي ١٧ يوليو ١٩٦٨ يتولى حزب البعث برئاسة أحمد حسن البكر مقاليد السلطة في بغداد على إثر انقلاب عسكري، وفي أعقاب ذلك يسعى النظام الجديد إلى إيجاد حل سلمي للمسألة الكردية، لكن المفاوضات مع الأكراد تنهار أيضا هذه المرة، ويندلع القتال من جديد بين قوات الفريقين، وتستمر المعارك حتى ربيع عام ١٩٧٠. غير أنه في ١١ مارس ١٩٧٠ تتقدم الحكومة العراقية بمشروع يقضي بمنح الحكم الذاتي للأكراد، وسرعان ما وافق البارزاني على هذا المشروع وتم وقف إطلاق النار بين

البيشمركة والقوات الحكومية. وقد تمثلت أهم نصوص مشروع الحكم الذاتي المشار إليه فيما يلي[374]:

١- الاعتراف باللغة الكردية كلغة رسمية أسوة باللغة العربية، وذلك في المناطق التي تقطنها أغلبية كردية، كما تكون هذه اللغة هي لغة التعليم في مدارس تلك المناطق (المادة ١).

٢- تعديل الدستور العراقي بحيث ينص على أن الشعب العراقي يتكون من أمتين رئيسيتين هما الأمة العربية، والأمة الكردية، وأن يقر الدستور الحقوق القومية للشعب الكردي والأقليات الأخرى في إطار وحدة العراق (المادة ١٠).

٣- أن يكون أحد نواب رئيس الجمهورية كرديا (المادة ١٢).

٤- العمل على تعويض الأكراد عما أصابهم من تخلف في ميادين الثقافة والتعليم (المادة ٣).

---

(٣٧٤) راجع في هذا الصدد بالتفصيل: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره من ص ٢٢٩ إلى ص ٢٣١.

٥- حق الشعب الكردي في إقامة منظماتـه الطلابيـة، والشبابية، والنسائية، والعلمية (المادة ٥).

وقد اتفق الطرفان الكردي والحكومي على تحديـد فتـرة انتقالية قدرها أربع سنوات قبل الإعلان عن الاستقلال الذاتي الداخلي لكردستان، بحيث يعلن هذا الاسـتقلال فـي موعـد أقصاه ١١ مارس ١٩٧٤ [٣٧٥].

وفي أعقاب موافقة الأكراد على بيان ١١ مـارس ١٩٧٠ تم وقف إطلاق النار بين البيشمركة وقوات الحكومة، وسـاد الهدوء – إلى حد كبير – كردستان الجنوبية طيلة السـنوات الأربع الممتدة من عام ١٩٧٠ وحتى ١٩٧٤. غير أنه فـي ١١ مارس ١٩٧٤ (نهاية الفترة الانتقالية) راحت الحكومـة العراقية تُعلن من جانب واحد مشـروعها للحكـم الـذاتي، وحددت فيه منطقة الحكم الذاتي على أساس تعداد عام ١٩٥٧ وليس على أساس تعداد جديد كما نص مشروع ١١ مـارس ١٩٧٠. كذلك فإن مشروع الحكومة العراقية بصـدد الحكـم الذاتي لعام ١٩٧٤ نص على كون أربيل عاصـمة للإقلـيم الكردي (وليس كركوك كما أراد الأكراد)، وفضلاً عما تقدم

---

[٣٧٥] حامد محمود عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٦.

فقد حدد المشروع الجديد مساحة لمنطقة الحكم الذاتي اعتبرها الأكراد لا تُمثل سوى نصف مساحة كردستان الجنوبية [٣٧٦]. ونظرا لكل ما تقدم فقد أصدر الحزب الديمقراطي الكردستاني بيانًا غاضبا انتقد فيه الحكومة العراقية واتهمها بعدم احترام نصوص وروح اتفاقية ١١ مارس عام ١٩٧٠. بيد أن هذه الحكومة لم تأبه بانتقادات الحزب، وراحت تمضي قدما في تنفيذ مشروعها للحكم الذاتي، الأمر الذي كان من شأنه أن أثار استياء الأكراد، وسرعان ما اندلع الصراع الدامي بين البيشمركة بزعامة البارزاني والجيش العراقي، وتأجج الصراع بين الجانبين غداة رفض الزعيم الكردي لإنذار وجهته له الحكومة العراقية لقبول قانون الحكم الذاتي عام ١٩٧٤. وقد بلغ عدد القوات العراقية في قمة المعارك ضد البيشمركة حوالي ١٠٠ ألف جندي مسلحين بالدبابات والمدفعية، ويدعمهم سلاح الطيران، أما بصدد عدد البيشمركة المشاركين في معارك عام ١٩٧٤ فقد وصل عددهم إلى ما يقرب من ستين ألفًا مسلحين بالأسلحة الحديثة التي تدفقت عليهم من حكومة

---

[٣٧٦] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣.

الشاه؛ حيث كانت الحكومة الإيرانية تدعم الأكراد بالأسلحة، كما كانت مدفعية الحدود الإيرانية تعضـدهم مباشـرة بـين الحين والآخر [٣٧٧]. والحق أن المساعدات التي كانت تقدمها إيران للأكراد كان لها أبلغ الأثر في تدعيم البيشمركة التـي أبلت بلاء حسنًا في معاركها ضد قوات الحكومة العراقيـة، نظرا لما كان بين الدولتين من خلافات حادة حـول تعيـين الحدود في منطقة شط العرب الاستراتيجية [٣٧٨]. غير أنـه بحلول ربيع عام ١٩٧٥ استجد حدث كانت له عواقب وخيمة على النضال الكردي، ويتمثـل هـذا الحـدث فـي توقيـع الحكومتين الإيرانية والعراقية على اتفاقية الجزائـر، والتـي بمقتضاها قدمت العراق لإيران تنازلات عظيمة الشأن فـي شط العرب، مقابل توقـف إيـران عـن تقـديم المسـاعدة للأكراد[٣٧٩].

---

[٣٧٧] انظر بصدد هذا المضمون: المرجع السابق ذكره.

[٣٧٨] انظر في هذا المعنى: طلعت عبد الرازق (محـرر) وآخـرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٦.

[٣٧٩] انظر في هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ٩٣، ٩٤.

وبتوقيع اتفاقية الجزائر فقد الأكراد حليفهم الكبير والمتمثل في إيران؛ حيث التقى الشاه بالبارزاني وخيره بين الاستسلام للحكومة العراقية، أو طلب اللجوء السياسي إلـى طهـران، أو الاستمرار في الحرب دون أية مساعدة إيرانية. وبذلك فقد أدرك الأكراد أنهم سيكونون الخاسرين إذا مـا دخلـوا فـي صراع غير متكافئ مع قوات الحكومة العراقية، وبالتالي فقد قرر زعماؤهم – وعلى رأسهم البارزاني – إيقاف النضـال، والانسحاب إلى إيران بدءا من يوم ٢٢ مارس عـام ١٩٧٥؛ حيث فر إلى إيران حوالي ٣٥ ألف مقاتل مـن البيشـمركة، إلى جانب حوالي ١٥٠ ألفًا من النساء والشيوخ والأطفـال، وبذلك فقد أصيبت الحركة الوطنية الكردية في العراق بأشـد انتكاساتها العسكرية والسياسية خلال الفترة اللاحقة للحـرب العالمية الثانية [٣٨٠].

---

[٣٨٠] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحـل...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤.

وهكذا فقد انتهت حلقة جديدة من حلقات الصراع الـدامي الذي طالما خاضه الأكراد في سبيل نيل الحق فـي تقريـر المصير. يبقى أن نشير إلى أن المعـارك بـين البيشـمركة والقوات الحكومية قد أسفرت – خلال الفتـرة مـن مـارس ١٩٧٤ وحتى مارس ١٩٧٥ – عن مصرع ١٤ ألف جندي عراقي بينما قدر مصدر عراقي آخر مجمل خسـائر هـذه الحرب بنحو ٦٠ ألف قتيل وجريح من العسكريين العراقيين ومن الأكراد [٣٨١].

الحركة العرقية الكردية المعاصرة في العراق:

شهدت السنوات الأربع اللاحقة على الانتكاسـة الكرديـة الكبرى لعام ١٩٧٥ قيام الحكومة العراقيـة باتخـاذ جملـة إجراءات إزاء الأكراد استهدفت إحكام القبضة عليهم. فخلال هذه السنوات (١٩٧٥ – ١٩٧٩) تـم إخـلاء ١٢٢٢ قريـة كردية من سكانها في محافظات ديالي، والسليمانية، وأربيل، والموصل. وقد تم إحراق قسم من هذه القرى وإزالته تمامـا بغية خلق حزام أمني في المنطقة الشمالية يحول بين أكـراد

---

[٣٨١] طلعت عبد الرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٦.

العراق وبين الاتصال ببني نحلتهم في الدول المجاورة [٣٨٢].

كما تم خلال الفترة المذكورة تهجير ٥٠ ألف كـردي مـن موطنهم في الشمال، وتشجيع العـرب علـى التـوطن فـي كردستان، وذلك بهدف تغيير التركيـب السـكاني للمنطقـة الكردية، وإخضاع الأكراد لسيطرة الحكومـة مـن خـلال إبعادهم عن المناطق الجبلية الحصينة، التي طالما اعتصـموا بها في مقاومتهم لقوات الحكومة العراقية [٣٨٣].

وعلى الرغم مما تقدم فقـد شـهدت الفتـرة (١٩٧٥ – ١٩٧٩) ظهور العديد من الأحزاب الكردية التي راحت تتخذ من نيل الأكراد لحق تقرير المصير هدفًا لها. ولقـد تمثـل أظهر هذه الأحزاب – على الإطلاق – في حـزب الاتحـاد الوطني الكردستاني، الذي تأسس على يد الـزعيم الكـردي البارز جلال الطالباني في أول يونيو عام ١٩٧٥ [٣٨٤]. كذلك

---

[٣٨٢] انظر في هذا المضمون: جليلي جليل وآخـرون، مرجـع سـبق ذكره، ص ٢٩٩.

[٣٨٣] انظر في هذا المضمون: طلعت عبد الرازق (مقرر) وآخـرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٨.

[٣٨٤] درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ٩٧.

فقد كان من أظهر الأحزاب الكردية التي ظهرت في كردستان العراق – بهدف النضال في سبيل المشكلة الكردية – حزب الحركة الإسلامية، والذي يتزعمه الشيخ عثمان عبد العزيز [٣٨٥].

وجملة القول في شأن ما تقدم أن الحركة العرقية الكردية المعاصرة إنما تضم العديد من الأحزاب يأتي على رأسها كل من:

١- الحزب الديمقراطي الكردستاني (البارتي)، ويتزعمه مسعود البارزاني، وهو أحد أبناء الملا مصطفى.

٢- الاتحاد الوطني الكردستاني، ويتزعمه جلال الطالباني.

٣- حزب الحركة الإسلامية الكردستانية، ويتزعمه الشيخ عثمان عبد العزيز.

---

[٣٨٥] المرجع السابق، ص ١٠٠.

وبالعودة إلى صعيد أنشطة الحركـة العرقيـة الكرديـة المعاصرة في العراق نقول أنه باندلاع الحـرب العراقيـة الإيرانية – فـي سـبتمبر ١٩٨٠ – راح أكـراد العـراق يخوضون غمار حرب جديدة في سبيل نيل الحق في تقريـر المصير؛ حيث تحالفوا في هذا الصدد مع إيران في مواجهة الحكومة العراقية، وقد تمكن الأكراد إبان الحـرب العراقيـة الإيرانية – وبمساعدة إيران – من تحقيق انتصارات عديـدة على القوات العراقية التي كان عليهـا أن تنـازل خصـمين لدودين في نفس الوقت، همـا الإيرانيـون علـى الحـدود، والأكراد داخل الحدود. وعلى سبيل المثال فمع بدايـة عـام ١٩٨٥ نجح أكثر من عشرة آلاف من بيشمركة طالباني في إعادة السيطرة على الطرق والقرى الواقعة بـين كركـوك والسليمانية والممتدة حتى الحدود مع إيران، في حـين كـان البرزانيون – وقتذاك – يسيطرون على منطقـة تمتـد مـن الحدود السورية وحتى راوندوز [٣٨٦]. وفـي ٢٨ مـارس ١٩٨٨ أعلنت إيران نجاح قواتها المتحالفـة مـع الأكـراد العراقيين في السيطرة على ١٤٠٠ كيلو متـر مربـع فـي

---

[٣٨٦] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٠٤.

كردستان العراقية [٣٨٧]، وقد كانت مدينة حلبجة علـى رأس المناطق التي سيطر عليها الأكراد وقتذاك.

وإزاء ما تقدم راحت قوات الحكومة العراقية تصب جـام غضبها على الأكراد، مستخدمة أشد الأسلحة المتاحة لـديها فتكًا، وعلى رأسها الأسلحة الكيماوية؛ حيث قامت هذه القوات – في الفترة من ١٦ إلى ١٨ مارس عام ١٩٨٨ – بـإحراق حلبجة على نحو أدى إلى مصرع زهـاء ٥ آلاف كـردي، وفرار عشرات الآلاف من الأكراد إلى إيران وتركيا. وما أن تم وقف إطلاق النار بين إيران والعراق في أغسطس عـام ١٩٨٨ حتى أتمت قوات الحكومة العراقية إحكـام قبضـتها على كردستان الجنوبية [٣٨٨]. وبالتالي فقد أخمدت انتفاضـة كردية جديدة، حاول الأكراد من خلالها بلوغ غايتهم المتمثلة في نيل حق تقرير المصير. أما الانتفاضة الكردية التالية فقد شهدتها كردستان الجنوبية خلال حرب الخليج الثانية، وأثناء المعارك التي شهدتها بداية عام ١٩٩١ بين ما يعرف بقوات

---

[٣٨٧] طلعت عبد الرازق (مقرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣.

[٣٨٨] انظر في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملـل والنحـل..، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٦.

التحالف الدولي والقوات العراقية، على إثر قيام هذه الأخيرة باجتياح الكويت في صيف عـام ١٩٩٠. ففـي ٤ مـارس ١٩٩١ اندلعت انتفاضة شعبية في جميع أنحـاء كردسـتان الجنوبية، وقد انطلقت الشرارة الأولى لهذه الانتفاضـة مـن مدينة رانيا، ثم ما لبثت أن عمت سائر ربوع كردستان التي سرعان ما سقطت فـي أيـدي القـوات الكرديـة. بيـد أن انتصارات الأكراد هذه لم تدم طـويلاً؛ إذ زحفـت جحافـل الجيش العراقي بأسلحتها الثقيلة تدعهما الصواريخ والطائرات نحو كركوك، وأعادتها إلى الحظيرة الحكومية فـي خـلال يومين، وفي ٢ أبريل كانت القوات الحكومية قد نجحت فـي السيطرة على السليمانية. وإزاء ذلك أصدر مجلس الأمـن – في ٥ أبريل ١٩٩١ – قرارا يدعو الحكومة العراقيـة إلـى وقف هجماتها على الشعب الكردي، ولم يكن أمـام صـدام سوى الرضوخ، وإيقاف عمليات قواته في كردستان [٣٨٩].

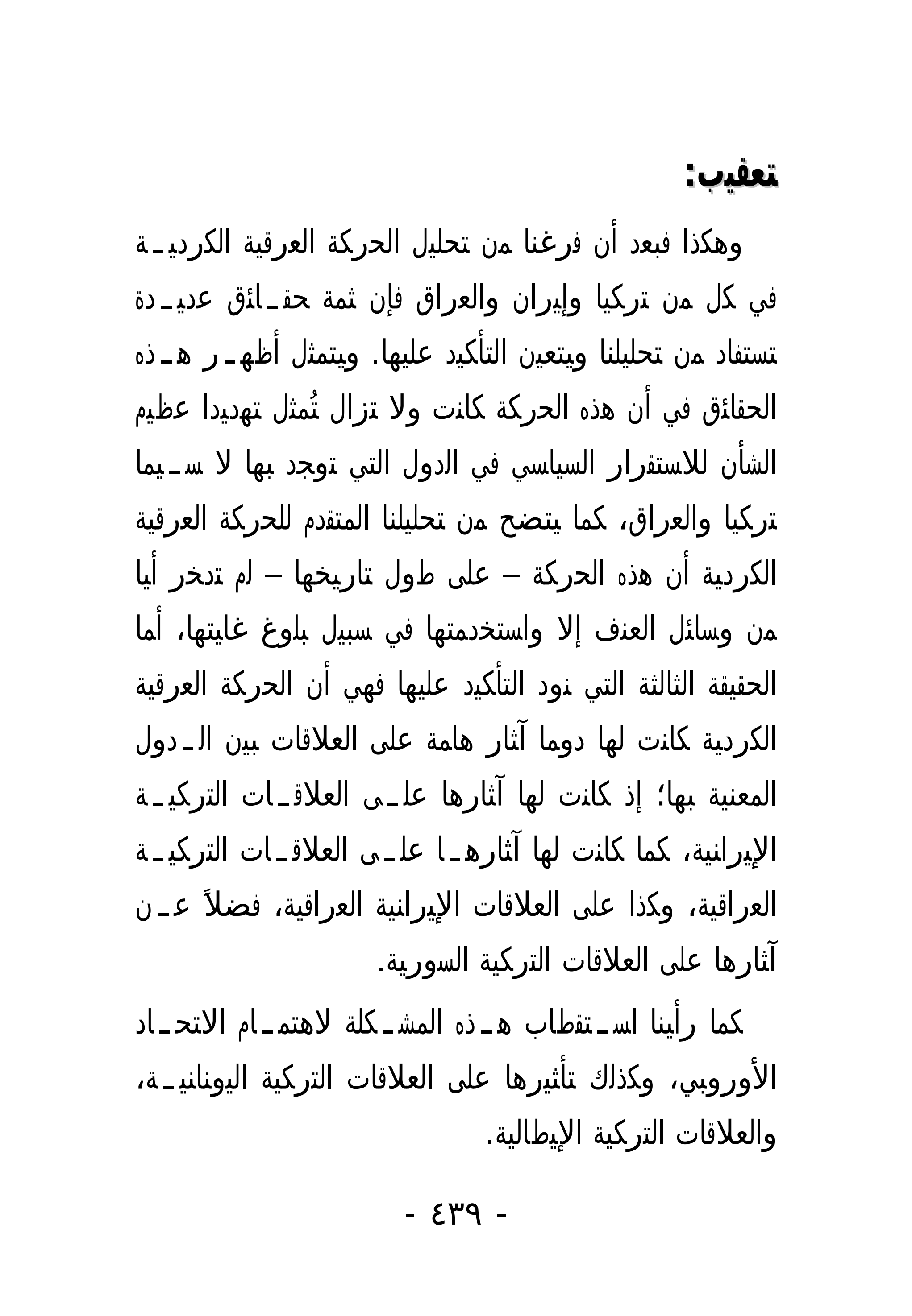
---

[٣٨٩] راجع في هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم (مشـرف)، همـوم الأقليات..، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٦، ٢٥٧.

وفي أعقاب ذلك دارت مفاوضات بين الحكومة العراقية والزعماء الأكراد بيد أن هذه المفاوضات لم تسفر عن حل للمسألة الكردية يرضي الطرفين. وإزاء ذلك راح الرئيس العراقي صدام حسين يتخذ قرارا غريبا يتمثل في فصل كردستان إداريا عن باقي العراق، وسحب جميع الإدارات الحكومية من مدن أربيل، والسليمانية، ودهوك، وفرض حصار اقتصادي على كافة المناطق الكردية [٣٩٠]. وحتى يومنا هذا لا تزال كردستان في ظل هذا الوضع الغريب فلا هي خاضعة للحكومة العراقية، ولا هي معترف بها كدولة مستقلة؛ إذ رفضت كافة دول العالم وعلى رأسها الدول الكبرى الاعتراف باستقلال الكيان الكردستاني، برغم قيام الأكراد بانتخاب برلمان مستقل لهم، وتشكيل حكومة من بينهم منذ عام ١٩٩٢. وهكذا فلا يزال مصير كردستان الجنوبية معلقًا حتى يومنا هذا؛ إذ ترفض الدول الكبرى اعتبارها دولة مستقلة لأن من شأن ذلك الاعتراف بتقسيم العراق، الأمر الذي من شأنه حدوثه أن يؤدي إلى اختلالات بالغة الأثر على استقرار منطقة الشرق الأوسط، وكذا على موازين القوى بها... وهي أمور ليس هذا بمجال للاستفاضة في الحديث عنها.

---

[٣٩٠] انظر في هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ١١٨.

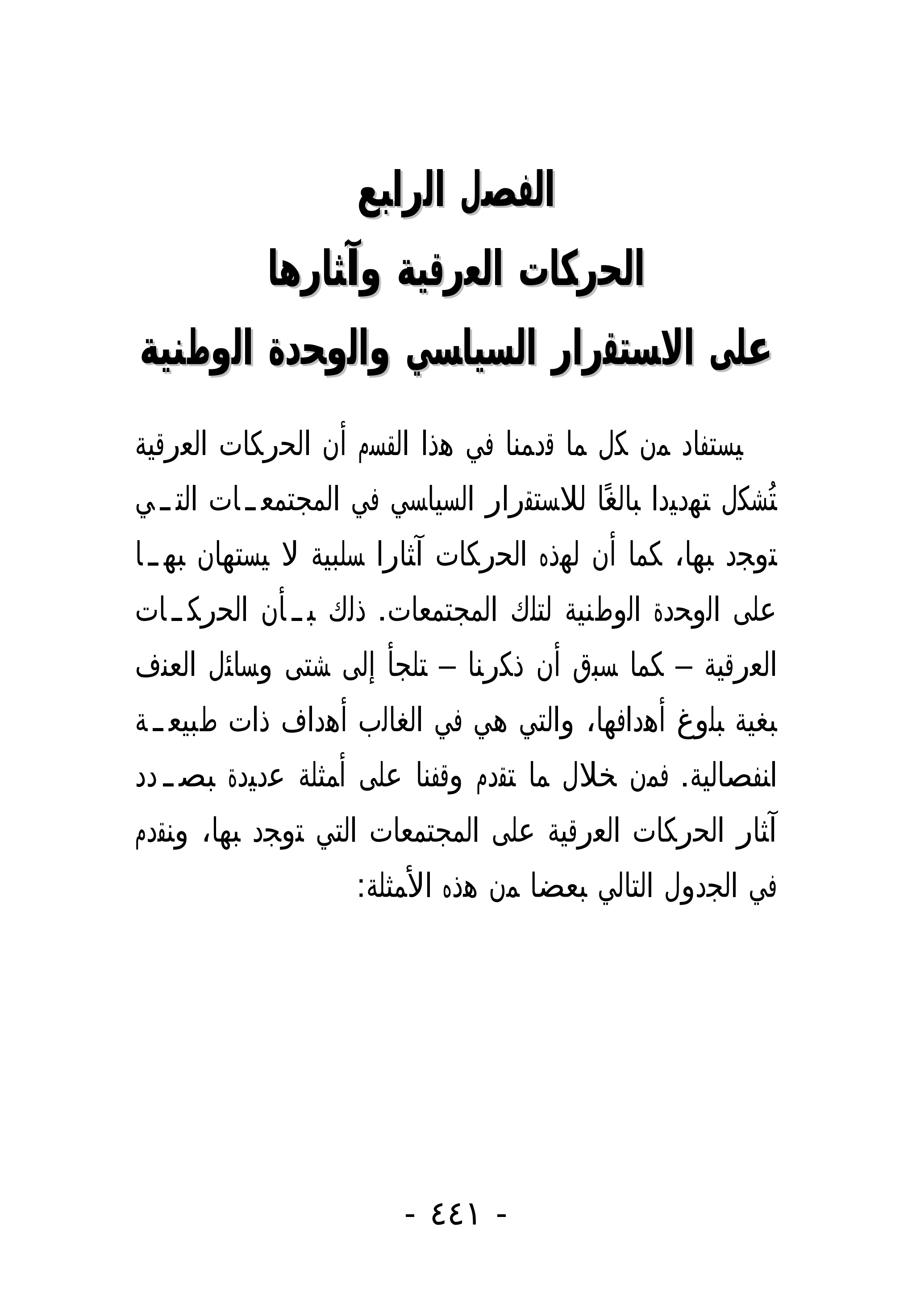


تعقيب:

وهكذا فبعد أن فرغنا من تحليل الحركة العرقية الكردية في كل من تركيا وإيران والعراق فإن ثمة حقائق عديدة تستفاد من تحليلنا ويتعين التأكيد عليها. ويتمثل أظهر هذه الحقائق في أن هذه الحركة كانت ولا تزال تُمثل تهديدا عظيم الشأن للاستقرار السياسي في الدول التي توجد بها لا سيما تركيا والعراق، كما يتضح من تحليلنا المتقدم للحركة العرقية الكردية أن هذه الحركة – على طول تاريخها – لم تدخر أيا من وسائل العنف إلا واستخدمتها في سبيل بلوغ غايتها، أما الحقيقة الثالثة التي نود التأكيد عليها فهي أن الحركة العرقية الكردية كانت لها دوما آثار هامة على العلاقات بين الدول المعنية بها؛ إذ كانت لها آثارها على العلاقات التركية الإيرانية، كما كانت لها آثارها على العلاقات التركية العراقية، وكذا على العلاقات الإيرانية العراقية، فضلاً عن آثارها على العلاقات التركية السورية.

كما رأينا استقطاب هذه المشكلة لاهتمام الاتحاد الأوروبي، وكذلك تأثيرها على العلاقات التركية اليونانية، والعلاقات التركية الإيطالية.

وفي النهاية فإننا لسنا بحاجة إلى القول إن تحليلنا المتقـدم للحركة العرقية الكردية قد جاء مؤكدا للحقيقة التي سـبق أن سقناها، والتي قوامها أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائـم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع تأسـس بنيانـه علـى التجمع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.



الفصل الرابع
الحركات العرقية وآثارها
على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية

يستفاد من كل ما قدمنا في هذا القسم أن الحركات العرقية تُشكل تهديدا بالغًا للاستقرار السياسي في المجتمعـات التـي توجد بها، كما أن لهذه الحركات آثارا سلبية لا يستهان بهـا على الوحدة الوطنية لتلك المجتمعات. ذلك بـأن الحركـات العرقية – كما سبق أن ذكرنا – تلجأ إلى شتى وسائل العنف بغية بلوغ أهدافها، والتي هي في الغالب أهداف ذات طبيعـة انفصالية. فمن خلال ما تقدم وقفنا على أمثلة عديدة بصـدد آثار الحركات العرقية على المجتمعات التي توجد بها، ونقدم في الجدول التالي بعضا من هذه الأمثلة:

م	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
١	الهند	أ- انفصال باكستان عنها في عـام ١٩٤٧. ب- اضطرابات دائمـة فـي إقلـيم البنجاب بـين السـيخ وقـوات الحكومة. ج- اضطرابات دائمـة فـي جـامو وكشمير. د- اضطرابات شبه دائمة في ولاية آسام بين المسلمين والهندوس.
٢	باكستان	أ- انفصال البنغال عنها وإقامة دولة بنجلاديش في عام ١٩٧١. ب- اضطرابات دائمـة فـي إقلـيم كراتشي بين منظمـة "مهـاجر قـومي" الانفصـالية وقـوات

م	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
		الحكومة.
٣	سريلانكا	اضطرابات عنيفة دائمة تصل إلى درجة الحرب الأهلية في كثير من الأحيان داخل جافنا.
٤	تركيا	اضطرابات دائمة بين الأكراد الانفصاليين وقوات الحكومة في الجنوب.
٥	العراق	حالة أقرب ما تكون إلى التقسيم إلى ثلاث جمهوريات أولاها كردية في الشمال، وثانيتها شيعية في الجنوب، وثالثتها عربية في باقي أجزاء الكيان العراقي.
٦	الاتحاد السوفييتي	انظر القسم الثالث (تفكك إلى ١٥ دولة)
٧	روسيا	انظر القسم الثالث (مشكلة الشيشان)

م	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
٨	جيورجيا	انظر القسم الثالث (مشكلتا أبخازيا وأوسيتيا)
٩	أذربيجان	انظر القسم الثالث (مشكلة ناجور ونوكار اباخ).
١٠	يوغسلافيا القديمة	تفتت إلى عديد من دويلات هي يوغسلافيا الجديدة (الصرب والجبل الأسود) وكرواتيا، وسلوفينيا، والبوسنة والهرسك، ومقدونيا.
١١	يوغسلافيا الجديدة	انسلاخ كوسوفا عنها بمساعدة حلف الأطلنطي (١٩٩٩).
١٢	البوسنة والهرسك	على إثر حرب أهلية امتدت خلال الفترة (١٩٩٢ – ١٩٩٥) تم توقيع اتفاق (هو اتفاق ديتون) بمقتضاه أقيمت جمهورية فيدرالية تضم المسلمين والكروات، وترتبط برابطة كونفيدرالية مع جمهورية صرب

م	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
		البوسنة.
١٣	قبرص	انقسام (فعلي) إلى دولتين، إحداهما تضم القبارصة اليونانيين، والأخرى تضم القبارصة الأتراك.
١٤	نيجيريا	اضطرابات دائمة بين المسلمين والمسيحيين منذ وصول المسيحي أوباسونجو إلى الحكم عام ١٩٩٩.
٥	تشيكوسلوفاكيا	انقسمت إلى دولتين هما التشيك، وسلوفاكيا..
١٦	المملكة المتحدة	أعمال عنف متواصلة يقوم بها الجيش الجمهوري الأيرلندي.
١٧	إسبانيا	اضطرابات دائمة في إقليم الباسك.
١٨	كندا	برغم ندرة لجوء الانفصاليين الكيبيكيين إلى العنف إلا أنهم كادوا

م	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
		يحققون هدفهم المتمثل في انفصال كيبيك عن كندا.
١٩	إثيوبيا	أ- انفصال إريتريا عنها على إثر حرب أهلية طويلة. ب- اضطرابات دائمة في إقليم أوجادين.
٢٠	رواندا	حرب أهلية بين التوتسي والهوتو.
٢١	بوروندي	حرب أهلية بين التوتسي والهوتو.
٢٢	السودان	حرب أهلية في الجنوب (١٩٥٥ – ١٩٧١)، (١٩٨٣ – ٢٠٠٠)
٢٣	ليبيريا	حرب أهلية (١٩٩٠ – ١٩٩٧).
٢٤	الفلبين	اضطرابات دائمة في الجنوب، بخاصة في جزيرتي مندناو وجولو.
٢٥	جنوب إفريقيا	أ- حرب أهلية خلال الفترة (١٩٦١ – ١٩٩٣).

م	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
		ب- اضطرابات عنيفة في وقتنا الراهن بين قبيلة الزولو وقوات الحكومة.
٢٦	لبنان	حرب أهلية خلال الفترة (١٩٧٥ – ١٩٩٠).
٢٧	الصين	- اضطرابات دائمة في إقليم التبت (١٩٥٩ – ٢٠٠٠). - اضطرابات دائمة في إقليم سينكيانج.
٢٨	المكسيك	اضطرابات دائمة في إقليم تشيباس.

جدول رقم (٤)

- تم تركيبه بالاعتماد على بيانات الجداول السابقة.

وهكذا ففي ضوء ما تقدم فإننا لسنا بحاجة إلى القول بـأن الحركات العرقية تُشكل تهديدا بالغًا للاستقرار السياسي (وكذا للوحدة الوطنية) في المجتمعات التي توجد بها، وعلـى أيـة حال فإن ما سنقدمه في القسم الثالث – من تحليل للحركـات العرقية في الاتحاد السوفييتي السابق – كفيل باستجلاء هـذه الحقيقة أكثر وأكثر.

* * *



الفصل الخامس
في الآثار الدولية للحركات العرقية

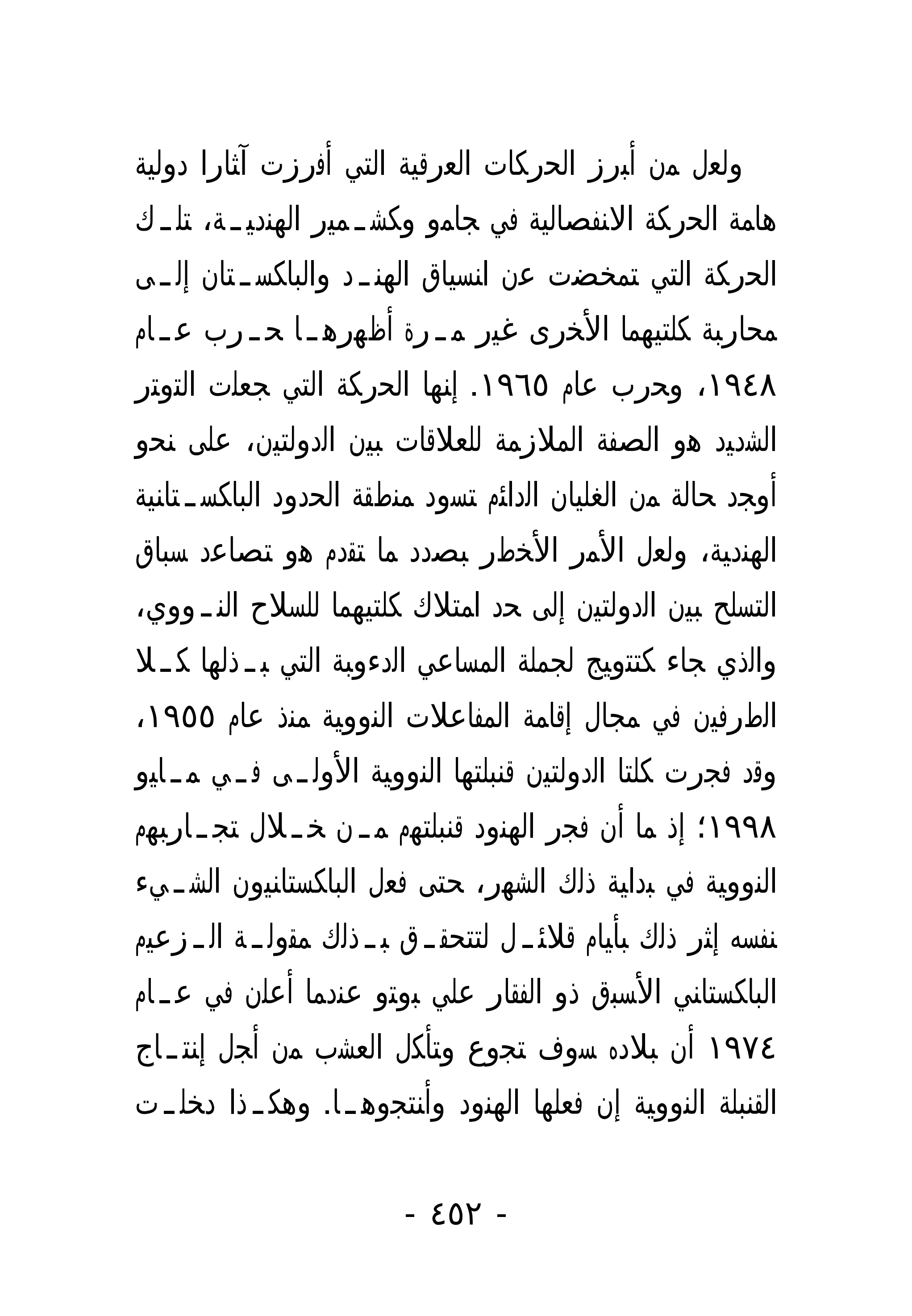
تشير ملاحظة الواقع إلى أن الحركات العرقية – بـرغم كونها حركات داخلية – إلا أنها كثيرا ما تتمحض عن آثـار دولية هامة. ولعل في عرضنا المتقدم لبعض نماذج الحركات العرقية ما يؤكد صحة هذه المقولة، فبصدد الحركة العرقيـة في إقليم كيبيك الكندي انتهينا إلى أن هذه الحركة كانت لهـا دوما آثار سلبية على العلاقات الكندية الفرنسـية، لا سـيما خلال الفترة التي اعتلى فيها ديجول سدة الحكم في فرنسـا. أما فيما يتصل بالحركة العرقية في جنـوب السـودان فقـد أوضحنا أنها كانت دائمة التأثير – بالسلب – على العلاقـات بين السودان وجيرانه الذين يقدمون الدعم للانفصاليين فـي الجنوب؛ حيث خيم التوتر على أجواء العلاقات بين السودان وإثيوبيا خلال فترة حكم الإمبراطور الإثيوبي هيلاسلاسـي، وكذا خلال فترة حكم خلفه الـرئيس منجسـتو هيلامريـام؛ إذ كان كلاهما يدعم الحركة الانفصالية في جنوب السودان. كذلك فإن هذه الحركة أحدثت – ولا تزال تحـدث – آثـارا

سلبية على العلاقات السودانية الأوغندية؛ حيث جرت أوغندا على تقديم يد العون لانفصاليي جنوب السودان، وكرد فعـل لذلك راحت الحكومة السودانية الحاليـة تقـدم المسـاعدات للمتمردين الأوغنديين المناهضين لحكومة كمبـالا، وفضـلاً عما تقدم فإن مساندة الحكومة الإريترية الحالية لجون جارانج أحدثت تأثيرا سلبيا عميقًـا علـى العلاقـات بـين أسـمرة والخرطوم، كما أن مشكلة جنوب السودان قد يكون من شأنها في بعض الأحيان (لا سيما في فترات الخلاف بين حكومتي القاهرة والخرطوم) توسيع هوة الخلافات بـين المصـريين والسودانيين، وخصوصا عندما تلجأ الحكومة المصرية إلـى التقارب مع جارانج واستخدام ذلـك كورقـة ضـغط علـى نظيرتها السودانية.

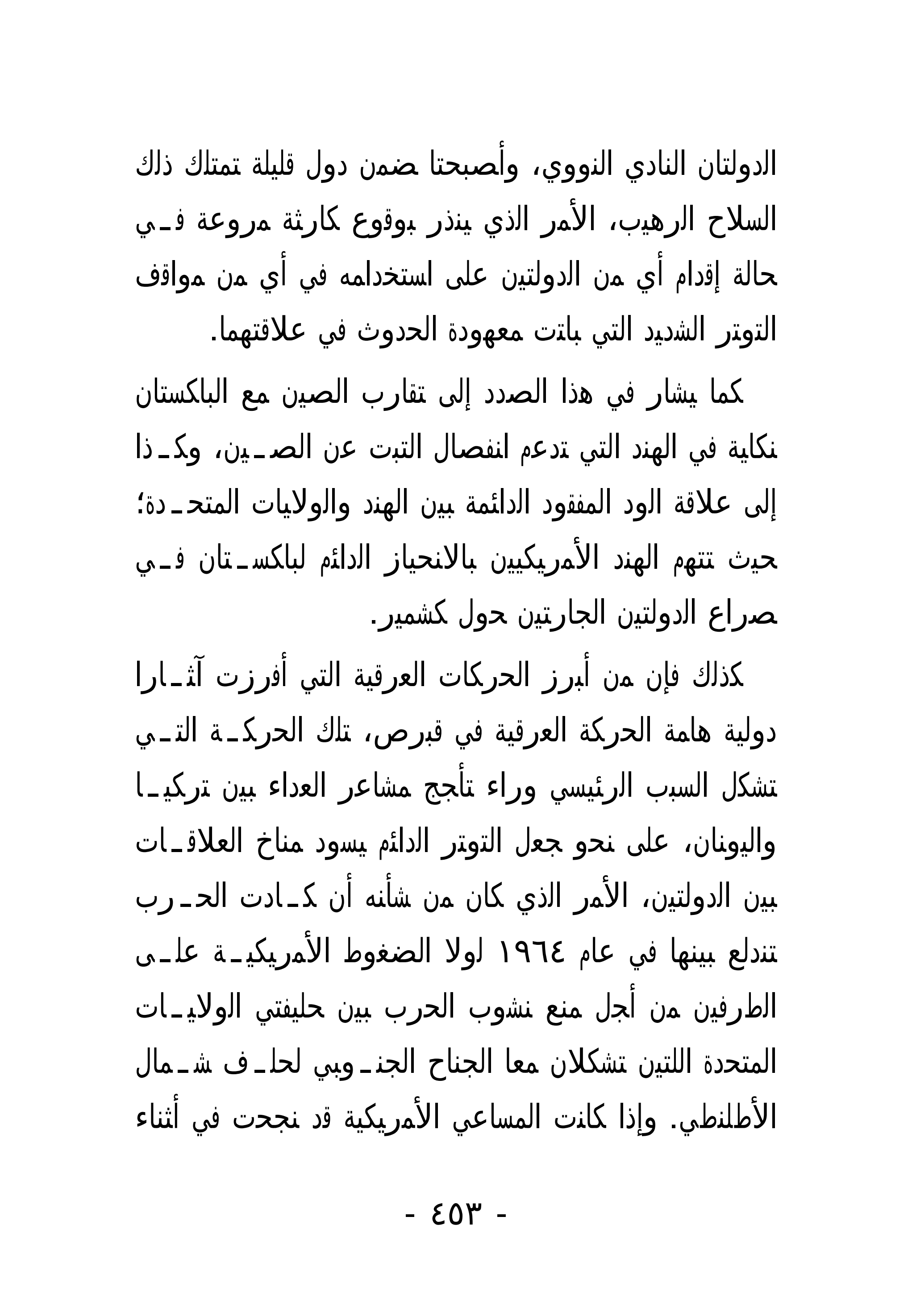
كما يشار كذلك إلى أن الولايات المتحدة قد راحت خـلال السنوات الأخيرة تقدم يد العون لجون جارانج، وتسعى إلـى الإيقاع بين السودان وكل من أوغندا وإريتريا، مستهدفة مـن وراء ذلك تقويض وإسقاط النظام الإسـلامي المنـاوئ لهـا والقائم في السودان منذ عام ١٩٨٩.

على صعيد آخر وفي إطار الحديث عن الآثـار الدوليـة للحركات العرقية فقد اتضح لنا – من خلال عرضنا للحركة الكردية – أن هذه الحركة كانت لها على الدوام آثار هامـة على العلاقات بين الدول المعنية بها؛ إذ كانت لها آثارها على العلاقات التركية الإيرانية، كما كانـت لهـا آثارهـا علـى العلاقات الإيرانية العراقية، وكذا على العلاقـات العراقيـة التركية، والعلاقات التركية السورية.. وهكذا. كما رأينا مـا أحدثته قضية إلقاء القـبض علـى زعـيم حـزب العمـال الكردستاني (عبد ا أوجلان) من إضفاء أجواء ملؤها التوتر على العلاقات التركية اليونانية، وكـذا العلاقـات التركيـة السورية، والعلاقات التركية الإيطالية، نظرا لاتهـام تركيـا للدول الثلاث (اليونان وسوريا وإيطاليـا) بـإيواء أوجـلان فترات متباينة على أراضيها قبل القبض عليـه فـي كينيـا (محطته الأخيرة) مع بداية عام ١٩٩٩.

كما لاحظنا ما أحدثه حكم المحاكم التركية بإعدام أوجلان من تأثيرات سلبية على علاقة تركيا بالاتحـاد الأوروبـي، وتأكيـد الأوروبيين على عرقلة دخول الأتراك إلى الاتحاد إن هم أقدموا على تنفيذ الحكم، الأمر الذي أجبر رئيس الوزراء التركي بولنت أجاويد على وقف تنفيذ ذلك الحكم على نحو ما سبق أن أشرنا.



ولعل من أبرز الحركات العرقية التي أفرزت آثارا دولية هامة الحركة الانفصالية في جامو وكشـمير الهنديـة، تلـك الحركة التي تمخضت عن انسياق الهنـد والباكسـتان إلـى محاربة كلتيهما الأخرى غير مـرة أظهرهـا حـرب عـام ١٩٤٨، وحرب عام ١٩٦٥. إنها الحركة التي جعلت التوتر الشديد هو الصفة الملازمة للعلاقات بين الدولتين، على نحو أوجد حالة من الغليان الدائم تسود منطقة الحدود الباكسـتانية الهندية، ولعل الأمر الأخطر بصدد ما تقدم هو تصاعد سباق التسلح بين الدولتين إلى حد امتلاك كلتيهما للسلاح النـووي، والذي جاء كتتويج لجملة المساعي الدءوبة التي بـذلها كـلا الطرفين في مجال إقامة المفاعلات النووية منذ عام ١٩٥٥، وقد فجرت كلتا الدولتين قنبلتها النووية الأولـى فـي مـايو ١٩٩٨؛ إذ ما أن فجر الهنود قنبلتهم مـن خـلال تجـاربهم النووية في بداية ذلك الشهر، حتى فعل الباكستانيون الشـيء نفسه إثر ذلك بأيام قلائـل لتتحقـق بـذلك مقولـة الـزعيم الباكستاني الأسبق ذو الفقار علي بوتو عندما أعلن في عـام ١٩٧٤ أن بلاده سوف تجوع وتأكل العشب من أجل إنتـاج القنبلة النووية إن فعلها الهنود وأنتجوهـا. وهكـذا دخلـت



الدولتان النادي النووي، وأصبحتا ضمن دول قليلة تمتلك ذلك السلاح الرهيب، الأمر الذي ينذر بوقوع كارثة مروعة في حالة إقدام أي من الدولتين على استخدامه في أي من مواقف التوتر الشديد التي باتت معهودة الحدوث في علاقتهما.

كما يشار في هذا الصدد إلى تقارب الصين مع الباكستان نكاية في الهند التي تدعم انفصال التبت عن الصين، وكذا إلى علاقة الود المفقود الدائمة بين الهند والولايات المتحدة؛ حيث تتهم الهند الأمريكيين بالانحياز الدائم لباكستان في صراع الدولتين الجارتين حول كشمير.

كذلك فإن من أبرز الحركات العرقية التي أفرزت آثارا دولية هامة الحركة العرقية في قبرص، تلك الحركة التي تشكل السبب الرئيسي وراء تأجج مشاعر العداء بين تركيا واليونان، على نحو جعل التوتر الدائم يسود مناخ العلاقات بين الدولتين، الأمر الذي كان من شأنه أن كادت الحرب تندلع بينهما في عام ١٩٦٤ لولا الضغوط الأمريكية على الطرفين من أجل منع نشوب الحرب بين حليفتي الولايات المتحدة اللتين تشكلان معا الجناح الجنوبي لحلف شمال الأطلنطي. وإذا كانت المساعي الأمريكية قد نجحت في أثناء

اليونان وتركيا عن الانسياق إلى الحرب عام ١٩٦٤ فإن هذه المساعي الأمريكية لم تفلح في بلوغ نفس الغاية عام ١٩٧٤ عندما اجتاحت الجيوش التركية قبرص على إثر ورود أنباء عن سعي القبارصة اليونانيين إلى إعمال مبـدأ الإينـوزيس والانضمام بالجزيرة إلى اليونان. وقد سيطرت تركيا علـى قطاع يشكل حوالي ٤٠ % من أراضي الجزيرة القبرصـية، وأعلنتها إقليما لدولة قبرصية تركية، بـرغم أن القبارصـة الأتراك لا يشكلون سوى ٢٠ % فقط من سكان قبرص[٣٩١]. ولا تزال الدولة القبرصية التركية قائمة حتى يومنا هذا، كما لا تزال المسألة القبرصية تُشكل مصدر توتر دائم يخيم على أجواء العلاقات اليونانيـة التركيـة، وتصـيب دول حلـف الأطلنطي – وعلى رأسها الولايات المتحـدة – بالارتبـاك والحيرة وهي ترسم سياستها إزاء دولتين حليفتين، لكنهما في الوقت ذاته في حالة صراع دائم.

---

[٣٩١] راجع في هذا المضمون على سبيل المثال: أحمـد وهبـان، العلاقـات الأمريكية الأوروبية، مرجع سبق ذكره، من ص ٢١٢ إلى ص ٢٤٨.

على صعيد آخر فإنه لا يفوتنا في هذا المقام أن ننوع إلى ما أصبحت الحركات العرقية تستقطبه من اهتمـام دولـي، فضلاً عما يتمخض عنه معظم الصراعات العرقية من خلـق أي رأي عام دولي يتمحور اهتمامه حول هذه الصـراعات، ويطالب بإيجاد الحلول لها. ولنا على ذلـك أمثلـة عديـدة أظهرها ما استقطبته الحرب العرقية في البوسنة من اهتمـام من قِبل جماعة الدول، وكذا من جانب الأمم المتحدة، فضـلاً عما تمخضت عنه تلك الحرب – بما شهدته من ممارسـات همجية – من خلق رأي عام دولي، راح يدين مـا انطـوت عليه من خرق جسيم لكل مبادئ الإنسانية الحقة، وبالتالي فقد شكل عامل ضغط على جماعة الدول لكي تخف إلى وقـف الصراع الدامي في البوسنة [٣٩٢]، وهو ما حدث بالفعل عـام

---

[٣٩٢] راجع بصدد المشكلة البوسنية على سبيل المثال:

Remington, Robin Alison, Bosnia: The Tangled web, Current History, November, ١٩٩٣ PP. ٣٦٤ – ٣٦٩.

وكذا: مجدي نصيف، حرب البوسـنة والهرسـك، فـي إطارهـا السياسي، والاقتصادي، القومي، العرقي، الـديني، دار المسـتقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٣.

١٩٩٦ عندما اضطر الصرب تحت جعـل العـالم كقريـة صغيرة يتيسر لأي من سكانها متابعة كل ما يجـري لبـاقي السكان، داخل أي مكان من تلك القرية.

ومهما يكن من أمر كل ما تقدم فـإن أظهـر الحركـات العرقية إفرازا لآثار دولية كانت تلك الحركات التي ظهـرت في الاتحاد السوفييتي السابق منذ منتصف الثمانينيات، وأدت إلى تفككه وزواله، على نحو أحدث تغييرات جد خطيرة في موازين القوى الدولية على النحو الذي سنعرض له تفصـيلاً في القسم الثالث من هذا الكتاب.

* * *

تقـرير:

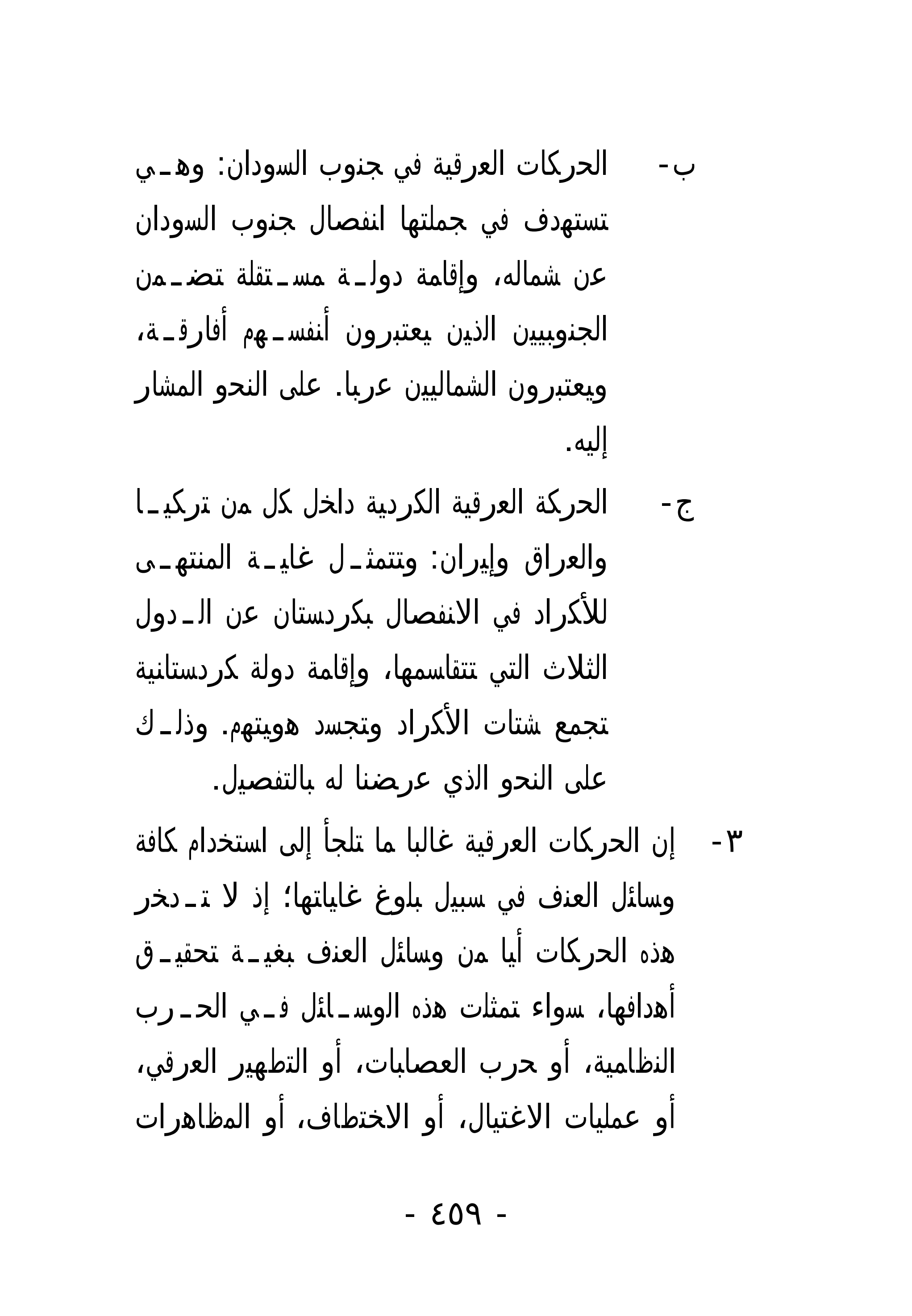
قدمنا في هذا القسم تحليلاً لظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر، واضعين نصب أعيننا الوقوف على السمات العامة المشتركة لتلك الحركات، والتي تجعل منها ظاهرة بحق. وقد خلصنا من تحليلنا للظاهرة موضوع البحث إلى أن ثمة سمات عامة تشير الملاحظة إلى أن سائر الحركات العرقية تكاد تشترك فيها. وتتمثل هذه السمات العامة المشتركة في:

١- إن الحركات العرقية ترتبط من حيث وجودها بالدول متنوعة العرقيات، سواء أكانت هذه الدول تدخل في مصاف الدول المتقدمة حال كندا وأسبانيا والمملكة المتحدة، أو كانت تنتمي إلى العالم الثالث حال كل من السودان، وليبيريا، ورواندا، وبوروندي، والعراق، وسريلانكا، والهند، وإثيوبيا، وغيرها. وقد عرضنا بالتفصيل للحركة العرقية الكردية وكذا الحركة العرقية في جنوب السودان كنموذجين للحركات العرقية في العالم الثالث، كما عرضنا للحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي

كنموذج للحركات العرقية في الدول التي تدخل في مصاف الدول المتقدمة.

٢- إن الحركات العرقية غالبـا مـا تكـون حركـات انفصالية وقد أشرنا في هذا الصدد إلى نماذج عديدة للحركات العرقية الانفصالية حال الحركة التاميليـة (نمور التاميل) في سريلانكا، وحركة مسلمي جامو وكشمير في الهند، وحركة تيمـور الشـرقية فـي إندونيسيا، وحركة الجيش الجمهوري الأيرلندي في أيرلندا الشمالية بالمملكة المتحدة، وحركة الباسكيين في إسبانيا، وحركة مهاجر قومي فـي باكسـتان.. وغيرها، وذلك بطبيعة الحال فضلاً عن الحركـات الثلاث التي عرضنا لها بالتفصيل والتـي انتهينـا بصددها إلى ما يلي:

أ- الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي: وهي تستهدف انفصال إقليم كيبيـك ذي الأغلبيـة الفرنسية عن كندا، وإقامة دولة مستقلة تجمع شتات الكنديين الفرنسـيين، كمـا سـبق أن أشرنا.



ب- الحركات العرقية في جنوب السودان: وهي تستهدف في جملتها انفصال جنوب السودان عن شماله، وإقامة دولة مستقلة تضمن الجنوبيين الذين يعتبرون أنفسهم أفارقة، ويعتبرون الشماليين عربا. على النحو المشار إليه.

ج- الحركة العرقية الكردية داخل كل من تركيا والعراق وإيران: وتتمثل غاية المنتهى للأكراد في الانفصال بكردستان عن الدول الثلاث التي تتقاسمها، وإقامة دولة كردستانية تجمع شتات الأكراد وتجسد هويتهم. وذلك على النحو الذي عرضنا له بالتفصيل.

٣- إن الحركات العرقية غالبا ما تلجأ إلى استخدام كافة وسائل العنف في سبيل بلوغ غاياتها؛ إذ لا تدخر هذه الحركات أيا من وسائل العنف بغية تحقيق أهدافها، سواء تمثلت هذه الوسائل في الحرب النظامية، أو حرب العصابات، أو التطهير العرقي، أو عمليات الاغتيال، أو الاختطاف، أو المظاهرات

ذات الطابع العنفي، أو غيرها. وقد أشرنا للعديد من النماذج للحركات العرقية وما تمخض عنه استخدامها العنف من آثار، حال حركة التوتسي وحركة الهوتو في رواندا، ونظيرتيهما في بوروندي، وحركة جماعتي الجيو والمانو في مواجهة جماعة الكراهن في ليبريا، وحركة الجيش الجمهوري في أيرلندا، وحركة الباسك في إسبانيا، وحركة نمور التاميل في سريلانكا.. وغيرها. أما فيما يتصل بالنماذج التي عرضنا لها تفصيلاً فقد خلصنا – بصدد مدى استخدامها للعنف – إلى ما يلي:

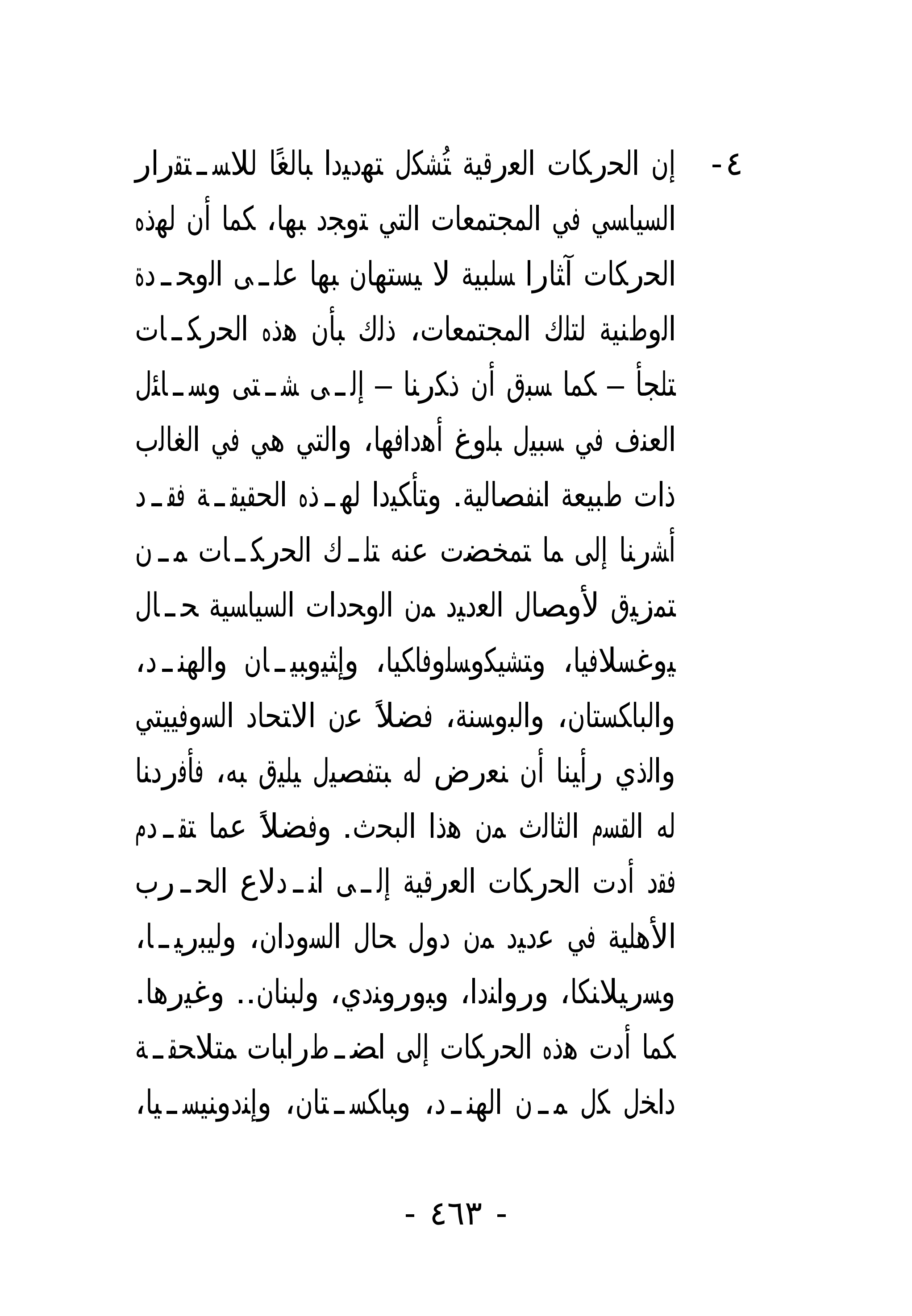
أ- **الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي:** وقد أشرنا بصددها إلى أن ثمة جناحا داخل التيار الانفصالي الكيبيكي لا يتورع عن التوسل بشتى وسائل العنف بغية بلوغ غايته، ويتمثل هذا الجناح في جبهة تحرير كيبيك، تلك الجبهة التي جعلت ديدنها عمليات الاختطاف، والاغتيال، والتخريب، والإرهاب بشتى

صوره، الأمر الذي كان من شأنه أن رصدنا ملاحظة قوامها أنه حتى في ظل المجتمعات الديمقراطية قد تنشأ حركات عرقية انفصالية يغلب على وسائلها طابع العنف، وذلك على الرغم مما يتوافر في ظل هذه المجتمعات من قنوات عديدة شرعية للتعبير عن الآراء. ولعله مما يؤكد صحة هذه الملاحظة ما تقوم به الحركة العرقية الأيرلندية الانفصالية (ممثلة في الجيش الجمهوري) من أعمال عنف متواصلة بغية الوصول إلى هدفها المتمثل في انفصال شمال أيرلندا عن المملكة المتحدة، وذلك كله على الرغم من الطبيعة الديمقراطية للنظام السياسي البريطاني.

ب- **الحركة العرقية في جنوب السودان:** وقد دخلت هذه الحركة (ممثلة في الجبهة الشعبية لتحرير السودان بزعامة جون جارانج) في حرب أهلية مع قوات الحكومة السودانية منذ عام ١٩٨٣، وقد تمخضت تلك الحرب –

طبقًا لتقديرات الحكومة السودانية – خلال الفترة (١٩٨٩ – ١٩٩٤) وحدها عن مصرع ما يربو على الخمسين ألف مسلح، فضلاً عن عشرات الآلاف من المدنيين. كما أسفرت الحرب عن تدمير عشرات القرى والمدن، وفرار عشرات الآلاف من أبناء جنوب السودان إلى الدول المجاورة كلاجئين.

ج- **الحركة العرقية الكردية داخل كل من تركيا والعراق وإيران:** وقد قام الأكراد – على طول تاريخهم – بعشرات الثورات بغية تحقيق هدفهم في إنشاء كردستان المستقلة، ولعل من أبرز الأمثلة المعاصرة على لجوئهم إلى العنف ما قام به حزب العمال الكردستاني في تركيا وحدها من عمليات عنف في مواجهة المنشآت التركية منذ عام ١٩٨٤، وعلى سبيل المثال فقد قام الحزب – خلال الفترة (١٩٩٠ – ١٩٩٤) – بحوالي ٨٦٠٠ عملية عسكرية في مواجهة القوات، والمنشآت التركية.



٤- إن الحركات العرقية تُشكل تهديدا بالغًا للاستقرار السياسي في المجتمعات التي توجد بها، كما أن لهذه الحركات آثارا سلبية لا يستهان بها على الوحدة الوطنية لتلك المجتمعات، ذلك بأن هذه الحركات تلجأ – كما سبق أن ذكرنا – إلى شتى وسائل العنف في سبيل بلوغ أهدافها، والتي هي في الغالب ذات طبيعة انفصالية. وتأكيدا لهذه الحقيقة فقد أشرنا إلى ما تمخضت عنه تلك الحركات من تمزيق لأوصال العديد من الوحدات السياسية حال يوغسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا، وإثيوبيان والهند، والباكستان، والبوسنة، فضلاً عن الاتحاد السوفييتي والذي رأينا أن نعرض له بتفصيل يليق به، فأفردنا له القسم الثالث من هذا البحث. وفضلاً عما تقدم فقد أدت الحركات العرقية إلى اندلاع الحرب الأهلية في عديد من دول حال السودان، وليبريا، وسريلانكا، ورواندا، وبوروندي، ولبنان.. وغيرها. كما أدت هذه الحركات إلى اضطرابات متلاحقة داخل كل من الهند، وباكستان، وإندونيسيا،

والمملكة المتحدة، وإسبانيا، والصين، أمـا بصـدد الحالات التفصيلية التي عرضنا لها فقد خلصنا من هذا العرض إلى ما يلي:

أ- الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي: وقـد خلصنا إلى أن هذه الحركة – برغم ما يغلب على وسائلها من طابع سلمي – تشكل تهديدا عظيم الشأن لوحدة أراضي الدولة الكنديـة؛ إذ في ظل وجودها بات الانقسـام يشـكل خطرا داهما يكاد يعصف بكيان هذه الدولة، ويجعل استقرارها في مهب الريح، لا سـيما وأن نتائج استفتاء خريف عـام ١٩٩٥ قـد أكدت تعاظم نسـبة الكيبيكيـين المؤيـدين لانفصال كيبيك عن كندا.

ب- الحركة العرقية في جنـوب السـودان: وقـد تمخضت عن اندلاع حرب أهلية دامية بـدأت منذ استقلال السودان عام ١٩٥٦ واسـتمرت حتى عام ١٩٧٢، وتوقفت لمدة أحـد عشـر عاما، ثم ما لبثت أن اندلعت من جديد في عام ١٩٨٣، ولا تزال رحاها دائرة حتى الآن.

ج- الحركات العرقية الكردية: وهـي وإن كـان تهديدها لاستقرار إيران ضئيلاً إلا أنها تشكل تهديدا عظيم الشأن لاستقرار كل من تركيا، والعراق على النحو الذي عرضنا له تفصيلاً.

٥- إن الحركات العرقية – برغم كونها حركات داخلية – إلا أنها كثيرا ما تتمخض عن آثار دولية هامـة، وقد أشرنا في هذا الصدد إلى دور الحركة العرقية في جامو وكشمير فيما يتصل بتأجيج الصراع بين الهند وباكستان، كما عرضنا لأثر الحركة العرقيـة في قبرص فيما يتعلق بتحريك الصراع بين تركيـا واليونان. أما بصدد الحالات التفصيلية التي عرضنا لها فقد خلصنا فيما يتصل بآثارها الدولية إلى مـا يلي:

أ- الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي: وقـد خلصنا بصددها إلى أنها كانت لها دوما آثار سلبية هامة على العلاقات الكندية الفرنسـية لا سيما خلال فترة اعتلاء ديجول لسدة الحكم في فرنسا.

ب- الحركة العرقية في جنوب السودان: وقد أوضحنا أنها كانت لها آثار سلبية على العلاقات بين السودان وجيرانه الذين كانوا يقدمون الدعم للانفصاليين في الجنوب حال إثيوبيا (خلال عهدي الإمبراطور هيلاسلاسي والرئيس منجستو ماريام)، وأوغندا في وقتنا الراهن.

ج- الحركة العرقية الكردية: وقد أوضحنا أنها كانت لها آثار هامة على العلاقات بين الدول المعنية بها؛ إذ كانت – ولا تزال – لها آثارها على العلاقات التركية الإيرانية، وكذا على العلاقات الإيرانية العراقية، والعلاقات التركية العراقية، والعلاقات السورية التركية.. وهكذا..

وفي النهاية فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها بعد كل ما قدمنا إلا وهي أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجمع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.

ومهما يكن الأمر فإنه بغية استجلاء كافة الحقـائق التـي وقفنا عليها من خلال القسمين الأول والثاني فإننـا سـنتوج بحثنا هذا بدراسة للحركات العرقية في الاتحـاد السـوفييتي (السابق)، نظرا لما كان لهذه الحركات من تأثيرات عظيمـة الشأن على الواقع السياسي في عالمنا المعاصر قاطبة، ذلـك فضلاً عما انطوت عليه هذه الحركات من تنوع هائـل مـن شأن الوقوف عليه وتحليله، أن يثري أي عمل علمـي فـي مجال الحركات العرقية. ومن هنا فإننا سنفرد القسم الثالـث من كتابنا هذا لدراسة الحركات العرقية في الاتحاد السوفييتي السابق.

القسم الثالث

في الحركات العرقية

وانهيار الاتحاد السوفييتي

(دراسة خاصة)

تصديـر:

يعج العالم المعاصر بالبلدان التي تتسم بتعـددها العرقـي Multi – Ethnic Societies. ولقد كان الاتحاد السوفييتي السابق يمثل بحق واحدا من أظهر هذه البلـدان؛ إذ انطـوى كيانه البشري على تنوع عرقي هائل، وعلى نحو هيأ لقـول البعض بأن: "الاتحاد السوفييتي يمثل إمبراطورية في عصر لا يعرف الإمبراطوريات" [٣٩٣].

وعلى أية حال فإن الاتحاد السوفييتي (السابق) كان وريث إمبراطورية دامـت لقـرون عديـدة منصـرمة ألا وهـي الإمبراطورية الروسية، تلك الإمبراطورية التي أسس بنيانها على التجميع الإجباري للشعوب من خلال صراعات مسلحة عديدة خاضها القياصرة الروس مع جيرانهم في شتى أصقاع

---

[٣٩٣] هيلين كارير دانكوس، انتفاضة القوميات في الاتحاد السـوفيتي، ترجمة: حسن نافعة، مجلة السياسة الدولية، العـدد ٦٦، أكتـوبر ١٩٨١، ص ١٧٧.

القارتين الآسيوية والأوربية، عبر عشـرات العقـود [٣٩٤].
وهكذا فقد اشتمل الكيان البشري للإمبراطورية الروسية على شعوب شتى غير متجانسة، فلا هي ترتبط فيما بينهـا بأيـة روابط موضوعية كوحدة السلالة أو اللغة أو الدين، ولا هي ترغب في العيش المشترك. وعلى سبيل المثال فقـد أظهـر الإحصاء الذي تم في روسيا عام ١٨٩٧ أن ثمة مـا يربـو على المائة وست وأربعين لغـة ولهجـة مسـتخدمة داخـل الإمبراطورية الروسية [٣٩٥].

ولقد أحكم القياصرة الـروس قبضـتهم علـى الشـعوب الخاضعة لنيرهم مستخدمين إزاءها شـتى صـنوف القهـر والإكراه، ساعين بكل السبل إلى طمـس هوياتهـا العرقيـة وترويسها، قامعين أية حركة تستهدف الاستقلال لشعبها. غير

---

[٣٩٤] انظر بصدد هذه الصراعات: أنور عبد الملك، تحـرك الاتحـاد السوفيتي المستقبلي، مجلة السياسة الدولية، العـدد ٩٤، أكتـوبر ١٩٨٨، من ص ١٤٧ إلى ص ١٥١.

[٣٩٥] أفنير كورلين، ستانسيلاف تيوتيـوكين، سـقوط الإمبراطوريـة الروسية (١٩١٧)، ترجمة اسما حليم، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، (بدون تاريخ)، ص ٣٨.

أن مئات السنين من الحكم القيصري لم تفلح في طمس الهويات العرقية للشعوب الخاضعة للإمبراطورية الروسية، وإن كان القياصرة قد نجحوا في الحيلولة دون انفراط عقد إمبراطوريتهم، التي ظلت – على حد تعبير لينين – تُمثل سجنًا للشعوب (Prison of Peoples) [٣٩٦].

وعلى إثر الثورة البلشفية لعام ١٩١٧ ورث الاتحاد السوفييتي الإمبراطورية الروسية بجل أقاليمها وشتى أعراقها. ولقد راح البلاشفة – شأنهم في ذلك شأن أسلافهم القياصرة – يحكمون قبضتهم على الجماعات العرقية المشكلة للكيان السوفييتي، ساعين سعيا حثيثًا إلى صهر هذه الجماعات في بوتقة واحدة على نحو يهيئ لخلق شعب جديد واحد هو ما أسماه الزعماء السوفيت بالشعب السوفييتي. ولكن هل نجح البلاشفة فيما فشل فيه القياصرة؟ ذلكم هو التساؤل الذي سنحاول الإجابة عليه في هذا القسم.

---

(٣٩٦) D'Encausse, Héléne Carrére, When "Prison of Peoples" was opened, in: Denber, Rachel (ed.), The Soviet Nationality reader: The disintegration in Context, West view Press, Oxford, ١٩٩٢, p. ٨٧.

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه كان ثمة تباين بين الزعماء الذين تعاقبوا على الحكم في الاتحاد السوفييتي بصدد السياسات التي اتبعوها في مختلف قطاعات المجتمع؛ إذ يمكن أن نميز في هذا الصدد بين مرحلتين تباينت تلك السياسات تباينًا كبيرا في ظل كل منهما. وتتمثل المرحلة الأولى، والتي دامت لعدة عقود امتدت من عام ١٩١٧ (بتولي لينين مقاليد السلطة) وحتى ما قبل مجيء جورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٥، في حين تتمثل المرحلة الثانية في الفترة التي اعتلى فيها جورباتشوف سدة الحكم في الكريملين، وهي الفترة التي لم تدم لأكثر من بضع سنين، وإن كانت قد شهدت تحولات أيديولوجية عظيمة الشأن كان لها بالغ الأثر على شتى قطاعات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل الاتحاد السوفييتي، ذلك فضلاً عن آثارها الواضحة على "المسألة القومية" فيما يتصل بطبيعة العلاقات بين الجماعات العرقية المسيطرة (أي المركز المتمثل في روسيا)، والجماعات العرقية الأخرى (أي المحيط المتمثل في باقي الجمهوريات السوفييتية).

وتأسيسا على ما تقدم فإننا سنعرض للحركات العرقية في الاتحاد السوفييتي السابق في ثنايا فصلين نخصص أولهما للتعريف بالحركات العرقية في الاتحاد السوفييتي خلال الفترة (١٩١٧ – ١٩٨٤)، أي فترة ما قبل الحكم الجورباتشوفي، في حين نعالج في الفصل الثاني الحركات العرقية في الاتحاد السوفييتي خلال عهد جورباتشوف، وهي الفترة التي انتهت بانفراط عقد الاتحاد السوفييتي في نهاية عام ١٩٩١.

وجملة القول – إذًا – أن هذا القسم سينطوي على فصلين نعنونهما على النحو التالي:

الفصل الأول : الحركات العرقية في الاتحاد السوفييتي خلال الفترة (١٩١٧ – ١٩٨٤).

الفصل الثاني : الحركات العرقية في الاتحاد السوفييتي خلال عهد جورباتشوف وما بعده.

* * *

الفصل الأول
في الحركات العرقية
في الاتحاد السوفييتي
خلال الفترة (١٩١٧ – ١٩٨٤)

تكونت الإمبراطورية الروسية القيصرية – علـى النحـو المشار إليه سلفًا – كنتيجـة لسياسـات توسـعية انتهجهـا القياصرة بدءا من القرن الخامس عشر؛ حيث تمخضت هذه السياسات عن إخضاع شعوب شتى متباينة السـلالة واللغـة والدين، ودمجها في إطار الإمبراطوريـة [٣٩٧]. وقـد راح القياصرة يحكمون قبضتهم على الشعوب الخاضعة لنيـرهم من خلال عمليات قمع رهيبة مورست فـي مواجهـة تلـك الشعوب، ولعل من أظهر صور القمع هذه ما تعـرض لـه المسلمون من صنوف شتى للاضطهاد والتنكيل، والإبادة التي تجلت أوضح صورها في المذابح التي قام بها إيفان الرهيب

---

[٣٩٧] انظر في هذا المضمون: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٥.

Ivan the Terrible خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر [٣٩٨].

ولقد ظلت الإمبراطورية الروسية قائمـة حتـى انـدلاع الثورة البلشفية واستيلاء الشيوعيين بزعامة لينين على الحكم في روسيا في أواخر عام ١٩١٧. ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا كان موقف البلاشفة وعلى رأسهم لينـين من المسألة القومية National Question؟ لقد كان الزعيم البلشفي كما أسلفنا القول يطلق على روسيا القيصرية "سـجن الشعوب"، وقد استطاع لينين اسـتخدام المشـاعر القوميـة كسلاح في مواجهة القياصرة؛ إذ راح يضيف إلى شعار "يـا عمال العالم اتحدوا" شعارا جديدا قوامـه "أيتهـا الشـعوب المسحوقة انهضي وثوري". ومن هنا فقد نجح في اكتسـاب تأييد ودعم الشعوب الخاضعة لإمرة القياصرة؛ إذ سرعان ما راحت هذه الشعوب تثور بالفعل لكي تحطم سـجنها الكبيـر

---

[٣٩٨] Broxup. Pari Bennigsen, Volga Tatars, in: Smith. Grhan, The Nationalities Question in Soviet Union, London, ١٩٩٠. P. ٢٧٨.

المتمثل في الإمبراطورية الروسية [399]، لا سيما وأن تلـك الشعوب كانت قد تلقت تأكيدات من جانب البلاشفة بصـيانة مقومات هويتها العرقية، ومنحها الحق في تقرير المصـير؛ حيث كان لينين ورفيقه ستالين قد وجها بيانات إلـى شـتى شعوب الإمبراطورية الروسية يدعوانها بمقتضاها إلى مساندة الثورة، باعتبار أن الثورة – على حد قولهما – هي السـبيل الوحيد أمام تلك الشعوب إن هـي أرادت صـيانة ذاتياتهـا والحصول على استقلالها. ولعل من أظهر هـذه البيانـات، البيان الذي وجهه الزعيمان البلشفيان إلى مسـلمين روسـيا والشرق في ٧ ديسمبر ١٩١٧ [400]، وقد جـاء فيـه: "يـا مسلمي روسيا، يا مسلمي الشرق، أيها الرفاق، أيها الإخـوة: في خضم هذه الأحداث العظام نلتفت إليكم يا مسلمي روسـيا والشرق الـذين اسـترقكم الاسـتعمار واسـتلب أمـوالكم وأراضيكم، يا مسلمي روسيا، يا تتار الفولجا والقرم، يا أيها

---

(399) انظر في هذا المضمون: هيلين كارير دانكـوس، مرجـع سـبق ذكره، ص ١٧٨.

(400) انظر بصدد هذا البيان تفصيلاً: محمد عبد القادر أحمـد، الجمهوريـات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي بين الماضي والحاضر، مكتبة النهضـة المصرية، القاهرة، ١٩٩٢، من ص ٦٨ إلى ص ٧١.

القرجيز وسكان سيبريا والتركستان، يا سكان القوقاز الأبطال وقبائل الشيشان وسكان الجبال الأشداء، أنتم يا مـن هـدمت مساجدكم، وحطمت معابدكم، ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم، وحاربوا دينكم وأبادوا ثقافتكم وعادات ولغاتكم، ثوروا مـن أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم في العبادة. إننـا هنـا نُعلـن احترامنا لدينكم ومساجدكم، وإن عاداتكم وتقاليدكم مصـونة لا يمكن المساس بها، ابنوا حياتكم الكريمة المستقلة دون أية معوقات، ولكم كل الحق في ذلك، واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية محمية بقـوة الثـورة ورجالهـا والعمـال والفلاحين والجنود. لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومسـاندتها لأنها تقوم من أجلكم ومن أجل حريتكم".

ولعله مما تجدر الإشارة إليه – أيضا – بصدد ما أعلنـه لينين عن حقوق القوميات أنـه ضـمن برنامجـه المبـادئ الأساسية الآتية [٤٠١]:

---

[٤٠١] انظر بصدد هذه المبادئ: ب. ج. غفـوروف وآخـرون، لينـين والتحرر الوطني في الشرق، ترجمة: مصطفى مجدي الجمـال، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٤٩، ٥٠.

١- المساواة والسيادة لشعوب روسيا.

٢- حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها بحرية بما في ذلك حقها في الانفصال وإقامة دولها المستقلة.

٣- محو كافة أشكال التميز أو التضييق على القوميات والأديان.

٤- التطور الحر للأقليات القومية والمجموعات الثقافية التي تعيش على الأراضي الروسية.

وتأكيدا لما تقدم نصت كافة الدساتير السوفييتية المتعاقبة بدءا من دستور عام ١٩١٨ وانتهاء بدستور ١٩٧٧ على "المساواة في الحقوق والواجبات بين الكادحين بغض النظر عن القومية أو العرق". كما نصت هذه الدساتير – وعلى رأسها دستور ١٩٣٦ – على "حق أية جمهورية سوفيتية اتحادية في تقرير مصيرها" [٤٠٢].

---

[٤٠٢] انظر في هذا الصدد على سبيل المثال:

Smith, Gordon B., Soviet Politics: Continuity and Contradiction, Macmillan Education, London, ١٩٨٨, P. ٣٠٨.

وأيضا: خيري عزيز، التغييرات الدستورية في الاتحاد السوفيتي، مجلة السياسة الدولية، العدد ٥٠، أكتوبر ١٩٧٧، ص ١٥٢، ١٣٥.

وكان لينين قد أكد في برنامجه بصدد ما أسـماه بالحـل الثوري للمسألة القومية على أن حق تقرير المصير لا يعنـي تقرير المصير الثقافي فحسب، وإنما يعني كذلك الحـق فـي تقرير المصير السياسي، في معنى أن لكل شعب

الحق في الاستقلال وتكوين دولة مستقلة [٤٠٣].

وجملة القول – إذًا – أن الزعماء البلاشفة وعلى رأسـهم لينين كانوا قد راحوا يؤكدون دوما في بياناتهم وبـرامجهم – بل ودساتيرهم – على تمسكهم بمبدأ حق تقرير المصير، بما في ذلك حق الشعوب في الانفصال عن الاتحـاد السـوفييتي وتكوين دول مستقلة تعبر عن ذاتياتها العرقية. ولكـن هـل طبق البلاشفة – بالفعل – هذا المبدأ "حق تقرير المصير"؟ أم أنه كان مجرد شعار أجوف شأنه فـي ذلـك شـأن شـتى الشعارات التي طالما تشدقوا بها؟ الحق أن ملاحظة الواقـع تشير إلى أن هذا المبدأ – لدى الزعماء السوفييت – لم يكـن

---

[٤٠٣] ألكسندر زيفيليف، المسألة القومية في الاتحاد السوفيتي، دار نشر وكالة نوفوستي، موسكو، ١٩٧١، ص ١٣. وأيضا:

Connor, Walker, The Soviet Prototype, in Denber, Op. Cit., P. ١٥.

سوى أحد شعاراتهم التي طالما طنطنوا بها ولم يلتزموا بهـا – في الواقع – قيد أنملة. ولعل صدق مقولتنا هذه سيتأكد في ثنايا عرضنا – فيما يلي – لسياسات الزعماء السوفييت إزاء ما أطلق عليه "المسألة القومية"، وذلك خلال الفترة موضـع دراستنا في هذا الفصل.

سياسات ومواقف الزعمـاء السـوفييت إزاء المسألة القومية (١٩١٧ – ١٩٨٤):

ضم الاتحاد السوفييتي السابق نحو مائة وخمـس عشـرة جماعة عرقية تتفاوت من حيث تعدادها. وفيمـا يلـي نقـدم جدولاً بأظهر الجماعات العرقية في الاتحاد السوفييتي السابق من حيث تعدادها حسب إحصاء عام ١٩٥٩، وإحصاء عـام ١٩٧٩:

الجماعة العرقية	التعداد بالآلاف عام (١٩٥٩)	التعداد بالآلاف عام (١٩٧٩)
الروس	١١٤,١١٤	١٣٧,٣٩٧
الأستونيون	٩٨٩	١,٠٢٠
اللاتفيون	١,٤٠٠	١,٤٣٩
الليتوانيون	٢,٣٢٦	٢,٨٥١
الأوكرانيون	٣٧,٢٥٣	٤٢,٣٤٧
البيلوروسيون	٧,٩١٣	٩,٤٦٣
المولداف	٢,٢١٤	٢,٩٦٨
الأرمن	٢,٧٨٧	٤,١٥١
الأذربيجانيون	٢,٩٤٠	٥,٤٧٧
الجيورجيون	٢,٦٩٢	٣,٥٧١
الكازاخستنايون	٣,٦٢٢	٦,٥٥٦
الأوزبك	٦,٠١٥	١٢,٤٥٦
التركمان	١,٠٠٢	٢,٠٢٨

الجماعة العرقية	التعداد بالآلاف عام (١٩٥٩)	التعداد بالآلاف عام (١٩٧٩)
الطاجيك	١,٣٩٧	٢,٨٩٨
القرجيز Kirgis	٩٦٩	١,٩٠٦
التتار (بمن فيهم تتار القرم)	٤,٩٦٨	٦,٣١٧
الشوفاش Chuvash	١,٤٧٠	١,٧٥١
البشكير Bashkirs	٩٨٩	١,٣٧١
الموردوفيون Mordovians الشيشان Chechens	١,٢٨٥ ٤١٩	١,١٩٢ ٧٥٦
الأودمرتيون Udmurts	٦٢٥	٧١٤
الماريون Mari	٥٠٤	٦٢٢
الأوسيتيون Ossetians	٤١٣	٥٤٢
البوريات Buryats	٢٥٣	٣٥٣
الياقوت Yakut	٢٣٣	٣٢٨
الألمان	١,٦٢٠	١,٩٣٦
اليهود	٢,٢٦٨	١,٧٦١

الجماعة العرقية	التعداد بالآلاف عام (١٩٥٩)	التعداد بالآلاف عام (١٩٧٩)
البولنديون Poles	١,٣٨٠	١,١٥١

جدول رقم (٥)

المصدر: Smith, Gerham (ed.), Op. Cit., p. ٣٦٣

وإلى جانب الجماعات العرقية التي ينطوي عليها هذا الجدول، ضم الاتحاد السوفييتي عشرات الجماعات العرقية الأخرى مثل الأبخاز، والأنجوش، والكومي، والفاربادان، والدراجان Dargins، واللاكس، والبلغار، والرومانيين، والليجيان، والفازاك، وغيرها [٤٠٤]. ولقد كانت الجماعات الروسية تُمثل الجماعة العرقية الرئيسية في الاتحاد السوفييتي السابق؛ إذ كانت أكثر الجماعات عددا وأهمها شأنًا بحيث كان من المألوف استخدام كلمة الروس للدلالة على سكان

---

[٤٠٤] لتفاصيل أخرى انظر: تيد روبرت جار، مرجع سبق ذكره، من ص ٢٣١ إلى ص ٢٤٠.

الاتحاد السوفييتي [٤٠٥]، كما كان الزعماء السوفييت يطلقون عليها "الأخر الأكبر" Elder brother [٤٠٦].

وقد ظهر الاتحاد السوفييتي – من الناحيـة القانونيـة – بمقتضى معاهدة اتحادية أبرمت في ديسـمبر ١٩٢٢. ولقـد أكدت هذه المعاهدة – بناء على اقتراح لينـين – أن اتحـاد الجمهورية السوفييتية الاشتراكية (الدولة الوليدة) هو اتحـاد اختياري تتساوى في رحابه شتى الجمهوريات مـن حيـث الحقوق، كما تتمتع كل منها بالسيادة Sovereignty فضـلاً عن الحق فـي الانفصـال عـن الاتحـاد وتكـوين دولـة مستقلة[٤٠٧].

---

[٤٠٥] أحمد عباس عبد البديع، اضطرابات جورجيا ومشكلة القوميـات في الاتحاد السوفيتي، مجلة السياسة الدوليـة، العـدد ٩٧، يوليـو ١٩٨٩، ص ١٩٧.

[٤٠٦] D'Encausse, Op. Cit., p. ٩٢

[٤٠٧] انظر في هذا الصدد:

Smith, Gerham (ed.), Op., P. ٤ – ٦.

وتتعين الإشارة إلى أن الاتحاد السوفييتي السابق كان مقسما إلى كيانات إقليمية متنوعة، بتنوع أحجام الجماعات العرقية المشكلة له؛ إذ كان ثمة جمهورية اتحادية Union Republics أطلق على كل منها اسم مشتق من اسم الجماعة العرقية الكبرى فيها، في حين كانت ثمة جمهوريات تتمتع بالحكم الذاتي Autonomous Republics، ويشكل كل منها جزءا من نسيج إحدى الجمهوريات الاتحادية، وتضم هذه الجمهوريات المتمتعة بالحكم الذاتي الأقليات الهامة. وفضلاً عما تقدم فقد كانت الجمهوريات الاتحادية تنطوي على كيانات أخرى أظهرها الأقاليم المتمتعة بالحكم الذاتي Autonomous Provinces [٤٠٨]. وقد بلغ عدد الجمهوريات الاتحادية في الاتحاد السوفييتي السابق خمس عشرة جمهورية هي: روسيا، وأوكرانيا، وبيلوروسيا، وجورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان، وقازقستان، وأوزبكستان، وطاجكستان، وقرجيزيا، وتركمانيا، وليتوانيا، وإستونيا،

---

(٤٠٨) Barghoorn, Fredrick C. & Remington, Thomas F., Politics in USSR, Little, Brown and company, Third Edition, Boston, ١٩٨٦, pp. ٧٣ – ٧٤.

ولاتفيا، ومولدوفا. في حين كان ثمة عشرون جمهورية ذات حكم ذاتي أغلبها في روسيا، أما الأقـاليم المتمتعـة بـالحكم الذاتي فقد بلغ عددها ثمانية أقاليم [٤٠٩].

ونظرا للتنوع العرقي الهائل الذي انطوى عليـه الاتحـاد السوفييتي السابق، راح الزعماء السـوفييت خـلال الفتـرة (١٩١٧ – ١٩٨٤) يحكمون قبضتهم على الجماعات العرقية الخاضعة لحكمهم، واستخدموا شتى الوسائل بغيـة القضـاء على النزعات العرقية لدى هذه الجماعات، هادفين من وراء ذلك إلى صهرها في بوتقة واحدة بما يهيئ لخلـق جماعـة بشرية واحدة جديدة هي ما أسماه هؤلاء الزعمـاء بالشـعب السوفييتي. وقد تمثل أظهر الوسائل التي لجئوا إليها لتحقيـق هدفهم المنشود فيما يلي:

١- وسائل تتعلق بطبيعة النظام السياسي السوفييتي.

٢- الدعوة إلى فكرة الأممية البروليتارية Proletarian Internationalism كفكرة بديلة للقومية.

---

[٤٠٩] بطرس بطرس غالي، محمود خيري عيسى، المدخل فـي علـم السياسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٣٣.

٣- قمع أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الاتحاد السوفييتي.

٤- السعي إلى طمس الهويات العرقية للجماعات غير الروسية.

٥- سياسة الترويس Russification.

٦- اقتلاع الجماعات العرقية المتمردة وتشتيتها عبر جمهوريات أخرى بمنأى عن مواطنها الأصلية.

وفيما يلي نعرض لكل من هذه الوسائل بشيء من التفصيل:

أولاً: الوسائل التي تتعلق بطبيعة النظام السياسي السوفييتي:

لقد مثل النظام السياسي السوفييتي السابق – بطبيعته الشمولية – إحدى الركائز الهامة التي استند إليها سائر الزعماء السوفييت في إحكام قبضتهم على شتى الجماعات العرقية التي شكلت الكيان البشري للاتحاد السوفييتي السابق. وقد ارتكز ذلك النظام على حزب واحد هو الحزب الشيوعي، ذلك الحزب الذي راح يحتكر الحياة السياسية،

ويهيمن على شتى الأجهزة الرسمية للدولة، وعلـى رأسـها بطبيعة الحال المؤسسات السياسية الرسمية مـن تشـريعية (مجلس السوفييت الأعلى Superme Soviet of USSR)، وتنفيذية (هيئة الرئاسـة Presidium، ومجلـس الـوزراء Council of Ministers) [٤١٠]. وقـد اسـتند الحـزب الشيوعي السوفييتي إلى الأيديولوجية الماركسية معتبرا إياها الأيديولوجية الرسمية للدولة، ومعتبرا ذاته القوام عليها، فراح يفرضها على سائر أعضاء المجتمع متوسلاً إلى ذلك بشـتى الوسائل بما في ذلك الإرهاب والتنكيل، ومن هنا فقد كانـت الخاصة الكبرى للنظام السوفييتي هي ارتكـازه إلـى "مبـدأ الخوف" الذي تتسم به النظم الاستبدادية، على عكس الـنظم الشرعية التي تستند إلى "مبدأ الشرف" [٤١١]. وقـد تسـلطت

---

[٤١٠] انظر بصدد التنظيمات الهيراركية لمؤسسات الدولة السوفيتية:
Barghoorn & Remington, Op. Cit., PP. ٤٨٩ – ٥١٧.

[٤١١] انظر بصدد النظام السوفيتي السابق:
محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، مـن ص ١٢٥ إلى ص ١٢٩.

على الحزب الشيوعي قلة من المواطنين مشكلة لطبقة ممتازة بامتيازات لا حدود لها (اللجنة المركزية للحـزب Central Committee of CPSU)، ومن فوقها طاغية هو: "الرجل رقم ١"، الذي تتجسد فيه الدولة، فأعداؤه هم أعداء الشـعب، والتنكيل بهم مشروع لأنه يمارس – أيديولوجيا – لحسـاب الشعب، الذي هو الآخر في الواقع مجرد شعار أجـوف. إن أحدا لم يكن ليستطيع أن يأمن على نفسه من غـدر "الرجـل رقم واحد" ومهما كان موقعه على خريطة الحزب، أو فـي أجهزة السلطة الرسمية، لأن "الثورة مستمرة" ومن حقـه أن يزيل من طريقها كل من يقف في وجهه هو باعتبـاره مـن "أعداء الشعب" وتلكم كانت هي الفكرة التي ابتدعها سـتالين لكـي يتخـذ منهـا سـندا أيـديولوجيا للتنكيـل بأعدائـه الشخصيين[٤١٢].

محمد طه بدوي، ليلى أمين مرسي، النظم والحياة السياسـية، (بـدون ناشر)، الإسكندرية، ١٩٩١، من ص ١٨٦ إلى ص ٢٠٣، وكذلك من ص ٢٤٧ إلى ص ٢٤٩.

[٤١٢] نفس المرجع السابق.

ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك ما قام به ستالين من الإطاحة بتروتسكي Trotsky من كافة مناصبه لا لشيء إلا لأنه كان مخالفًا له في الرأي. وذلك على الرغم من أن تروتسكي كان أحد أبرز زعماء الثورة البلشفية (رفقاء لينين)، فضلاً عن كونه أحد المنظرين الماركسيين العظام، كما كان يحتل مواقع مرموقة على خريطة الحزب الشيوعي وكذا في مؤسسات الدولة خلال العهد اللينيني. ومع كل ذلك فها هو ستالين يقوم بإعفائه من شتى مناصبه، ثم يجبره على ترك الاتحاد السوفييتي، ويأمر بمحو اسمه تماما من شتى كتب التاريخ المدرسية والرسمية، فضلاً عن رفع مؤلفاته من المكتبات، ونسبة أعماله الإبداعية إلى غيره، ونزع صورته من مجموعة صور قادة الثورة البلشفية التي كانت معلقة في مكتبة لينين بموسكو، ولم يكتف ستالين بكل ذلك، وإنما دبر عملية لاغتيال تروتسكي – وهو ما تم بالفعل – في مكسيكو سيتي [٤١٣].

---

[٤١٣] Smith, Gordon B., Op. Cit., PP. ٤٠ - ٤١

وفضلاً عما تقدم فقد عمد ستالين – خلال النصف الثـاني من عقد الثلاثينيات – إلى استئصال المعارضين له ولحكمـه داخل الاتحاد السوفييتي، وتثبيت حكمه الديكتاتوري، وذلك من خلال عمليات التطهير Greaty Purge والتي تمـت خـلال الفترة (١٩٣٦ – ١٩٣٨)، والتي كان قوامها اسـتخدام شـتى صنوف الانتقام والقمع والتصفية الجسدية إزاء أولئـك الـذين كانت ثمة شبهات مثارة حول معارضتهم للحكم الستاليني. وقد طالت عمليات التطهير هذه أعضاء الحزب الشيوعي ومختلف منظماته، ورجال السلك الدبلوماسـي مـن سـفراء ووزراء مفوضين ومستشارين للسفارات، كما تمت تصفية العديد مـن كبار قادة الجيش. وعلى سبيل المثال نجد أنه قد تم إبادة أكثـر من نصف أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، كما تـم طرد أكثر من نصف أعضاء الحزب في المـدن الرئيسـية؛ حيث تم استبعاد ما يربو على المليون شخص منهم، وذلك كله خلال الفترة المذكورة [٤١٤]. وتتعين الإشارة إلى أن ستالين قد

---

[٤١٤] انظر في هذا الصدد بالتفصيل: ج. هـ. د. كول، الاشتراكية والفاشـية في ثلاثينيات هذا القرن، ترجمة: عبد الحميد الإسـلامبولي، المؤسسـة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر – الـدار المصـرية للتـأليف

حرص – خلال عمليات التطهير – على التخلص من الرفـاق غير الروس الذين كانوا يبدون مشاعر عرقيـة مهمـا بلـغ إخلاصهم ووفاؤهم للماركسية اللينينية، فعلى سبيل المثال تمت تصفية نسبة لا يستهان بها من المثقفين والمهنيين في جورجيا، تلك الجمهورية التي شهدت من الأعمـال الوحشـية والقتـل الجماعي والتنكيل الضاري ما يفوق بكثير ما طال غيرها من الجمهوريات السوفييتية [٤١٥].

ومن جانب آخر فقد كان الإعلام في ظل النظام السوفييتي السابق موجها على نحو مركزي، وخاضعا بشـتى وسـائله المقروءة والمسموعة والمرئية لرقابة صارمة مـن جانـب الحزب الشيوعي، كما انحصـر هـدف وسـائل الإعـلام السوفييتية المختلفة في الدعاية للنظـام السياسـي وتضـخيم إنجازاته أو حتى اختلاقها، والتعتيم على كل ما من شأنه أن يسيء إليه أو إلى أي من رموزه.

والترجمة، القاهرة، بدون تاريخ، من ص ٢٤٩ إلى ص ٢٥٢، وأيضـا:
Mcauley, Mary, Soviet Politics: ١٩١٧ – ١٩٩١, Oxford University Press, ١٩٩٢, pp. ٥٠ – ٥١.

[٤١٥] انظر في هذا المضمون: أحمد عباس عبد البديع، مرجـع سـبق ذكره، ص ١٩٩.

أما فيما يتصل بالحريات العامة فقد وضع النظـام قيـودا جمة عليها؛ إذ لم يكن ليسمح بحرية الرأي أو التعبيـر أيـا كانت وسائل هذا التعبير. فعلى سبيل المثال لم يكن التظـاهر عملاً مقبولاً على الإطلاق من جانب النظام السوفييتي، وقـد أدرك الرعايا السوفييت هذه الحقيقة المريرة من خلال تجربة قاسية، ذلك بأن آخر مظاهرة سمعوا عن اندلاعها في بلادهم كانت قد قامت في موسكو في ٧ نوفمبر عام ١٩٢٧. وقـد قوبلت هذه المظاهرة بالقمع من جانب قوات الشرطة التي لم تتردد في صب جام غضبها على كل رفاق لينين (من قـادة الثورة) الذين تجمعوا ضد السلطة التـي كـان سـتالين قـد اعتلاها آنذاك، وعلى إثر قمع المظاهرة اتهم منظموها (رفاق لينين) بمحاولة انتزاع السلطة من الحزب، وتمت تصـفيتهم جسديا بالتدريج.

وهكذا كان على الشعوب السوفييتية أن تعي الدرس جيدا وتدرك أنه لا أحد يتظاهر في وطن العمال، ذلك بأن العمال هم الذين يحكمون، فضد من – إذًا – يكون التظاهر[٤١٦]؟ لقد

---

[٤١٦] انظر في هـذا المضـمون: هيلـين كـارير دانكـوس، نهايـة الإمبراطورية السوفيتية: (مجد الأمم)، ترجمة: إبراهيم العـريس،

علمت تلك الشعوب أن أولئك الذين قد تسول لهم أنفسـهم أن يتظاهروا سوف يعتبرون – بداهـة وتبعـا لتقاليـد النظـام السوفييتي – أعداء الشعب، وهو الاتهام الذي لم يكن له مـن جزاءات – في ظل ذلك النظام – سوى الإعـدام، أو الـزج بمن يكون موضعا له في غياهب سجون سيبريا.

وفي إطار إحكام قبضة النظام على الجماعـات العرقيـة غير الروسية راح ستالين في عـام ١٩٣٨ يصـدر قانونـًا عسكريا بإلغاء الوحدات العسكرية الخاصة بالجمهوريات (أي الوحدات ذات الطابع العرقي). كما نص هذا القانون على أن تكون الخدمة العسكرية لأي فرد سوفيتي خارج جمهوريتـه، وفي نطاق وحدات عسكرية متعددة الأعراق، وذلـك حتـى يصبح الجيش بمثابة مدرسة حقيقية للأممية [٤١٧] تنتفي فـي ظلها النزعات العرقية البرجوازية.

دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث – الأرض للنشر، قبـرص، ١٩٩١، ص ٥٧.

[٤١٧] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق:

وتتعين الإشارة إلى أن سائر الزعماء السوفييت كانوا يعلقون آمالاً كبارا على الجيش معتبرين إياه إحدى الدعائم الرئيسية لوحدة السوفييت، وأحد السبل الحقة المهيئة لخلق شعب سوفيتي واحد وهو الهدف الذي طالما تطلعوا إليه.

أما فيما يتصل بتوزيع الاختصاصات بين الحكومة الفيدرالية (السوفييتية) وحكومات الجمهوريات فقد انطوت كافة الدساتير السوفييتية على تقليص اختصاصات الجمهوريات إلى حد كبير. وحسبنا أن نشير في هذا الصدد إلى أن اختصاصات الحكومة الفيدرالية قد تمثلت في الآتي[٤١٨]:

أ- الاختصاصات المتعلقة بمسائل الحرب والسلام، وتنظيم شئون الدفاع، وحماية سلامة الدولة.

ب- قبول انضمام جمهوريات جديدة إلى الاتحاد السوفييتي.

ج- الموافقة على تغيير حدود الجمهوريات الاتحادية.

---

(٤١٨) انظر بصدد هذه الاختصاصات: بطرس غالي، خيري عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٦.

د- الموافقة على تشكيل مناطق وأقاليم جديدة، وتشكيل جمهوريات ذات حكم ذاتي في نطاق الجمهوريـات الاتحادية.

ه- ضمان التوفيق بين دساتير الجمهوريات الاتحاديـة وبين الدستور الاتحادي. (حيث يتعـين أن تكـون دساتير الجمهوريات متوافقة مع الدستور الاتحادي (المادة ٧٣ من دستور ١٩٧٧)، كمـا أن لقـوانين الاتحاد قوة متساوية في أراضي كافة الجمهوريات، وفي حالة تعارض قوانين الاتحـاد مـع قـوانين الجمهوريات يسري قانون الاتحاد (المـادة ٧٤ – دستور ١٩٧٧) [٤١٩].

و- إدارة كافة شئون التجارة الخارجية علـى أسـاس احتكار الدولة.

ز- وضع المشاريع الاقتصادية القومية.

---

[٤١٩] هيلين كارير دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٣.

ح- التصديق على ميزانية الدولة الاتحادية وميزانيات الجمهوريات الاتحادية وغيرها من الميزانيات المحلية.

ط- إدارة النقل ووسائل الاتصال.

ي- إدارة البنوك وعقد القروض وإدارة نظام النقد ونظام الاعتمادات.

ك- الإشراف على البوليس السياسي [٤٢٠].

ل- باقي الشئون المالية والاقتصادية وشئون الغذاء والعمل ومفتشيات العمال والفلاحين، وإن كانت غير خاضعة لموسكو إلا أنها تخضع لقدر من التنسيق من جانبها [٤٢١].

أما ما عدا ذلك من اختصاصات فتتولاها الجمهوريات.

---

[٤٢٠] خيري عزيز، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٢.

[٤٢١] المرجع السابق.

والحق أننا نتفق تماما مع الرأي القائـل بأنـه بمقارنـة الصلاحيات التي احتفظ بها للمركز والصـلاحيات المخولـة للمحيط (الجمهوريات) يتضح أن صلاحيات الجمهوريات هي أقرب ما تكون إلى صلاحيات هيئات الحكم المحلي في أيـة دولة شديدة المركزية. وعلى سبيل المثال فإن الجمهوريـات لا تمارس أية صلاحيات ذات طابع سياسي بمـا فـي ذلـك الجمهوريات التي كانت تتمتـع بعضـوية الأمـم المتحـدة (أوكرانيا – بيلوروسيا)، فهي لم تمارس في الواقع أية سياسة خارجية مستقلة عن المركز [(٤٢٢)].

ولعله مما يثير الدهشة أنه على الـرغم مـن التضـاؤل المتناهي للصلاحيات المخولة للجمهوريات على النحو المتقدم فإن الزعماء السوفييت لم يتورعوا عن أن يضمنوا دساتيرهم الاتحادية نصا قوامـه: "أن الجمهوريـات الاتحاديـة هـي جمهوريات ذات سيادة" (المادة ٧٦ – دستور ١٩٧٧). ومن هنا فإننا نتساءل: أية سيادة يقصدون؟ إن السيادة تعني – كما هو متفق عليه بين المشتغلين بعلوم السياسة – انفراد الدولـة

[(٤٢٢)] دانكوس، انتفاضة القوميات...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٠.

بإصدار القرارات على مستوى مجتمعها الكلي في الـداخل، ورفض التقيد بأي قيد من الخـارج إلا بإرادتهـا [٤٢٣]. وإذا كان هذا هو مفهوم السيادة فهل بمقدور أحـد أن يـزعم أن جمهوريات المحـيط الســوفييتية (عديمـة الاختصاصـات السياسية وضئيلة الاختصاصات الأخرى) كانت جمهوريـات ذات سيادة؟ الحق أننا لا نملك إلا أن نقول بـأن السـيادة – بمفهومها لدى السوفييت – لم تكن سـوى خدعـة، وشـعار أجوف ليس له ظل من حقيقة شأنه فـي ذلـك شـأن كافـة الشعارات التي طالما تشدقوا بها.

وجملة القول في شأن ما تقدم أن الجماعات العرقية فـي الاتحاد السوفييتي السابق كانت قد أحكمت القبضة عليها من جانب الزعماء السوفييت خلال الفتـرة (١٩١٧ – ١٩٨٤)، من خلال نظام سياسي شمولي ارتكز إلى الحزب الشـيوعي باعتباره – حسب نص الدساتير السوفييتية – "القـوة التـي توجه وتدير المجتمع السوفييتي، والعامل الرئيسي في نظامه

---

[٤٢٣] محمد طه بدوي – ليلى أمين مرسي، النظم والحيـاة السياسـية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣.

السياسي" [٤٢٤]. ولقد راح هذا الحزب يفـرض أيديولوجيتـه على كافة أعضاء المجتمع بشتى الوسـائل بمـا فـي ذلـك الإرهاب والتنكيل، وإلى جانب احتكاره للحياة السياسية هيمن الحزب على مختلف الأجهزة الرسمية للدولة وعلى رأسـها المؤسسات السياسية، ومن فوقه طاغية هو "الرجل رقـم ١"، الذي يقوم من فوق الحزب بل ومن فوق المجتمـع والدولـة جميعا بسلطات مطلقة ونهائية، هيأت له تصـفية كـل مـن يعارضه. كما تميز هذا النظام بإعلام موجه شاغله الأوحـد الدعاية للنظام والتعتيم على أخطائه، ذلك فضلاً عن وضـع قيود هائلة على حرية الرأي والتعبير. وفوق كل ما تقدم عمد الزعماء السوفييت – في ثنايا دسـاتيرهم المختلفـة – إلـى تقليص الاختصاصات المخولة للجمهوريات إلى حد كبيـر، كما تم – بمقتضى القانون العسكري لعام ١٩٣٨ – تفكيـك الوحدات العسكرية الخاصة بتلك الجمهوريات، فلم يعد ثمـة سوى جيش واحد هو الجيش السوفييتي، أملاً في أن يكـون هذا الجيش بمثابة النواة لخلق شعب سوفيتي واحد.

---

[٤٢٤] محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٩.

وهكذا يمكن القول من خلال كل ما تقدم أن النظام السوفييتي – بمقوماته المتقدمة – قد مثل إطارا ضاغطًا على الجماعات العرقية بحيث لم تستطع إزاءه حراكًا. ولكن – وعلى الرغم من كل خصائصه هذه – هل نجح النظام السوفييتي بكل جبروته في وأد الحركات العرقية تماما؟ ذلكم هو ما سنحاول الإجابة عليه في ثنايا تحليلنا اللاحق.

ثانيا: الدعوة إلى فكرة الأممية البروليتارية كفكرة بديلة للقومية:

أكد لينين إبان الثورة البلشفية وغداتها – كما سبق أن أشرنا – إيمانه بمبدأ حق تقرير المصير، وبالتالي حق سائر الشعوب التي كانت خاضعة لنير الإمبراطورية الروسية في الانفصال عنها وتكوين دول مستقلة [٤٢٥]. ولكن هل يعني ذلك أن فكرة القومية (وما يرتبط بها من حق الشعوب في تقرير مصائرها) تتماشى مع الفكر الماركسي الذي اعتنقه البلاشفة؟ وهل كان البلاشفة مستعدين – حقًا – للسماح

---

[٤٢٥] Connor, Walker, The Soviet Prototype, in: Denber, Rachel (ed.) Op. Cit., P. ١٥.

للجماعات العرقية غير الروسية بالاستقلال وتكـوين دولهـا الخاصة المتمتعة بالسيادة الكاملة؟ الحق أن الفكر الماركسـي يرفض "القومية" باعتبارها من الميراث البرجـوازي [٤٢٦]، ويدعو إلـى فكـرة الأمميـة البروليتاريـة Proletarian Internationalism التي جسدها الشعار الشيوعي الأشـهر "يا عمال العالم.. اتحدوا"، والذي يدعو إلى تضامن الكادحين في شتى أرجاء البسيطة دونما تمييز بينهم بسـبب القوميـة، ومن هنا فقد راح ماركس يبشر بدولة الكـادحين العالميـة، والتي هي من فوق أمم العالم بشتى قومياتها [٤٢٧].

وكان ماركس وإنجلز قد أكدا في البيان الشـيوعي The Communist Manifesto رفضهما لفكرة القومية؛ حيـث قالا: "إن الثورة الصناعية قد قضت على القيم الثقافية العرقية والفوارق الاجتماعية المتأصلة في البيئة الريفيـة"، ثـم راح المفكرون الماركسيون – من بعد – يتجهون إلى الحط مـن

---

(٤٢٦) أماني الطرابيشي، اضطرابات الأرمن في الاتحاد السوفيتي، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩٣، يوليو ١٩٨٨، ص ٢٣٠.

(٤٢٧) انظر في هذا الصدد: محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦، ٥٧.

شأن القومية (والعرقية) ومهاجمتها على أسـاس ارتباطهـا بقوى الرجعية، فهم يرون أن الرأسماليين إنما يعملون علـى استغلال الفوارق والاختلافات العرقية لتفتيت وحدة ونضـال البروليتاريا. ومن هنا فإن على العمال أن يدركوا أن الروابط العرقية لا تُمثل سوى عنصر لا يعتد به في مواجهة الحقيقة الكبرى المتمثلة في انتمائهم إلى أخوة عالمية أوسع نطاقًا هي كونهم جميعا أُجراء مستعبدين، يستغلهم رؤساؤهم كالدواب. ولمجابهة هذه المعاملة غير الإنسانية لا بد للبروليتاريا مـن أن تكتسب الوعي الثوري الذي يتجـاوز نطـاق الـروابط العرقية الضيقة إلى رحاب الروابط الإنسانية [٤٢٨].

من جانب آخر فإن ثمة منظرين ماركسـيين (وغـربيين أيضا) يرون أن الروابط والقيم العرقية تأخذ فـي التـدهور بمعدلات سريعة تحت تأثير التصنيع والتحضر والعلمانيـة، وبالتالي فإنه لا يتعين تعليق أهمية كبيرة على قضايا العرقية في المجتمع الصناعي؛ حيث تتحدد العلاقات وفقًا للمصـالح الاقتصادية وأنماط الحياة الاجتماعية التي باتت تطغي علـى

---

[٤٢٨] انظر في هذا المضمون: أحمد عباس عبد البديع، مرجـع سـبق ذكره، ص ١٩٨.

العوامل والاختلافات العرقية وتحيلها إلى مكانة ثانوية فـي حياة الناس، بحيث لم يعد يتبقى لها من أثـر سـوى بعـض العادات والتقاليد، التي تزدهر في المناسبات الدينية المقدسـة والاحتفالات الثقافية القومية [٤٢٩].

ولقد كان لينين – ذاته – يرى أن القومية (البرجوازيـة)، والأممية (البروليتارية) تعتبـران أيـديولوجيتين متعـاديتين لا هوادة بينهما، كما كان من أهم المبادئ اللينينية – بصـدد المسألة القومية – مبدأ التضامن الأممي للكادحين من جميـع القوميات [٤٣٠]. كما أن ثمة حقيقة طالما لم يفطن إليها الكثير من المحللين بصدد موقف لينين مـن فكـرة حـق تقريـر المصير، وما تستتبعه من حق سائر الشعوب السوفييتية فـي الانفصال وتكوين دولة مستقلة، قوامها ما أكده المحللون من أن لينين كان يؤمن تماما بحق تقرير المصير، وأنـه كـان مقتنعا – بالفعل – بما أعلنه في برنامجه من حق الشـعوب السوفييتية في الاستقلال. غير أن الحقيقة – وهذا ما نـود أن نؤكده – هي أن لينين كان قد أعلن فيما يتعلق بحق الاستقلال

---

[٤٢٩] راجع في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٩٧.

[٤٣٠] زيفيليف، مرجع سبق ذكره، ص ١٥، ١٦.

"أنه لا يعني بالمرة أن الحزب الشيوعي سوف يؤيد رغبة كل قومية (جماعة عرقية) في الاستقلال، ذلك بأن الشرط الحاسم هنا هو مصالح النضال الطبقي للبروليتاريا، ومصالح الكفاح الظافر من أجل الثورة الاشتراكية" [٤٣١].

وبطبيعة الحال فإن هذه المصالح لم تسمح أبدا لأية جماعة عرقية بالانفصال عن الاتحاد السوفييتي، بل إنها اقتضـت – حسب زعم البلاشفة – ابتلاع عديد مـن شـعوب أخـرى، وضمها ضما قسريا إلى الكيان السوفييتي على النحو الـذي سنعرض له لاحقًا.

وهكذا فإن مبدأ حق تقرير المصير – لدى السوفييت – لم يكن – شأنه في ذلك شأن سائر شعاراتهم – سـوى مجـرد شعار أجوف. وقد استهدف البلاشفة – وعلى رأسهم لينين – من وراء رفع ذلك الشعار تحقيق هدفين: أحـدهما قصـير الأجل، والثاني طويل الأجل. وقد تمثل الهـدف الأول فـي اكتساب تأييد ودعم الشعوب – التي كانت خاضـعة للحكـم القيصري – إلى جانب الثورة البلشفية، وذلك من ثنايا إقنـاع

---

[٤٣١] نفس المرجع السابق، ص ١٣.

تلك الشعوب بأن الثورة هي السبيل الوحيـد أمامهـا لنيـل استقلالها. كذلك فقد سعى البلاشفة – من وراء إعلانهم عـن الإيمان بحق تقرير المصير – إلى استقطاب هـذه الشـعوب إلى صفهم خلال السنوات الأولى لحكمهم؛ حيث كان البلاشفة يعانون – وقتذاك – من حالة ضعف شديد؛ إذ كان الألمـان طوال الجزء الأكبر من عام ١٩١٨ يحتلون أوكرانيا، وبذلك انقطعت الصلة بين روسيا والبحر الأسود، ذلك فضلاً عـن حصول تركيا على أقاليم كارس وأردهان وباطوم بمقتضـى معاهدة برست ليتوفسك Brest – Litovsk [٤٣٢] التي وقعت في ٣ مارس عام ١٩١٨ بين روسيا، وألمانيـا، والنمسـا، وبلغاريا، وتركيا، والتي أجبر خلالها البلاشفة كـذلك علـى التنازل عن جمهوريات البلطيق الثلاث (ليتوانيا – لاتفيـا – إستونيا) [٤٣٣].

---

[٤٣٢] انظر في هذا الصدد بالتفصيل: إدوارد هاللت كـار، ثـورة البلاشـفة (١٩١٧ – ١٩٢٣)، الجزء الثالث، ترجمة: عبد الكريم أحمـد، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، من ص ٢٤١ إلى ص ٢٤٤.

[٤٣٣] انظر بصدد هذه المعاهدة: هارولد نيكلسون، الدبلوماسية، ترجمة: محمد مختار الزقزوقي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعـة الأولى، ١٩٥٧، ص ٢٣٦.

وفضلاً عما تقدم فقد كان موقف البلاشفة أكثـر حرجـا خلال الحرب الأهلية، لا سيما وأن الـدول المنتصـرة فـي الحرب العالمية الأولى – وعلى رأسها إنجلتـرا وفرنسـا – كانت تساند الجيش الأبيض (القيصري)، في مواجهة الجيش الأحمر البلشفي [٤٣٤]. وهكذا فإنه على الرغم من أن لينـين كان يعتبر أن فكرتي القومية وحق تقرير المصـير فكرتـان برجوازيتان إلا أنه استخدمهما كوسيلة تكتيكية ضـد العـدو القيصري [٤٣٥].

أما بصدد الهدف الثاني الذي توخاه البلاشـفة مـن وراء إعلانهم عن التمسك بحق تقرير المصير، وتأكيدهم في شتى دساتيرهم على هذا الحق، فهو هدف دعـائي، يتمثـل فـي محاولة الظهور أمام الشعوب المستعمرة وحركات التحـرر الوطني في العالم الثالث بمظهر النظام المدافع عن استقلالها،

---

[٤٣٤] إدوارد هالات كار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٤.

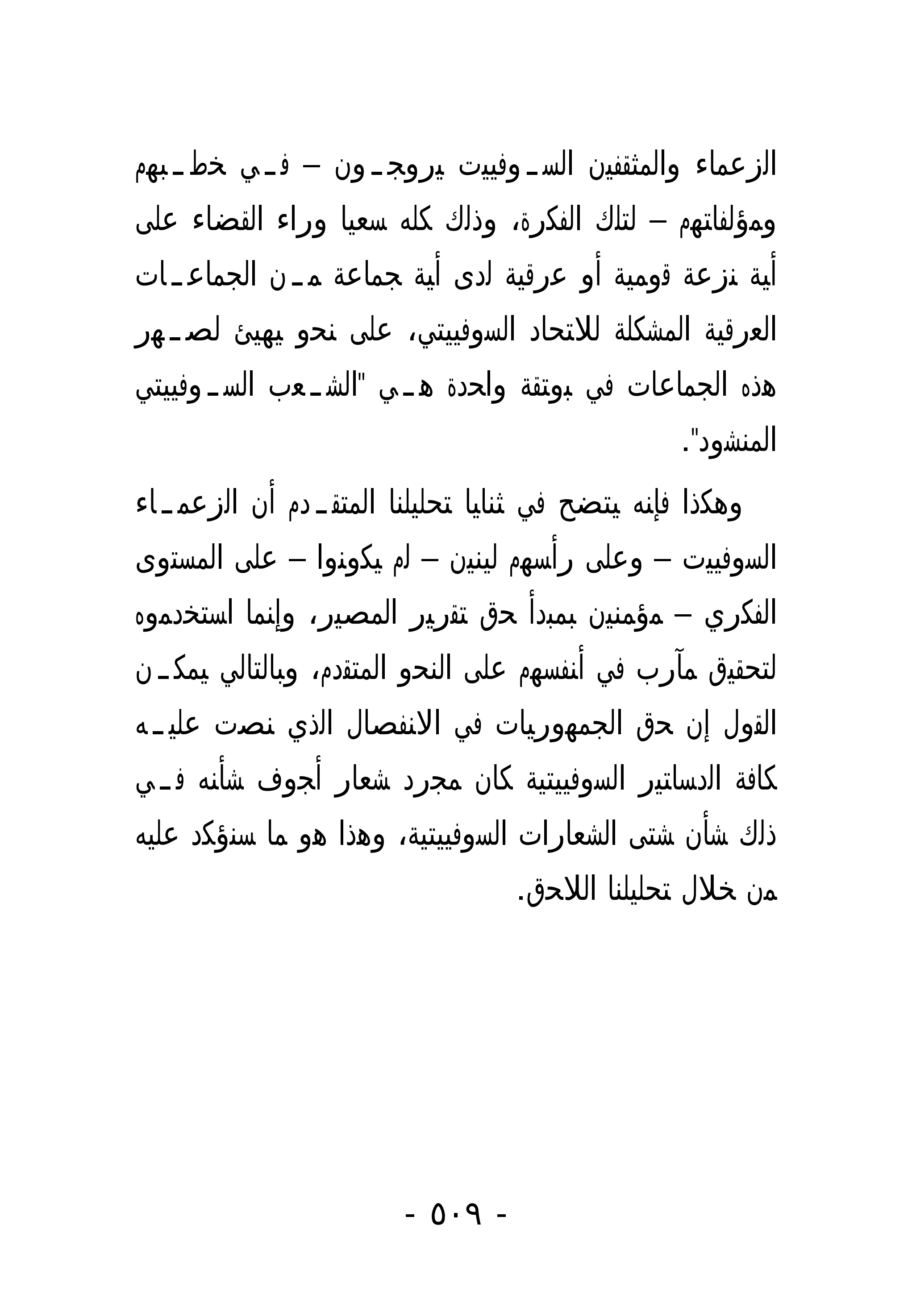
[٤٣٥] مختار شعيب عبد ا ، الصراع القومي والعرقي في الجمهوريات المستقلة: أبخازيا – جورجيا، مجلة السياسة الدولية، العـدد ١٢٠، أبريل ١٩٩٥، ص ١٨٣.

والحامل لراية حق الشعوب في تقرير مصائرها [٤٣٦]، وذلك كله سعيا وراء استقطاب تلك الشعوب إلى جانب السـوفييت في صراعهم مع عدوهم اللدود (الولايات المتحدة) في أحلك فترات الحرب الباردة. إذن فقد كان هذا الهدف هدفًا طويـل الأجل، على عكس الهدف الأول الذي كـان مجـرد هـدف تكتيكي آني.

وجملة القول في شأن كل ما تقـدم أن البلاشـفة كـانوا يرفضون "فكرة القومية" ويعتبرونها فكرة برجوازية رجعية، كما كانوا يعتبرون أن النزعة العرقية مآلها إلى الـزوال، إذ سرعان ما ستضمحل تحت تأثير التحـديث والتصـنيع، وأن البقاء هو لفكرة الأممية البروليتارية، والتي يكون الولاء فـي ظلها للطبقة وليس للعرق، وبالتالي فإنه يتعين علـى سـائر الكادحين أن يتضامنوا تحت راية الأممية البروليتارية لافظين أية نعرة عرقية. وعلى ذلك فقد سخرت شتى وسائل الدعاية السوفييتية من مقروءة ومسموعة ومرئية – للترويج لفكـرة الأممية البروليتارية، والدعوة إلى نبذ القومية التـي هـي – لديهم – أحد موروثات البرجوازية البائدة، كمـا راح كافـة

---

(٤٣٦) Conner, in: Denber (ed.), Op. Cit., PP. ٢١ – ٢٢.



الزعماء والمثقفين السوفييت يروجون – في خطبهم ومؤلفاتهم – لتلك الفكرة، وذلك كله سعيا وراء القضاء على أية نزعة قومية أو عرقية لدى أية جماعة من الجماعات العرقية المشكلة للاتحاد السوفييتي، على نحو يهيئ لصهر هذه الجماعات في بوتقة واحدة هي "الشعب السوفييتي المنشود".

وهكذا فإنه يتضح في ثنايا تحليلنا المتقدم أن الزعماء السوفييت – وعلى رأسهم لينين – لم يكونوا – على المستوى الفكري – مؤمنين بمبدأ حق تقرير المصير، وإنما استخدموه لتحقيق مآرب في أنفسهم على النحو المتقدم، وبالتالي يمكن القول إن حق الجمهوريات في الانفصال الذي نصت عليه كافة الدساتير السوفييتية كان مجرد شعار أجوف شأنه في ذلك شأن شتى الشعارات السوفييتية، وهذا هو ما سنؤكد عليه من خلال تحليلنا اللاحق.

ثالثًا: قمع أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الاتحاد السوفييتي:

لقد كان لينين يتساءل: هل يكون لأمة من الأمم أن تضطهد وتقهر غيرها، ثم توصف في ذات الوقت بأنها أمة حرة؟، وأجاب لينين على تساؤله بالنفي وأكد أن روسيا العظمى عليها واجب النضال ضد كل شكل من أشكال الاضطهاد، ومع ذلك فإنه عندما أصبح سيدا للكريملين راح يخضع للحكم الشيوعي كافة الجماعات العرقية التي كانت خاضعة للحكم القيصري، والتي كان يصفها بأنها "سجناء روسيا" [٤٣٧]، فعلى إثر الثورة البلشفية كان العديد من الجماعات العرقية الخاضعة لروسيا قد أعلن استقلاله مكونًا لدول قومية مستقلة تجمع شتات أبناء نحلته، غير أن جحافل الجيش البلشفي الأحمر سرعان ما اجتاحت هذه الدول منهية استقلالها، ومخضعة إياها – من جديد – للنير الروسي. ولعل من أظهر الحركات العرقية التي كونت دولاً مستقلة غداة الثورة البلشفية كلاً من:

---

[٤٣٧] انظر في هذا المضمون: أحمد عباس عبد البديع، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٨.

١- الحركة العرقية الأوكرانية:

وهي الحركة التي كللت جهودها بإعلان – من جانب الجمعية القومية الأوكرانية Ukrainian Nationalist Assembly (Rada) عام ١٩١٧ – يقضي باستقلال أوكرانيا عن روسيا، وقيام دولة أوكرانية مستقلة هي جمهورية أوكرانية الشعبية Okrainian People's Republic. ومع اندلاع الحرب الأهلية الروسية راحت الدولة الأوكرانية الجديدة تقف في صف الجيش الأبيض، غير أن الأوكرانيين لم يكن بمقدورهم التصدق لزحف الجيش الأحمر الذي اجتاح جمهوريتهم الوليدة، وأعادها إلى الحظيرة الروسية في خلال شهر واحد [٤٣٨].

---

[٤٣٨] انظر في هذا المضمون: Smith, Gordon B., Op. Cit., P. ٣٠٤

٢- الحركة العرقية الأذربيجانية:

يمثل الإقليم الأذربيجاني أحد أقاليم منطقة ما وراء القوقاز Transcaucasia وتقطنه جماعة عرقية تدين بالإسلام هـي الجماعة الأذرية. وقد كان هذا الإقليم يمثل – لعدة قـرون- جزءا من الإمبراطورية الروسية القيصرية [٤٣٩]. وباندلاع الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ظهرت حركة عرقية أذربيجانيـة راحت تنفصل بالإقليم عن روسيا، لكي تنشئ بـذلك دولـة أذربيجان المستقلة. غير أن الجيش البلشفي راح يجتاح تلـك الدولة، ويقتحم عاصمتها باكو فـي مـارس ١٩١٨؛ حيـث اقترف البلاشفة مذبحة بشعة (مذبحة بـاكو) راح ضـحيتها ثمانية عشر ألفًا من الأذربيجانيين المسلمين، وبالتالي فقد تـم إدماج أذربيجان من جديد – جبرا عنها – في روسيا. وتتعين الإشارة إلى أن الشعب الأذربيجاني قد قام بما يربـو علـى الخمسين حركـة تمـرد فـي مواجهـة الحكـم الشـيوعي السوفييتي[٤٤٠].

---

[٤٣٩] انظر في هذا المضمون:

Dragadze, Tamara, Azerbaijanis, in: Smith Graham, Op. Cit., P. ١٦٤.

[٤٤٠] انظر في هذا المحتوى: محمد عبد القادر أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٩.

٣- الحركة العرقية البخاريـة وحركـة بسماتشـي Basmachi في آسيا الوسطى:

حيث كان أمير بخارى قد تزعم حركـة انفصـالية فـي منطقة آسيا الوسطى التي تقطنها جماعات عرقيـة مسـلمة العقيدة. وقد راح أمير بخارى يعلن انفصال بخـارى عـن روسيا في فبراير ١٩١٨، كما كون جيشًا كبيرا ضم عشرات الآلاف، راح يتصدى للجيش الأحمر، غير أن الغلبـة فـي النهاية كانت لجيش البلاشفة الذي تمكن من اجتياح بخـارى واحتلال أراضيها في سبتمبر ١٩٢٠ (٤٤١).

غير أن أمير بخارى تمكن مـن الفـرار إلـى بخـارى الشرقية؛ حيث بدأ في إعادة تنظـيم جيشـه بالتعـاون مـع جماعات معاديـة للسـوفييت، هـي جماعـات بسماتشـي Basmachi، والتي كانت آنذاك منتشرة في شتى أرجاء آسيا الوسطى، كما كانت قد تمكنت من الاستيلاء علـى منطقـة فرغانة وتأسيس حكومة للمنطقة في خريـف ١٩١٩. ومـن

---

(٤٤١) Payne, John, Tadzhiks, in: Smith, Graham (ed.), Op. Cit., P. ٢٦٢.

خلال التعاون بين أمير بخـارى وهـذه الجماعـات أمكـن للطرفين تكوين جيش يعتد به قوامه ٢٠ ألف جندي، تـولى قيادتهم جنرال تركي هو أنور باشـا Enver Pasha الـذي كان قد فر من سلطان أتاتورك في تركيـا. وقـد اسـتمرت مقاومة البسماتشي عنيفة حتى عام ١٩٢٦؛ حيث راح الوهن – بعد ذلك – يدب في أوصالها، وأمكن للبلاشـفة القضـاء عليها تماما مع بداية عقد الثلاثينيات[٤٤٢] وهكـذا فقـد قـام البلاشفة بقمع شتى الحركات العرقية فـي آسـيا الوسـطى، وإخضاعها لربقة روسيا.

٤- الحركة العرقية الجورجية:

كان الجيورجيون قد أعلنوا استقلال جورجيا عن روسـيا في ٢٦ مايو ١٩١٨ وشرعوا على إثر ذلك في تبني برنامج اجتماعي قومي راحوا في إطاره ينشئون المدارس والمكتبات في شتى أرجاء جيورجيا، كما أنشأوا أول جامعة جيورجيـة على الرغم من الظروف الاقتصادية الصـعبة التـي كـان

---

[٤٤٢] انظر في هذا الصدد: نفس المرجع السابق، وكذلك: محمد عبـد القادر أحمد، مرجع سبق ذكره، من ص ١٢٥ إلى ص ١٣٠.

الاقتصاد الجيورجي يجابهها آنذاك. كما شهد النصف الثـاني من عام ١٩١٨ إجراء أول انتخابات للمحليات فـي الدولـة الوليدة، بل وسرعان ما أجري الجيورجيون أول انتخابـات تشريعية عامة في عام ١٩١٩؛ حيث أسفرت هذه الانتخابات عن فـوز الحـزب الاشـتراكي الـديمقراطي الجيـورجي (GSDP) بمائة وتسعة مقاعد من جملة عدد مقاعد الجمعية التشريعية الجيورجية الذي كان يبلغ مائة وثلاثين مقعدا. ومن جانب آخر كان لينين قد وقع – في ٧ مايو ١٩٢٠ – اتفاقية تؤكد على أن روسيا ليست لها أية مطالب إزاء جيورجيـا، كما أنها لا تعتزم التدخل في الشئون الداخلية للجيـورجيين. وعلى الرغم من تعهداتهم هذه فقـد راح البلاشـفة يؤلبـون الأقليات الأبخازية والأوسيتية تجاه الدولة الجيورجيـة التـي تضمهم. كما راحت أرمينيا تهاجم إقليم لور Lore المتنازع عليه بين الأرمن والجيورجيين، غير أن إنجلترا كانـت قـد تدخلت إلى جانب جيورجيا علـى نحـو أدى إلـى تجميـد الموقف، واعتبار لور منطقة محايدة. غير أن لينين عـاد – بعد أقل من عام على اعترافه بسيادة جورجيـا – وأرسـل جحافل الجيش الأحمر – بدءا من ١١ فبراير ١٩٢١ – إلـى

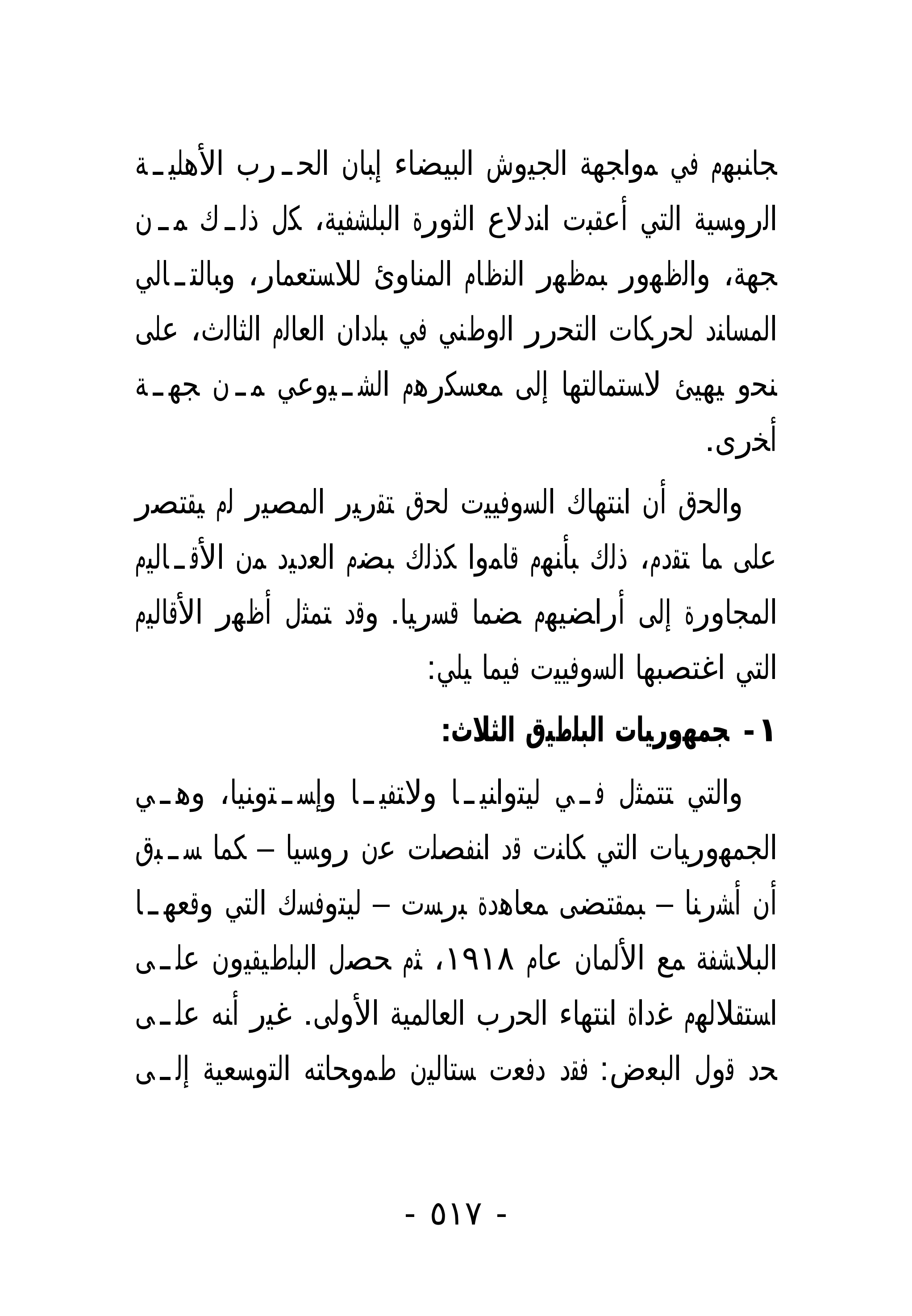
منطقة لور متذرعا بوجود حركة تمرد هناك، وسرعان ما ابتلع البلاشفة جيورجيا من جديد؛ إذ في خلال ستة أسابيع من بداية الغزو تمكن الجيش الأحمر من الإطباق على جيورجيا، والإجهاز على استقلالها الوليد، وإعادتها من جديد إلى الحظيرة الروسية [٤٤٣].

وهكذا – وبعد كل ما قدمنا – فإنه لم يعد ثمة مجال للشك في أن البلاشفة لم يلتزموا قيد أنملة – في الواقع – بمبدأ حق تقرير المصير الذي كانوا قد أعلنوا إيمانهم به إبان ثورتهم، ذلك بأن الدبابات الروسية التي سحقت استقلال أوكرانيا، وأذربيجان، وجيورجيا، وأبادت الحركة العرقية البخارية، وحركة البسماتشي الإسلامية في آسيا الوسطى؛ إنما سحقت وأبادت – إلى جانب كل ذلك – مبدأ حق تقرير المصير. ومن هنا تتأكد الحقيقة التي سبق أن سقناها والتي قوامها أن إعلان البلاشفة عن إيمانهم بذلك المبدأ؛ إنما كان مجرد تكتيك استخدموه بغية استقطاب الجماعات العرقية غير الروسية إلى

---

[٤٤٣] انظر في هذا الصدد:

Parsons, Robert, Gorgians, in: Smith, Grham (ed.), Op. Cit., PP. ١٨١ – ١٨٢.



جانبهم في مواجهة الجيوش البيضاء إبان الحـرب الأهليـة الروسية التي أعقبت اندلاع الثورة البلشفية، كل ذلـك مـن جهة، والظهور بمظهر النظام المناوئ للاستعمار، وبالتـالي المساند لحركات التحرر الوطني في بلدان العالم الثالث، على نحو يهيئ لاستمالتها إلى معسكرهم الشـيوعي مـن جهـة أخرى.

والحق أن انتهاك السوفييت لحق تقرير المصير لم يقتصر على ما تقدم، ذلك بأنهم قاموا كذلك بضم العديد من الأقـاليم المجاورة إلى أراضيهم ضما قسريا. وقد تمثل أظهر الأقاليم التي اغتصبها السوفييت فيما يلي:

١- جمهوريات البلطيق الثلاث:

والتي تتمثل فـي ليتوانيـا ولاتفيـا وإسـتونيا، وهـي الجمهوريات التي كانت قد انفصلت عن روسيا – كما سـبق أن أشرنا – بمقتضى معاهدة برست – ليتوفسك التي وقعهـا البلاشفة مع الألمان عام ١٩١٨، ثم حصل البلطيقيون علـى استقلالهم غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى. غير أنه علـى حد قول البعض: فقد دفعت ستالين طموحاته التوسعية إلـى

التعاون مع الشيطان بغية استعادة تلـك الجمهوريـات [٤٤٤].
وفي أغسطس عام ١٩٣٩ وقع البلاشفة والنازيون ميثاق عدم اعتداء عرف باتفاق مولوتوف – ريبنتـروب Molotov – Ribbentrop Pact، وهو الميثاق الذي كان يقضي بوقوف السوفييت على الحياد إزاء توسع هتلر في أوربا، في مقابـل سماح هتلر لستالين بابتلاع دول البلطيق والعديد من المناطق الأخرى. وفي أعقاب التوقيع على الاتفاق النازي السـوفييتي – وفي يونيو ١٩٤٠ – راح الجـيش الأحمـر يهـاجم دول البلطيق محتلاً إياها بدءا بليتوانيا، فلاتفيا، وانتهاء بإسـتونيا [٤٤٥]، وبذلك تم إدخال الجمهوريات الثلاث – جبرا عنهـا – إلى الحظيرة السوفييتية.

---

[٤٤٤] في هذا المعنى انظر: تيد روبرت جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٠.

[٤٤٥] انظر في هذا الصدد:

Crampton, R. J., Eastern Europe in the Twentieth Century, Routledge, London, ١٩٩٤, pp. ١٠٥ – ١٠٦.

٢- مولدافيا (أو مولدوفا):

وهي عبارة عن إقليم جبلي كان – حتى عـام ١٩٤٠ – يمثل جزءا لا يتجزأ من أراضـي رومانيـا، كمـا يـرتبط المولداف مع الرومانيين من خلال وحـدة اللغـة والثقافـة والتاريخ. ومع احتلال السوفييت لرومانيا – إبـان الحـرب العالمية الثانية – راح ستالين ينتزع مولدافيا – جبـرا عـن سكانها – ويضمها إلى الاتحاد السوفييتي؛ حيـث أصـبحت تُمثل إحدى جمهورياته الاتحادية [٤٤٦].

٣- كاريليا:

والتي كانت حتى نهاية عقد الثلاثينيات تُمثل جـزءا مـن أراضي فنلندا، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ – وعلى الرغم من أن السوفييت كانوا قد وقعوا مع الفنلنديين ميثاق عدم اعتداء عام ١٩٣٢ لمـدة ١٢ عامـا – طالـب السوفييت فنلندا – التي أعلنت حيادها إزاء الحـرب – بـأن تتنازل عن بعض أقاليمها لهم من أجل حماية لينينجراد ضـد أي هجوم ألماني، غير أن الفنلنديين رفضوا هـذا المطلـب

---

[٤٤٦] انظر في هذا المضمون: Smith, Gordon, B., Op. Cit., P. ٣٠٦

السوفييتي. وعلى إثر ذلك اجتاح الجيش الأحمر الأراضـي الفنلندية، ولم يمض وقت طويل حتى كانت الهزيمة قد لحقت بالفنلنديين، وبالتالي فقد سارعوا بتسليم السـوفييت – عـام ١٩٤٠ – الأراضي التي كانوا قد طلبوها، والمتمثلـة فـي كاريليا، وفايبورج، وهانجو [٤٤٧]. غير أن القوات الفنلنديـة تمكنت في عام ١٩٤١ – بمساندة قوات ألمانيا النازية – من استعادة كافة المناطق التي كان السوفييت قد اغتصبوها مـن الأراضي الفنلندية عام ١٩٤٠، كما توغلت تلك القوات فـي عمق الأراضي السوفييتية. وبانتهاء الحرب وهزيمة الألمان توغلت القوات السوفييتية في الأراضي الفنلنديـة واحتلـت فايبورج، فاضطر الفنلنديون إلى طلب الهدنة التـي وقعـت اتفاقيتها بالفعل في عام ١٩٩٤، وبمقتضاها أجبر الفنلنـديون على التنازل عن كاريليا، وفايبورج، وبروكالا [٤٤٨].

---

[٤٤٧] انظر في هذا المضمون: ج. هـ. د. كول، مرجع سبق ذكـره، ص ١٨٦، ١٨٧.

[٤٤٨] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٨٧.

وهكذا فقد ضمت كاريليا – أيضا – ضـمـا قسـريا إلـى الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٤٤؛ حيـث أصـبحت تُمثـل جمهورية اتحادية. غير أن خروشوف قرر في عـام ١٩٥٦ أن تصبح كاريليا جمهورية ذات حكم ذاتي (فقط) في إطـار جمهورية روسيا الاتحادية [٤٤٩].

وتتعين الإشارة – فضلاً عن كل ما تقدم – على أن قهـر السوفييت للجماعات العرقية والشعوب، وانتهاكهم لمبدأ حـق تقرير المصير لم يقتصرا على الجماعات المشـكلة للاتحـاد السوفييتي، وإنما طالا كذلك الشعوب التي كـانوا يطلقـون عليها حلفاءهم. وتتمثل هذه الشعوب في بلدان شرق أوربـا التي كان الاتحاد السوفييتي قـد احتجزهـا خلـف السـياج الحديدي The Iron Curtain خلال الحقبة اللاحقة للحـرب العالمية الثانية[٤٥٠]. ولقد راح السوفييت يحكمـون قبضـتهم

---

[٤٤٩] انظر في هذا المضمون: بطرس بطرس غالي – محمود خيـري عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣.

[٤٥٠] انظر في هذا الصدد:

على تلك الشعوب في إطار حلف وارسو، ويعمدون إلى قمع أية محاولة من جانب أي من تلك الدول للتخلص من ربقـة الحلف. ولعل من أظهر تلك المحاولات التي قمعها السوفييت ما يلي:

١- حركة إيمري ناجي Imre Nagy فـي المجـر عـام ١٩٥٦:

انتخب إيمري ناجي رئيسا لوزراء المجـر مـن جانـب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المجري في بودابست فـي ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦، وكان ناجي معاديا للسـتالينية Anti – Stalinist، كما كان ينادي بأن تكـون للمجـر اشـتراكيتها الخاصة النابعة من مقوماتها القومية؛ حيث تبنى فكـرة مـا يعرف بالاشتراكية القومية[٤٥١] National Communism.

Harbutt, Frasher J., The Iron Curtain: Churchill, America and the Origins of the Cold War, Oxford University Press, New York, ١٩٨٦.

(٤٥١) Brzinski, Zbigniew K., The Soviet Bloc: Unity and Conflict, Frederick A. Praeger Publisher, New York, ١٩٦١, pp. ٢٢٥ – ٢٢٩.

وغداة انتخابه كرئيس للوزراء راح إيمري ناجي يعد بإشاعة الديمقراطية في المجر، والابتعاد ببلاده عن حِلـف وارسـو وعن الاتحاد السوفييتي. وسرعان مـا انـدفعت الجمـاهير المجرية إلى الشوارع في مظاهرات عنيفة مؤيـدة للاتجـاه الجديد، ومعتدية على كل ما يرمز للشيوعية في بودابسـت. وهكذا فقد كانت الأوضاع في المجر تنذر بانسـلاخها عـن حِلف وارسو، الأمر الذي حـدا بالسـوفييت إلـى التـدخل العسكري في بودابست؛ حيث قمعـت الـدبابات الروسـية المؤيدين للديمقراطية، وارتكبت العديد من المـذابح خـلال الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ [٤٥٢]. وبطبيعـة الحال فقد عمد السوفييت إلى تنحيـة نـاجي عـن رئاسـة الوزراء. وفي عام ١٩٥٨ حوكم سرا لمدة خمسـة شـهور؛ حيث حكم عليه بالإعـدام، وتـم إعدامـه فـي ١٧ يونيـو ١٩٥٨ [٤٥٣].

---

[٤٥٢] انظر في هذا الصدد: دونالدنيف، حرب السويس: كيف أدخل إيزنهـاور أمريكا إلى الشرق الأوسط، ترجمة: أحمد خضر، عبد السلام رضـوان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠، من ص ٤٧٧ إلى ص ٤٨٠.

[٤٥٣] Rothschild, Joseph, Communist Eastern Europe, Walker and Company, New York, ١٩٦٤, pp. ١٢٠ – ١٢١.

وهكذا فقد أعاد السوفييت المجر إلى حظيرة حِلف وارسو كي تدور في فلكهم من جديد.

٢- الحركة الشيكوسلوفاكية ١٩٦٨ (ربيع براج Prague Spring):

بحلـول عـام ١٩٦٨، وفـي ٥ ينـاير منـه شـهدت تشيكوسلوفاكيا حدثًا بارزا تَمثل في اعتلاء ألكسندر دوبتشك Alexander Dubeck لموقع القمة في الحزب الشـيوعي التشيكي، بأن أصبح سكرتيره الأول. ولقـد كـان لمجـيء دوبتشك إلى الحكم أبلغ الأثر علـى الحيـاة السياسـية فـي تشيكوسلوفاكيا، وكذا علـى توجهـات السياسـة الخارجيـة التشيكية. فعلى صعيد الحياة السياسية – بـادئ ذي بـدء – شهدت البلاد إصلاحات سياسية واسعة النطاق نحـت نحـو الديمقراطية، والأخذ بالتعددية الحزبية. كمـا أقـر برنـامج الحزب الشيوعي – على الصعيد الاقتصادي – إصـلاحات قوامها الابتعاد عن النمط الشيوعي، على الصعيد الاقتصادي – إصلاحات قوامها الابتعاد عن النمط الشـيوعي، والأخـذ بمبادئ اقتصاديات السوق شيئًا فشيئًا. أمـا علـى الصـعيد الخارجي فقد بات واضحا – آنذاك – أن ثمة توجهات قويـة

داخل تشيكوسلوفاكيا تدعو إلى انتهاج سياسة استقلالية بمنأى عن حِلف وارسو، كما راحت الصـحف التشيكوسـلوفاكية توجه الانتقادات إلى الاتحاد السوفييتي.

وهكذا فقد كانت الأوضـاع فـي تشيكوسـلوفاكيا تُنـذر بانسلاخها عن حِلف وارسو. وفي ظل تلك الظروف راحـت الصحف السوفييتية تؤكد على أن النظـام الاشـتراكي فـي تشيكوسلوفاكيا أصبح في خطر. وإزاء ذلك زحفت الجيـوش السوفييتية في ٢١ أغسطس عـام ١٩٦٨ نحـو العاصـمة التشيكية براج بغية تدعيم النظام الشيوعي القائم في مواجهة الحركة المطالبة بالديمقراطية. وفي أعقاب ذلك بعدة شـهور تم إقصاء دوبتشك من منصبه الحزبي؛ حيث عـين سـفيرا لتشيكوسلوفاكيا في العاصمة التركية أنقرة [٤٥٤].

---

[٤٥٤] انظر في هذا الصدد:

Crampton., Op. Cit., PP. ٣٣٢ – ٣٣٣.

وكذلك:

Young, John W., Cold War Europe: ١٩٤٥ – ١٩٨٩, Edward Arnold, London, ١٩٩١, pp. ٢١٣ – ٢١٤.

وهكذا لم يسمح السوفييت لتشيكوسلوفاكيا بالانسلاخ عـن كتلتهم، وأعادوها مستخدمين جبروتهم إلى ربقة حِلف وارسو، مذعنة لإرادتهم، خاضعة لإدارتهم. ولم يكتف السوفييت بذلك وإنما وجهوا إنذارا شديد اللهجة واضح البيان إلى شتى البلدان الدائرة في فلكهم (بلدان حِلف وارسـو) بـأن أيـة محاولـة للانفصال عن الحِلف سوف تجابه بكل قوة من جانبهم. وقـد تَمثل ذلك الإنذار فيما يعرف بمبـدأ بريجنيـف Brezhnev Doctrine الذي أعلن الزعيم السوفييتي ليونيد بريجنيف فـي سبتمبر عام ١٩٦٨؛ أي في خلال أقل من شهر من التـدخل السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا. ومـؤدى مبـدأ بريجنيـف "أن الاتحاد السوفييتي سيتدخل عسكريا في دول شرق أوربا إذا ما تعرض أي منها – سواء من الداخل أو من الخارج – لخطـر يهدد سلامة الكومنولث الاشتراكي، ذلك الكومنولث الذي يتمثل أهم مبادئه في أن كل دولة شيوعية حرة في تقريـر الطريـق الذي تختاره، ولكنها ليست حرة في الانسلاخ عن الشـيوعية، وأنه لا يجب أن ينظر إلى السيادة على أنها فكـرة مجـردة، ولكن يتعين النظر إليها على أساس طبقي" [٤٥٥].

---

[٤٥٥] راجع بصدد مبدأ بريجنيف: إسماعيل صبري مقلد، التقارب الأمريكي السوفيتي والحرب الباردة، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٧، يوليو ١٩٦٩، ص ٢٥.

وفي ضوء ما تقدم تتأكد الحقيقة التي سبق أن سقناها والتي مؤداها أن السيادة لدى السوفييت لها مدلول مغاير لمدلولها الحق، وأنها – إذًا – لم تكن – كما سبق أن أكدنا – سوى مجرد شعار رفعوه ولم يلتزموا به البتة، شأنه في ذلك شأن مبدأ حق تقرير المصير الذي طالما أعلنوا تمسكهم به، ونصت سائر دساتيرهم على الأخذ به معلنة حق أية جمهورية سوفيتية في الانفصال عن الاتحاد السوفييتي متى أرادت. وهنا فإن التساؤل الذي يطرح نفسه هو: إذا كان السوفييت لم يسمحوا لأي من حلفائهم الشيوعيين بالانفصال عن حِلف وارسو، تراهم كانوا سيسمحون لأية جمهورية سوفيتية بالاستقلال الحق عن الاتحاد السوفييتي؟

إن كل ما قدمنا في هذا الفصل جاء ليؤكد حقيقة هامة قوامها أن حق الانفصال الذي أعلن السوفييت الإيمان به وضمنوه دساتيرهم لم يكن سوى خدعة كبرى، وشعار أجوف رفعوه بغية تحقيق مكاسب سياسية تكتيكية (إبان السنوات الأولى لثورتهم)، وأخرى طويلة الأمد (خلال العقود اللاحقة تلك الثورة) وذلك على النحور المشار إليه سلفًا.

فالحق أن الدبابات السوفييتية هي التي سـحقت اسـتقلال أوكرانيا، وأذربيجان، وجورجيا، وأبادت الحركة الانفصـالية البخارية، وحركة بسماتشي في آسيا الوسطى غـداة الثـورة البلشفية. وبواسطة هذه الدبابات ذاتها أمكن للسوفييت ابتلاع دول البلطيق الثلاث (ليتوانيا – إستونيا – لاتفيا)، واغتصاب كاريليا الفنلندية، والسطو على مولدافيا الرومانية إبان الحرب العالمية الثانية. كما أن نفس الدبابات هي التي أجبرت المجر (عام ١٩٥٦)، وتشيكوسلوفاكيا (عام ١٩٦٨) على الرضوخ لإرادة السوفييت، والبقاء صاغرتين داخـل حظيـرة حلـف وارسو.

إن ما نود أن نؤكده في النهاية – ولعلنا لا نكون بعيـدين عن كبد الحقيقة بصدده – هو أن الاتحاد السوفييتي – شـأنه في ذلك شأن الإمبراطورية الروسية التي ورثها – قام استنادا إلى التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة تجانسا قوميـا، وبالتالي فإننا نتفق تماما مع الـرأي القائـل بـأن الاتحـاد السوفييتي كان يمثل إمبراطوريـة فـي عصـر لا يعـرف الإمبراطوريات.

رابعا: السعي بشتى السبل إلى طمس الهويات العرقية للجماعات السوفييتية:

لقد تَمثل الهدف السوفييتي الدائم بصدد المسألة القومية – كما سبق أن أشرنا – في الوصول بالمجتمع السوفييتي بوسيلة أو بأخرى إلى درجة من التكامل تختفي معها تلك المسألة[٤٥٦]، التي كانت تقض مضجع الزعماء السوفييت، باعتبارها مصدرا للاضطرابات والتفكك يكاد يعصف بكيان مجتمعهم. وقد كان لينين يرى أن احتفاظ الجماعات العرقية المشكلة للاتحاد السوفييتي بثقافاتها الذاتية هو أمر مؤقت، لن يدوم سوى فترة وجيزة، أو مرحلة انتقالية تتبلور خلالها ثقافة بروليتارية موحدة تسود شتى أفراد تلك الجماعات، بحيث تصبح الثقافة المشتركة لشعب سوفيتي واحد Sovetskii Narod [٤٥٧]. وبطبيعة الحال فقد راح سائر الزعماء السوفييت – من بعد لينين – يؤكدون على ما قال به، ويشيرون إلى أنه مع تطور المجتمع الاشتراكي فإن الهويات

---

[٤٥٦] دانكوس، انتفاضة القوميات...، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦.

[٤٥٧] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢، وكذلك: Smith, Godon B., Op. Cit., P. ٣٠٩

القومية والعرقية ضيقة الأفق سوف تضمحل، كي تحل محلها هوية سوفيتية جامعة ترتكز إلى نسق ثقافي سوفيتي موحـد. وتتمثل عناصر ذلك النسق في أن كل مواطن سوفيتي سيكون لديه الإيمان بما يلي [٤٥٨]:

١- إن ثمة وطنًا واحدا له هـو الاتحـاد السـوفييتي (USSR).

٢- إن له أيديولوجية واحدة هي الماركسية – اللينينيـة Marxism – Leninis.

٣- إن ثمة حزبا سوفيتيا واحدا هو الحزب الشـيوعي للاتحاد السوفييتي (CPSU).

٤- إن له هدفًا واحدا هو بناء المجتمع الشيوعي.

٥- إن ثمة نسقًا اقتصاديا سوفيتيا موحدا موجها.

٦- العلاقات التكاملية بين سائر الجماعات والفئات في المجتمع.

٧- الأمميـــة البروليتاريـــة Proletarian Internationalism.

---

(٤٥٨) Ibid.

وفي إطار سعيهم الحثيث إلى خلق ذلك النسـق الثقـافي الموحد (الثقافة البروليتارية) راح الزعماء السوفييت يعمدون إلى طمس الهويات العرقية للجماعات السوفييتية، من خـلال تقويض مقومات تلك الهويات وعلى رأسها الدين؛ إذ كان كل من ماركس ولينين يدرك مدى تأثير الدين في نفوس البشـر، وأهميته كمقوم لهوياتهم؛ حيث كان كلاهما يؤكـد دومـا أن الـدين هـو أفيـون الشـعوب The Opium of the Peoples [٤٥٩]. ونظرا لما تقدم فقد راح سـائر الزعمـاء السوفييت يجعلون ديدنهم محاربة الدين والدعوة إلى الإلحاد؛ حيث قاموا غداة الثورة البلشـفية بحملـة لتـأميم الكنـائس وإغلاقها، ووضع المدارس الدينية تحت سيطرة الدولة.

وفي عام ١٩١٨ صدر قانون يقضي بالفصل التـام بـين الدين (الكنيسة) والسياسة (الدولة) [٤٦٠]. أمـا فيمـا يتصـل بالمسلمين السوفييت قد قام البلاشفة – غداة ثـورتهم وفـي غضون سنوات قليلة – بتحويل آلاف المساجد إلى إسطبلات

---

(٤٥٩) Ibid., p. ٣١٢.

(٤٦٠) Ibid.

للخيل ونواد للقمار، كما حولت جامعة سمرقند العريقة إلى نادٍ للملحدين [٤٦١].

وقد شهدت فترة حكم خروشوف – لا سيما الفترة من ١٩٥٩ – ١٩٦٤ – حملة عنيفة معادية للدين Anti – religious campaign استهدف الزعيم السوفييتي من ورائها بلوغ غاية قوامها محو الأديان تماما من الاتحاد السوفييتي بحلول عام ١٩٨٠. وفي إطار حملته هذه قام خروشوف بإغلاق أكثر من نصف عدد الكنائس والمدارس اللاهوتية التي كانت لا تزال تعمل وقتذاك. كما أخضعت شتى شئون الكنيسة لإدارة ما يعرف باللجان التنفيذية Executive Committees التي أنشئت خصيصا لهذا الغرض. وقد تعسفت هذه اللجان في نفي القساوسة المتمسكين بالممارسة الكاملة للطقوس الدينية، وكان يتم اختيار أعضائها من بين الملحدين وأعضاء الحزب الشيوعي بغية تقويض المؤسسات الدينية من الداخل [٤٦٢].

---

(٤٦١) محمد عبد القادر، مرجع سبق ذكره، ص ٧٤.

(٤٦٢) Smith, Gordon B., Op. Cit., P. ٣١٢.

وفي إطار الدعوة على الإلحـاد تبـارت إدارات نشـر المعارف الإلحادية في تأليف ونشر الكُتب التي تـدعو إلـى الإلحاد، وتهاجم الأديان لا سيما الإسلام. فعلى سبيل المثـال نجد أنه تم خلال الفترة (١٩٦٠ – ١٩٦٤) تأليف عدد كبير من الكُتب التي تهاجم الإسلام، وقد صدرت هذه الكُتب باللغة الروسية، ثم قامت الإدارات المشار إليها آنفًا بترجمتها إلـى لغات الجماعات العرقية التي تبتغي الإسلام دينًا؛ إذ ترجم في هذا الصدد – عام ١٩٥٧ وحـده – ٤٧ كتابـا إلـى لغـة داغستان، و٢٦ كتابا إلى اللغة الأوزبكية، و١٥ كتابا إلى لغة القوزاق، و١٤ كتابا إلى لغة أذربيجان، و١٢ كتابا إلى لغـة الطاجيك، و٩ كتب إلى لغة التتـار، و٨ كتـب إلـى لغـة القرجيز، و٧ كتب إلى اللغـة التركيـة، و٤ كتـب بلسـان البشكير، وكتابان بلسان كيردا وكيشان، وكتاب واحد بلسـان الأبخاز [٤٦٣].

[٤٦٣] انظر في هذا المضمون: محمد عبد القادر، مرجع سـبق ذكـره، ص ١٥٦، ١٥٧.

كما طبع في الاتحاد السوفييتي خلال الفتـرة (١٩٥٤ – ١٩٦٤) تسعمائة وعشرون مصنفًا مناهضا للإسـلام بشـتى لغـات المسـلمين السـوفييت، الأوزبكيـة، والداغسـتانية، والكازاخسـتانية، والأذريـة، والطاجيكيـة، والقرجيزيـة، والتتاريـــة، والبشـــكيرية، والشيشـــانية، والأوســـيتية، والأبخازية... وغيرها.

وفضلاً عن ذلك فقد أنشئ في طشـقند عـام ١٩٨٢ مـا يعرف بـ"بيت الإلحاد العلمي"، والذي كان يعد مـن أنشـط الأجهزة التي تقوم بنشر الكُتب المعادية للدين الإسلامي[٤٦٤].

وقد استمر بريجنيف – مع مجيئه إلى الحكم في الاتحـاد السوفييتي – على نهج أسلافه، فراح يشن حمـلات دعائيـة عنيفة ضد التدين [٤٦٥].

---

[٤٦٤] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٥٨، ١٦٦، ١٦٧.

[٤٦٥] Smith, Gordon B., Loc. Cit., P. ٣١٢.

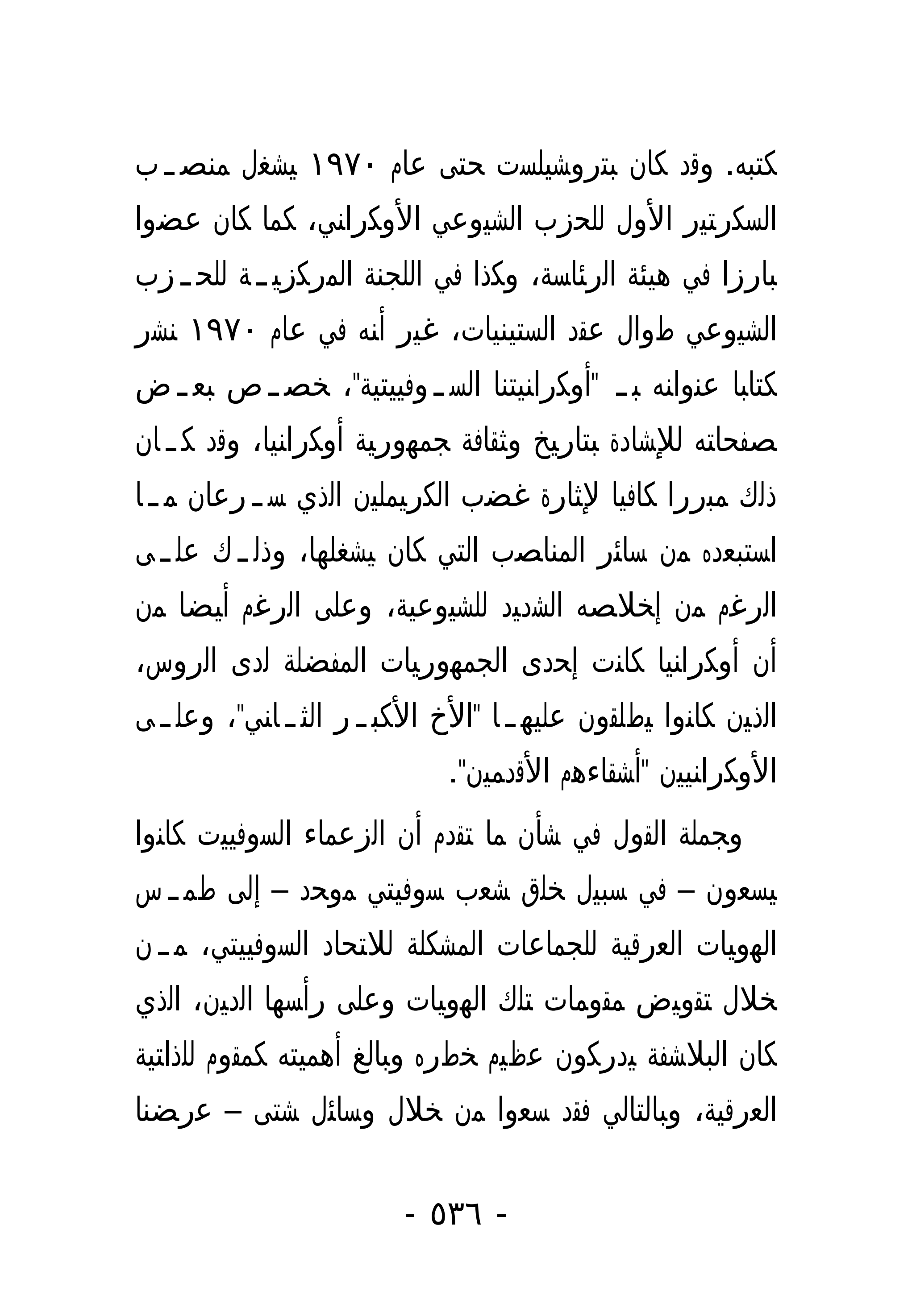
ومهما يكن الأمر فإن حملات البلاشفة ضد الأديان كانـت لها نتائج بارزة تجسدت في تقلص عدد الكنائس والمساجد في الاتحاد السوفييتي إلى حد كبير؛ إذ انخفـض عـدد الكنـائس الممارسة للشعائر في الاتحاد السوفييتي من ٥٤ ألف كنيسـة في عام ١٩١٧ ليصبح ٧ آلاف كنيسة فقط في عـام ١٩٨٧، كما انخفض عدد رجال الدين المسيحي من ٥١ ألف رجل دين عام ١٩١٧ إلى ٦٥٠٠ فقط عام ١٩٨٧. أما عدد المساجد فقد انخفض من ٢٦ ألف مسجد عام ١٩١٧ إلى أربعة آلاف فقط عام ١٩٨٧، وانخفض عدد العلماء Mullahs من ٤٥ ألـف ملا عام ١٩١٧ إلى ألفين فقط عام ١٩٨٧ [٤٦٦].

من جانب آخر وفي إطار سعيهم إلى طمـس الهويـات العرقية للجماعات المشكلة لمجتمعهم؛ راح الزعماء السوفييت يتعاملون بكل شدة مع أية محاولة للتعبير عن أي مـن تلـك الهويات. ولعل أوضح الأمثلة [٤٦٧] على ذلك إقصاء واحـد من أبرز الساسة الأوكرانيين – وهو بتروشيلست – عن كافة مناصبه نظرا لما بدر منه من إشارة للنزعة العرقية في أحد

---

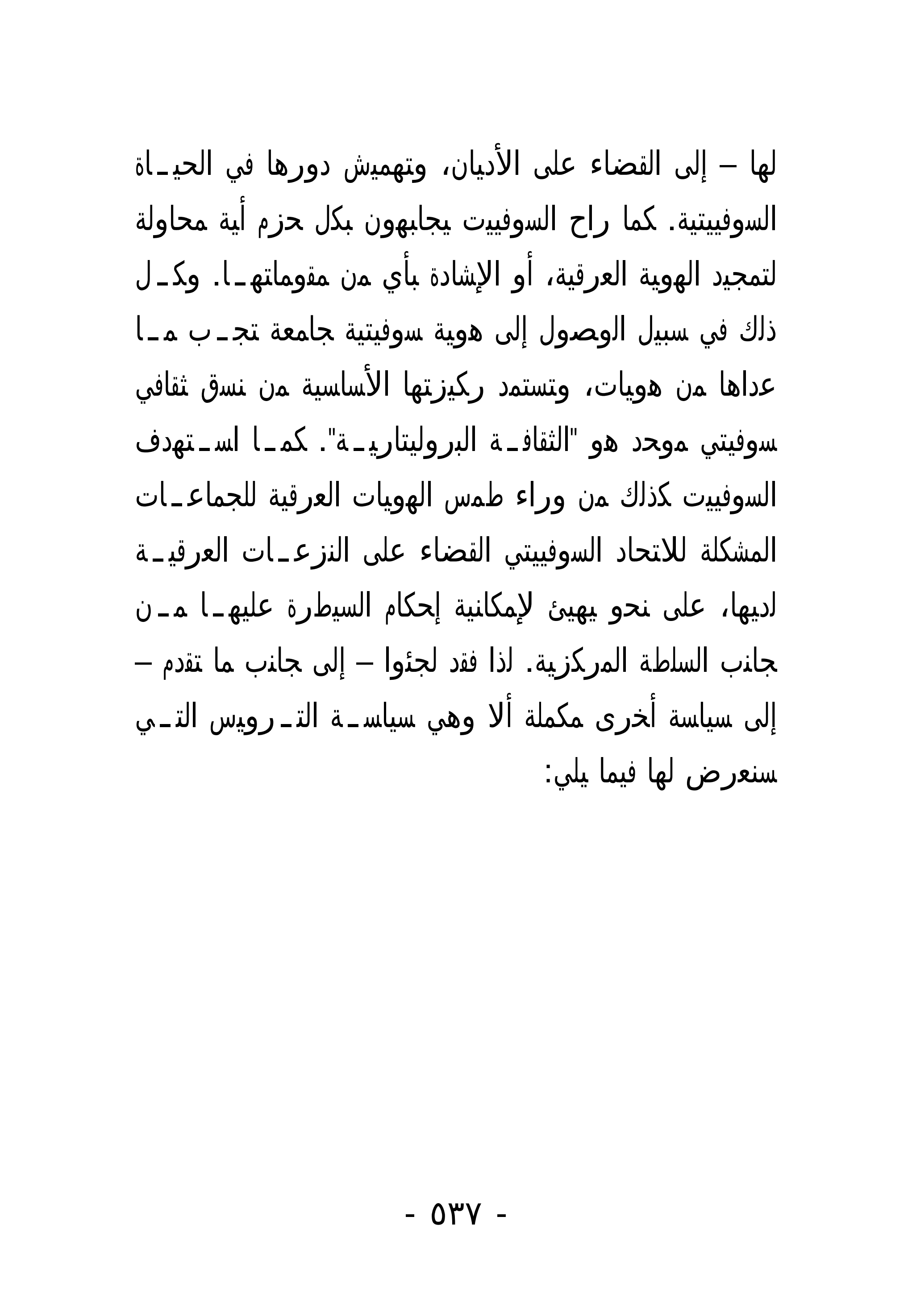
[٤٦٦] Ibid., P. ٣١٣.

[٤٦٧] انظر بصدد ذلك: أحمد عباس عبد البديع، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.



كتبه. وقد كان بتروشيلست حتى عام ١٩٧٠ يشغل منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأوكراني، كما كان عضوا بارزا في هيئة الرئاسة، وكذا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي طوال عقد الستينيات، غير أنه في عام ١٩٧٠ نشر كتابا عنوانه بـ "أوكرانيتنا السوفييتية"، خصص بعض صفحاته للإشادة بتاريخ وثقافة جمهورية أوكرانيا، وقد كان ذلك مبررا كافيا لإثارة غضب الكريملين الذي سرعان ما استبعده من سائر المناصب التي كان يشغلها، وذلك على الرغم من إخلاصه الشديد للشيوعية، وعلى الرغم أيضا من أن أوكرانيا كانت إحدى الجمهوريات المفضلة لدى الروس، الذين كانوا يطلقون عليها "الأخ الأكبر الثاني"، وعلى الأوكرانيين "أشقاءهم الأقدمين".

وجملة القول في شأن ما تقدم أن الزعماء السوفييت كانوا يسعون – في سبيل خلق شعب سوفيتي موحد – إلى طمس الهويات العرقية للجماعات المشكلة للاتحاد السوفييتي، من خلال تقويض مقومات تلك الهويات وعلى رأسها الدين، الذي كان البلاشفة يدركون عظيم خطره وبالغ أهميته كمقوم للذاتية العرقية، وبالتالي فقد سعوا من خلال وسائل شتى – عرضنا



لها – إلى القضاء على الأديان، وتهميش دورها في الحيـاة السوفييتية. كما راح السوفييت يجابهون بكل حزم أية محاولة لتمجيد الهوية العرقية، أو الإشادة بأي من مقوماتهـا. وكـل ذلك في سبيل الوصول إلى هوية سوفيتية جامعة تجـب مـا عداها من هويات، وتستمد ركيزتها الأساسية من نسق ثقافي سوفيتي موحد هو "الثقافـة البروليتاريـة". كمـا اسـتهدف السوفييت كذلك من وراء طمس الهويات العرقية للجماعـات المشكلة للاتحاد السوفييتي القضاء على النزعـات العرقيـة لديها، على نحو يهيئ لإمكانية إحكام السيطرة عليهـا مـن جانب السلطة المركزية. لذا فقد لجئوا – إلى جانب ما تقدم – إلى سياسة أخرى مكملة ألا وهي سياسـة التـرويس التـي سنعرض لها فيما يلي:

خامسا: سياسة الترويس Russification:

ففي إطار سعيهم إلى صهر الجماعات العرقية المشـكلة للاتحاد السوفييتي في بوتقـة شـعب واحـد راح الزعمـاء السوفييت – إلى جانب محاولتهم لطمس هويات هذه الجماعة – يعمدون إلى إضفاء الطابع الروسـي علـى جمهوريـات المحيط (التي تضم الجماعات العرقية غير الروسية)، وكـذا على سائر المؤسسات الاتحادية وعلى رأسها الجيش والحزب الشيوعي. وكان ستالين في خطاب النصر الذي ألقاه في ٢٤ مايو عام ١٩٤٥ قد راح يؤكد على أن روسيا هـي الأمـة صاحبة الدور القيادي في الاتحاد السوفييتي بعد أن أكسـبتها الحرب هذا الحق [٤٦٨].

وبذلك فقد تخلى ستالين عن مبدأ المساواة بين العرقيـات، واعتبر الروس هم الشعب القائد في الاتحاد السوفييتي، الذي بات بمثابة تنظيم هرمي للجماعات العرقيـة تعتلـي قمتـه القومية الروسية، التي تُمثل – على حد تعبير القادة السوفييت – الأخ الأكبر لسائر القوميات السوفييتية. وقد استتبع ذلـك

---

[٤٦٨] أحمد عباس عبد البديع، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٩.

إعادة النظر في تاريخ روسيا القديم، بل ولـم تعـد روسـيا القيصرية هي سجن الشعوب كما كان يطلق عليها البلاشـفة ذاتهم. كما عمد ستالين – ومن تبعه من الزعماء السوفييت – إلى تبني سياسة استيعاب ثقافي إزاء الجماعات العرقية غير الروسية استهدفت ترويس هذه الجماعات ثقافيا ولغويا. فعلى الصعيد الثقافي راح الزعماء السوفييت يهـاجمون ثقافـات القوميات غير الروسية، ويعتبرونها عوامل تفرقـة ورمـزا لماض متخلف، وبالتالي فقد سعوا إلى إضعافها مـن خـلال حملة واسعة النطاق على الأدب بحيث لم يعـد الأدب لـدى الجماعات غير الروسية وسيلة للحفاظ على هوياتها الثقافية، وإنما بات شأنه في ذلك شـأن الأدب الروسـي مجـرد أداة لتمجيد الشيوعية، والتعبير عما أسماه السـوفييت بالواقعيـة الاشتراكية. أما بصدد تـراث الجماعـات غيـر الروسـية وتقاليدها فلم تعد – في رأي الزعماء السوفييت – تُمثل أمرا يستقيم مع المجتمع الاشتراكي الجديد، وذلك في الوقت الذي ازدهرت فيه الثقافة الروسية، واعتبـرت التقاليـد والتـراث الروسيين بمثابة تقاليد وتراث الاتحاد السوفييتي بأكمله [٤٦٩]

---

[٤٦٩] راجع في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع

أما على الصعيد اللغوي فقد عمل الزعماء السوفييت بشتى السبل على نشر اللغة الروسية في إطار سائر الجمهوريات السوفييتية، كما كانت هذه اللغة هي لغة السياسة والاقتصاد والعلم داخل الاتحاد السوفييتي ككل [٤٧٠]، ذلك فضلاً عن اعتبارها لغة التواصل بين مختلف الجماعات العرقية (القوميات) المشكلة للكيان السوفييتي.

وتدعيما لما تقدم بدأ الزعماء السوفييت منذ نهاية الثلاثينيات في فرض الكتابة بالأبجدية السريالية Cyrillic Alphabet على كافة الجماعات العرقية داخل الاتحاد السوفييتي؛ حيث أجبرت هذه الجماعات على إحلال تلك الأبجدية في الكتابة محل أبجديتها الأصلية على اختلافها من لاتينية وعربية وغيرها [٤٧١].

سبق ذكره، ص ١٧٨ – ١٧٩.

(٤٧٠) Barghoom & Remington, Op. Cit., P. ٧٧.

(٤٧١) D'Encausse., Op. Cit., P ٨٩

ومهما يكن الأمر فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها هي أن سياسة الترويس بوجهها اللغوي والثقافي قد فشلت إلى حد كبير؛ إذ لم يبلغ القادة السوفييت ما كانوا قـد توخـوه مـن أهداف في ظلها. وعلى الرغم من ذلك فإن هؤلاء القادة كانوا يعمدون دوما إلى الإيهام بأن سياسة الترويس قد أتت أكلهـا، وأن العالم المعاصر يشهد مولد شعب سوفيتي حق. ولعل من أظهر الساسة السوفييت الذين برعوا في تضـخيم إنجـازات سياسة الترويس زعيم الحزب الشيوعي الأوزبكستاني – إبان العهد البريجنيفي – شرف رشيدوف؛ حيث تمكن رشـيدوف من إقناع بريجنيف بشكل دائم بـأن أوزبكسـتان – كبـرى الجمهوريات الإسلامية من حيث عدد سكانها – باتت تُمثـل نموذجا للتكامل الثقافي. وراح الزعيم الأوزبكسـتاني يعلـن للجميع عن أن سياسته اللغوية قد حققت نجاحا مذهلاً، علـى نحو جعل كافة سكان أوزبكستان يجيدون اللغتـين الروسـية والأوزبكية معا. كما أكد رشيدوف على أنه إذا كان الشـعب السوفييتي (الذي يتكلم لغة مشتركة والمكرس نفسه كليا للعمل من أجل الخير المشترك عن طريـق الجهـد الاقتصـادي) موجودا في مكان ما فهذا المكان هـو بـالقطع أوزبكسـتان

رشيدوف. ويتعين الإشارة إلى أن رشيدوف كان – تأسيسا على دعاواه المتقدمة – قد حصل على أعظم تكريم يمكن أن يبلغه عضو في المكتب السياسي من جانب السلطة السوفييتية. غير أنه بوفاته أظهرت التحقيقات أن سائر إنجازات رشيدوف لم تكن إلا ضربا من الأكاذيب التي طالما ارتكزت إليها النظم الشمولية وعلى رأسها النظام السوفييتي ذاته [٤٧٢].

وعلى أية حال فإن تحليلنا الذي سنقدمه في صفحات لاحقة كفيل بتأكيد الحقيقة التي سقناها، والتي مفادها أن سياسة الترويس اللغوي والثقافي كان مصيرها الفشل.

والحق أن سياسة الترويس التي انتهجها الزعماء السوفييت إزاء جمهوريات المحيط لم تستهدف فحسب النواحي الثقافية واللغوية، وإنما طالت كذلك الكيانات البشرية لتلك الجمهوريات، حيث عمدت السلطات السوفييتية طوال عقود عديدة إلى توزيع الروس في كافة أرجاء جمهوريات المحيط السوفييتية عسى أن يهيئ ذلك لخلق نوع من التجانس

---

[٤٧٢] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦.

والتلاحم بينهم وبين غيرهم من الجماعات العرقية. وقد كان خروشوف يؤكد أن انتشار الـروس فـي سـائر أصـقاع الجمهوريات السوفييتية الأخرى جاء بشكل طوعي، وأنه قاد إلى محو كافة الفوارق بين مختلـف العرقيـات. غيـر أن ملاحظة الواقع السوفييتي كانت تشير إلى أن هذا الانتشـار كان من شأنه أن جعل من الروس جماعات منعزلـة داخـل جمهوريات المحيط، كما غذى التناحرات العرقية بينهم وبين الجماعات العرقية الأخرى القاطنة لتلك الجمهوريـات [٤٧٣]. وسرعان ما توصل الروس – من تلقاء أنفسهم – إلى هـذه الحقيقة، وأدركوا العداء المتصاعد إزاءهـم، وبالتـالي فقـد راحوا ينتقلون من الجمهوريات التي باتت إقامتهم فيها غيـر مستساغة إلى جمهوريات أخرى يتوقعون أن تكون ظـروف إقامتهم فيها أفضل.

ويقدم الجدول التالي توضيحا للتغيرات التي طرأت علـى نسبة عدد الروس في كل من جمهوريات المحيط إلى العـدد الكلي لسكان الجمهورية خلال الفترة (١٩٥٩ – ١٩٨٩):

---

[٤٧٣] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق، ص ٣١٦، ٣١٧.

الجمهورية / السنة	١٩٥٩ %	١٩٧٠ %	١٩٧٩ %	١٩٨٩ %
أوكرانيا	١٦,٩	١٩,٤	٢١,١	٢١,٩
بيلوروسيا	٨,٢	١٠,٤	١١,٩	١٣,١
مولدافيا	١٠,٢	١١,٦	١٢,٨	١٢,٩
ليتوانيا	٨,٥	٨,٦	٨,٩	٩,٣
لاتفيا	٢٦,٤	٢٩,٨	٣٢,٨	٣٣,٨
إستونيا	٢٠,١	٢٤,٧	٧٩,٩	٣٠,٣
جيورجيا	١٠,١	٨,٥	٧,٤	٦,٢
أذربيجان	١٣,٦	١٠	٧,٩	٥,٦
أرمينيا	٣,٢	٢,٧	٢,٣	١,٦
كازاخستان	٤٢,٧	٤٢,٤	٤٠,٨	٣٧,٦
قرجيزيا	٣٠,٢	٢٩,٢	٢٥,٩	٢١,٤
أوزبكستان	١٣,٥	١٢,٥	١٠,٨	٨,٣
طاجكستان	١٣,٣	١١,٩	١٠,٤	٧,٦
تركمانستان	١٧,٣	١٤,٥	١٢,٦	٩,٥

جدول رقم (٦)

انظر بصدد بياناته:

- المرجع السابق، ص ٣١٧. وكذلك:

Smith, Graham (ed.), Op. Cit., ٣٦٥.

ويلاحظ في ثنايا الجدول السابق تصاعد وتيـرة رحيـل الروس مـن منطقتـي القوقـاز (أرمينيـا – أذربيجـان – جورجيا)، ويترجم ذلك – على حد قول البعض – تصـاعد المشاعر المعادية للروس في تلك الجمهوريات. غير أنه مما تجدر الإشارة إليـه أن الـروس حينمـا كـانوا يبـارحون جمهوريات صعب عليهم العيش فيها فإنهم كانوا يتجهون إلى دول البلطيق؛ حيث يرتفع مستوى المعيشة، وحيث تجتـذبهم إمكانية الحصـول علـى البضـائع الاسـتهلاكية الغربيـة كـالملابس، والأثـاث، والأدوات المنزليـة ذات التقنيـة المتطورة[(٤٧٤)]. ولكن هل كانت شعوب البلطيق أكثـر مـن شعوب آسيا الوسطى قبولاً لوجود الروس بين ظهرانيهم؟ هذا ما سنجيب عنه في صفحات قادمة بإذن ا .

---

(٤٧٤) انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٨.

وفضلاً عن الترويس اللغوي والثقافي وترويس الكيانـات البشرية لجمهوريات المحيط، سعي الزعماء السوفييت إلـى ترويس كافة المؤسسات الاتحادية، وعلى رأسـها الحـزب الشيوعي والجيش؛ حيث سيطر الروس على معظم المراكـز الرئيسية للقوة على مستوى الحزب وبالتالي علـى مسـتوى الحكومة [٤٧٥].

أما فيما يتصل بالجيش فتؤكد الإحصاءات المتاحـة عـن السنوات الأخيرة من عمر الاتحاد السوفييتي سيطرة العنصر الروسي على مقدرات الجيش، ذلك بأن ما يزيد على ٩٥ % من كبار ضباط الجيش السوفييتي كانوا من الروس، ويشمل ذلك القيادة العليا للجيش، ورئاسة أركان القـوات المسـلحة، وقيادات مسارح العمليات، وقيادات المناطق العسكرية، ذلـك فضلاً عن أن ٧٥ % من إجمالي ضباط الجيش السـوفييتي كانوا من أصول روسية أو سلافية، كما كان يتولى تشـغيل كافة المنشآت العسكرية الأساسية أفراد روس ويعاونهم فـي ذلك عدد محدود من الأوكرانيين والبيلوروس، وتشمل هـذه المنشآت القيادة العليـا للتوجيـه والسـيطرة والاتصـالات،

---

[٤٧٥] أحمد عباس عبد البديع، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.

والحصول على المعلومات، والقوات النووية الاستراتيجية، وقوات الدفاع الجوي الاستراتيجي، وقيادة المقاتلات الاعتراضية الاستراتيجية، والقوات الخاصة، وقوات الأمن التي كانت تتولى حماية القيادة العليا والمنشآت النووية [٤٧٦].

وجملة القول بصدد سياسة الترويس أن هذه السياسة كانت إحدى الوسائل التي لجأت إليها القيادات السوفييتية فيما يتصل بالتعامل مع المسألة القومية؛ إذ استهدفت تلك القيادات من وراء الترويس الثقافي واللغوي للجماعات غير الروسية العمل على طمس الهويات العرقية لتلك الجماعات وتقويض مقومات ذاتياتها، على نحو يهيئ لصهرها في بوتقة واحدة مع الروس، بما يؤدي إلى خلق هوية سوفيتية جامعة. وللتمكين لذلك لجأ السوفييت – بجانب الترويس اللغوي والثقافي – إلى ترويس الكيان البشري لجمهوريات المحيط على نحو ما قدمنا.

---

[٤٧٦] مراد إبراهيم الدسوقي، روسيا والتركة العسكرية للاتحاد السوفيتي، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٠٩.

أما بصدد ترويس المؤسسات الاتحادية وعلى رأسها الجيش والحزب الشيوعي فقد استهدف الزعماء السوفييت من ورائه إحكام قبضتهم على هذه المؤسسات، وبالتالي على سائر الجمهوريات بما تنطوي عليه من جماعات عرقية.

سادسا: اقتلاع الجماعات العرقية المتمردة وتشتيتها عبر جمهوريات بعيدة عن مواطنها الأصلية:

ولعل من أظهر حالات لجوء السوفييت إلى هذه السياسة ما قام به ستالين إبان الحرب العالمية الثانية. فخلال بضعة شهور تمتد من أكتوبر ١٩٤٣ وحتى يونيو ١٩٤٤ قام الزعيم السوفييتي باقتلاع العديد من الجماعات العرقية (أقليات) من مواطنها الأصلية، وتشتيتها عبر أرجاء آسيا الوسطى وأصقاع سيبيريا، متهما إياها بخيانة الاتحاد السوفييتي والتعاون مع النازيين خلال الحرب. وقد بلغ عدد الأشخاص الذين تم ترحيلهم ترحيلاً قسريا عن أوطانهم ما يربو على المليون شخص، ينتمون إلى سبع جماعات عرقية صغيرة هي الشيشان Chechens، والأنجوش Ingush، والبلقار Balkars، والكالموك Kalmyks، وتتار القرم Crimean Tatars، فضلاً عن ألمان الفولجا Volga

Germans [٤٧٧]. ويوضح الجدول التالي عدد أفراد كل من هذه الجماعات:

الجماعة العرقية	تعدادها (عام ١٩٣٩) بالفرد
الشيشان	٤٠٧٦٩٠
ألمان الفولجا	٣٨٠٠٠٠
تتار القرم	٢٠٠٠٠٠
الكالموك	١٣٤٢٧١
الأنجوش	٩٢٠٧٤
الكاراتشيز	٧٥٧٧٣
البلقار	٤٢٦٦٦
التعداد الإجمالي	١٣٣٢٤٧٤

جدول رقم (٧)

(تم تركيبه بالاعتماد على: D'Encausse, Op. Cit., P. ٩١)

---

(٤٧٧) D'Encausse, Op. Cit., P. ٩١.

وفي عام ١٩٤٦ صدر مرسوم يقضي باستباحة أراضـي الجماعات المقتلعة؛ حيث سمح لأفراد من جماعات عرقيـة أخرى بالاستيلاء عليها واستيطانها، في حين ظـل الأفـراد المقتلعون لمدة عشر سنوات يعيشون؛ حيث هجروا في ظـل ظروف بالغة القسوة، كما عمـد النظـام السـوفييتي إلـى تجاهلهم، وعدم الإشارة إليهم في أية مناسبة، بل ولم يعودوا يذكرون ضمن قوميات الاتحاد السوفييتي [٤٧٨].

وتتعين الإشارة إلى أنه مع مجيء خروشوف إلى الحكـم في الاتحاد السوفييتي بدأ عهد جديد في التعامل مع الجماعات التي كان ستالين قد اتهمها بالخيانة، واقتلعها من مواطنهـا؛ حيث أعطـى الحـق لكـل مـن الشيشـان، والأنجـوش، والكاراتشيز، والبلقار في العودة إلى مواطنهم الأصلية، فـي حين لم يمنح هذا الحق لكـل مـن تتـار القـرم، وألمـان الفولجا[٤٧٩]. كما راح خروشوف – من ناحية أخرى – يؤكد على فكرة المساواة بين سائر الجماعات العرقية السـوفييتية. ويرى البعض أن التغير الطفيف الذي طـرأ علـى معاملـة

---

[٤٧٨] Ibid.

[٤٧٩] Ibid., P. ٩٥.

خروشوف للقوميات كان مرده إلى سعي الزعيم السـوفييتي إلى الانفتاح على العالم الخارجي، واستقطاب حركات التحرر الوطني في بلدان العالم الثالث، وهو الهدف الذي لم يكن في مقدوره بلوغه إن هو استمر على نهج أسـلافه – لا سـيما ستالين – في طحن القوميات. ولقد أراد خروشوف أن يثبت للعالم الخارجي – ولا سيما الشعوب الإسلامية – أن الاتحاد السوفييتي هو دولة ذات عرقية متعددة يحترم كل منها ذاتيـة الآخرين واستقلالهم [٤٨٠].

غير أن خروشوف سرعان ما اكتشف أن سياسة المهادنة شأنها شأن سياسة العنف، لا تقدم العـلاج النـاجح للمسـألة القومية، بل على العكس فإنها تشـجع النزعـات العرقيـة. وبالتالي فقد اتجه الزعيم السوفييتي إلى التأكيد على أن الحل الأمثل لتلك المسألة يكمن في تحقيق المجتمع الشيوعي فـي أقرب وقت، وعلى اعتبار أن الأمميـة البروليتاريـة التـي يحققها ذلك المجتمع كفيلة بإنهاء المسألة القومية، وخلق شعب سوفيتي حق. وهكذا فقد كان خروشوف شأنه في ذلك شـأن

---

[٤٨٠] انظر في هذا المضمون: دانكوس، انتفاضة القوميات...، مرجـع سبق ذكره، ص ١٧٩.

سائر الزعماء السوفييت ينظر إلى المسألة القومية باعتبارها مشكلة مؤقتة يمكن حلها وإنهاؤها، شأنها في ذلك شأن كافـة المشكلات التي تجابههم، وإذن فهؤلاء الزعماء لم يسـتوعبوا البعد الحقيقي لهذه المشكلة وطابعها الدائم والمهـدد للنظـام السوفييتي بأسره [٤٨١]، إذ كانوا يؤكدون دائما على أنه يمكن إذابة كافة الفوارق العرقية، وتوحيد الجماعات العرقية تحت راية الأممية البروليتارية.

وجملة القول في شأن ما تقدم أن الزعماء السوفييت خلال الفترة (١٩١٧ – ١٩٨٤) قد سعوا من خلال وسائل شتى إلى إيجاد حل للمسألة القوميـة، الناجمـة عـن كـون الاتحـاد السوفييتي دولة ذات تنوع عرقي هائل. ولقـد راح هـؤلاء الزعماء يحكمون قبضتهم على كافـة الجماعـات العرقيـة الخاضعة لحكمهم من خلال نظام شمولي يرتكز إلى الإرهاب والتنكيل، ودستور اتحادي تقلصت في ظله إلى حـد بعيـد اختصاصات جمهوريات المحيط لحساب السلطة المركزيـة. كما راح السوفييت يعلنون رفضهم لفكرة القومية باعتبارهـا من بقايا البرجوازية، ويروجون لفكرة الأممية البروليتاريـة

---

[٤٨١] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق.

التي يكون الانتماء في ظلها للطبقة لا للعرق. وفضلاً عـن ذلك فقد راحوا يقمعون بكل ضـراوة أيـة حركـة عرقيـة تستهدف انفصال شعبها عن الاتحاد السـوفييتي، بـرغم أن دستور الاتحاد كان ينص على حـق أيـة جمهوريـة فـي الاستقلال. وفوق ما تقدم فقد راح الزعماء السوفييت يسعون إلى طمس الهويات العرقية لجماعات المحـيط وترويسـها، فضلاً عن اقتلاع الجماعات العرقية المتمردة وتشتيتها بمنأى عن مواطنها الأصلية. ولعل السؤال الذي يطرح نفسـه الآن هو: هل نجح الزعماء السوفييت – من خلال كافة الوسـائل التي استخدموها – في تسوية المسألة القومية؟

تتعين الإشارة إلى أن سائر هؤلاء الزعماء قد أكدوا على أن المسألة القومية قد حلت، وأن هذا يمثل أحد إنجازات ثورة أكتوبر. فعلى سبيل المثال نجد أن بريجنيف قد راح يؤكد في تقريره الذي ألقاه في المؤتمر الرابـع والعشـرين للحـزب الشيوعي السوفييتي على أن "تحقيق الحزب للسياسة القومية اللينينية – سياسة المساواة والصداقة بين الشعوب – هو أحد الإنجازات الكبرى للاشتراكية" [٤٨٢]. ومن الغريب أيضا أن

---

[٤٨٢] زيفيليف، مرجع سبق ذكره، ص ٧٥.

جورباتشوف انتقد كافة السياسات التي انتهجها أسلافه ما عدا سياساتهم إزاء المسألة القومية؛ إذ كـان يعتقـد أن الاتحـاد السوفييتي – وإن كان يعاني مـن مشـاكل جمـة – إلا أن المسألة القومية قد باتت من ودائع التـاريخ. وعلـى سـبيل المثال ففي تقرير له قدمه في ٢ نوفمبر عـام ١٩٨٧ إلـى الجلسة المشتركة للجنة المركزية للحزب الشيوعي، ومجلس السوفييت الأعلى للاتحاد ومجلس السوفييت الأعلى لروسـيا بمناسبة الذكرى السبعين للثورة البلشفية راح جورباتشـوف يقول: "أيها الرفاق، إن من حقنا اليوم أن نقول بأننا قد سوينا المسألة القومية، لقد شقت الثورة الطريق نحو المساواة فـي الحقوق بين الأمم، كما ساهمت بشكل ملحوظ في المسـاواة بصدد مستويات التطور الاقتصادي، والاجتماعي، والثقـافي لدى كافة الجمهوريات، والمناطق، وبين كافة الشعوب.

إن الصداقة بين الشعوب السوفييتية هي واحدة من أكبـر منجزات أكتوبر، وهذه الصداقة في حد ذاتها تمثـل ظـاهرة فريدة في التاريخ العالمي، وواحدة من دعـائم قـوة الدولـة وصلابتها"[٤٨٣].

---

[٤٨٣] دانكوس، انهيار الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٥.

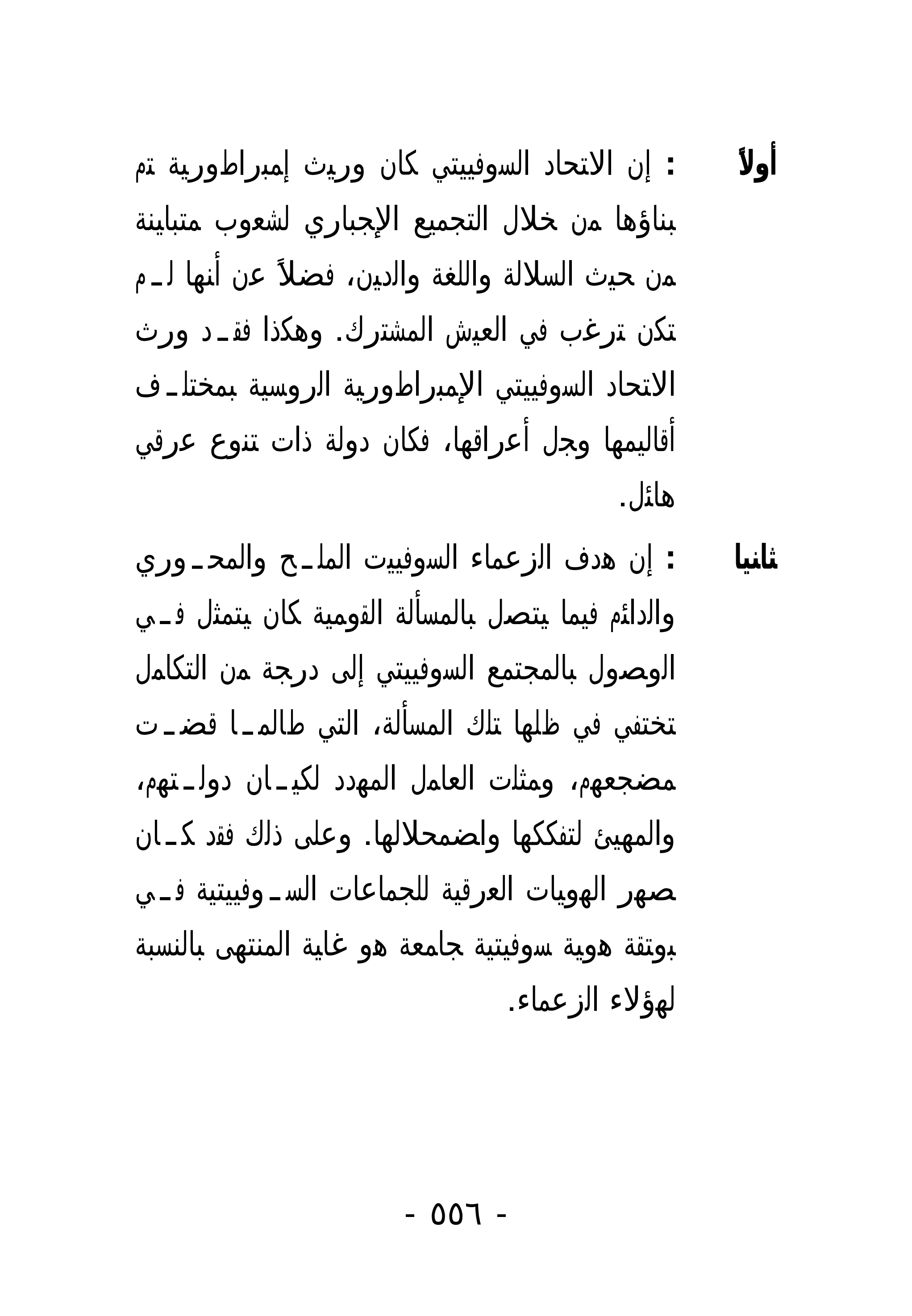
ولكن هل كانت المسألة القومية في الاتحاد السوفييتي قـد سويت بالفعل؟

هذا ما ستتضح الإجابة عنه من خلال تحليلنا في صفحات تالية.

* * *

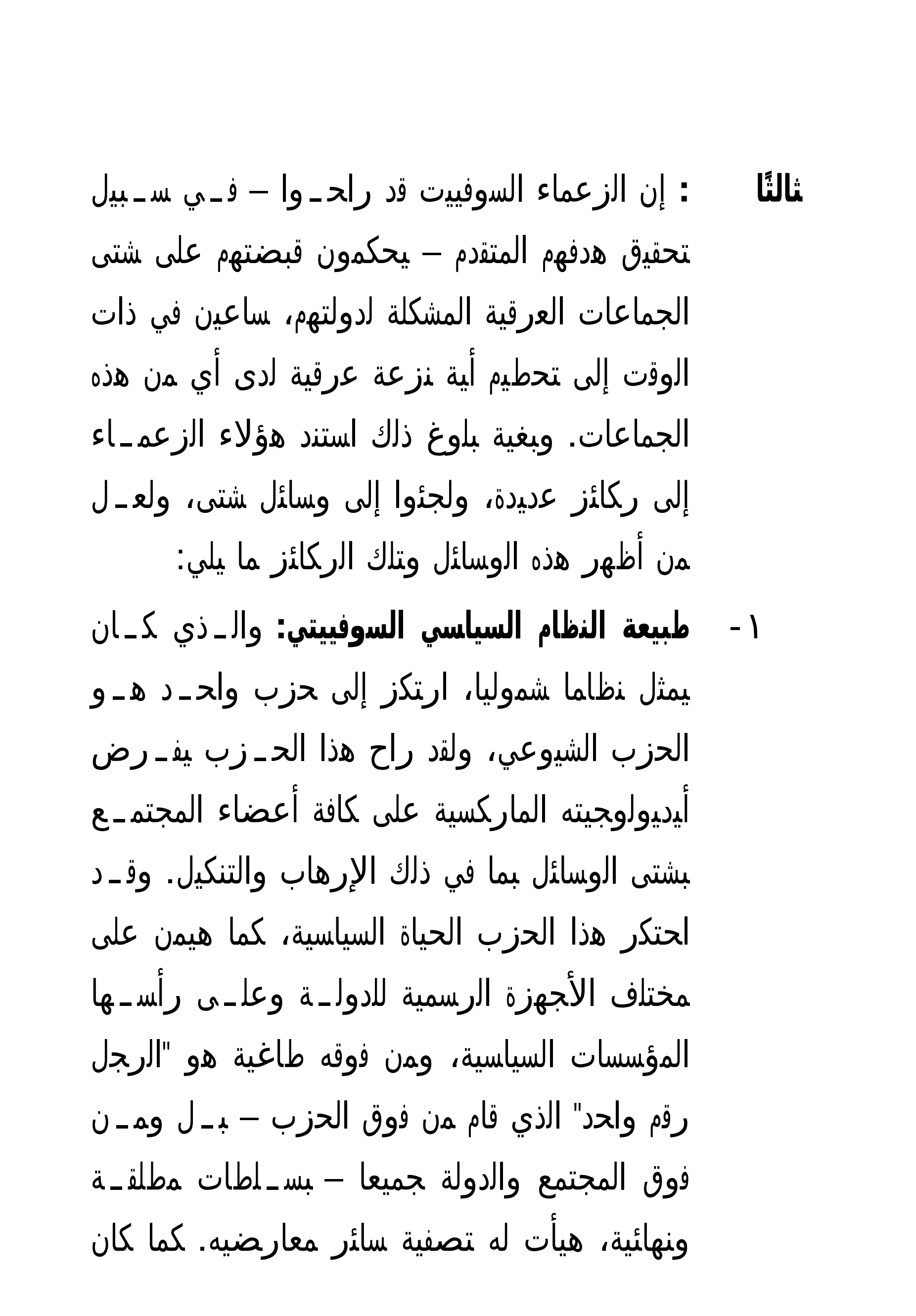
تقـريـ ـر:

استهدف هذا الفصل التعريف بالحركـات العرقيـة فـي الاتحاد السوفييتي السابق خلال الفترة الممتدة من قيام الثورة البلشفية (عام ١٩١٧) وحتى ما قبل اعـتلاء جورباتشـوف لسدة الحكم في الكريملين عام ١٩٨٥. وقـد اقتضـى ذلـك التعريف بالتكوين العرقي للاتحاد السـوفييتي، والتقسـيمات الإدارية التي خطها الزعماء السوفييت استجابة لذلك التكوين. كما عرضنا في هذا الفصل بشيء من التفصـيل للسياسـات التي انتهجها هؤلاء الزعماء بغية تسوية المسـألة القوميـة. ومن خلال تتبع الواقع السوفييتي خـلال الفتـرة ١٩١٧ – ١٩٨٤ فيما يتصل بالمسألة القومية خلصنا على الملاحظات التالية:



أولاً : إن الاتحاد السوفييتي كان وريث إمبراطورية تم بناؤها من خلال التجميع الإجباري لشعوب متباينة من حيث السلالة واللغة والدين، فضلاً عن أنها لـم تكن ترغب في العيش المشترك. وهكذا فقـد ورث الاتحاد السوفييتي الإمبراطورية الروسية بمختلـف أقاليمها وجل أعراقها، فكان دولة ذات تنوع عرقي هائل.

ثانيا : إن هدف الزعماء السوفييت الملـح والمحـوري والدائم فيما يتصل بالمسألة القومية كان يتمثل فـي الوصول بالمجتمع السوفييتي إلى درجة من التكامل تختفي في ظلها تلك المسألة، التي طالمـا قضـت مضجعهم، ومثلت العامل المهدد لكيـان دولـتهم، والمهيئ لتفككها واضمحلالها. وعلى ذلك فقد كـان صهر الهويات العرقية للجماعات السـوفييتية فـي بوتقة هوية سوفيتية جامعة هو غاية المنتهى بالنسبة لهؤلاء الزعماء.



ثالثًا : إن الزعماء السوفييت قد راحـوا – فـي سـبيل تحقيق هدفهم المتقدم – يحكمون قبضتهم على شتى الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم، ساعين في ذات الوقت إلى تحطيم أية نزعة عرقية لدى أي من هذه الجماعات. وبغية بلوغ ذلك استند هؤلاء الزعمـاء إلى ركائز عديدة، ولجئوا إلى وسائل شتى، ولعـل من أظهر هذه الوسائل وتلك الركائز ما يلي:

١- **طبيعة النظام السياسي السوفييتي:** والـذي كـان يمثل نظاما شموليا، ارتكز إلى حزب واحـد هـو الحزب الشيوعي، ولقد راح هذا الحـزب يفـرض أيديولوجيته الماركسية على كافة أعضاء المجتمـع بشتى الوسائل بما في ذلك الإرهاب والتنكيل. وقـد احتكر هذا الحزب الحياة السياسية، كما هيمن على مختلف الأجهزة الرسمية للدولـة وعلـى رأسـها المؤسسات السياسية، ومن فوقه طاغية هو "الرجل رقم واحد" الذي قام من فوق الحزب – بـل ومـن فوق المجتمع والدولة جميعا – بسـلطات مطلقـة ونهائية، هيأت له تصفية سائر معارضيه. كما كان

الإعلام في ظل ذلك النظام موجهـا بحيـث كـان شاغله الأوحد الدعاية للنظام، والتعتيم على كافـة أخطائه، وكل ذلك إلى جانب وضع قيود هائلة من جانب النظام على حرية الرأي، والتعبير، والعقيدة.

وفوق كل ما تقدم عمد الزعماء السوفييت بغيـة إحكـام السيطرة على الجماعات العرقية إلى تقليص الاختصاصـات المخولة للجمهوريات السوفييتية إلى أدنى حد ممكن (وذلـك بمقتضى الدساتير التي وضعها هؤلاء الزعماء)، كمـا تـم بمقتضى القانون العسكري لعـام ١٩٣٨ تفكيـك الوحـدات العسكرية الخاصة بالجمهوريات، فلم يعد ثمة سـوى جـيش واحد متعدد العرقيات هو الجيش السوفييتي، أمـلاً فـي أن يكون هذا الجيش بمثابة النواة لخلق شعب سـوفيتي واحـد. وهكذا فقد مثل النظام السوفييتي – بمقوماته المشار إليهـا – إطارا ضاغطًا على الجماعات العرقيـة لـم تسـتطع إزاءه حراكًا.

٢- **الدعوة إلى فكرة الأممية البروليتارية كفكرة بديلة للقومية:** حيث راح كافة الزعماء والمثقفين السوفييت يروجون في خطبهم ومؤلفاتهم لفكرة الأممية البروليتارية، ويدعون إلى نبذ القومية باعتبارها إحدى موروثات البرجوازية البائدة، كما سخرت شتى وسائل الإعلام السوفييتية من مقروءة ومسموعة ومرئية للترويج لفكرة الأممية البروليتارية، التي يكون الولاء في ظلها للطبقة لا للعرق. وقد استهدف السوفييت من وراء ذلك القضاء على أية نزعة قومية أو عرقية لدى أي من الجماعات المشكلة للاتحاد السوفييتي بما يهيئ لإحكام القبضة عليها على نحو ما قدمنا.

٣- **قمع أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الاتحاد السوفييتي:** حيث قـام السـوفييت بسـحق استقلال كل من أوكرانيا وأذربيجـان وجيورجيـا، وإبادة الحركة الانفصالية البخارية وحركة بسماتشي في آسيا الوسطى غداة الثورة البلشفية. ولم يكتـف السوفييت بذلك وإنما شرعوا – مستخدمين جبروتهم – في اغتصاب دول بأكملها وضمها إلى دولـتهم، فضلاً عن سلخ أجـزاء مـن أقـاليم دول أخـرى مجاورة ودمجها في الاتحاد السوفييتي، وذلك كلـه إبان الحرب العالمية الثانية. وقد تمثلت الدول التي ضمها السوفييت في دول البلطيق الثلاث (ليتوانيا – إستونيا – لاتفيا)، أما الأقاليم التي قاموا بالاستيلاء عليها عنوة وجبرا عن دولها الأصلية فقد تمثلت في كل من كاريليا الفنلنديـة، ومولـدافيا الرومانيـة. وفضلاً عن التجميع الجبري للشـعوب وإرغامهـا على الدخول في الحظيرة السوفييتية، ولـم يسـمح السوفييت لأي من حلفـائهم فـي شـرق أوربـا بالانسحاب من حلف وارسو. وعلى سبيل المثـال فقد أجبرت الدبابات السوفييتية كلاً من المجر (عام

١٩٥٦) وتشيكوسـلوفاكيا (عـام ١٩٦٨) علـى الرضوخ لإرادة السوفييت، والعودة صاغرتين إلى الدوران في فلكهم داخل حظيرة حلـف وارسـو. وهكذا فإن كل ما تقدم يؤكد على أن السوفييت لـم يكونوا ليوافقوا على انفصال أية جمهورية سوفيتية عن الاتحاد السوفييتي، وبالتالي فإن "حـق تقريـر المصير" الذي طالما تشدقوا به وحـق الانفصـال الذي طالما أكدوا التزامهم بـه وضـمنوه سـائر دساتيرهم لم يكونا في الواقع سوى مجرد شـعارين أجوفين رفعهما السوفييت بغيـة تحقيـق مكاسـب سياسية، ولم يلتزموها البتة قيد أنملـة. كمـا أننـا لا نكون بعيدين عن كبد الحقيقـة إذا مـا قلنـا إن الاتحاد السوفييتي – في ضوء ما تقدم – كان يقوم – شأنه في ذلك شأن الإمبراطورية الروسية التـي ورثها – على التجميع الإجباري للشعوب، وبالتالي فإننا نتفق مع الرأي القائل بأن الاتحاد السـوفييتي كان يمثل إمبراطوريـة فـي عصـر لا يعـرف الإمبراطوريات.



٤- **السعي إلى طمس الهويـات العرقيـة للجماعـات المشكلة للاتحاد السوفييتي** مـن خـلال تقـويض مقوماتها وعلى رأسها الدين، وعلى نحـو يهيـئ لإمكانية إحكام السيطرة عليها، وصهرها في بوتقة هوية سوفيتية جامعة تجب ما عداها من هويـات، وتستمد ركيزتها الأساسية من نسق ثقافي سـوفيتي موحد هو "الثقافة البروليتارية" بمضمونها المتقدم.

٥- **سياسة الترويس والتي انطوت على أهداف ثقافية،** وأخرى تتصل بالكيانات البشـرية للجمهوريـات، وثالثة تتصل بسائر المؤسسات الاتحاديـة للدولـة. فأما الترويس الثقـافي واللغـوي فقـد اسـتهدف المساهمة في طمس الهويات العرقيـة لجماعـات المحيط وتقويض مقومات ذاتياتها، على نحو يهيئ لصهرها مع الروس في بوتقة واحدة، بما يؤدي إلى خلق هوية واحدة، وللتمكين لذلك لجأ السـوفييت – بجانب الترويس الثقافي واللغوي – إلـى تـرويس الكيان البشـري لجمهوريـات المحـيط بتـوطين تجمعات بشـرية روسـيا داخـل أراضـي هـذه

الجمهوريات على نحو ما قـدمنا، أمـا تـرويس المؤسسات الاتحاديـة – وعلـى رأسـها الجـيش والحزب الشـيوعي – فقـد اسـتهدف الزعمـاء السوفييت من ورائه إحكام قبضـتهم علـى هـذه المؤسسات، وبالتالي على سائر الجمهوريات بمـا تنطوي عليه من جماعات عرقية.

٦- **اقتلاع الجماعات العرقية المتمردة مـن أراضـيها** وتشتيتها في أرجاء آسيا الوسطى وأصقاع سـيبريا بمنأى عن مواطنها الأصلية، وهذا حال ما حـدث مع الأقليات التي اتهمها ستالين بالخيانة والتعـاون مع النازيين إبان الحرب العالميـة الثانيـة، وهـي الأقليات المتمثلة في الشيشان، والأنجوش، والبلقار، والكاراتشيز، وتتار القـرم، والكـالموك، وألمـان الفولجا.

رابعا : إنه من خلال الوسائل المتقدمة تمكـن الزعمـاء السوفييت بالفعل خلال الفتـرة (١٩١٧ – ١٩٨٤) من إحكام قبضتهم على سائر الجماعـات العرقيـة الخاضعة لنيرهم، والمشكلة لدولتهم. كمـا قـاموا بسحق أية حركة عرقية تستهدف انفصـال شـعبها عن الاتحاد السوفييتي، على نحو ما قدمنا.

خامسا : إن كافة الزعماء السوفييت الذين تعـاقبوا علـى الحكم في الكريملين بمن فيهم جورباتشوف – ذاته كانوا يؤكدون دوما على أنهم قد نجحوا في تسـوية المسألة القومية، وأن الصداقة بين سائر الشـعوب السوفييتية قد باتت تُمثل واقعا ملموسا، ودليلاً قاطعا على عظمة ثورتهم (ثورة أكتوبر).

ويبقى السؤال الذي سبق أن طرحناه: هل كان الزعمـاء السوفييت بالفعل قد نجحوا – حقًا – فـي تسـوية المسـألة القومية؟... هذا هو ما سنقدم الإجابة عنه – بإذن ا – فـي ثنايا الفصل التالي..

الفصل الثاني

في الحركات العرقية

في الاتحاد السوفييتي

خلال عهد جورباتشوف(١٩٨٥ – ١٩٩١)

بوفاة الزعيم السوفييتي قسـطنطين تشـيرنينكو فـي ١١ مارس ١٩٨٥ اعتلى ميخائيل جورباتشوف سدة الحكم فـي الاتحاد السوفييتي. ولم تكد تمضي على ذلك بضعة شـهور حتى بات واضحا أن الاتحاد السوفييتي بصدد تحولات فكرية عظيمة الشأن، وأن هذه التحولات ستكون لها – لا محالة – آثار بالغة على شتى قطاعات المجتمع السوفييتي؛ إذ كانـت هذه التحولات ثورية على نحو لم تشهد له الدولة السـوفييتية مثيلاً [٤٨٤]. فلقد راح جورباتشوف يتبنى سياسة جديدة عرفت بالبريسترويكا (أي إعادة البناء) Perestroika، والتي تُمثـل

---

[٤٨٤] انظر في هذا المعنى:

Mc Cauley, Martin (ed.), Gorbachev and Perestroika, Macmillan Press LTD., London, ١٩٩٠, P. ١.

أظهر مقوماتها في المصارحة أو الجلاسنوست Glansnost.
وفي إطار تلك السياسة راح جورباتشوف ينتقد بشدة أسـلافه من الزعماء السوفييت، وعلى رأسهم سـتالين وخروشـوف وبريجنيف، ويلقي عليهم بمسـئولية التـدهور الـذي طـال الاقتصاد السوفييتي. كما أعلن إدانته للممارسات التي انتهجها ستالين إزاء معارضيه، واتهمه بارتكاب أخطاء جسيمة فـي هذا الصدد، وأصدر أوامره بتشكيل لجنة يناط بها إعادة كتابة تاريخ الحقبة الستالينية بغية رد الاعتبار للذين أضيروا مـن جراء حكم ستالين. وفي ٥ فبراير ١٩٨٨ أصدرت المحكمة السوفييتية حكما ردت بمقتضاه الاعتبار لعشرين من زعماء الثورة البلشفية الذين أعدمهم ستالين مـن خـلال عمليـات التطهير التي قام بها في أواخر الثلاثينيات [٤٨٥].

وبصدد سياسته الجديدة راح جورباتشـوف يقـول بـأن "البريسترويكا تعني مبادرة الجماهير، إنها التطوير الشـامل للديمقراطية والحكم الذاتي الاشتراكي، وتشـجيع المبـادرة، والمسعى الخلاق، ومزيد من المصارحة والنقد، والنقد الذاتي

---

[٤٨٥] راجع في هذا المضمون: شهريات مجلة السياسة الدولية، العـدد (٩٢)، أبريل ١٩٨٨، ص ٣١٤.

في كافة مجالات مجتمعنا، إنها تعني أقصى احترام للفـرد، ومراعاة للكرامة الشخصية"، وأضاف: "وأود أن أوضح أنـه برغم أننا نحن السوفييت مع الاشتراكية إلا أننـا لا نفـرض آراءنا على أي فرد، فليقرر كل امرئ خياره، فسوف يضـع التاريخ كل شيء في موضعه" (٤٨٦).

كما راح جورباتشوف يرفض سياسة التعتـيم الإعلامـي التي طالما ارتكز إليها أسلافه من الزعماء السوفييت، والتي كانت تقوم على استخدام شعارات مضللة اسـتهدفت دومـا تمجيد النظام السوفييتي بشتى السبل، في الوقت الذي كان يتم فيه التستر على أخطاء النظام مهما كانت جسامتها. ويقـول جورباتشوف في ذلك: "لقد كان هناك انفصال بـين القـول والعمل، على نحو جعل الناس لا يصدقون الشعارات التـي كانت تُعلن، وأصبح كل ما يعلن من فوق المنابر ويطبع فـي الصحف والكُتب مثار شك وتساؤل" (٤٨٧).

---

(٤٨٦) راجع في هذا الصدد: ميخائيل جورباتشوف، البريسترويكا: تفكير جديد لبلادنا وللعالم، ترجمة: حمدي عبد الجـواد، دار الشـروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، يناير ١٩٩٠، ص ٣٥، ٣٨، ٣٠.

(٤٨٧) المرجع السابق، ص ١٨، ١٩.

وهكذا فقد أبى جورباتشوف عن انتهاج المصارحة بديلاً، فراح يعلن الواقع المرير الذي يشهده المجتمع السوفييتي في شتى قطاعاته الاقتصادية والسياسية وغيرها.

فعلى الصعيد الاقتصادي ها هو جورباتشوف يعترف – على عكس ما كان يفعل أسلافه – بأن ثمة معضلات جمة يجابهها الاتحاد السوفييتي في هذا الصدد، فيقول: "منذ النصف الأخير من السبعينيات بدأت بلادنا تعاني إخفاقًا اقتصاديا؛ إذ بدأت تظهر في مجتمعنا عناصر الركود، كما تدهورت معدلات نمو الدخل القومي لأكثر من النصف. وبحلول بداية الثمانينيات انخفضت هذه المعدلات إلى مستوى قريب من الركود الاقتصادي، وبدأت تتسع الفجوة بيننا وبين البلدان الأخرى في غير صالحنا، سواء فيما يتصل بكفاءة الإنتاج، أو جودة المنتجات، أو التطور العلمي والتكنولوجي"[٤٨٨].

---

[٤٨٨] المرجع السابق، ص ١٥.

وقد حمل جورباتشوف بريجنيف مسئولية التدهور الـذي يعاني منه الاقتصاد السوفييتي، وأضاف أن العهد البريجنيفي كان يتسم بالبيروقراطية والجمود. وعلى إثر ذلك قرر مجلس السوفييت الأعلى – وكذا اللجنة المركزية للحزب الشـيوعي – رفع اسم بريجنيف من كافة الشوارع والميادين والمنشآت السوفييتية، وإسقاط اعتباره [٤٨٩].

كما راح جورباتشوف في إطـار عمليـة إعـادة البنـاء (البريسترويكا) يعلن تبنيه لبرنامج اقتصادي طموح يستهدف تخليص الاقتصاد السوفييتي من أغلال المركزية والتوجيـه، والانطلاق به إلى معارج التقدم في رحاب قوى السوق [٤٩٠].

أما على صعيد الحريات العامة – وفي إطار البريسترويكا والجلاسنوست – فقد راح جورباتشوف شيئًا فشـيئًا يزيـل القيود التي كان أسلافه قد كبلوا بها هذه الحريـات، وعلـى رأسها حرية الرأي والتعبير والعقيدة؛ حيث قام جورباتشوف

---

[٤٨٩] مجلة السياسة الدولية، شهريات العدد (٩٢)، أبريل ١٩٨٨، ص ٣١١.

[٤٩٠] انظر في هذا المضمون:

Urwin, Derek W., Western Europe Since ١٩٤٥, Longman, London, Fourth Edition, ١٩٨٩, p. ٣٥١.

في هذا الصدد بالإفراج عن عشرات المنشقين ممـن كـان أسلافه قد زجوا بهم في غياهب المتعقلات، لا لشيء إلا لأن أنفسهم سولت لهم معارضة من يقبعون في الكريملين.

كما بدأ جورباتشوف في تخفيف القيود المفروضة علـى حرية العبادة على نحو هيأ لزيادة أعـداد غيـر الملحـدين بصورة غير مسبوقة في الاتحاد السوفييتي، وذلك إلى حد أن صحيفة البرافدا الناطقة بلسان الحزب الشيوعي راحت تحذر من تزايد عدد المتدينين، وتطالب في ١٧ يناير عـام ١٩٨٧ بإعادة تخطيط الدعاية الملحدة [٤٩١].

وهكذا يتضح – في ضوء ما تقدم – أن المناخ السياسـي في الاتحاد السوفييتي خلال عهد جورباتشوف كان مغـايرا تماما للمناخ السياسي في عهود أسلافه، ذلـك بـأن العهـد الجورباتشوفي قد شهد مناخًا ليبراليا إلى حد يعتد به. غير أنه مما تتعين الإشارة إليه أن جورباتشوف عندما انتقد سياسات أسلافه فإن هذا الانتقاد لم يطل سياساتهم المتصلة بالمسـألة القومية، ذلك بأنه هو نفسه كان يرفض أية نزعة عرقية لدى أي من الجماعات المشكلة للاتحاد السوفييتي. ففـي خطابـه

---

[٤٩١] مجلة السياسة الدولية، شهريات العدد (٨٨)، يناير ١٩٨٧، ص ٢٩٩.

أمام المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي – فـي ٢٥ فبراير عام ١٩٨٦ – راح جورباتشـوف يقـول: "إن كافـة الثقافات يتعين احترامها، غير أن ذلك لا ينبغـي أن ينسـينا ضرورة تقاربها وتكاملها تحت راية الأيديولوجية المشتركة، ونمط الحياة الاشتراكية، والتصور الاشتراكي للعالم. فلا يقس ثمة مجال لقومية ضيقة بل انتمـاءات قوميـة فـي إطـار اشتراكية موحدة تعطي للمجتمع الشامل تلاحمه، أما القوميـة الضيقة والنزعة التحتية فهما مرفوضـتان" [٤٩٢]. كمـا راح جورباتشوف ينتقد ما يحدث في جمهوريات المحـيط ممـا أسماه بالمحسوبية القومية فيما يتعلـق بتوزيـع المناصـب المرموقة؛ حيث يتم تفضيل أي مواطن من أبنـاء الجماعـة العرقية المسيطرة في الجمهورية على أي مواطن سـوفيتي آخر كفء، الأمر الذي من شأنه أن يخلق نوعا من التمييـز ضد أولئك الذين لا ينتمون إلى تلك الجماعـات المسـيطرة، وهذا ما يؤدي بالتالي – على حد قول جورباتشوف – إلـى الإساءة للمصلحة العامة، وإعاقـة تطـور العلاقـات بـين الأعراق [٤٩٣].

---

[٤٩٢] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠.

[٤٩٣] نفس المرجع السابق.

وفي كتابه البريسترويكا أكد جورباتشوف وجهة نظره هذه، وأشار إلى أن الأممية البروليتارية كفيلة بالقضاء على أية نزعة عرقية؛ حيث قال: "سنظل ملتزمين بحزم بمبادئنا، يتعين احترام المشاعر القومية للناس، وعدم تجاهلها. بيد أن المزايدة عليها تعني انعدام المسئولية السياسية إن لم تكن تُمثل جريمة، ومن تقاليد حزبنا أن يقاوم أية مظاهر لضيق الأفق القومي، والشوفينية، والطائفية، والصهيونية، ومعاداة السامية في أي شكل يجري من خلاله التعبير عنها، وسنبقى ملتزمين بهذا التقليد. إن خبرتنا تؤكد أن أي موقف قومي يمكن مواجهته بفاعلية من خلال الأممية الراسخة، والتربية التي تتم على هدى منها" [٤٩٤]. وفضلاً عما تقدم فقد صدرت عن اجتماع اللجنة المركزية الموسعة للحزب الشيوعي في ٢٨ يناير ١٩٨٧ بضعة قرارات حازمة، كانت بمثابة ميثاق جديد لأسس العمل العام في البلاد. وقد كان من بين هذه القرارات: تطوير العلاقات بين القوميات والضرب على أية محاولات لمظاهر الشوفينية، أو التعصب القومي، أو الصهيونية، أو معاداة السامية، أو الغرور القومي [٤٩٥].

---

[٤٩٤] جورباتشوف، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٣.

[٤٩٥] نازلي معوض أحمد، إصلاحات جورباتشوف الداخلية والتغير في السياسة الخارجية، مجلة السياسة الدولية، العدد (٨٩)، يوليو ١٩٨٧، ص ٧٥، ٧٦.

من جانب آخر فإن جورباتشوف لم يكن يرفض الترويس اللغوي للجماعات العرقية غير الروسية؛ حيث كان يرى أن لذلك ما يبرره؛ حيث يقول: "في بلادنا الفسيح المتعدد الأجناس لا يمكننا أن نستغني عن وسيلة مشتركة للاتصال، وبالطبع أصبحت اللغة الروسية تقوم بإنجاز هذا الدور، وقد حدد التاريخ نفسه أن تتم عملية الاتصال بين الأمم على أساس لغة أكبرها" [٤٩٦].

وهكذا فقد كان جورباتشوف – شأنه في ذلك شأن سائر أسلافه – يرفض أية نزعة عرقية لدى أي من الجماعات المشكلة للكيان السوفييتي، كما كان يؤمن – حاله في ذلك حالهم – بأن الأممية البروليتارية والتنشئة التي تتم على هدى منها تشكلان مصلاً واقيا للمجتمع السوفييتي في مواجهة أية نزعة عرقية تحاول أن تطل برأسها في إطاره.

---

[٤٩٦] جورباتشوف، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٢.

وفضلاً عما تقدم فقد كان جورباتشوف يؤكد دوما – كمـا كان سائر أسلافه يؤكدون – أن المسألة القومية في الاتحـاد السوفييتي قد سويت، بل وكان يـرى أن الإنجـازات التـي تحققت بصدد هذه المسألة تُمثل بالنسبة له عنصر الارتيـاح الرئيسي، ونقطة الارتكاز في الوصول إلى المسـتقبل [٤٩٧]؛ حيث كان يقول بأن "الشعب السوفييتي يمثل جماعة اجتماعية شاملة للقوميات من طراز جديد"، و"أن ضروب الاضـطهاد والتمييز قد أزيلت، وأبدلت بالصداقة بين الشعوب، واحتـرام الثقافات القومية، والكرامة القومية للجميع" [٤٩٨]، و"أن الثورة الاشتراكية قد قضت على القهر القومي وانعـدام المسـاواة، وضمنت التقدم الاقتصادي والفكري والثقافي لكافـة الأمـم والقوميات" [٤٩٩].

---

[٤٩٧] دانكوس، نهاية الإمبراطورية، مرجع سبق ذكره، ص ٢١.

[٤٩٨] المرجع السابق، ص ١٩.

[٤٩٩] جورباتشوف، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٩.

ويضيف جورباتشوف: "إنه ما كان لدولتنا أن تبقى إن لم تكن الجمهوريات تشكل بالفعل أسرة تقـوم علـى الإخـوة والتعاون والاحترام والمساعدة المتبادلة"، وأنه: "على الـرغم من انتشار النزعات القومية حتى في أكثر بلدان العالم تقدما، فإن الاتحاد السوفييتي يقدم مثالاً فريـدا حقًـا فـي تـاريخ البشرية، وتلك هي ثمرات السياسة القومية التـي وضـعها لينين" [٥٠٠].

وهكذا يتضح في ثنايا ما تقدم أن جورباتشوف كان يؤكـد دائما على أن المسألة القومية قـد سـويت، وأن النزعـات العرقية قد باتت من ودائع التاريخ، وأن على السـوفييت أن يفخروا بمجتمعهم الذي أسس بنيانه على الصداقة والتعـاون، بحيث صار يشكل نموذجا يتعين على سائر المجتمعـات أن تحاكيه إن هي كانت تريد الاستقرار والتكامل.

ومهما يكن الأمر فإن المناخ الليبرالـي الـذي أفرزتـه البريسترويكا والجلاسنوست والذي أضفى الشـرعية علـى معارضة النظام سرعان ما كشف النقاب عـن أن المسـألة

---

[٥٠٠] المرجع السابق، ص ١٤٠، ١٤١.

القومية لم تختف [٥٠١]. ففي ظل ذلك المناخ بدأت تطفو على سطح الحياة السياسية في الجمهوريات السـوفييتية تجمعـات بشرية ذات أهداف تتصل بالحفاظ على التراث، وسرعان ما أخذ عدد هـذه التجمعـات فـي التزايـد. وأطلـق عليهـا "المجموعات غير الرسمية". وقد كان جورباتشوف يـرى أن وجود مثل هذه المجموعـات ضـروري لـدعم سياسـاته الإصلاحية، لكنها في نفس الوقت لا بد وأن توضـع تحـت رقابة السلطة المركزية، وبالتالي فقد تم وضعها تحت سلطة جبهات شعبية أكبر حجما، وهي الجبهات التي كانت – فـي البداية – مجرد فروع للحزب، غير أنها سرعان ما حطمـت أغلاله التي في أعناقها، وتحولت إلى أحزاب حقيقيـة، لـم يمض وقت طويل حتى كانت قد اكتسبت شـرعية راسـخة استمدتها مما حصلت عليه من تأييد شعبي عارم، كـل مـن جانب الجماعة العرقية التي يمثلها [٥٠٢].

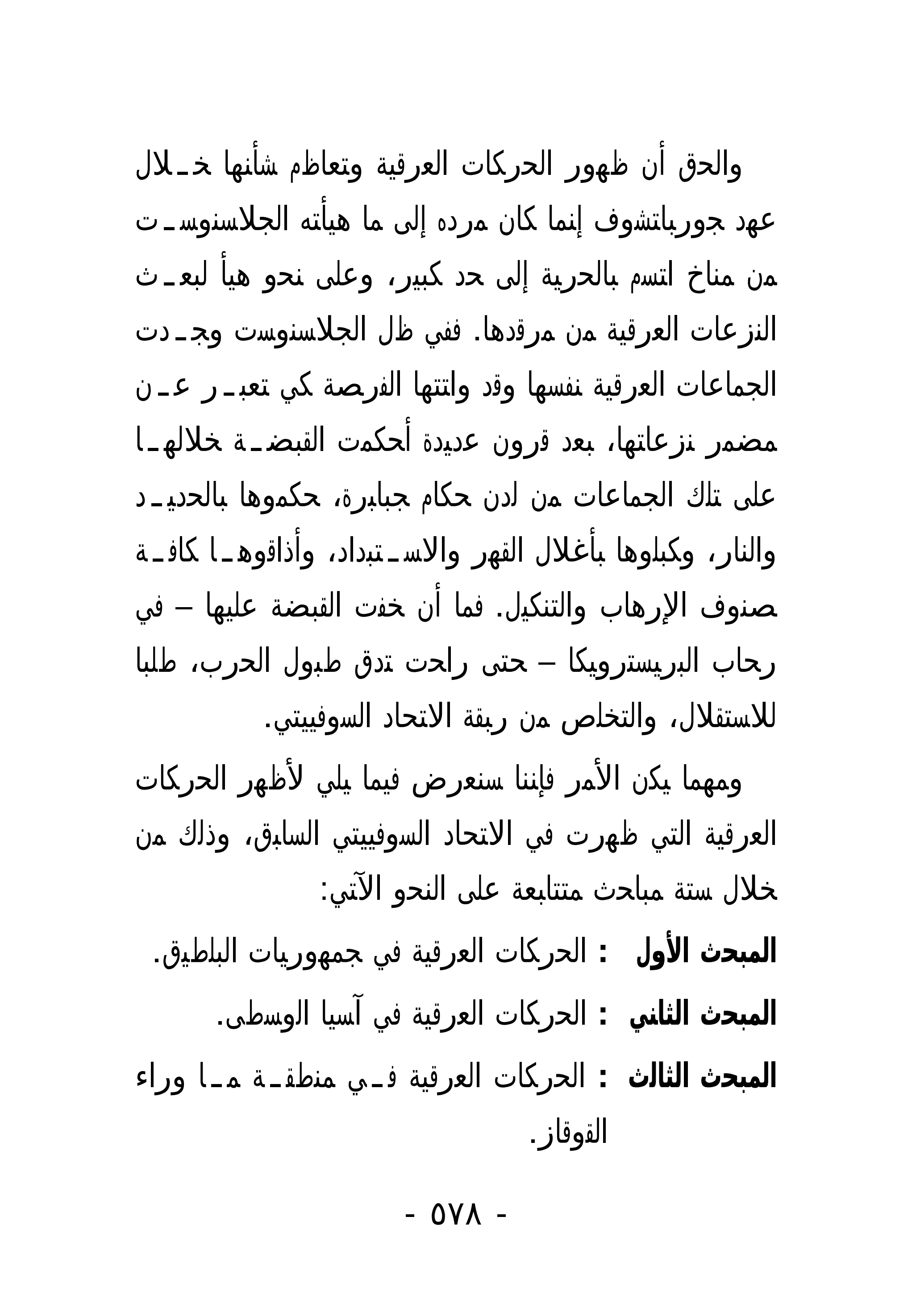
---

[٥٠١] جارو، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.

[٥٠٢] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. مرجـع سبق ذكره، ص ١٧٤، ١٧٥.

وشيئًا فشيئًا بدأت الجهات الشعبية تكشف عـن أهـدافها الحقيقية؛ حيث سرعان ما بات واضحا أن هذه الجبهات لـم تكن مجرد قوى سياسية ذات أهداف محـدودة شـأن سـائر القوى التي تنطوي عليها الحياة السياسية في كثير من بلـدان العالم، ذلك بأن أهداف الجبهات الشعبية التي انتشـرت فـي كافة جمهوريات الاتحاد السوفييتي كانت ذات طابع عرقـي؛ حيث تمحورت تلك الأهداف في البداية حول تحقيق بعـض المطالب المحدودة لجمهوريات المحيط، حال الحصول علـى قدر أكبر من الاستقلالية فـي إطـار الاتحـاد السـوفييتي، أو إعطاء مزيد من الاهتمام للغات الجماعات العرقيـة ذات الكم البشري الأكبر في كل من هذه الجمهوريات.

وهكذا بدأت النزعات العرقية تطل برأسها داخـل الكيـان السوفييتي، ولكي يبدو جليا أن المسألة القومية لم تكن بعد قـد حلت كما كان يدعى سائر الزعماء السوفييت. وسـرعان مـا تعاظمت هذه النزعات العرقية التي جسدتها الجبهات الشعبية، تلك الجبهات التي لم تلبث أن تحولت إلـى حركـات عرقيـة راحت تجعل من استقلال شعوبها عن الاتحاد السوفييتي هـدفًا لها، متوسلة إلى ذلك بشتى الوسائل، مـن مشـروعة وغيـر مشروعة. وراحت نيران العرقية التي أشعلتها تلك الحركـات تضطرم وتستشري في شتى أرجاء الجسد السوفييتي.



والحق أن ظهور الحركات العرقية وتعاظم شأنها خلال عهد جورباتشوف إنما كان مرده إلى ما هيأته الجلاسنوست من مناخ اتسم بالحرية إلى حد كبير، وعلى نحو هيأ لبعث النزعات العرقية من مرقدها. ففي ظل الجلاسنوست وجدت الجماعات العرقية نفسها وقد واتتها الفرصة كي تعبر عن مضمر نزعاتها، بعد قرون عديدة أحكمت القبضة خلالها على تلك الجماعات من لدن حكام جبابرة، حكموها بالحديد والنار، وكبلوها بأغلال القهر والاستبداد، وأذاقوها كافة صنوف الإرهاب والتنكيل. فما أن خفت القبضة عليها – في رحاب البريسترويكا – حتى راحت تدق طبول الحرب، طلبا للاستقلال، والتخلص من ربقة الاتحاد السوفييتي.

ومهما يكن الأمر فإننا سنعرض فيما يلي لأظهر الحركات العرقية التي ظهرت في الاتحاد السوفييتي السابق، وذلك من خلال ستة مباحث متتابعة على النحو الآتي:

المبحث الأول : الحركات العرقية في جمهوريات البلطيق.

المبحث الثاني : الحركات العرقية في آسيا الوسطى.

المبحث الثالث : الحركات العرقية في منطقة ما وراء القوقاز.

المبحث الرابع : الحركتــان العرقيتــان فــي أوكرانيــا وبيلوروسيا.

المبحث الخامس: حركتا مولدوفا والشيشان.

المبحث السادس: تفكك الاتحاد السوفييتي وآثاره الدولية.

* * *

المبحث الأول
في الحركات العرقية
في جمهوريات البلطيق

تتمثل جمهوريات البلطيق – كما سبق أن أشرنا – في ثلاث جمهوريات هي ليتوانيا، وإستونيا، ولاتفيا. وقد كانت هذه الجمهوريات حتى قيام الثورة البلشفية تُشكل جزءا من الإمبراطورية الروسية القيصرية، غير أنه في عام ١٩١٨ – وبغية الانسحاب من الحرب العالمية الأولى التي كانت مشتعلة الأوار آنذاك – راح البلاشفة يوقعون اتفاقية هدنة مع الألمان، تنازلت بمقتضاها روسيا عن جمهوريات البلطيق. وقد تم التوقيع على هذه الاتفاقية والتي عرفت باتفاقية برست – ليتوفسك – Brest Litovesk في ٣ مارس ١٩١٨، بين روسيا البلشفية من جهة، وقوى الوسط المتمثلة في ألمانيا والنمسا وبلغاريا وتركيا من جهة أخرى [٥٠٣].

---

[٥٠٣] راجع في هذا الصدد: بيير، ونوفان، تاريخ العلاقات الدولية: أزمات القرن العشرين (١٩١٤ – ١٩٤٥)، ترجمة: جلال يحيي، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩، ص ١٨٩.

وقد ظلت جمهوريات البلطيق تحت سيطرة الألمان لفترة وجيزة انتهت بانتهاء الحرب العالمية الأولى، وتوقيع اتفاقيات الصلح في فرساي عام ١٩١٩. وهي الاتفاقيات التي حصلت في أعقابها الجمهوريات البلطيقية على استقلالها؛ حيـث دام هذا الاستقلال حتى نهاية عقد الثلاثينيات. غير أنه فـي ٢٣ أغسطس عام ١٩٣٩ وقع الاتحاد السـوفييتي اتفـاق عـدم اعتداء مع ألمانيـا النازيـة عـرف بميثـاق مولوتـوف – ريبنتروب Molotov – Ribbentrop Pact، وبمقتضـى أحد الملاحق السرية التي ضمها هذا الميثـاق سـمح هتلـر لستالين بضم جمهوريات البلطيـق الـثلاث إلـى الاتحـاد السوفييتي [٥٠٤]، وعلى ذلك فسرعان ما اقتحمـت جحافـل الجيش الأحمر أقاليم تلك الجمهوريات، وضمتها عنوة إلـى الأراضي السوفييتية، لكي تصبح بذلك جمهوريات اتحاديـة سوفيتية إلى الأراضـي السـوفييتية، لكـي تصـبح بـذلك جمهوريات اتحادية سوفيتية رغما عن أنف شعوبها.

---

(٥٠٤) Smith, Graham, Op. Cit., P. ٣٩.

وقد انتهج الزعماء السوفييت إزاء جمهوريات البلطيق – شأنها في ذلك شأن سائر الجمهوريات – سياسـات عديـدة استهدفت طمس هوياتها العرقية وترويسها. غير أن سـنوات النصف الثاني من عقد الثمانينات جاءت لتؤكد فشـل تلـك السياسات في بلوغ الغايات المتوخاة من وراء انتهاجها؛ حيث ظلت الجماعات العرقية الثلاث (الأسـتونيون والليتوانيـون واللاتفيون) محتفظة بمقومات ذاتياتها، وعناصر هوياتها، وما أن تخلصت من نير الإرهاب والكبت بمجيء جورباتشـوف إلى الكريملين حتى اشرأبت أعناقها نحو استعادة اسـتقلالها، الذي كان ستالين قد محاه. وسرعان ما ظهـرت الحركـات العرقية الانفصالية داخل جمهوريات البلطيـق متمثلـة فـي الجبهات الشعبية؛ حيث كانت هذه الجمهوريات هي مهد تلك الجبهات التي ما برحت أن انتشرت نظيرات لها في سـائر جمهوريات المحيط الأخرى على النحو الذي سـنعرض لـه لاحقًا.

وعلى أية حال فإنه يتعـين علينـا – قبـل أن نعـرض للحركات العرقية في جمهوريـات البلطيـق – أن نعـرف بالتكوين العرقي لهذه الجمهوريات.

١- تعريف بجمهوريـة ليتوانيـا وتكوينهـا العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية ليتوانيا حوالي ٦٥٢٠٠ كيلو متـر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة فيلنيوس Vilnius، وقـد بلغ عدد سكانها – حسب إحصاء عام ١٩٨٩ – ما يقرب من ثلاثة ملايين وتسعمائة وتسعين ألف نسمة. ويدين الليتوانيون بالديانة المسيحية ويعتنقون المذهب الكاثوليكي [٥٠٥]. وتتعين الإشارة إلى أن الليتوانيين كانوا – خـلال فتـرة اسـتقلالهم الوجيزة – قد أقاموا نظاما ليبراليا كان أقرب ما يكون إلـى النظام الألماني في عهد جمهورية فيمار، وبالتالي فقد كانـت لهم تجاربهم فيما يتصل بالممارسـات الديمقراطيـة وعلـى رأسها الانتخابات الحرة [٥٠٦].

---

(٥٠٥) Ibid.

(٥٠٦) Vardys, V. Stanley, Lithunian National Politics, in: Denber, Op. Cit., P. ٤٤٣.

وتضم ليتوانيا خمس جماعـات عرقيـة رئيسـية هـي: الليتوانيون (جماعة الأغلبية)، ثـم الـروس، فالبولنـديون، فالبيلوروسيون، فالأكرانيون. ويقدم الجدول التالي بيانًا بتعداد كل من هذه الجماعات:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الليتوانيون	٢٩٢٤٠٠٠
الروس	٣٤٤٠٠٠
البولنديون	٢٥٨٠٠٠
البيلوروس	٦٣٠٠٠
الأوكرانيون	٤٥٠٠٠

جدول رقم (٨)

المصدر: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٩.

وتتعين الإشارة إلى أن ليتوانيا تضـم جماعـات عرقيـة أخرى لم يتضمنها الجدول السابق؛ حيث إنهـا أقليـات ذات أعداد ضئيلة.

ويتضح في ثنايا الجدول السابق أن الليتـوانيين يشـكلون حوالي ٨٠ % من سكان جمهوريتهم، وبالتالي فهم يمثلـون كبرى الجماعات العرقية في ليتوانيا، ويتحدث الليتوانيون لغة غير سلافية، ويستخدمون الأبجدية اللاتينية في الكتابة [(٥٠٧)].

٢- تعريف بجمهوريـة إسـتونيا وتكوينهـا العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية إستونيا ما يقرب من ٤٥١٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة تـالين [(٥٠٨)] أو كمـا ينطقها البعض طالين Tallinn. وقد بلغ عدد سكان إسـتونيا – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – حوالي مليون وخمسمائة وست وستين ألف نسمة، ينتمون إلى العديد من الجماعات العرقيـة أظهرها الإستونيون، والروس، والأوكرانيون، والبيلوروس، ويقدم الجدول التالي تعريفًا بتعداد كل من هـذه الجماعـات العرقية حسب إحصاء عام ١٩٨٩:

---

(٥٠٧) Vardys., Lithunians, in: Smith, Graham, Op. Cit., P. ٧٢.

(٥٠٨) إبراهيم عرفات، بيانات وحقائق عن الاتحاد السـوفيتي، مجلـة السياسة الدولية، العدد (٩٤)، أكتوبر ١٩٨٨، ص ١٧٠.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الإستونيون	٩٦٣٠٠٠
الروس	٤٧٥٠٠٠
الأوكرانيون	٤٨٠٠٠
البيلوروس	٢٨٠٠٠

جدول رقم (٩)

المصدر: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٠.

ويتضح في ثنايا الجدول السابق أن الإستونيين يشـكلون الجماعة العرقية ذات الكم البشري الأكبـر فـي إسـتونيا؛ إذ يشكلون حوالي ٦١,٥ % مـن عـدد سـكانها. ويـذكر المؤرخون أن الاستوائيين اسـتقروا فـي الإقلـيم المسـمى بإستونيا منذ ما يقرب من خمسين قرنًا من الزمـان وأنهـم خضعوا خلال تلك الحقبة للاحتلال الأجنبي لفتـرة تجـاوز السبعمائة عام، ونظرا لعددهم الضئيل فقد ظل شبح التلاشي يتهدد هويتهم، غير أنهم ظلوا متمسكين بمقومـات ذاتيـتهم العرقية، وقاوموا شتى محاولات الاستيعاب التي تعرضوا لها

طيلة تاريخهم من جانب الألمان، والسويديين، والبولنـديين، وأخيرا الروس[٥٠٩].

ويتكلم الإستونيون لغة تنتمي إلى مجموعة اللغات الفنلندية المجرية Finno – Ugric Language Group، التي تضم العديد من اللغات المعاصرة حـال اللغـة الفنلنديـة واللغـة المجرية، أما العقيدة الدينية للإستونيين فتتمثل في المسـيحية اللوثرية [٥١٠].

وتجدر الإشارة إلى أن الإستونيين كانت لـديهم تجربـة ديمقراطية حقة شهدتها دولتهم إبان فترة استقلالها الـوجيزة، والتي دامت خلال حقبة ما بين الحربين العالميتين، فخـلال تلك الفترة أقام الإستونيون نظاما ليبراليا على غرار الـنُظم الليبرالية الغربية الراسخة؛ حيث كان هذا النظام يأخذ ببعض سمات النظام السويسري، فضلاً عن بعض ملامح كل مـن النظام الألماني (في عهد جمهورية فيمار)، والنظام الفرنسي،

---

[٥٠٩] راجع في هذا الصدد:

Kionka, Riina, Estonians, in: Smith Graham, Op. Cit. P. ٤٠.

[٥١٠] Ibid, PP. ٤٩ – ٤٠.

والنظام الأمريكي [٥١١]. وعلى ذلك فعندما أجبر الإستونيون على الخضوع للنظام السوفييتي الشمولي كانـت تجـاربهم الديمقراطية لم تزل راسخة في نفوسهم.

٣- تعريف بجمهورية لاتفيا وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية لاتفيا ٦٣٧٠٠ كيلو متـر مربـع، وتتمثل عاصمتهم في مدينة ريجا Riga [٥١٢]. وقد بلغ عـدد سكان لاتفيـا – حسـب إحصـاء عـام ١٩٨٩ – حـوالي ٢٦٦٦٥٨٧ نسمة، ينتمون إلى عديد من الجماعات العرقيـة أظهرها اللاتفيون، والروس، والبيلوروس، والأوكرانيـون، والبولنديون، والليتوانيون [٥١٣].

وفيما يلي نقدم جدولاً ينطوي على تعداد كل مـن هـذه الجماعات:

---

[٥١١] Ibid, P. ٤٣

[٥١٢] إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

[٥١٣] دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٠.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الليتوانيون	١٣٨٧٦٤٦
الروس	٩٠٥٥١٥
البيلوروس	١٢٠٠٠٠
الأوكرانيون	٩٢٠٠٠
البولنديون	٦٠٠٠٠
الليتوانيون	٣٤٠٠٠

جدول رقم (١٠)

المصدر: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٩.

و: دانكوس: نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكـره، ص ١٨٠.

ويتضح من خلال الجدول السابق أن اللاتفيـين يشـكلون الجماعة العرقية ذات الكم البشري الأكبر في جمهوريتهم، وإن كان تفوقهم العددي على ما عداهم من الجماعات غير كبيـر؛ حيث يمثلون ما يربو بقليل على ٥٢ % مـن تعـداد سـكان لاتفيا. وذلك على الرغم من أنهم في عـام ١٩٣٥ (أي قبـل الغزو السوفييتي لأراضيهم ببضع سنين) كانوا يمثلـون ٧٥,٥

% من سكان دولتهم، في حين بلغت نسبتهم إلى جملة السكان في عام ١٩٥٩ حوالي ٦٢ % [٥١٤]. ويرتد هذا الانحدار فـي نسبة عدد اللاتفيين إلى جملة سكان لاتفيا إلى عاملين: يتمثـل أولهما في ما قام به الزعماء السوفييت من تهجيـر للـروس وتوطينهم في جمهوريات المحيط ومن بينها – بطبيعة الحـال – لاتفيا، لا سيما وأن الروس المهجرين كانوا يفضلون التوجه إلى جمهوريات الباطيق على نحو ما سبق أن أشـرنا. ومـن جانب آخر فإن زعماء الكريملين كانوا قد أجبـروا أعـدادا لا يستهان بها من الليتوانيين والإستونيين واللاتفيين على الرحيل من مواطنهم الأصلية، وقاموا بتشتيتهم فـي منطقتـي آسـيا الوسطى وسيبيريا، متهمين إياهم بالتعاون مع النـازيين إبـان الحرب العالمية الثانية [٥١٥] أما العامل الثاني الذي أدى إلـى تناقص نسبة اللاتفيين في جمهوريتهم فيتمثل فـي انخفـاض معدل النمو السكاني بينهم[٥١٦].

---

(٥١٤) Smith, Graham, Latvians, in: Smith Graham (ed.), Op. Cit., PP. ٥٦ – ٦١.

(٥١٥) انظر في هذا الصدد: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٠.

(٥١٦) Smith, Graham. Latvians, Op. Cit., P. ٦١.

وتتعين الإشارة إلى أن اللاتفيين يدينون بالمسـيحية، وإن كانوا يختلفون فيما بينهم بصدد المذهب؛ إذ يعتنـق بعضـهم المذهب الكاثوليكي، في حين يعتنق البعض الآخر المـذهب اللوثري [٥١٧]. أما فيما يتصل باللغة فإن اللاتفيين يتكلمـون لغة خاصة بهم تعرف باللغة اللاتفية. وقد ظل اللاتفيون طيلة حقبة خضوعهم للاتحاد السوفييتي عاضين بالنواجـذ علـى مقومات هويتهم العرقية، والمتمثلة في وحدة الأصل واللغـة والدين؛ حيث قاوموا بشدة سياسة الترويس التـي انتهجـت إزاءهم، شأنهم في ذلك شأن سائر الجماعات العرقية المشكلة للكيان السوفييتي [٥١٨].

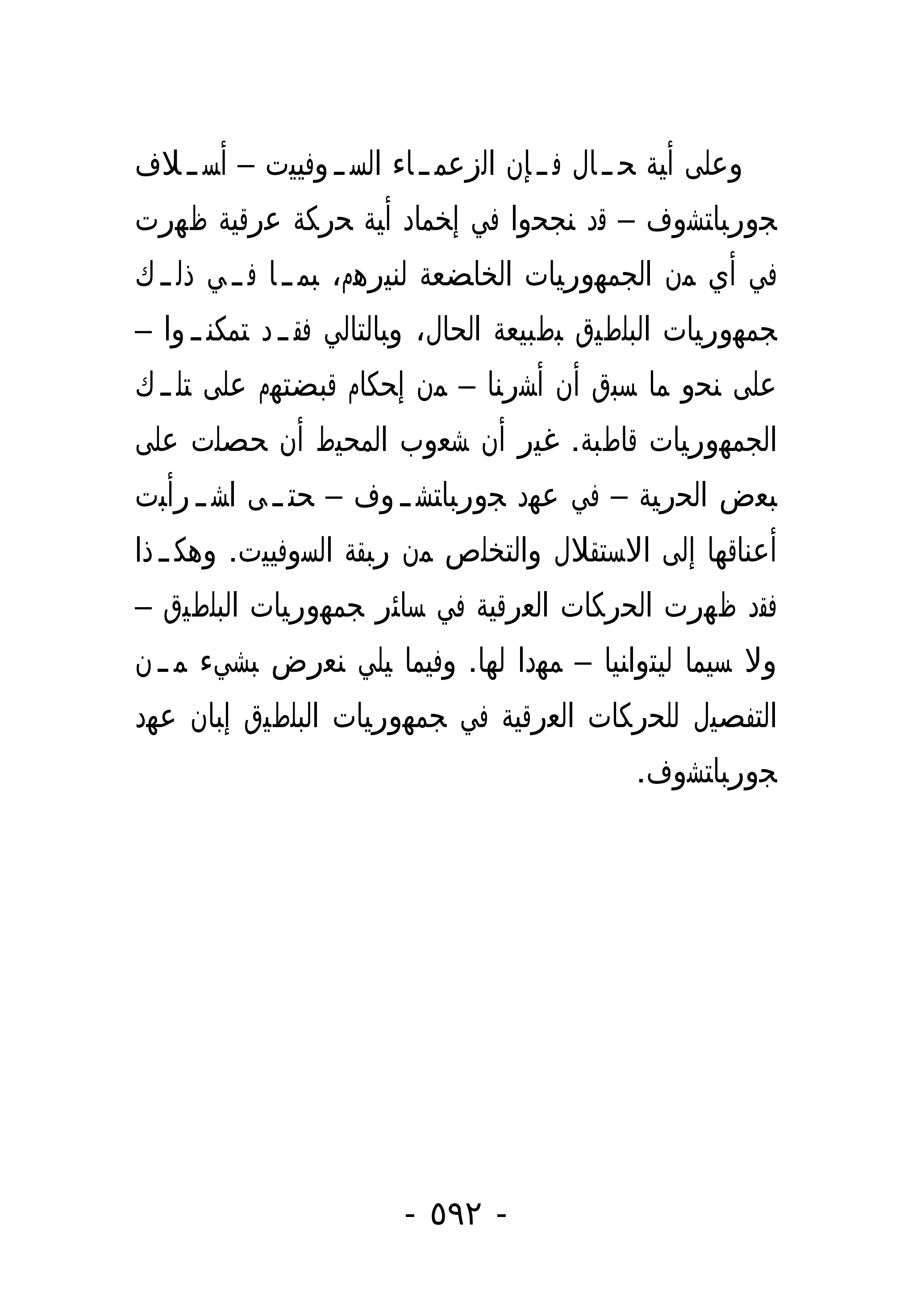
ومن ناحية أخرى فإنه مما تجدر الإشارة إليه أن النزعـة العرقية لدى اللاتفيين ظلت متأججة لسنوات طويلة أعقبـت احتلال السوفييت لأراضيهم، وعلى سبيل المثال فقد شهد عقد الخمسينيات وجود حركة عرقية لاتفية يعتد بقوتها، راحـت تقاوم السلطات السوفييتية متوسلة إلى ذلك باستخدام أسـلوب حرب العصابات [٥١٩].

---

(٥١٧) Smith, Graham (ed)., Op. Cit., P. ٣٩.

(٥١٨) انظر في هذا المضمون: Smith, Graham, Op. Cit., P. ٦١.

(٥١٩) Ibid., P. ٥٧.



وعلى أية حال فإن الزعماء السوفييت – أسلاف جورباتشوف – قد نجحوا في إخماد أية حركة عرقية ظهرت في أي من الجمهوريات الخاضعة لنيرهم، بما في ذلك جمهوريات البلطيق بطبيعة الحال، وبالتالي فقد تمكنوا – على نحو ما سبق أن أشرنا – من إحكام قبضتهم على تلك الجمهوريات قاطبة. غير أن شعوب المحيط أن حصلت على بعض الحرية – في عهد جورباتشوف – حتى اشرأبت أعناقها إلى الاستقلال والتخلص من ربقة السوفييت. وهكذا فقد ظهرت الحركات العرقية في سائر جمهوريات البلطيق – ولا سيما ليتوانيا – مهدا لها. وفيما يلي نعرض بشيء من التفصيل للحركات العرقية في جمهوريات البلطيق إبان عهد جورباتشوف.

الحركات العرقية في جمهوريات البلطيق وآثارها على الكيان السوفييتي:

تعد الجبهة الشعبية الليتوانية (سايوديس) Lithuanian Popular Front (Sajudis) هي أولى الجبهات الشعبية التي ظهرت في جمهوريات الاتحاد السوفييتي قاطبة؛ حيث تأسست هذه الجبهة في ٣ يونيو عام ١٩٨٨، وفي وقت كانت فيه جمهوريات البلطيق تحتفل بالذكرى السابعة والأربعين لعمليات الاقتلاع التي مارسها ستالين في مواجهة الآلاف من البلطيقيين غداة استيلائه على تلك الجمهوريات. وقد تَمثل هذا الاحتفال في العديد من المظاهرات الحاشدة التي اندلعت في عواصم الجمهوريات الثلاث، في ظل مناخ سياسي مفعم بالغليان الشعبي [٥٢٠]. وقد تأسست سايوديس على يد كوكبة من المثقفين والأكاديميين الليتوانيين، تميزوا بالخبرة السياسية الواسعة، والقدرة الحركية العالية [٥٢١].

---

[٥٢٠] انظر في هذا الصدد: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٦، ١٧٧.

[٥٢١] Vardys, Lithuanian National Politics, Op. Cit., P. ٤٤٦.

وفي ٢٤ يونيو – أي في أعقاب تأسيسها بأسابيع ثلاثة – نظمت سايوديس في العاصمة الليتوانية فيلنيـوس مظـاهرة ضخمة، استهدفت من ورائها الإعلان عن برنامجها، الـذي راح واضعوه يؤكدون في ثناياه على أنهم مع البيريسترويكا ولكن في ظل استقلال أكبر لليتوانيا. وأضافوا أنه لا مجـال للحديث عن تقدم ليتوانيا إلا في إطار الأمة الليتوانية؛ إذ في هذه الحالة فقط يمكن استنفار طاقات الليتوانيين مـن أجـل البريسترويكا [٥٢٢].

ولم تكد تمضي على تأسيس ساديوس أربعة شهور حتـى كان الإستونيون قد شرعوا في تأسيس جبهتهم الشعبية، ففـي أول أكتوبر ١٩٨٨ تأسست فـي طـالين الجبهـة الشـعبية الإستونية، وذلك من خلال اجتماع هام ضم عـدة جمعيـات وتنظيمات غيـر رسـمية، تـوافـد منـدوبوها مـن سـائر الجمهوريات السوفييتية بغية حضـور المـؤتمر التأسيسـي للجبهة. وفي أعقاب ذلك ببضعة أيام – وفي ٨ أكتوبر عـام ١٩٨٨ – أعلن في العاصمة اللاتفية ريجا عن تأسيس الجبهة الشعبية في لاتفيا، وذلك بحضور ما يربو على الألف مندوب

---

[٥٢٢] دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.

وفدوا إلى لاتفيا من كافة أرجاء الاتحـاد السـوفييتي. وقـد ضمت هذه الجبهة في عضـويتها أنصـار البيئـة، وشـتى الجمعيات الثقافية، فضلاً عن جمعية تدافع عن حرية العبـادة تُعرف بجمعية النهضة والتجديد، إلى جانـب العديـد مـن الشخصيات غير المنتمية إلى أية جمعيات [٥٢٣].

وقد تمحورت أهداف الجبهات الشعبية البلطيقيـة – فـي البداية – حول بضعة أمور تتصل بمناداة كل منها بتحقيـق نوع من الاستقلال الاقتصادي لجمهوريتها، يمكنها من خلاله التصرف بحرية في مواردها الذاتية، كما طالبت كل من هذه الجبهات بالعودة إلى نظام الملكية الخاصة، والتعامـل بنقـد جمهوريتها، واستخدام جوازات سفر صادرة عنها، وفـرض قوانين جمركية خاصة بها تمكنها من السيطرة على حدودها، والرقابة على الهجرة وتقييدها (والمقصـود بـذلك هجـرة الروس)، وأن تكون الخدمة العسـكرية فـي فـرق تابعـة للجمهورية، وحـق العمـل السياسـي المسـتقل، وتحريـر الأكاديمية العلمية في الجمهوريات من وصاية أكاديمية العلوم

---

[٥٢٣] المرجع السابق، ص ١٧٧، ١٧٨.

في موسكو، وتحرير المنظمات الاجتماعيـة المختلفـة مـن وصاية السلطة المركزية [٥٢٤].

وقد أدرك المسئولون عن الجبهـات الـثلاث أن نجـاح برامجهم مرهون بوصول هـذه البـرامج إلـى الجمـاهير، وبالتالي فقد راحوا يناضلون من أجل الوصول إلى وسـائل الإعلام المختلفة من مرئية إلى مسموعة إلى مقروءة؛ حيـث تمكنوا من تحقيق نجاحات لا يستهان بها في هـذا الصـدد؛ إذ نجد أن سايوديس قد تمكنت من تأسيس عشرات الصحف التي تطبع باللغتين الليتوانية والروسية، كما كان لسـايوديس برنامج تليفزيوني أطلقت عليه اسم "أمواج النهضة"، في حين تمكنت الجبهة الإستوانية من تقديم برامجها عبر التليفزيون. أما في لاتفيا فبرغم القيود التي فرضت على الجبهة اللاتفيـة إلا أنها تمكنت من الوصول إلى الجماهير من خلال برنامج

---

[٥٢٤] انظر في هذا الصدد:

White. Stephen, Gorbachev and after, Cambridge University Press, New York, ١٩٩١, Op. P. ١٥٤.

وأيضا: فرانسواز توم، الدول السوفيتية واللهفة إلى التحـرر، ترجمـة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٠٤) ص ٢٥٤.

إذاعي أسبوعي خاص بها، كما أسست مجلة أسبوعية وزعت عشرات الآلاف من النسخ. وفي سبيل توسيع رقعة نفوذهـا قدمت الجبهة اللاتفية الدعم إلى مطبوعـات تصـدر عـن تنظيمات أخرى كانت في أغلبها منظمات دينية [٥٢٥].

وعلى أية حال فإن الجبهات الشعبية سرعان ما اكتسـبت شرعية راسخة، تجسدت من خلال الإقبال الواسع من جانب شعوب البلطيق على الانضمام لها، وعلى سبيل المثال نجـد أن عدد أعضاء الجبهة الشعبية اللاتفية قـد بلـغ – خـلال الأسابيع القليلة التي أعقبت تأسيسـها – مـا يربـو علـى ٢٥٠٠٠٠ عضـو، فضـلاً عـن عشـرات الآلاف مـن المناصرين[٥٢٦]. ومن جانب آخر فقد راحت الجبهات الشعبية البلطيقية توسع شيئًا فشيئًا من نطاق أهدافها؛ حيث شـرعت في مطالبة الحكومة السوفييتية بـالاعتراف بـالبروتوكولات السرية الملحقة بالاتفاق السوفييتي – النـازي لعـام ١٩٣٩، والتي بمقتضاها قام ستالين بضم جمهوريات البلطيق – قسرا – إلى الاتحاد السوفييتي، كما راحت الجبهات الشعبية تكشف

---

[٥٢٥] دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٨.

[٥٢٦] المرجع السابق.

عن هدفها الحقيقي، والمتمثل في الانفصـال عـن الاتحـاد السوفييتي، وإقامة دول مستقلة [٥٢٧].

وإزاء هذا التحدي الخطير الذي باتت تمثله إزاءه الجبهات الشعبية الباطيقية راح الحزب الشيوعي السوفييتي يوجـه – بنبرة تنطوي على التهديد – انتقـادات حاجـة إلـى تلـك الجبهات، ويذكرها بأن جمهوريات الباطيق تُمثل جزءا مـن الاتحاد السوفييتي، وأن الحزب والحزب وحده هـو الجهـاز الحاكم في عموم الدولة السوفييتية [٥٢٨].

وعلى صعيد آخر فقد راحت الأقليات الروسـية القاطنـة لجمهوريات الباطيق تنشئ جبهات مضادة للجبهات الشعبية، حيث أكدت هـذه الجبهـات المضـادة رفضـها للمطالـب الانفصالية التي تتبناها الجبهات الباطيقية، كما أيـدت بشـدة موقف موسكو الرامي إلى الإبقاء على كافـة الجمهوريـات السوفييتية في إطار الاتحاد. وقد تُمثل أظهر هـذه الجبهـات

---

[٥٢٧] راجع بصدد تطور أهداف الجبهات الشعبية الباطيقية:

Smith, Graham, Op. Cit., PP. ٨١ – ٨٢.

[٥٢٨] انظر في هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجـع سبق ذكره، ص ١٧٩.

المضادة في منظمة عرفت بحركة إنتروفرونت Interfront Movement أو الجبهة الشعبية للشـعب العامـل، والتـي ظهرت في أواخر عام ١٩٨٨ داخل كل من إستونيا ولاتفيا. أما في ليتوانيا فقد ظهرت منظمـة شـيوعية علـى غـرار إنتروفرونت عرفت بمنظمـة الـروس لمناصـرة موسـكو (إدينستفو) Yedinstvo، وقد تأسست هذه الجبهة في شـهر نوفمبر عـام ١٩٨٨ [٥٢٩] وراحـت تتبنـى ذات أهـداف إنتروفرونت.

وهكذا فقد تعددت الحركات العرقيـة فـي جمهوريـات البلطيق، وتضاربت أهدافها؛ إذ على حين راحت الجبهـات الشعبية البلطيقية الثلاث تطالب باستقلال جمهورياتهـا عـن الاتحاد السوفييتي، أكدت الجبهات المضـادة التـي أنشـأتها الأقليات الروسية على رفض الانفصال عن موسكو. والحق أن ظهور هذه الجبهات المضادة قد أسهم في تـأجيج نيـران الانفصال لدى الجبهات البلطيقية، التي راحت تؤكد على أنه

---

(٥٢٩) Hiden, John & Salmon, Patrick, The Baltic nations and Europe: Estonia, Latvia and Lithuania in the twentieth Century, London, ١٩٩٤, P. ١٥٣.

لا بديل عن الاستقلال، والتخلص من ربقة السوفييت. وتأكيدا على ذلك اجتمع ممثلون عن الجبهـات الـثلاث بالعاصـمة الليتوانية فيلينيوس في فبراير ١٩٨٩ بغية مناقشـة مصـير جمهورياتهم، وقد صدر عن هذا الاجتمـاع بيانـان عنـون أولهما بـ"ميثاق من أجل حرية الأمم المسـتعبدة مـن قبـل الاتحاد السوفييتي"، ولعل في هذا العنوان ما يؤكد إصـرار البلطيقيين على اعتبار جمهوريـاتهم محتلـة مـن جانـب السوفييت. أما البيان الثاني فقد عنونه واضعوه بـ"نداء إلـى الإنتلجنسيا الروسية"؛ حيث راح البلطيقيـون يؤكـدون مـن خلاله على أن مشكلة الديمقراطية لا يمكـن حلهـا بـدون حصول شعوب الاتحـاد السـوفييتي علـى حـق تقريـر المصير[٥٣٠].

---

[٥٣٠] راجع في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٢.

وتأسيسا على ما تقدم فقد كان على شـعوب البلطيـق أن تختار إلى أي الجبهات ستنحاز: الجبهات الاستقلالية الداعية إلى انفصال جمهوريات البلطيق عن موسـكو وإقامـة دول مستقلة، أم إلى تلك التي ترفض الانفصـال عـن الاتحـاد السوفييتي؟

على أية حال فإنه لم يمر وقت طويل حتى بات واضـحا أن شعوب البلطيق قد أعلنت خيارها. وقد تجلى هذا الاختيار بوضوح من خلال انتخابات مؤتمر نـواب الشـعب التـي أجريت في مارس عام ١٩٨٩. ففي ليتوانيا وبـرغم كافـة العراقيل التي وضعت أمام جبهة سـايوديس فـإن الجبهـة خاضت الانتخابات في مواجهة كل من الحـزب الشـيوعي الليتواني، ومنظمة الوحدة (إدينستفو) التـي يسـيطر عليهـا الروس. وقد أسفرت هذه الانتخابات عن فوز سايوديس على خصميها اللدودين فوزا ساحقًا؛ إذ حصل مرشـحوها علـى ٧٥% من المقاعد المخصصة لليتوانيا فـي مـؤتمر نـواب الشعب، في حين لم تتمكن إدينستفو من الوصول إلى أي من المقاعد، كذلك فقد انهزم كافة المسئولين الكبار فـي الدولـة

والحزب [٥٣١]، وبات واضحا أن سـايوديس هـي الممثـل الشرعي للشعب الليتواني؛ حيث أفرزها الواقـع الليتـواني كتعبير حقيقي عنه، ثم أغدق عليها تأييده فرسخ لها شـرعية راحت تجب شرعية ما عداها من منظمـات جـاءت بهـا موسكو، وعلى رأسها الحزب الشـيوعي الليتـواني، ذلـك الحزب الذي طالما احتكر الحياة السياسية في ليتوانيا، وهيمن على سائر المؤسسات والأجهزة الرسمية فيها، ثم ها هو فجأة أمام مارد جديد صنعه الليتوانيون بأنفسهم، وكان من القـوة بحيث لم يستطع الحزب إزاءه حراكًا.

أما في إستونيا ولاتفيا وعلى الرغم مـن ارتفـاع عـدد الناخبين الروس داخلهما فإن النجاح الذي حققتـه الجبهتـان الشعبيتان الإستونية واللاتفية جاء ليؤكد أنهما قد سحبتا بساط الشرعية من تحت أقدام الموالين لموسكو؛ إذ تفوقـت كلتـا الجبهتين على إنترفرونت تفوقًا بائنًا [٥٣٢].

---

[٥٣١] المرجع السابق، ص ٢٠٠.

[٥٣٢] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق، ص ٢٠٠، ٢٠١.

وفي أعقاب انتصارهم في انتخابات مـارس ١٩٨٩ راح البلطيقيون يخطون خطوة جديدة نحو تـدعيم قـوتهم، وقـد تمثلت هذه الخطوة في إنشاء ما يعرف بمجلـس الجبهـات الشعبية البلطيقية، ففي ١٣ مايو ١٩٨٩ اجتمع في العاصـمة الإستونية طالين ممثلون عن الجبهـات الشـعبية البلطيقيـة الثلاث؛ حيث قرروا إنشاء المجلس المذكور بغية التنسيق بين سياسات الجبهات الثلاث، ومناقشـة مسـتقبل جمهوريـات البلطيق [٥٣٣]. فضلاً عن الوقوف صفًا واحدا فـي مواجهـة الانتقادات التي راح الحزب الشـيوعي السـوفييتي يكيلهـا للجبهات الشعبية، على نحو ما أشرنا سلفًا.

وتتعين الإشارة إلى أن الحزب الشيوعي السوفييتي كان قد علق آمالاً كبارا على الأحزاب الشيوعية البلطيقية فيما يتصل باحتواء تحرك الجبهات الشعبية، وحصره في أضيق نطـاق، غير أن تلك الأحزاب قد خذلت كبيرها الذي علمها الشيوعية؛ حيث وجدت أن شعبيتها أخذت تتقلص وتتضاءل لدى الـرأي العام البلطيقي الذي كان يعتبرها مجرد أدوات في يد موسكو، في حين أن شعبية الجبهات البلطيقية التي تتبنى قضية استقلال

---

(٥٣٣) Hiden & Salmon, Op. Cit., P. ١٥١.

الجمهوريات قد أخذت في التزايد المطرد. وهكذا فلم يكن أمام الأحزاب الشيوعية البلطيقية سوى رفع راية الدفاع عن الحقوق القومية لجمهوريات البلطيق [534]، عسى أن تتمكن تلك الأحزاب بذلك من استعادة شعبيتها التي كادت تتلاشى أمام الشعبية الجارفة للجبهات الشعبية. وعلى ذلك فقد راحت أهداف الأحزاب الشيوعية تقترب إلى حد كبير من أهداف الجبهات الشعبية لا سيما في ليتوانيا وإستونيا. وبالتالي فقد تزايدت قوة التيار الاستقلالي داخل جمهوريات البلطيق؛ حيث راحت الجبهات الشعبية والأحزاب الشيوعية البلطيقية تتبارى في إظهار إخلاصها للمطالب القومية لشعوب البلطيق، على نحو أدى إلى تزايد قوة الاتجاه الاستقلالي داخل الجمهوريات الثلاث. وقد هيأ ذلك إلى تحقيق نتائج هامة لشعوب البلطيق، من ذلك على سبيل المثال نجد أن برلمانات جمهوريات البلطيق – والتي كانت الأحزاب الشيوعية لما تزل تسيطر على توجهاتها – قد اتخذت خطوات بالغة الأهمية على صعيد

---

[534] انظر في هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، من ص ١٧٨ إلى ١٨١.

التمكين للغات الباطيقية في جمهورياتها [535]؛ حيث كان قد صدر في إستونيا – في ١٨ يناير ١٩٨٩ – قانون يؤكد على عدم الاعتراف بلغة رسمية لإستونيا سوى اللغة الإستونية، وبالتالي فقد اجتث هذا القانون أي امتياز كان قد أعطي للغة الروسية داخل إستونيا، كما نص ذات القانون على أن كل مواطن من مواطني الجمهورية لديه مهلة أربع سنوات، يتعين عليه خلالها أن يتعلم الإستونية، كما أن كافة اللفظات الروسية يجب أن تختفي من الحياة العامة في أقرب وقت ممكن. أما في ليتوانيا فقد صدر – في ٢٥ يناير ١٩٨٩ – قانون بصدد اللغة يكاد يتطابق مع نظيره الإستوني، وإن كانت السلطات الليتوانية قد أعطت مهلة سنتين قبل دخول القانون حيز التنفيذ. أما فيما يتصل بلاتفيا فقد صدر قانون لغوي أقل تشددا وأكثر مرونة من قانون إستونيا وليتوانيا؛ حيث أعطى ذلك القانون لمواطني لاتفيا حرية الاختيار بين اللغة اللاتفية واللغة الروسية في الحياة العامة. ويرتد عدم التشدد الذي ينطوي عليه القانون اللغوي اللاتفي إلى كون العنصر البشري غير اللاتفي الأصل يشكل حوالي ٤٨ % من سكان لاتفيا.

---

[535] انظر بصدد هذه الخطوات: المرجع السابق، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

ذلكم فيما يتصل بالصعيد اللغوي أما على صعيد السـيادة فقد اتخذت الحكومات البلطيقية خطوات لا تقل شأنًا عن تلك التي اتخذتها فيما يتصل باللغة. ففي ١٦ نوفمبر عام ١٩٨٨ كان مجلس السوفييت الأعلى لإسـتونيا قـد أعلـن سـيادة الجمهورية، وسرعان ما حذت كل من ليتوانيا ولاتفيا حـذو إستونيا، ففي مايو ١٩٨٩ أعلن الليتوانيون سيادة جمهوريتهم، في حين أعلن اللاتفيـون سـيادة لاتفيـا فـي ٢٨ يوليـو ١٩٨٩[٥٣٦]. وتأكيدا على ما تقدم فقد نصت المادة ٧٤ مـن دستور إستونيا الجديد والمادة ٧٠ من نظيره الليتواني علـى أن القانون السوفييتي لـم يعـد بالإمكـان تطبيقـه داخـل الجمهورية، ما لم يكن متوافقًا مع دستورها، وحـائزا علـى موافقة مجلس السوفييت الأعلى لها. أما الدستور اللاتفي فقد كان أقل تشددا في التعامل مع القانون السوفييتي؛ حيث أكدت المادة ٧١ من ذلك الدستور المعدل علـى سـريان القـانون اللاتفي على سائر أرجاء لاتفيا، غير أنه في حالة تعارضـه

---

[٥٣٦] Hiden & Salmon, Patrick, Op. Cit. P. ١٥١.

مع القانون السوفييتي يسري ذلك الأخير [537]. ويرتد هـذا الموقف المهادن من القانون السوفييتي إلى ذات السبب الذي سبق وأن أشرنا إليه، والمتمثـل تضـاؤل نسـبة اللاتفيـين كجماعة مسيطرة في جمهوريتهم؛ إذ لا يمثلون سوى ٥٢ % فقط من تعداد سكانها، في حين تُمثل الأقليات القاطنة للاتفيـا ٤٨ % من عدد سكانها. وعلى ذلك فلم يكـن فـي مقـدور اللاتفيين اتخاذ مواقف من السوفييت تصل في تشددها إلـى مواقف كل من الإستونيين والليتوانيين، والذين يشكل كمهمـا البشري أغلبية عظيمة الشأن كل في جمهوريته.

ومهما يكن الأمر فإن الجمهوريات الباطيقية – في سـبيل تدعيمها لسيادتها – راحت تعلـن تملكهـا لكافـة ثرواتهـا الطبيعية، وحقها في تقرير سياساتها فـي كافـة المجـالات لا سيما المجـال الاقتصـادي؛ حيـث رسـخت اسـتقلالها الاقتصادي من خلال قوانين صيغت بحيـث تـنص علـى ذلك[538].

---

[537] انظر في هذا الصدد: دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجـع سبق ذكره، ص ٢١٤، ٢١٥.

[538] نفس المرجع السابق، ص ٢١٦.

ولم يكتف البلطيقيون بما تقدم؛ حيث راح المجلس البلطيقي للجبهات الشعبية يطالب الحكومة السوفييتية بالاعتراف بالبروتوكولات السرية الملحقة بالميثاق السوفييتي النازي لعام ١٩٣٩، والتي بمقتضاها ضمت دول البلطيق عنوة إلى الاتحاد السوفييتي، كما طالب المجلس الحكومة بإدانة تلك البروتوكولات، وشجب ضم الجمهوريات البلطيقية للدولة السوفييتية، باعتباره يمثل خرقًا للقانون الدولي. وعلى الرغم من الرفض الشديد من جانب السلطة السوفييتية للاعتراف بتلك البروتوكولات فقد تحقق للبلطيقيين انتصار هائل في هذا الصدد، تُمثل في صدور بيانات – من جانب الأحزاب الشيوعية في بعض الجمهوريات السوفييتية – راحت تدين بمقتضاها المعاهدة السوفييتية النازية وسائر بروتوكولاتها السرية، وقد صدرت تلك البيانات في ٢٢ أغسطس عام ١٩٨٩؛ أي قبل يوم واحد من الذكرى الخمسين للمعاهدة المذكورة [٥٣٩]. وفي اليوم التالي مباشرة لصدور تلك البيانات – أي في ٢٣ أغسطس عام ١٩٨٩ واحتفالاً بمرور خمسين عاما على إبرام المعاهدة السوفييتية النازية –

---

[٥٣٩] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٩٥.

عمت العواصم البلطيقية الثلاث مظاهرات ضـخمة، بحيـث ربطت هذه العواصم من خلال سلاسل بشرية لم يسبق لهـا مثيل؛ إذ ضمت ما يربو على المليـوني متظـاهر، راحـوا يؤكدون على عدم شرعية ضم جمهوريـات البلطيـق إلـى الاتحاد السوفييتي، ويطالبون باستقلال تلـك الجمهوريـات [٥٤٠]. ولم تعبأ تلك السلاسل البشرية بالتهديدات التي وجهتها موسكو، ولا بالاتهامات التي ألصقتها بهـا، والتـي نعتـت البلطيقيين بأنهم انقساميون وأعداء للتجديد [٥٤١].

وفي إطار الاحتفال بالذكرى الخمسين للاتفـاق النـازي السوفييتي – وإلى جانب المسيرات الحاشدة التي نظمتهـا – راحت الجبهات البلطيقية الثلاث تصدر بيانًا مشتركًا، عنونه واضعوه بـ"الطريق البلطيقـي" The Baltic Way. وقـد أكدت الجبهات الثلاث في بيانها هذا على أنها ستسعى جاهدة من خلال الوسائل السلمية إلى استعادة استقلال جمهوريـات البلطيق، الذي اغتصب بمقتضى اتفاق عام ١٩٣٩ الإجرامي

---

(٥٤٠) White, Op. Cit., P. ١٥٦.

(٥٤١) دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكرهن ص ١٩٧.

وغير الشرعي Criminal and Unlawful Agreement of ١٩٣٩ [٥٤٢].

وهكذا باتت جلية من خلال ما تقدم الشرعية الراسخة التي تمتعت بها الجبهات البلطيقية، كما ظهرت واضحة مقـدرتها على التأثير على مجتمعاتها، واستنفار طاقاتها. وفوق ما تقدم وقبله يتضح أن الهدف الحقيقي والمحوري لتلك الجبهات إنما كان يتمثل في نيل جمهوريات البلطيق لاستقلالها التام عـن الاتحاد السوفييتي، وخلاصها من ربقة موسكو.

وتتعين الإشارة إلى أن الأحزاب الشيوعية البلطيقيـة قـد راحت هي الأخرى شيئًا فشيئًا – على نحو ما ذكرنا سلفًا – تنحو نحو ذلك الهدف؛ حيث نجد أن زعماء تلك الأحزاب قد راحوا في أعقاب اجتماع لهم – إبـان الاحتفـال بالـذكرى الخمسين للاتفاق النازي السـوفييتي – يهـاجمون السـلطة السوفييتية – ويعلنون عن مسـاندتهم لسـيادة جمهوريـات البلطيق، وعلى سبيل المثال فقد راح زعيم الحزب الشيوعي الليتواني برازوسكاس Brazauskas يؤكـد علـى حتميـة

---

[٥٤٢] Hiden & Salmon, Op. Cit., P. ١٥٤.

حصول ليتوانيا على سيادتها، حيث قال: "إن ليتوانيا بـدون سيادة، هي ليتوانيا بلا مستقبل" [٥٤٣].

وكان الحزب الشيوعي الليتواني قد تبنى – في ١٠ يوليو ١٩٨٩ – برنامجا حاول من خلاله أن يبدو كحامـل للـواء الاستقلال، كما أعلن زعماء الحزب أنهم سيعقدون مـؤتمرا استثنائيا يقررون فيه استقلال حزبهم عن الحزب الشـيوعي السوفييتي. وعلى الرغم من كافة التهديدات التـي وجهتهـا موسكو إلى الحزب، فقد راح يعلن دون تـردد – فـي ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩ – انسلاخه عن الحزب الشيوعي السوفييتي، وهو الانسلاخ الذي لم يكن التاريخ السوفييتي قد شهد مثـيلاً له حتى ذلك الحين [٥٤٤].

وهكذا فإن الباطيقيين كانوا عاقدي العزم علـى المضـي قدما في سبيل الحصول على استقلالهم، ونيل سيادتهم. ولعله مما تجدر الإشارة إليه أنهم كانوا يؤكدون دوما على رغبتهم في الحصول على السيادة بمدلولها الحق لا بمفهومهـا عنـد

---

[٥٤٣] Ibid., P. ١٥٥.

[٥٤٤] انظر في هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجـع سبق ذكره، ص ٢٧٧.

السوفييت والذي سبق أن أشرنا إليه. وعلى سبيل المثال نجد أن المندوب الليتواني إلى مؤتمر القوميات – الذي عقد في سبتمبر ١٩٨٩ – راح يعلن: "إن الجمهوريات لا تطالب بزيادة الحقوق السيادية، وإنما تطالب بالسيادة ذاتها، وأن أي شخص يعرف القانون الدولي يعلم أن السيادة هي شيء مطلق، إما موجود، وإما غير موجود" [٥٤٥].

وعلى الرغم من اعتراف مجلس السوفييت الأعلى في موسكو بالاستقلال الاقتصادي لجمهوريات البلطيق الثلاث في ديسمبر ١٩٨٩، فإن الجبهات الشعبية البلطيقية استمرت على نهجها الرامي إلى تحقيق الاستقلال التام لتلك الجمهوريات؛ إذ ظلت عاضة بالنواجذ على ذلك الهدف، غير مرتضية لسواه بديلاً. ففي ذات الشهر – ديسمبر ١٩٨٩ – وتحت وطأة الضغوط الشعبية التي قادتها سايوديس صوت برلمان ليتوانيا بالموافقة على قرار يؤكد على أن ضم جمهوريات البلطيق الثلاث إلى الاتحاد السوفييتي هو إجراء باطل وغير شرعي، ثم سرعان ما راح ذات البرلمان – مع بداية عام ١٩٩٠ – يعلن إلغاء المادة السادسة من الدستور

---

[٥٤٥] توم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٥.

التي كانت تنص على الدور القيادي للحزب الشـيوعي فـي لتوانيا، وهكذا فقد بدأ الليتوانيون يؤكدون رغبتهم الأصيلة في الانفصال عن الاتحاد السوفييتي من خلال تحطيم وتقـويض الهياكل الرسمية التي طالما ربطتهم بموسـكو [٥٤٦]، وعلـى رأسها الحزب الشيوعي.

وإزاء هذا التهديد الخطير لوحدة الكيان السوفييتي والـذي جسدته النزعات الانفصالية البلطيقية قام جورباتشوف في ١١ يناير ١٩٩٠ بزيادة ليتوانيا، عساه يتمكن من إقناع الليتوانيين بالتخلي عن سعيهم الانفصالي. بيد أن الزعيم السوفييتي لـم يفلح لا من خلال الإقناع والترغيب ولا عن طريق التهديـد والترهيب في أن يحرك الليتوانيين عن مطالبهم الانفصـالية قيد أنملة [٥٤٧]. وفي إطار برامجهـا الانفصـالية خاضـت الجبهات الشعبية البلطيقية الثلاث الانتخابات البرلمانية التـي

---

[٥٤٦] انظر في هذا المضمون: أحمد مصطفى العملة، أزمة القوميـات وخطر انهيار الاتحاد السوفيتي، مجلة السياسـة الدوليـة، العـدد (١٠٣)، يناير ١٩٩١، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

[٥٤٧] انظر في هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجـع سبق ذكره، ص ٢٧٧.

أجريت في جمهوريات البلطيق خلال الأيام الأخيرة من شهر فبراير والأيام الأولى من شهر مارس عام ١٩٩٠. وارتباطًا بتلك المطالب حققت الجبهات الثلاث – لا سيما سايوديس – انتصارات عظيمة الشأن الأمر الذي أكـد الرغبـة الملحـة لشعوب البلطيق في الانفصـال عـن الاتحـاد السـوفييتي، واستعادة سيادتها المغتصـبة. وفـي أول جلسـة للبرلمـان الليتواني الجديد غداة انتخابه راح يوافق – في ١١ مـارس ١٩٩٠ – بإجمـاع أصـوات أعضـائه الحاضـرين (١٢٤ عضوا) على استقلال ليتوانيا، وتغيير اسمها من جمهوريـة ليتوانيا السوفييتية الاشتراكية إلى جمهورية ليتوانيا، وبالتالي فقد نزع عنها صفتي السوفييتية والاشتراكية. كما تم خـلال نفس الجلسة اختيار رئيس للجمهورية الليتوانية وكذا رئـيس للوزراء [٥٤٨]. وفضلاً عما تقدم فقد أكد البرلمان الليتواني – في إعلان الاستقلال – على أن ليتوانيا كان لهـا فـي ظـل الاتحاد السوفييتي وضع الدولة المحتلة؛ حيث إن ضمها إلى

---

[٥٤٨] Hiden & Salmon, Op. Cit., P. ١٥٨.

الدولة السوفييتية كان يفتقر تماما إلى الشرعية [٥٤٩]. وفـوق ما تقدم فقد تمت الموافقة على تغيير اسم البرلمان الليتـواني من مجلس السوفيت الأعلى لليتوانيا إلى المجلـس الليتـواني الأعلى، كما تمت الموافقة على إعفاء الليتوانيين من الخدمـة في الجيش السوفييتي [٥٥٠].

أما فيما يتصل بإستونيا فتتعين الإشارة إلى أن الإسـتونيين قد أنشأوا – غداة انتخابات ربيع ١٩٩٠ – مجلسا نيابيا جديدا إلى جانب مجلس السوفييت الأعلى لإستونيا، وقد عرف هـذا المجلس إستونيا، وسرعان ما راح هذا المجلس يكتسب شرعية راسخة إزاء مجلس السوفييت الأعلى؛ حيث كان ينظـر إلـى مجلس إستونيا من قِبل المواطنين الإستونيين على أنه المجلس النيابي الشرعي للجمهورية المقبلة، وقد راح هذا المجلـس – في ١١ مارس ١٩٩٠ – يوجه بيانًا إلى مجلس نواب الشـعب السوفييتي يطالبه من خلاله بإعادة إستونيا مستقلة [٥٥١].

---

[٥٤٩] انظر في هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجـع سبق ذكره، من ص ٢٢٧ إلى ص ٢٢٩.

[٥٥٠] نفس المرجع السابق.

[٥٥١] المرجع السابق، ص ٢٣٠.

وفي الثلاثين من ذات الشهر راح مجلس السوفييت الأعلى لإستونيا يؤكد تأييده التام لموقف مجلس إستونيا، بل وأعلن الاستقلال الفعلي لجمهورية إستونيا [٥٥٢]. كما أكد المجلس على أن الدولة الإستونية كانت موجودة دوما، بيد أنها كانت – في ظل الاتحاد السوفييتي – بمثابة دولة محتلة. ومن جانب آخر فقد أعلنت السلطات الإستونية أنها لم تعد تعترف بأية واجبات عسكرية عليها قِبل الاتحاد السوفييتي، وأنها ستتولى بنفسها حماية الإستونيين الذين يتركون الخدمة في الجيش السوفييتي[٥٥٣].

وعلى صعيد آخر وبصدد لاتفيا فإنه تجدر الإشارة إلى أن مجلس السوفييت الأعلى اللاتفي كان قد أكد – قبيل انتخابات مارس ١٩٩٠ وفي ١٥ فبراير – ضرورة إعادة ترسيخ الدولة اللاتفية المستقلة [٥٥٤]. ثم سرعان ما راح – غداة تلك الانتخابات وفي ٤ مايو ١٩٩٠ – يعلن استقلال لاتفيا عن الاتحاد السوفييتي، ويقرر عودة العمل بالدستور اللاتفي لعام ١٩٢٢ [٥٥٥].

---

[٥٥٢] Hiden & Salmon, Op. Cit., P. ١٦٢.

[٥٥٣] داتكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣١.

[٥٥٤] المرجع السابق.

[٥٥٥] Hiden & Salmon, Op. Cit., P. ١٦٢.

وهكذا فقد راحت الحركات العرقية الباطيقية تنخر شـيئًا فشيئًا في عظام الجسد السوفييتي المترهل مؤكدة مدى الوهن الذي ينطوي عليه ذلك الجسد ومظهره زيف الأكذوبة الكبرى التي طالما تشدق بها الزعماء السـوفييت، والمتمثلـة فيمـا أسموه بالصداقة بين الشعوب السوفييتية، تلك الصداقة التـي تغنوا بها دوما معتبرين إياها مأثرا عظيما من مآثر ثورتهم، غير أن الجماعات العرقية الخاضعة لنيـرهم سـرعان مـا راحت واحدة تلو الأخرى تنزع أغلالهم التي فـي أعناقهـا، ولكي تظهر للجميع – في ذات الوقت – أن عبارة الشـعب السوفييتي الواحد لم تكـن سـوى أضـغاث أحـلام راودت الزعماء السوفييت، ومحض أساطير اعتقدوا فـي إمكانيـة تحققها.

وجملة القول – إذًا – فإن جمهوريات الباطيـق الـثلاث (ليتوانيا – إستونيا – لاتفيا) قد أعلنت – خلال النصف الأول من عـام ١٩٩٠ – اسـتقلالها، وانفصـالها عـن الاتحـاد السوفييتي، مؤكدة على أنها كانـت – فـي إطـار الدولـة السوفييتية – بمثابة دول محتلة. ولكن هل وقفـت موسـكو مكتوفة اليدين أمام ما قام به الباطيقيون؟

تتعين الإشارة إلى أن جورباتشوف قد أكد – غداة إعلان الليتوانيين لاستقلالهم – رفضه التام لهذا الإجـراء، وهـدد الزعيم السوفييتي بقطع إمدادات الغـاز والبتـرول والمـواد الغذائية عن ليتوانيا إذا لم تتراجع سلطاتها عـن الاسـتقلال خلال ثمان وأربعين ساعة [556]. بيد أن الليتوانيين لم يذعنوا لهذا التهديد، الأمر الذي كان من شأنه أن دفع جورباتشـوف إلى المضي قدما في تنفيذ تهديده؛ حيث قام بفرض ضـغوط اقتصادية هائلة على ليتوانيا، تمثلت في حظر اقتصادي طال منتجات الطاقة، والمواد الأولية، والصادرات الليتوانية، كمـا عمد الزعيم السوفييتي إلى حرمان ليتوانيا من عائداتها مـن العملات الصعبة، وسعى إلى إحباط أي مسعى لإيصال كـل عون خارجي إلى الإقليم الليتواني. وفضلاً عما تقدم فقد راح يمنع السفن والسائحين من استخدام سواحل ليتوانيا [557]، كما قام جورباتشوف بإرسال قوات عسكرية إلى منطقة البلطيق؛ حيث أجرت مناورات عسكرية بغيـة إظهـار التشـدد إزاء

---

[556] أحمد مصطفى العملة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٦.

[557] دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكـره، مـن ص ٢٣٣ إلى ص ٢٣٥.

البلطيقيين، ذلك فضلاً عن نشر قوات أخرى داخل ليتوانيـا لمطاردة الشباب الهاربين من الخدمة العسكرية في الجـيش السوفييتي [٥٥٨].

وعلى الرغم من كل هذه الضغوط التي قامت بها موسكو فإنها لم تفلح في إثناء الليتـوانيين عـن مـوقفهم؛ إذ ظلـوا قابضين على استقلالهم المستعاد، عاضـين بالنواجـذ علـى سيادتهم المستردة. وفضلاً عما تقدم فإن تلك الضغوط لم تفلح في إثناء كل من الإستونيين واللاتفيين عن السير علـى ذات النهج الليتواني؛ إذ أعلنت إستونيا اسـتقلالها عـن الاتحـاد السوفييتي – كما قدمنا – في ٣٠ مارس ١٩٩٠، في حـين قامت لاتفيا بنفس الإجراء في الرابع من مايو من ذات العام. وسرعان ما راحت كل الجمهوريات البلطيقية الثلاث تعمـل على طمس أي مظهر من مظاهر الشيوعية بها، وكان مـن بين ما قامت به في هذا الصدد تحطيم تماثيل لينين التي كان البلاشفة قد أقاموها على أراضيها، كما شـرعت كـل مـن

---

[٥٥٨] انظر في هذا المضمون: أحمد مصطفى العملـة، مرجـع سـبق ذكره، ص ٢٥٦.

الجمهوريات الثلاث – على صعيد آخر – في تأسيس وحدات عسكرية ذاتية، تكون بمثابة النواة لجيوش قومية حقة [٥٥٩].

وإزاء هذا التحدي الباطيقي راح جورباتشوف – فـي ٣٠ مايو ١٩٩٠ – يهدد بالتدخل العسـكري فـي الجمهوريـات الثلاث، كما حرض الزعيم السوفييتي بيلوروسيا على مطالبة ليتوانيا بإعادة مدينتي فيلنيوس وكلايبيدا البيلوروسيتين، اللتين كان الاتحاد السوفييتي قد ضمهما إلى الأراضي الليتوانية عام ١٩٤٠. أما بصدد إستونيا فقـد راح روس (إنتروفرونـت) يعلنون أنه في حالـة انفصـال الجمهوريـة عـن الاتحـاد السوفييتي فإنهم سيطالبون بحقهم في الانفصال عن إسـتونيا بمنطقتهم الشمالية [٥٦٠]. وتتعين الإشارة إلى أنه مع تصـاعد المشاعر العرقية في جمهوريـات الباطيـق وإعـلان هـذه الجمهوريات استقلالها؛ وجد الروس القاطنون لها أنفسهم في موقف المنبوذ من جانب الجماعـات الباطيقيـة، وهـو ذات الموقف الذي تعرضوا له من قبل شعوب آسيا الوسطى فـي

---

[٥٥٩] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٦، ٢٣٧.

[٥٦٠] انظر في هذا الصدد بالتفصيل: المرجع السابق، من ص ٢٣٣ إلى ص ٢٣٦.

الماضي، والذي كان أحد الأسباب التي دفعتهم إلى تفضـيل العيش في جمهوريات البلطيق. أما في ظل تلـك الأوضـاع المستجدة على الصعيد البلطيقي فقد بات على الروس – على حد قول البعض – أن يجابهوا في كافة البقاع غير الروسـية عداء واضحا. فلقد كان الروس يعيشـون فـي جمهوريـات المحيط منغلقين على أنفسهم في ظل حماية السلطة المركزية؛ حيث يحملون معهم لغتهم وعاداتهم وسـلوكياتهم، أمـا الآن فكيف لهم أن يعيشوا في مجتمعات لن تتسامح معهـم إلا إذا تخلوا عن كل مظهر من مظاهر روسيتهم [561]، وتلكم هـي الصداقة بين الشعوب السوفييتية التـي طالمـا تفـاخر بهـا الزعماء السوفييت.

ومهما يكن الأمر فإن جمهوريات البلطيق الثلاث وعلـى رأسها ليتوانيا قد تعرضت – غـداة إعلانهـا الاسـتقلال – لضغوط هائلة من جانب السلطات السوفييتية، وقد تمثلت هذه الضغوط – على نحو ما تقدم – في عقوبات اقتصادية شديدة الوطأة، فضلاً عن تهديد جورباتشوف باستخدام القـوة إزاء تلك الجمهوريات، وظهور العديد من المطالبات التي حركها

---

[561] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق، ص ٣١٩، ٣٢.

السوفييت لانتزاع أقاليم حيوية من أراضـيها. وقـد حـاول الباطيقيون الصمود أمام هذه الضغوط الشديدة مـن جانـب موسكو، كما حاولوا إجراء اتصالات خارجيـة مـع الـدول الغربية – وعلى رأسها الولايات المتحدة – للحصول علـى دعم مادي وسياسـي يقـوي مـن مـوقفهم إزاء الحكومـة السوفييتية، بيد أن أملهم قد خاب في هـذا الصـدد؛ إذ لـم يحصلوا من قِبـل الـدول الغربيـة علـى الـدعم الكـاف والمتوخي[٥٦٢]. وبالتالي فلم يكن أمام الباطيقيين مـن سـبيل سوى قبول دعوة جورباتشوف للتفاوض بغيـة إيجـاد حـل للموقف المتأزم بين الطرفين، وقد جرت المفاوضات بالفعـل خلال شهر يونيو ١٩٩٠؛ حيث أكد جورباتشوف للباطيقيـين أنه لا سبيل إلى رفع العقوبات المفروضة علـيهم وانتهـاء التهديدات التي تجابههم ما لم يقوموا بتجميد اسـتقلالهم، ثـم البدء في مفاوضات جديدة للنظر في أمر هـذا الاسـتقلال. وهذا هو ما قام به الباطيقيون بالفعل في نهاية شهر يونيـو؛ حيث أعلنت برلمانات الجمهورية الثلاث تجميـد الاسـتقلال بصورة مؤقتة [٥٦٣].

---

[٥٦٢] انظر في هذا المعنى: أحمد مصطفى العملة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٦.

[٥٦٣] Hiden & Salmon, Op. Cit., P. ١٦٣.

وعلى الرغم مما تقدم فإن البعض راح يؤكد أن ما حدث كان يمثل انتصارا للباطيقيين، فعلى سبيل المثال كان رئـيس المجلس الأعلى اللاتفي أناتولي جوربونوف يرى: "أن اقتراح جورباتشوف تجميد استقلال دول البلطيق إنما يعادل اعترافًا ضمنيا بالاستقلال، وذلك على اعتبار أن المرء لا يمكنـه أن يجمد إلا ما هو موجود فعلاً" [٥٦٤].

على أية حال فإن تتبع الأحداث في جمهوريات البلطيـق غداة إعلانها تجميد الاستقلال إنما يؤكد على أن هذا التجميد كان بمثابة إجراء تكتيكي فحسب؛ حيث استهدف البلطيقيـون من ورائه التخلص من الحصار الاقتصادي المفروض علـى جمهورياتهم، وبالتالي فإنه لم يكن يعني أن البلطيقيـين قـد تخلوا عن الاستقلال. ذلك بأنهم ظلوا متمسـكين باسـتقلالهم رافضين أية وصاية من جانب موسـكو علـيهم. ضـاربين عرض الحائط بأية قرارات تصدرها إزاءهم. فعلـى سـبيل المثال نجد أن ليتوانيا قد أكدت رفضها تطبيق القرار الصادر من جانب موسكو في ٢٥ يوليو ١٩٩٠، والذي كان يقضـي بأنه: "يصبح من حق رئيس الدولـة السـوفييتية مصـادرة

---

[٥٦٤] دانكوس، نهاية الإمبراطورية... مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

الأسـلحة التـي حصـلت عليهـا التشـكيلات العسـكرية للجمهوريات بطريق غير قانوني" [565]. ويعتبر هذا الموقف الليتواني رفضا للاعتراف بأية حقوق للسلطة المركزية فـي مواجهة ليتوانيا.

وجملة القول – إذًا – في شـأن اسـتقلال جمهوريـات البلطيق أن قرار تجميد الاستقلال كان بمثابة قرار تكتيكـي استهدف حفظ ماء وجه جورباتشوف، بغية إقناعـه بإنهـاء الحصار الاقتصادي الذي كان مفروضا من جانبه على تلـك الجمهوريات، وأن البلطيقيين ظلوا متمسـكين باسـتقلالهم، عاضين بالنواجذ على سيادتهم. والحق أن هـذا الاسـتقلال سرعان ما راح يتدعم شيئًا فشيئًا في ظل قيام الجمهوريـات السوفييتية الأخرى بإعلان استقلالها واحدة تلـو الأخـرى، وعلى نحو أدى إلى إجبار جورباتشوف في النهايـة علـى الإذعان أمام المطالب الاستقلالية المتزايدة من قبـل سـائر جمهوريات المحيط، وذلك على النحو الذي سنعرض له فـي صفحات لاحقة بإذن ا .

---

[565] رولان لوم، فيليب ميشيه، حل الدولة السوفيتية، ترجمة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٠٤) أبريل ١٩٩١، ص ٢٥٢.

تعقيـب:

يتضح في ثنايا ما تقدم أن عقودا عديـدة مـن السـيطرة البلشفية لم تفلح في طمس الهويات العرقية للباطيقيين، ذلـك بأنه – برغم جهود الكريملين المضنية لترويسـهم – ظلـوا قابضين على هوياتهم، عاضين بالنواجـذ علـى مقومـات ذاتياتهم، ناظرين إلى الاتحاد السوفييتي باعتباره دولة تحتـل أراضيهم، وتغتصب حقهم في تقرير المصير. وعلى ذلك فما أن تخاص الباطيقيون من نير الإرهاب والكبـت – بمجـيء جورباتشوف إلى الكريملين – حتى اشرأبت أعنـاقهم نحـو استعادة استقلالهم المغتصب، واسترجاع حـريتهم السـلبية. وسرعان ما ظهرت الحركات العرقيـة الانفصـالية داخـل جمهوريات الباطيق؛ حيث تجسدت هذه الحركات فيما يعرف بالجبهات الشعبية، تلك الجبهات التي كانـت الجمهوريـات الباطيقية مهدا لها، وكان للباطيقيـين قصـب السـبق فـي ابتداعها، فكانت تجربتهم في ذلك هي السراج الذي سار على هدى من نوره غيرهم من الشعوب التي طالما أنت تحت نير الكريملين، ثم ها هي أخيرا تحذو حذو الباطيقيين في سـعيهم نحو التخاص من ربقة البلاشفة.

المبحث الثاني
في الحركات العرقية
في منطقة آسيا الوسطى

يرتد تاريخ منطقة آسيا الوسطى بجذوره إلى ما يقرب من العشرين قرنًا مضت من الزمان، ولقد خضعت هذه المنطقة – خلال حقب طويلة ضمن تاريخها – لشتى صنوف الغـزو الثقافي والتجاري والعسكري؛ حيث تعاقب على غزوها كـل من العرب والمنغوليين والأتراك، وذلك قبل أن تدين للروس السيطرة عليها خلال القرون القليلة المنصرمة [٥٦٦]. وهكـذا فقد كانت آسيا الوسطى تُمثل – حتى قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧ – جزءا من الإمبراطورية الروسية؛ حيث كان يطلق عليها تركسـتان الروسـية Russian Turkestan وتضـم منطقة آسيا الوسطى خمس جماعات عرقيـة رئيسـية هـي الطاجيك، والأوزبك، والكازاخ، والقرقيز، والتركمان. وتدين

---

[٥٦٦] Chavin, James, Independent Central Asia: aprimer. Current History, April, ١٩٩٤. P. ١٦٠.

هذه الجماعات قاطبة بالإسلام وإن تباينت مذاهبها. وفيما عدا الطاجيك ينحدر أفراد تلك الجماعات من أصل تركـي، أمـا الطاجيك فينحدرون من أصل إيراني [٥٦٧].

وقد عانى مسلمو التركستان خلال الحقبة القيصرية – على نحو ما أشرنا سلفًا – من صنوف شتى للاضطهاد والتنكيـل، ولا سيما إبان عهد إيفان الرهيب، الذي سعى بمختلف السـبل إلى تنصيرهم، بيد أنهم قاوموا كافة المساعي التي اسـتهدفت تقويض مقومات هويتهم العرقية وعلى رأسها الدين الإسلامي. ومع اندلاع الثورة البلشـفية عـام ١٩١٧ اشـرأبت أعنـاق التركستانيين إلى الاستقلال والتخاص من النير الروسـي، لا سيما وأن البلاشفة قد أعلنوا إيمانهم بمبدأ حق الشـعوب فـي تقرير مصائرها، غير أن التركستانيين سرعان مـا أدركـوا زيف الوعود البلشفية؛ حيث راح لينـين ورفاقـه يحكمـون قبضتهم على شتى أصقاع الإمبراطورية الروسية، ويخضعون

---

[٥٦٧] Smith, Graham (ed.). Op. Cit., P. ١٩٧.

وانظر كذلك لتفاصيل أخرى بصدد هوية شعوب آسيا الوسطى:

Fuller, Graham E., Central Asia: The Question of Identity, Current History, April, ١٩٩٤ PP. ١٤٥ – ١٤٦.

لسلطانهم جل الشعوب التي كان القياصرة قد جمعوها عنـوة تحت إمرتهم. وبالتالي فلم يجد التركستانيون من سبيل أمـامهم سوى الكفاح المسلح بغية الوصول إلى غايتهم المتمثلـة فـي الاستقلال، وبالفعل فقد نشأت حركات عرقية انفصالية عديـدة في التركستان، كان أظهرها – كما قـدمنا – حركـة أميـر بخارى، وحركة البسماتشي، وهما الحركتـان اللتـان ظلتـا تقاومان البلاشفة طيلة عقد العشرينيات، إلى أن تمكنـوا مـن إخمادهما تماما مع بداية عقد الثلاثينيات.

وفي ظل الحكم الشيوعي سـعى الزعمـاء السـوفييت – شأنهم في ذلك شأن أسلافهم القياصرة – بمختلف الوسائل إلى تقويض مقومات هوية مسلمي آسيا الوسطى، والقضاء علـى أية نزعة عرقية لديهم. وقد تمثلت أولى الوسائل التي لجئـوا إليها – في هذا الصدد – في تقسيم آسيا الوسطى على سـت جمهوريـات منفصـلة هـي كازاخسـتان، وأوزبكسـتان، وطاجيسكتان، وقريجيزستان، وتركمانستان، منتهجين بـذلك ذات السياسة التي طالما انتهجتها القـوى الاسـتعمارية إزاء مستعمراتها بغية إخضاعها، وهي السياسة المعروفة بسياسة "فرق تسد" "Divide and Rule" (٥٦٨).

(٥٦٨) Chavin, Op. Cit., P. ١٦١.

وفضلاً عما تقدم – وفي إطار سياستهم الرامية إلى طمـس هوية قاطني آسيا الوسطى – عمد الزعماء السوفييت إلى تقويض مقومات تلك الهوية وعلى رأسها الدين، فراحوا يغلقون المساجد، ويدعون إلى الإلحاد، ويجبرون النساء علـى خلـع الحجـاب، ويفرضون كوادر ملحدة (أو علمانية معادية للدين) علـى قيـادة المؤسسات العامة في الأقاليم التي يقطنها المسلمون بصفة عامة، وعلى رأسها آسيا الوسطى [٥٦٩]. وكل ذلك فضلاً عـن العمـل على ترويس المنطقة لغويا وثقافيا وأبجديا وبشريا، فـي معنـى فرض اللغة والثقافة الروسيتين على شـعوب آسـيا الوسـطى، وإجبار تلك الشعوب على كتابة لغاتهـا بالأبجديـة السـريالية، والتخلي عن الأبجدية العربية التي كانت تستخدمها أصلاً، والتي كانت بمثابة إطلالة لها على لغة دينها. أما فيما يتصل بالترويس البشري فنعني به هنا سعي الزعماء السوفييت إلى تهجير الروس من مواطنهم الأصلية وتوطينهم في جمهوريات آسيا الوسـطى وغيرها من جمهوريات المحيط، وذلك إلى جانب جعل المنطقـة مستودعا للجماعات العرقية المتمردة، والتـي كـان البلاشـفة يقتلعونها من مواطنها الأصلية على نحو ما قدمنا.

---

[٥٦٩] راجع في هذا المضمون: وليد محمود عبـد الناصـر، العامـل الإسلامي والدور الإيراني في الجمهوريات الإسـلامية المسـتقلة، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٢٠)، أبريل ١٩٩٥، ص ١٥٧.

وعلى الرغم من كل ما تقدم فإن الكريملين لم يفلـح فـي طمس هوية شعوب آسيا الوسـطى؛ إذ يؤكـد الثقافـة مـن الباحثين المهتمين بالشئون السوفييتية أن تلك الشعوب ظلـت قابضة على مقومات ذاتياتها وعلى رأسها الدين الإسـلامي. ويعبر البعض عن ذلك بقوله: "إنه كان ثمة في إطار الاتحاد السوفييتي دوما ما يمكن أن نطلق عليه الكـائن الإسـلامي؛ حيث كان المسلمون يرفضون الزواج من غيرهم، كما دأبوا على المحافظة على تقاليـدهم الاجتماعيـة ولا سـيما تلـك المتصلة منها بالزواج؛ إذ التزمت غالبية المسـلمين بتقاليـد الزواج الإسلامية، واستمرت بعض التقاليد القديمة كـزواج الفتيات الصغيرات، وتقاضي المهور، وهـي تقاليـد كانـت تتعارض مع القانون السوفييتي، الذي كان ينص على توقيـع العقوبة على من يلتزمها. وفضلاً عن ذلك فقد كان المسلمون يرفضون دفن موتاهم مع موتي غيرهم، وقد دفع ذلك أحـد الكُتاب السوفييت إلى القول: "كان يحدث أن يتعايش بشر من عرقيات مختلفة في عائلة أممية واحدة، ثم يتضح بعد الموت أنهم لا يستطيعون أن يدفنوا داخل مقبرة واحدة، وأن تستغل رحلتهم الأخيرة في نشر الدين والقومية" [٥٧٠].

---

[٥٧٠] دانكوس، انتفاضة القوميات...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣، ١٨٤.

والحق أن مسلمي آسيا الوسطى كانوا يؤكدون دوما على هويتهم الإسلامية، فعلى سبيل المثال يقول أحـد المشـتغلين بالدراسات الاجتماعية من السوفييت فـي إحـدى دراسـاته التطبيقية عن دور الدين كمقوم للهوية العرقيـة فـي آسـيا الوسطى والتي أجريت في طاجكستان إن السؤال الذي كـان يطرحه على أفراد عينته هو: هل أنت مسلم؟، وأن الغالبيـة العظمى من أفراد العينة كانوا يجيبون ذات الإجابـة وهـي: بالفعل فأنا طاجيكي [٥٧١]. وهكذا فقد كان الطاجيك يعتبرون أن طاجيكيتهم إنما هي مرادف لإسلامهم.

ومن جانب آخر فقد أظهر استطلاع للرأي أجـرى فـي إحدى قرى أوزبكستان مع نهاية عقد السـبعينيات أن ٧٧ % من الرجال، ٨٠ % من النساء غير ملحـدين، وهـم إمـا مؤمنون عن قناعة وممارسون للشعائر، وإما مجرد ممارسين للشعائر تحت تأثير عائلاتهم. كما تتعين الإشـارة إلـى أن المسلمين خلال تلك الفترة كانوا قد بـدءوا ينخرطـون فـي

---

[٥٧١] انظر في هذا المعنى:

Olcott, Martha Brill, Central Asia's Islamic Awakening, Current History, April, ١٩٩٤, P. ١٥١.

الجماعات الصوفية، التي انتشرت في سـائر أرجـاء آسـيا الوسطى، والتي وصل تعداد الأعضاء فيها – آنذاك – إلـى المليون شخص [٥٧٢].

ويؤكد غير واحد من الباحثين أن هزيمة الاتحاد السوفييتي أمام المجاهدين الأفغان، واندلاع الثورة الإسلامية في إيـران كان لهما عظيم الأثر على تنامي الشعور الديني لدى بلـدان آسيا الوسطى منذ نهاية عقد السبعينيات. ويقول البعض فـي ذلك: "لا شك في أن مسلمي آسيا الوسطى قد تعلموا دروسـا مفيدة من المقاومة الأفغانية؛ إذ بات واضحا لـديهم أن الأخ الأكبر يمكن هزيمته، وأن التمرد المسلح قد صـار ممكنًـا". ويضيف القائل بهذا الرأي: "إن مقاومة المجاهدين الأفغان قد أشعلت المشاعر القومية لدى المسلمين السوفييت، ودفعـتهم إلى التمرد، ذلك بأن من شأن هذه الحـروب إذكـاء نيـران الحركات الانفصالية والثورية" [٥٧٣]. ويسوق صاحب الرأي السابق تدعيما لرأيه مقولة عظيمة الأهمية لأحـد المثقفـين

---

[٥٧٢] دانكوس، انتفاضة القوميات...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣، ١٨٤.

[٥٧٣] ألكسندر بينجسن، أفغانستان: الأفكار الخلفية السوفيتية، ترجمة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩٣، يوليو ١٩٨٨، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

الأذريين وقد أطلقها ذلك المثقف في عام ١٩٨٠ وفي وقت لم يكن أحد يفكر فيه في أي انتصار للأفغـان، ومـؤدى هـذه المقولة أن "شعب أذربيجان لا يستطيع أن يثور على موسكو مثلما فعل الشعب الإيراني مع الولايات المتحدة، ذلـك بأنـه ليس بمقدوره أن يهزم الروس، ولكننا نعتمد علـى انتصـار المجاهدين في أفغانستان، فإن استطاعوا الإطاحـة بالنظـام الشيوعي في كابول وإقامة حكومة إسـلامية علـى غـرار حكومة إيران ستستطيع الدول الثلاث (إيـران وأفغانسـتان وباكستان) مساعدتنا في صراعنا ضد الروس، وسيرفع ذلك من الروح المعنوية لشعوب آسيا الوسطى" [٥٧٤].

ومن ناحية أخرى فقد كان لتصاعد المد الإسلامي خـلال عقد السبعينيات عظيم الأثر على الشعوب المسلمة في الاتحاد السوفييتي؛ حيث ساهم في تنامي الشعور الديني لهـا، علـى نحو اعتبره البعض نيلاً من أُسس الدولة السوفييتية. ولم يفلح الكريملين – بكل جبروته – في الحيلولة دون تصاعد الوعي السياسي الإسلامي لدى المسلمين السوفييت، الأمر الذي دفع الحزب الشيوعي السوفييتي إلى إدانـة الأنشـطة الدينيـة،

---

[٥٧٤] نفس المرجع السابق.

والاهتمام بتحليل ظواهر معينة مثل ارتفاع معدلات التـردد على المساجد [٥٧٥].

وفضلاً عما تقدم فقد كان ثمة نزعة قوية لدى المسـلمين السوفييت إلى إحياء التراث الديني، وسعي الشعراء إلـى أن يعكسوا في أشعارهم الماضي الحضاري الإسلامي لبلـدانهم، كما تزايد الاتجاه إلى التعليم الديني الذي بات متاحا في كافة المساجد؛ حيث أظهرت الأجيال الصاعدة اهتمامها بالتقاليـد الإسلامية، وتزايد معدل ذهابهم إلى المساجد [٥٧٦].

وتتعين الإشارة إلى أن الزعماء السـوفييت كـانوا قـد شرعوا – منذ البداية – في تحديث جمهوريات آسيا الوسطى اعتقادا منهم أن التحضر، والتحديث، والتصنيع هي أمور من شأنها تيسير عملية اندماج شعوب تلك الجمهوريات في سائر قاطني الاتحاد السوفييتي، غير أن هذه السياسـة أدت إلـى نتائج عكسية؛ إذ أفرزت – على حد قول البعض – طبقة من أبناء آسيا الوسطى على قدر هائل من التعليم، هيأ لها القدرة

---

[٥٧٥] انظر في هذا المضمون: وليد محمود عبد الناصر، مرجع سـبق ذكره، ص ١٥٧.

[٥٧٦] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٥٨.

على التعبير عن التمايز الثقافي لشعوبها بكفاءة واقتـدار لـم يكن بمقدور آبائها أن يبلغوهما نظرا لضحالة تعليمهم [٥٧٧].

وهكذا فإن كافة السياسات التي اتبعها الزعماء السـوفييت بغية طمس الهوية العرقية لشعوب آسيا الوسطى كان مآلهـا إلى الفشل؛ إذ لم يفلح أي من هذه السياسات – على تعددها – في تقويض مقومات ذاتية تلك الشعوب. فلقد ظل مسلمو آسيا الوسطى – إلى حد كبير – عاضين بالنواجذ على مقومـات تمايزهم العرقي وعلى رأسها الدين. وتلكم هي الحقيقة التـي عبرت عنها إحدى المبرزات من الباحثين المتهمين بالشـئون السوفييتية بقولها: "إن السلطات السوفييتية تجد نفسـها أمـام لغز هائل، إنه لغز الكائن الإسلامي في الاتحاد السـوفييتي، ذلك بأن الطفل يحبـو فـي مجتمـع اشـتراكي، ويرضـع الاشتراكية في ظل منظمات أكتوبر، ثم شـابا فـي رحـاب الكومسمول، فيافعا في منظمات الحزب الشيوعي، ومع كـل ذلك يجد نفسه مأخوذًا بتقاليد أبيه.

[٥٧٧] انظر في هذا المعنى: أحمد عباس عبد البديع، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.

وأجداده، وبتراثهم وتاريخهم. وهذا مـا يؤكـد علـى أن النموذج الإنساني وليد التربية الاشتراكية – كمـا تصـوره السوفييت – هو نموذج لم يوجد بعد، أو على الأقـل لـيس موجودا في كل الاتحاد السوفييتي طالما أن ثمة مسلما مـن بين كل خمسة سوفييت" [٥٧٨].

وجملة القول – إذا – في شأن ما تقدم أنه على الرغم من كافة المساعي التي بذلها الزعماء السوفييت بغية طمس هوية شعوب آسيا الوسطى فإن هذه الشعوب قد ظلت قابضة على هويتها، ممعنة في التمسك بمقومات ذاتيتها، مفرطة الإدراك لتمايزها الثقافي إزاء ما عداها من الجماعات العرقية المشكلة للاتحاد السوفييتي. وقد اتضح ذلك في أجلى صورة خـلال عهد جورباتشوف، وفي رحاب المناخ الليبرالي الذي أتاحتـه البيريسترويكا والجلاسنوست، ذلك المناخ الذي هيأ لظهـور الحركات العرقية المعبرة عن تمايز هويات جماعاتهـا فـي شتى جمهوريات الاتحاد السوفييتي، ومن بينها بطبيعة الحال جمهوريات آسيا الوسطى. وفيما يلي نعـرض بشـيء مـن

---

[٥٧٨] انظر في هذا المضمون: دانكوس، انتفاضة القوميات...، مرجـع سبق ذكره، ص ١٨٤.

التفصيل للحركات العرقية في آسيا الوسطى خلال عهد جورباتشوف، وذلك في ثنايا مطالب خمسة متتابعة نعنونها على النحو التالي:

المطلب الأول : الحركة العرقية في كازاخستان.

المطلب الثاني : الحركة العرقية في أوزبكستان.

المطلب الثالث : الحركة العرقية في طاجيكستان.

المطلب الرابع : الحركة العرقية في تركمانستان.

المطلب الخامس: الحركة العرقية في قرقيزستان.

* * *

المطلب الأول
الحركات العرقية في كازاخستان
(قازقستان)

أولاً: تعريف بجمهورية كازاخستان وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة كازاخستان ٢٧١٧٣٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة ألما آتا Alma – Ata [٥٧٩]. وقد كانت الجمهورية الكازاخية تُمثل – بمساحتها الشاسعة تلك – ثاني كبرى جمهوريات الاتحاد السوفييتي مساحة؛ حيث كانت تلي في ذلك جمهورية روسيا الاتحادية كبرى الجمهوريات السوفييتية قاطبة [٥٨٠]. وقد بلغ عدد سكان كازاخستان حوالي

---

(٥٧٩) Olcott, Martha Bril, Central Asia's Post – Empire Politics, Orbis, Spring, ١٩٩٢, p. ٢٥٧.

(٥٨٠) Savanberg, Ingver, Kazakhs, in: Smith, Graham, Op. Cit., P. ١٩٩.

١٦٤٦٤٤٦٠ نسمة حسب تعداد عام ١٩٨٩، يتشكلون من ما يربو على الثماني جماعـات عرقيـة أظهرهـا: الكـازاخ (القـازاق)، والـروس، والألمـان، والأوزبـك، والتتـار، والأوجريون، والبيلوروس، والكوريون. ويشـكل الكـازاخ الجماعة العرقية ذات الكم البشري الأكبر في كازاخسـتان؛ إذ يشكلون حوالي ٤٠ % من عدد سكان الجمهورية، فـي حين يمثل الروس ثـاني الجماعـات العرقيـة عـددا فـي كازاخستان؛ حيث تبلغ نسبتهم إلى جملة عدد السكان قرابـة الثمانية والثلاثين بالمائـة [٥٨١]. وبالتـالي فـإن الكـازاخ لا يتفوقون على الروس في كازاخستان من حيث العـدد إلا بنسبة ضئيلة، وذلك على النحو الذي سيتضـح مـن خـلال الجدول التالي، والذي نعرض فـي ثنايـاه لأعـداد أظهـر الجماعات العرقية في كازاخستان، حسب تعداد عام ١٩٨٩:

---

[٥٨١] راجع في هذا الصدد كلاً من:

Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., P. ٢٥٧.

وأيضا: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٥.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الكازاخ (القازاق)	٦٠٨٥٧٨٤
الروس	٦٢٥٦٤٩٥
الألمان	٩٨٧٨٦٧
الأوكرانيون	٨٢٣٢٢٣
الأوزبك	٣٢٩٢٨٩
التتار	٣٢٩٢٨٩
الأوجريون	١٨٥٢٠٧
البيلوروس	١٨٣٢٠٥
الكوريون	١٠٣١١٥

جدول رقم (١١)

تم تركيبه بالاستعانة بالمراجع التالية:

Conway, Patrick, Kazakhstan: Land of Opportunity, Current History, April, ١٩٩٤, p. ١٦٥.

Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., P. ٢٥٧.

وتتعين الإشارة إلى أن الروس كانوا حتى سنوات قليلـة مضت يشكلون الجماعة البشرية ذات الكم البشري الأكبر في كازاخستان، وبالتالي فقد كان الكازاخ يمثلـون أقليـة فـي وطنهم[٥٨٢]. وبذلك فقد كانت كازاخستان تُمثل في هذا الصدد – إلى عهد قريـب – اسـتثناء مـن سـائر الجمهوريـات السوفييتية، والتي كانت كل منها تتميز بكون الجماعة التـي يشتق اسم الجمهورية من اسمها هي الجماعـات ذات الكـم البشري الأكبر، حال الروس في روسيا، والأوكرانيين فـي أوكرانيا، والأوزبك في أوزبكستان... وهكذا.

ويوضح الجدول التالي تطور أعداد الجماعـات العرقيـة الرئيسية المشكلة للكيان البشري في كازاخستان منـذ عـام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٨٩.

---

[٥٨٢] انظر في هذا الصدد: Svanberg, Op. Cit., PP. ١٩٩ – ٢٠٤.

الجماعة العرقية	١٩٥٩ (نسمة)	١٩٧٠ (نسمة)	١٩٧٩ (نسمة)	١٩٨٩ (نسمة)
الكازاخ	٢٧٩٥٠٠٠	٤٢٣٤٠٠٠	٥٢٨٩٤٠٠	٦٥٨٥٧٨٤
الروس	٣٩٧٤٢٠٠	٥٥٢١٠٠٠	٥٩٩١٢٠٥	٦٢٢٥٦٤٩٥
الألمان	٦٤٨٠٠٠	٨٥٨٠٠٠	٩٠٠٢٠٧	٩٨٧٨٦٧
الأوكرانيون	٧٦٢٠٠٠	٩٣٣٠٠٠	٨٩٧٩٦٤	٨٢٣٢٢٣
الأوزبك	١٣٧٠٠٠	٢١٦٠٠٠	٢٦٣٣٠٠	٣٢٩٢٨٩
عدد سكان الجمهورية	٩٢٩٤٠٠٠	١٣٠٠٨٠٠	١٤٦٤٨٣٠٠	١٦٤٦٤٤٦٠

جدول رقم (١٢)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بـ:

- دانكوس، نهاية الإمبراطوريـة...، مرجـع سـبق ذكره، ص ٦١، وكذلك:

Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., P. ٢٥٧.

وجملة القول – إذًا – في شأن ما تقدم أن الكازاخ كـانوا حتى بداية عقد الثمانينيات يمثلون أقلية في وطنهم؛ حيث كان الروس يمثلون الجماعة العرقية ذات الكم البشري الأكبر في كازاخستان. بيد أنه مع انتصاف عقد الثمانينيات بدأ الكازاخ يتجاوزون الروس عدديا، وبالتالي فقد باتوا يشكلون جماعـة الأغلبية في كازاخستان، وإن كانوا لا يتفوقون على الـروس في هذا الصدد إلا بنسبة ضئيلة كمـا قـدمنا. ويرتـد هـذا التضاؤل في نسبة الكازاخ داخل الدولة المسماة باسمهم إلـى جملة أسباب أظهرها ما تعرضوا له من مذابح هائلة على يد البلاشفة طيلة عقد العشرينيات، وهي المـذابح التـي أودت بحياة ما يربو على المليون كازاخي كانوا يشكلون – وقتذاك – ربع سكان كازاخستان [583]. وذلك فضـلاً عـن إعطـاء الزعماء السوفييت الضـوء الأخضـر لأفـراد الجماعـات السوفييتية السـلافية الـثلاث (الـروس – الأوكرانيـون – البيلوروس) فيما يتصل بالنزوح إلى كازاخسـتان، فراحـوا يتدفقون تترا إلى أراضيها دافعين السـكان الأصـليين مـن

---

[583] انظر في هذا الصدد: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجـع سبق ذكره، ص ٦٢.

الشمال (حيث الجزء الأكثر خصبا) إلى الجنوب، كذلك فـإن من بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى تضاؤل نسبة الكازاخ في وطنهم أن ستالين كان قد جعل من أراضي كازاخسـتان مأوى للجماعات العرقية التي كان قد اجتثها مـن مواطنهـا الأصلية، إما بتهمة الخيانة (حال تتار القرم، وبعض سـكان البلطيق... وغيرهم)، وإما كإجراء وقـائي إبـان الحـرب العالمية الثانية حال ألمان الفولجا الذين اقتلعوا من مـوطنهم الأصلي خوفًا من أن يتعاونوا مع الجيوش النازية. ونظـرا لكل ما تقدم فقد أصبحت كازاخستان – على حد قول البعض – بمثابة فسيفساء عرقية [٥٨٤].

وتتعين الإشارة – في النهاية بصـدد التكـوين العرقـي لجمهورية كازاخستان – إلى أن الكازاخان يمثلون جماعـة عرقية يرتبط أفرادها فيما بينهم من خـلال روابـط عديـدة أظهرها وحدة اللغة، والدين، والثقافة، والتاريخ، والسـلالة، وفيما يتصل بلغتهم فهي تتمثل في اللغة الكازاخية، وهي ترتد إلى فئة من اللغات التركية المعروفة باسـم "نوغـاي" [٥٨٥].

---

[٥٨٤] انظر في هذا المعنى: نفس المرجع السابق، ص ٦١، ٦٢.

[٥٨٥] محمد عبد القادر أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.

ولقد كانت هذه اللغة – حتى عام ١٩٢٨ – تكتب بـالحروف العربية، غير أن السلطات السوفييتية في ذلك العام قد أبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينيـة بصـدد كتابـة اللغـة الكازاخية، ثم عادت تلك السـلطات – فـي عـام ١٩٤٠ – وفرضت على الكازاخ كتابة لغتهم بالحروف السريالية. ذلكم فيما يتصل باللغة، أما فيما يتعلق بالدين فإن الكازاخ يـدينون بالإسلام، وهم في غالبيتهم من السنة [٥٨٦].

ثانيا: الحركات العرقية الكازاخية خلال عهـد جورباتشوف:

على الرغم من تضاؤل نسبتم في وطنهم إلا أن ملاحظـة تاريخهم تشير إلى أن الكازاخ قد ظلوا قابضين على هويتهم بشتى مقوماتها، مقاومين لأي إجراء من شأنه أن يهدد تلـك الهوية. ولعل من أبرز حركات التمرد التي صـدرت عـن الكازاخ في سبيل الحفاظ على هويتهم تلك الحركـة واسـعة النطاق التي شهدتها كازاخستان عام ١٩٣٨، بيد أن جحافـل الفرقة السوفييتية الحادية والعشرين تصدت لها وقمعتها بكل

---

[٥٨٦] Svanberg, Op. Cit., PP. ٢٠٤ – ٢٠٥.

عنف [٥٨٧]. كذلك ففي إطـار مقاومـة مـا يتهـدد هويـة جمهوريتهم تظاهر – في عام ١٩٧٩ – شباب كازاخي فـي انتفاضة صاحبتها أعمال عنف بين الأعراق، وكان هـؤلاء الشباب (وهم طلاب) قد انتفضوا إثر سريان إشـاعات عـن تحويل تسيلينوجراد إلى إقليم يأوي الألمان الذين كان ستالين قد اجتثهم من موطنهم الأصلي إبان الحرب العالمية الثانيـة كإجراء وقائي على نحو ما سبق أن أشرنا. وقد كان هـؤلاء الألمان قد تقدموا إلى السلطات السـوفييتية بطلـب – عـام ١٩٧٩ – يدعونها بمقتضاه إلى الموافقة علـى تخصـيص منطقة تسيلينوجراد لهم كموطن بديل [٥٨٨].

ومع مجيء جورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٥ – وفي ظل البريسترويكا والجلاسنوست – باتت الأجواء مواتية للكازاخ كي يعبروا عن هويتهم وسرعان مـا راحت تطفو على سطح الحياة الاجتماعية فـي كازاخسـتان جماعات دينية، جاءت كي تعبر عن ظاهرة جديـدة قوامهـا

---

[٥٨٧] انظر في هذا المعنى: محمد عبد القادر أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٦.

[٥٨٨] انظر في هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطوريـة... مرجـع سبق ذكره، ص ٦٦.

نزوع الشباب الكازاخي إلى الانضواء تحت لواء الإسـلام، وبالتالي فقد استقطبت تلك الجماعات الآلاف منهم، على نحو هيأ لهم التعبير عن مشاعرهم العرقية المتنامية من ناحيـة، وعن عدائهم الدفين للروس من ناحية أخرى [٥٨٩].

وتتعين الإشارة إلى أن الكازاخ كانوا أكثـر الجماعـات العرقية السوفييتية تبكيرا في إظهـار نـزعتهم العرقيـة؛ إذ تجلت هذه النزعة بائنة من خلال مظاهرة ضخمة قـام بهـا الكازاخ – في ١٧ ديسمبر ١٩٨٦ – داخل العاصمة ألما آتا. وقد ضمت تلك المظاهرة ما يربو على عشـرة آلاف فـرد تجمعوا في الساحة الكبرى للعاصمة، مسـلحين بالقضـبان الحديديـة، وقطـع الـبلاط، وهـم يهتفـون "كازاخسـتان للكازاخستانيين وفقط للكازاخستانيين". وقد قام المتظـاهرون بأعمال تخريبية طالت المباني الرسمية وفي مقـدمتها مقـر الحزب الشيوعي. وقد جوبهت المظاهرة من جانـب قـوات أمن راحت تقمع المتظاهرين بكل عنف، تعززها فـي ذلـك المصفحات، والعربات المدرعة. وقد أسفرت المواجهة بـين

---

[٥٨٩] انظر في هذا المعنى:

Svanberg, Op. Cit., P. ٢٠٥.

الجانبين عن سقوط العديد من القتلى والجرحى، جري التعتيم على عددهم من جانب أجهزة الإعلام الرسمية، التي لم تشر إلى انتفاضة ألما آتا على الرغم من ضخامة حجمهـا [٥٩٠]. ويبقى التساؤل.. هذه المظاهرة الضخمة علام؟ لقـد جـاءت هذه المظاهرة كرد فعل على مجرد قيام السلطة السـوفييتية بتعيين شخص روسي هـو جينـادي كـولبين Gennadii Kolbin كسكرتير أول للحزب الشـيوعي الكازاخسـتاني، محل ديـن محمـد كونـاييف Dinmukhamed Kunaev الكازاخي[٥٩١]. وعلى ذلك فقد انطلقت الجماهير الكازاخيـة الهادرة مرددة "كازاخستان للكازواخسـتانيين"، وتلكـم هـي الصداقة بين الشعوب السوفييتية التي طالما كانـت موضـع فخار أولئك الذين يقبعون في الكريملين.

---

(٥٩٠) انظر في هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطوريـة... مرجـع سبق ذكره، من ص ٥٨ إلى ص ٦٠.

(٥٩١) Svanberg, Op. Cit., P. ٢٠٦.

لقد كان الزعماء السوفييت – بمن فيهم جورباتشـوف – يبحثون عن شعب سوفيتي لا تفصل بينه الحواجز العرقيـة، غير أن انتفاضة ألما آتا جاءت – على حد قول الـبعض – كي تتحدى يقينياتهم، ولكي تؤكد على أن عشرات السنين من الحياة المشتركة لم تؤد إلى توحيد السوفييت، كما جاءت هذه الانتفاضة – من ناحية أخرى – لكي تعلم الجماعات العرقية السوفييتية الأخرى أن الثورة ضد موسكو قد باتت أمرا ممكنًا في عهد جورباتشوف [٥٩٢].

وعلى أية حال فإن المقولات السـوفييتية العتيقـة عـن "الشعب السوفييتي"، وعن "الأممية"، وعن "ضروب التقدم" قد تحطمت تماما من خلال انتفاضة ألما آتا ١٩٨٦، وأمام هدير الكازاخستانيين "كازاخستان للكازاخستانيين" [٥٩٣].

ولعله مما تجدر الإشارة إليه أن القيادات السوفييتية كانت تتصور أن للكازاخ – الذين كانوا إلى عهد قريـب يشـكلون أقلية في وطنهم – قد ذابوا واندمجوا في الجماعة الروسـية ذات الكم البشري الأكبر في كازاخستان، وبالتالي فإن تلـك

---

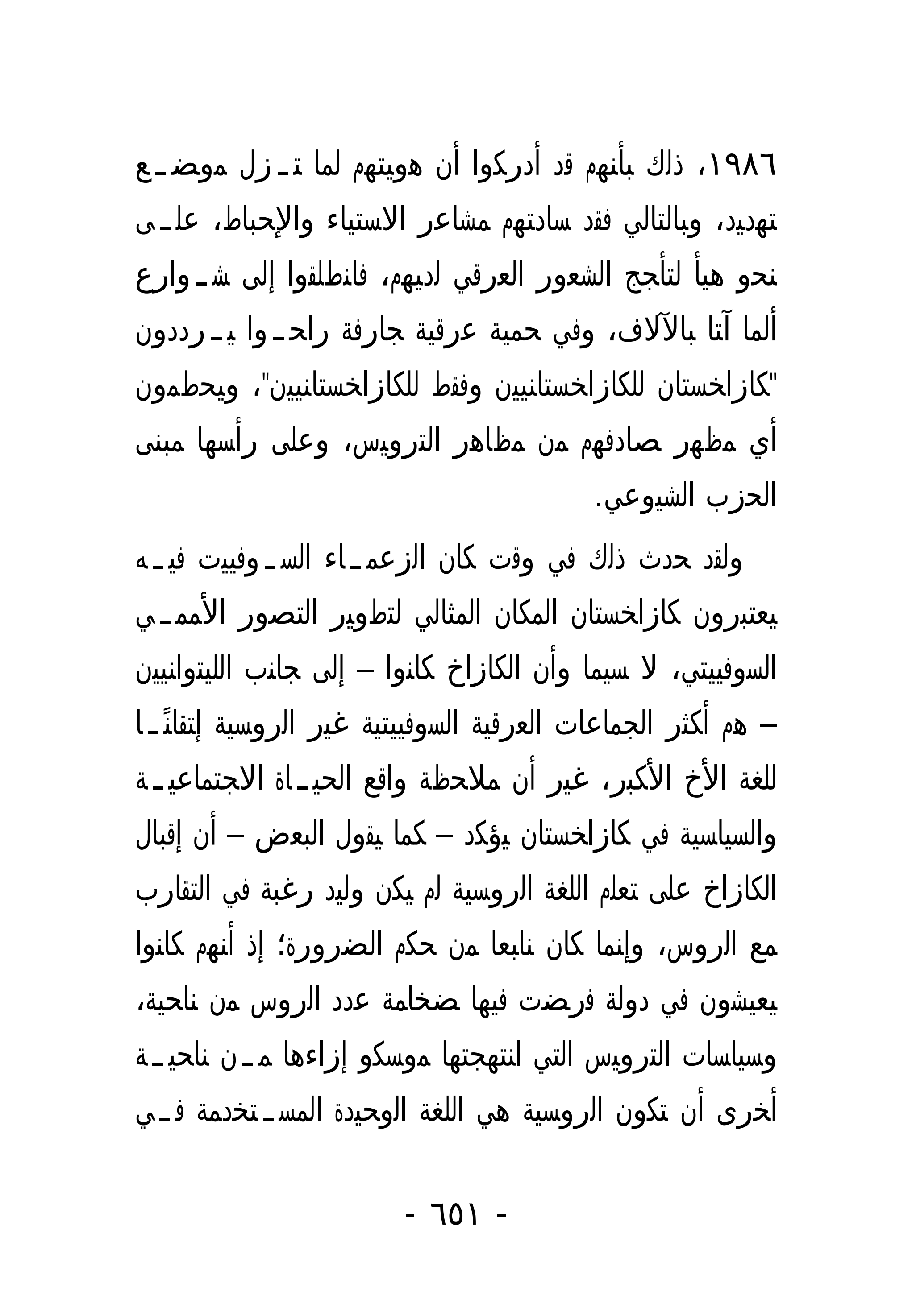
[٥٩٢] دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٧٥.

[٥٩٣] انظر في هذا المعنى: المرجع السابق، ص ٧٢.

القيادات كانت تعتبر أن الجمهورية الكازاخية لا تعدو أن تكون امتدادا لروسيا. وقد كان الكازاخ يشعرون بالمهانة إزاء ذلك الوضع، كما كان القلق يتملكهم أمام تضاؤل عددهم الذي كان يبلغ ٣,٨ مليون نسمة عام ١٨٩٧، ثم انخفض – بفعل المجازر التي تعرضوا لها خلال عقد العشرينيات – إلى ٢,٩ مليونًا فقط عام ١٩٣٤، وذلك في الوقت الذي كانت أعداد سائر الجماعات العرقية السوفييتية الرئيسية تتزايد في جمهورياتها. بيد أنه مع انتصاف عقد الثمانينيات بدأ الكازاخ يتجاوزون الروس عدديا، وبالتالي فلم يعودوا يمثلون شعبا مهددا في هويته وبقائه كما كانوا دوما. وقد راح المثقفون الكازاخ – الذين طالما رصدوا التطور الديموجرافي لجماعتهم العرقية – يدركون أن هذه الجماعة قد باتت تمثل الجماعة الأكثر عددا في وطنها، وبالتالي فإنه يتعين أن يمثل الكازاخ الجماعة المسيطرة التي يحتل المنتمون لها أغلب مواقع السلطة داخل الجمهورية الكازاخية [٥٩٤]. ونظرا لكل ما تقدم فقد كان رد فعل الكازاخ عنيفًا إزاء قيام موسكو بترويس قيادة الحزب الشيوعي الكازاخستاني في نهاية عام

---

[٥٩٤] انظر في هذا المضمون بتفاصيل أخرى: المرجع السابق، ص ٦٢، ٦٣.



١٩٨٦، ذلك بأنهم قد أدركوا أن هويتهم لما تزل موضع تهديد، وبالتالي فقد سادتهم مشاعر الاستياء والإحباط، على نحو هيأ لتأجج الشعور العرقي لديهم، فانطلقوا إلى شوارع ألما آتا بالآلاف، وفي حمية عرقية جارفة راحوا يرددون "كازاخستان للكازاخستانيين وفقط للكازاخستانيين"، ويحطمون أي مظهر صادفهم من مظاهر الترويس، وعلى رأسها مبنى الحزب الشيوعي.

ولقد حدث ذلك في وقت كان الزعماء السوفييت فيه يعتبرون كازاخستان المكان المثالي لتطوير التصور الأممي السوفييتي، لا سيما وأن الكازاخ كانوا – إلى جانب الليتوانيين – هم أكثر الجماعات العرقية السوفييتية غير الروسية إتقانًا للغة الأخ الأكبر، غير أن ملاحظة واقع الحياة الاجتماعية والسياسية في كازاخستان يؤكد – كما يقول البعض – أن إقبال الكازاخ على تعلم اللغة الروسية لم يكن وليد رغبة في التقارب مع الروس، وإنما كان نابعا من حكم الضرورة؛ إذ أنهم كانوا يعيشون في دولة فرضت فيها ضخامة عدد الروس من ناحية، وسياسات الترويس التي انتهجتها موسكو إزاءها من ناحية أخرى أن تكون الروسية هي اللغة الوحيدة المستخدمة في

الحياة العامة، وذلك على الرغم من أن اللغة الكازاخية كانت – نظريا – تعتبر متساوية من حيث المعاملة مع اللغة الروسـية. أما في الواقع فإن أية إدارة لم يكن بمقـدورها أن تفهـم أيـة طلبات كتبت باللغة الكازاخية، كما أنها لم تكن تملك أية أوراق رسمية مكتوبة بهذه اللغة. إلى جانب أن كافة المكاتب الرسمية التي يعمل فيها الكازاخستانيون لم تكن توفر سوى عدد ضئيل من الآلات الكاتبة التي أقلمت حروفها مع اللغـة الكازاخيـة، وبالتالي فقد كانت موظفات الآلة الكاتبة اللاتي دربـن علـى استخدام اللغة الكازاخية مضطرات لإخلاء أماكنهن للروسيات أو المروسات، ذلك فضلاً عن أن الأجهزة والوسائل التعليمية في المدارس كانت تتماشى مع اللغة الروسية فحسب [٥٩٥].

والحق أن الكازاخ كانوا يشعرون بالاستياء وهـم يـرون لغتهم قد حلت في مرتبة ثانية داخل جمهوريتهم، في الوقـت الذي تبوأت فيه اللغة الروسية – عملاً – المرتبـة الأولـى، بحيث أضحت تُمثل في الواقع – اللغة الرسمية لكازاخستان، وبالتالي فقد بات الكازاخ مهددين في واحد من أظهر مقومات هويتهم ألا وهو اللغة، لذلك فما أن أضحوا – مع منتصـف

---

[٥٩٥] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٦٩، ٧٣.

الثمانينات – يشكلون جماعة الأغلبية في وطنهم حتى صـار واحدا من أبرز أهدافهم الملحة تدعيم وضع لغـتهم، بحيـث تصبح اللغة الرسمية للجمهورية الكازاخيـة. ولقـد تحقـق للكازاخ ما أرادوا – بالفعل – في سبتمبر عام ١٩٨٩، عندما أقر مجلس السوفييت الأعلى لكازاخستان قانونًا لغويا جديدا، بمقتضاه أصبحت الكازاخية هي اللغة الرسمية للجمهوريـة، في حـين ظلـت اللغـة الروسـية لغـة التواصـل بـين الأعراق[٥٩٦]. وتتعين الإشارة – كذلك – إلى أن الكازاخ قـد راحوا بدءا من عام ١٩٨٩ يشـرعون فـي تعلـيم أبنـائهم الحروف العربية، كما بدأ القائمون علـى الصـحف التـي تخاطب الناشئة يخصصون قسـما منهـا لتعلـيم الأبجديـة العربية[٥٩٧]. ويمكن القول إن هذا الاتجاه من جانب الكازاخ كان يستهدف غاية قوامها العودة في أقرب وقت ممكن إلـى كتابة لغتهم بالأحرف العربية، وذلك بعـد أن ظلـت لعقـود عديدة تكتب بالحروف السريالية على نحو ما قدمنا.

---

(٥٩٦) انظر بصدد هذا القانون:

Svanberg, Op. Cit., P. ٢٠٨.

(٥٩٧) Ibid., P. ٢٠٩.

وعلى صعيد آخر فإنه تجدر الإشارة إلى أن الكـازاخ – بعدما أصبحوا جماعة الأغلبية في وطنهم – قد غدوا شديدي الاعتداد بهويتهم العرقية، بحيث أصبح من شـأن أي حـدث يمس تلك الهوية أن يستثيرهم. وقد ظهر ذلك بجـلاء مـن خلال الاضطرابات العرقية واسعة النطـاق التـي شـهدتها الجمهورية الكازاخيـة فـي صـيف عـام ١٩٨٩. وهـي الاضطرابات التي انطلقت من مدينـة نـوفي أوزن Novi Uzen في ١٦ يونيو على إثر مجابهة محدودة بـين بعـض الشباب الكازاخ ونظرائهم من القوقازيين الـذين كـانوا قـد هجروا من قبل إلى كازاخستان. وقد حدثت تلـك المجابهـة خلال حفل للرقص الشـعبي ضـم شـبابا مـن الكـازاخ والقوقازيين، وعلى إثرها نزل الكازاخ إلى الشوارع صابين جام غضبهم على المهجرين الذين كانوا قد جيء بهـم فـي الماضي من داغستان؛ حيث راح الكازاخ يهاجمون كل مـن بدا لهم أنه من أصل قوقازي، كما طال هجـومهم المحـال والمباني العامة، ذلك فضلاً عن مهاجمة مراكـز الشـرطة، ومحاولة الاستيلاء على الأسلحة الموجودة بها. كـذلك فقـد شلت حركة السكك الحديدية، وأغلقت المؤسسات، وخرجـت

العديد من المظاهرات الشعبية شارك فيها النساء والأطفـال. وإزاء ذلك تدخلت قوات الأمـن بغيـة احتـواء الموقـف، مستخدمة وسائل عديـدة كـإطلاق النيـران فـي الهـواء، الهراوات، والقنابل المسيلة للدموع، ثم أعلنت حظر التجـول داخل نوفي أوزن في ١٩ يونيو ١٩٨٩، بهدف شل حركـة المتظاهرين. غير أن المتظـاهرين سـرعان مـا امتـدت انتفاضتهم إلى أقصى غرب الجمهورية، عند ضـفاف بحـر قزوين؛ حيث شلوا الحركة الاقتصادية هنا، وراحوا يرهبون المهجرين الأرمن، كما امتدت أعمال العنف إلـى الأجـزاء الشرقية من كازاخستان، ووصلت حتى ألما آتا [٥٩٨].

وقد تمخضت تلك الاضطرابات عن مصـرع وإصـابة عشرات الأفراد، كما أدت إلى فرار الآلاف من القوقـازيين إلى الجمهوريات المجاورة، ذلك فضلاً عن حدوث خسـائر جسيمة لا سيما في قطاع البترول؛ حيث تعد منطقـة نـوفي أوزن منطقة بترولية هامة [٥٩٩].

---

[٥٩٨] انظر بصدد أعمال العنف هذه: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٥١، ١٥٢. وأيضا.

Svanberg, Op. Cit., PP. ٢٠٩ – ٢١٠.

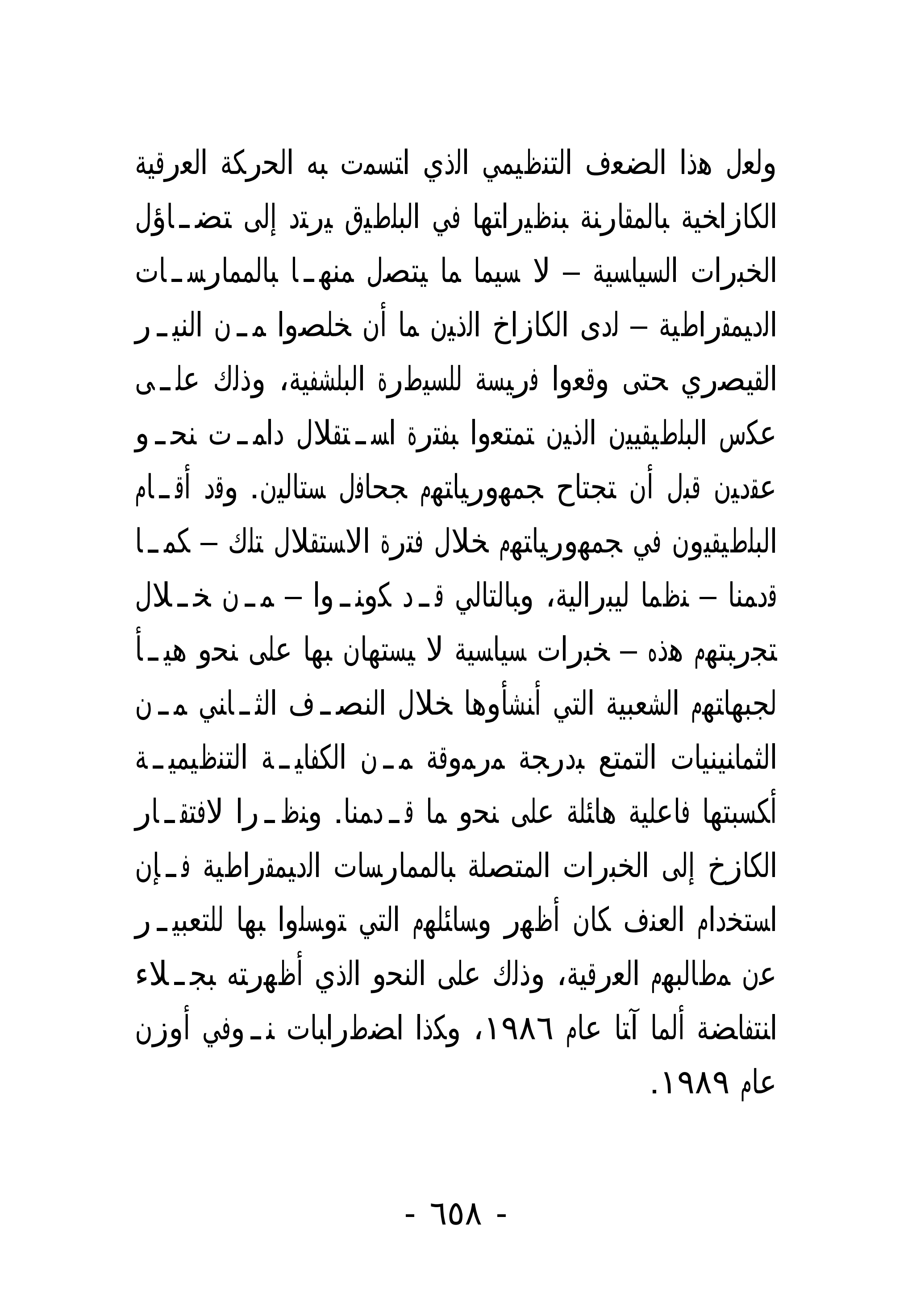
[٥٩٩] انظر نفس المرجع السابق.

وهكذا يبدو في ثنايا ما تقدم كم كان البناء العرقي السوفييتي هشًا، وكم كانت العلاقات بين الشعوب السوفييتية بعيدة عن الصداقة، تلك الصداقة التي طالما تغنى بها زعماء الكريملين، إلى حد توهم وجود شعب سوفيتي واحد. ولكن أي شعب ذلك الذي يستل أفراده السيف إزاء بعضهم البعض بسبب خلافات تافهة خلال حفل رقص شعبي؟

على أية حال فقد شهد شهر سبتمبر عام ١٩٨٩ حدثًا هاما بالنسبة للكازاخ، فخلال ذلك الشهر تم استبعاد الروسي جينادي كولبين من زعامة الحزب الشيوعي الكازاخستاني، وبطبيعة الحال فلم تجرؤ موسكو – في ظل المشاعر العرقية المتأججة لدى الكازاخ – على تعيين روسي آخر مكان كولبين؛ إذ لم يكن أمامها – كي تحافظ على استقرار الأوضاع في كازاخستان – سوى تعيين أحد الساسة الكازاخ زعيما للحزب الشيوعي الكازاخستاني، وهذا هو ما حدث بالفعل؛ إذ تبوأ الكازاخي نور سلطان نزاربييف Nursultan Nazarbaev موقع الزعامة في ذلك الحزب [٦٠٠].

(٦٠٠) Sbanberg, Op. Cit., P. ٢٠٧.

وجملة القول في شأن ما تقدم أن كافة السياسـات التـي انتهجها الزعماء السوفييت بغية طمس الهوية العرقية للكازاخ لم تفلح في بلوغ غايتها، ذلك بأن الجماعة الكازاخية قد ظلت قابضة على هويتها، عاضة بالنواجذ على مقومات ذاتيتها في مواجهة الجبروت البلشفي، والمد الروسي، وبالتالي فقد ظلت نزعتها العرقية مستعرة الأوار، كما بقيت المشاعر العرقيـة لأفرادها متقدة الجذوة. ولقد بلغت النزعة العرقيـة للكـازاخ أوج تأججها مع غدوهم الجماعة العرقية ذات الكم البشـري الأكبر في وطنهم بحلول منتصف عقد الثمانينيات. غيـر أن هذه النزعة العرقية المتأججة لم تتمخض عن ظهور حركـة عرقية (منظمة) تتناسب معها من حيـث القـوة؛ إذ كانـت الحركة العرقية الكازاخية مشتتة إلى حد كبير، وبالتالي فقـد عازها عنصر التنظيم الذي يجمع شتاتها، ويصـهر طاقـات أعضائها في بوتقة واحدة بغية بلوغ أهدافها. وبدلاً مـن أن تكون ثمة حركة عرقية واحدة قوية؛ وجد عديد من تجمعات صغيرة، ومحدودة النطاق، التف أعضاؤها حـول شـعارات دينية أحيانًا، وشعارات تتصل بالحفاظ علـى البيئـة أحيانًـا أخرى. ولم يقدر لهذه الجماعات أن تتحد فـي ظـل جبهـة شعبية واحدة على نحو ما حدث في جمهوريـات البلطيـق.



ولعل هذا الضعف التنظيمي الذي اتسمت به الحركة العرقية الكازاخية بالمقارنة بنظيراتها في البلطيق يرتد إلى تضاؤل الخبرات السياسية – لا سيما ما يتصل منها بالممارسات الديمقراطية – لدى الكازاخ الذين ما أن خلصوا من النير القيصري حتى وقعوا فريسة للسيطرة البلشفية، وذلك على عكس البلطيقيين الذين تمتعوا بفترة استقلال دامت نحو عقدين قبل أن تجتاح جمهورياتهم جحافل ستالين. وقد أقام البلطيقيون في جمهورياتهم خلال فترة الاستقلال تلك – كما قدمنا – نظما ليبرالية، وبالتالي قد كونوا – من خلال تجربتهم هذه – خبرات سياسية لا يستهان بها على نحو هيأ لجبهاتهم الشعبية التي أنشأوها خلال النصف الثاني من الثمانينيات التمتع بدرجة مرموقة من الكفاية التنظيمية أكسبتها فاعلية هائلة على نحو ما قدمنا. ونظرا لافتقار الكازخ إلى الخبرات المتصلة بالممارسات الديمقراطية فإن استخدام العنف كان أظهر وسائلهم التي توسلوا بها للتعبير عن مطالبهم العرقية، وذلك على النحو الذي أظهرته بجلاء انتفاضة ألما آتا عام ١٩٨٦، وكذا اضطرابات نوفي أوزن عام ١٩٨٩.

وفيما يتصل بهدف الحركة العرقية الكازاخية يمكن القول إنه كان يتمثل في تبوء الكازاخ موقع السيطرة في كازاخستان، وبالتالي فقد كانت هذه الحركة حركة استعلائية تستهدف في المقام الأول الوصول بجماعتها العرقية إلى موقع السيطرة في مجتمعها، أما فيما يتصل بهدف الانفصال عن الاتحاد السوفييتي فيمكن القول بأنه لم يكن من بين أهداف الحركة العرقية الكازاخية في الأجل القصير. ويرتد ذلك إلى العديد من الأهداف أظهرها:

١- إنه على الرغم من أن الكازاخ قد باتوا يشكلون الجماعة العرقية ذات الكم البشري الأكبر في كازاخستان بدءا من منتصف عقد الثمانينيات إلا أن نسبتهم إلى جملة السكان كانت غير كبيرة؛ إذ لم يكونوا يشكلون سوى ٤٠ % فقط من سكان الجمهورية، في حين كانت نسبة السلاف – ولا سيما الروس – متعاظمة إلى حد كبير؛ إذ شكل الروس حوالي ٣٨%، وبلغت نسبة الأوكرانيين ٥,٥ % من جملة سكان كازاخستان. وهكذا فإن مطالبة الكازاخ بالانفصال كازاخستان

عن الاتحاد السوفييتي لم تكـن تسـتند إلـى إرادة أغلبية السكان، على نحو بات يخشى معه أن تؤدي مثل هذه المطالبة إلى عواقب وخيمة علـى وحـدة الجمهورية.

٢- ضعف الحركة العرقية الكازاخية نظرا لافتقارهـا إلى التنظيم، وافتقاد أعضائها للخبـرات السياسـية الكافية على نحو ما قدمنا.

٣- إن الزعماء الرسميين الكازاخ – وعلى رأسهم نور سلطان نـزار بييـف – كـانوا شـديدي الـولاء للشيوعية، وبالتالي فلم يكونوا ليقدموا على خطـوة كالانفصال عن الاتحاد السوفييتي تلك الدولة التـي كانت تُمثل أول تجسيد للفكرة الماركسية على وجه البسيطة، والتي ظلت تحمل لواءه وتبشر به عبـر عديد من القرون.

ونظرا لكل ما تقدم فقد جاء قرار نزار بييف بانفصال كازاخستان عن الاتحاد السوفييتي متأخرا جدا، بحيث كانت الجمهورية الكازاخية من أواخر الجمهوريات السوفييتية التي أعلنت استقلالها إن لم تكن آخرها؛ حيث تم إعلان استقلال كازاخستان في ١٦ ديسمبر ١٩٩١ [٦٠١].

ومهما يكن من أمر الحركة العرقية الكازاخية فإن ثمة ملاحظة هامة تتعين الإشارة إليها بصدد تلك الحركة. ومؤدى هذه الملاحظة أن الجماعة الكازاخية كانت أولى الجماعات العرقية السوفييتية تعبيرا عن نزعتها العرقية خلال عهد جورباتشوف، وكان ذلك من خلال انتفاضة ألما آتا في ديسمبر ١٩٨٦، تلك الانتفاضة التي شدت من عضد الجماعات العرقية السوفييتية الأخرى، وعلمتها أن الوقوف في وجه موسكو ممكن. وهكذا فعلى الرغم من الضعف التنظيمي الذي كانت عليه الحركة العرقية الكازاخية إلا أنها كان لها عظيم الأثر على غيرها من الحركات العرقية التي انتشرت في شتى أرجاء الدولة السوفييتية، خلال العهد الجورباتشوفي، تلك الحركات التي ما أن تعلمت من انتفاضة ألما آتا أن الثورة على موسكو ممكنة حتى ثارت مطالبة بالاستقلال، والتخلص من النير السوفييتي.

---

(٦٠١) Conway, Op. Cit., P. ١٦٤.

المطلب الثاني
الحركة العرقية في أوزبكستان

أولاً: تعريف بجمهورية أوزبكستان وتكوينهـا العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية أوزبكستان ٤٤٧٤٠٠ كيلـو متـر مربع، وتتمثل عاصمتها فـي مدينـة طشـقند Tashkent، ويصل عدد الجمهورية الأوزبكية – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – حوالي ١٩٨١٠٠٧٧ نسمة [٦٠٢]، يتشكلون من ما يربـو على ثلاث عشرة جماعة عرقية أظهرها الأوزبك، والروس، والطاجيك، والكازاخ، والتتار، والكاراكالبـاك، والقرجيـز، والألمان، والأوكرانيون، والتركمان، والترك، والكوريـون، والمسخص.

---

(٦٠٢) Olcott, Central Asia's post – Empire Politics, Op. Cit., P. ٢٥٧.

ويوضح الجدول التالي تعداد كل مـن هـذه الجماعـات العرقية في أوزبكستان عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الأوزبك	١٤١٤٤٣٩٤
الروس	١٦٤٤٢٣٦
الطاجيك	٩٣١٠٧٣
الكازاخ	٨١٢٢١٣
التتار	٤٧٥٤٤١
الكاراكالباك	٤١٢٠٠٠
الكوريون	١٨٣٠٠٠
القرقيز	١٧٥٠٠٠
الأوكرانيون	١٥٨٤٨٠
التركمان	١٢٢٠٠٠
الترك	١٠٦٠٠٠
المسخص	٦٠٠٠٠
الألمان	٣٩٦٢٠

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بـ:

- جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤، وكذا:
- Olcott, Centra Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., P. ٢٥٧. Kangas Roger d., Uzbekistan: Evolving Authoritarianism, Current History, April, ١٩٩٤, PP. ١٧٩ – ١٨٠.

ويتضح من خلال الجدول السابق أن الأوزبـك يمثلـون أغلبية عظيمة الشأن في وطنهم؛ إذ يشكلون حوالي ٧١,٤ % من جملة سكان الجمهورية الأوزبكية حسـب تعـداد عـام ١٩٨٩. وينحدر الأوزبك – شأنهم في ذلك شأن أغلب سكان آسيا الوسطى – من أصل تركي، ويتكلمون اللغة الأوزبكية. وقد كانت هذه اللغة – خلال حقبة تمتد لأكثر من ألف عـام سبقت الثورة البلشفية – تكتب بالحروف العربيـة، غيـر أن البلاشفة – في إطار حملتهم الضارية لطمس هوية الجماعات العرقية الخاضعة لنيرهم – أجبروا الأوزبك في البداية علـى الكتابة بالحروف اللاتينية [٦٠٣]، ثم ما لبثوا أن ألغـوا هـذه

---

(٦٠٣) Akiner, Shirin, Uzbeks, in Smith, Graham (ed.), Op. Cit., PP. ٢١٤ – ٢١٧.

الحروف وأبدلوها بالحروف السيريالية عام ١٩٤٠ [٦٠٤]، ويدين الأوزبك بالإسلام، ويعتنقون المذهب السني [٦٠٥]، وتشتهر أوزبكستان بمدنها العريقة ذات التاريخ الإسلامي الحافل حال سمرقند، وخوارزم، وترمذ، وبخارى، تلك المدن التي قدمت العديد من فحول العلماء المسلمين في شتى مجالات المعرفة، وعلى رأس هؤلاء العلماء يأتي كل من البخاري، والترمذي، والخوارزمي، والزمخشري، والنسفي، وابن سينا [٦٠٦]. وكما سبق أن أشرنا فقد تعرض الأوزبك – شأنهم في ذلك شأن سائر مسلمي آسيا الوسطى – غداة قيام الثورة البلشفية إلى حملات عنيفة من جانب السلطات السوفييتية استهدفت تقويض مقومات ذاتيتهم، وعلى رأسها الدين؛ حيث قام البلاشفة – في هذا الصدد – بحملة عنيفة مضادة للإسلام؛ إذ أغلقوا المدارس الإسلامية، وحولوا المساجد إلى نواد، ودور للسينما، وصادروا المؤلفات الدينية؛

---

[٦٠٤] محمد عبد القادر أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٥.

[٦٠٥] Akiner, Op. Cit., P. ٢١٤.

[٦٠٦] راجع في هذا المضمون: محمد عبد القادر أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ٢١١، ٢١٢.

حيث قاموا – إثر ذلك – بإعدامها [٦٠٧]، ذلك فضلاً عن تأليف عشرات الكُتب التي تهاجم الإسلام وتدعو إلى الإلحاد. ولكن هل نجح الزعماء السوفييت من خلال ما تقدم في طمس الهوية العرقية للأوزبك؟ هذا ما ستتضح الإجابة عليه في ثنايا السطور التالية.

ثانيا: الحركة العرقية الأوزبكية خلال عهد جورباتشوف:

تتعين الإشارة بداية إلى أن كافة السياسات التي انتهجها الزعماء السوفييت بغية طمس هوية الأوزبك كان مآلها الفشل، ذلك بأن ملاحظة واقع الجمهورية الأوزبكية، لا سيما خلال الحقبة الجورباتشوفية – تقطع بأن النزعة العرقية لدى الأوزبك ظلت متأججة، بحيث لم يفلح الجبروت السوفييتي في إخمادها. لذلك وإزاء المشاعر العرقية الجارفة للأوزبك نجد أن الروس الذين طالما نزحوا بعشرات الآلاف إلى أوزبكستان قد بدءوا يدركون أن عبارة الصداقة بين الشعوب السوفييتية ليست سوى أكذوبة كبرى، وأن عليهم أن يتعاملوا

---

[٦٠٧] Akiner, Op. Cit., P. ٢١٧.

مع واقع مرير قوامه أن ثمة عداء متصاعدا إزاءهم من جانب الأوزبك، وبالتالي فقد راح الكثيرون منهم يهاجرون من الجمهورية الأوزبكية، لذلك نجد أن نسبة الروس بين سكان أوزبكستان قد أخذت في الانخفاض التدريجي منذ نهاية عقد الخمسينيات؛ إذ كانت هذه النسبة تبلغ ١٣,٥ % عام ١٩٥٩، ثم انخفضت إلى ١٢,٥ % عام ١٩٧٠، ثم إلى ١٠,٨ % عام ١٩٧٩، وأخيرا إلى ٨,٣ % عام ١٩٨٩[٦٠٨].

وقد بلغت النزعة العرقية لدى الأوزبك أوج تأججها في ظل المناخ السياسي الليبرالي الذي تمخضت عنه جلاسنوست جورباتشوف؛ حيث راحوا يضفون اهتماما عظيم الشأن على مقومات ذاتيتهم وتمايزهم عن غيرهم من الجماعات العرقية المشكلة للكيان البشري لمجتمعهم. ويأتي الدين الإسلامي كواحد من أظهر المقومات التي انصب عليها اهتمام الأوزبك البالغ، لا سيما في عهد المفتي محمد صديق الذي تم انتخابه كمفت لأوزبكستان في مارس عام ١٩٨٨؛ إذ راح محمد صديق يسعى جاهدا إلى فتح المساجد بحيث شهدت الأسابيع

---

[٦٠٨] راجع في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٤، ١٥٥، ٣١٧.

القليلة التي أعقبت توليه الإفتاء افتتاح الكثير منها. كما عمد المفتي الجديد إلى طباعة خمسين ألف نسخة من القرآن الكريم كخطوة أولى في سبيل غاية تغياها يتمحور هدفها الرئيسي حول وصول مصحف واحد على الأقل إلى كل منزل من منازل الأوزبك. وفضلاً عن ذلك فقد بدأ الإعدام لطباعة ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الأوزبكية، وعلى صعيد آخر فقد راحت مدرستا طشقند وبخارى الإسلاميتين تتباريان في نشر المعرفة الإسلامية، وتعليم القرآن الكريم. وقد نال محمد صديق شعبية جارفة لدى الأوزبك، على نحو هيأ لانتخابه كعضو في مجلس ممثلي الشعب خلال الانتخابات التي جرت في مارس عام ١٩٨٩[٦٠٩].

ومن ناحية أخرى وفي إطار الصحوة الدينية التي شهدتها أوزبكستان – في رحاب الجلاسنوست – نشأ حزب إسلامي يعرف بحزب النهضة الإسلامية Islamic Renaissance Party، وقد راح هذا الحزب – بطبيعة الحال – يدعو إلى تنظيم المجتمع الأوزبكي في شتى قطاعاته على هدى من المبادئ الإسلامية [٦١٠].

---

[٦٠٩] راجع في هذا المضمون: Akiner, Op. Cit., PP. ٢٢٤ – ٢٢٥.

[٦١٠] انظر بصدد هذا الحزب وغيره من الأحزاب الأوزبكية:

واستجابة لواقع قوامه نزعة عرقية متأججة لدى الأوزبك نشأت في أوزبكستان جبهة شعبية أطلق عليها "بيرليك" Pirlik أو الوحدة Unity، وقد راحت أهداف بيرليك تتمحور حول الحفاظ على هوية الأوزبك بشتى مقوماتها، وتأكيد موقعهم كجماعة مسيطرة بين سائر الجماعات العرقية المشكلة للكيان البشري لأوزبكستان. ولقد تأسست الجبهة الشعبية الأوزبكية (بيرليك) في طشقند خلال شهر نوفمبر عام ١٩٨٨، على يد كوكبة من المفكرين والمثقفين الأوزبك، وعلى رأسهم عبد الرحمن بولاتوف الأستاذ بجامعة طشقند. وقد بني الأوزبك جبهتهم الشعبية على غرار الجبهات الشعبية البلطيقية، ولا سيما الجبهة الشعبية الليتوانية سايوديس. وسرعان ما اكتسبت بيرليك شعبية هائلة، ذلك فضلاً عن استقطابها لحوالي نصف مليون أوزبكي ناصروها وأصبحوا أعضاء فيها [٦١١]. وتجدر الإشارة إلى أنه في بداية عام ١٩٩٠ نشأ حزب عرف بحزب إيرك Erk كامتداد لبيرليك، ويذكر اسم هذا الحزب باسم الحزب الوطني في

Kangas, Op. Cit., PP. ١٧٩ – ١٨٠.

[٦١١] Akiner, Op. Cit., P. ٢٢٣.

تركستان الذي كان قد تأسس وقت اندلاع الثورة البلشفية، ولم يعمر طويلاً؛ إذ سحقه البلاشفة. وهكذا فإن بيرليـك كانـت تؤكد إلحاحها في التمسـك بالماضـي، وتمجيـد الزعمـاء التاريخيين[٦١٢].

ومهما يكن الأمر فلقد كانت بيرليـك وراء العديـد مـن المظاهرات التي اندلعت في أوزبكستان بدءا من أواخر عـام ١٩٨٨، وهي المظاهرات التي أراد المتظاهرون من خلالها التأكيد على أن أوزبكستان للأوزبك، فخلال شهور ديسـمبر ١٩٨٨ وفبراير وأبريل مـن عـام ١٩٨٩ أدمـت طشـقند اضطرابات عنيفة؛ حيث راح الطلاب والعمال الأوزبك فـي الجامعات والمصانع ينتفضون مسلحين بالقضـبان الحديديـة والعصا وبعض الأسلحة الخفيفة، صابين جام غضبهم علـى كل من لا ينتمي إليهم، مهاجمين الأجانب أيا كانوا [٦١٣].

---

[٦١٢] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٤ – ١٩٥.

[٦١٣] انظر في هذا المضمون، نفس المرجع السابق، ص ١٤٨.

وفي ٢٣ مايو ١٩٨٩ شهدت مدينة كوسافاي القريبة من طشقند اضطرابات عرقية محدودة النطاق بين أفراد من الأوزبك ونظراء لهم من المسخص Meskhetian، وقد اندلعت هذه الاضطرابات على أثر قيام أحد المسخص بقلب سلة فراولة على بائعة أوزبكية، اعتراضا منه على ارتفاع سعر الفراولة. وقد أسفرت هذه الاضطرابات المحدودة – في بدايتها – عن مصرع شخص واحد، وإصابة ستين آخرين بجراح [٦١٤]. غير أن تطور الأحداث لم تنته عند هذا الحد ففي الثالث من يونيو ١٩٨٩ انتفض الأوزبك من جديد في مواجهة المسخص القاطنين لوادي فرغانة Ferghana؛ إذ راحت جماعات من الشباب الأوزبك المسلحين بالسلاسل والفئوس والعصا والقضبان الحديدية وعبوات المولوتوف تهاجم منازل القوقازيين مدمرة إياها؛ حيث قام المتظاهرون الأوزبك - خلال هذه الاضطرابات – بتدمير ما يربو على أربعمائة منزل، وسيارة [٦١٥].

---

(٦١٤) White, Op. Cit., P. ١٦١.

(٦١٥) Ibid.

وتتعين الإشارة إلى أن المسخص هم جماعة عرقية ينحدر أفرادها من أصل جيورجي، بيد أنهم اعتنقوا الإسلام وتتركوا جزئيا، ثم جاء ستالين واجتثهم من قراهم في أواسط جيورجيا في نوفمبر عام ١٩٤٤، متهما إياها بالخيانة، ثم راح يلقـي بهم في عرض طرق كازاخستان وأوزبكستان. ومنـذ عـام ١٩٥٦ لم يكف المسخص – على غرار التتار – عن النضال من أجل العودة إلى موطنهم الأصلي [٦١٦]. وقد سـمح لهـم خروشوف بالعودة إلى جيورجيا في عـام ١٩٥٨، غيـر أن ستين ألفًا منهم قد ظلوا في أوزبكستان، من بينهم اثنا عشـر ألفًا مكثوا في فرغانة [٦١٧].

على أية حال فإن المتظاهرين الأوزبك لم يكتفوا – خلال اضطرابات يونيـو ١٩٨٩ – بـإحراق وتـدمير ممتلكـات القوقازيين، وإنما شرعوا كذلك في مهاجمة المباني العامـة، ولا سيما مراكز الشرطة؛ حيث سعوا إلى الاسـتيلاء علـى الأسلحة، ثم قاموا باحتلال مبنى الحزب الشيوعي في مدينـة فرغانة، وأخذوا أميني الحزب كرهينتين، وبدت قوات الأمن

---

[٦١٦] دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٦.

[٦١٧] White, p. Cit., P. ١٦١.

عاجزة عن إيقاف الانتفاضة فخفت إلى دعمها وحدات مـن الجيش النظامي، بيد أن ذلك لم يحـل دون اتسـاع نطـاق الانتفاضة، ووصولها إلى مدينة كوكانـد Kokand؛ حيـث ظهرت الأسلحة الأوتوماتيكيـة فـي أيـدي المتظـاهرين، وهوجمت السكك الحديدية، وهدد المنتفضون بنسف المدينة، وقتل الرهائن إذا لم تستجب السلطات لمطالبهم المتمثلة فـي ترحيل المسخص إلى خـارج أوزبكسـتان، وسـرعان مـا اشتعلت الجمهورية بأسرها وراح عـدد الضـحايا يتزايـد، وشرع المتظاهرون الأوزبك في مهاجمة المخيمـات التـي أقامتها السلطات لإيواء المسخص وحمايتهم. وقـد أسـفرت أعمال العنف تلك عن مصرع مائة شخص، وجرح أكثر من ألف آخرين، ذلك فضلاً عن فرار ما يربو على الثلاثين ألفًـا من المسخص إلى الجمهوريات المجاورة [٦١٨].

---

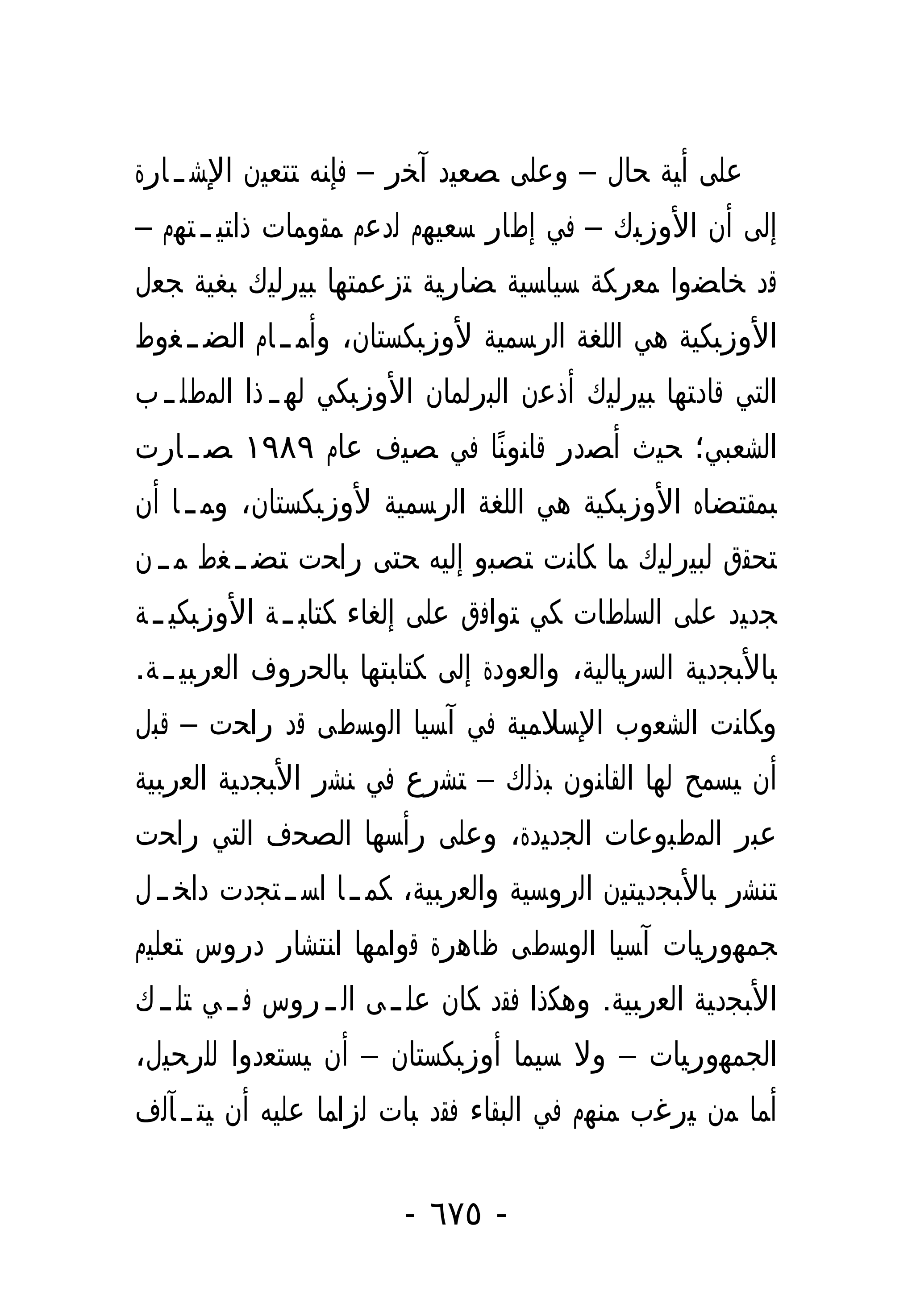
[٦١٨] انظر في هذا الصدد بالتفصيل: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٩، ١٥٠.

وبحلول عام ١٩٩٠ بدأ الأوزبك في مهاجمة جماعة عرقية أخرى تقطن جمهوريتهم، وقد دارت الدائرة هذه المرة على الأرمن المقيمين في سمرقند، غير أنه يبدو – على حد قول البعض – إن السلطات السوفييتية كانت قد تعودت على وجود اضطرابات عرقية في أوزبكستان، وبالتالي فإن انتفاضة سمرقند لم تلفت نظرها [٦١٩].

وهكذا فما أن خفت القبضة البلشفية الجبارة عن الشعوب السوفييتية – في إطار الجلاسنوست – حتى راح كل منها يكشر عن أنيابه في مواجهة الآخرين، وتلكم هي الصداقة بين الشعوب السوفييتية التي هي – في تقدير الزعماء السوفييت – أعظم ثمرات ثورة أكتوبر. ولعله يكون من حقنا – بعد كل ما قدمنا – أن نتساءل: إن لم يكن هذا الذي حدث في كازاخستان وأوزبكستان وغيرهما هو العداء فكيف يكون العداء إذن؟

---

[٦١٩] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق.


على أية حال – وعلى صعيد آخر – فإنه تتعين الإشـارة إلى أن الأوزبك – في إطار سعيهم لدعم مقومات ذاتيـتهم – قد خاضوا معركة سياسية ضارية تزعمتها بيرليك بغية جعل الأوزبكية هي اللغة الرسمية لأوزبكستان، وأمـام الضـغوط التي قادتها بيرليك أذعن البرلمان الأوزبكي لهـذا المطلـب الشعبي؛ حيث أصدر قانونًا في صيف عام ١٩٨٩ صـارت بمقتضاه الأوزبكية هي اللغة الرسمية لأوزبكستان، ومـا أن تحقق لبيرليك ما كانت تصبو إليه حتى راحت تضـغط مـن جديد على السلطات كي توافق على إلغاء كتابـة الأوزبكيـة بالأبجدية السريالية، والعودة إلى كتابتها بالحروف العربيـة. وكانت الشعوب الإسلامية في آسيا الوسطى قد راحت – قبل أن يسمح لها القانون بذلك – تشرع في نشر الأبجدية العربية عبر المطبوعات الجديدة، وعلى رأسها الصحف التي راحت تنشر بالأبجديتين الروسية والعربية، كمـا اسـتجدت داخـل جمهوريات آسيا الوسطى ظاهرة قوامها انتشار دروس تعليم الأبجدية العربية. وهكذا فقد كان علـى الـروس فـي تلـك الجمهوريات – ولا سيما أوزبكستان – أن يستعدوا للرحيل، أما من يرغب منهم في البقاء فقد بات لزاما عليه أن يتـآلف

مع لغة الدولة التي يقطنها. إن هـذا الـرفض مـن جانـب الشعوب غير الروسية للغة الروس هو – علـى حـد قـول البعض – مجرد مؤشر على هشاشة "شعار الصـداقة بـين الشعوب" [٦٢٠]، الذي طالما تشدق به الزعماء السوفييت.

وجملة القول في شأن ما تقدم أن النزعة العرقيـة لـدى الأوزبك قد بلغت أوج عنفوانها خلال عهـد جورباتشـوف، وفيما يتصل بالحركة العرقية الأوزبكية يمكن القـول إنهـا كانت على درجة يعتد بها من التنظيم، وإن كان يغلب علـى وسائلها طابع العنف. أما بصدد أهدافها فيتضح من خلال ما تقدم أنها كانت تتمحور حول أن تكون أوزبكستان للأوزبك، حتى وإن اقتضى الأمر طـرد سـائر الجماعـات العرقيـة الأخرى من الجمهورية الأوزبكية.

---

[٦٢٠] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

وهكذا يمكن القول بأن الحركة العرقية الأوزبكية كانت حركة استعلائية، وإن كانت قد غالت في الاستعلاء؛ إذ سعت إلى أهدافها بشتى السبل بما في ذلك الافتئات على حقوق الجماعات العرقية الأخرى القاطنة لأوزبكستان، بما في ذلك حقها في الوجود داخل الجمهورية الأوزبكية. أما فيما يتعلق بالانفصال عن الاتحاد السوفييتي فإنه لم يكن من بين الأهداف المعلنة للحركة العرقية الأوزبكية، ومرد ذلك – من وجهة نظرنا – إلى تعاظم قوة الشيوعيين داخل المؤسسات السياسية الرسمية في أوزبكستان؛ إذ كان على رأس هذه المؤسسات قاطبة الزعيم الأوزبكي الشيوعي المتعصب إسلام كريموف Islam Karimov، والذي لم يكن ليتقبل أية فكرة ينادي القائلون بها بالانفصال عن الاتحاد السوفييتي الذي هو بمثابة قلعة الشيوعية، ورمزها الرئيسي في العالم المعاصر.

ونظرا لما تقدم فقد كانت أوزبكستان من أواخر الجمهوريات السوفييتية إعلانًا لاستقلالها؛ حيث تم ذلك في ٥ سبتمبر عام ١٩٩١ [٦٢١]، وفي وقت بات واضحا فيه أن الاتحاد السوفييتي منهار لا محالة، وأنه لا سبيل البتة إلى بقائه.

---

(٦٢١) Kangas, Op. Cit., P. ١٧٨.

ومهما يكن الأمر فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها في النهاية، ألا وهي أن الصراعات الدامية التي انـدلعت بـين الجماعات العرقية القاطنة لأوزبكستان؛ قد جاءت لكي تؤكـد بجلاء على أن الصداقة بين الشعوب السوفييتية كانت مجرد شعار أجوف، ليس له سند من حقيقة، ولا ظل من واقع.

* * *

المطلب الثالث

الحركة العرقية في طاجيكستان

أولاً: تعريف بجمهورية طاجيكستان وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية طاجيكستان ١٤٣١٠٠ كيلو متـر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة دوشـانبي Dushanbe. وقد وصل عدد سكان الجمهورية – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – إلى حوالي ٥٠٩٢٦٠٣ نسمة [(٦٢٢)]، يتشكلون من ما يربو على الستة جماعات عرقية، أظهرها الطاجيك، والأوزبـك، والروس، والتتار، والقرقيز، والأوكرانيون.

ويوضح الجدول التالي عدد كل من هذه الجماعات حسب تعداد عام ١٩٨٩:

(٦٢٢) Olcott, Central Asia's Post – Empire Polities, Op. Cit., P. ٢٥٧.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الطاجيك	٣١٧٢٦٩١
الأوزبك	١٢٢٢٢٢٤
الروس	٤٠٧٤٠٠
التتار	٧٢٠٠٠٠
القرقيز	٥٠٩٢٦
الأوكرانيون	٤٠٧٤٠

جدول رقم (١٤)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بـ:

- جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٥.
- وكذلك: Olcott, Central Asia's Post – Empire Polities, Op. Cit., P. ٢٥٧.

ويتضح في ثنايا الجدول السابق أن الطاجيك يشكلون أغلبية يعتد بها بين كافة الجماعات التي تشاركون وطنهم؛ حيث تبلغ نسبتهم إلى جملة سكان طاجيكستان حوالي ٦٢,٣%، كما يلاحظ أن الأوزبك يشكلون كبرى الأقليات القاطنة للجمهورية الطاجيكية؛ إذ تبلغ نسبتهم إلى جملة سكان

الجمهورية حوالي ٢٤ %. وتجدر الإشارة إلى أن الطاجيـك ينحدرون من أصل إيراني، متفردين في ذلك عن باقي سكان آسيا الوسطى الذين ينحدرون من أصل تركي على نحو مـا أشرنا سلفًا. ويتكلم الطاجيك لغة تعرف باللغـة الطاجيكيـة، وتنتمي هذه اللغة إلى المجموعة اللغوية الإيرانيـة Iranian Family، وبالتالي فهي وثيقة الصلة باللغة الفارسـية التـي يتكلم بها الإيرانيون وبعض سكان أفغانسـتان. ولقـد كـان الطاجيك – حتى عام ١٩٢٧ – يكتبـون لغـتهم بالأبجديـة العربية، غير أن السلطات السوفييتية أصدرت – فـي ذلـك العام – قرارا يقضي بكتابة الطاجيكية بالأحرف اللاتينية، ثم سرعان ما عادت السلطات – في عام ١٩٤٠ – وأصـدرت قرارا آخر بمقتضاه أجبر الطاجيك على كتابة لغتهم بالأبجدية السريالية [٦٢٣]، ويدين الطاجين بالإسـلام؛ حيـث يعتنقـون المذهب السني [٦٢٤]. وقد شهدت طاجيكستان – خلال عهـد جورباتشوف – اتجاها قويا من جانب قطاع لا يستهان به من الطاجيك نحو الالتزام بالقيم والمبادئ الإسلامية. وقد تمخض

---

(٦٢٣) Payne, Op. Cit., P. ٢٥٩, ٢٦٣.

(٦٢٤) White, Op. Cit., P. ١٤١.

هذا الواقع – في البداية – عن ظهور تنظيمات سـرية، راح أعضاؤها يجندون طلاب المدارس والشباب العاطلين لتوزيع رسائل على أفراد الشعب الطاجيكي يحثونهم فيها على تنشئة أبنائهم على هدى من التعاليم الإسلامية. وشيئًا فشيئًا راحـت هذه التنظيمات تطفو على السطح، وانتشر أعضـاؤها فـي سائر ربوع طاجيكستان يعلمون الناس القرآن [٦٢٥].

ومع تزايد قوة الاتجاه الإسلامي في طاجيكستان ظهر إلى حيز الوجود تنظيم شعبي إسلامي واسع النطاق عرف بحركة المقاومة الإسـلامية Islamic Resistance Movement. وقد تمثل الهدف المحوري لهذه الحركة فـي إعـادة تنظـيم المجتمع الطاجيكي بشتى قطاعاته استنادا إلى أُسس إسلامية. وفي سبيل ذلك فقد شرع أنصار حركة المقاومة في محاربة الشيوعية بشتى الوسـائل، ومـن بينهـا اسـتخدام القـوة المسلحة[٦٢٦] على النحو الذي سنعرض له لاحقًا.

---

[٦٢٥] انظر في هذا المضمون: Payne. Op. Cit., P. ٢٧١.

[٦٢٦] انظر في هذا المضمون:

ثانيا: الحركة العرقية الطاجيكية خـلال عهـد جورباتشوف:

يتضح في ثنايا ما تقدم أن الطاجيك قد راحوا – في ظـل البريسترويكا – يتجهون تترا نحو الالتزام بتعاليم الإسـلام، باعتباره واحدا من أبرز مقومات هويتهم. والحق أن اهتمـام الطاجيك بمقومات هويتهم لم يقتصر على الدين، وإنما شمل كذلك اللغة والثقافة، ففي رحاب ما أفرزته الجلاسنوست من مناخ ليبرالي راح لفيف يعتد به من أساتذة الجامعة والمثقفين الطاجيك يطالبون بأن تصبح اللغة الطاجيكيـة هـي اللغـة الرسمية لطاجيكستان، وأن تستخدم اللغـة الروسـية كلغـة للتواصل بين الأعراق فحسب، وسرعان ما لاقى هذا المطلب تأييدا واسع النطاق من جانب الشعب الطاجيكي. وعلى سبيل المثال ففي ٢٤ فبراير عام ١٩٨٩ تجمع مئات من الطـلاب الطاجيك في ميدان لينين بوسط دوشانبي مطالبين بأن تكـون لغتهم هي اللغة الرسمية للجمهورية التي تحمل اسمهم، وقـد رفع المتظاهرون شعارات أظهرها:

Tadjbakhsh, Shahrbanou, Tajikistan: From Freedom to War, Current History, April. ١٩٩٤, PP. ١٧٣ – ١٧٥.

"إن الطاجيكية سوف تصبح اللغة الرسمية للدولة"، وكذا: "نحن نطالب بإحياء الثقافة الطاجيكية القديمة" [٦٢٧].

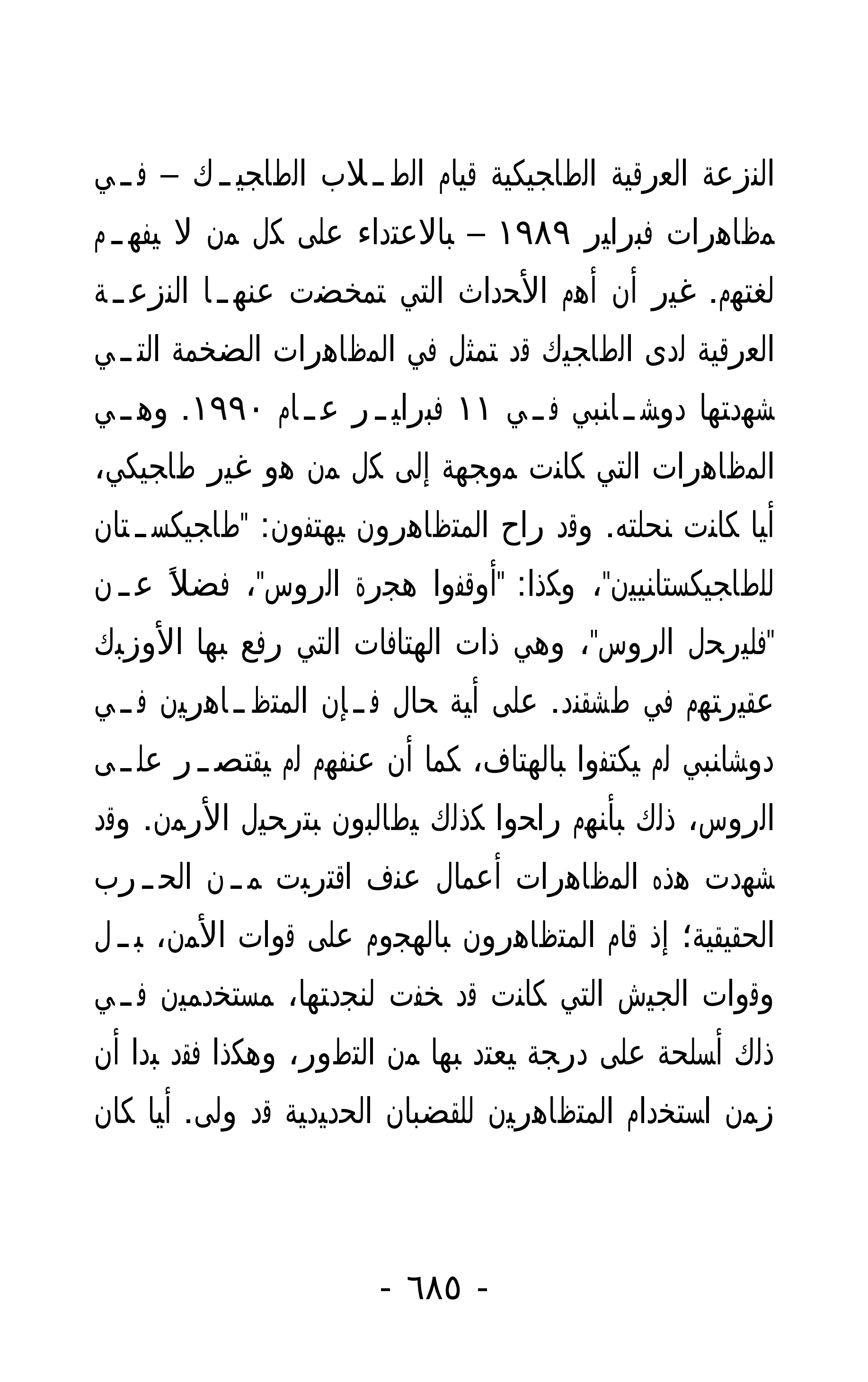
وتتعين الإشارة إلى أنه أمام هذا الاتجاه الشعبي الجـارف لم يكن بوسع السلطات الطاجيكية سوى الاستجابة لمطلبـه، ففي ٢٢ يوليو ١٩٨٩ صدر في طاجيكستان قـانون جديـد أصـبحت بمقتضـاه الطاجيكيـة هـي اللغـة الرسـمية لطاجيكستان[٦٢٨]. ولعله مما يستحق التنويـه أن الطاجيـك كانوا قد راحوا – حتى قبل صدور قانون يوليو عـام ١٩٨٩ – يشرعون في تعليم الأبجدية العربية على نطـاق واسـع، شأنهم في ذلك شأن سائر شعوب آسيا الوسطى.

وعلى صعيد آخر فإن النزعة العرقية لدى الطاجيـك لـم تكن أقل تأججا من النزعة العرقية لدى كـل مـن الكـازاخ والأوزبك. وقد تجلى أول مظاهر التعبير عن تلك النظرة في يونيو عام ١٩٨٦؛ حيث شهدت دوشانبي مظـاهرة ضـمت بضعة آلاف من الطاجيك، راحوا يهاجمون كل من بدا لهـم أنه غير طاجيكي. كذلك فمن المظاهر التـي أكـدت تـأجج

---

(٦٢٧) Payne, Op. Cit., PP. ٢٦٨ – ٢٧٠.

(٦٢٨) دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٦.



النزعة العرقية الطاجيكية قيام الطلاب الطاجيك – في مظاهرات فبراير ١٩٨٩ – بالاعتداء على كل من لا يفهم لغتهم. غير أن أهم الأحداث التي تمخضت عنها النزعة العرقية لدى الطاجيك قد تمثل في المظاهرات الضخمة التي شهدتها دوشانبي في ١١ فبراير عام ١٩٩٠. وهي المظاهرات التي كانت موجهة إلى كل من هو غير طاجيكي، أيا كانت نحلته. وقد راح المتظاهرون يهتفون: "طاجيكستان للطاجيكستانيين"، وكذا: "أوقفوا هجرة الروس"، فضلاً عن "فليرحل الروس"، وهي ذات الهتافات التي رفع بها الأوزبك عقيرتهم في طشقند. على أية حال فإن المتظاهرين في دوشانبي لم يكتفوا بالهتاف، كما أن عنفهم لم يقتصر على الروس، ذلك بأنهم راحوا كذلك يطالبون بترحيل الأرمن. وقد شهدت هذه المظاهرات أعمال عنف اقتربت من الحرب الحقيقية؛ إذ قام المتظاهرون بالهجوم على قوات الأمن، بل وقوات الجيش التي كانت قد خفت لنجدتها، مستخدمين في ذلك أسلحة على درجة يعتد بها من التطور، وهكذا فقد بدا أن زمن استخدام المتظاهرين للقضبان الحديدية قد ولى. أيا كان

الأمر فقد أسفرت هذه المجابة عن سقوط مـا يربـو علـى العشرين قتيلاً، ونحو ستمائة جريح [٦٢٩].

وتجدر الإشارة بصـدد العلاقـات بـين الأعـراق فـي طاجيكستان إلى أن ثمة مشاعر غير ودية تسود العلاقات بين الطاجيك والأوزبك، سواء داخل الدولة الطاجيكية، أو داخـل الدولة الأوزبكية. ففي طاجيكستان يعـيش – كمـا أسـلفنا الإشارة – حوالي ١٢٢٢٢٢٤ أوزبكي يشكلون ٢٤ % مـن عدد سكانها. ويعامل الأوزبـك فـي طاجيكسـتان معاملـة الدخلاء، باعتبارهم – في رأي الطاجيك – يمثلون حضـارة دنيا؛ إذ يعتبر الطاجيـك أنفسـهم أبنـاء الثقافـة الفارسـية الكلاسيكية، ويعتبرون جيرانهم برابرة يتعين عليهم إن هـم أرادوا العيش فوق الأراضي الطاجيكيـة أن يقبلـوا بثقافـة الطاجيك ولغتهم، وإلا فليرحلوا. كذلك فإن الطاجيك يبـدون استياءهم إزاء الأوضاع التي يعيشها بنـو نحلـتهم داخـل الأراضي الأوزبكيـة؛ حيـث يوجـد حـوالي ٩٣١١٠٧٣ طاجيكي يعيشون مع ما يربو علـى ١٤ مليـون أوزبكـي.

---

[٦٢٩] راجع بصدد هذه المظاهرات بالتفصيل: المصدر السابق، من ص ١٤٧ إلى ص ١٥٥.

ويشكو الطاجيك في أوزبكستان مما يطلقون عليه: "الضغوط الثقافية"، وكذا "الإمبريالية الأوزبكية". من جانب آخـر فـإن ثمة خلافًا بين طاجيكستان وأوزبكستان بصدد الأحقيـة فـي السيطرة على مدينتي بخـارى وسـمرقند؛ حيـث يطالـب الطاجيك بعودة المدينتين إلى طاجيكستان، باعتبار أن الثقافة السائدة فيهما هي الثقافة الطاجيكية [٦٣٠].

وجملة القول في شأن ما تقدم أن النزعة العرقيـة لـدى الطاجيك قد بلغت ذروة تأججها خلال عهـد جورباتشـوف، غير أن الحركة العرقية الطاجيكية – شأنها في ذلـك شـأن الحركات العرقية في جمهوريات آسيا الوسـطى قاطبـة – كانت تفتقر إلى التنظيم الفعال، كما كان زعماؤهـا ضـئيلي الخبرة السياسية. وفضلاً عن ذلك فقد اتسمت تلـك الحركـة بالتشتت؛ إذ كان ثمة تنظيمات عديدة – أغلبها محدود النطاق – تشرذم فيما بينها المثقفون الطاجيك. وعلى أية حـال فقـد كان أظهر هذه التنظيمات قاطبة حركة المقاومة الإسـلامية، تلك الحركة التي لقيت مبادؤها رواجا هائلاً لـدى الطاجيـك وبالتالي فقد كونت قاعدة شعبية لا يستهان بها [٦٣١].

---

[٦٣٠] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٥٨.

[٦٣١] انظر في هذا المعنى: adjbakhsh, Op. Cit., P. ١٧٣.

وعلى أية حال فإنه يمكن القول إن الهدف المحوري للحركة العرقية الطاجيكية كان يتمثل في تأكيد الموقع المسيطر للطاجيك داخل جمهوريتهم، وبالتالي فقد كانت حركة استعلائية، وإن كانت قد غالت في الاستعلاء، مطالبة بإبعاد كل من هو ليس طاجيكيا عن طاجيكستان، على اعتبار أن طاجيكستان للطاجيكستانيين وفقط للطاجيكستانيين، أما فيما يتصل بالانفصال عن الاتحاد السوفييتي فيمكن القول إنه لم يكن من بين أهداف الطاجيك في الفترة القصيرة؛ إذ إن الحركة العرقية الطاجيكية كانت – من وجهة نظرنا – لا طاقة لها بتبني مثل هذا الهدف، نظرا لتشتتها وضعفها التنظيمي، وضحالة الخبرة السياسية لزعمائها، ذلك فضلاً عن سيطرة شيوعيين متعصبين للماركسية وللاتحاد السوفييتي على مقاليد الأمور في طاجيكستان، وعلى رأس هؤلاء جميعا الزعيم الطاجيكي الممالئ بالكريملين رحمون نبييف Rahmon Nabiev، كذلك فقد كان الشيوعيون يشكلون ٩٥% من جملة عدد أعضاء البرلمان الطاجيكي. ويتعين التنويه إلى أن هذا البرلمان قد اجتمع في جلسة طارئة غداة انتفاضة دوشانبي – في فبراير ١٩٩٠ – وقرر

إعادة تنصيب تماثيل لينين التي كان الطاجيك قد اقتلعوها من ميادين عاصمتهم أثناء تلك الانتفاضة [٦٣٢].

ونظرا لكل ما تقدم فقد كانت طاجيكستان من بين أواخـر جمهوريات الاتحاد السوفييتي إعلانًا لاستقلالها؛ إذ تم ذلـك في شهر سبتمبر عام ١٩٩١؛ أي في وقت كـان قـد بـات واضحا للجميع فيه أن الاتحاد السوفييتي لا محالـة متفكـك على النحو الذي سنعرض له لاحقًا.

غير أنه لا يفوتنا في النهايـة أن نشـير إلـى أن حربـا ضروسا بدأت رحاها في الدوران غداة استقلال طاجيكستان بين قوات النظام الطاجيكي الشيوعي من جهة، وقوات حركة المقاومة الإسلامية من جهة أخـرى؛ إذ تـرفض الحركـة استمرار النظام الشيوعي في حكم طاجيكستان، وتأبى إلا أن ينظم المجتمع الطاجيكي بشتى قطاعاته علـى هـدى مـن المبادئ الإسلامية، وسرعان ما تدخلت روسيا إلـى جانـب نبييف كما راح الزعيم الأوزبكي الشيوعي كريموف يسـانده خوفًا من انتشاره المد الإسلامي إلى أوزبكستان، فـي حـين

---

[٦٣٢] انظر في هذا المضمون: محمد عبد القادر أحمد، مرجـع سـبق ذكره، ص ٢٣٠.

راحت أفغانستان تساند حركة المقاومة وتدعمها بالسلاح، أما إيران فقد اكتفت بالدعم السياسي العلني، والدعم العسكري في السر. وحتى وقتنا هذا لم يحسم الصراع بين رحمون وحركة المقاومة، ذلك الصراع الذي أسفر في عام ١٩٩٢ وحده عن مصرع عشرين ألف فـرد، وتشـريد ١٠ % مـن سـكان طاجيكستان [٦٣٣].

---

[٦٣٣] انظر في هذا الصدد بالتفصـيل: Tadjbakhsh, Op. Ciot., PP. ١٧٣ – ١٧٧.

المطلب الرابع
الحركة العرقية في تركمانستان

أولاً: تعريف بجمهورية تركمانستان وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية تركمانستان ٤٨٨١٠٠ كيلو متـر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة عشق أباد Ashkhabad، ويبلغ عدد سكان الجمهورية – حسب تعداد عـام ١٩٨٩ – حوالي ٣٥٢٢٧١٧ نسمة [٦٣٤]، يتشكلون من ما يربو علـى السبع جماعات عرقيـة، أظهرهـا التركمـان، والـروس، والأوزبك، والقرقيز، والكـازاخ، والتتـار، والأوكرانيـون. ويمثل التركمان أغلبية يعتد بها في تركمانستان؛ إذ يشـكلون – كما سيتضح من الجدول التالي – حوالي ٧٢ % من سكان الجمهورية التركمانية.

---

(٦٣٤) Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op, Cit., P. ٢٥٧.

ويقدم الجدول التالي سردا لعدد كل من الجماعات العرقية السبع الرئيسية في تركمانستان حسب تعداد عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
التركمان	٢٥٣٦٣٥٦
الروس	٣٣٣٩٧٣
الأوزبك	٣١٧٠٤٤
القرقيز	٨٧٩٩٣
الكازاخ	٧٠٤٥٤
التتار	٣٨٩٩٧
الأوكرانيون	٣٥٩٩٧

جدول رقم (١٥)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بالمراجع الآتية:

- جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٦.
- Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., P. ٢٥٧. Nissman, David, Turkmenistan (UN) Tranformed, Current History, April, ١٩٩٤, p. ١٨٤.

وينحدر التركمان – شأنهم في ذلك شأن معظم سكان آسيا الوسطى – من أصل تركي، كما أن اللغة التركمانية تنتمـي إلى مجموعة اللغات التركية، وقد كانت هذه اللغة حتى عـام ١٩٢٦ تكتب بالحروف العربية، بيد أن السلطات الســوفييتية أصدرت – في ذلك العام – قرارا أجبر التركمان بمقتضـاه على كتابة لغتهم بالأحرف اللاتينية، ثم عادت هذه الســلطات – عام ١٩٣٨ – وأصدرت قرارا جديدا يقضي بكتابة اللغـة التركمانية بـالحروف الســريالية [٦٣٥]. ويـدين التركمـان بالإسلام، ويعتنقون – حالهم في ذلك حال أغلب سكان آســيا الوسطى – المذهب السني، وتتعين الإشارة إلى أن التركمان قد شاركوا بفاعلية في حركة البسماتشي المناهضة للبلاشـفة خلال عقد العشرينيات؛ حيث قاد كفاحهم الزعيم التركمـاني محمد قربان خان. وعلى صعيد آخر فقد شـنت الســلطات السوفييتية حملة عنيفة معادية للإسلام في تركمانستان، ويكفي لكي ندلل على ضراوة هذه الحملة أن نذكر أن عدد المساجد

---

[٦٣٥] انظر في هذا المضمون:

Bohrk, Annette, Turkmen, in: Smith, Graham (ed.), Op. Cit., PP. ٢٣٠ – ٢٣١.

في تركمانستان الذي كان يبلغ الخمسمائة مسجد عام ١٩١٧ قد انخفض إلى أربعة مساجد فقط عام ١٩٧٩ [٦٣٦].

وأيا كان الأمر فإن التركمان – شأنهم في ذلك شأن سائر مسلمي آسيا الوسطى – ظلوا قابضين على هويتهم، ملتفين حول مقومات ذاتيتهم، وبالتالي فإن كافة السياسات التي انتهجها الكريملين بغية تقويض هذه المقومات لم تفلح في بلوغ غايتها. ويؤكد ذلك – على سبيل المثال – ما شهدته تركمانستان في ظل الجلاسنوست – من اتجاه واسع النطاق من جانب التركمان نحو تأكيد هويتهم الإسلامية، وما صاحب ذلك من مظاهر أبرزها التوسع في بناء المساجد، وتعليم القرآن، والعمل على ترجمة معانيه إلى اللغة التركمانية [٦٣٧].

---

(٦٣٦) Ibid.

(٦٣٧) Ibid. P. ٢٣٩.

ثانيا: الحركة العرقية التركمانية خـلال عهـد جورباتشوف:

إن ملاحظة واقع الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة فـي تركمانستان خلال عهد جورباتشوف تشير إلـى أن النزعـة العرقية لدى التركمان لم تكن تختلف كثيرا – من حيث حدتها – عن النزعات العرقية لسائر مسلمي آسيا الوسطى، كـذلك فإن الحركة العرقية التركمانية كانت – من حيـث طبيعتهـا ووسائلها وأهدافها – مشابهة – إلـى حـد كبيـر – لكافـة الحركات العرقية التي ظهرت في باقي جمهوريـات آسـيا الوسطى. فبصدد النزعة العرقية لدى التركمان – بـادئ ذي بدء – نجد أنها قد تنامت إلى حد كبير في ظل البريسترويكا. وقد تمثل أبرز مظاهر التعبير عنها في المظـاهرات التـي شهدتها عشق آباد، وكذا نبيت داج Nebitdag خلال شـهر مايو عام ١٩٨٩، تلك المظاهرات التي شابتها أعمال عنـف طالت أشخاص وممتلكات أولئك الذين ليسوا من التركمـان، وعلى رأسهم القوقازيين والأرمن. ولقـد راح المتظـاهرون التركمان في كل من عشق آباد ونبيت داج يهتفون بشعارات

تحمل ذات مضـمون الشـعارات التـي أطلقهـا الكـازخ، والأوزك، والطاجيك في مظاهراتهم التي شهدتها ألمـا آتـا، وطشقند، ودوشانبي؛ إذ تمثل أبرز الشـعارات التـي رفـع التركمان بها عقيرتهم في: "لا للقوقازيين.. ولا للأرمن فـي تركمانستان"، وأيضا: "فليرحل الروس"، وكذا: "تركمانسـتان للتركمانستانيين" [٦٣٨]. إنها – إذًا – ذات الشـعارات التـي كانت تدوي في شتى جمهوريـات آسـيا الوسـطى، تلـك الشعارات التي أوضحت كم كانت محـض أكذوبـة عبـارة "الصداقة بين الشعوب السوفييتية"، التي لم يكـف الزعمـاء السوفييت عن ترديدها طيلة تاريخهم.

على أية حال فإن العنف كان طابع مظاهرتي عشق آبـاد ونبيت داج؛ حيث أسفرت تينك المظاهرتـان عـن حـدوث خسائر مادية جسيمة، أما الخسائر فـي الأرواح فلـم تكـن ضخمة [٦٣٩]. ذلك بصدد النزعة العرقية لدى التركمان، أمـا فيما يتصل بالحركة العرقية التركمانية فإنها – حالها في ذلك

---

[٦٣٨] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٨، ١٤٩، ١٥٥.

[٦٣٩] نفس المرجع السابق، ص ١٤٩.

حال كافة الحركات العرقية في آسيا الوسطى – كانت تفتقر إلى التنظيم الفعال؛ إذ اتسمت بالتشتت، وضآلة الخبرة السياسية لزعمائها؛ حيث كان ثمة أحزاب وتنظيمات سياسية واجتماعية متعددة، غير أنها كانت محدودة القاعدة. وقد كان أظهر هذه التنظيمات حزب تركمانستان الديمقراطي The Democratic Party of Trukmenistan، وهو الحزب الذي غير اسمه عام ١٩٩٠ إلى الحركة الشعبية، وكانت أهداف تتمحور حول الحفاظ على اللغة التركمانية، والدعوة إلى أن تصبح اللغة الرسمية لتركمانستان [٦٤٠].

أما فيما يتصل بطبيعة الحركة العرقية التركمانية فيمكن القول إنها كانت حركة استعلائية؛ إذ كانت تسعى – كما يتضح مما تقدم – إلى أن يهيمن التركمان تماما على مقاليد الأمور في وطنهم. كذلك يمكن القول إن هدفًا كالانفصال عن الاتحاد السوفييتي لم يكن من بين أهداف الحركة التركمانية في الأجل القصير، ولعل مرد ذلك إلى ضعف تلك الحركة وعدم كفاية قياداتها من جهة، وهيمنة الاتجاه الشيوعي الممالئ للكريملين على مقاليد السلطة في تركمانستان من جهة أخرى.

---

[٦٤٠] انظر في هذا المضمون: Nissman, Op. Cit., P. ١٨٤

ونظرا لما تقدم فإن تركمانستان – شأنها في ذلك شأن كافة جمهوريات آسيا الوسطى – من أواخر الجمهوريات السوفييتية إعلانًا لاستقلالها؛ إذ تم ذلك في أعقاب فشل الانقلاب الذي حدث في مواجهة جورباتشوف في أغسطس عام ١٩٩١، وفي وقت كان قد بات واضحا فيه أنه لا أمل في استمرار الاتحاد السوفييتي كدولة موحدة، وذلك على النحو الذي سنعرض له لاحقًا.

* * *

المطلب الخامس
الحركة العرقية في قرقيزيا

أولاً: تعريف بجمهورية قرجيزستان وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية قرجيزستان ١٩٨٥٠٠ كيلو متـر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة بيشيك Bishkek (فرونذ Frunze سابقًا)، وقد وصل عدد سكان الجمهورية القرجيزية – حسب تعـداد عـام ١٩٨٩ – إلـى حـوالي ٤٢٥٧٧٥٥ نسمة[٦٤١]، يتشكلون من ما يربو على الست جماعات عرقية أظهرها القرجيز، والـروس، والأوزبـك، والأوكرانيـون، والألمان، والتتار.

---

(٦٤١) Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., P. ٢٥٧.

ونقدم في الجدول التالي سردا لأعـداد كـل مـن هـذه الجماعات الست داخل قرجيزستان حسب تعداد عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
القرقيز	٢٢٣١٠٦٣
الروس	٩٣٦٧٠٦
الأوزبك	٥٥٣٥٠٨
الأوكرانيون	١٢٧٧٣٢
الألمان	٨٥١٥٥
التتار	٦٩٩٩٥

جدول رقم (١٦)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بالمراجع الآتية:

- جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٦.
- Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., P. ٢٥٧.
- Nissman, David, Free Kyrgzyztan: problems and Solutions, Current History, April, ١٩٩٤, p. ١٧٠.

ويتضح من الجدول السابق أن القرجيز يمثلون أغلبية في وطنهم، وإن كانت هذه الأغلبية ليست فائقة؛ إذ لا يشـكلون سوى ٥٢,٤ % فقط من إجمالي سكان قرجيزيا. كما يتضح من هذا الجدول أن الروس يشكلون كبرى الأقليات القاطنـة للجمهورية القرجيزية؛ إذ تصل نسبتهم إلى حـوالي ٢٢ % من جملة سكان الجمهورية.

ويرتد ظهور القرجيز – سلاليا – إلـى اخـتلاط ثلاثـة أجناس هي المنغـول، والأتـراك، وسـلالة ثالثـة تعـرف بالكيبتشاك Kypchak [٦٤٢]. ويتكلم القرجيز لغة تنتمي إلى مجموعة اللغات التركية، وقد كانت هذه اللغة أيضـا تكتـب بالأحرف العربية حتى عام ١٩٢٨، عندما أصدرت السلطات السوفييتية قرارا يقضي بكتابة القرجيزية بالحروف اللاتينية. وقد استمر القرجيز يكتبون بالحروف اللاتينية حتـى عـام ١٩٤١ عندما أصدرت السلطات السـوفييتية قـرارا جديـدا أجبروا بمقتضاه على كتابة لغتهم بالأبجدية السريالية، ويدين القرجيز بالإسـلام، ويعتنقـون المـذهب السـني، ويؤكـد

(٦٤٢) Crisp, Simon, Kirgiz, in: Smith, Graham (ed.), Op. Cit., P. ٢٤٦.

المشتغلون بالشئون القرجيزية على أن النزعـة الإسـلامية ظلت راسخة لدى القرجيز على الرغم من كافـة الحمـلات المعادية للإسلام التي شنها قاطنو الكـريملين إزاء مسـلمي الاتحاد السوفييتي [٦٤٣].

ثانيا: الحركات العرقية القرجيزية خلال عهـد جورباتشوف:

لم تكن النزعة العرقية لدى القرقيـز أقـل تأججـا مـن النزعات العرقية لدى غيرهم من الجماعات المسلمة في آسيا الوسطى، كما أن الحركة العرقية القرجيزية تكاد تتطابق من حيث طبيعتها وأهدافها ووسائلها وقوتها مع كافة الحركـات العرقية التي ظهرت في باقي جمهوريات آسيا الوسطى. على أية حال فإن تأجج النزعة العرقية لدى الطاجيك قد بان جليـا من خلال عديد من المظاهرات التي قام بها القرجيـز بغيـة الدفاع عن هوية جمهوريتهم، وتأكيد سيطرتهم على مقاليـد الأمور فيها. ويتمثل أبرز هذه المظاهرات في المظاهرة التي قام بها الطلاب القرجيز فـي أكتـوبر عـام ١٩٨٦ داخـل

---

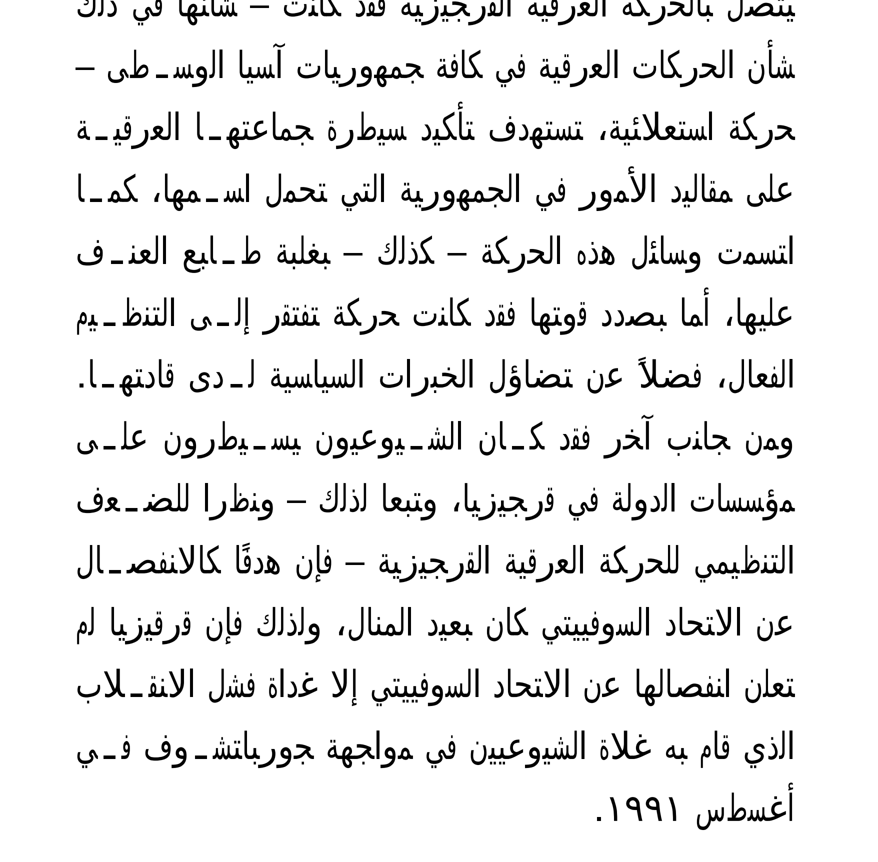
[٦٤٣] راجع في هذا المضمون تفصيلاً: Ibid., PP. ٢٤٨ – ٢٤٩.

العاصمة فرونذ؛ حيث راحوا خلالها يهـاجمون كـل مـن لا ينتمي إلى نحلتهم، ولم يكد يمضي على ذلك بضعة شهور حتى عاود الطلاب القرجيز تلك الانتفاضة التي قاموا بها في يناير عام ١٩٩٠، إثر سماعهم لنبأ غير مؤكد عن أن لاجئين روس فارين من الحرب الأهلية في أذربيجان – آنذاك – في طريقهم إلى قرجيزستان. ولقد راح القرجيز وقتذاك يحتلـون الأراضي الخالية في فرونذ، والتي اشتبهوا في أن السـلطات عازمة على توطين اللاجئين فيها، ثم قام المتظاهرون ببنـاء أكواخ سكنوها ونظمـوا أنفسـهم للـدفاع عنهـا، وقـاموا بمظاهرات كثيفة، راحوا خلالها يرددون ذات الشعارات التي كان يرددها غيرهم من أبناء آسيا الوسطى، وعلى رأس هذه الشـعارات "فليرحـل الـروس"، وكـذا "قرجيزسـتان للقرجيز"[٦٤٤]. ولم يكد يمضي على ذلك بضعة أشهر حتـى كانت منطقة أوش مسرحا لمعارك عرقية أخـرى خاضـها القرجيز، وقد دارت الدائرة هذه المرة على الأوزبك الـذين يقيمون بين ظهرانيهم [٦٤٥].

---

[٦٤٤] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٨، ١٥٢، ١٥٥.

[٦٤٥] المرجع السابق، ص ١٥٢.



وهكذا فإن قرجيزستان لم تكن بمستثناة؛ مما شهدته كافة جمهوريات آسيا الوسطى من صراعات عرقية، أما فيما يتصل بالحركة العرقية القرجيزية فقد كانت – شأنها في ذلك شأن الحركات العرقية في كافة جمهوريات آسيا الوسطى – حركة استعلائية، تستهدف تأكيد سيطرة جماعتها العرقية على مقاليد الأمور في الجمهورية التي تحمل اسمها، كما اتسمت وسائل هذه الحركة – كذلك – بغلبة طابع العنف عليها، أما بصدد قوتها فقد كانت حركة تفتقر إلى التنظيم الفعال، فضلاً عن تضاؤل الخبرات السياسية لدى قادتها. ومن جانب آخر فقد كان الشيوعيون يسيطرون على مؤسسات الدولة في قرجيزيا، وتبعا لذلك – ونظرا للضعف التنظيمي للحركة العرقية القرجيزية – فإن هدفًا كالانفصال عن الاتحاد السوفييتي كان بعيد المنال، ولذلك فإن قرقيزيا لم تعلن انفصالها عن الاتحاد السوفييتي إلا غداة فشل الانقلاب الذي قام به غلاة الشيوعيين في مواجهة جورباتشوف في أغسطس ١٩٩١.

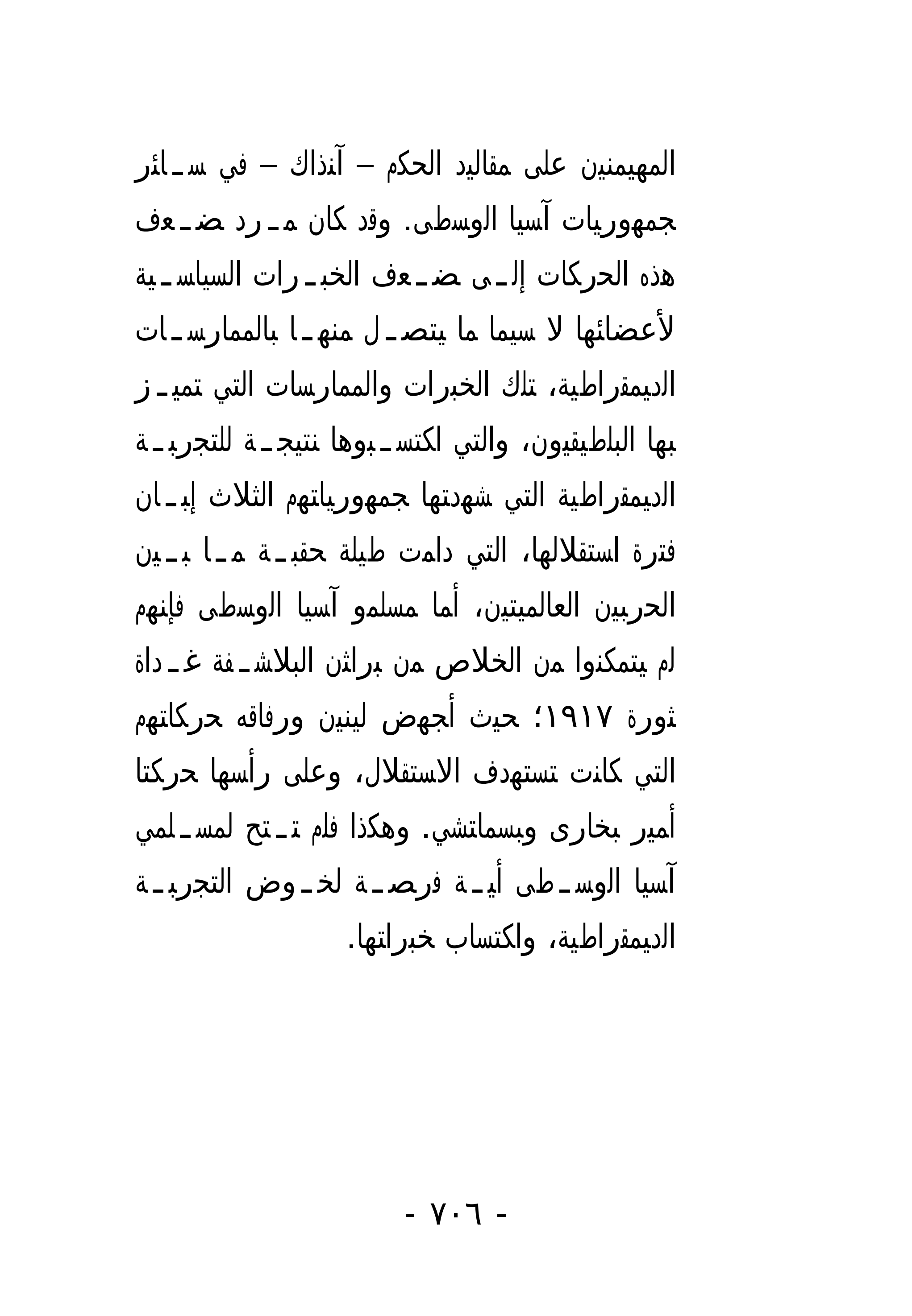
* * *

تعقيـــب:

بعد أن فرغنا من التعريف بالحركات العرقية في منطقـة آسيا الوسطى خلال عهد جورباتشوف، نقدم فيما يلي أظهـر الملاحظات التي وقفنا عليها بصددها:

١- إن شعوب آسيا الوسطى ظلت قابضة على هويتها، عاضة بالنواجذ الكريملين بغية ترويسها، وبـرغم حملاتهم الضارية التي استهدفت تقويض مقومـات ذاتيتها وعلى رأسها الدين الإسلامي، وهكذا فـإن مئات السنين من حكم القياصرة، وعشرات السـنين من حكم البلاشفة لم تفلح في طمس الهوية العرقية لشعوب آسيا الوسطى.

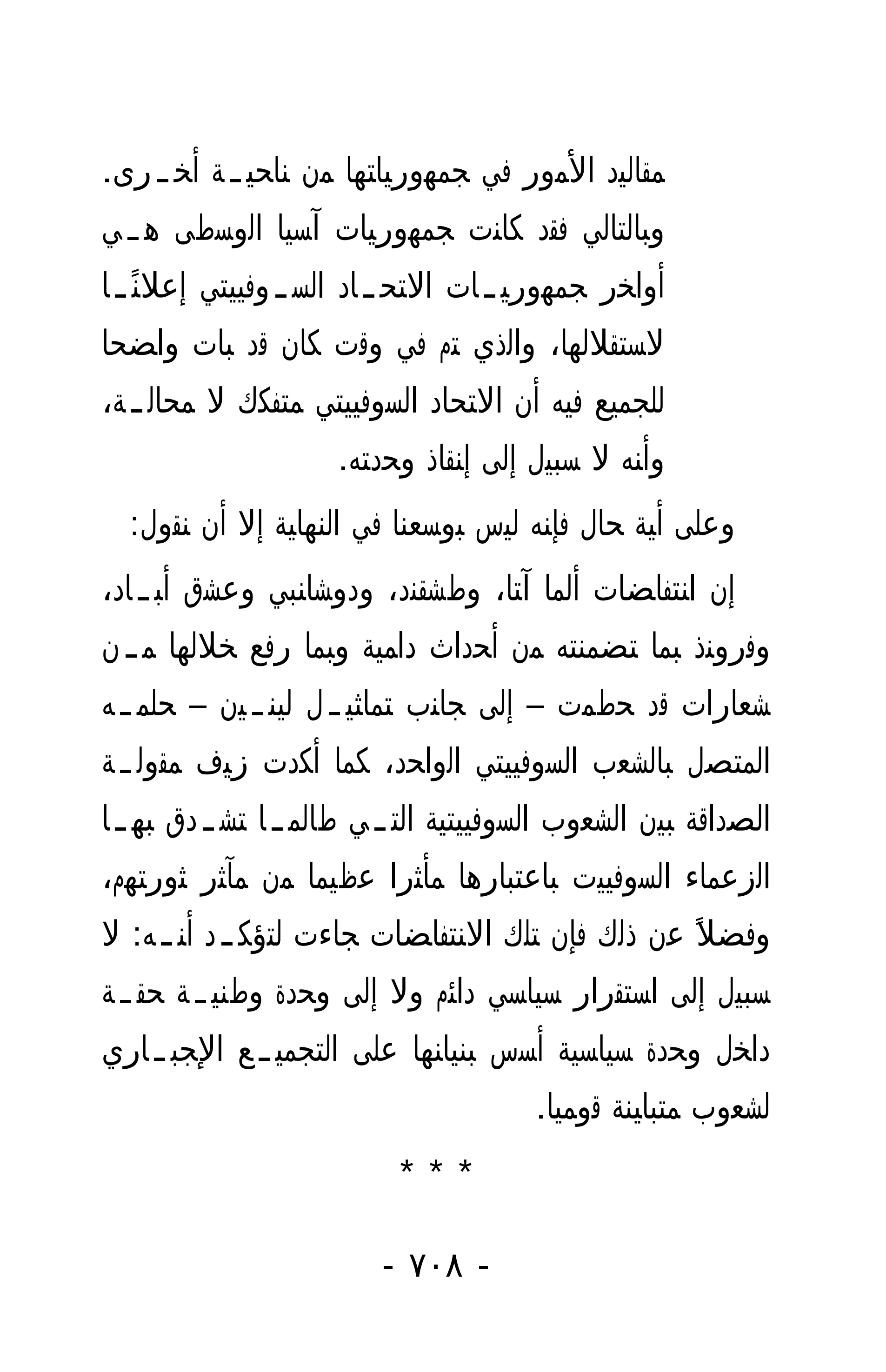
٢- إن النزعة العرقية لدى شعوب آسيا الوسـطى قـد بلغت أوج تأججها، مع إدراك هـذه الشـعوب أن قبضة الكـريملين عليهـا قـد خفـت فـي ظـل البريسترويكا والجلاسنوست، ومع ذلك فـإن هـذه النزعة المتأججة لم تتمخض عن ظهور حركـات عرقية قوية قادرة على مصارعة غلاة الشـيوعيين



المهيمنين على مقاليد الحكم – آنذاك – في سـائر جمهوريات آسيا الوسطى. وقد كان مـرد ضـعف هذه الحركات إلـى ضـعف الخبـرات السياسـية لأعضائها لا سيما ما يتصـل منهـا بالممارسـات الديمقراطية، تلك الخبرات والممارسات التي تميـز بها البلطيقيون، والتي اكتسـبوها نتيجـة للتجربـة الديمقراطية التي شهدتها جمهورياتهم الثلاث إبـان فترة استقلالها، التي دامت طيلة حقبـة مـا بـين الحربين العالميتين، أما مسلمو آسيا الوسطى فإنهم لم يتمكنوا من الخلاص من براثن البلاشـفة غـداة ثورة ١٩١٧؛ حيث أجهض لينين ورفاقه حركاتهم التي كانت تستهدف الاستقلال، وعلى رأسها حركتا أمير بخارى وبسماتشي. وهكذا فلم تـتح لمسـلمي آسيا الوسـطى أيـة فرصـة لخـوض التجربـة الديمقراطية، واكتساب خبراتها.

٣- إن الحركات العرقية في جمهوريات آسيا الوسطى قاطبة كانت حركات استعلائية، استهدفت كل منها تأكيد الوضع المسيطر لجماعتها داخل جمهوريتها، حتى وإن اقتضى الأمر الافتئات على حقوق سائر الجماعات العرقية الأخرى القاطنة لتلك الجمهورية، ومن هنا فقد رفعت هذه الحركات شعارات مثل: "كازاخستان للكازاخستانيين"، و"أوزبكستان للأوزبكستانيين".. إلخ، وكذا: "لا للقوقازيين"، "فليرحل الروس عن أراضينا". ولم تكتف تلك الحركات برفع الشعارات، وإنما راحت تصب جام غضبها على كل من يقطن جمهوريتها ولا ينتمي لجماعتها العرقية، وبالتالي فقد غلب طابع العنف على وسائلها في التعبير عن مطالبها.

٤- إن هذه الحركات كانت لا طاقة لها بتبني هدف كالانفصال عن الاتحاد السوفييتي في الأجل القصير، ومرد ذلك إلى ضعفها التنظيمي ومحدودية قاعدتها وضآلة الخبرات السياسية لقادتها من ناحية، وهيمنة شيوعيين متشددين ممالئين للكريملين على



مقاليد الأمور في جمهورياتها من ناحيـة أخـرى. وبالتالي فقد كانت جمهوريات آسيا الوسطى هـي أواخر جمهوريـات الاتحـاد السـوفييتي إعلانـًا لاستقلالها، والذي تم في وقت كان قد بات واضحا للجميع فيه أن الاتحاد السوفييتي متفكك لا محالـة، وأنه لا سبيل إلى إنقاذ وحدته.

وعلى أية حال فإنه ليس بوسعنا في النهاية إلا أن نقول:

إن انتفاضات ألما آتا، وطشقند، ودوشانبي وعشق أبـاد، وفرونذ بما تضمنته من أحداث دامية وبما رفع خلالها مـن شعارات قد حطمت – إلى جانب تماثيـل لينـين – حلمـه المتصل بالشعب السوفييتي الواحد، كما أكدت زيف مقولـة الصداقة بين الشعوب السوفييتية التـي طالمـا تشـدق بهـا الزعماء السوفييت باعتبارها مأثرا عظيما من مآثر ثورتهم، وفضلاً عن ذلك فإن تلك الانتفاضات جاءت لتؤكـد أنـه: لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنيـة حقـة داخل وحدة سياسية أسس بنيانها على التجميـع الإجبـاري لشعوب متباينة قوميا.

* * *

المبحث الثالث
في الحركات العرقية
في منطقة ما وراء القوقاز
خلال عهد جورباتشوف

تُمثل منطقة ما وراء القوقاز Trans Caucasia إقليما صغير المساحة، بيد أنه كثيف السكان نسبيا، وتقع هذه المنطقة بين البحر الأسود وبحر قزوين، وتفصلها عن روسيا جبال القوقاز، وتضم المنطقة ثلاث جمهوريات هي أرمينيا، وأذربيجان، وجيورجيا [٦٤٦].

وفيما يلي سنعرض للحركات العرقية في منطقة ما وراء القوقاز من خلال مطلبين، نعرض في أولهما للحركتين العرقيتين الأذربيجانية والأرمينية؛ حيث إن ثمة ارتباطًا بين تينك الحركتين اللتين أفرزهما – في المقام الأول – الصراع الأذربيجاني الأرميني حول أحد الأقاليم، وذلك على النحو الذي سنعرض له لاحقًا، أما المطلب الثاني فينصب على الحركة العرقية في جيورجيا.

---

(٦٤٦) Smith, Graham (ed.), Op. Cit., P. ١٤٣.

المطلب الأول
الحركتان العرقيتان الأذربيجانية والأرمينية والصراع بينهما في عهد جورباتشوف

أولاً: تعريف بكل مـن أذربيجـان وأرمينيـا وتكوينهما العرقي:

١- أذربيجان:

تبلغ مساحة جمهورية أذربيجان ٨٦٦٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة باكو Baku [٦٤٧]. وقـد وصـل عدد سكان الجمهورية الأذرية – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – إلى حوالي ٧٥٢١٠٠٠ نسمة، يتشكلون من جماعات عرقية شتى منها الأذربيجانيون، والروس، والأرمـن، والليجيـان، والداغسـتانيون، واليهـود، والتتـار، والأوكرانيـون، والجيورجيون، وغيرهم. ويمثل الأذربيجانيون أغلبية عظيمة

---

[٦٤٧] إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

الشأن في وطنهم؛ إذ يشكلون – كما سيتضح مـن الجـدول التالي – حوالي ٨٢,٧ % من جملة عدد سكان أذربيجـان، وهم ينحدرون من أصل تركي، ويتكلمون اللغة التركية، وقد كانت اللغة الأذربيجانية – شأنها في ذلك شأن لغـات كافـة مسلمي آسيا الوسطى – تكتب بالحروف العربيـة، غيـر أن السلطات السوفييتية أصدرت قرارا جديدا بمقتضاه تعين على الأذربيجانيين كتابة لغتهم بالحروف السريالية [٦٤٨]، ويـدين الأذربيجانيون بالإسلام؛ حيث يعتنقون المذهب الشيعي [٦٤٩]، وبرغم الحملات الضارية المناوئـة للإسـلام مـن جانـب السلطات السوفييتية فقد ظل الأذربيجانيون – شأنهم في ذلك شأن كافة الجماعات المسـلمة فـي الاتحـاد السـوفييتي – متمسكين بـدينهم باعتبـاره واحـدا مـن أبـرز مقومـات هويتهم[٦٥٠].

---

[٦٤٨] راجع في تفاصيل ذلك:

Dragadze, Tamara, Azerbaijanis, in: Smith, Graham, Op. Cit., PP. ١٦٣ – ١٦٦.

[٦٤٩] Smith, Graham (ed.), Op. Cit., P. ١٤٣.

[٦٥٠] Dragadze, Op. Cit., P. ١٦٦.

ويوضح الجدول التالي أعداد أظهر الجماعـات العرقيـة داخل أذربيجان حسب تعداد عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الأذربيجانيون	٥٠٢١٠٠٠
الروس	٣٩٢٠٠٠
الأرمن	٣٩١٠٠٠
اللجيان	١٧١٠٠٠

جدول رقم (١٧)

المصدر: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٧.

وتتعين الإشارة إلى أن نسبة يعتد بها من أرمن أذربيجان تقطن إقليم نـاجور نوكارابـاخ Nagorno Karabakh ذا الحكم الذاتي، مشكلة أغلبية عظيمة الشأن داخله [٦٥١]. وذلكم هو الإقليم الذي كان سببا في تفجر الصـراع الأذربيجـاني الأرميني على نحو ما سنعرض لاحقًا.

---

[٦٥١] Smith, Graham (ed.), Op. Cit., P. ١٤٣.

٢- أرمينيا:

تبلغ مساحة جمهورية أرمينيا ٢٩٨٠٠ كيلو متر مربع[٦٥٢]، وتتمثل عاصمتها في مدينة إيرفان Erevan. وقد وصل عدد سكانها – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – إلى حوالي ٣٣٠٥٠٠٠ نسمة، يتشكلون مما يربو على الأربع جماعات عرقية أظهرها الأرمن، والأذربيجانيون، والأكراد، والروس، ويمثل الأرمن – على نحو ما سيتضح من الجدول التالي – أغلبية عظيمة الشأن في وطنهم؛ إذ يشكلون حوالي ٩٣,٣ % من جملة سكان أرمينيا [٦٥٣]. ويشير المهتمون بالشئون الأرمينية إلى أن الأرمن هم أمة قديمة يمتد تاريخها عبر عشرات القرون المنصرمة، ويتكلم الأرمن لغة خاصة بهم تعرف باللغة الأرمينية، كما أن لهم ثقافتهم الخاصة [٦٥٤]، ويعتنق الأرمن المسيحية بمذهبها الأرثوذكسي [٦٥٥].

---

(٦٥٢) إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٦٥٣) جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٧.

(٦٥٤) Herzig, Edmund, M., Armenians, in: Smith, Graham, Op. Cit., P. ١٤٦.

(٦٥٥) White. Op. Cit., P. ١٤١.

ونقدم في الجدول التالي سردا لأعداد الجماعات العرقية الأربع الرئيسية في أرمينيا حسب تعداد عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الأرمن	٣٠٨٤٠٠
الأذربيجان	٨٥٠٠٠
الأكراد	٥٦٠٠٠
الروس	٥٢٠٠٠

جدول رقم (١٨)

المصدر: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٨.

وتتعين الإشارة إلى أنه يوجد – إلى جانب أرمن أرمينيـا – مئات الآلاف من الأرمن مشتتين بين عديد من دول العالم حال الولايات المتحدة، وفرنسا، وإيران، وتركيا، وسـوريا، ولبنان، ويطلق على هؤلاء "أرمن الشتات Diaspora" [٦٥٦].

---

[٦٥٦] Herzig, Op. Cit., P. ١٤٧.

ثانيـا: الحركتـان العرقيتـان الأذربيجانيـة والأرمينية والصراع بينهما:

يرتد الصراع بين أذربيجان وأرمينيا إلى سعي كل مـن الجمهوريتين إلى السيطرة على إقلـيم نـاجورنو كارابـاخ Nagorno Karabakh. ويمثل هذا الإقليم منطقة جبلية تبلغ مساحتها حوالي ٤٤٠٠ كيلو متر مربع، ويشكل الأرمن مـا يربو على ثلاثة أرباع سـكانها، فـي حـين تبلـغ نسـبة الأذربيجانيين بين سكانها حوالي ٢٣ %. وكان سـتالين قـد أصدر قرارا بمقتضاه أصبح نارجورنو كاراباخ – منذ يوليو ١٩٢٣ – جزءا من أراضي جمهورية أذربيجان، وإن كـان قد منح حق الحكم الذاتي [(٦٥٧)]. غير أنه نظرا لأن الدسـتور السوفييتي لم يحدد حقوق الأقاليم المتمتعة بالحكم الذاتي فإنـه لم يكن بمقدور سـكان كارابـاخ الوقـوف علـى حقـوقهم الدستورية، وبالتالي فلم يكونوا ليتمكنون مـن الـدفاع عـن حقوق غير محددة. وما أن ضم الكاراباخيون إلى أذربيجـان حتى هدمت جسور الاتصال بينهم وبـين أرمينيـا؛ إذ كـان

(٦٥٧) White, Op. Cit., P. ١٥٩.

التدريس في الإقليم يتم باللغة الأذربيجانية، كمـا أن تـاريخ وجغرافية أرمينيا لم يكونا ضمن المقررات الدراسية بمعهـد التربية، والذي كان يمثل المعهد العالي الوحيد فـي الإقلـيم، وفضلاً عما تقدم فإن الإرسال الإذاعي لأرمينيا لم يكن يصل إلى سكان كاراباخ [٦٥٨].

ولقد كان الأرمن – سواء فـي أرمينيـا أو كارابـاخ – يشعرون بالاستياء والغبن من جراء قيام السلطات السوفييتية بضم ناجورنو كاراباخ إلى أذربيجـان، لا سـيما وأن ثمـة مشاعر عدائية وأحقاد تاريخية يكنها الأرمن للأذربيجـانيين، ذلك بأن الأرمن لم يكونوا لينسون ما تعرضوا له من مـذابح على يد الأتراك (والأذربيجانيون أتراك) خلال فتـرة ١٨٩٣ – ١٩١٥ [٦٥٩].

---

[٦٥٨] انظر في هذا المضمون: أماني الطرابيشي، اضطرابات الأرمـن في الاتحاد السوفيتي مجلة السياسة الدولية، العـدد (٩٣)، يوليـو ١٩٨٨، ص ٢٣١، ٢٣٢.

[٦٥٩] انظر في هذا المضمون: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩.

على أية حال فإنه بانتهـاء الحقبـة السـتالينية ومجـيء خروشوف إلى الحكم في الاتحاد السـوفييتي راح الأرمـن يسعون إلى إحياء مشكلة كاراباخ؛ إذ عمدوا إلـى المطالبـة بعودة الإقليم إلى أرمينيا متذرعين بوجود تمييز أذربيجـاني في مواجهة أرمن كاراباخ، ونادوا بأن تكون ثمة جمهوريـة واحدة (هي أرمينيا) تضم الشعب الواحد (أي الأرمن). غير أن موسكو كانت دوما تصم آذانها إزاء مطالب الأرمن [٦٦٠].

ومع مجيء جورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفييتي في منتصف عقد الثمانينات – وفي ظـل المنـاخ السياسـي الجديد الذي تمخضت عنه البريسـترويكا والجلاسنوسـت – بدأت قبضة الكريملين على الجماعات العرقية تخـف شـيئًا فشيئًا، وبالتالي فسرعان ما طفت على سطح الحياة السياسية في الاتحاد السوفييتي مشكلة كاراباخ. ففي بداية عام ١٩٨٨ تقدم أرمن كاراباخ بعريضة إلى جورباتشوف وقعها ما يربو على خمس وسبعين ألفًا منهم، راحوا من خلالهـا يطـالبون الزعيم السوفييتي بإعادة رسم الحدود بين أرمينيا وأذربيجان، بحيث يعود إقلـيم نـاجورنو كاراباـاخ إلـى الـوطن الأم

[٦٦٠] دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. مرجع سبق ذكره، ص ٨٠، ٨١.

أرمينيا[٦٦١]. غير أن رد موسكو جاء مخيبا لآمـال أرمـن كاراباخ؛ إذ رفض مطلبهم من جانب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي. ولم يقف الأرمن الكاراباخيون مكتـوفي الأيدي أمام رفض موسكو لمطلبهم هذه المرة؛ إذ سرعان ما اندلعت المظاهرات – بدءا من ١١ فبراير عام ١٩٨٨ – في عاصمة كاراباـاخ سـتبانكرت Stepanakert؛ حيـث راح المتظاهرون الأرمن – بطبيعة الحال – يطالبون بعودة الإقليم إلى أرمينيا. وفي ٢٠ فبراير بات واضحا أن مجلس سوفييت كاراباخ – الذي كان يعد ظل موسكو في سـتبانكرت – قـد أضحى مدافعا عن مطلب الأرمن؛ إذ صوت المجلس – فـي ذلك اليوم وبعد انسحاب النواب الأذربيجـانيين – بالموافقـة الجماعية على ضم الإقليم الكاراباخي إلى أرمينيا [٦٦٢].

---

(٦٦١) Herzig, Op. Cit., P. ١٥٣.

(٦٦٢) Wright, Martin (ed.), Soviet Union: The Challenge of Chance. Countries in Crisis, Longman, ١٩٨٩, P. ٤٠.

وسرعان ما خرجت المظاهرات الحاشدة إلـى شـوارع العاصمة الأرمينية إيرفان تعلن تأييدها ومسـاندتها لموقـف أرمن كاراباخ، ففي ميدان الأوبرا بإيرفان تجمع مـا يربـو على المليون أرميني راحوا – من خلال تظاهرات ضـخمة استمرت لبضعة أيام في ٢٠ فبراير – يعلنون تأييدهم لعودة كاراباخ إلى أرمينيا [٦٦٣].

أما فيما يتصل بموقف أذربيجان فقد اتسم بالرفض المطلق لأي نقاش حول مستقبل ناجورنو كاراباخ، كما أكدت السلطات الأذربيجانية – بطبيعة الحال – عدم اعترافها بقـرار مجلـس سوفييت كاراباخ القاضي بضم الإقليم إلى أرمينيا، واعتبرتـه قرارا غير شرعي، وشيئًا فشيئًا تأججت مشاعر العـداء بـين الأرمن والأذربيجانيين تغذيها الأحقاد التاريخية التـي طالمـا ظلت حبيسة صدور الفريقين لعقود طويلة مضت، والتي كانت مكبوتة بفعل القبضة الجبارة لقاطني الكـريملين علـى كافـة الشعوب الخاضعة لنيرهم، ثم ها هي القبضة قد خفت في ظل البريسترويكا، وبالتالي فقد آن الأوان كـي يعبـر كـل مـن الفريقين الأذربيجاني والأرميني عن مكنون عدائه إزاء الآخر.

---

(٦٦٣) White, Op. Cit., P. ١٥٩.

وتتعين الإشارة إلى أن مظاهرات إيرفان قد حركتها جبهة شعبية كانت قد تأسست لتوها، وقـد عرفـت هـذه الجبهـة بـ"لجنة كاراباخ"؛ حيث تبنت – كما يتضح من تسـميتها – قضية كاراباخ وتوحيد أرمينيا، كما تجدر الإشـارة إلـى أن البرلمان الأرميني قد صدق على قـرار مجلـس سـوفييت كاراباخ القاضي بضم الإقليم إلى أرمينيا [٦٦٤]. وهو الأمـر الذي ساهم في تعاظم مشاعر العـداء بـين الأذربيجـانيين والأرمن، ذلك العداء الذي لم يلبث الطرفان أن عبـرا عنـه عملاً إثر ذلك ببضعة أيام، ففي ٢٧ فبرايـر ١٩٨٨ نشـبت اشتباكات محدودة النطاق بين الشباب الأذربيجانيين ونظرائهم الأرمن في العاصمة الكاراباخية ستباناكرت. وقد أسفرت هذه الاشتباكات عن مصرع شابين أذربيجـانيين، كمـا جـرح العشرات من الجانبين المتصارعين [٦٦٥]. وسرعان ما هـب الأذربيجانيون طلبا للثأر، وقد تَمثل مسرح الأحـداث هـذه المرة في مدينة سومجيت Sumgait القريبة من العاصـمة الأذربيجانية باكو، ففي ٢٨، ٢٩ فبراير شهدت تلك المدينـة

---

(٦٦٤) دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦.

(٦٦٥) White, Op. Cit., P. ١٥٩.

أعمال عنف مروعة بين الأذربيجـانيين والأرمـن؛ إذ راح الأذربيجانيون يصبون جام غضبهم على الأرمـن، بحيـث سادت ذينك اليومين أعمال قتل وتخريب واغتصاب ونهـب وإحراق إزاء كل ما هو أرميني [٦٦٦]. وقـد أسـفرت هـذه الاضطرابات – حسب الإحصاءات الرسمية – عن مصـرع ٣٢ شخصا أغلبهم من الأرمن، كما جرح ما يقرب من مائتي شخص آخرين [٦٦٧]. واضطرت موسكو إلى إرسال قـوات أمن ضخمة إلى أذربيجان، كما أعلنت حالة الطوارئ. وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت أعمال العنف وامتدت إلى مـدن أذربيجانية أخرى، وراح الأرمن يفرون من أذربيجان ومـن ذكرى مذبحة عام ١٩١٥، فـي حـين راح الأذربيجـانيون يفرون من أرمينيا مخافة أن يطولهم انتقام الأرمن [٦٦٨].

---

[٦٦٦] دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.

[٦٦٧] Wright (ed.) Op. Cit., P. ٤١.

[٦٦٨] انظر في هذا المضمون: نهاية الإمبراطورية...، مرجـع سـبق ذكره، ص ٨٧.

وهكذا فقد كان على جورباتشوف أن يجد حـلاً للمشـكلة المتفاقمة بين الأذربيجانيين والأرمن، وسرعان ما شكل لجنة ضمت العديد من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشـيوعي بغية دراسة مطالب الأرمن، وقد انتهت اللجنة إلـى وضـع خطة، يستغرق تنفيذها ثمـانِ سـنوات، تسـتهدف تحسـين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية لإقليم نـاجورنو كاراباخ، فضلاً عن الاهتمام باللغة الأرمينيـة، واسـتخدامها داخل الإقليم إلى جانب اللغتين الروسية والأذربيجانية، وكذا الاهتمام بمحطة الإرسال الإذاعي المحلية [٦٦٩].

وفي ٢٣ مارس ١٩٨٨ تبنى مجلس السـوفييت الأعلـى للاتحاد السوفييتي قرارا يدين الموقف الأرميني إدانة عنيفة. وعلى إثر ذلك تم اعتقال بعض زعماء الحركـة الأرمينيـة، وجري التعامل مع لجنة كاراباخ Karabakh Committee باعتبارها منظمة خطرة، تزرع الفوضـى، وتحـض علـى الثورة. وإزاء ذلك راحت اللجنة تدعو إلى تنظـيم مقاومـة سلبية لموسكو؛ إذ أعلنت ما يسمى "بالمدينة الميتـة" داخـل

---

[٦٦٩] انظر الطرابيشي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣.

إيرفان في ٢٥ مايو ١٩٨٨. والحق أن الأرمن قد بـدءوا – إزاء موقف موسكو من مسألة ناجورنو كاراباخ – يشعرون بأن الاتحاد السوفييتي لم يعد يؤدي دوره التقليدي في حمايتهم من الأتراك؛ إذ راحوا الكريملين بدلاً من ذلك يسلم كارابـاخ للأتراك، وبالتالي فلم يعد ثمة وجود لحماية سـوفيتية تقـي الأرمن شر الأتراك، وإذن فلم يعد ثمة مـن الأسـباب مـا يستوجب قبول الأرمن بمساوئ الإذعان للاتحاد السـوفييتي. وهكذا – وعلى حد قول البعض – فإن أرمينيا – التي ظلـت حتى عام ١٩٨٨ أكثر جمهوريات الاتحاد السوفييتي اقتناعـا به، وطاعة له – صـارت فجـأة علـى أعتـاب المطالبـة بالاستقلال. وقد بدا ذلك جليا خلال المظاهرات التي قام بهـا الأرمن في ٢٨ مايو ١٩٨٩ داخل العاصمة إيرفان احتفـالاً بالذكرى السبعين للاستقبال، وهي المظاهرات التـي حمـل الأرمن خلالها بيارق تحمل ألوان أرمينيـا الحـرة الثلاثـة (الحمراء والزرقاء والبرتقالية) [٦٧٠].

---

[٦٧٠] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٨٩، ٩٣.

ومن ناحية أخرى وعلى الصعيد الأذربيجـاني نجـد أن الأذربيجانيين كانوا – أيضا – يشعرون بالاستياء إزاء موقف موسكو من مسألة كاراباخ؛ إذ اعتبروا أن تـدخل موسـكو لحماية الحقوق الثقافية لأرمن كاراباخ يشكل مساسا بسـيادة أذربيجان المنصـوص عليهـا فـي الدسـتور، كمـا بـدأ الأذربيجانيون يفسرون هذا التدخل على أنه بمثابة تعبير عن التضامن الثقافي القائم بين الروس والأرمن، والذي يتمحـور حول انتماء الفريقين إلى المسيحية [٦٧١]. ولقد ساهمت وجهة نظر الأذربيجانيين هذه في تأجيج نزعتهم العرقية، على نحو جعلهم يتجهون – في نوفمبر ١٩٨٨ – إلى البدء في خطوات إنشاء جبهة شعبية تتبنى قضاياهم القومية، ولعل أخطر مـا جاء في برنامج هذه الجبهة هو فـتح ملـف العلاقـة بـين أذربيجان السوفييتية وأذربيجـان الإيرانيـة [٦٧٢]. ويتعـين التنويه إلى أن الأذربيجانيين يقطنون منطقة إيرانية تقع على الحدود مع أذربيجان، ويبلغ تعدادهم في تلك المنطقة حـوالي

---

[٦٧١] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٩٤.

[٦٧٢] المرجع السابق.

١١ مليون شخص [٦٧٣]. وقـد وضـعت الجبهـة الشـعبية الأذربيجانية – ضمن برنامجها كذلك – المطالبة بفتح الحدود بين أذربيجان وإيران، بغية السماح بتنميـة العلاقـات بـين أذربيجانيي أذربيجان وأبناء نحلتهم في إيران. وهكـذا فقـد انبعث – على حد قول البعض – حلم قيام أذربيجان الموحدة، ذلك الحلم الذي طالما أزعج لينين وستالين [٦٧٤].

وجملة القول – إذًا – في شأن موقف موسكو من مسـألة كاراباخ أن هذا الموقف قد أثار استياء كـل مـن الأرمـن والأذربيجانيين معا، لذلك فقد سعي جورباتشوف إلى التوصل إلى تسوية ترضي الطرفين، وفي ١٢ ينـاير عـام ١٩٨٩ أصدرت موسكو قانونًا بمقتضاه وضع إقليم ناجورنو كاراباخ تحت سلطة لجنة تفويضية خاصة يرأسها روسي، ويعاونـه ثلاثة من الأرمن وأذربيجاني واحد، كما تم إخضاع الإقلـيم لرقابة عسكرية صارمة [٦٧٥]. بيد أن هذا الإجراء من جانب

---

(٦٧٣) جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩.

(٦٧٤) انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤.

(٦٧٥) White, Op. Cit., P. ١٦٠.

موسكو لم يلاق القبول المتوخي لا من جانب الأذربيجـانيين، ولا من جانب الأرمن. وفي مارس عـام ١٩٨٩ رفضـت أذربيجان اقتراحا لبرلمان أرمينيا يدعو إلى إجراء اسـتفتاء لشعب كاراباخ يقرر من خلالـه مصـيره، وبالتـالي فقـد استمرت حوادث العنف بين الأذربيجانيين والأرمـن بـرغم وجود قوات قوامها ٥٥٠٠ جندي تقبض على إقليم ناجورنو كاراباخ [٦٧٦]. وسرعان ما تدهورت الأوضـاع وتفجـرت الصراعات الدامية بين الفريقين، فبدلاً من الطلقات الناريـة والاغتيالات المتفرقة راح كل من الأذربيجـانيين والأرمـن يستنفرون كامل قواهم، فعمدوا على قطع وسائل الاتصال بين الجمهوريتين؛ إذ قام الأرمـن بتخريـب خطـوط السـكك الحديدية، وعـزل إقلـيم ناخيتشـفان Nakhichevan ذي الأغلبية الأذربيجانية عن أذربيجان، ورد الأذربيجانيون على ذلك بقطع كافة خطوط السكك الحديدية المؤدية إلى أرمينيـا، على نحو هيأ لقطع المؤن والوقود والمواد الأولية عنها، في وقت كانت في أشد الحاجة إليها لبناء ما هدمه الزلزال الذي

---

[٦٧٦] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٩٦، ٩٧.

شهده إقليمها في نهاية عام ١٩٨٨. وفضلاً عما تقدم فقد لجأ الجانبان إلى مهاجمة القطارات، وتلغيم الجسور، كما نظمت الإضرابات، ونشبت المعارك الضارية بين أبناء النحلتـين، وانتشرت عمليات التخريب، والاختطاف، ومهاجمة المراكز العسكرية، كما دعا كل فريـق أبنـاء نحلتـه إلـى تنظـيم مجموعات للدفاع الذاتي المسلح.. وهكذا فإنه مع نهاية عـام ١٩٨٩ كان قد بات جليا أن الحرب الأهلية قد حطت رحالها في منطقة ما رواء القوقاز، وكادت تصل إلـى الجمهوريـة القوقازية الثالثـة (جيورجيـا)؛ حيـث راح الأذربيجـانيون يطالبونها بالمشاركة في قطع السـكك الحديديـة الموصـلة لأرمينيا، وإلا فإنهم سيحاصرونهم [٦٧٧]. ولم يعر الطرفـان المتصارعان أي اهتمام للإنـذارات التـي وجههـا إليهمـا الكريملين، وهكذا بدت الحكومـة المركزيـة عـاجزة عـن التصدي لحصار فرضته إحدى الجمهوريات التابعة لها على أخرى، بل وغير قادرة على فرض نظام الوضـع الخـاص الذي كانت قد قررته في يناير ١٩٨٩ على كاراباخ. وفـي ٢٨ نوفمبر ١٩٨٩ اضطر مجلس السوفييت الأعلى للاتحـاد

---

[٦٧٧] انظر في تفصيل ذلك: المرجع السابق، ص ٩٨.

السوفييتي إلى إلغاء ذلك النظام، وأعيد وضع ناجورنو كاراباخ تحت سلطة أذربيجان، في ظل قيود معينة لصالح موسكو. وبطبيعة الحال فإن هذا الإجراء لم يكن من شأنه سوى إثارة استياء الأرمن، وفي ١ ديسمبر ١٩٨٩ أكد مجلس السوفييت الأعلى لأرمينيا على أن ناجورنو كاراباخ يشكل جزءا لا يتجزأ من أرمينيا الموحدة، وبالتالي فإن الأرمن يرفضون الاعتراف بالوضع الجديد، ويبدو أن الأذربيجانيين لم يكونوا أقل استياء من الأرمن إزاء الوضع الجديد الذي قررته موسكو بصدد ناجورنو كاراباخ؛ حيث راح كل من مجلس السوفييت الأعلى والحزب الشيوعي والجبهة الشعبية في أذربيجان يؤكدون رفضهم للقيود التي وضعتها موسكو على السيادة الأذربيجانية فوق الإقليم الكاراباخي، واعتبروا أن مرسوم ٢٨ نوفمبر غير دستوري. وهكذا فقد استهين بسلطات الكريملين على نحو لم يسبق له مثيل [٦٧٨]، كما بات واضحا أن الأذربيجانيين قاطبة – بمن فيهم قادة الحزب الشيوعي – يقفون صفًا واحدا في مواجهة هيمنة موسكو.

---

[٦٧٨] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، من ص ٥٨ إلى ص ١٠١.

على أية حال فإن الصراع الـدامي بـين الأذربيجـانيين والأرمن لم تكن آخر حلقاته قد انتهت بعد؛ إذ اسـتمر هـذا الصراع واشتد شراسة، ثم ما لبـث أن بلـغ أوج شراسـته بحلول الأسابيع الأولى من عـام ١٩٩٠، بحيـث صـارت الأوضاع في القوقاز – على حد قول البعض – أشـبه مـا تكون بنظيراتها في لبنان خـلال أحلـك فتـرات الحـرب الأهلية[٦٧٩]. فبدءا من ١١ يناير ١٩٩٠ راحـت عصـابات مسلحة خاضعة للجبهة الشعبية الأذربيجانية تسـتولي علـى كافة المباني العامة في مدينة لنكوران في أذربيجان وتُعلن أن المدينة ستبقى خارج السلطة السوفييتية حتى يعود نـاجورنو كاراباخ إلى السيادة الأذربيجانية، وفضلاً عما تقدم فقد قـام الأذربيجانيون بنسف الجسور، ونهب الثكنـات، والاسـتيلاء على الأسلحة. وفوق ما تقدم فقد نظم الأذربيجانيون في باكو مذابح جماعية للإجهاز على الأرمن [٦٨٠]، وقد قتل في هـذه المذابح – في ١٣ يناير – ما يربو على الستين أرمينيا، كما جرح المئات من الأرمن [٦٨١].

---

(٦٧٩) انظر في هذا المعنى: White, Op. Cit., PP. ١٦٠ - ١٦١

(٦٨٠) دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٠١، ١٠٢.

(٦٨١) White, Op., Cit., P. ١٦٠.

وفي ١٩ يناير راحت مدرعات من الجيش السوفييتي تشق طريقها إلى باكو، بينما راحت المقاومة الشعبية الأذربيجانية تنظم صفوفها، وتجبر السوفييت على التعامل معها كقـوات نظامية، وأسفرت المجابهات عن مصرع عشرات الأشخاص من الفريقين [٦٨٢]. وعلى سبيل المثال فقد بلغ عـدد القتلـى خلال الأيام الأولى من المواجهة – حسب التقديرات الرسمية – ما يربو على ثلاث وتسعين قتيلاً [٦٨٣]، وتلكم كانت واحدة من عديد من المذابح شهدتها القوقاز خلال السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات، والعام الأول من عقد التسعينيات، إنهـا المذبحة التي عرفت بمذبحة باكو.

على أية حالة فإن ثلاثين ألفًا من الجـيش السـوفييتي – بالإضافة إلى قوات الأمن – لم يفلحوا في توطيد الأمن نهائيا في باكو وسرعان ما عمدت موسـكو إلـى فـرض حالـة الطوارئ، وحظر كافة أنواع المظاهرات والإضرابات داخل العاصمة الأذربيجانية، ولم يقبل الأذربيجـانيون الخضـوع لعسكر الكريملين، فلجئوا إلى تطبيق نوع من أنواع المقاومة

---

[٦٨٢] دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٢.

[٦٨٣] White, Op., Cit., P. ١٦٠.

السلبية إزاءهم، وراح جورباتشوف يعلن أن التدخل المسلح كان أمرا لا مفر منه، لأن الأذربيجانيين – على حد قوله – كانوا يستهدفون الإطاحة بالسلطة السوفييتية، وانفصال أذربيجان عن الاتحاد السوفييتي، وإقامة دولة إسلامية موحدة[(٦٨٤)].

وهكذا فإن الصراع المسلح الدامي الذي نشب بين الأذربيجانيين والأرمن – خلال عهد جورباتشوف – جاء لكي يؤكد مدى الزيف الذي انطوى عليه شعار الكريملين الأشهر "الصداقة بين الشعوب السوفييتية"؛ إذ بان واضحا – خلال أحداث ذلك الصراع – أن تلك الصداقة لم تكن تعدو محض أوهام طالت أذهان قاطني الكريملين فاعتقدوا في وجودها، وراحوا يتشدقون بها معتبرين إياها واحدة من أعظم منجزات ثورتهم.

---

(٦٨٤) دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٢، ١٠٣.

ومهما يكن الأمر فإن ثمة تنظيمات أذربيجانية ثلاثة [٦٨٥] كانت من وراء التحـرك الأذربيجـاني المعـادي للأرمـن وللكريملين معا. ويتمثل أول هذه التنظيمـات فـي "منظمـة شنليبل"، وقد نشأت هذه المنظمة في عام ١٩٨٧ في وقت لم يكن للحركة السياسية قواعد شرعية؛ حيث بـدأت شـنليبل نشاطها كمنظمة ثقافية اهتمت بإحيـاء التـراث التـاريخي للأذربيجانيين، والحفاظ على اللغة الأذربيجانية، بيد أن هـذه المنظمة سرعان ما انخرطت في العمل السياسـي، بحيـث كانت من بين منظمات ثلاث وجهت الأحداث في باكو. أمـا المنظمة الثانية فقد تمثلت في "بيرليـك" أو "الوحـدة" وهـي منظمة تنحو منحى إسلاميا، وتتبنى برنامج عمل يسـتهدف غاية نهائية قوامها تشكيل دولة أذربيجانية كبـرى، تجمـع شتات أبناء الشعب الأذربيجاني. وفيما يتصل بالمنظمة الثالثة التي ساهمت في تحريك أحداث باكو فإنها تتمثل في الجبهـة الشعبية الأذربيجانية، تلك الجبهة التي كان لفيف من المثقفين الأذربيجانيين قد شرع في تأسيسها بدءا من شـهر نـوفمبر ١٩٨٨ على نحو ما ذكرنا، وقد ظهرت الجبهة إلـى حيـز

---

[٦٨٥] انظر بصدد هذه التنظيمات: المرجع السابق، من ص ١٠٥ إلى ص ١٠٨.

الوجود الفعلي في يوليو ١٩٨٩. وتبنـت الجبهـة الشـعبية الأذربيجانية برنامجا قومي المنحى، يدعو – من بين ما يدعو – إلى سيادة أذربيجان، وتمثيل الجمهورية فـي المنظمـات الدولية، والتقارب بين شطري أذربيجان بغية تمهيـد السـبل أمام توحدهما، كما استهدف برنامج الجبهة العمل من أجل أن تغدو الأذربيجانية هي اللغة الرسمية الوحيدة داخل أذربيجان. وقد اكتسبت الجبهة الشعبية الأذربيجانية تأييـدا جماهيريـا هائلاً، على نحو هيـأ لهـا أن تكـون الموجـه الرئيسـي للمظاهرات، والإضرابات، وغيرها من الأعمال التي تنطوي على تعبئة جماهيرية، وسرعان ما راحـت الجبهـة تـدخل الإسلام في نطاق اهتمامها باعتباره واحدا من أبرز مقومات الهوية الأذربيجانية. وعلى حين اكتسبت الجبهة شرعية هائلة أخذ الحزب الشيوعي الأذربيجاني يفقد مصداقيته لدى الشعب الأذربيجاني الذي راح يعتبره امتدادا لموسكو، وهكـذا فقـد طرحت الجبهة الشعبية الأذربيجانية نفسها – فـي مواجهـة السلطات المركزية – كممثل حقيقي للمجتمع.

وتأسيسا على ما تقدم يبـدو جليـا أن الحركـة العرقيـة الأذربيجانية كانت على مستوى مرموق من التنظـيم، كمـا كانت تتمتع بتأييد شعبي جارف، على نحو خلع عليها شرعية هائلة داخل مجتمعها، جبت شرعية كافة المؤسسات المواليـة لموسكو وعلى رأسها الحزب الشيوعي. وفضلاً عن ذلك فإنه يتضح من خلال ما تقدم أن هـذه الحركـة كانـت حركـة انفصالية، في معنى أنها كانت تتغيا غاية قوامهـا انفصـال أذربيجان عن الاتحاد السوفييتي، وتكوين دولة مستقلة، بـل وقد كان طموحها متعاظما؛ إذ وضعت من بين أهدافها إقامة دولة أذربيجانية تضم شطري أذربيجان السوفييتي والإيراني. أما فيما يتصل بوسائل الحركة العراقية الأذربيجانية فقد كان طابع العنف يغلب عليها، على نحو مـا بـدا بائنًـا خـلال الصراعات الدموية التي خاضها الأذربيجانيون في مواجهـة الأرمن، والتي كانت الحركة العرقية هي الموجه لها.

وتتعين الإشارة إلى أنه انطلاقًا من الشرعية الهائلة التـي اكتسبتها المطالب الانفصالية للحركة العرقية الأذربيجانية فإن مجلس السوفييت الأعلى لأذربيجان كان قد صوت بالموافقـة – في أول سبتمبر عام ١٩٨٩ وفي غمرة المشاعر العرقيـة المتعاظمة – على قانون يقضي بأن تصبح أذربيجان دولـة ذات سيادة [٦٨٦]. كما أعلنت السـلطات الأذربيجانيـة أنهـا المهيمن على كافة المسـائل المتصـلة بـالتنظيم السياسـي والإداري داخل أراضي أذربيجان، وأن أي تغيير فـي هـذا الصدد لن يكون ممكنًا إلا من خلال قرار يتخـذه القـائمون على السلطة فيها، أو عبر استفتاء شعبي. وبطبيعة الحال فإن الأذربيجانيين كانوا يقصدون من وراء هذا النص التأكيد على أن مصير ناجورنو كاراباخ مرهون بإراداتهم هم، لا بـإرادة قاطني الكريملين. وفضلاً عما تقدم فقد نص قانون السـيادة الأذربيجاني على أن القانون السـوفييتي لـن يطبـق علـى أذربيجان إلا إذا كان متماشيا مع قوانينها، كما نص القـانون على احتفاظ أذربيجان بالحق المطلـق فـي إعـلان حالـة الطوارئ. وبطبيعة الحال فقد رفضت موسكو قانون السـيادة

(٦٨٦) انظر بصدد هذا القانون: المرجع السابق، ص ٢١٧.

الأذربيجاني واعتبرته غير دستوري، في حين راح الأذربيجانيون يؤكدون مضيهم قدما نحو الاستقلال التام، وعلى أية حال فقد تمكن الأذربيجانيون من نيل استقلالهم "الفعلي" على إثر الانقلاب الفاشل الذي تعرض له حكم جورباتشوف في أغسطس عام ١٩٩١.

أما فيما يتصل بالحركة العرقية الأرمينية فقد تجسدت – في البداية – من خلال لجنة كاراباخ، ثم تراكمت عليها منظمة أخرى كانت بمثابة امتداد لها عرفت بالحركة الوطنية الأرمينية، وقد تأسست هذه الحركة في إيرفان في ٤ نوفمبر عام ١٩٨٩، وحضر مؤتمرها التأسيسي ممثلون عن الجبهات الشعبية في العديد من الجمهوريات السوفييتية [٦٨٧]. ويمكن القول – بصفة عامة – أن الطبيعة الانفصالية قد راحت تكسو الحركة العرقية الأرمينية منذ نهاية عام ١٩٨٨، إذ في ذلك الوقت ساد الأرمن الاعتقاد بأن موسكو لم تعد تمثل لهم – كما كانت من قبل – الحصن المنيع الذائد عنهم، والمدافع عن حقوقهم، ولعل مرد هذا الاعتقاد كان إلى موقف موسكو غير المحابي لإيرفان بصدد مسألة ناجورنو كاراباخ على

---

[٦٨٧] المرجع السابق، ص ١٩٣.

نحو ما قدمنا. أما بصدد وسائل الحركة العرقية الأرمينية فقد كان يغلب – عليها هي الأخرى – طابع العنف، ويؤكد ذلك ما شهده الصراع مع الأذربيجانيين من اشتباكات دامية، واغتيالات، وعمليات اختطاف، ومعارك شديدة الوطيس بين عصابات مسلحة، وميلشيات عرقية وغيرها [٦٨٨].

على أية حال فإنه نظرا لطغيان مزاج الانفصال على الأرمن منذ عام ١٩٨٩ فإن مجلس السوفييت الأعلى لأرمينيا كان قد أقر – هو الآخر – قانونًا في ذلك العام يقضي بأن تصبح أرمينيا دولة ذات سيادة، وقد كان هذا القانون من حيث مضمونه – مطابقًا – إلى حد بعيد – لقانون السيادة الأذربيجاني السابق الإشارة إليه [٦٨٩]. غير أن نيل الأرمن لاستقلالهم "الفعلي" لم يتم إلا غداة فشل انقلاب أغسطس ١٩٩١ والذي استهدف كما أشرنا سلفًا الإطاحة بجورباتشوف.

---

[٦٨٨] انظر بصدد هذه الوسائل: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٧، ٢١٨.

[٦٨٩] دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٧.

ويبقى أن نشير في النهاية إلى أن الصراع المسلح الدامي بين الأذربيجانيين والأرمن والذي اندلع في بداية عام ١٩٨٨ – كما سبق أن أشرنا – قد استمر حتى تفكك الاتحاد السوفييتي في نهاية عام ١٩٩١، ثم لم يلبث أن تحول – غداة نيل كل من الدولتين الأذربيجانية والأرمينية لاستقلالهما – إلى حرب نظامية شعواء بين جيشي الدولتين، راح ضحيته عشرات الآلاف من الجانبين، وإن كان قد أسفر عن استيلاء أرمينيا على معظم أراضي إقليم ناجورنو كاراباخ. وقد سعي العديد من الأطراف الدولية للتوفيق بين الدولتين بغية وقف نزيف دم أبناؤهما، غير أن كافة المساعي – وعلى رأسها المسعى الإيراني – قد باءت بالفشل [٦٩٠]. وعلى الرغم من سكوت هدير مدافع الدولتين في الوقت الراهن فإن أسباب الصراع لم تزل قائمة؛ إذ لم تتفق الدولتان بعد على أية صيغة من الصيغ التي قدمت لحل الأزمة. ولعلنا لا نكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ما قلنا إن الهدوء النسبي الذي

---

[٦٩٠] انظر بصدد هذا النزاع على سبيل المثال: عبد ا صالح، ناجورنو كاراباخ: الصراع بين الجغرافيا والهوية القومية، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٢٠)، أبريل ١٩٩٥، من ص ١٧٦ إلى ص ١٧٩.

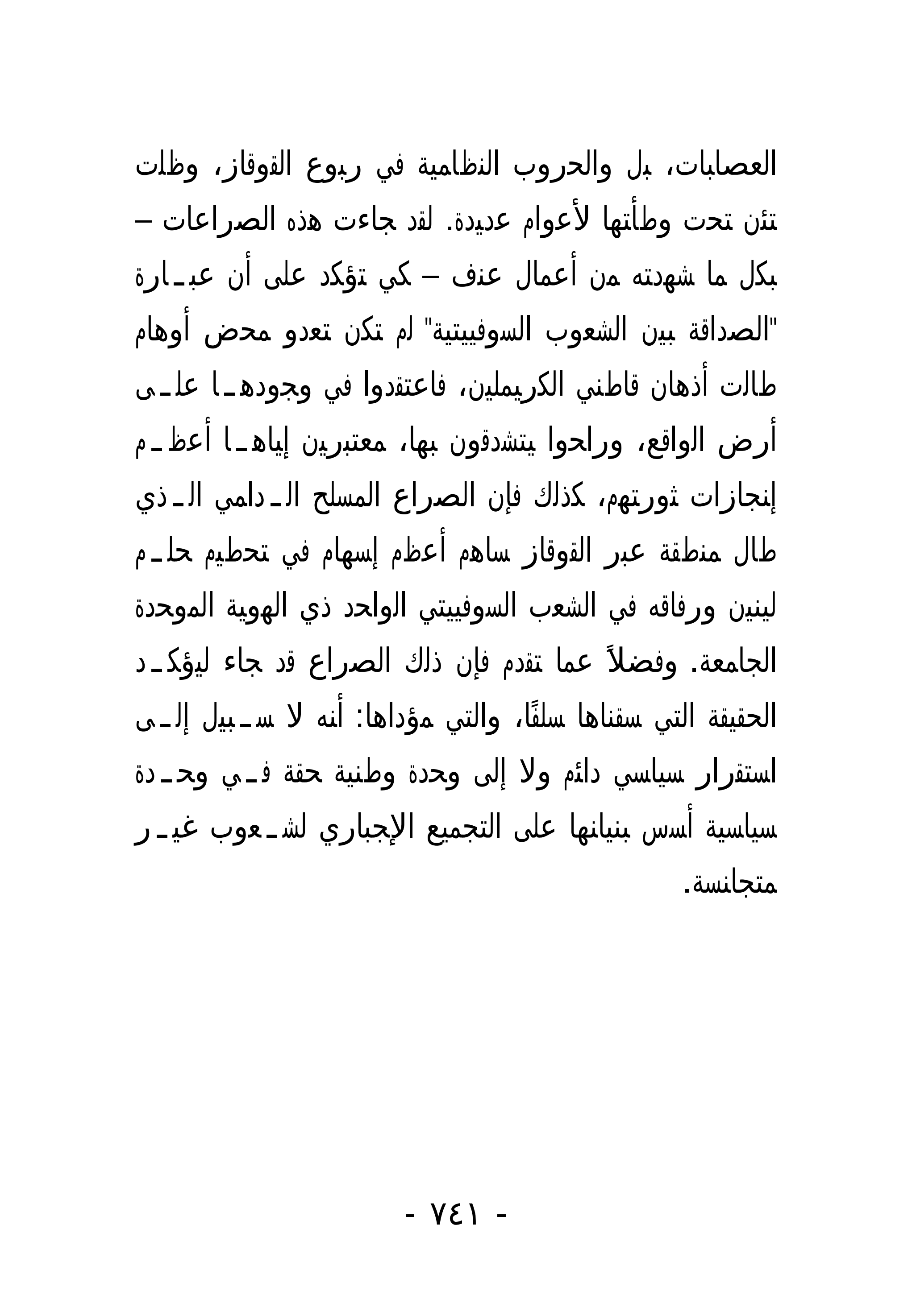
يخيم حاليا على العلاقات الأرمينية الأذربيجانية لا يعـدو أن يكون هو ذاته الهدوء الذي يسبق العاصفة، وبالتـالي فـإن الصراع المسلح الدامي بين الدولتين مندلع لا محالة، طالمـا ظلت جذوره تضرب في أرض الواقع.

* * *

تعقيـــب:

بعد أن عرضنا للصراع الأذربيجاني الأرميني خلال عهد جورباتشوف فإنه يجدر بنا أن نؤكد على حقيقة – بصدده – قوامها أنه:

ما أن خفت قبضة الكريملين علـى الجماعـات العرقيـة الخاضعة لنير قاطنية – في ظل الجلاسنوست – حتى راحت مشاعر العداء بين الأرمن والأذربيجانيين تتـأجج، ويسـتعر أوراها، تغذيها في ذلك الأحقاد التاريخية التي طالمـا ظلـت حبيسة صدور الفريقين لعقود طويلة مضت، ولم يقدر لها أن تتجسد في الواقع، نظرا للقبضة الجبارة التـي أطبـق بهـا البلاشفة على كافة الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم. ومـا أن خفت تلك القبضة – في ظل الحكم الجورباتشوفي – حتى راح كل من الفصيلين الأذربيجاني والأرميني يكشـر عـن أنيابه في مواجهة الآخر، ويسعى على صب جـام غضـبه عليه، وهكذا اندلعت الصراعات المسلحة الدامية بينهما، وهي الصراعات التي لم يدع أي من الفريقين وسيلة من وسـائل العنف والانتقام إلا واستخدمها في مواجهة خصمه، فانتشرت عمليات النهب، والحرق، والاغتصاب، والاغتيال، وحروب


العصابات، بل والحروب النظامية في ربوع القوقاز، وظلت تئن تحت وطأتها لأعوام عديدة. لقد جاءت هذه الصراعات – بكل ما شهدته من أعمال عنف – كي تؤكد على أن عبـارة "الصداقة بين الشعوب السوفييتية" لم تكن تعدو محض أوهام طالت أذهان قاطني الكريملين، فاعتقدوا في وجودهـا علـى أرض الواقع، وراحوا يتشدقون بها، معتبرين إياهـا أعظـم إنجازات ثورتهم، كذلك فإن الصراع المسلح الـدامي الـذي طال منطقة عبر القوقاز ساهم أعظم إسهام في تحطيم حلـم لينين ورفاقه في الشعب السوفييتي الواحد ذي الهوية الموحدة الجامعة. وفضلاً عما تقدم فإن ذلك الصراع قد جاء ليؤكـد الحقيقة التي سقناها سلفًا، والتي مؤداها: أنه لا سـبيل إلـى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فـي وحـدة سياسية أسس بنيانها على التجميع الإجباري لشـعوب غيـر متجانسة.

المطلب الثاني
الحركة العرقية في جورجيا
خلال عهد جورباتشوف

أولاً: تعريف بجمهورية جيورجيـا وتكوينهـا العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية جيورجيا ٩٦٧٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة تبليسـي Tabilisi [٦٩١]. وقـد وصل عدد سكان الجمهورية الجيورجية – حسب تعداد عـام ١٩٨٩ – إلى حوالي ٥٤٤٨٦٠٠ نسمة [٦٩٢]، يتشكلون مـن ما يربو على السبع جماعات عرقية، أظهرها الجيورجيـون، والأرمــن، والــروس، والأذربيجــانيون، والأوســيتيون، واليونانيون، والأبخاز. ونقدم في الجدول التالي سردا لعـدد كل من هذه الجماعات العرقية السبع الرئيسية في جيورجيا، حسب تعداد عام ١٩٨٩:

---

[٦٩١] إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

[٦٩٢] Parsons, Op. Cit., P. ١٨٣.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الجيورجيون	٣٨١٩٤٦٨
الأرمن	٤٤٠٨٥١
الروس	٣٧٤٢٦٩
الأذربيجانيون	٣١٠٧١٤
الأوسيتيون	١٦٥٤٤٥
اليونانيون	١٠٠٨٨٠
الأبخاز	٩٦٨٤٥

جدول رقم (١٩)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بـ :

- جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٧ وكذا:
- Parsons, Op. Cit., P. ١٨٦.

ويتضح من الجدول السابق أن الجيورجيين يمثلون أغلبية بائنة في وطنهم؛ إذ يشكلون حوالي ٧٠,١ % من جملة سكان جيورجيا، ويتمايز الجيورجيون سلاليا عن سائر الجماعـات العرقية الأخرى التي كانت تشكل الكيان البشـري للاتحـاد السوفييتي، كما أن لهم لغتهم الخاصة بهـم، والتـي تكتـب بأبجدية متمايزة لهم ظهرت في القرن الرابع. أما من ناحيـة الدين فقد اعتنق الجيورجيون المسيحية منذ القـرن الرابـع الميلادي، وبالتالي فقد سبقوا الروس في هذا الصدد بحـوالي ستة قرون. وعلى الرغم مـن أن الجيـورجيين يـدينون – كالروس – بالمذهب الأرثوذكسي إلا أن لهم كنيستهم الخاصة التي تعرف بالكنيسـة الأرثوذكسـية الجيورجيـة، ويتميـز الجورجيون بإنجازاتهم العملية والثقافية عظيمة الشأن، لـذلك فإنهم يعتبرون أنفسهم أرقى من سائر الشـعوب المجـاورة لهم[٦٩٣].

---

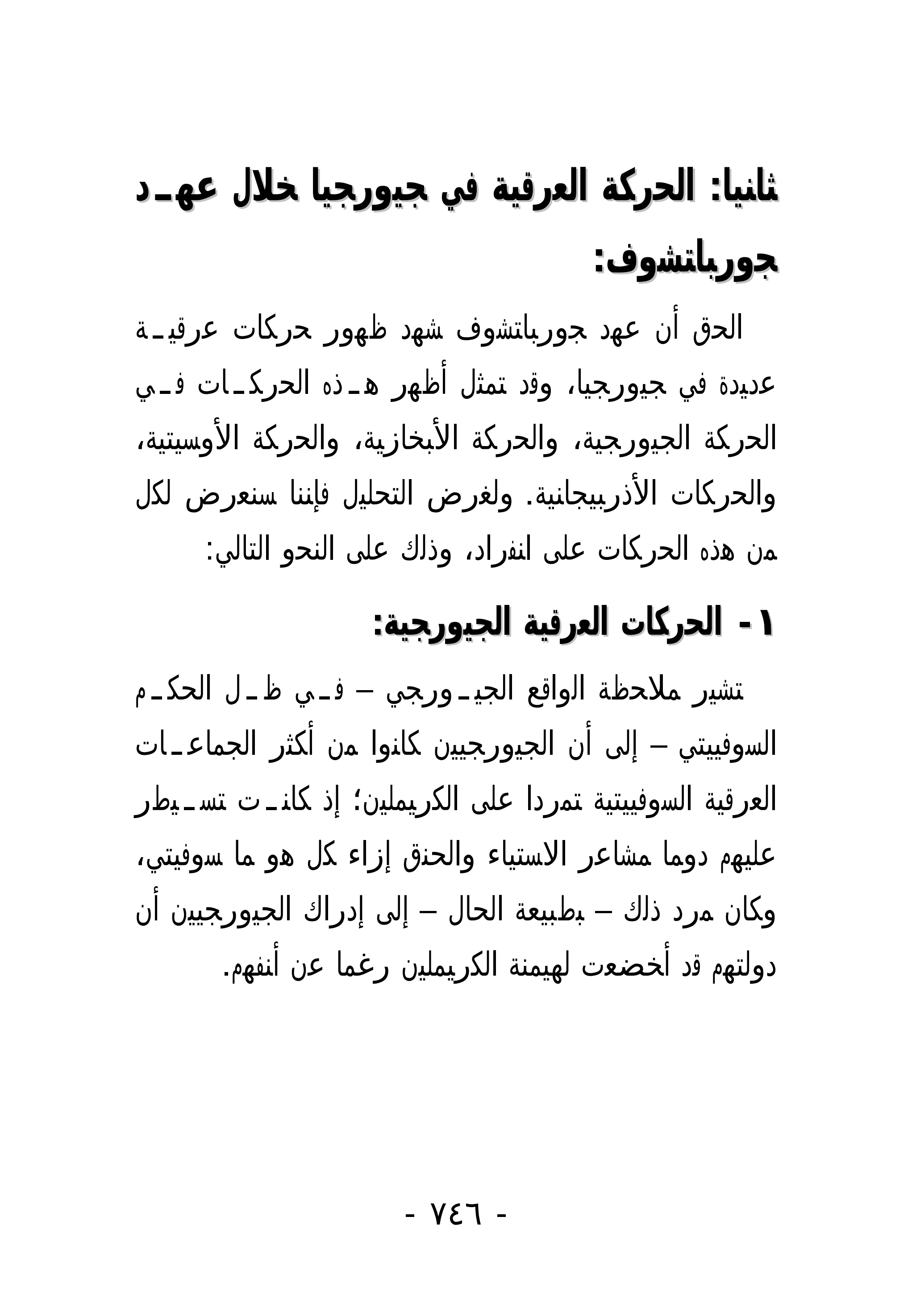
[٦٩٣] انظر في هذا الصدد: White. Op. Cit., PP. ١٤١ - ١٤٥

وعلى نحو ما أشرنا سلفًا فقد كان الجيورجيون تمكنوا في عام ١٩١٨ من الحصول على استقلالهم عن روسيا، غير أن ذلك الاستقلال لم يدم سوى ثلاث سنوات؛ إذ سرعان ما قـام جحافل البلاشفة باقتحام الدولة الجيورجية الوليدة فـي عـام ١٩٢١، منهية استقلالها، ومدخلة إياها من جديد إلى الحظيرة الروسية. غير أنه يتعين التنويه إلى أن الجيورجيين كانوا قد أقاموا في دولتهم نظاما ديمقراطيا خـلال فتـرة اسـتقلالهم القصيرة [٦٩٤].

وتجدر الإشارة إلى أن جمهوريـة جيورجيـا الاتحاديـة السوفييتية كانت تضم جمهوريتين تتمتعان بالحكم الذاتي هما أبخازيا، وأدغاريا، فضلاً عن إقليم يتمتع بالحكم الذاتي هـو إقليم أوسيتيا.

---

(٦٩٤) Parsons, Op. Cit., PP. ١٨١ – ١٨٢.



ثانيا: الحركة العرقية في جيورجيا خلال عهد جورباتشوف:

الحق أن عهد جورباتشوف شهد ظهور حركات عرقية عديدة في جيورجيا، وقد تمثل أظهر هذه الحركات في الحركة الجيورجية، والحركة الأبخازية، والحركة الأوسيتية، والحركات الأذربيجانية. ولغرض التحليل فإننا سنعرض لكل من هذه الحركات على انفراد، وذلك على النحو التالي:

١- الحركات العرقية الجيورجية:

تشير ملاحظة الواقع الجيورجي – في ظل الحكم السوفييتي – إلى أن الجيورجيين كانوا من أكثر الجماعات العرقية السوفييتية تمردا على الكريملين؛ إذ كانت تسيطر عليهم دوما مشاعر الاستياء والحنق إزاء كل هو ما سوفيتي، وكان مرد ذلك – بطبيعة الحال – إلى إدراك الجيورجيين أن دولتهم قد أخضعت لهيمنة الكريملين رغما عن أنفهم.

كذلك فإن المدقق في تاريخ جيورجيا السوفييتي سـرعان ما يدرك أن الجيورجيين كانوا من أكثر الجماعات العرقيـة السوفييتية تمسكًا بهويتهم، ودفاعا عنها، ووقوفًا في وجه أي مساس بها. لذلك نجدهم – على سبيل المثال – يتظـاهرون ضد الكريملين في عام ١٩٥٦، لا لشـيء إلا لأن الـزعيم السوفييتي الجديد – آنذاك – خروشوف قد راح يهاجم سـلفه الجيورجي الأصل ستالين، وذلك على الرغم من أن النـاظر في تاريخ ستالين يدرك – دون أدنى معاناة – أنه لم يكن أبدا مخلصا لبني نحلته [٦٩٥]. كذلك ففـي إطـار دفـاعهم عـن مقومات ذاتيتهم نجد أن الجيورجيين قد نظمـوا مظـاهرات حاشدة – في عام ١٩٧٨ – بغيـة المطالبـة بـأن تصـبح الجيورجية هي اللغة الرسمية لجيورجيا [٦٩٦].

---

(٦٩٥) Ibid., P. ١٨٦.

(٦٩٦) Ibid., PP. ١٨٦ – ١٨٧.

وفي عام ١٩٨١ سادت الاضطرابات وأعمـال العنـف جيورجيا، ونشـبت أزمـة بـين الكـريملين والمسـئولين الجيورجيين، أعقبتها حركة تطهير واسعة النطاق، أطاحـت موسكو بمقتضاها بلفيف يعتد به من الساسة الجيورجيين. وقد أعلنت الحكومة السوفييتية أن القيام بتلك الحركـة اسـتهدف مواجهة ظاهرتي الفساد والرشوة، اللتين تفشيتا في جيورجيا. غير أن العديد من الأدلة والبراهين يؤكد – على حـد قـول البعض – أن اضطرابات جيورجيا عام ١٩٨١ كانـت ذات طابع عرقي؛ إذ كانت تُمثل نوعا من المقاومة مـن جانـب الجيورجيين لاستمرار الكريملين في السعي إلـى تـرويس جيورجيا، وتضييق الخناق على لغتها القومية [٦٩٧]. ذلكم فيما يتصل بالنزعة العرقية الجيورجية في ظل قبضة الكـريملين الجبارة على العرقيات خلال الحقبة السـابقة علـى اعـتلاء جورباتشوف سدة الحكم في الاتحاد السوفييتي. أمـا خـلال الحقبــة الجورباتشــوفية وفــي رحــاب البريســترويكا والجلاسنوست فقد بات المناخ مهيئًا – بطبيعة الحال – لتأجج

---

[٦٩٧] انظر في هذا المضمون: دانكوس، انتفاضة القوميات..، مرجـع سبق ذكره، ص ١٨٢.

النزعة العرقية لدى الجيورجيين أكثر من أي وقت مضـى، وقد تجلى أول مظاهر التعبير عن تلك النزعة الطاغية فـي ٢٥ فبراير عام ١٩٨٨، عندما تجمع الجيورجيـون داخـل تبليسي في مظاهرات حاشدة ينددون بمـا قـام بـه قـاطنو الكريملين عام ١٩٢١ من اجتياح لجيورجيا، ووضعها عنوة تحت إمرتهم [٦٩٨]. وهكذا فها هم الجيورجيون – وفـي أول فرصة أتيحت لهم للتعبير عن مكنون صدورهم – يؤكـدون عدم شرعية ضم جمهـوريتهم إلـى الاتحـاد السـوفييتي، ويطالبون بالاستقلال. وقـد تكـرر ذلـك المطلـب خـلال مظاهرات فبراير ١٩٨٩ أيضا. وفي إطار تأكيـد مسـعاهم الانفصالي وتأسيسا على موقفهم الرافض الإذعان لموسـكو راح الجيورجيون – في ٤ أبريل ١٩٨٩ – ينخرطون فـي مظاهرات حاشدة ضمت في البداية عشرين ألفًا منهم، راحوا يزأرون في الساحة المتاخمة لمجلس الـوزراء، والشـوارع المجاورة لها داخل العاصمة تبليسي، وسرعان ما تعاظم عدد المتظاهرين، كي يصل إلى مائة ألف تعالت هتافاتهم مطالبين باستقلال جيورجيا، ورحيل الروس عنها. وتجدر الإشارة إلى

---

[٦٩٨] Fuller, Elizabeth, Georgia Since Independence: Plus C A Change.., Current History, October, ١٩٩٣, P. ٣٤٢.

أن الروس كـانوا – إزاء مشـاعر العـداء التـي يبـديها الجيورجيون تجاههم – قد بدءوا في النزوح من جيورجيـا، وعلى سبيل المثال فقد كان عددهم فيها عام ١٩٨٩ لا يزيـد عن ٣٧٤٢٦٩ شخصا، كما أن أعداد الروس الراحلين عـن جيورجيا قد بدأت في التزايد بصورة كبيرة مع نهايـة عقـد الثمانينيات [٦٩٩]. وبالعودة إلى صعيد مظاهرات تبليسي فـي أبريل عام ١٩٨٩ نضيف أن الجيورجيين قد نظموا خلالهـا إضرابا عاما أصاب الحياة في العاصمة بالشلل التـام، كمـا عمد بعض المناضـلين المنتمـين إلـى الحـزب الـوطني الجيورجي (غير الشرعي) إلى الإضـراب عـن الطعـام، مطالبين بحق جيورجيا في تقرير مصيرها، والاستقلال التام عن موسكو. وفي ٨ أبريل اندلعت المظاهرات فـي مدينـة كوتانيس الجيورجية تضامنًا مع متظاهري تبليسي، كما راح جيورجيو أبخازيا يتجاوبون مع بني نحلـتهم فـي تبليسـي، ويتظاهرون في العاصمة الأبخازية سوخومي [٧٠٠].

---

[٦٩٩] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. مرجـع سبق ذكره، ص ١٢٢، ١٢٣.

[٧٠٠] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق.

وهكذا فقد عمت المظاهرات ربـوع جيورجيـا مطالبـة بالاستقلال، وإذا كان المسئول السوفييتي الجيورجي الأصـل إدوارد شيفرنادزة قد نجح في تهدئة المتظاهرين عام ١٩٧٩، فإن مسعاه هذه المرة كان مآله إلى الفشل؛ إذ بات واضحا أن هيمنة الحزب ورجاله على الجيورجيين قد غـدت واهيـة، وبالتالي فلم يفلح شيفرنادزة في إثناء الجيورجيين عن المضي قدما في المطالبة باستقلالهم [٧٠١].

على أية حال فإن مظـاهرات تبليسـي قـد بلغـت أوج عنفوانها في التاسع من أبريل عام ١٩٨٩، وإزاء ذلك لم تجد السلطات السوفييتية من حل سوى قمع المتظاهرين، وسرعان ما راحت قوات تابعة للجيش السوفييتي تهاجم المتظـاهرين في تبليسي؛ حيث أسفرت المجابهة بين الفـريقين – حسـب التقديرات الرسمية – عن مقتل تسعة عشر شخصا، وجـرح بضع مئات آخرين [٧٠٢]. وإزاء تلك المذبحة المروعـة راح الجيورجيون يطلقون على يوم الأحد ٩ أبريل ١٩٨٩ "الأحد الأسود".

---

[٧٠١] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق.

[٧٠٢] Fuller, Op. Cit., P. ٣٤٢.

ومن جانب آخر فقد صادرت قـوات الأمـن – خـلال المصادمات – حوالي ٦٦ ألف قطعة سـلاح كانـت لـدى الجيورجيين، كما تم كشف النقاب عن حملة جيورجية شعبية واسعة النطاق استهدفت تعبئة المواطنين من شـتى أرجـاء جيورجيا في مواجهة الحكومة، فضلاً عن السعي إلى تكثيف المقاومة بين صفوف المنشقين، وممثلي الحركات العرقية...، وغيرهم من منظمي الاضطرابات [٧٠٣].

وهكذا فإن الجيورجيين ما إن أدركوا أن قبضة الكريملين عليهم قد خفت حتى هبوا لنيل استقلالهم، والتخلص من النير السوفييتي الذي طالما أنوا تحت وطأته.

---

[٧٠٣] انظر في هذا المضمون: أحمد عباس عبد البديع، مرجـع سـبق ذكره، ص ١٩٦.

والحق أن مذبحة تبليسي (أبريل ١٩٨٩) قد هيأت لتوحيد الجيورجيين في بوتقة حقد استشعروه إزاء الكريملين، ومـن جانب آخر فإن تزايد المطالب الانفصالية – التي سـنعرض لها لاحقًا – لدى الأبخاز والأذربيجانيين وغيرهم قد أدى إلى إقناع الحركات الوطنية الجيورجية بـأن جيورجيـا مهـددة بالتمزق، وأن موسكو تقف وراء هذا التهديد بغيـة تحطـيم الشعور القومي لدى الجيورجيين، وبالتـالي فإنـه لا بـديل أمامهم عن الاستقلال، وهو الأمر الذي يستلزم توحيد جهود الجيورجيين وسهرها في بوتقة واحدة سعيا لبلـوغ هـدفهم المنشود. ونظرا لكل ما تقدم فقد أنشأ الجيورجيون جبهـتهم الشعبية في يوليو ١٩٨٩، تلك الجبهة التي جمعـت شـتات أغلب الأحزاب والمنظمات التي كانت قد ظهرت إلى حيـز الوجود خلال النصف الثاني من عقد الثمانينيات، وعلى رأس هذه المنظمات والأحزاب منظمتان كانتا قد نشأتا عام ١٩٨٩، والتف أعضاؤهما في البداية حول أهداف ثقافية حال إحيـاء التراث الجيورجي، والنضال ضد الترويس الثقافي. غيـر أن تينك المنظمتين سرعان ما اتخذتا منحى سياسـيا ذا طـابع قومي استقلالي. وفضلاً عن هاتين المنظمتين فقـد ضـمت

الجبهة أحزابا عديدة حال الحـزب الـوطني الـديمقراطي، والحزب القومي من أجل الاستقلال.. وغيرهما. وقـد بـدا هدف الجبهة الشعبية الجيورجية جليا من خـلال برنامجهـا التأسيسي، والذي جاء فيه أن الجبهة هي: "تنظيم اجتمـاعي سياسي شعبي شامل يضم كافة ذوي الإرادة الطيبة من أجـل اسـتعادة الاسـتقلال السياسـي، والاقتصـادي، والثقـافي لجيورجيا، وخلق مجتمع ديمقراطي وإنساني من أجـل كـل الذين يعيشون فيه" [(٧٠٤)].

وهكذا يتضح في ثنايا كل ما تقدم أن الحركـة العرقيـة الجيورجية كانت حركة انفصـالية؛ إذ اسـتهدفت انسـلاخًا جيورجيا عن الاتحاد السوفييتي، وإقامة دولة مستقلة تضـم أبناء النحلة الجيورجية وتعبر عن هويتهم.

[(٧٠٤)] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. مرجـع سبق ذكره، ص ١٩٢، ١٩٣، ٢١٨.

وفي ٨ نوفمبر ١٩٨٩ – وفي إطار مناخ مفعم بالمشاعر القومية – راح مجلس السوفييت الأعلى الجيـورجي يخطـو خطوة هامة نحو الاستقلال المنشود لجمهوريتـه؛ إذ وافـق المجلس على تعديلات دستورية تعطي جيورجيا الحـق فـي رفض أي قانون سوفيتي يتعارض مع مصالحها [٧٠٥]. وعلى ذلك فقد بات جليا أن النزعة الانفصالية كانـت قـد غـدت مسيطرة على المؤسسات الجيورجية الرسمية، بما فيها تلـك التابعة لموسكو، والتي كانت قد أنشئت بقصد ترسيخ الاتحاد حال مجلس السوفييت، ومن هنا فقد أضحت تلك المؤسسات – في خضم النزعة العرقية المتأججة – بمثابة عامل مقوض للاتحاد، لا مرسخ له.

وارتباطًا بالاتجاه الاستقلالي الذي سيطر على أعضـائه راح مجلس السوفييت الجيورجي – في ٩ مـارس ١٩٩٠ – يطالب – دون أدنى مواربة – باستقلال جيورجيا، وانفصالها عن الاتحاد السوفييتي [٧٠٦]. ثم راح المجلس – في الحـادي

---

[٧٠٥] المرجع السابق، ص ١٤٢.

[٧٠٦] انظر في هذا المضمون: شهريات مجلة السياسة الدولية، العـدد (١٠١)، يوليو ١٩٩٠، ص ٢٧٩.

والعشرين من ذات الشهر – يخطو خطوة جديدة نحو ترسيخ نظام سياسي جيورجي ديمقراطي يستند إلى مبادئ مناقضة لتلك التي يقوم على هداها النظام السوفييتي؛ حيث وافق المجلس على إلغاء النص الدستوري الذي يقضي باحتكار الحزب الشيوعي للحياة السياسية في جيورجيا [٧٠٧]، وبالتالي فقد أقر البرلمان الجيورجي مبدأ التعددية الحزبية. والحق أن هذا الإجراء – في رأينا – يعد بمثابة محو للتاريخ السوفييتي لجورجيا؛ إذ بمقتضاه عاد الجيورجيون إلى ذات النظام النيابي التعددي الذي كان قائما في جمهوريتهم خلال فترة استقلالها الوجيزة، التي لم تدم أكثر من ثلاث سنوات بدأت في عام ١٩١٨، وانتهت في عام ١٩٢١.

ومن ناحية أخرى فقد قرر البرلمان الجيورجي – خلال جلسة ٩ مارس ١٩٩٠ – الاستجابة لمطالب الأحزاب والمنظمات السياسية الجيورجية – وعلى رأسها الجبهة الشعبية – وأعلن تأجيل الانتخابات البرلمانية – التي كان مزمعا عقدها في ذات الشهر – إلى خريف عام ١٩٩٠[٧٠٨]،

---

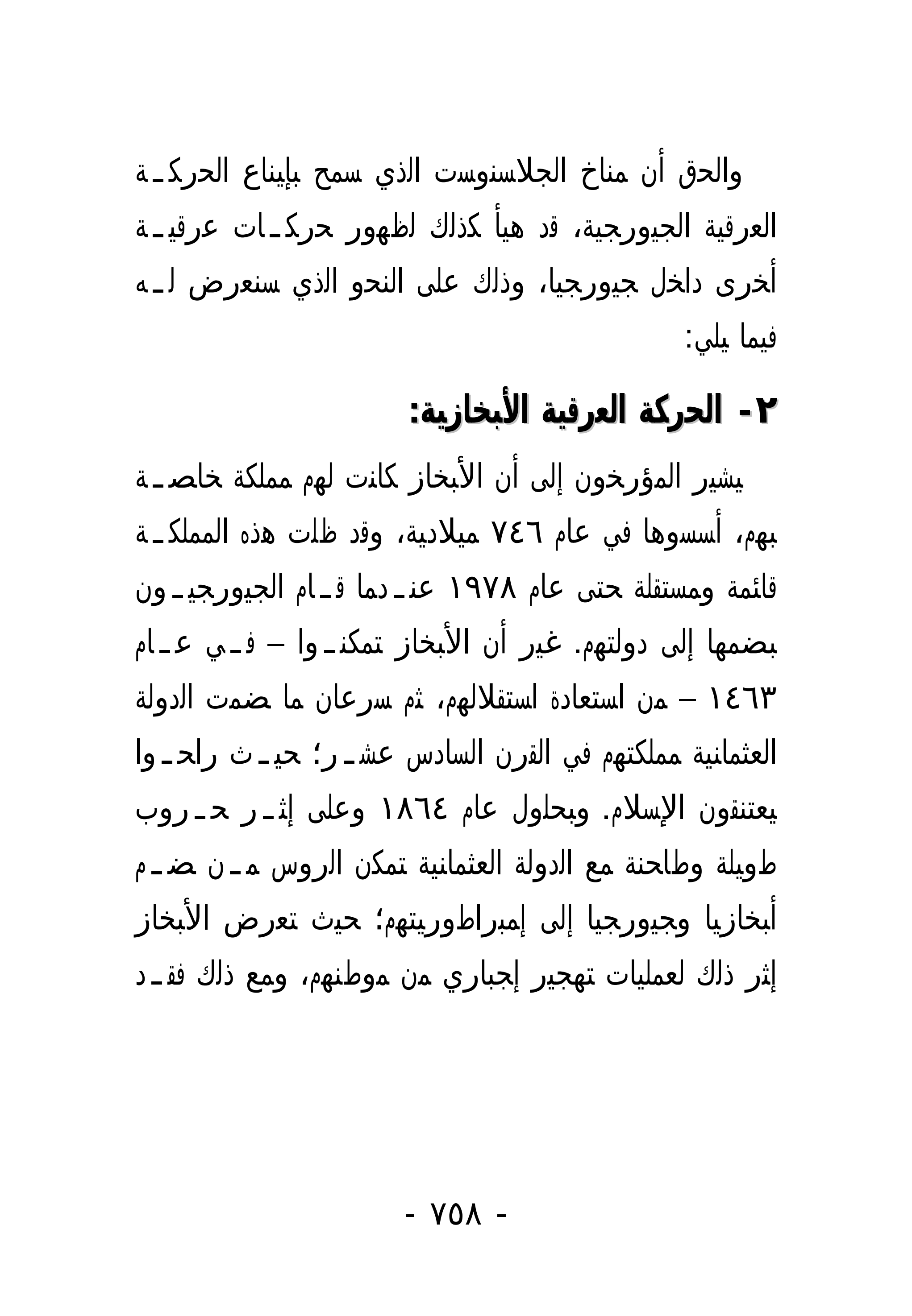
[٧٠٧] المرجع السابق.

[٧٠٨] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق.

وذلك بقصد إعطاء الفرصة للأحزاب الجيورجية الناشئة في ترسيخ وجودها والمشاركة بفاعلية في تلك الانتخابات، وعلى نحو يهيئ لإيناع التجربة الديمقراطية الوليدة. أما على صعيد الأحزاب والمنظمات الشعبية فقد راح أكثر من مائة حـزب ومنظمة جيورجية – في ٢٥ مارس ١٩٩٠ – يشاركون في تأسيس "منبر قومي من أجل الاستقلال"، عمدوا من ورائـه إلى أن يكون بمثابة قوة شعبية منافسة لمجلـس السـوفييت الأعلـى، فضـلاً عـن التفـاوض مـع موسـكو بصـدد الاستقلال[٧٠٩]. وهكذا فها هم الجيورجيون وقد هبوا – عـن بكرة أبيهم – مطالبين بالاسـتقلال، والـتخلص مـن ربقـة الكريملين. وبطبيعة الحال فإن ذلك لم يكن ليحدث إلا في ظل التراخي الذي انتاب القبضة الشيوعية في ظل البريسترويكا، بحيث لم تعد هي ذات القبضة التي طالمـا كـان الإرهـاب ديدنها، والصرامة المفرطة طابعها.

---

[٧٠٩] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٨.



والحق أن مناخ الجلاسنوست الذي سمح بإيناع الحركـة العرقية الجيورجية، قد هيأ كذلك لظهور حركـات عرقيـة أخرى داخل جيورجيا، وذلك على النحو الذي سنعرض لـه فيما يلي:

٢- الحركة العرقية الأبخازية:

يشير المؤرخون إلى أن الأبخاز كانت لهم مملكة خاصـة بهم، أسسوها في عام ٧٤٦ ميلادية، وقد ظلت هذه المملكـة قائمة ومستقلة حتى عام ١٩٧٨ عنـدما قـام الجيورجيـون بضمها إلى دولتهم. غير أن الأبخاز تمكنـوا – فـي عـام ١٤٦٣ – من استعادة استقلالهم، ثم سرعان ما ضمت الدولة العثمانية مملكتهم في القرن السادس عشـر؛ حيـث راحـوا يعتنقون الإسلام. وبحلول عام ١٨٦٤ وعلى إثـر حـروب طويلة وطاحنة مع الدولة العثمانية تمكن الروس مـن ضـم أبخازيا وجيورجيا إلى إمبراطوريتهم؛ حيث تعرض الأبخاز إثر ذلك لعمليات تهجير إجباري من موطنهم، ومع ذلك فقـد

ظلوا يقاومون الروس بضراوة حتى تمكن القياصـرة مـن إخماد تمردهم تماما في عام ١٨٧٧ [٧١٠].

أما في ظل الكيان السوفييتي فقد مثلت أبخازيا جمهوريـة ذات حكم ذاتي في إطار جمهورية جيورجيا الاتحادية. وقـد بلغ عدد سكان أبخازيا – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – حـوالي ٥٢٥٠٦١ نسمة، يتشكلون مما يربو على الأربع جماعـات عرقية أظهرها الجيورجيون، والأبخاز، والأرمن، والروس.

ويقدم الجدول التالي سردا لأعداد هذه الجماعات الأربـع الرئيسية في أبخازيا حسب تعداد ١٩٨٩:

---

[٧١٠] انظر في هذا المضمون: مختار شعيب عبد ا ، الصراع القومي والعرقي في الجمهوريات المستقلة: أبخازيـا – جيورجيـا، مجلـة السياسة الدولية، العدد (١٢٠)، ص ١٨٢، ١٨٣، وكذا: معتز محمد سلامة، الصراع على الساحل الشرقي للبحر الأسود، مجلة السياسـة الدولية، العدد (١١٥)، ص ٩٩.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الجيورجيون	٢٣٩٩٥٢
الأبخاز	٩٣٤٦٠
الأرمن	٧٨٧٥٩
الروس	٧٣٥٠٨

جدول رقم (٢٠)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بـ :

- معتز محمد سلامة، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩، وكذا:
- Fuller, Op. Cit., P. ٣٤٤.

ويتضح في ثنايا هذا الجدول أن الأبخاز يمثلون أقلية في موطنهم؛ إذ لا يشكلون سوى ١٧,٨ % فقط من عدد سكان أبخازيا، في حين يمثل الجيورجيون الجماعة ذات الكم البشري الأكبر في الجمهورية الأبخازية؛ إذ يشكلون حوالي ٤٥,٧ % من جملة عدد سكانها. وذلك كله على الرغم من أن الأبخاز كانوا – منذ قرن مضى – يشكلون حوالي ٦٨ % من جملة سكان أبخازيا. ويرتد التناقص الشديد الذي طرأ

على نسبة الأبخاز بين سكان موطنهم إلى هجـرة عشـرات الآلاف منهم إلى تركيا فرارا من الاضطهاد الذي تعرضوا له في ظل الحكم الروسي القيصري. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى قيام الجيورجيين بتوطين أعداد كبيرة مـن بنـي نحلتهم في أبخازيا [٧١١].

ويرى البعض أن قيام سـتالين بمـنح أبخازيـا وضـع الجمهورية ذات الحكم الذاتي – برغم تضاؤل نسبة الأبخـاز فيها – إنما استهدف إثارة العداء بينهم وبـين الجيـورجيين، إعمالاً لمبدأ فرق تسد. والحق أن الجيورجيين طالما نظـروا إلى الأبخاز – منذ سنوات العشرينيات – على أنهم أداة فـي يد موسكو، التي يتعـين تحـديهم بتحطـيمهم فـي الوقـت المناسب[٧١٢]. وهكذا فقد خيمت أجواء العـداء دومـا علـى العلاقات بين الجيورجيين والأبخاز.

---

[٧١١] انظر في هذا المضمون: معتز محمد سـلامة، نفـس المرجـع السابق.

[٧١٢] دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١١٧.

وتأسيسا على ما تقدم فإن الأبخاز – ظلوا منـذ رحيـل ستالين – يطالبون بالانفصال عن جيورجيا، والانضمام إلـى روسيا. وقد أكد الأبخاز على مطلبهم هذا إبان المظـاهرات التي قام بها الجيورجيون عام ١٩٧٨، والتي استهدفت – كما سبق أن أشرنا – الحصول على موافقة الكريملين بأن تصبح الجيورجية هي اللغة الرسمية لجيورجيا. فـإزاء ذلـك راح الأبخاز يتهمون الجيورجيين بالسعي إلـى تـدمير الهويـة الأبخازية، ويطالبون السلطات السوفييتية بسلخ جمهـوريتهم عن جيورجيا وضمها إلى روسيا، وهو المطلب الذي لم يحظ بموافقة قاطني الكريميلين وقتذاك. ولم يكن أمام الأبخـاز – في ظل القبضة الجبارة لموسكو آنذاك – سـوى الامتثـال، وكبت عدائهم المتصاعد إزاء الجيـورجيين. ومـع اعـتلاء جورباتشوف سدة الحكم في الكريملين فـي منتصـف عقـد الثمانينات فقد سمحت الجلاسنوست – على حد قول الـبعض – للعداء المتصاعد الأصم بين الجيـورجيين والأبخـاز أن يتحول إلى حقد معلن، وسرعان ما تفجـر الصـراع بـين الفريقين [٧١٣].

[٧١٣] راجع في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١١٨، ١١٩.

وقد طفت المشكلة الأبخازية على سطح الأحداث داخـل الاتحاد السوفييتي – من جديد – في يونيو عام ١٩٨٨ عندما تقدم الأبخاز إلى مؤتمر الحزب الشيوعي بوثيقة يطالبون فيها بالانفصال عن جيورجيا، كما راحوا يمطرون كافة مراكـز السلطة في الحزب والجمهورية، بل وعلى مستوى الاتحـاد السوفييتي بوابل من العرائض تحمـل ذات المطلـب. وإزاء ذلك نظم بعض آلاف من الجيورجيين مظاهرة في تبليسـي أكدوا من خلالها رفضهم لانفصال أبخازيا عـن جيورجيـا، رافعين شـعار "لا للانفصـال". كمـا اتهـم المتظـاهرون الأبخازيين باستبعاد الجيورجيين من كافة مواقع المسئولية في أبخازيا، وراحوا يرددون: "لا للتمييز". وسرعان ما جاء رد الأبخاز حاسما على متظاهري تبليسي؛ إذ قـاموا باسـتنفار شعبي هائل بين صفوفهم تمخض عن قيام مظاهرة ضـمت حشودا بشرية كانت من الضخامة بحيث لم تعهـد المنطقـة طيلة تاريخها نظيـرة لهـا، وراح المتظـاهرون يطـالبون بالانفصال، وبأن تصبح أبخازيا جمهورية ذات سيادة شـأنها في ذلك شأن جيورجيا [٧١٤].

---

[٧١٤] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٢٠، ١٢١.

وهكذا فعلى حين راح المتظاهرون في تبليسـي يهتفـون "جيورجيا للجيورجيين" راح المتظـاهرون فـي سـوخومي Sukhumi يزأرون "أبخازيا للأبخازيين" [٧١٥]، ولكي تشتعل بذلك العداءات بين الأعراق، على نحو أظهر بجلاء كم كانت زائفة عبارة "الصداقة بين الشعوب السوفييتية" التـي طالمـا رددها قاطنو الكريملين، وكم كان مستحيلاً تحقق الحلم اللينيني المتصل بالشعب السوفييتي الواحد ذي الهوية الجامعة.

على أية حالة فإن النزعة العرقية الأبخازيـة المتأججـة سرعان ما طالت الحزب الشيوعي الأبخـازي ذاتـه؛ إذ إن السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأبخازي راح يوقع علـى إحدى العرائض المطالبة بانفصال أبخازيا عـن جيورجيـا، وعندما تمت إقالته – إثر ذلك – راح ينضـم إلـى الجبهـة القوميـة الأبخازيـة المعروفـة بـ "أيجـلارا Ayglara" أو الوحدة، وهي الجبهة التي كانـت توجـه دفـة التحـرك الأبخازي نحو الاستقلال جنبا إلى جنب مـع جبهـة قوميـة أبخازية أخرى تعرف بـ "منبر شعب أبخازيا The forum for the People of Abkhazia" [٧١٦].

---

(٧١٥) White, Op. Cit., P. ١٦٣.

(٧١٦) Ibid.

وسعيا وراء تحقيق مطلبهم في الانفصال استمر الأبخاز في رفع العرائض التي تحمل هذا المطلب إلى كافة مراكز السلطة في الاتحاد السوفييتي، كما راحوا – من جانب آخر – يسعون إلى تزويد قواتهم الخاصة بالأسلحة الحديثة، ولهذا الغرض فقد شنوا – في يوليو ١٩٨٩ – هجوما عنيفًا ضد مقـار قـوات وزارة الداخلية، وعمدوا إلى الاستيلاء على ما بـداخلها مـن أسلحة. وفضلاً عما تقدم فقد نظم الأبخاز إضرابا شاملاً شلت من جرائه الحياة الاقتصادية في أبخازيا، بل وطالـت بعـض آثاره المناطق الجيورجية الأخرى [٧١٧]. وفي ذات الشهر (أي يوليو ١٩٨٩) اندلعت في الخامس عشـر والسـادس عشـر اشتباكات عنيفة بين الأبخاز والجيورجيين داخـل العاصـمة الأبخازية سوخومي؛ حيث راح الأبخاز يرفضون إنشاء فـرع لجامعة تبليسي في سوخومي. وقد أسفرت المجابهـات بـين الطرفين – حسب التقديرات الرسـمية – عـن مصـرع ١١ شخصا، وجرح ١٢٧ آخرين[٧١٨].

---

[٧١٧] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٨.

[٧١٨] White, Op. Cit., PP. ١٦٤ – ١٦٥.

كذلك فقد اندلعت مصادمات عنيفة بين الأبخاز والجيورجيين على إثر فوز تحالف حزبي المائدة المستديرة وجيورجيا الحرة Round Table Free Georgia Coalition الانفصالي في الانتخابات البرلمانية التي أجريت في جورجيا في أواخر عام ١٩٩٠ (٧١٩)، وهو التحالف الذي انتخب البرلمان الجيورجي الجديد زعيمه زياد جمساخورديا Zviad Gamsakhurdia رئيسا للجمهورية الجيورجية. وقد زادت المشاعر العرقية الأبخازية تأججا على إثر إعلان البرلمان الجيورجي الجديد استقلال جيورجيا في ٩ أبريل عام ١٩٩١ (٧٢٠). وراحوا يؤكدون – أكثر من أي وقت مضى – عزمهم الانفصال عن الاتحاد السوفييتي، ولكي يستمر بذلك الصراع العرقي بين الجيورجيين والأبخاز، ذلك الصراع الذي استمر مشتعل الأوار وازداد تأججا في أعقاب نيل جيورجيا لاستقلالها الفعلي عن الاتحاد السوفييتي على إثر فشل الانقلاب الذي استهدف الإطاحة بجورباتشوف من حكم الاتحاد السوفييتي في أغسطس عام ١٩٩١.

---

(٧١٩) Ibid., P. ١٦٥.

(٧٢٠) Fuller, Op. Cit., P. ٣٤٣.

ومع اعتلاء إدوارد شيفرنادزة سدة الحكم في جيورجيا مع بداية عام ١٩٩٢ راح البرلمان الأبخازي – في يونيو – يتقدم إلى السلطات الجيورجية بطلب لإقامة اتحاد جيورجي أبخازي، غير أن الأبخازيين لم يتلقوا – حتى منتصف يوليو – أي رد على اقتراحهم من جانب السلطات الجيورجية؛ مما حدا بالبرلمان الأبخازي أن يعلن عودة أبخازيا إلى الالتزام بدستور عام ١٩٢٥، والذي كانت أبخازيا – في ظله – جمهورية اتحادية [٧٢١]. والحق أن هذا الإجراء من جانب البرلمان الأبخازي كان يعني عملاً – وفي ظل تفكك الاتحاد السوفييتي – أن تصبح أبخازيا دولة مستقلة.

على أية حال فإن شيفرنادزة سرعان ما راح يرد بحسم وصرامة على الإجراء الأبخازي، ففي ١٤ أغسطس عام ١٩٩٢ شرع الآلاف من الجيش الجيورجي في احتجاج أبخازيا، ولم يكد يمضي أسبوع على بدء الهجوم حتى أعلنت جيورجيا سيطرتها على أبخازيا وعاصمتها سوخومي. غير أن الأبخاز لم يستسلموا للزحف الجيورجي؛ إذ سارعوا بتشكيل قيادة عمليات للجيش الأبخازي وأعلنوا التعبئة العامة،

---

(٧٢١) Ibid. P. ٣٤٤.

وراحوا يشنون هجماتهم الضارية على القوات الجيورجيـة، ويحاصرونها في سوخومي. وإثر معارك طاحنة اسـتمرت اثنا عشر يوما دانت للأبخاز السيطرة على عاصمتهم، فـي الوقت الذي خرج فيه شيفرنادزة منها بمساعدة الروس علـى متن إحدى طائراتهم، بعد أن حاصره الأبخاز في أحد مخازن الأسلحة النووية القديمة [٧٢٢].

وفي ٣١ ديسمبر بدأت في جنيف – بواسطة كل من الأمم المتحدة وروسيا – مباحثات سلام بين الجيورجيين والأبخاز؛ حيث تمتا بمقتضاها الموافقة على وقف الأعمـال الحربيـة، وتشكيل مجموعة عمل لتحديد الوضع السياسـي لأبخازيـا، وتمركز قوات حفظ سلام دولية علـى الحـدود الجيورجيـة الأبخازية بغية مراقبة تطبيق الاتفاق، بيد أنه سرعان ما بان واضحا خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٩٤ أن الفشل هـو مآل مفاوضات جنيف؛ إذ استمر كل من الفصيلين الجيورجي والأبخازي قابضا على موقفه المناقض لموقف الآخر. وعلى نحو هيأ لاندلاع الاشتباكات – من جديـد – بـين الأبخـاز

---

[٧٢٢] انظر في هذا المضمون: مختار شعيب عبد ا ، مرجـع سـبق ذكره، ص ١٨٤.

والجيورجيين بدءا من ٢٦ مارس عام ١٩٩٤ [٧٢٣]. وعلـى الرغم من الهدوء النسبي الذي يخيم على أجواء العلاقات بين جيورجيا وأبخازيا – في وقتنا الـراهن – إلا أن الصـراع الجيورجي الأبخازي لم تقتلع جذوره بعد؛ إذ لا يزال الأبخاز مسيطرين على جمهـوريتهم، قابضـين علـى اسـتقلالهم، رافضين لإياه بديلاً. في حين يرفض الجيورجيون الإذعـان للأمر الواقع الذي فرضه الأبخاز، لأن من شأن مثـل هـذا الإذعان أن يهيئ لمزيد من الحركات الانفصـالية أن تطـل برأسها على نحو يهدد بتمزيق أوصال جورجيا قاطبة.

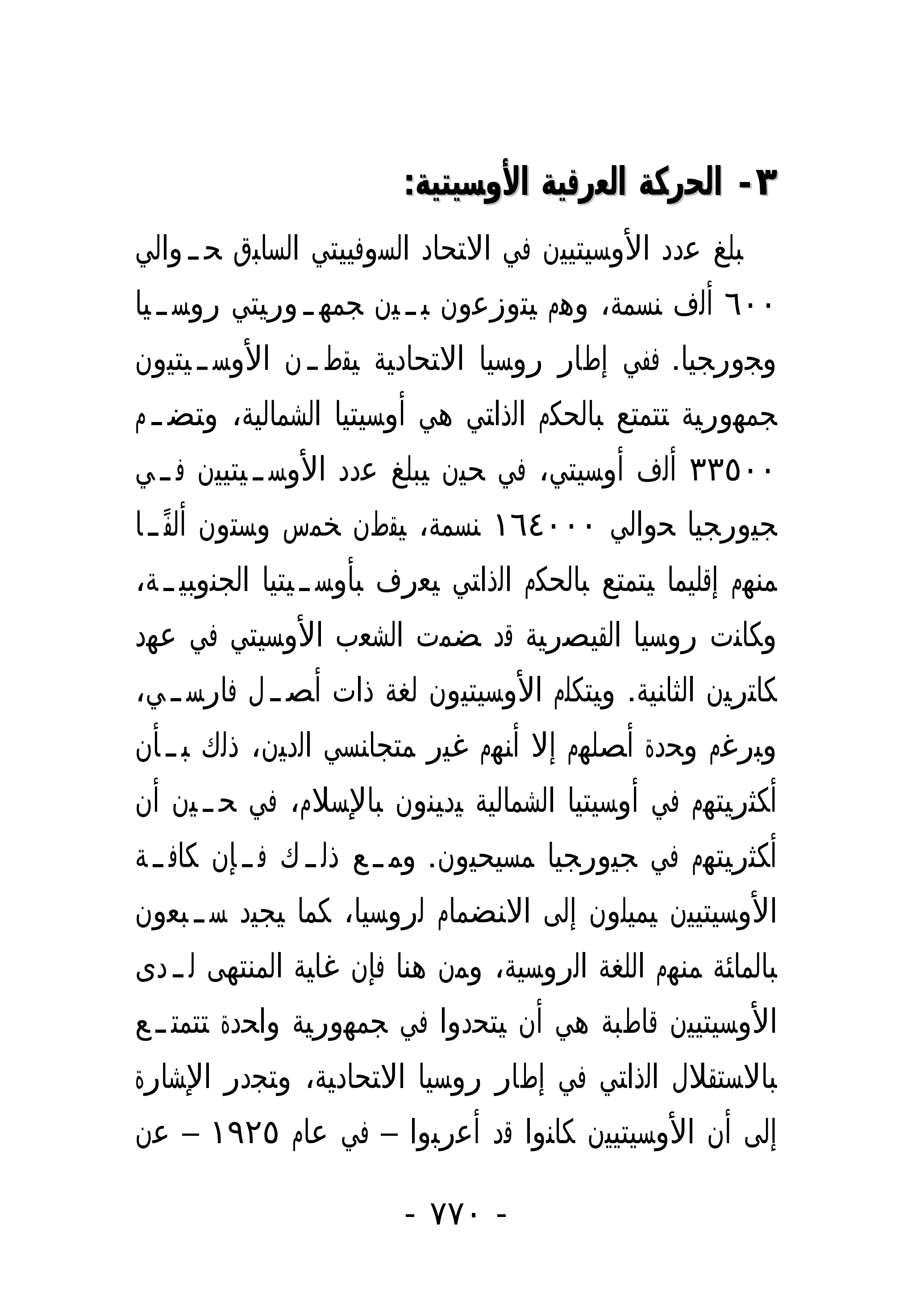
وهكذا فعلى الرغم من تفكك الاتحـاد السـوفييتي ونيـل جيورجيا لاستقلالها إلا أنها لا تزال – حتى يومنا هذا – تئن تحت وطأة الصراع العرقي، ذلك الصراع الذي يمثل خطرا داهما أودى باستقرارها، وكاد أن يعصف بوحدتها.

---

[٧٢٣] انظر في هذا المضمون: نفس المرجع السابق.

٣- الحركة العرقية الأوسيتية:

بلغ عدد الأوسيتيين في الاتحاد السوفييتي السابق حـوالي ٦٠٠ ألف نسمة، وهم يتوزعون بـين جمهـوريتي روسـيا وجورجيا. ففي إطار روسيا الاتحادية يقطـن الأوسـيتيون جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي هي أوسيتيا الشمالية، وتضـم ٣٣٥٠٠ ألف أوسيتي، في حين يبلغ عدد الأوسـيتيين فـي جيورجيا حوالي ١٦٤٠٠٠ نسمة، يقطن خمس وستون ألفًـا منهم إقليما يتمتع بالحكم الذاتي يعرف بأوسـيتيا الجنوبيـة، وكانت روسيا القيصرية قد ضمت الشعب الأوسيتي في عهد كاترين الثانية. ويتكلم الأوسيتيون لغة ذات أصـل فارسـي، وبرغم وحدة أصلهم إلا أنهم غير متجانسي الدين، ذلك بـأن أكثريتهم في أوسيتيا الشمالية يدينون بالإسلام، في حـين أن أكثريتهم في جيورجيا مسيحيون. ومـع ذلـك فـإن كافـة الأوسيتيين يميلون إلى الانضمام لروسيا، كما يجيد سـبعون بالمائة منهم اللغة الروسية، ومن هنا فإن غاية المنتهى لـدى الأوسيتيين قاطبة هي أن يتحدوا في جمهورية واحدة تتمتـع بالاستقلال الذاتي في إطار روسيا الاتحادية، وتجدر الإشارة إلى أن الأوسيتيين كانوا قد أعربوا – في عام ١٩٢٥ – عن



رغبتهم هذه، غير أن مطلبهم قوبل بـالرفض مـن جانـب ستالين[٧٢٤].

وبصدد أوسيتيا الجنوبية – وهي ما يهمنا في هذا المقام – فإن الأوسيتيين يشكلون ثلثـا سـكانها، فـي حـين يشـكل الجيورجيون الثلث الباقي [٧٢٥]. ويشير البعض إلى أن ثمـة أحقادا تاريخية تحكم علاقة الجيورجيين بالأوسيتيين، ومـرد هذه الأحقاد إلى أن الأوسيتيين لم يبدوا أي اهتمام بما تعرض له الجيورجيون مـن مـذابح عـام ١٩٢٤، وبالتـالي فلـم يساندونهم. ومن هنـا راح الجيورجيـون ينظـرون إلـى الأوسيتيين على أنهم ألعوبة في يد موسكو، وعلى ذلك فقـد عمدوا دوما إلى تحطيم هويتهم، وفصم عري الترابط بيـنهم وبين ذويهم في الشمال، بيد أن الأوسيتيين قد ظلوا قابضـين على هويتهم، مدافعين بكل ضراوة عن مقومـات ذاتيـتهم، لا سيما ما يتصل منها باللغة والتقاليـد. ويمكـن القـول إن ميراث العداء بين الفصيلين الجيورجي والأوسيتي قد تنـامى

---

[٧٢٤] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٩، ١٤٠.

[٧٢٥] Fuller, Op. Cit., P. ٣٤٤.

من جراء موقف الأوسيتيين اللامبالي إزاء المذبحـة التـي شهدتها تبليسي في يوم الأحد الأسود [٧٢٦].

على أية حال فإن النزعـة العرقيـة الانفصـالية لـدى الأوسيتيين الجنوبيين قد بلغـت ذروة حـدتها فـي رحـاب البريسترويكا والجلاسنوست. لذلك فقد أسس الأوسـيتيون – خلال عام ١٩٨٩ – جبهة شعبية راحت تعبر عن مطـبهم الخاص بالانفصال عن جيورجيا، والانضمام إلى بني نحلتهم في الشمال تحت الراية الروسية. وقد عرفت هـذه الجبهـة بـ"أديمون بنخاس". ولقد بدأت أديمون بنخاس باللجوء إلـى تقـديم عـرائض إلـى السـلطات السـوفييتية والروسـية والجيورجية، عبرت فيها عن مطالب الأوسيتيين، ثم سرعان ما راحت الجبهة تدرك أهمية القوة المسلحة، وبالتـالي فقـد سعت إلى تكوين قوة أوسيتية دفاعية، وعمدت إلى تزويـدها بالعتاد والأسلحة. وهو الأمر الذي أثار قلق جيورجيا؛ ممـا حدا بوزير داخليتها إلى إرسال قواته إلى أوسيتيا – في نهاية عام ١٩٨٩ – بغية السيطرة على الموقف داخلها [٧٢٧].

---

[٧٢٦] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٥.

[٧٢٧] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٤١.

وفي إطار محاربتها لأديمون بنخاس راحـت السـلطات الجيورجية – ممثلة في مجلس السوفييت الأعلى – تصدر – في أغسطس ١٩٩٠ – قانونًا انتخابيا يحظر علـى الجبهـة الأوسيتية ممارسة حـق الترشـيح للانتخابـات. وقـد رد الأوسيتيون على ذلك – في ٢٠ سبتمبر ١٩٩٠ – بأن أصدر برلمانهم قرارا اعتبر بمقتضـاه إقلـيم أوسـيتيا الجنـوبي جمهورية ديمقراطية سوفيتية تتمتع بالسيادة والحكم الـذاتي. وسرعان ما رد الجيورجيون على ذلك – في ٢١ سبتمبر – بإصدار قرار من جانبهم اعتبروا فيـه أن إعـلان أوسـيتيا السيادة غير دستوري [٧٢٨]، ولم يكتف الجيورجيون بما تقدم وإنما راح الرئيس الجيورجي جمساخورديا يصـدر – فـي ديسمبر ١٩٩٠ – قرارا يلغي بمقتضاه تمتع الإقليم الأوسيتي بالحكم الذاتي، وسرعان ما راح البرلمان الأوسيتي يؤكد على حق الإقليم في الاتحاد مع جمهورية أوسيتيا الشـمالية، فـي رحاب جمهورية روسيا الاتحادية.

---

[٧٢٨] معتز محمد سلامة، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠.

من جانب آخر فقد استمر كفاح الأوسيتيين في مواجهة الجيورجيين طيلة عام ١٩٩١، بيد أن هذا الكفاح اتسم بالعشوائية، والتشتت. وفي يناير ١٩٩٢ وافقت أغلبية ساحقة من الأوسيتيين في استفتاء شعبي أجري آنذاك على انفصال أوسيتيا الجنوبية عن جيورجيا، وانضمامها إلى أوسيتيا الشمالية تحت الراية الروسية [٧٢٩]. وبطبيعة الحال فقد رفض الجيورجيون تحقيق المطلب الأوسيتي، ولا يزال الأوسيتيون – حتى يومنا هذا – يسعون بشتى السبل إلى الانفصال عن جيورجيا، والاتحاد مع بني نحلتهم في أوسيتيا الشمالية، لكي يكونون جمهورية واحدة تتمتع بالحكم الذاتي في إطار روسيا الاتحادية.

٤- الحركات العرقية الأخرى داخل جيورجيا:

لم تقتصر الحركات العرقية في جيورجيا على ما تقدم وإنما شملت كذلك حركتين أخريين هما:

---

[٧٢٩] Fuller, Op. Cit., P. ٣٤٥.

أ- الحركة العرقية الأدغارية [٧٣٠]:

يقطن الأدغار في جيورجيا جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي وهي جمهورية أدغاريا. وبرغم كون الأدغار جيورجيي السلالة إلا أنهم يستشعرون هوية خاصة ترتد إلى إسلام جانب كبير منهم، فضلاً عن تأثرهم بالثقافة التركية طيلة فترة التواجد العثماني بجمهوريتهم، الأمر الذي يجعلهم يشعرون بالعزلة والاغتراب الثقافي لا سيما في ظل الاضطهاد الديني الذي يعانونه في جيورجيا. وقد تمثل أول مظهر من مظاهر تعبير الأدغار عن مشاعرهم العرقية في المظاهرات التي قاموا بها في أبريل عام ١٩٩١ كتعبير عن رفضهم للمقترحات الجيورجية بإلغاء الحكم الذاتي لأدغاريا، فضلاً عن احتجاجهم على محاولات التنصير التي يمارسها الجيورجيون ضد الأدغار، والأذربيجانيين، والأكراد في أدغاريا، وتتمثل غاية المنتهى بالنسبة للأدغار في الانسلاخ عن جيورجيا والانضمام لتركيا، الأمر الذي يجعل من المحتمل حدوث نزاع في المستقبل بين تركيا وجيورجيا بصدد أدغاريا.

---

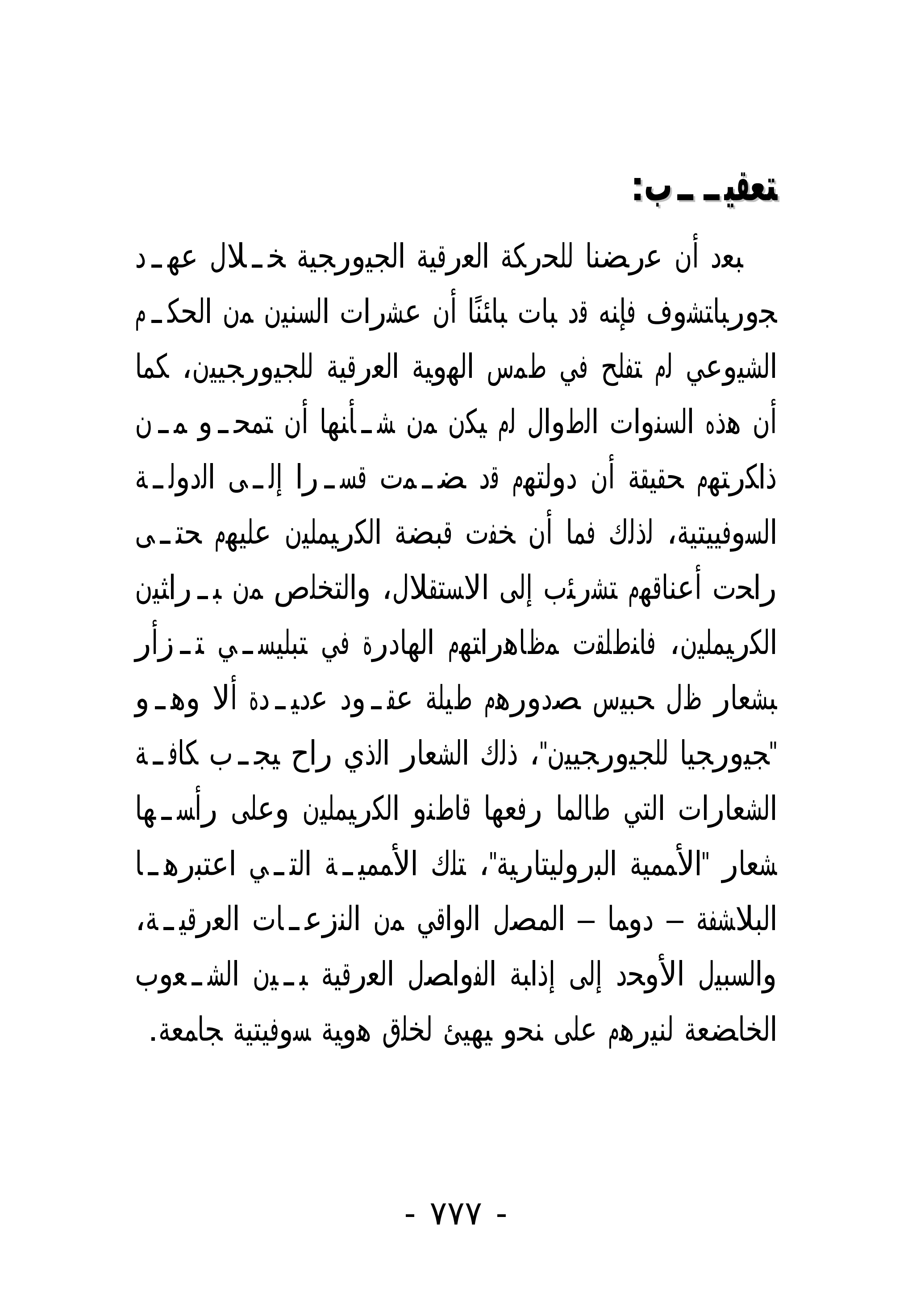
[٧٣٠] انظر بصدد هذه الحركة: معتز محمد سلامة، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩.

ب- الحركة العرقية الأذربيجانية [٧٣١]:

حيث توجد في جيورجيا أقلية أذربيجانية يعتد بها؛ إذ يبلغ تعدادها – حسب إحصاء ١٩٨٩ – حوالي ٣١٠٧١٤ نسمة، وفي ظل الشعور الإسلامي المتنامي الذي شهدته كافة أرجاء الاتحاد السوفييتي راح الأذربيجانيون يدركون – أكثر من أي وقت مضى – تمايزهم إزاء الجيورجيين، وبالتالي فقد عمدوا إلى المطالبة بأن تصبح لهم جمهورية تتمتع بـالحكم الـذاتي تجمع شتاتهم وتعبر عـن هـويتهم، وذلـك علـى غـرار الجمهورية الأبخارية المتمتعة بالحكم الذاتي.

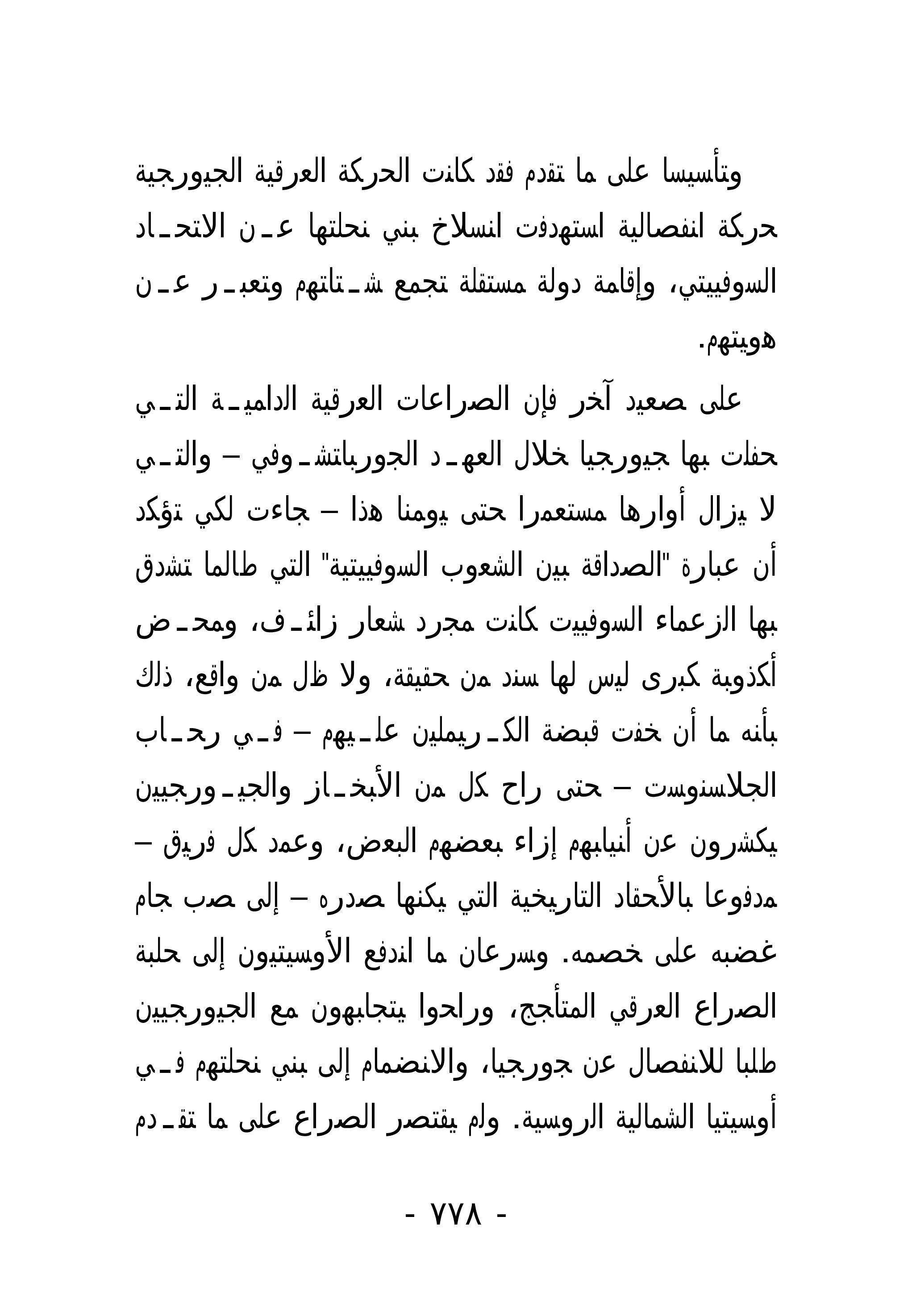
---

[٧٣١] انظر بصدد هذه الحركة: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٨.



تعقيـــب:

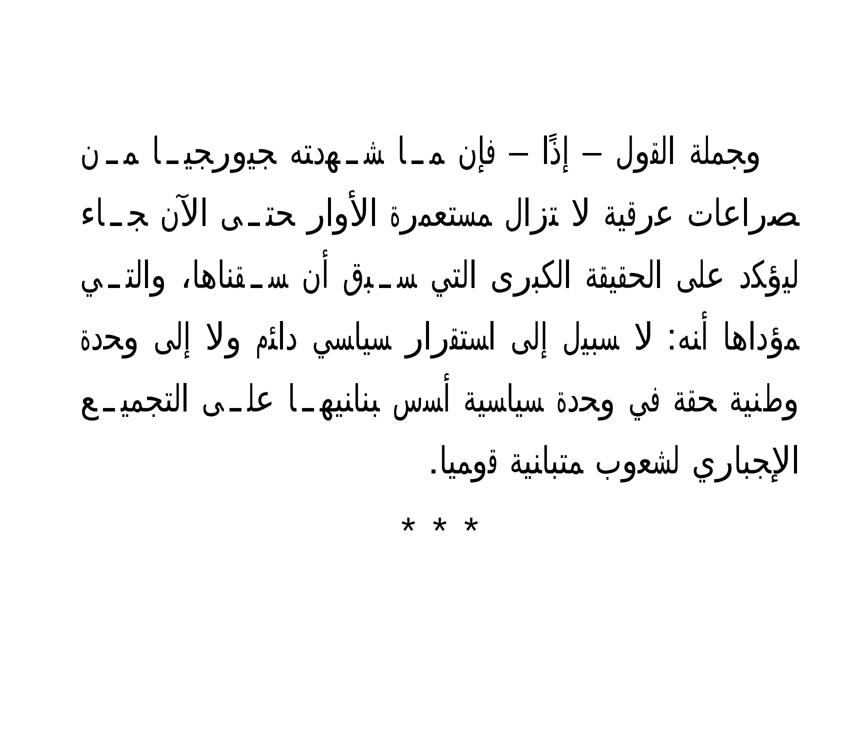
بعد أن عرضنا للحركة العرقية الجيورجية خـلال عهـد جورباتشوف فإنه قد بات بائنًا أن عشرات السنين من الحكـم الشيوعي لم تفلح في طمس الهوية العرقية للجيورجيين، كما أن هذه السنوات الطوال لم يكن من شـأنها أن تمحـو مـن ذاكرتهم حقيقة أن دولتهم قد ضـمت قسـرا إلـى الدولـة السوفييتية، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتـى راحت أعناقهم تشرئب إلى الاستقلال، والتخاص من بـراثين الكريملين، فانطلقت مظاهراتهم الهادرة في تبليسـي تـزأر بشعار ظل حبيس صدورهم طيلة عقـود عديـدة ألا وهـو "جيورجيا للجيورجيين"، ذلك الشعار الذي راح يجـب كافـة الشعارات التي طالما رفعها قاطنو الكريملين وعلى رأسـها شعار "الأممية البروليتارية"، تلك الأمميـة التـي اعتبرهـا البلاشفة – دوما – المصل الواقي من النزعـات العرقيـة، والسبيل الأوحد إلى إذابة الفواصل العرقية بـين الشـعوب الخاضعة لنيرهم على نحو يهيئ لخلق هوية سوفيتية جامعة.



وتأسيسا على ما تقدم فقد كانت الحركة العرقية الجيورجية حركة انفصالية استهدفت انسلاخ بني نحلتها عـن الاتحـاد السوفييتي، وإقامة دولة مستقلة تجمع شـتاتهم وتعبـر عـن هويتهم.

على صعيد آخر فإن الصراعات العرقية الداميـة التـي حفلت بها جيورجيا خلال العهـد الجورباتشـوفي – والتـي لا يزال أوارها مستعمرا حتى يومنا هذا – جاءت لكي تؤكد أن عبارة "الصداقة بين الشعوب السوفييتية" التي طالما تشدق بها الزعماء السوفييت كانت مجرد شعار زائـف، ومحـض أكذوبة كبرى ليس لها سند من حقيقة، ولا ظل من واقع، ذلك بأنه ما أن خفت قبضة الكـريملين علـيهم – فـي رحـاب الجلاسنوست – حتى راح كل من الأبخـاز والجيـورجيين يكشرون عن أنيابهم إزاء بعضهم البعض، وعمد كل فريق – مدفوعا بالأحقاد التاريخية التي يكنها صدره – إلى صب جام غضبه على خصمه. وسرعان ما اندفع الأوسيتيون إلى حلبة الصراع العرقي المتأجج، وراحوا يتجابهون مع الجيورجيين طلبا للانفصال عن جورجيا، والانضمام إلى بني نحلتهم فـي أوسيتيا الشمالية الروسية. ولم يقتصر الصراع على ما تقـدم

بل وراح الأدغار بدورهم يرفضون إلغـاء الحكـم الـذاتي لجمهوريتهم، ويطالبون بالانضمام إلى تركيا، في حين عمـد الأذربيجانيون إلى المطالبة بحق الحكم الـذاتي فـي إطـار جيورجيا. وهكذا فقد اشتعلت الجمهورية الجيورجية بنيـران العرقية المتأججة، على نحو عصف بالاسـتقرار السياسـي، ودمر الوحدة الوطنية بين قاطنيها، وراح ينذر بتفتتها قاطبة؛ إذ تمكن الأبخاز من السيطرة على جل إقليم أبخازيا، علـى إثر معـارك حاميـة الـوطيس خاضـوها فـي مواجهـة الجيورجيين، حتى تمكنوا في النهاية من بسط نفوذهم علـى أراضي أسلافهم، معلنين قيام دولة أبخازيا المسـتقلة. وهـو الأمر الذي لم يكن ليذعن له الجيورجيون، فراحوا يرفضون الاعتراف باستقلال أبخازيا، وإن كان وهن قوتهم وضـراوة القوات الأبخازية قد حالا دون خوضهم غمار حرب جديـدة بغية استرداد أبخازيا. وعلى ذلك فإن الصـراع الجيـورجي الأبخازي مازالت جذوره تضرب في أرض الواقع، وبالتالي فإن آخر حلقاته لم تنته بعد. كما أن الصـراع الجيـورجي الأوسيتي لما يزل قائما، فضلاً عن أن الأدغار لم يكفوا بعـد عن المطالبة بالانسلاخ عن جيورجيا والانضمام لتركيا.



وجملة القول – إذًا – فإن ما شهدته جيورجيا من صراعات عرقية لا تزال مستعمرة الأوار حتى الآن جاء ليؤكد على الحقيقة الكبرى التي سبق أن سقناها، والتي مؤداها أنه: لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في وحدة سياسية أسس بنانيها على التجميع الإجباري لشعوب متباينة قوميا.

* * *

المبحث الرابع
الحركتان العرقيتان الأوكرانية والبيلوروسية خلال عهد جورباتشوف

والحق أننا نجمع بين دراسة هاتين الحركتين في مبحث واحد نظرا لكون كل من أوكرانيا وبيلوروسيا تمثل جمهورية سلافية؛ إذ تشتركان مع روسيا في تلك الصفة، وبالتالي فقد كانتا أكثر الجمهوريات السوفييتية ترابطًا مع الأخ الأكبر. ولكن هل أدى ذلك إلى الحيلولة دون ظهور حركات عرقية انفصالية داخل تينك الدولتين؟ هذا ما ستتضح الإجابة عليه من خلال الصفحات التالية.

المطلب الأول
الحركة العرقية الأوكرانية

أولاً: تعريف بجمهورية أوكرانيا وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية أوكرانيا ٤٤٥٠٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة كييف Keiv [٧٣٢]، ولقد كانت أوكرانيا تُمثل – في ظل الاتحاد السوفييتي – ثاني كبرى الجمهوريات من حيث عدد السكان؛ إذ كانت تلي روسيا في هذا الصدد[٧٣٣]. وقد وصل عدد سكان أوكرانيا – حسب إحصاء عام ١٩٨٩ – إلى حوالي ٥١٤٧١٠٠٠ نسمة، يتشكلون من ما يربو على ثمان جماعات عرقية أظهرها الأوكرانيون، والروس، والبيلوروس، والمولداف، والبلغار، والبولنديون، والمجريون، والرومانيون.

---

(٧٣٢) إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٧٣٣) Duncan, Peter, J. S., Ukrainians, in: Smith. Graham (ed.), Op. Cit., P. ٩٥.

ويمثل الأوكرانيون – حسب ما سيتضح من الجدول التالي – أغلبية عظيمة الشأن في وطنهم؛ إذ يشكلون حوالي ٧٢,٧% من جملة عدد سكان أوكرانيا. في حين يمثل الروس كبرى الأقليات داخل الجمهورية الأوكرانية؛ إذ يشكلون حوالي ٢٢,٦ % من جملة عدد سكانها. وتتعين الإشارة إلى أن الروس عموما كانوا يعتبرون الأوكرانيين أقرب الجماعات العرقية السوفييتية إليهم؛ إذ كانوا يطلقون عليهم وصف "أشقائنا الأقدمين" كما كانوا يعتبرونهم الأخ الأكبر الثاني، ولعل مرد ذلك إلى انحدار كل من الروس والأوكرانيين من ذات الأصل "السلافي".

ونظرا لما تقدم فقد كان الروس يقبلون على الهجرة إلى أوكرانيا، وهذا ما يفسر تعاظم حجم الأقلية الروسية داخل الدولة الأوكرانية.

ونقدم في الجدول التالي سردا لأعداد الجماعات العرقية الثمان الرئيسية في أوكرانيا حسب تعداد عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	**تعدادها (نسمة)**
الأوكرانيون	٣٧٤١٩٠٠٠
الروس	١١٣٥٦٠٠٠
البيلوروس	٤٤٠٠٠٠
المولداف	٣٢٥٠٠٠
البلغار	٢٣٤٠٠٠
البولنديون	٢١٥٠٠٠
المجريون	١٣٦٠٠٠
الرومانيون	١٣٥٠٠

جدول رقم (٢١)

المصدر: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣.

وينحدر الأوكرانيون – كما سبق أن أشرنا – من أصـل سلافي، ويتكلمون لغة تنتمي إلى مجموعة اللغات السـلافية الشرقية، وهم يدينون بالمسـيحية بمـذهبها الأرثوذكسـي، ويتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية [٧٣٤].

ثانيا: الحركة العرقية الأوكرانية:

لقد سعي ستالين بشتى السبل إلى تدمير النزعة القوميـة الأوكرانية، ويرى البعض أنه قد رتب – عن عمد – المجاعة الكبرى خلال عامي ١٩٣٢، ١٩٣٣، والتي هلك من جرائها ما يربو على الثلاثة ملايين أوكراني. كما فكر سـتالين فـي اقتلاع الشعب الأوكراني بأسره وتشتيته إبان الحرب العالمية الثانية بتهمة الخيانة، بيد أن تعاظم عدد الأوكرانيين قد حـال بين ستالين وإعمال فكرته هذه [٧٣٥].

---

(٧٣٤) White, Op. Cit., P. ١٤١.

(٧٣٥) دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧، ١٨٨.

كما تتعين الإشارة إلى أن ستالين قد عمـد إلـى طمـس الهوية الدينية لأوكرانيا الغربية، ذلك القطاع مـن أوكرانيـا الذي كان خاضعا في الماضـي للإمبراطوريـة النمسـاوية المجرية، والذي قام ستالين بضمه غـداة الحـرب العالميـة الثانية، ثم سرعان ما أصـدر قـرارا بـربط الأوكـرانيين الغربيين كاثوليكيي المذهب بالكنيسة الأرثوذكسية الروسـية، بيد أنهم – على حد قول البعض – لم يذعنوا أمـام فقـدانهم لسلطة الفاتيكان، وحرية المعتقد؛ إذ باتت أوكرانيـا الغربيـة تُمثل مرتعا خصبا لحركات البشير السري التي كـان يقـوم عليها قساوسة بولنديون [٧٣٦].

من جانب آخر تشير الدلائل – على حد قول الـبعض – إلى تنامي المشاعر العرقية لدى الأوكرانيين منذ بداية عقـد الثمانينيات؛ حيث بزغت مظاهر عديدة للاحتجـاج القـومي قادته النخبة الأوكرانية، وعلى سبيل المثال فقد أرسل الكاتب الأوكراني (زيوبا) مذكرة احتجاج طويلـة إلـى السـلطات السوفييتية، راح يرفض – من خلالها – تـرويس أوكرانيـا

---

[٧٣٦] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٨٨.

تحت غطاء الأممية؛ حيث عنون مذكرتـه بـ ـ "أمميـة أم ترويس" [٧٣٧].

وعلى أية حال فإن النزعة العرقية الأوكرانية بلغـت أوج حدتها خلال عهد جورباتشوف، وعلى الرغم من ذلـك فـإن الجبهة الشعبية الأوكرانية لم يكتمل بنيانها إلا في سبتمبر عام ١٩٨٩. وقد كان مرد هذا التأخير في اكتمال بنيان الجبهة إلى تشتت العمل السياسي بين عاصمتي شطري أوكرانيـا كييـف ولفوف من ناحية، وضراوة المعارضة التي قوبلت بها الجبهة من قِبل السلطات السوفييتية من ناحية أخرى [٧٣٨]. والحق أن الجبهة الشعبية الأوكرانية كانت قد بدأت تطفو علـى سـطح الحياة السياسية منذ نهاية عام ١٩٨٨؛ حيث كان اهتمامهـا – في البداية – ينصب على أمور تتصل بالحفاظ علـى البيئـة، والدعوة إلى خفض التسلح النووي، فضلاً عن بعض المسائل المتعلقة بالثقافة واللغة الأوكرانيتين [٧٣٩]. ثم شيئًا فشيئًا راحت

---

[٧٣٧] انظر في هذا المضمون: دانكوس، انتفاضة القوميات...، مرجـع سبق ذكره، ص ١٨٢.

[٧٣٨] انظر في هذا المضمون: نهاية الإمبراطورية.. مرجع سبق ذكره، ص ١٨٩.

[٧٣٩] White, Op. Cit., P. ١٦٥.

الأهـــداف الحقيقيـــة للجبهـــة تظهـــر للعيـــان، لا سيما غداة اكتمال بنيانها، والذي تم – كما سبق أن أشرنا – في ١٠ سبتمبر عام ١٩٨٩، ففي ذلك اليـوم عقـد المـؤتمر التأسيسي للجبهة الشعبية الأوكرانيـة التـي راحـت تعـرف "بالحركة Rukh" [٧٤٠]. وغداة تأسيسها راحت راخ تطالـب بأن تصبح الأوكرانية هي اللغة الرسمية لأوكرانيا، كما عمدت إلى المطالبة بنيل الجمهورية الأوكرانية لاستقلالها الاقتصادي، وإزاء ذلك بدأ أعضاء الحزب الشيوعي الأوكراني يدركون أن الهدف الحقيقي لراخ إنما يكمن في استقلال أوكرانيا التام عـن الاتحاد السوفييتي، وبالتالي فقد راح فريق يعتد به منهم يهاجم الجبهة ويطالب بالتصدي "للمتطرفين الذين يحلمون بالاستيلاء على السلطة، وفرض أفكار ذات طابع عرقي على الشـعب، والانفصال عن الاتحاد السوفييتي، وإعـادة الاعتبـار لتيـار البانديرية [*]، وكافة الرموز القومية" [٧٤١].

---

[٧٤٠] Ibid.

[*] نسبة إلى ستبيان بانديرا قائد المقاومة الأوكرانيـة ضـد السـيطرة السوفيتية على أوكرانيا الغربية.

[٧٤١] دانكوس: نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠، ١٩١.

وعلى الرغم من الهجوم الضـاري الـذي شـنه غـلاة الشيوعيين على راخ فإنها سرعان ما اكتسبت تأييدا شـعبيا عظيم الشأن، على نحو خلع عليها شرعية راسخة راخـت – كما أثبت الواقع فيما بعد – تجب شرعية الحزب الشـيوعي الأوكراني، وتتعين الإشارة إلى أن شرعية الجبهة الشـعبية ورسوخ قاعدتها كانت قد تأكدت حتى قبل انعقاد مؤتمرهـا التأسيسي، وقد بدا ذلك جليا من خـلال نتـائج الانتخابـات التشريعية التي أجريت في أوكرانيا خلال شهر مارس عـام ١٩٨٩؛ حيث حققت الجبهة – التي كانت لم تزل في طـور التكوين – نجاحا يعتد به في مواجهـة الحـزب الشـيوعي؛ إذ لحقت هزيمة ساحقة بعدد كبير مـن مسـئولي الدولـة والحزب. وأكد أحد زعماء الحزب الشيوعي الأوكرانـي "أن الهزيمة جاءت بفعل النشاط الذي قامت به الجبهـة الشـعبية برغم أن بنيانها لم يكن قد اكتمل بعد، ومن هنا راح سكرتير الحزب الشيوعي الأوكراني شتشربيتسكي ينتقـد سياسـات جورباتشوف قائلاً: "إن الجلاسنوست تؤدي إلى قيام نزعـة التطرف، وبعث نزعة قومية ديماجوجية (غوغائية)" [٧٤٢].

---

[٧٤٢] انظر بصدد نتائج هذه الانتخابات، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

ومهما يكن الأمر فإنه قد بان واضحا أن راخ قد بلغت أوج شعبيتها وذروة شرعيتها مـن خـلال المظـاهرات الحاشـدة والسلاسل البشرية الهائلة التي تمكنت من تعبئتها وتحريكها في ١٢ يناير عام ١٩٩٠، ذلك اليـوم الـذي راح الأوكرانيـون يحتفلون فيه بالذكرى السنوية الثانية والسبعين لتأسيس جمهورية أوكرانيا المستقلة، فقاموا بتنظيم سلسلة بشـرية بلـغ طولهـا خمسمائة كيلو متر بحيث ربطت عاصمتي شـطري أوكرانيـا كييف ولفوف، ذلك فضلاً عن ما شهدته المدن الأوكرانية مـن مظاهرات حاشدة ضمت عشرات الآلاف في بعض المدن، غير أنه نظرا لوزن أوكرانيا الهائل داخل الاتحاد السوفييتي لم يكن بمقدر السلطة المركزية أن تتعامل مع أحداث أوكرانيا بـنفس الوحشية التي تعاملت بها مع الجيورجيين [٧٤٣].

والحق أن أحداث أوكرانيا هذه بما تضمنته من مظاهرات وسلاسل بشرية حاشدة جاءت كي تؤكد على رسوخ قاعـدة الجبهة الشعبية الأوكرانية، وتعاظم شرعيتها، كما أظهـرت هذه الأحداث مدى غلبة رغبة الاستقلال، وتـأجج النزعـة العرقية لدى الأوكرانيين.

---

[٧٤٣] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٩٨.

ونظرا لما تقدم – وفي خضم تلـك المشـاعر القوميـة المتأججة – راح مجلس السوفييت الأعلـى فـي جمهوريـة أوكرانيا – في ١٦ يوليو ١٩٠ – يعلن اسـتقلال أوكرانيـا وسيادتها على أراضيها، وإعطاء القوانين الأوكرانية الأولوية على القوانين السوفييتية [٧٤٤]. ذلك فضلاً عن الإعلان عـن تملك أوكرانيا لكافة ثرواتها الطبيعية، وتشكيل جيش خـاص بها، وتبني الجنسية الأوكرانية، وصك عملة محلية[٧٤٥].

واستكمالاً لما تقدم فقد وقع الـرئيس الأوكرانـي ليونيـد كرفشوك ونظيره الروسي بوريس يلسين – في ٢٠ نـوفمبر ١٩٩٠ – اتفاقًا تعترف بمقتضاه كل من أوكرانيـا وروسـيا باستقلالية الأخرى عن الاتحاد السوفييتي [٧٤٦].

---

[٧٤٤] انظر: شهريات مجلة السياسة الدولية، العـدد (١٠٢)، أكتـوبر ١٩٩٠، ص ٢٦٥.

[٧٤٥] دانكوس: نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩.

[٧٤٦] انظر في هذا الصدد: شهريات مجلة السياسـة الدوليـة، العـدد (١٠٤)، أبريل ١٩٩١، ص ٢٥٨.

تعقيــب:

بعد أن عرضنا للحركة العرقية الأوكرانيـة خـلال عـد جورباتشوف بان لنا أن الأوكرانيين – برغم اشتراكهم فـي الأصل السلافي مع الروس وبالرغم من أن الـروس كـانوا يعتبرونهم "أشقاءهم الأقدمين" و"الأخ الأكبر الثاني" – إلا أنهم أبوا إلا أن يقبضوا على هويتهم، تلك الهوية التي لـم تفلـح عشرات السنين من حكم البلاشفة في طمسـها، أو تقـويض مقوماتها، كما أن تلك السنين الطوال تحت النير الشيوعي لم تنجح في أن تمحو من ذاكـرتهم أن جيـوش البلاشـفة قـد اجتاحت دولتهم، وسحقت استقلالهم يوما ما. لـذلك فمـا أن خفت قبضة الكريملين عليهم – في ظل الجلاسنوست – حتى راح الأوكرانيون يؤكدون عزمهم على الانسلاخ عن الاتحاد السوفييتي، وإقامة دولة أوكرانيا المستقلة.

وهكذا فقد كانت الحركة العرقية الأوكرانية التي جسـدتها "راخ" حركة انفصالية؛ إذ تغيت استقلال شعبها عـن الـدول السوفييتية، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن هويته. وسرعان ما تحقق لها ما أرادت؛ إذ انسلخ الأخ الأكبر الثاني عن الاتحاد السوفييتي، رافضا أن يقرر من هم سواه مصيره، حتى ولـو كانوا الروس الذين طالما اعتبروا بنيه أشقاءهم الأقدمين، كي تتأكد بذلك – أكثر وأكثر – الحقيقة التي سـبق أن سـقناها والتي مؤداها أنه: لا سبيل إلى استقرار سياسي ولا إلى وحدة وطنية حقة في وحدة سياسية أسس بنيانهـا علـى التجمـع الإجباري لشعوب غير متجانسة قومية، ذلك بأن هذه الوحدة السياسية لا محالة متفككة، وإن ظلت محتفظة بوحدتها لفترة ما مهما طالت هذه الفترة.

* * *

المطلب الثاني
الحركة العرقية في بيلوروسيا
خلال عهد جورباتشوف

أولاً: تعريف بجمهورية بيلوروسيا وتكوينهـا العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية بيلوروسيا حوالي ٢٠٧٦٠٠ كيلـو متر مربع، وتتمثل عاصمتها في مدينة منسك Minsk [٧٤٧]، وقد وصل عدد سكان الجمهورية – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – إلى حوالي ١٠١٥٢٠٠٠ نسمة، يتشكلون مما يربو علـى الخمس جماعات عرقية أظهرهـا البيلـوروس، والـروس، والبولنديون، والأوكرانيون، واليهود [٧٤٨]. ونقدم في الجدول التالي سردا بأعداد كل من هذه الجماعات الخمس الرئيسـية في بيلوروسيا حسب تعداد عام ١٩٨٩:

---

[٧٤٧] إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

[٧٤٨] انظر في هذا الصدد: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
البيلوروس	٧٩٠٥٠٠٠
الروس	١٣٤١٠٠٠
البولنديون	٤١٨٠٠٠
الأوكرانيون	٢٩٠٠٠٠
اليهود	١١٨٠٠٠

جدول رقم (٢٢)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بـ:

- دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكـره، ص ١٨٦. وكذا جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤.

ويتضح من خلال الجدول السابق أن البيلوروسيين يمثلون أغلبية عظيمة الشأن في وطنهم؛ إذ يشكلون حوالي ٧٧,٩ % من جملة سكان بيلوروسيا، وينحدر البيلوروس – شأنهم في ذلك شأن الروس والأوكرانيين – من أصل سلافي، ويتكلمون – كذلك – لغة تنتمي إلى مجموعة اللغات السلافية الشرقية. أما فيما يتصل بعقيدتهم الدينية فهم يـدينون – كمـا يـدين

الروس والأوكرانيون – بالمسيحية، ويعتنقون مثلهم المذهب الأرثوذكسي كما يتبعون الكنيسة الروسية [٧٤٩].

ثانيا: الحركة العرقية البيلوروسية خلال عهد جورباتشوف:

يتضح في ثنايا ما تقدم أن البيلوروس كانوا يعدون – إلى جانب الأوكرانيين – أكثر الجماعات العرقية قربا من الروس؛ إذ تنحدر الجماعات الثلاث من أصل سلافي، كما يدين أفرادها قاطبة بذات الدين ويعتنقون نفس المذهب، بل ويتبعون كنيسة واحدة، وعلى الرغم من ذلك فإن البيلوروس قد ظلوا قابضين على هويتهم، مدركين لتمايزهم إزاء ما عداهم من أفراد الجماعات العرقية الأخرى، وإلى ذلك يرتد التنامي في المشاعر العرقية التي سادت البيلوروس خلال فترة حكم جورباتشوف؛ إذ ما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – في ظل البريسترويكا – حتى راحوا يتطلعون إلى الاستقلال عن موسكو، ومن هنا فقد كانت الجبهة الشعبية البيلوروسية من أكثر الجبهات الشعبية للجمهوريات

---

(٧٤٩) White, Op. Cit., P. ١٤١.

السوفييتية تبكيرا من حيث الظهور؛ إذ تأسست تلك الجبهـة في ١٩ أكتوبر عام ١٩٨٨ في العاصمة البيلوروسية منسك. ولقد جوبهت الجبهة الشعبية البيلوروسية – منذ ظهورها إلى حيز الوجود – بعداء لا هوادة فيـه مـن جانـب الحـزب الشيوعي البيلوروسي؛ إذ راح قادته يعلنون أنه لا يحق لأي عضو في الحزب أن ينتمي إلى الجبهة، كما صبت السلطات البيلوروسية شديد عنفها على المظاهرة الأولى التي نظمتهـا الجبهة، ورفضت منح الجبهة ذاتها ترخيصا رسـميا، كمـا أنكرت عليها حق النشر، وحظرت عرض برامجهـا عبـر محطات الإذاعة والتليفزيون [٧٥٠].

وعلى الرغم مما تقدم فسرعان ما اكتسبت الجبهة الشعبية شرعية هائلة؛ إذ لاقت تأييدا شعبيا هائلاً تجسد مـن خـلال المظاهرة الحاشدة التي نظمتها الجبهة فـي فبرايـر ١٩٨٩ داخل منسك؛ حيث ضمت تلك المظاهرة مـا يربـو علـى الخمسين ألف شخص، راحوا يهتفون باستقلال بيلوروسـيا،

---

[٧٥٠] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٦.

رافعين علمها الوطني، ومبرزين كافة رموزها القومية [٧٥١]، الأمر الذي ساهم في تصاعد عـداء السـلطات الشـيوعية للجبهة، غير أن هذا العداء لم يكن ليثني أعضاء الجبهة عن المضي قدما في ترسيخ شرعية جبهتهم، لذلك فقد عمدوا إلى عقد مؤتمر تأسيسي جديدة للجبهة، غير أن هذا المؤتمر قـد عقد هذه المرة في ليتوانيـا، وبمسـاعدة الجبهـة الشـعبية الليتوانية، وفي ظل حشد كبير شهدته فيلينوس في ٢٩ يونيو عام ١٩٨٩ [٧٥٢]. ولقد راحت الجبهة الشعبية البيلوروسـية تؤكد عزمها على النضـال مـن أجـل سـيادة بيلوروسـيا واستقلالها عن الاتحاد السوفييتي [٧٥٣]، كمـا راح أعضـاء الجبهة ينددون بالتدفق الهائل للـروس والأوكـرانيين تجـاه بيلوروسيا، وإزاء ذلك راحت جبهـة إنتروفرونـت تبعـث بمندوبين عنها إلى بيلوروسيا بغية استنفار الأقليات القاطنـة

---

(٧٥١) Clem, Ralph, S., Byelorussians, in: Smith, Graham (ed.), Op. Cit., P. ١١٧.

(٧٥٢) White, Op. Cit., P. ١٦٥.

(٧٥٣) Markus, Ustina, Belarus: You can't go home again? Current History, October, ١٩٩٤, P. ٣٣٨.

لها في مواجهة النزعة القومية التي تجسدها الجبهة. غير أن كافة الجهود التي بذلها الشيوعيون بغيـة تقـويض شـرعية الجبهة البيلوروسية كان مآلها إلـى الفشـل، فبـرغم كافـة ضروب الاضطهاد التي تعرضت لها الجبهة فإن شعبيتها قد أخذت في التنامي، وعلى سبيل المثـال فقـد وصـل عـدد أعضائها إلى حوالي مائة ألف عضو في غضـون أسـابيع قليلة[٧٥٤]. وفي ٢٧ يوليو ١٩٩٠ راح البرلمان البيلوروسي – تحت وطأة الضغوط التي قادتها الجبهة الشعبية – يعلـن سيادة بيلوروسيا على أراضيها.. وهكذا فقد خطت بيلوروسيا خطوة عظيمة الشأن على درب الانسلاخ عن موسكو، ذلـك الانسلاخ الذي لم يكن الروس يعتقدون في إمكانيـة حدوثـه أبدا.

وعلى أية حال فقد تأكد انسلاخ بيلوروسـيا نهائيـا عـن الاتحاد السوفييتي – شأنها في ذلك شأن سائر الجمهوريـات السوفييتية – غداة فشل انقلاب أغسطس ١٩٩١ في مواجهة جورباتشوف.

---

[٧٥٤] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٦.

تعقيـــب:

يتضح في ثنايــا عرضــنا المتقــدم للحركــة العرقيــة البيلوروسية أن هذه الحركــة كانــت حركــة ذات طبيعــة انفصالية؛ إذ استهدفت انســلاخ بيلوروســيا عــن الاتحــاد السوفييتي. وهكذا فإن مئات السنين في كنف الروس لم تفلح في طمس هوية البيلوروس، كما أن اشتراكهم فــي الأصــل والدين مع الروس لم يكن كافيا لإثنائهم عن الانســلاخ عــن موسكو، وعلى ذلك فما أن خفت قبضة الكريملين علــيهم – في ظل الجلاسنوست – حتى راحوا – هم أيضا – يطــالبون بالسيادة، والاستقلال، ولكي يساهموا بذلك في تمزيق أوصال الدولة السوفييتية، التي كان أشقاؤهم الروس قــد أسســوها، وظلوا لعقود عديدة يسعون بشتى السبل إلى الحفــاظ علــى وحدتها.

* * *

المبحث الخامس
الحركتان المولدافية والشيشانية
المطلب الأول
الحركة العرقية المولدافية

أولاً: تعريف بجمهورية مولـدافيا وتكوينهـا العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية مولدافيا ٣٣٧٠٠ كيلو متر مربـع، وتتمثل عاصمتها في مدينة كيشينيوف [٧٥٥]، وقد وصل عدد سكان الجمهورية – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – إلى حـوالي ٤٣٣٢٠٠٠ نسمة [٧٥٦]، ويتشكلون مما يربو علـى السـت جماعات عرقية أظهرها المولداف، والأوكرانيون، والروس،

[٧٥٥] إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

[٧٥٦] دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٢.

والجاجوازي Gagauzi، والبلغاريون، واليهود [٧٥٧]. ويقدم الجدول التالي سردا لتعداد كل من هذه الجماعات في مولدافيا حسب إحصاء عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
المولداف	٢٧٧٢٤٨٠
الأوكرانيون	٦٠٦٤٨٠
الروس	٥٦٣١٦٠
الجاجوازي	١٥١٦٢٠
البلغاريون	٨٦٦٤٠
اليهود	٦٥٦٦٨

جدول رقم (٢٣)

المصدر: تم تركيبه بالاعتماد على:

Growther, Op. Cit., P. ٣٤٢.

---

[٧٥٧] Growther, William, Moldava after Independence, Current History, October, ١٩٩٤, P. ٣٤٢.

وكذا: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٢.

ويتضح في ثنايا الجدول السابق أن المولداف يمثلون أغلبية بائنة في وطنهم؛ إذ يشكلون حوالي ٦٤ % من جملة سكان مولدافيا، وينحدر المولداف من أصل روماني، كما يتحدثون اللغة الرومانية، أما بصدد عقيدتهم فهم يدينون بالمسيحية الأرثوذكسية، ويتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية [٧٥٨].

ثانيا: الحركة العرقية المولدافية خلال عهد جورباتشوف:

كانت مولدافيا – كما سبق أن أشرنا – قد ضمت قسرا إلى الاتحاد السوفييتي؛ إذ اجتاحتها جحافل ستالين إبان الحرب العالمية الثانية، وعمدت إلى سلخها عن رومانيا، ووضعها تحت إمرة الكريملين، ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن تشرئب أعناق المولداف إلى الاستقلال عندما أضحت الظروف مهيأة لذلك، فما أن خفت قبضة الكريملين

---

[٧٥٨] White, Op. Cit., P. ١٤١.

عليهم – في رحاب الجلاسنوست – حتـى راحـوا يعلنـون رغبتهم في الانفصال عن الاتحاد السوفييتي، ففي البدايـة – وفي ٣ يونيو ١٩٨٨ – ظهرت إلى حيز الوجود في مولدافيا حركة ديمقراطية أفرزها الواقع المولدافي الذي كـان يعـج بالمشاعر القومية. وقـد عرفـت هـذه الحركـة بالحركـة الديمقراطية من أجل البريسترويكا؛ حيث راحـت تعلـن أن هدفها يتمثل في الدفاع عن الإصلاحات الديمقراطية التي جاء بها جورباتشوف، غير أن هذه الحركة سرعان مـا تحولـت إلى جبهة شعبية حقيقية؛ إذ راحـت تطالـب بـأن تصـبح المولدافية هي اللغة الرسمية لمولدافيا، فضلاً عن العودة إلى كتابتها بالأبجدية اللاتينية على النحو الذي كان عليه الحـال خلال الفترة السابقة على ضم السـوفييت لمولـدافيا؛ إذ راح أعضاء الجبهة يؤكدون على أن "المولدافية والرومانية يمثلان لغة واحدة، وقد تمت إقامة جدار فاصـل بينهمـا بصـورة تعسفية، وأنه قد حان الوقت لإزالة هذا الجدار الزائف" [٧٥٩].

---

[٧٥٩] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣.

والحق أن المطالبة بسيادة اللغة المولدافية داخل مولـدافيا والعودة إلى كتابتها بالأبجدية اللاتينية لم يقتصر تبنيهما على الحركة الديمقراطية، وإنما تبنتها كـذلك كافـة الجماعـات والمنظمات اللارسمية الأخرى التي أفرزها الواقع المولدافي في رحاب البريسترويكا [٧٦٠].

وفضلاً عما تقدم فقد راحـت كافـة المجموعـات غيـر الرسمية المولدافية – وعلى رأسها الحركـة الديمقراطيـة – تطالب باستعادة مولدافيا للمقاطعات التي كانت قد اقتطعـت منها وضمت إلى أوكرانيا، وإزاء تنامي النزعة العرقية لدى المولداف على النحو المتقدم بدأت الأقليات القاطنة لمولـدافيا تستشعر وجود خطر يهدد كيانها، وعلى حين تكالب اليهـود على الهجرة خارج مولدافيا، راح الروس والأوكرانيـون – في يناير ١٩٨٩ – يؤسسون جبهتين أمميتين علـى غـرار "إنتروفرونت" اللاتفية بغية الدفاع عن حقوقهم، وقد تمثلـت هاتان الجبهتان في لجنة سويوز وحركة إدينستفو، ولقد لقيت

---

(٧٦٠) Wyal, Jonthan, Moldvaians, in: Smith, Graham (ed.) Op. Cit., PP. ١٣١ – ١٣٢.

الجبهتان دعما لا يستهان به من جانب الحـزب الشـيوعي السوفييتي [٧٦١].

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن الانتخابات التشـريعية التي جرت في مولدافيا خلال شهر مارس عام ١٩٨٩ جاءت لتؤكد أن التجمعات المولدافية غير الرسمية – وعلى رأسـها الحركة الديمقراطية – تحظى بتأييد عظيم الشأن من جانـب المولداف؛ إذ فاز مرشحو هذه التجمعات في كافـة الـدوائر التي خاضوا الانتخابات فيها، وذلك على الرغم مـن الثقـل الكبير لغلاة الشيوعيين داخل أجهزة الدولة المولدافية، وكـذا برغم الضغوط التي تعرض لها مرشحو التنظيمـات غيـر الرسمية بل والناخبون، والتي وصـلت إلـى حـد التهديـد والوعيد، ذلك فضلاً عن الطابع غير الديمقراطي الذي كسـا الحملة الانتخابية [٧٦٢].

---

[٧٦١] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٤.

[٧٦٢] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٢٠١.

وفي إطار البحث عن مزيد من القوة وترسيخ الشـرعية راحت التجمعات المولدافية غير الرسمية – في مايو ١٩٨٩ – تسعى إلى توحيد جهودها؛ إذ قامت بإنشاء الجبهة الشعبية المولدافية الموحدة [٧٦٣]. وقد تبنت الجبهة أهدافًا ذات طبيعة ثورية؛ إذ راحت تطالب بأن تصبح مولدافيا دولة "ذات سيادة كلية"، كما نادت باستعادة الدولة المولدافية لكافة المناطق التي كانت قد استقطعت منها لصالح أوكرانيا، وأكدت – من جانب آخر – ضرورة وقف الهجرة إلى مولدافيا. وفضلاً عما تقدم فقد أبدت الجبهة حرصها على الحفاظ على هوية الجماعـات العرقية المولدافية، وإيمانها بضـرورة العـودة إلـى اللغـة الرومانية وكتابتها بالحروف اللاتينية بدلاً من السريالية التي كان الكريملين قد فرض على المولداف الكتابـة بهـا، وقـد اعتبرت الجبهة الشعبية المولدافية أن كافة مطالبها - المتقدمة – لا بـد وأن تتحقـق وأنهـا ليسـت موضـع مسـاومة أو تفاوض[٧٦٤].

---

[٧٦٣] Eyal, Op. Cit., P. ١٣٣.

[٧٦٤] انظر بصـدد برنـامج الجبهـة المولدافيـة: دانكـوس، نهايـة الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٤، ١٨٥.

وقد راحت الجبهة الشعبية المولدافية تـنظم المظـاهرات الحاشدة بغية ترسيخ شرعيتها، وتأكيد شعبية مطالبها، ففـي ٢٨ أغسطس ١٩٨٩ نظمت الجبهـة – فـي كيشـنيوف – مظاهرة هائلة ضمت ما يربو على نصف المليون متظـاهر، راحوا يؤكدون تأييدهم للجبهة، وإيمانهم بعدالة مطالبها [٧٦٥]. وسرعان ما امتدت المظاهرات إلى سائر أنحـاء مولـدافيا، وراح المتظاهرون المولداف على الحدود مع رومانيا يعملون على إزالة الأسلاك الشائكة التـي تفصـل بـين مولـدافيا ورومانيا، الأمر الذي اتضح من خلالـه تمسـك المولـداف بأصلهم الروماني، وبالتالي فإنهم كـانوا يعتبـرون أنفسـهم رومانيين، لا سوفييت. وإزاء هذه المشاعر العرقية المتأججة لدى المولداف راحت منظمات الحـزب تمطـر السـلطات المحلية بالعرائض التي تندد بالمطالب المولدافية [٧٦٦]، كمـا نظمت كل من لجنة سويوز وجمعيـة إدنسـتفو مظـاهرات وإضرابات راحت من خلالها تطالب بأن تكون اللغة الروسية

---

(٧٦٥) Eyal, Op. Cit., P. ١٣٣.

(٧٦٦) دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٥.

في وضع متساو مع المولدافية داخل مولدافيا، مع ضـرورة مراعاة حقوق الجاجواز أيضا [٧٦٧].

وعلى أية حال فقد انتصرت إرادة المولداف في النهايـة؛ إذ وافق مجلس السوفييت الأعلى لمولـدافيا – فـي بدايـة سبتمبر ١٩٨٩ وتحت وطأة المشاعر العرقية المتأججة لـدى المولداف – على أن تصـبح المولدافيـة اللغـة الرسـمية للجمهورية، على أن تكتب بالأبجديـة اللاتينيـة بـدلاً مـن السريالية، أما اللغة الروسية فيقتصر دورها على أن تكـون بمثابة لغة التواصل بين الأعراق [٧٦٨].

وهكذا فقد تحقق المطلب الأول من مطالب الجبهة الشعبية المولدافية. غير أنه كان يبدو أن الجبهة لم يزل أمامها نضال طويل في سبيل بلوغ غايتها الرئيسية المتمثلـة فـي سـيادة مولدافيا واستقلالها، ومن هنا فقـد اسـتمرت فـي تنظـيم المظاهرات الحاشدة التي راحت من خلالها تعبر عن مطالبها المتعلقة بالسيادة والاستقلال، وسرعان ما أصبحت كيشينيوف واحدة من أكثر المـدن السـوفييتية غليانًـا. ولعـل أبـرز

---

[٧٦٧] Crowther, Op. Cit., PP. ٣٤٢ – ٣٤٣.

[٧٦٨] دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٦.

المظاهرات التي شهدتها العاصمة المولدافيـة قاطبـة تلـك المظاهرة الهائلة التي نظمتها الجبهة الشعبية المولدافية فـي ٢٦ أكتوبر ١٩٨٩، وهي المظاهرة التي كانت من الضخامة بحيث مثلت تتويجا لنضال الجبهة في سبيل الحصول علـى شرعيتها، تلك الشرعية التي حصلت عليها من أسفل (أي من الشعب المولدافي ذاته) لا من أعلى (أي السـلطة المركزيـة وعلى رأسها الحزب الشيوعي) [٧٦٩].

ولقد كان من جراء هذه الشعبية الجارفة للجبهة المولدافية والشرعية الهائلة التي اكتسـبتها مطالبهـا أن راح الحـزب الشيوعي المولدافي ينحو شيئًا فشيئًا إلى تبني تلك المطالـب، وفي خضم المشاعر القومية الجارفة التي سادت المولـداف قاطبة راح مجلس السوفييت الأعلى للجمهورية يعلن – فـي ٢٣ يوليو ١٩٩٠ – سيادة مولدافيا وتملكها لكافـة الثـروات الطبيعية، كما أعلن المجلـس أن مولـدافيا سـوف تطالـب بالانضمام إلى الأمم المتحدة [٧٧٠].

---

[٧٦٩] انظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٨٥.

[٧٧٠] المرجع السابق، ص ٢١٩.

وهكذا فقد بدأت مولدافيا – هـي الأخـرى – تنسـلخ – بخطى واسعة – عن الاتحاد السوفييتي، ولقـد تأكـد هـذا الانسلاخ غداة فشل الانقـلاب الـذي اسـتهدف الإطاحـة بجورباتشوف في أغسطس عام ١٩٩١؛ إذ أعلنت السـلطات المولدافية – في ٢٧ من ذلك الشهر – انفصال مولدافيا عـن الاتحاد السوفييتي [٧٧١].

---

(٧٧١) Crowther, Op. Cit., P. ٣٤٢.

- وتتعين الإشارة إلى أن الجاجوازي كانوا قـد أعلنـوا – غـداة إعلان مولدافيا سيادتها.
- عن قيام جمهوريتهم المستقلة في شمال مولدافيا، الأمر الذي مثـل – ولا يزال – مصدرا لا يستهان به لانـدلاع صـراع عرقـي بـين المولداف والجاجوازي. انظر في هذا الصدد:.Ibid., P. ٣٤٣

تعقيـب:

وهكذا فإن سنين طوال تحت إمرة الكريملين لم تمح مـن ذاكرة المولداف أنهم رومانيون ضموا – عنوة – إلى الاتحاد السوفييتي. وبالتالي فما أن خفت قبضة قـاطني الكـريملين عليهم – في ظل الجلاسنوست – حتى راحوا يسـعون إلـى الاستقلال، والتخلص من ربقـة موسـكو، فـي حـين راح الجاجوازي القاطنون لمولدافيا يعلنون من جانبهم عـن قيـام دولتهم في شمال الجمهورية، الأمر الذي جعل من الحـرب الأهلية خطرا دائما يتهدد مولدافيا حتى بعد استقلالها.

وهكذا فقد تأكد لنا من جديد – وفي ضوء ما تقدم – أنـه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم، ولا إلى وحدة وطنية حقة، في وحدة سياسية أسس بنيانهـا علـى التجميـع الإجبـاري لشعوب غير متجانسة قوميا.

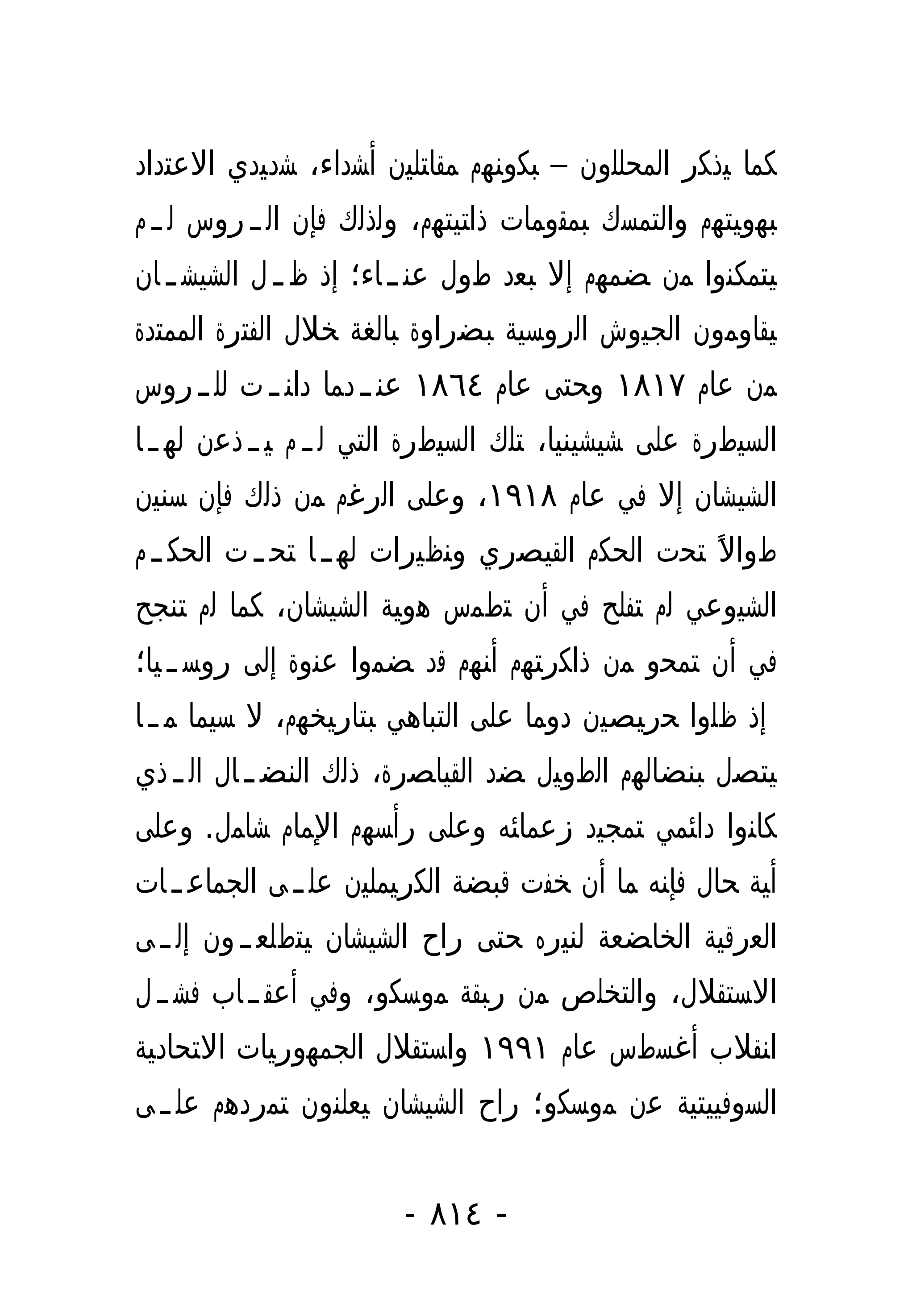
المطلب الثاني
الحركة العرقية الشيشانية (*)

يشكل الشيشان جماعة عرقية قوقازية قديمة، يمتد تاريخها عبر قرون طويلة مضت، وهم يقطنون إحدى الجمهوريـات الصغيرة التابعة لروسيا تعرف باسـمهم وهـي جمهوريـة شيشينيا. وتبلغ مساحة هذه الجمهورية حوالي ٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع، وهي تتمتع بالحكم الذاتي في ظل الدولة الاتحادية الروسية. وقد وصل عدد أعضاء الجماعة الشيشانية – حسب إحصاء عام ١٩٨٩ – إلى حـوالي ٩٥٨٠٠٠ نسـمة [٧٧٢]، يدينون بالإسلام ويعتنقون المذهب السني. ويتسم الشيشان –

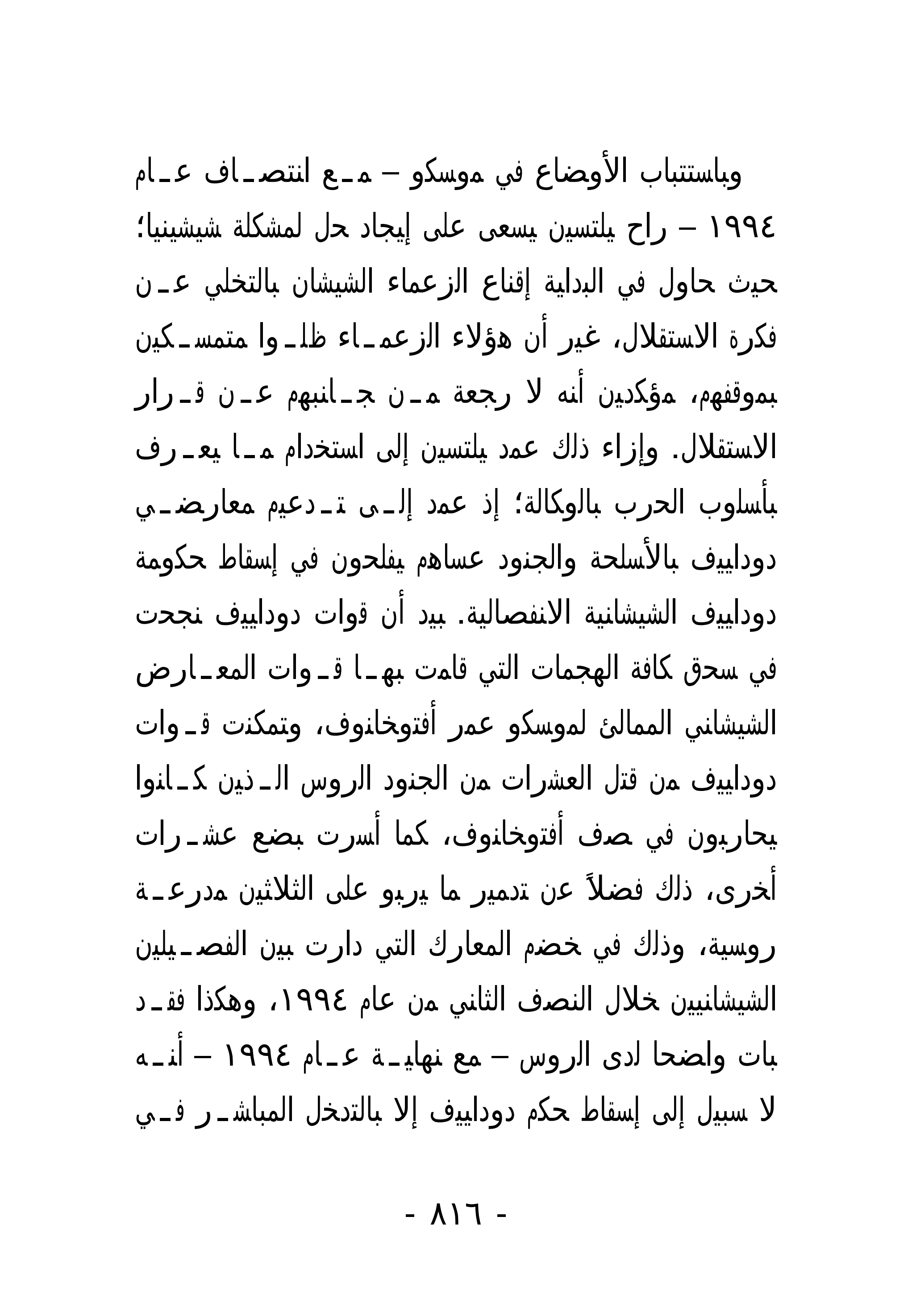
(*) تتعين الإشارة إلى أننا اعتمدنا بصدد عرضنا لتلك الحركـة علـى ملاحظتنا المباشرة للأحداث المتعلقة بها، وذلك مـن خـلال وسـائل الإعلام الموثوق بها.

(٧٧٢) انظر بصدد تعـداد الشيشـان: Smith, Graham (ed.), Op. Cit., P. ٣٦٣.

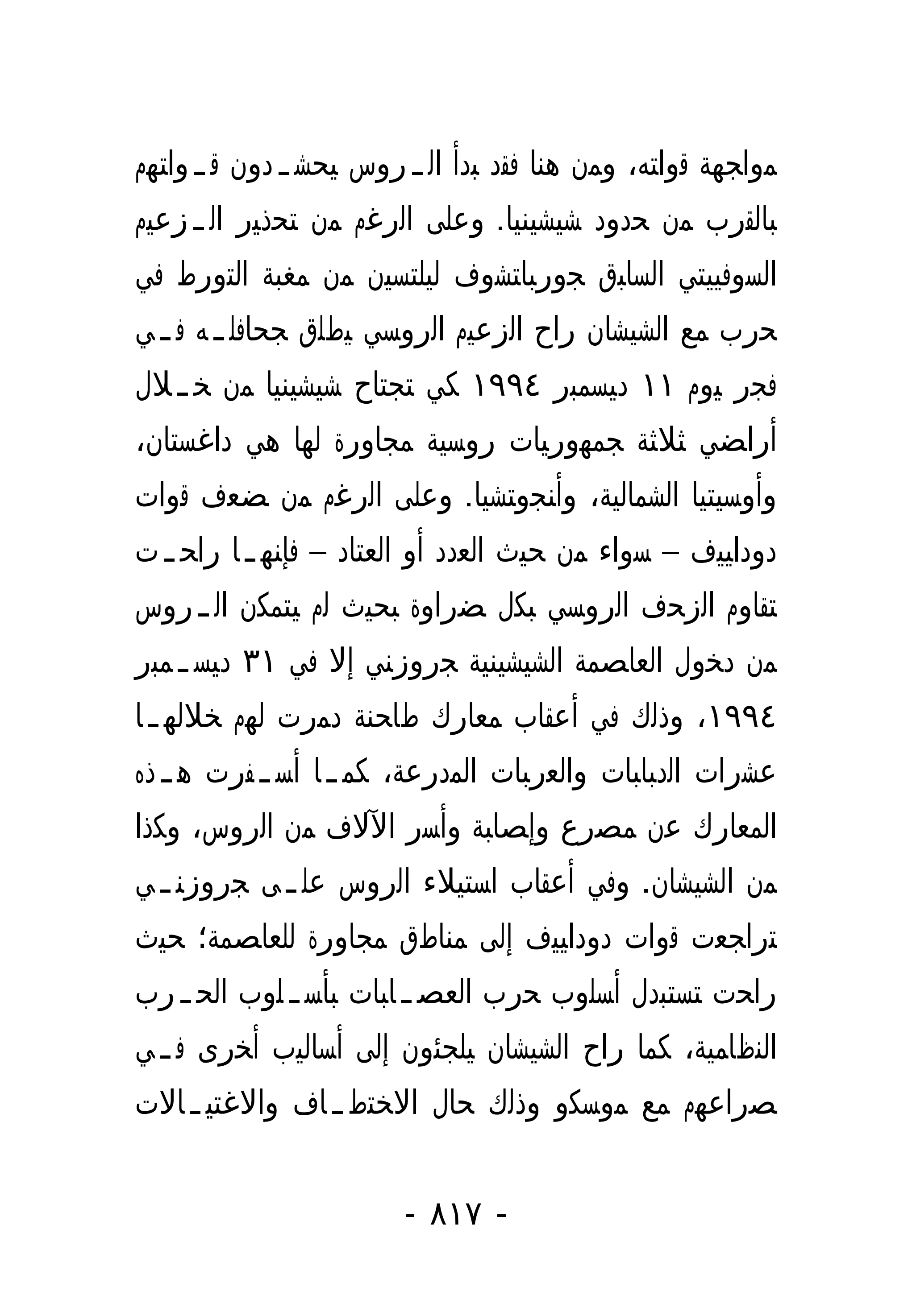
كما تتعين الإشارة إلى أن عدد الشيشانيين حاليا يبلغ زهاء المليـون ونصف المليون نسمة.


كما يذكر المحللون – بكونهم مقاتلين أشداء، شديدي الاعتداد بهويتهم والتمسك بمقومات ذاتيتهم، ولذلك فإن الـروس لـم يتمكنوا من ضمهم إلا بعد طول عنـاء؛ إذ ظـل الشيشـان يقاومون الجيوش الروسية بضراوة بالغة خلال الفترة الممتدة من عام ١٨١٧ وحتى عام ١٨٦٤ عنـدما دانـت للـروس السيطرة على شيشينيا، تلك السيطرة التي لـم يـذعن لهـا الشيشان إلا في عام ١٩١٨، وعلى الرغم من ذلك فإن سنين طوالاً تحت الحكم القيصري ونظيرات لهـا تحـت الحكـم الشيوعي لم تفلح في أن تطمس هوية الشيشان، كما لم تنجح في أن تمحو من ذاكرتهم أنهم قد ضموا عنوة إلى روسـيا؛ إذ ظلوا حريصين دوما على التباهي بتاريخهم، لا سيما مـا يتصل بنضالهم الطويل ضد القياصرة، ذلك النضـال الـذي كانوا دائمي تمجيد زعمائه وعلى رأسهم الإمام شامل. وعلى أية حال فإنه ما أن خفت قبضة الكريملين علـى الجماعـات العرقية الخاضعة لنيره حتى راح الشيشان يتطلعـون إلـى الاستقلال، والتخلص من ربقة موسكو، وفي أعقـاب فشـل انقلاب أغسطس عام ١٩٩١ واستقلال الجمهوريات الاتحادية السوفييتية عن موسكو؛ راح الشيشان يعلنون تمردهم علـى

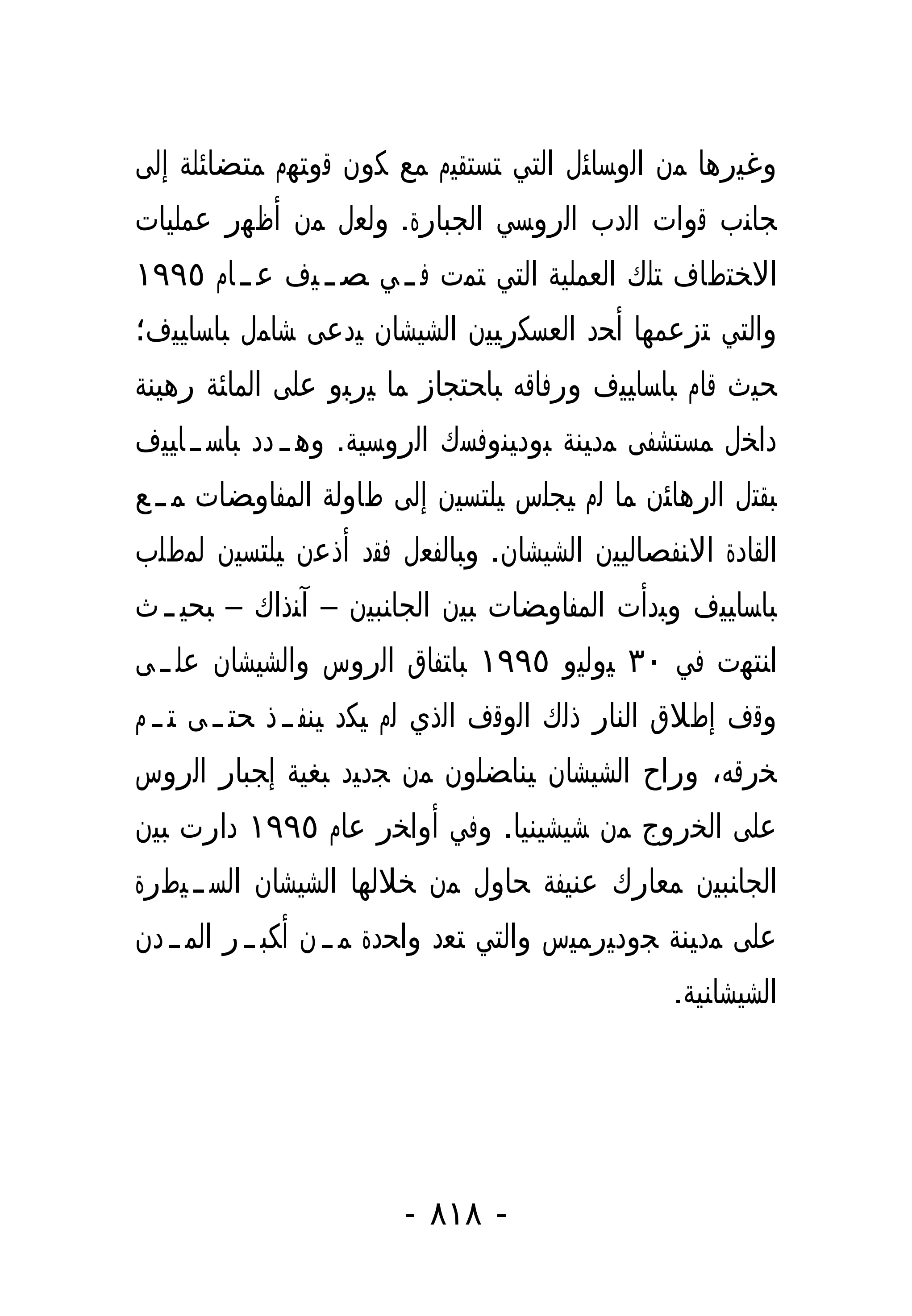
السيادة الروسية؛ إذ قاموا بانتخاب رئيس لهم من بين زعماء الحركة الانفصالية وهو جوهر دوداييـف. ومـا أن اعتلـى دوداييف سدة الحكم في العاصمة الشيشانية جروزني – فـي أواخر عام ١٩٩١ – حتى أعلن استقلال شيشينيا، وانفصالها عن روسيا الاتحادية. وعلى الرغم مـن إعـلان الـرئيس الروسي بوريس يلتسين عدم اعترافه باستقلال الشيشان فإنـه لم يتخذ أية إجراءات تستهدف إعادة شيشينيا إلـى الحظيـرة الروسية حتى منتصف عام ١٩٩٤. ولعل مرد ذلك إلـى أن اهتمام يلتسين خلال تلك الفترة كان منصـبا علـى تـدعيم مركزه كزعيم لروسيا من ناحية، والقضاء على حالة عـدم الاستقرار التي سادت موسكو غداة تفكك الاتحاد السـوفييتي من ناحية أخرى.



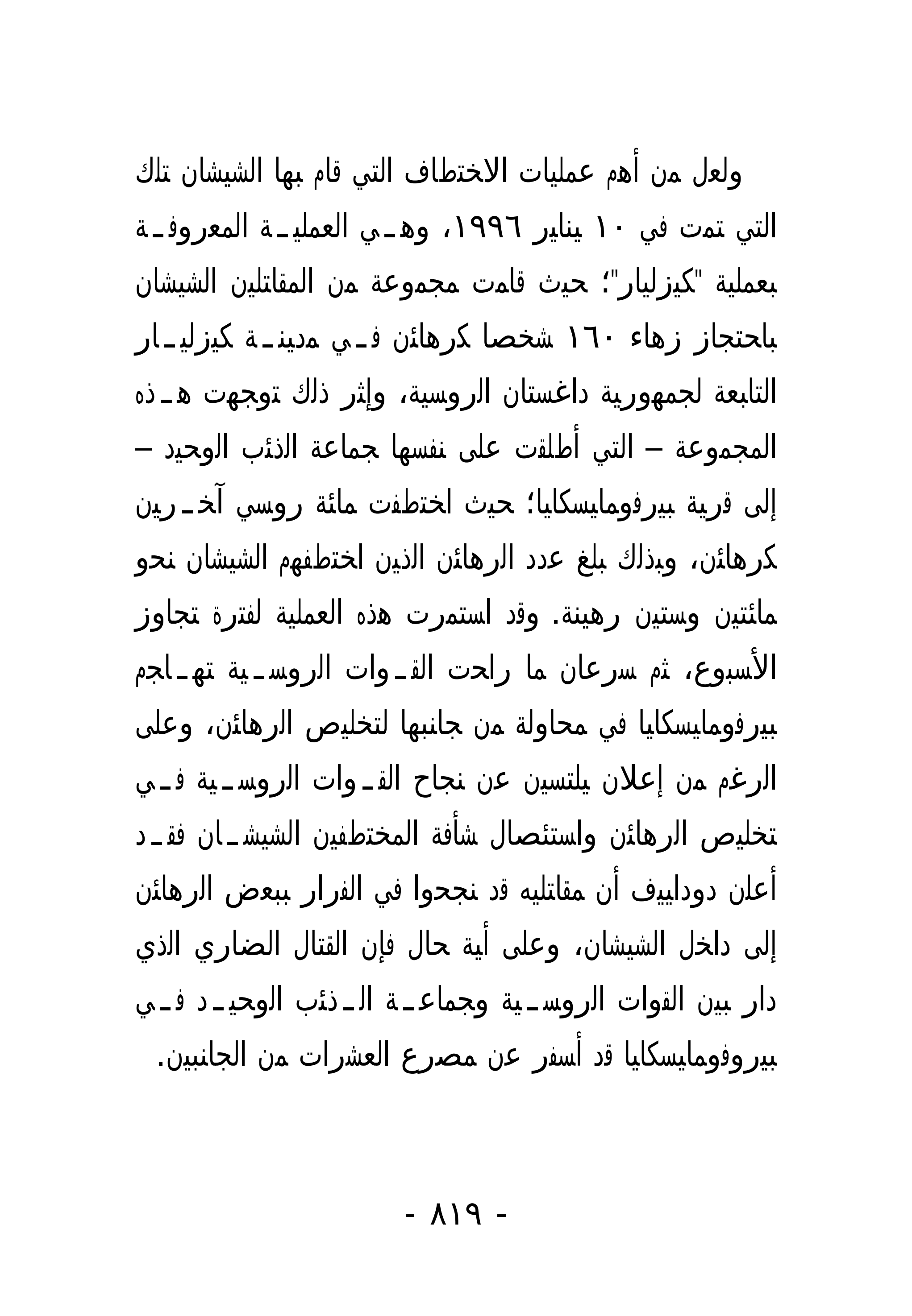
وباستتباب الأوضاع في موسكو – مـع انتصـاف عـام ١٩٩٤ – راح يلتسين يسعى على إيجاد حل لمشكلة شيشينيا؛ حيث حاول في البداية إقناع الزعماء الشيشان بالتخلي عـن فكرة الاستقلال، غير أن هؤلاء الزعمـاء ظلـوا متمسـكين بموقفهم، مؤكدين أنه لا رجعة مـن جـانبهم عـن قـرار الاستقلال. وإزاء ذلك عمد يلتسين إلى استخدام مـا يعـرف بأسلوب الحرب بالوكالة؛ إذ عمد إلـى تـدعيم معارضـي دوداييف بالأسلحة والجنود عساهم يفلحون في إسقاط حكومة دوداييف الشيشانية الانفصالية. بيد أن قوات دوداييف نجحت في سحق كافة الهجمات التي قامت بهـا قـوات المعـارض الشيشاني الممالئ لموسكو عمر أفتوخانوف، وتمكنت قـوات دوداييف من قتل العشرات من الجنود الروس الـذين كـانوا يحاربون في صف أفتوخانوف، كما أسرت بضع عشـرات أخرى، ذلك فضلاً عن تدمير ما يربو على الثلاثين مدرعـة روسية، وذلك في خضم المعارك التي دارت بين الفصـيلين الشيشانيين خلال النصف الثاني من عام ١٩٩٤، وهكذا فقـد بات واضحا لدى الروس – مع نهايـة عـام ١٩٩٤ – أنـه لا سبيل إلى إسقاط حكم دوداييف إلا بالتدخل المباشـر فـي



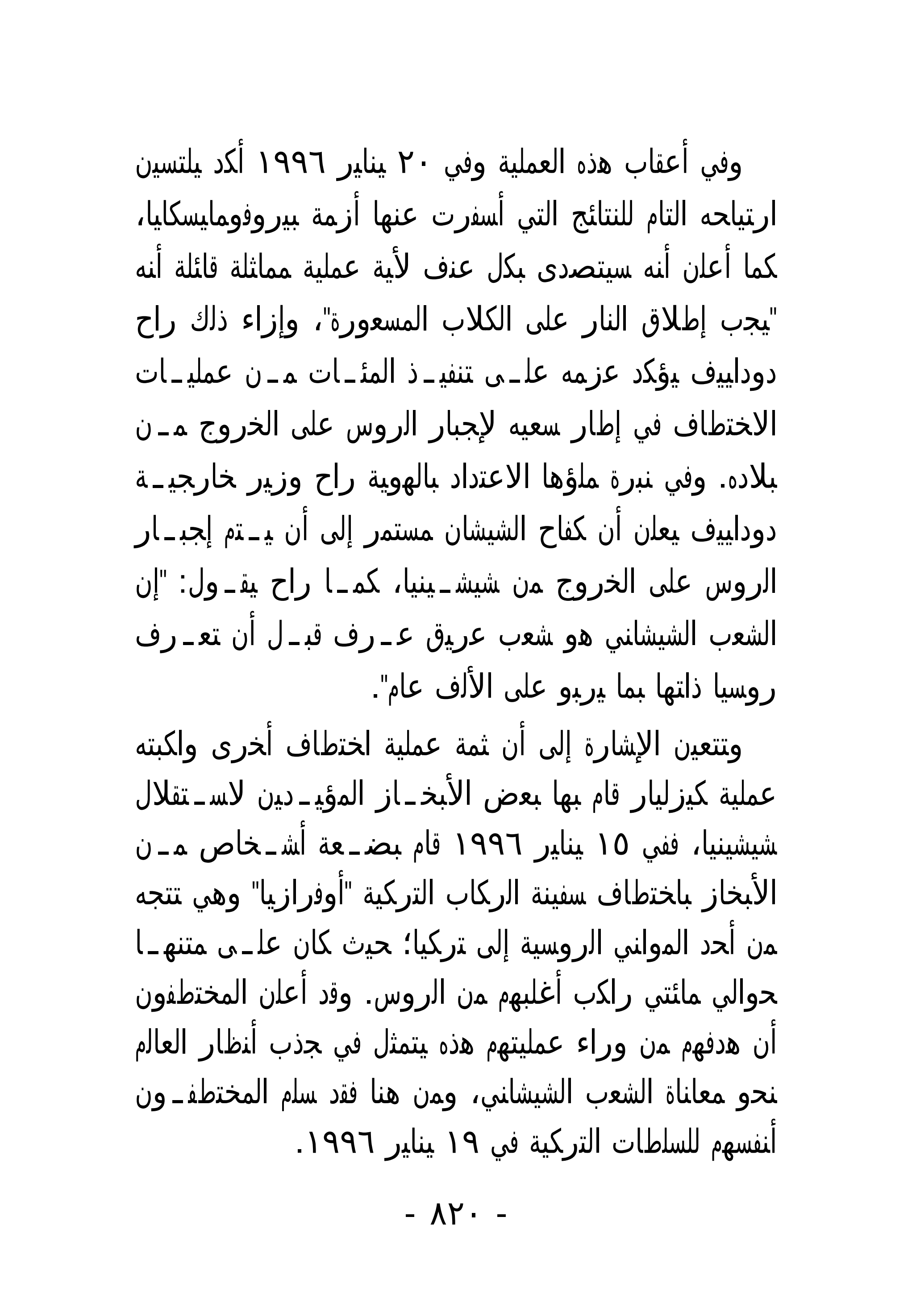
مواجهة قواته، ومن هنا فقد بدأ الـروس يحشـدون قـواتهم بالقرب من حدود شيشينيا. وعلى الرغم من تحذير الـزعيم السوفييتي السابق جورباتشوف ليلتسين من مغبة التورط في حرب مع الشيشان راح الزعيم الروسي يطلق جحافلـه فـي فجر يوم ١١ ديسمبر ١٩٩٤ كي تجتاح شيشينيا من خـلال أراضي ثلاثة جمهوريات روسية مجاورة لها هي داغستان، وأوسيتيا الشمالية، وأنجوتشيا. وعلى الرغم من ضعف قوات دوداييف – سواء من حيث العدد أو العتاد – فإنهـا راحـت تقاوم الزحف الروسي بكل ضراوة بحيث لم يتمكن الـروس من دخول العاصمة الشيشينية جروزني إلا في ٣١ ديسـمبر ١٩٩٤، وذلك في أعقاب معارك طاحنة دمرت لهم خلالهـا عشرات الدبابات والعربات المدرعة، كمـا أسـفرت هـذه المعارك عن مصرع وإصابة وأسر الآلاف من الروس، وكذا من الشيشان. وفي أعقاب استيلاء الروس علـى جروزنـي تراجعت قوات دوداييف إلى مناطق مجاورة للعاصمة؛ حيث راحت تستبدل أسلوب حرب العصـابات بأسـلوب الحـرب النظامية، كما راح الشيشان يلجئون إلى أساليب أخرى فـي صراعهم مع موسكو وذلك حال الاختطـاف والاغتيـالات



وغيرها من الوسائل التي تستقيم مع كون قوتهم متضائلة إلى جانب قوات الدب الروسي الجبارة. ولعل من أظهر عمليات الاختطاف تلك العملية التي تمت فـي صـيف عـام ١٩٩٥ والتي تزعمها أحد العسكريين الشيشان يدعى شامل باساييف؛ حيث قام باساييف ورفاقه باحتجاز ما يربو على المائة رهينة داخل مستشفى مدينة بودينوفسك الروسية. وهـدد باسـاييف بقتل الرهائن ما لم يجلس يلتسين إلى طاولة المفاوضات مـع القادة الانفصاليين الشيشان. وبالفعل فقد أذعن يلتسين لمطالب باساييف وبدأت المفاوضات بين الجانبين – آنذاك – بحيـث انتهت في ٣٠ يوليو ١٩٩٥ باتفاق الروس والشيشان علـى وقف إطلاق النار ذلك الوقف الذي لم يكد ينفـذ حتـى تـم خرقه، وراح الشيشان يناضلون من جديد بغية إجبار الروس على الخروج من شيشينيا. وفي أواخر عام ١٩٩٥ دارت بين الجانبين معارك عنيفة حاول من خلالها الشيشان السـيطرة على مدينة جوديرميس والتي تعد واحدة مـن أكبـر المـدن الشيشانية.



ولعل من أهم عمليات الاختطاف التي قام بها الشيشان تلك التي تمت في ١٠ يناير ١٩٩٦، وهـي العمليـة المعروفـة بعملية "كيزليار"؛ حيث قامت مجموعة من المقاتلين الشيشان باحتجاز زهاء ١٦٠ شخصا كرهائن فـي مدينـة كيزليـار التابعة لجمهورية داغستان الروسية، وإثر ذلك توجهت هـذه المجموعة – التي أطلقت على نفسها جماعة الذئب الوحيد – إلى قرية بيرفومايسكايا؛ حيث اختطفت مائة روسي آخـرين كرهائن، وبذلك بلغ عدد الرهائن الذين اختطفهم الشيشان نحو مائتين وستين رهينة. وقد استمرت هذه العملية لفترة تجاوز الأسبوع، ثم سرعان ما راحت القـوات الروسـية تهـاجم بيرفومايسكايا في محاولة من جانبها لتخليص الرهائن، وعلى الرغم من إعلان يلتسين عن نجاح القـوات الروسـية فـي تخليص الرهائن واستئصال شأفة المختطفين الشيشـان فقـد أعلن دوداييف أن مقاتليه قد نجحوا في الفرار ببعض الرهائن إلى داخل الشيشان، وعلى أية حال فإن القتال الضاري الذي دار بين القوات الروسـية وجماعـة الـذئب الوحيـد فـي بيروفومايسكايا قد أسفر عن مصرع العشرات من الجانبين.



وفي أعقاب هذه العملية وفي ٢٠ يناير ١٩٩٦ أكد يلتسين ارتياحه التام للنتائج التي أسفرت عنها أزمة بيروفومايسكايا، كما أعلن أنه سيتصدى بكل عنف لأية عملية مماثلة قائلة أنه "يجب إطلاق النار على الكلاب المسعورة"، وإزاء ذلك راح دوداييف يؤكد عزمه على تنفيذ المئات من عمليات الاختطاف في إطار سعيه لإجبار الروس على الخروج من بلاده. وفي نبرة ملؤها الاعتداد بالهوية راح وزير خارجية دوداييف يعلن أن كفاح الشيشان مستمر إلى أن يتم إجبار الروس على الخروج من شيشينيا، كما راح يقول: "إن الشعب الشيشاني هو شعب عريق عرف قبل أن تعرف روسيا ذاتها بما يربو على الألف عام".

وتتعين الإشارة إلى أن ثمة عملية اختطاف أخرى واكبته عملية كيزليار قام بها بعض الأبخاز المؤيدين لاستقلال شيشينيا، ففي ١٥ يناير ١٩٩٦ قام بضعة أشخاص من الأبخاز باختطاف سفينة الركاب التركية "أوفرازيا" وهي تتجه من أحد المواني الروسية إلى تركيا؛ حيث كان على متنها حوالي مائتي راكب أغلبهم من الروس. وقد أعلن المختطفون أن هدفهم من وراء عمليتهم هذه يتمثل في جذب أنظار العالم نحو معاناة الشعب الشيشاني، ومن هنا فقد سلم المختطفون أنفسهم للسلطات التركية في ١٩ يناير ١٩٩٦.

وإلى جانب عمليات الاختطاف وحرب العصـابات التـي يشنها الشيشان في مواجهة الروس، فإنهم يلجئون كذلك إلـى أسلوب الاغتيالات. ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك ما قـام به مسلحون شيشان في ١٦ أكتـوبر ١٩٩٥ مـن محاولـة لاغتيال قائد القوات الروسية في شيشينيا، وقد أسفرت تلـك المحاولة عن إصابة القائد ومصرع بعض معاونيـه، كـذلك فهناك العملية الفاشلة التي قام بها مسلحون شيشان – في ٢٥ نوفمبر ١٩٩٥ – بهدف اغتيال رئـيس حكومـة الشيشـان الموالية لموسكو دوكوزا مخاييف.

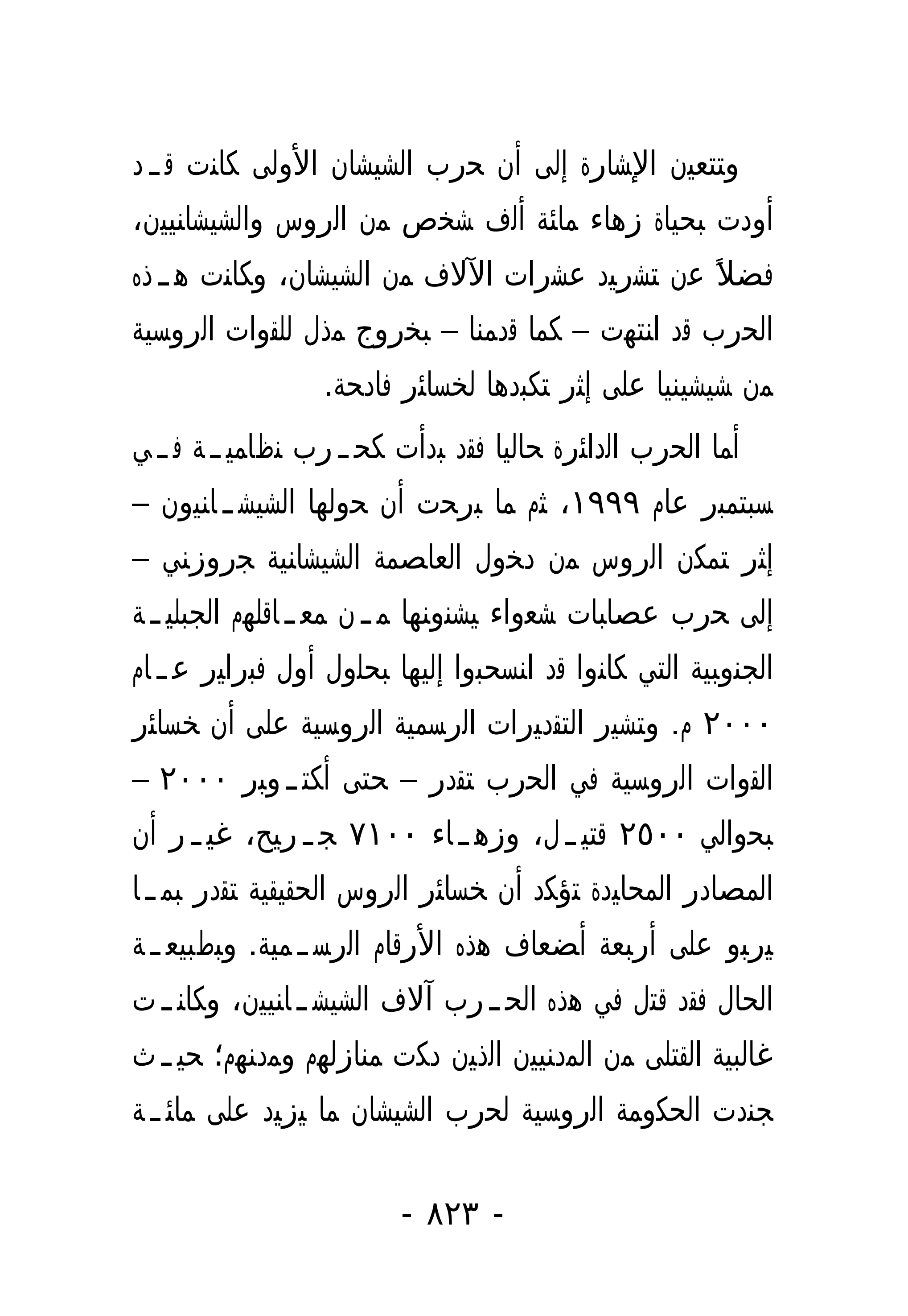
مهما يكن الأمر فإنه في ظل تعاظم حجم الخسائر الروسية في حرب الشيشان (١٩٩٤ – ١٩٩٦) وتحت وطأة الضربات الموجعة التي تلقتها قوات الروس في تلك الحرب لم يكن أمام يلتسين سوى الإذعان لإرادة الشيشانيين، ففي شهر أغسـطس ١٩٩٧ وقع الزعيم الروسي مع المقـاتلين الشيشـان اتفاقيـة تقضي بالدخول في هدنة لمدة خمس سنوات ينظر بعدها فـي أمر الجمهورية الانفصالية، على أن يقوم الروس فـي الحـال (أي على إثر توقيع الاتفاق) بسحب سائر قواتهم من الأراضي الشيشانية، وذلكم هو ما تم بالفعل. وبخروج الروس يجـرون

أذيال هزيمتهم المدوية اعتبر الشيشانيون أنهم قد حصلوا على الاستقلال، وراحوا يجرون انتخابات رئاسية جاءت بأصـلان مسخادوف [*] رئيسا للبلاد التي ظلـت محتفظـة باسـتقلالها الفعلي حتى شهر أغسطس من عام ١٩٩٩.

غير أن شهر سبتمبر من ذلك العام شهد وقوع تمرد فـي جمهورية داغستان الإسـلامية الملاصـقة للشيشـان وراح المتمردون الإسلاميون يعلنون استقلال داغستان عن روسـيا الاتحادية. بيد أن يلتسين لم يعترف بطبيعة الحال باسـتقلال تلك الجمهورية، واستجاب لنصائح رئيس وزرائه (وقتـذاك) فلاديمير بوتين، وأرسل جحافله إلى داغستان كي يعيدها بحد السيف إلى الحظيرة الروسية بعد القضاء على المتمـردين، واعتبر الروس أن ذلك التمرد كان مـن تـدبير المقـاتلين الإسلاميين في الشيشان، وراحوا يتذرعون بذلك كي يرسلوا قوات هائلة إلى شيشينيا بدءا من سبتمبر عـام ١٩٩٩ لكـي يعود الروس من جديد إلى المستنقع الشيشاني، وتبدأ حـرب الشيشان الثانية منذ منتصف ذلك الشهر، وهي الحرب التـي لا تزال مشتعلة حتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠).

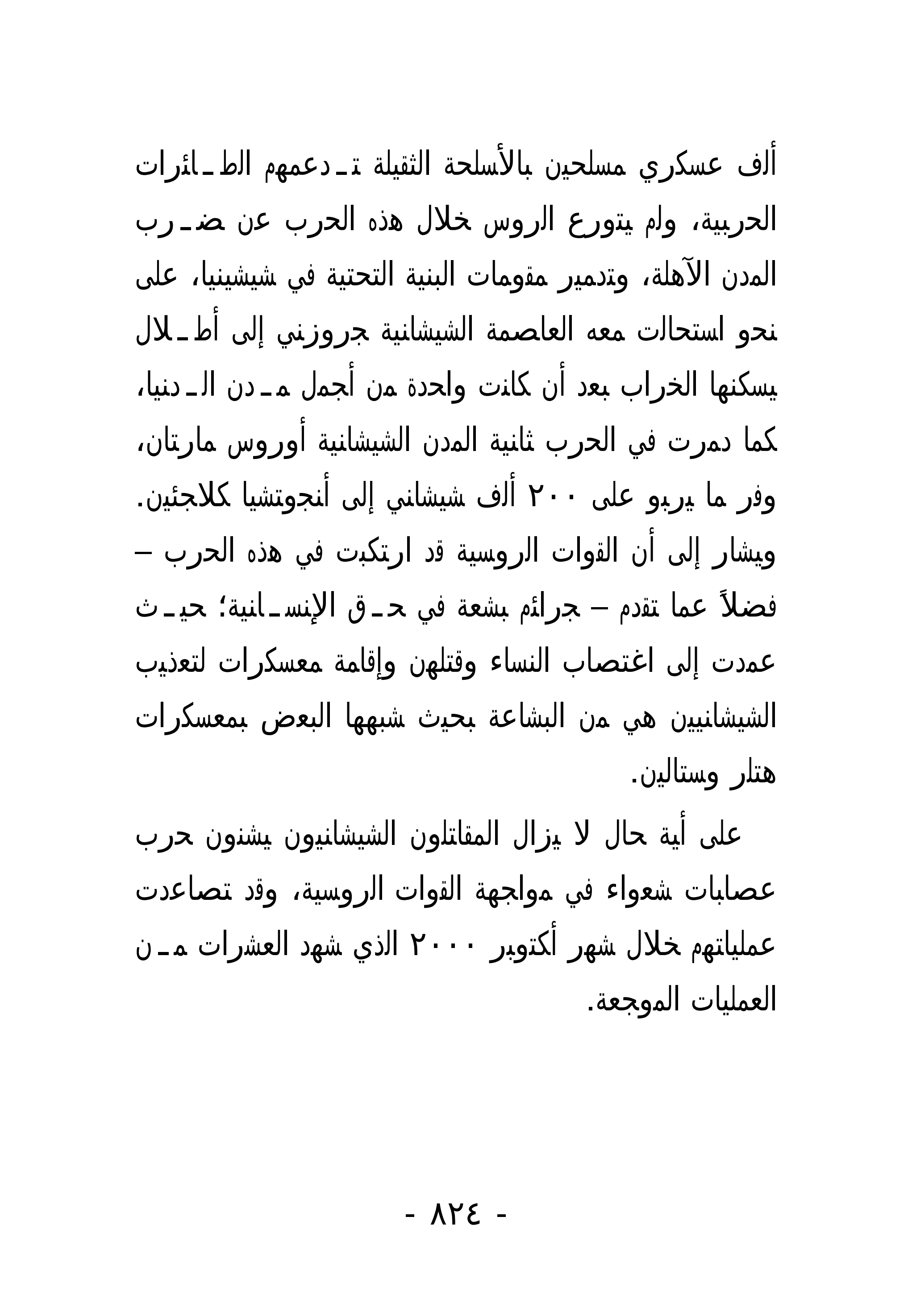
---

[*] تتعين الإشارة إلى أن جوهر دوداييف كان قد قتل من خلال عمليـة دبرتها المخابرات الروسية أثناء حرب الشيشان الأولى.



وتتعين الإشارة إلى أن حرب الشيشان الأولى كانت قد أودت بحياة زهاء مائة ألف شخص من الروس والشيشانيين، فضلاً عن تشريد عشرات الآلاف من الشيشان، وكانت هذه الحرب قد انتهت – كما قدمنا – بخروج مذل للقوات الروسية من شيشينيا على إثر تكبدها لخسائر فادحة.

أما الحرب الدائرة حاليا فقد بدأت كحرب نظامية في سبتمبر عام ١٩٩٩، ثم ما برحت أن حولها الشيشانيون – إثر تمكن الروس من دخول العاصمة الشيشانية جروزني – إلى حرب عصابات شعواء يشنونها من معاقلهم الجبلية الجنوبية التي كانوا قد انسحبوا إليها بحلول أول فبراير عام ٢٠٠٠ م. وتشير التقديرات الرسمية الروسية على أن خسائر القوات الروسية في الحرب تقدر – حتى أكتوبر ٢٠٠٠ – بحوالي ٢٥٠٠ قتيل، وزهاء ٧١٠٠ جريح، غير أن المصادر المحايدة تؤكد أن خسائر الروس الحقيقية تقدر بما يربو على أربعة أضعاف هذه الأرقام الرسمية. وبطبيعة الحال فقد قتل في هذه الحرب آلاف الشيشانيين، وكانت غالبية القتلى من المدنيين الذين دكت منازلهم ومدنهم؛ حيث جندت الحكومة الروسية لحرب الشيشان ما يزيد على مائة

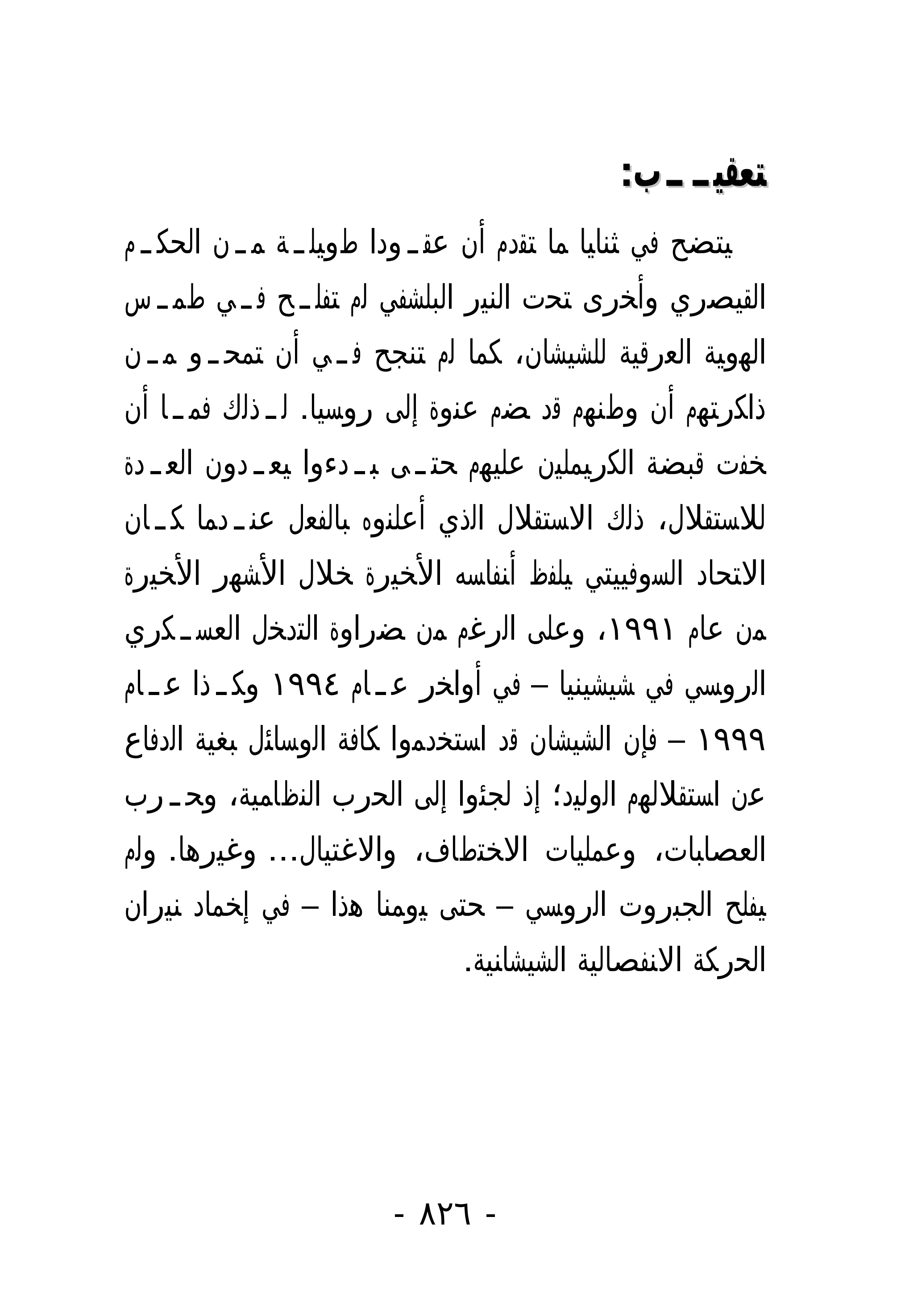


ألف عسكري مسلحين بالأسلحة الثقيلة تـدعمهم الطـائرات الحربية، ولم يتورع الروس خلال هذه الحرب عن ضـرب المدن الآهلة، وتدمير مقومات البنية التحتية في شيشينيا، على نحو استحالت معه العاصمة الشيشانية جروزني إلى أطـلال يسكنها الخراب بعد أن كانت واحدة من أجمل مـدن الـدنيا، كما دمرت في الحرب ثانية المدن الشيشانية أوروس مارتان، وفر ما يربو على ٢٠٠ ألف شيشاني إلى أنجوتشيا كلاجئين. ويشار إلى أن القوات الروسية قد ارتكبت في هذه الحرب – فضلاً عما تقدم – جرائم بشعة في حـق الإنسـانية؛ حيـث عمدت إلى اغتصاب النساء وقتلهن وإقامة معسكرات لتعذيب الشيشانيين هي من البشاعة بحيث شبهها البعض بمعسكرات هتلر وستالين.

على أية حال لا يزال المقاتلون الشيشانيون يشنون حرب عصابات شعواء في مواجهة القوات الروسية، وقد تصاعدت عملياتهم خلال شهر أكتوبر ٢٠٠٠ الذي شهد العشرات مـن العمليات الموجعة.

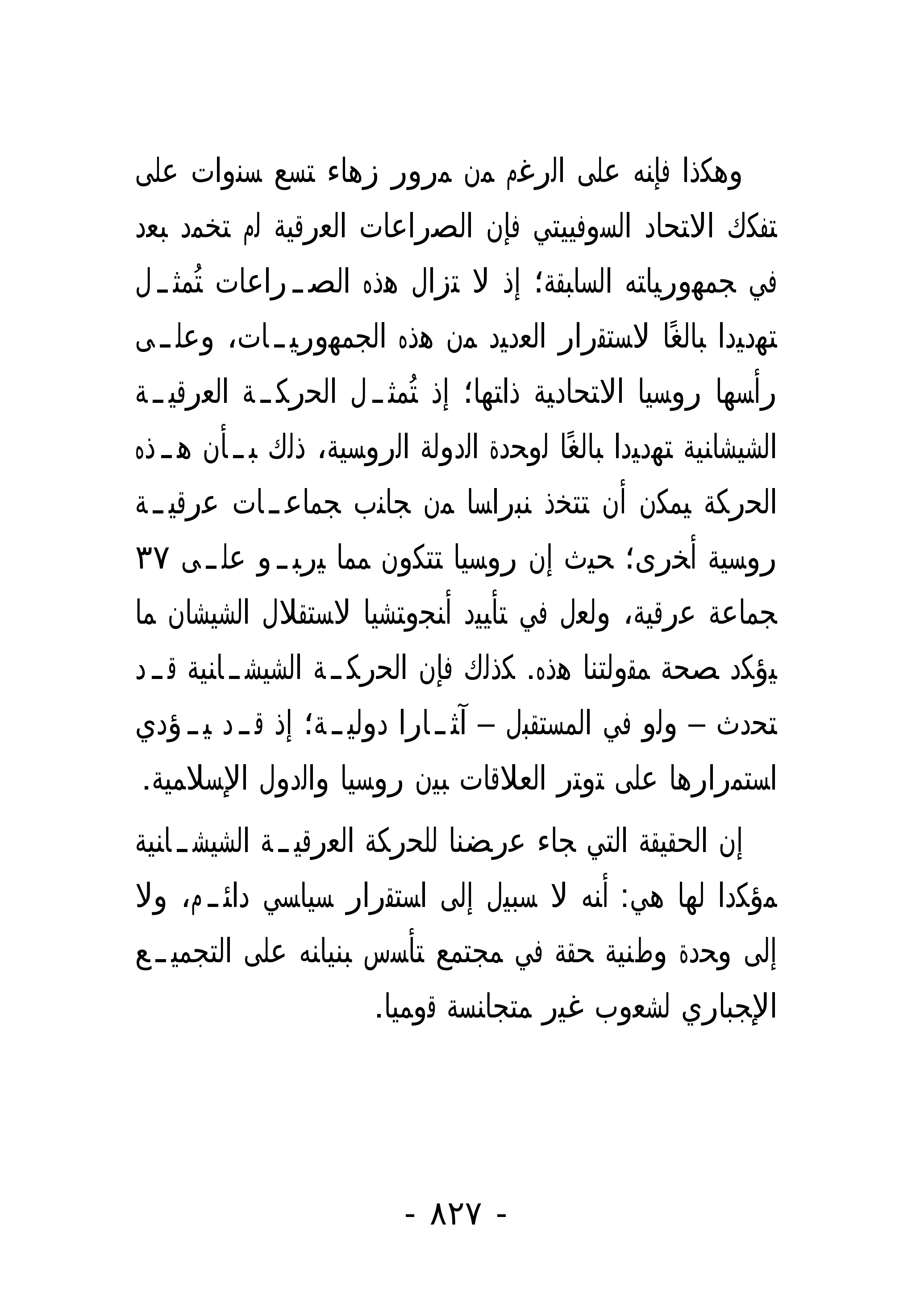
يبقى أن نشير إلى أن المقاتلين الشيشان قد أعلنوا من خلال موقعهم على شبكة المعلومات الدولية مسئوليتهم عن إغـراق الغواصة النووية الروسية (كورسك) في بحر بارنتس بالقطب الشمالي في ١٢ أغسطس ٢٠٠٠ والتي قتل سـائر بحارتهـا البالغ عددهم ١١٨ بحارا، كما أعلن المقاتلون كذلك مسئوليتهم عن تفجير برج أوستانكينو (٥٤٠ مترا) والذي يعد ثاني أعلى برج تليفزيوني في العالم، وذلك في ٢٧ أغسطس ٢٠٠٠، هذا ولم يتأكد حتى الآن ضلوع الشيشانيين في تينك العمليتين.

وأيا كان الأمر فإن حرب الشيشان الثانية لا تزال دائـرة حتى يومنا هذا - نوفمبر ٢٠٠٠ - حيث لا يزال الشيشانيون يمتشقون الحسام رافضين الإذعان لحكم الدب الروسي، كمـا لا يزال الروس - برغم خسـائرهم الهائلـة - يرفضـون انفصال شيشينيا، تلك البقعة من الأرض التـي تُمثـل بئـرا بتروليا عظيم الأهمية، والتي تتميز بموقعها الجغرافي المميز كأرض فاصلة بين روسيا والبئر البترولي الأعظـم أهميـة المتمثل في منطقة القوقاز، والتـي يعنـي حصـولها علـى الاستقلال (فضلاً عن خسارة الروس للميزتين المتقـدمتين) نفخ الروح في حركات انفصالية أخـرى داخـل كـل مـن أنجوتشيا، وداغستان، وتتارستان... وغيرها، على نحو ينذر بتفكك روسيا الاتحادية ذاتها.



تعقيـــب:

يتضح في ثنايا ما تقدم أن عقـودا طويلـة مـن الحكـم القيصري وأخرى تحت النير البلشفي لم تفلـح فـي طمـس الهوية العرقية للشيشان، كما لم تنجح فـي أن تمحـو مـن ذاكرتهم أن وطنهم قد ضم عنوة إلى روسيا. لـذلك فمـا أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتـى بـدءوا يعـدون العـدة للاستقلال، ذلك الاستقلال الذي أعلنوه بالفعل عنـدما كـان الاتحاد السوفييتي يلفظ أنفاسه الأخيرة خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩١، وعلى الرغم من ضراوة التدخل العسـكري الروسي في شيشينيا – في أواخر عـام ١٩٩٤ وكـذا عـام ١٩٩٩ – فإن الشيشان قد استخدموا كافة الوسائل بغية الدفاع عن استقلالهم الوليد؛ إذ لجئوا إلى الحرب النظامية، وحـرب العصابات، وعمليات الاختطاف، والاغتيال... وغيرها. ولم يفلح الجبروت الروسي – حتى يومنا هذا – في إخماد نيران الحركة الانفصالية الشيشانية.



وهكذا فإنه على الرغم من مرور زهاء تسع سنوات على تفكك الاتحاد السوفييتي فإن الصراعات العرقية لم تخمد بعد في جمهورياته السابقة؛ إذ لا تزال هذه الصـراعات تُمثـل تهديدا بالغًا لاستقرار العديد من هذه الجمهوريـات، وعلـى رأسها روسيا الاتحادية ذاتها؛ إذ تُمثـل الحركـة العرقيـة الشيشانية تهديدا بالغًا لوحدة الدولة الروسية، ذلك بـأن هـذه الحركة يمكن أن تتخذ نبراسا من جانب جماعـات عرقيـة روسية أخرى؛ حيث إن روسيا تتكون مما يربـو علـى ٣٧ جماعة عرقية، ولعل في تأييد أنجوتشيا لاستقلال الشيشان ما يؤكد صحة مقولتنا هذه. كذلك فإن الحركـة الشيشـانية قـد تحدث – ولو في المستقبل – آثـارا دوليـة؛ إذ قـد يـؤدي استمرارها على توتر العلاقات بين روسيا والدول الإسلامية.

إن الحقيقة التي جاء عرضنا للحركة العرقيـة الشيشـانية مؤكدا لها هي: أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائـم، ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع تأسس بنيانه على التجميـع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.



المبحث السادس
في تفكك الاتحاد السوفييتي
وآثاره الدولية

بحلول الشهور الأولى من عقد التسعينيات كان قـد بـات واضحا أن المقومات الرئيسية الثلاث للاتحاد السوفييتي قـد قوضت، ونعني بهذه المقومات كلاً من القوانين الاتحاديـة، والحزب الشيوعي، والجيش السـوفييتي. فبصـدد القـوانين الاتحادية – بادئ ذي بدء – نجد أن عام ١٩٩٠ لم ينتـه إلا وكانت غالبية الجمهوريات السوفييتية قد أعلنت سيادتها على أراضيها من جهة، وأكدت رفضـها لأي قـانون اتحـادي يتعارض مع قوانينها الخاصة من جهة أخرى. وعلى ذلك فقد أضـحى الالتـزام بـالقوانين الاتحاديـة مرهونًـا بـإرادة الجمهوريات، الأمر الذي أهدرت معه إلزامية تلك القـوانين بحيث لم تعد تُمثل – كما كانت من قبل – ذراع الكـريملين في كافة الجمهوريات، والوثاق الذي يشد تلك الجمهوريـات إلى بعضها البعض.

أما فيما يتصل بالحزب الشيوعي السوفييتي فإن الجبهات الشعبية التي ظهرت في جمهوريات المحيط كانت كفيلة بأن تفقده كل مصداقية وهيبة؛ إذ سرعان مـا جبـت شـرعيتها الراسخة شرعيته، وأطاحت شعبيتها الهائلة بكل شعبية كانت له. وهذا هو ما يعبر عنه البعض بقوله: "لقد كانت الجبهات الشعبية وشتى التجمعات والحركات اللارسمية قوى فاعلـة وحاسمة في تفتيت الإمبراطورية؛ إذ عبأت المجتمع من حول تطلعات مضمرة أتت الجلاسنوست – أخيرا – لتتيح لهـا أن تعبر عن نفسها، وسرعان ما باتت هذه الجبهات ممثلة حقيقية لمجتمعاتها؛ مما أكسبها شرعية أتاحت لها أن تمارس الضغط على السلطات المحلية والمركزية، وتوجهها وتعدل قراراتها مستندة إلى الإرادة الشعبية التي تجسدها، وما أن ولجت هذه الجبهات الحياة السياسية حتى وقعت للحزب الشيوعي مرسوم اندحاره" [٧٧٣].

---

[٧٧٣] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٧.

وبخصوص المقـوم الاتحـادي الثالـث – أي الجـيش السوفييتي – فنجد أن وحداته العاملة فـي كافـة الأراضـي السوفييتية بدأت تواجه رفضا لوجودها من جانـب شـعوب جمهوريات المحيط، وقد تعرضت هذه الوحـدات لهجمـات مسلحة ومضايقات أهدرت كثيرا من هيبة القوات المسـلحة السوفييتية، كما راح الزعمـاء الانفصـاليون فـي بعـض الجمهوريات يوجه انتقادات عنيفـة إلـى قـادة المؤسسـة العسكرية السوفييتية، وأصدر العديد من الجمهوريات قرارات بتشكيل وحدات دفاعية ذاتية، كي تقوم بالذود عن أراضـيه، الأمر الذي اعتبر بمثابة إلغاء لدور القوات السوفييتية في تلك الجمهوريات، بل وأكدت بعض الجمهوريات صراحة – حال جمهوريات البلطيق – على رفضها لوجود قـوات سـوفيتية على أراضيها، معتبرة إياها قوات احتلال [٧٧٤].

---

[٧٧٤] انظر في هذا المضمون: أحمد مصطفى العملـة، مرجـع سـبق ذكره، ص ٢٥٥.

من جانب آخر فقد أكدت الدراسات الميدانية أن الجيش السوفييتي بدلاً من أن يكون مدرسة للأممية – على حد تعبير الزعماء السوفييت – قد أضحى مع نهاية عقد الثمانينيات يمثل مسرحا للصراعات العرقية، فعلى سبيل المثال نجد أن مجندي آسيا الوسطى أخذوا يشكون من كونهم محتقرين، ومن أنهم يعاملون معاملة العبيد من جانب الروس. والحق أن الضباط الروس أنفسهم لم يكونوا ينكرون هذه المقولة؛ إذ نجد بعضهم يصرح: "منذ البداية نعتبر أنفسنا نحن البيض متفوقين على النشوركي (أهل آسيا الوسطى)، فإذا ما أردنا تنظيف المراحيض مثلاً ترانا نجبر كازاخيا على القيام بذلك، ففي الثكنة كل ما هو حقير يكون وقفًا على الكازاخ والأوزبك". وقد كان البلطيقيون كذلك يشكون من تعرضهم لمعاملة وحشية من جانب الروس داخل الجيش، كما شهد هذا الجيش معارك عديدة داخله بين المسلمين والبيض، وشهدت صفوف القوات البحرية صراعات عديدة بين الأذربيجانيين والأرمن انطلقت من صراع جماعيتهم العرقيتين حول ناجورنو كاراباخ، ذلك فضلاً عن حوادث أخرى عديدة شهدتها وحدات الجيش حال مقتل جنود روس على يد جندي

باطيقي اتهمهم باغتصابه [775]، وتلكم هي مدرسـة الأميـة التي طالما تفاخر بها الزعماء السوفييت.

جملة القول – إذًا – أنه قد بات جليا – مع بدايـة عقـد التسعينيات – أن مقومات تماسك الاتحـاد السـوفييتي قـد قوضت إلى حد كبير، ذلك فضلاً عن أن كافة الجمهوريـات السوفييتية كانت تعـج بالصـراعات العرقيـة والحركـات الانفصالية، في وقت بدا واضحا خلاله أن جورباتشوف غير قادر على إخماد هذه الصراعات ومواجهة تلـك الحركـات، على نحو جعل الكثير من المحللـين يؤكـدون أن الاتحـاد السوفييتي متفكك لا محالة، وأنه لا سبيل إلـى إنقـاذه مـن مصيره المحتوم. وإزاء ذلك راح جورباتشوف يلقي بالسـهم الأخير الذي كان في جعبته عساه يفلح في الحفاظ على أيـة رابطة بين الشـعوب الخاضـعة لإمرتـه؛ إذ راح الـزعيم السوفييتي يعلن في أبريل ١٩٩١ عن معاهدة اتحادية جديـدة بين الجمهوريـات السـوفييتية تحصـل بمقتضـاها هـذه الجمهوريات على سيادة حقيقية في إطار كيان سوفيتي جديد

---

[775] انظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، من ص ٢٢٠ إلى ص ٢٢٢.

هو أقرب ما يكون إلى الاتحاد الكونفيدرالي [٧٧٦]. كما نصت هذه المعاهدة على إسقاط النص على الاشتراكية مـن اسـم الاتحاد المزمع إنشائه، بحيث يطلق على هذا الاتحاد: "اتحاد الجمهوريات السوفييتية ذات السيادة". وفضلاً عن ذلك فقـد منحت المعاهدة الجديدة للجمهوريات الحق في الانفصال عن الاتحاد السوفييتي برفض الانضمام إليها، والبدء في اتخـاذ إجراءات الانفصال [٧٧٧]. وأعلن جورباتشـوف أن التوقيـع على المعاهدة سيتم في ٢٠ أغسطس ١٩٩١ [٧٧٨].

وفي ٢٦ يوليو عام ١٩٩١ عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي اجتماعا طارئـا بنـاء علـى اقتـراح جورباتشوف، تم خلاله إقرار تبني الحزب لبرنـامج يـنص على التخلي عن الشيوعية و الماركسية واللينينية؛ حيث أعلن

---

(٧٧٦) Bialer, Sewyen. The Death of Soviet Communism, Foreign affairs, Winter, ١٩٩١ – ٩٢, pp. ١٧٥ – ١٧٦.

(٧٧٧) انظر في هذا المضمون: التقرير الاستراتيجي العربي (١٩٩١)، مركز الدراسات السياسـية والاسـتراتيجية بـالأهرام – القـاهرة، ١٩٩٢، ص ٦١.

(٧٧٨) Bialer, Op. Cit., P. ١٧٨.

جورباتشوف الفشل النظري والعملي لنمـوذج الاشـتراكية، مؤكدا على أن الستالينيين كانوا قد فرضـوه بـالقوة علـى الحزب، كما صرح أحد مستشاري الزعيم السـوفييتي بـأن "الفكرة الشيوعية لم تعد تصلح راية للعمل السياسي، وبالتالي فإنها لا يمكن أن تصـبح هـدفًا لحـزب يريـد أن يكـون حاكما"[779].

وإزاء هذه التطورات الجسام راح غلاة القادة الشـيوعيين يعدون العدة لمواجهة المخاطر الجمة التـي تعـرض لهـا حزبهم، وطالت عقيدتهم المذهبية، وفي ١٩ أغسـطس عـام ١٩٩١ قام نفر منهم وعلى رأسه نائـب الـرئيس جينـادي ياناييف بانقلاب في مواجهة جورباتشـوف [780]. وقـد راح القادة الانقلابيون يؤسسون لجنة للطوارئ تزعمها ينـاييف بغية قيادة البلاد؛ حيث راحت تعلن: "أنها تحمل جورباتشوف وسياسة البريسترويكا تبعة الحالة التي وصلت إليها الـبلاد". وعلى أية حال فإن المحاولة الانقلابية هذه قد فشـلت فشـلاً

---

[779] انظر في هذا المضمون: التقرير الاستراتيجي العربي (١٩٩١)، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠.

[780] انظر بصدد قادة هذا الانقلاب: Bialer, Op. Cit., PP. ١٧٨ - ١٨٠

ذريعا؛ إذ لم تستمر أكثر من ستين ساعة، انهار على إثرهـا قادة الانقلاب أمام المقاومة الصـلبة التـي قادهـا الـرئيس الروسي بوريس يلتسين ذلك فضلاً عن أن هذا الفشل جاء – كذلك – نتيجة لأخطاء فادحة وقع فيها قادة الانقلاب [٧٨١].

وعلى إثر فشل الانقلاب راح جورباتشوف يعلن موافقتـه على استقلال جمهوريات البلطيق، كما راح جل الجمهوريات السوفييتية الأخرى يعلن استقلاله عن الاتحاد السوفييتي، تلك الدولة التي انتهت – بالفعل – عندما قام رؤساء إحدى عشرة جمهورية سوفيتية – في ٢١ ديسمبر ١٩٩١ – بإعلان زوال الاتحاد السوفييتي من الوجود، وإنشاء ما يعرف بكومنولـث الدول المستقلة، والذي هو أشبه ما يكـون بمنظمـة دوليـة إقليمية لتحقيق التعاون وتنسيق العلاقات بين إحـدى عشـرة جمهورية سوفييتية سابقة وقعت على بيان ألما آتـا وهـي: روسيا، وبيلوروسيا، وأوكرانيا، وكازاخستان، وأوزبكستان،

---

[٧٨١] انظر بصدد تطورات هذا الانقلاب: المرجع السابق، ص ٦١، وكذا:

- ممدوح لطفي، انهيار إمبراطورية شيوعية، الـدار المصـرية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، من ص ١٩٧ إلى ص ٣٤٨.

وقرقيزســتان، وأذربيجــان، وأرمينيــا، وتركمانســتان، وطاجيكستان، ومولدافيا [*].

ولم يكن أمام جورباتشوف – إزاء ذلك – سوى الاستقالة؛ حيث راح يعلن في ٢٥ ديسمبر ١٩٩١ أنـه: "فـي ضـوء الأوضاع الراهنة وبعد الإعلان عن تشكيل الكومنولث الجديد للـدول المسـتقلة فـإنني أنهـي دوري كـرئيس للاتحـاد السوفييتي"[٧٨٢].

وهكذا فقد انهارت إمبراطورية البلاشـفة تحـت وطـأة الحركات العرقية، وبانهيار هذه الإمبراطورية تهاوت فكـرة الانتماء للأممية البروليتارية؛ إذ بان جليا أن انتمـاء سـائر الجماعات العرقية الخاضعة لنير الكـريملين كـان للعـرق لا للطبقة، وذلك على الرغم من الجهود المضنية التي بـذلها الزعماء السوفييت لطمس الهويات العرقية لتلك الجماعـات؛ إذ ظلت كافة هذه الجماعات قابضة على هويتهـا، عاضـة بالنواجذ على مقومات ذاتيتها، ضاربة عرض الحائط بما عدا

---

[*] انضمت جورجيا إلى الكومنولث في نهاية عام ١٩٩٣ تحت وطـأة ضغوط روسية.

[٧٨٢] ممدوح لطفي، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٤.

هذه المقومات من شعارات حـال "الأمميـة البروليتاريـة"، و"الصداقة بين الشعوب السوفييتية"، و"الشـعب السـوفييتي الواحد"، وبالتالي فقد بدا واضحا أن تلك الشعارات لم تكـن تعدو محض أوهام طالت أذهان الزعماء السوفييت فاعتقـدوا في وجودها، وراحوا يفاخرون بها في الأمم معتبرين إياهـا أعظم إنجازات ثورتهم. لقد كان الهدف الملح لهؤلاء الزعماء هو طمس الهويات العرقية للشعوب الخاضعة لإمرتهم، بحيث تنضوي هذه الشعوب تحت راية الشيوعية، على نحو يهيـئ لخلق هوية سوفيتية جامعة تجب ما عداها من هويات، ولمـا كان قاطنو الكريملين قد نجحوا من خلال قبضتهم الحديديـة في الإبقاء على وحدة دولتهم حتى منتصف عقد الثمانينيـات فقد ظنوا أنهم قد أضحوا قاب قوسين أو أدنـى مـن بلـوغ غايتهم المنشودة، غير أن ملاحظة الواقع السـوفييتي خـلال النصف الثاني من عقد الثمانينيات تؤكد أن تلك الغاية لم تكن تعدو محض سراب؛ إذ ما أن خفت قبضة الكـريملين علـى الشعوب الخاضعة لنيره حتى هبت هذه الشعوب من سـباتها رافضة الإذعان له، وساعية إلى التخلص من ربقته.

وشيئًا فشيئًا بدأ الوهن يدب في أوصال الجسد السوفييتي، وسرعان ما انهار تحت وطأة الحركات العرقية، ذلك الانهيار الذي كانت له آثار دولية عظيمة الشأن طالت مقومات النسق الدولي قاطبة، وذلك على اعتبار أن الاتحاد السوفييتي قد ظل يمثل – لعقود عديدة تلت الحرب العالمية الثانيـة – إحـدى قوتين قطبيتين اثنتين ظلتا – طيلة هذه العقود – تقرران معا مصير النسق الدولي، وقد تمثلت القوة الثانيـة – كمـا هـو معروف – في الولايات المتحدة. ولقد استتبع تفكك الاتحـاد السوفييتي (عام ١٩٩١) على التو تفكك – دائرتـه الثابتـة (الكتلة الشرقية)، واختفاء تطلعه – تبعا لذلك – على التسابق مع القطب الثاني (الولايات المتحدة) على الامتداد على أرض العالم الثالث، فضلاً عن اختفاء ظاهرة تنافس القطبـين فـي مجال العمل داخل الأمـم المتحـدة، وزوال العـداء الـدائم بينهما[٧٨٣].

---

[٧٨٣] راجع في هذا المضمون: محمد طه بدوي، ليلى أمـين مرسـي، العلاقات...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

وهكذا فباختفاء الاتحاد السوفييتي أضحى القطب الثـاني (الولايات المتحدة) متفردا بدرجة التفوق العظمى التي كانت تشاركه إياها إمبراطورية البلاشفة، وسرعان مـا اتجهـت الولايات المتحدة – التي باتت تُمثل قطب النسق الأوحـد – إلى الأمم المتحدة باعتبارها منظمة قانونية لتتخذ منها سـندا نظاميا لانفرادها بتقرير مصير علاقات القوى على مسـتوى النسق العالمي، وبالتالي فقد أضحت المنظمة الدولية – لـدى الأمريكيين – مجرد أداة لإضفاء الشرعية علـى سياسـاتهم على المستوى العالمي [٧٨٤].

وتأسيسا على ما تقدم فقد أدى تفكك الاتحاد السوفييتي إلـى إحداث تغيرات بالغة الخطورة في خريطة توزيع القوى الدولية التي كانت قائمة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانيـة. ولعلنـا لا نكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا اعتبرنا أن هذه التغيرات تُمثل آثارا دولية – وإن كانت غير مباشرة – للحركات العرقية التي ظهرت في الاتحاد السوفييتي منذ انتصاف عقد الثمانينيات، ذلك بأن هذه الحركات كان من شأنها أن مزقـت أوصـال الدولـة السوفييتية، الأمر الذي ترتب عليه زوالها من الوجود، وبالتالي من خريطة توزيع القوى الدولية.

---

[٧٨٤] راجع في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٢٩٧.

والحق أن ثمة آثارا دولية أخرى – وإن كانت أقل شأنًا – للحركات العرقية السوفييتية، من ذلك مثلاً أن انهيار الاتحاد السوفييتي واستقلال دول آسيا الوسطى قد خلقا ظاهرة دولية جديدة قوامها: التنافس التركي الإيراني على مناطق النفـوذ في تلك الدول (إلى جانب أذربيجان)؛ حيث راحت كل مـن تركيا وإيران – باعتبارها دولة إسلامية – تسعى إلـى نقـل نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى الجمهوريـات الست، في محاولة منها لبسـط نفوذهـا، وبالتـالي تحقيـق مصالحها القومية لدى تلك الجمهوريات. ففي حـين راحـت تركيا تسعى إلى فرض نموذجها الفكـري العلمـاني علـى الجمهوريات الست، راحت إيران تقدم لتلـك الجمهوريـات نموذجها الفكري الإسلامي؛ حيث نجحت بالفعل فـي خلـق تأييد لا يستهان به لذلك النموذج داخل معظم الجمهوريـات، ولعل أظهر ما يؤكد ذلك هو الحرب الأهلية التـي لا تـزال راحها دائرة حتى يومنا هذا في طاجيكستان بين قوات النظام الشيوعي الحاكم، وقوات حركة النهضة الإسلامية التي تسعى

إلى إقامة نظام إسلامي على غرار النظـام الإيرانـي فـي الجمهورية الطاجيكية [٧٨٥].

وفضلاً عما تقدم فهنـاك التنـافس علـى النفـوذ فـي جمهوريات آسيا الوسطى بين كل من إيران وأفغانستان مـن جهة، وروسيا من جهة أخرى. ذلك التنافس الذي يبدو جليـا من خلال تتبع مجريات الحرب الأهلية فـي طاجيكسـتان؛ إذ تأخذ الدولتان الإسلاميتان صف حركة النهضة الإسلامية، في حين تقف روسيا إلى جوار القوات الحكومية.

ويبقى أن نشير – في النهاية – إلى أنه على الـرغم مـن تفكك الاتحاد السوفييتي فإن الصـراعات العرقيـة لا تـزال مستعرة الأوار في جمهورياته، ولعل مرد ذلك إلى كون هـذه الجمهوريات – ذاتها – دولاً متنوعة الأعراق. ومـن أظهـر الصراعات القائمة في الجمهوريات السوفييتية حتى يومنا هذا:

---

[٧٨٥] انظر بصدد التنافس التركي الإيراني على الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى: - وليد محمود عبد الناصر، مرجع سبق ذكـره، من ص ١٥٩ إلى ص ١٦١، وكذا:

- Olcott, Martha Brill, Central Asia: The Calculus of Independence, Current History, October, ١٩٩٥, pp. ٣٣٩ – ٣٤١.

- الصراع الأذربيجاني الأرميني حول إقليم ناجورنو كاراباخ (صراع دولي).
- الصراع الروسي الشيشاني (روسيا).
- الصراع الجيورجي الأبخازي (جيورجيا).
- الصراع الجيورجي الأوسيتي (جيورجيا).
- الصراع المولدافي الجاجوازي (مولدافيا).
- الصراع بين الأوكرانيين وروس القرم (أوكرانيا)، وهو قد يؤدي إلى صراع دولي في المستقبل بين روسيا وأوكرانيا [٧٨٦].

وبالإضافة إلى ما تقدم فإننا لا نكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ما قلنا أن ثمة صراعات عرقية عديدة أخرى قد تطل برأسها في أي وقت داخل أغلب الجمهوريات السوفييتية السابقة. ويرتد ذلك إلى كون هذه الجمهوريات تتسم بالتنوع العرقي، الأمر الذي يجعل الصراعات بين أعراقها أمرا محتمل الحدوث في أي وقت على نحو ما حدث في الاتحاد السوفييتي (السابق) ذاته.

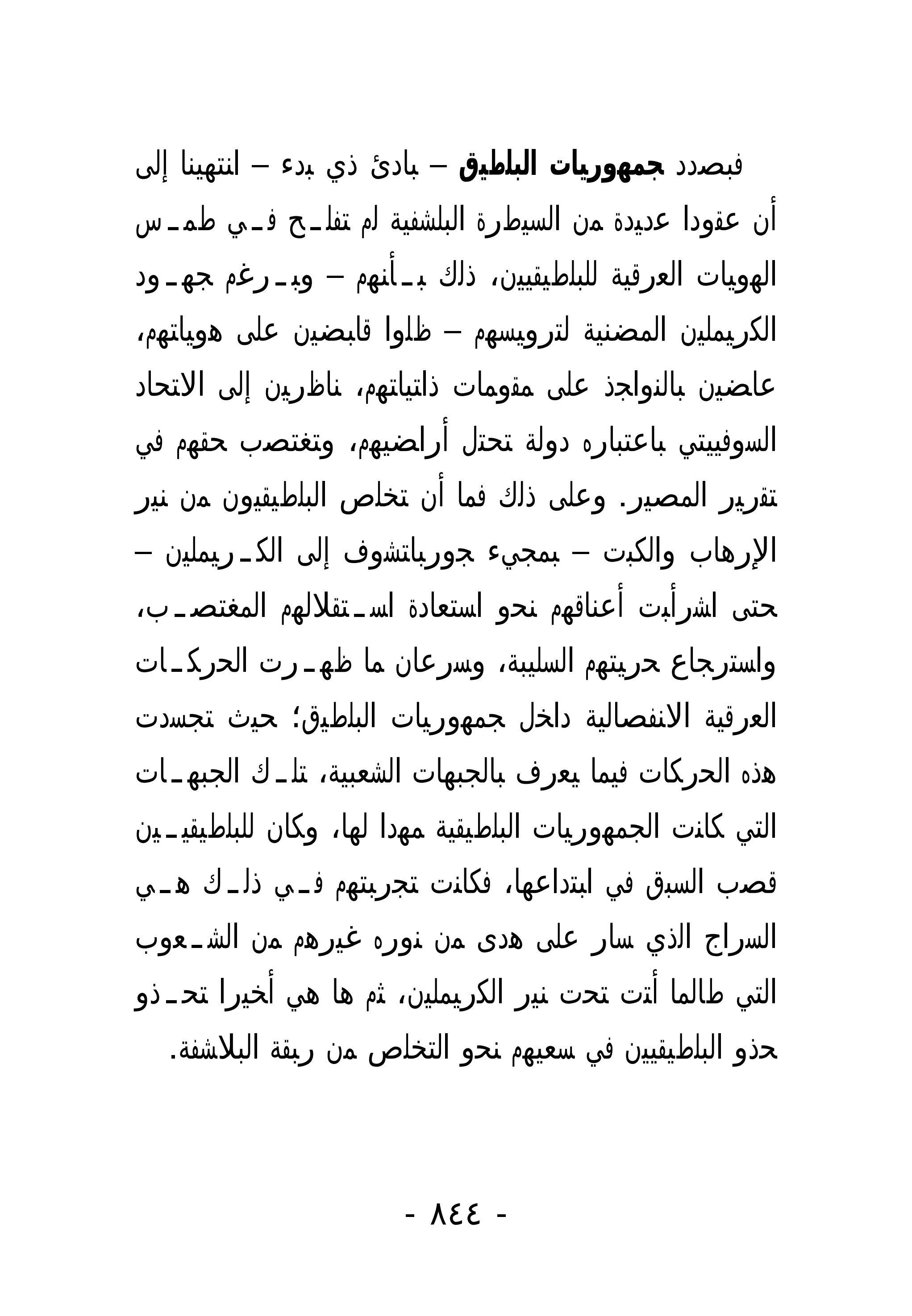
---

[٧٨٦] انظر بصدد هذا الصراع: نورهان الشيخ، مرجع سبق ذكره، من ص ١٤٤ إلى ص ١٤٨.

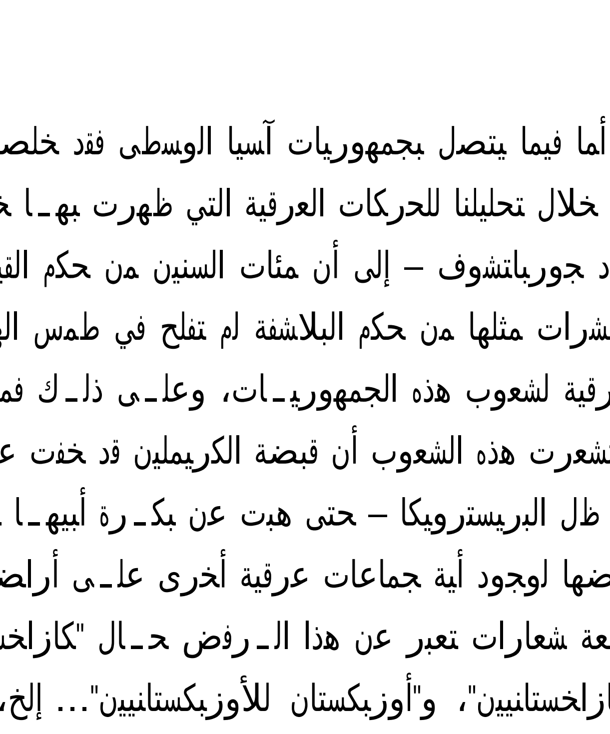
تقريـــر:

عرضنا في هذا الفصل للحركات العرقيـة فـي الاتحـاد السوفييتي (السابق) خلال الحقبة الجورباتشوفية وما بعـدها، وقد خلصنا من عرضنا هذا إلى ما يلي:

لقد شهد العهد الجورباتشوفي ظهور العديد من الحركـات العرقية في جمهوريات المحيط السوفييتية، وهي الحركـات التي سرعان ما تعاظم شأنها في ظل ما هيأته الجلاسنوسـت من مناخ اتسم بالحرية إلى حد كبير، وعلى نحو هيأ لبعـث النزعات العرقية من مرقدها. ففي ظل الجلاسنوست وجـدت الجماعات العرقية نفسها وقد واتتها الفرصة كي تعبـر عـن مضمر نزعاتها، بعد قرون عديدة أحكمت القبضـة خلالهـا على تلك الجماعات من لدن حكام جبابرة، حكموها بالحديـد والنار، وكبلوها بأغلال القهر والاسـتبداد، وأذاقوهـا كافـة صنوف الإرهاب والتنكيل، وما أن خفت القبضة عليها – في رحاب البريسترويكا – حتى راحت تدق طبول الحرب طلبـا للاستقلال، والتخلص مـن ربقـة أولئـك الـذين يقطنـون الكريملين.

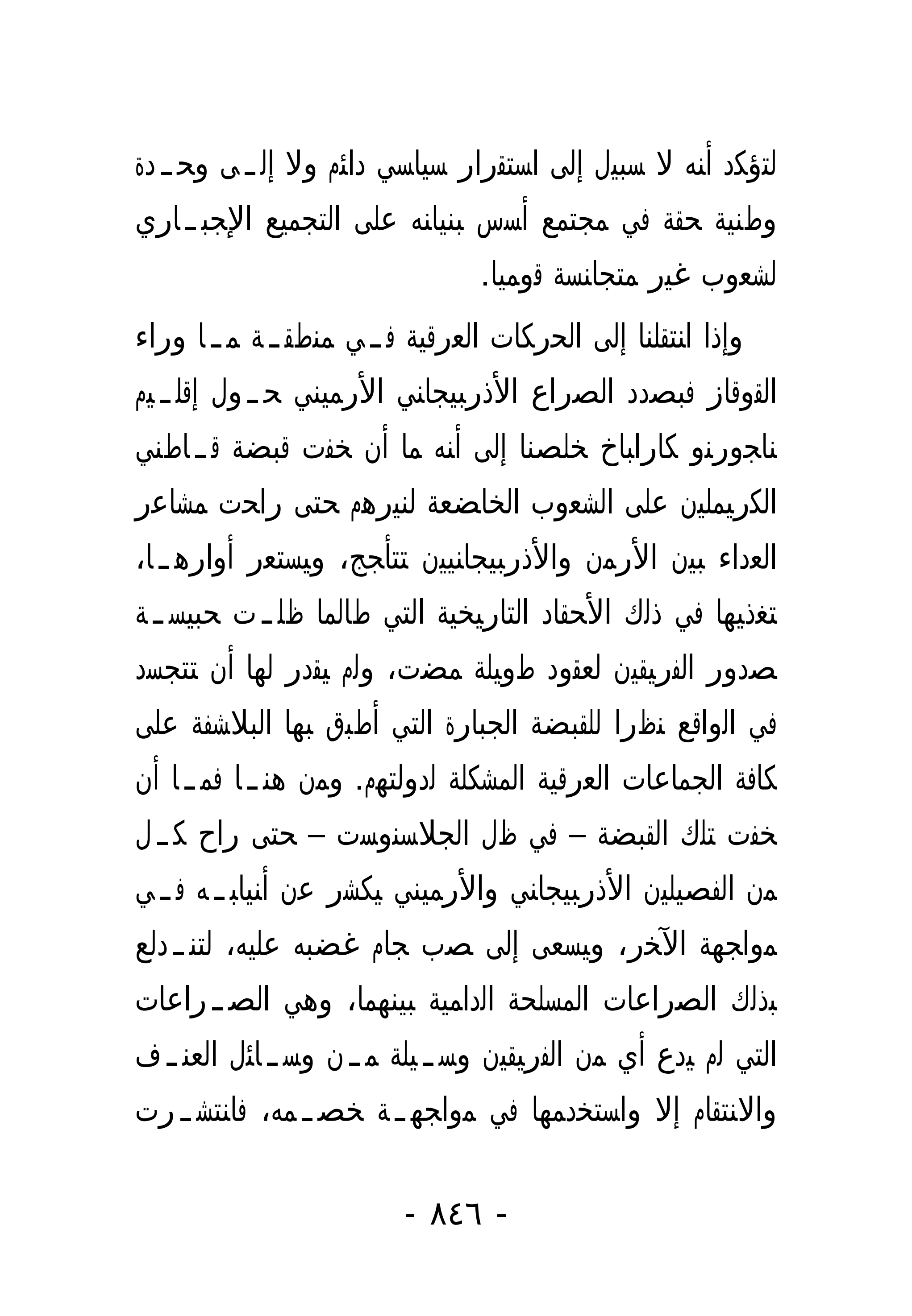


فبصدد **جمهوريات البلطيق** – بادئ ذي بدء – انتهينا إلى أن عقودا عديدة من السيطرة البلشفية لم تفلح في طمس الهويات العرقية للبلطيقيين، ذلك بأنهم – وبرغم جهود الكريملين المضنية لترويسهم – ظلوا قابضين على هوياتهم، عاضين بالنواجذ على مقومات ذاتياتهم، ناظرين إلى الاتحاد السوفييتي باعتباره دولة تحتل أراضيهم، وتغتصب حقهم في تقرير المصير. وعلى ذلك فما أن تخلص البلطيقيون من نير الإرهاب والكبت – بمجيء جورباتشوف إلى الكريملين – حتى اشرأبت أعناقهم نحو استعادة استقلالهم المغتصب، واسترجاع حريتهم السليبة، وسرعان ما ظهرت الحركات العرقية الانفصالية داخل جمهوريات البلطيق؛ حيث تجسدت هذه الحركات فيما يعرف بالجبهات الشعبية، تلك الجبهات التي كانت الجمهوريات البلطيقية مهدا لها، وكان للبلطيقيين قصب السبق في ابتداعها، فكانت تجربتهم في ذلك هي السراج الذي سار على هدى من نوره غيرهم من الشعوب التي طالما أنت تحت نير الكريملين، ثم ها هي أخيرا تحذو حذو البلطيقيين في سعيهم نحو التخلص من ربقة البلاشفة.



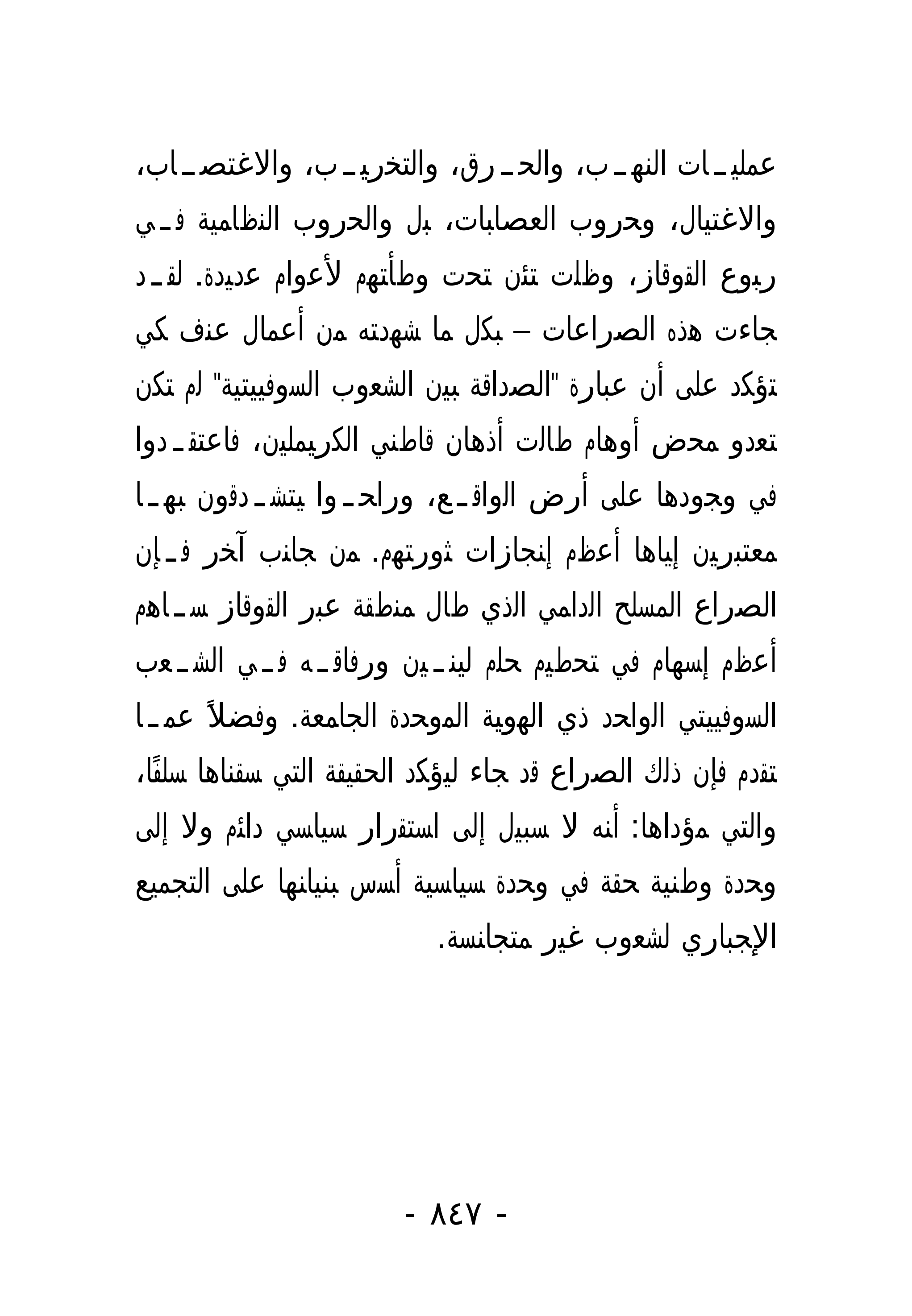
أما فيما يتصل بجمهوريات آسيا الوسطى فقد خلصنا – من خلال تحليلنا للحركات العرقية التي ظهرت بها خلال عهد جورباتشوف – إلى أن مئات السنين من حكم القياصرة وعشرات مثلها من حكم البلاشفة لم تفلح في طمس الهوية العرقية لشعوب هذه الجمهوريات، وعلى ذلك فما أن استشعرت هذه الشعوب أن قبضة الكريملين قد خفت عليها – في ظل البريسترويكا – حتى هبت عن بكرة أبيها تعلن رفضها لوجود أية جماعات عرقية أخرى على أراضيها، رافعة شعارات تعبر عن هذا الرفض حال "كازاخستان للكازاخستانيين"، و"أوزبكستان للأوزبكستانيين"... إلخ، وكذا "لا للقوقازيين"، و"فليرحل الروس عن أراضينا".

وهكذا فإن انتفاضات ألما آتا وطشقند ودوشانبي وعشق آباد وفرونز بما تضمنته من أحداث دامية، وبما رفع خلالها من شعارات قد حطمت – إلى جانب تماثيل لينين – حلمه المتصل بالشعب السوفييتي الواحد، كما أكدت زيف مقولة الصداقة بين الشعوب السوفييتية التي طالما تشدق بها الزعماء السوفييت، باعتبارها مأثرا عظيما من مآثر ثورتهم. وفضلاً عما تقدم فإن انتفاضات عرقيات آسيا الوسطى جاءت

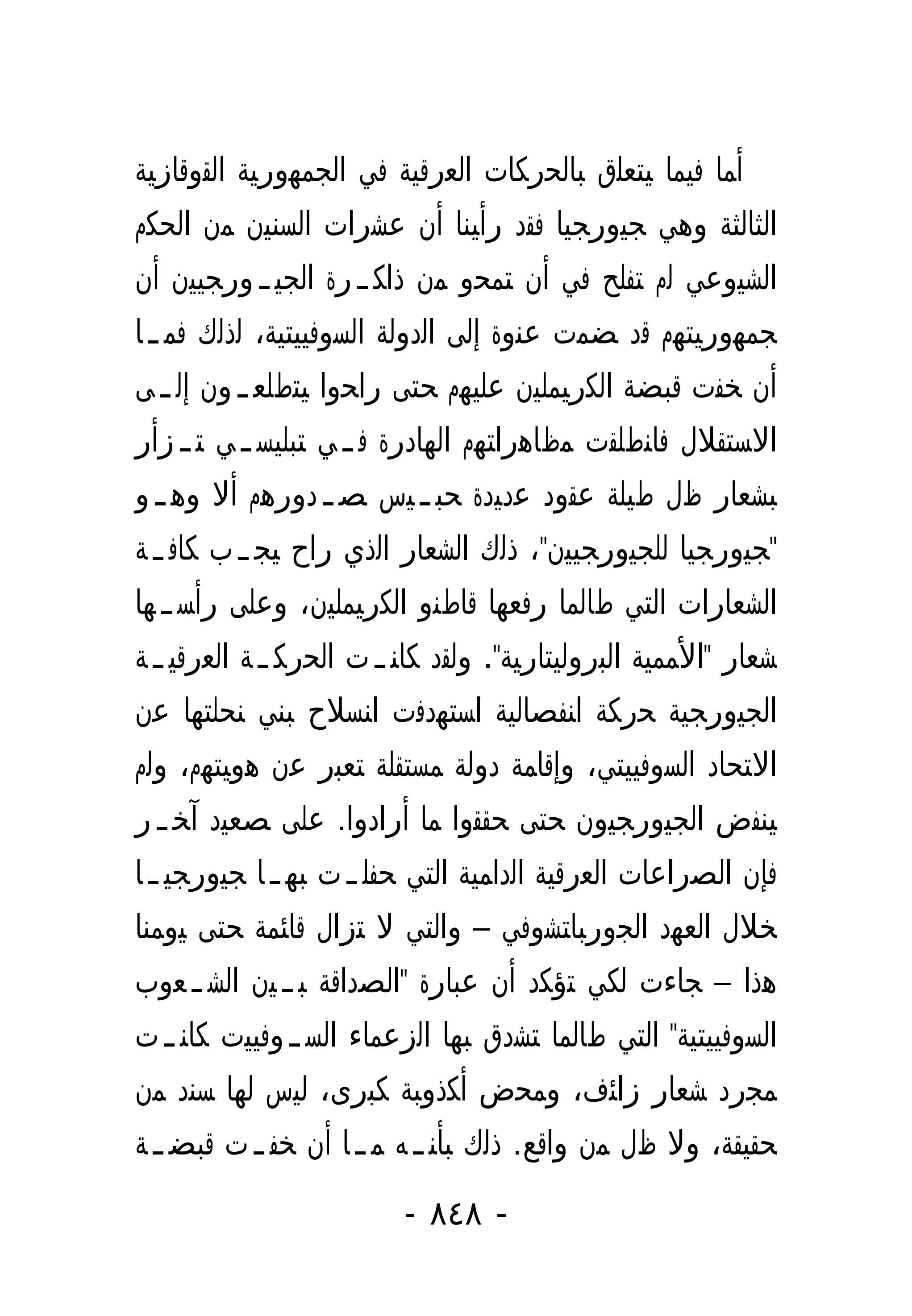


لتؤكد أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.

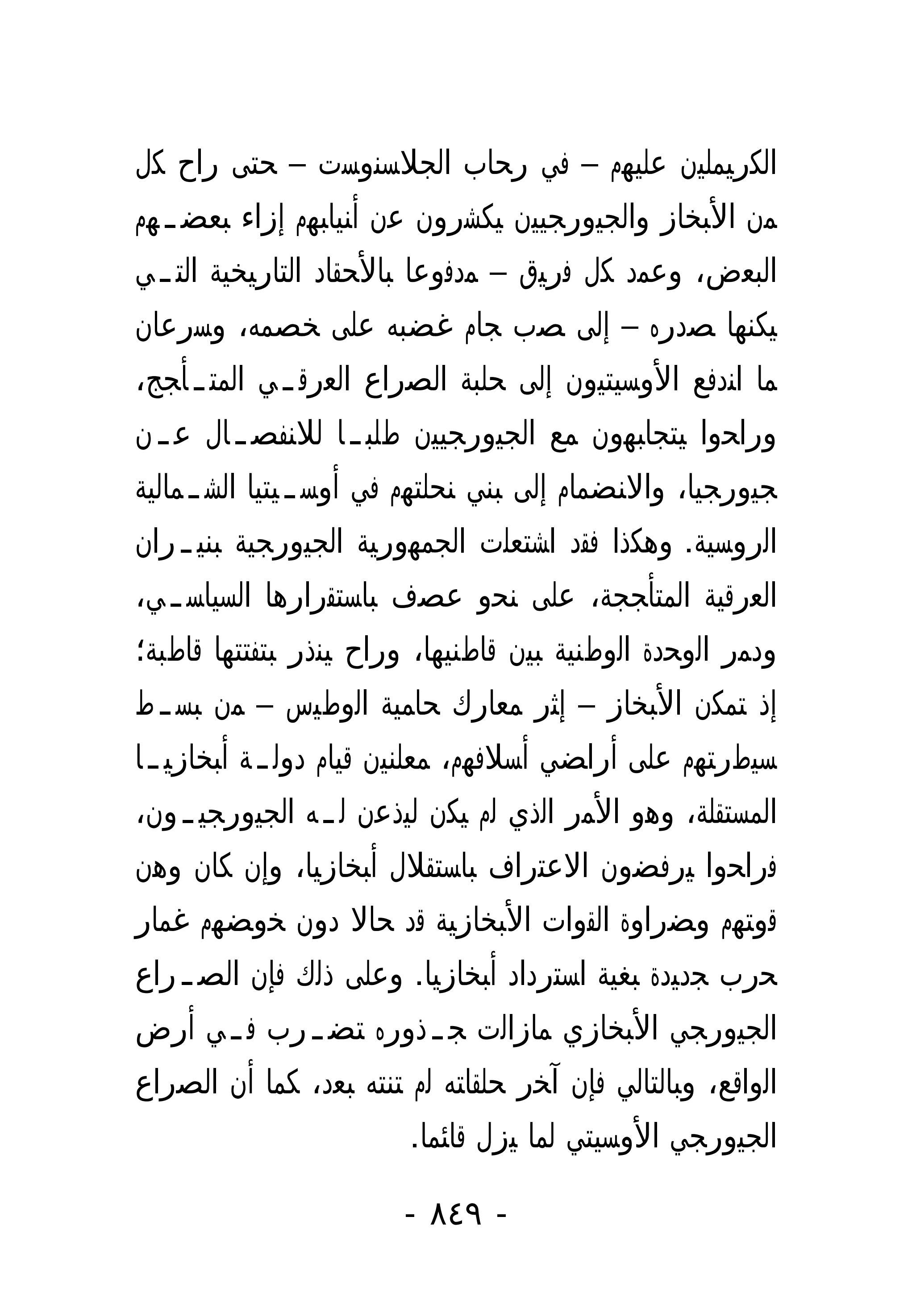
وإذا انتقلنا إلى الحركات العرقية في منطقة ما وراء القوقاز فبصدد الصراع الأذربيجاني الأرميني حول إقليم ناجورنو كاراباخ خلصنا إلى أنه ما أن خفت قبضة قاطني الكريملين على الشعوب الخاضعة لنيرهم حتى راحت مشاعر العداء بين الأرمن والأذربيجانيين تتأجج، ويستعر أوارها، تغذيها في ذلك الأحقاد التاريخية التي طالما ظلت حبيسة صدور الفريقين لعقود طويلة مضت، ولم يقدر لها أن تتجسد في الواقع نظرا للقبضة الجبارة التي أطبق بها البلاشفة على كافة الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم. ومن هنا فما أن خفت تلك القبضة – في ظل الجلاسنوست – حتى راح كل من الفصيلين الأذربيجاني والأرميني يكشر عن أنيابه في مواجهة الآخر، ويسعى إلى صب جام غضبه عليه، لتندلع بذلك الصراعات المسلحة الدامية بينهما، وهي الصراعات التي لم يدع أي من الفريقين وسيلة من وسائل العنف والانتقام إلا واستخدمها في مواجهة خصمه، فانتشرت



عمليـات النهـب، والحـرق، والتخريـب، والاغتصـاب، والاغتيال، وحروب العصابات، بل والحروب النظامية فـي ربوع القوقاز، وظلت تئن تحت وطأتهم لأعوام عديدة. لقـد جاءت هذه الصراعات – بكل ما شهدته من أعمال عنف كي تؤكد على أن عبارة "الصداقة بين الشعوب السوفييتية" لم تكن تعدو محض أوهام طالت أذهان قاطني الكريملين، فاعتقـدوا في وجودها على أرض الواقـع، وراحـوا يتشـدقون بهـا معتبرين إياها أعظم إنجازات ثورتهم. من جانب آخر فـإن الصراع المسلح الدامي الذي طال منطقة عبر القوقاز سـاهم أعظم إسهام في تحطيم حلم لينـين ورفاقـه فـي الشـعب السوفييتي الواحد ذي الهوية الموحدة الجامعة. وفضلاً عمـا تقدم فإن ذلك الصراع قد جاء ليؤكد الحقيقة التي سقناها سلفًا، والتي مؤداها: أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في وحدة سياسية أسس بنيانها على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة.



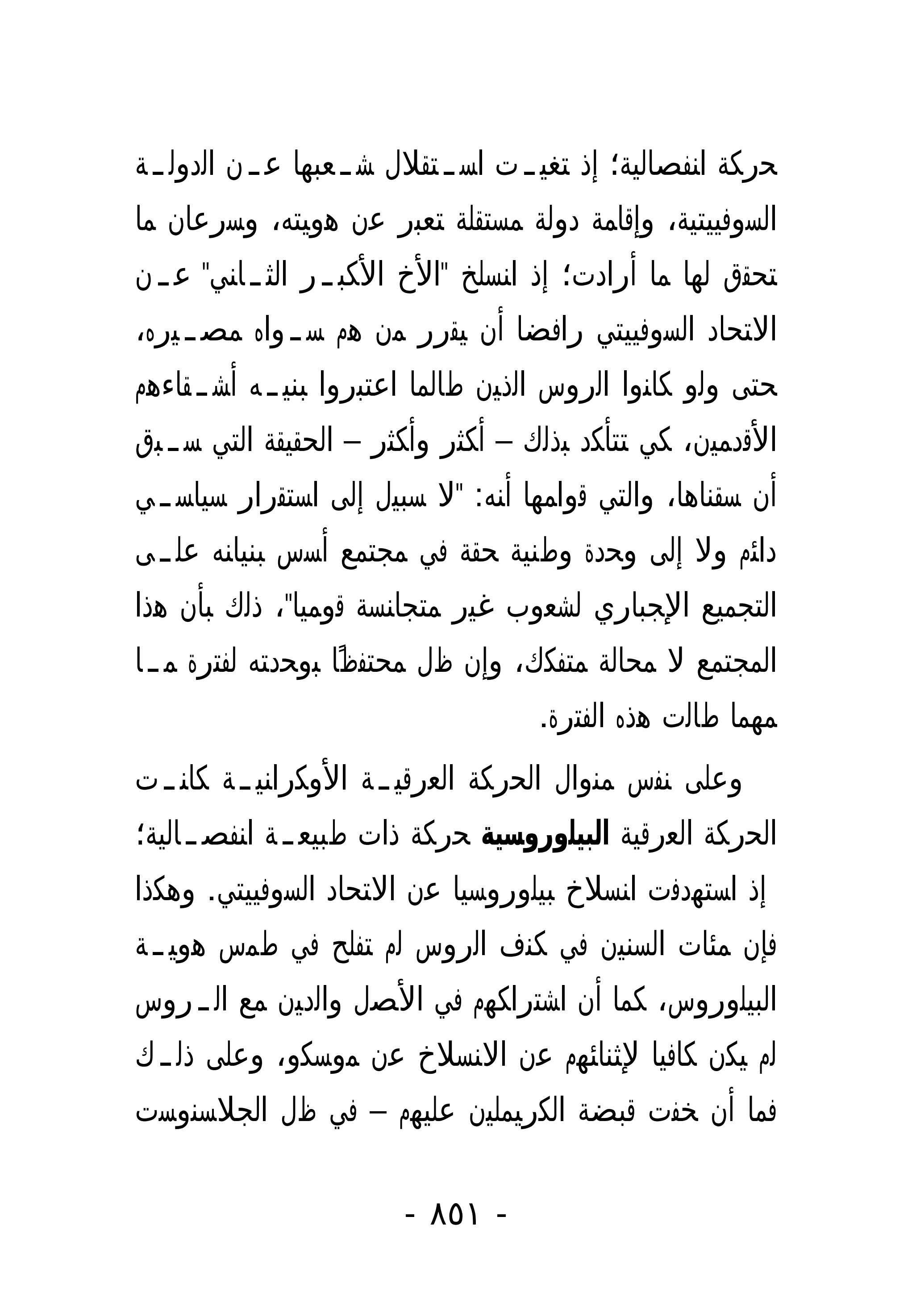
أما فيما يتعلق بالحركات العرقية في الجمهورية القوقازية الثالثة وهي جيورجيا فقد رأينا أن عشرات السنين من الحكم الشيوعي لم تفلح في أن تمحو من ذاكـرة الجيـورجيين أن جمهوريتهم قد ضمت عنوة إلى الدولة السوفييتية، لذلك فمـا أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى راحوا يتطلعـون إلـى الاستقلال فانطلقت مظاهراتهم الهادرة فـي تبليسـي تـزأر بشعار ظل طيلة عقود عديدة حبـيس صـدورهم ألا وهـو "جيورجيا للجيورجيين"، ذلك الشعار الذي راح يجـب كافـة الشعارات التي طالما رفعها قاطنو الكريملين، وعلى رأسـها شعار "الأممية البروليتارية". ولقد كانـت الحركـة العرقيـة الجيورجية حركة انفصالية استهدفت انسلاخ بني نحلتها عن الاتحاد السوفييتي، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن هويتهم، ولم ينفض الجيورجيون حتى حققوا ما أرادوا. على صعيد آخـر فإن الصراعات العرقية الدامية التي حفلـت بهـا جيورجيـا خلال العهد الجورباتشوفي – والتي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا – جاءت لكي تؤكد أن عبارة "الصداقة بـين الشـعوب السوفييتية" التي طالما تشدق بها الزعماء السـوفييت كانـت مجرد شعار زائف، ومحض أكذوبة كبرى، ليس لها سند من حقيقة، ولا ظل من واقع. ذلك بأنـه مـا أن خفـت قبضـة



الكريملين عليهم – في رحاب الجلاسنوست – حتى راح كل من الأبخاز والجيورجيين يكشرون عن أنيابهم إزاء بعضهم البعض، وعمد كل فريق – مدفوعا بالأحقاد التاريخية التي يكنها صدره – إلى صب جام غضبه على خصمه، وسرعان ما اندفع الأوسيتيون إلى حلبة الصراع العرقي المتأجج، وراحوا يتجابهون مع الجيورجيين طلبا للانفصال عن جيورجيا، والانضمام إلى بني نحلتهم في أوسيتيا الشمالية الروسية. وهكذا فقد اشتعلت الجمهورية الجيورجية بنيران العرقية المتأججة، على نحو عصف باستقرارها السياسي، ودمر الوحدة الوطنية بين قاطنيها، وراح ينذر بتفتتها قاطبة؛ إذ تمكن الأبخاز – إثر معارك حامية الوطيس – من بسط سيطرتهم على أراضي أسلافهم، معلنين قيام دولة أبخازيا المستقلة، وهو الأمر الذي لم يكن ليذعن له الجيورجيون، فراحوا يرفضون الاعتراف باستقلال أبخازيا، وإن كان وهن قوتهم وضراوة القوات الأبخازية قد حالا دون خوضهم غمار حرب جديدة بغية استرداد أبخازيا. وعلى ذلك فإن الصراع الجيورجي الأبخازي مازالت جذوره تضرب في أرض الواقع، وبالتالي فإن آخر حلقاته لم تنته بعد، كما أن الصراع الجيورجي الأوسيتي لما يزل قائما.

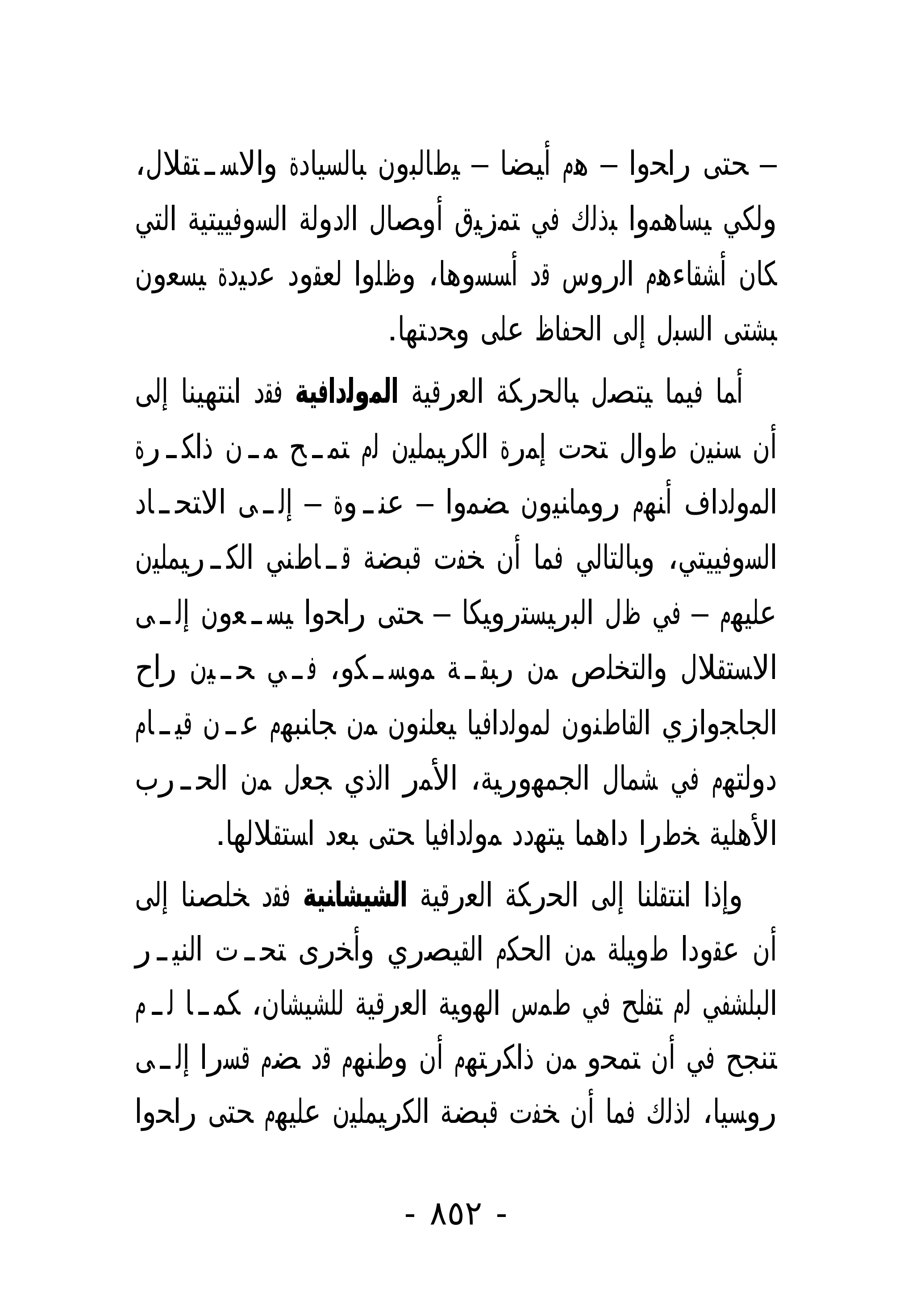
وجملة القول فإن ما شهدته جيورجيا من صراعات عرقية لا تزال قائمة حتى الآن جاء ليؤكد على الحقيقة الكبرى التي سبق أن سقناها والتي مؤداها أنه: لا سـبيل إلـى اسـتقرار سياسي دائم، ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمـع أسـس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب متباينة قوميا.

وإذا ما عرجنا على الحركة العرقية الأوكرانية خلال عهد جورباتشوف فقد بان لنا بصددها أن الأوكـرانيين – بـرغم اشتراكهم في الأصل السلافي مع الروس وبـالرغم مـن أن الروس كانوا يعتبرونهم "أشقاءهم الأقـدمين" و"الأخ الأكبـر الثاني" – إلا أنهم أبوا إلى أن يقبضوا على هـويتهم، تلـك الهوية التي لم تفلح عشرات السنين من حكم البلاشـفة فـي طمسها، أو تقويض مقوماتها، كما أن تلك السـنين الطـوال تحت الحكم الشيوعي لم تنجح فـي أن تمحـو مـن ذاكـرة الأوكرانيين أن جيوش البلاشفة قد اجتاحت دولتهم، وسحقت استقلالهم يوما ما، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – في ظل الجلاسنوست – حتى راح الأوكرانيون يؤكـدون عزمهم على الانسلاخ عن الاتحاد السوفييتي وإقامـة دولـة أوكرانيا المستقلة. وهكذا فقد كانت الحركة العرقية الأوكرانية



حركة انفصالية؛ إذ تغيت استقلال شعبها عن الدولة السوفييتية، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن هويته، وسرعان ما تحقق لها ما أرادت؛ إذ انسلخ "الأخ الأكبر الثاني" عن الاتحاد السوفييتي رافضا أن يقرر من هم سواه مصيره، حتى ولو كانوا الروس الذين طالما اعتبروا بنيه أشقاءهم الأقدمين، كي تتأكد بذلك – أكثر وأكثر – الحقيقة التي سبق أن سقناها، والتي قوامها أنه: "لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا"، ذلك بأن هذا المجتمع لا محالة متفكك، وإن ظل محتفظًا بوحدته لفترة ما مهما طالت هذه الفترة.

وعلى نفس منوال الحركة العرقية الأوكرانية كانت الحركة العرقية **البيلوروسية** حركة ذات طبيعة انفصالية؛ إذ استهدفت انسلاخ بيلوروسيا عن الاتحاد السوفييتي. وهكذا فإن مئات السنين في كنف الروس لم تفلح في طمس هوية البيلوروس، كما أن اشتراكهم في الأصل والدين مع الروس لم يكن كافيا لإثنائهم عن الانسلاخ عن موسكو، وعلى ذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – في ظل الجلاسنوست


– حتى راحوا – هم أيضا – يطالبون بالسيادة والاسـتقلال، ولكي يساهموا بذلك في تمزيق أوصال الدولة السوفييتية التي كان أشقاءهم الروس قد أسسوها، وظلوا لعقود عديدة يسعون بشتى السبل إلى الحفاظ على وحدتها.

أما فيما يتصل بالحركة العرقية **المولدافية** فقد انتهينا إلى أن سنين طوال تحت إمرة الكريملين لم تمـح مـن ذاكـرة المولداف أنهم رومانيون ضموا – عنـوة – إلـى الاتحـاد السوفييتي، وبالتالي فما أن خفت قبضة قـاطني الكـريملين عليهم – في ظل البريسترويكا – حتى راحوا يسـعون إلـى الاستقلال والتخلص من ربقـة موسـكو، فـي حـين راح الجاجوازي القاطنون لمولدافيا يعلنون من جانبهم عـن قيـام دولتهم في شمال الجمهورية، الأمر الذي جعل من الحـرب الأهلية خطرا داهما يتهدد مولدافيا حتى بعد استقلالها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة العرقية **الشيشانية** فقد خلصنا إلى أن عقودا طويلة من الحكم القيصري وأخرى تحـت النيـر البلشفي لم تفلح في طمس الهوية العرقية للشيشان، كمـا لـم تنجح في أن تمحو من ذاكرتهم أن وطنهم قد ضم قسرا إلـى روسيا، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى راحوا

يعدون العدة للاستقلال، ذلك الاستقلال الذي أعلنوه بالفعـل عندما كان الاتحاد السوفييتي يلفظ أنفاسـه الأخيـرة خـلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩١. وعلى الرغم من ضـراوة التدخل العسكري الروسي في شيشينيا – فـي أواخـر عـام ١٩٩٤ – فإن الشيشان قد استخدموا كافة الوسائل بغية الدفاع عن استقلالهم الوليد؛ إذ لجئوا إلى الحرب النظامية، وحـرب العصابات، وعمليات الاختطاف، والاغتيال... وغيرها، ولم يفلح الجبروت الروسي حتى يومنا هذا – نـوفمبر ٢٠٠٠ – في إخماد نيران الحركة الانفصالية الشيشانية. وهكـذا فإنـه على الرغم من مرور ما يربو على الأربع سنوات على تفكك الاتحاد السوفييتي فإن الصراعات العرقية لم تخمد بعد فـي جمهورياته (السابقة)؛ إذ لا تزال هذه الصراعات تُمثل تهديدا بالغًا لاستقرار العديد من هذه الجمهوريات وعلـى رأسـها روسيا الاتحادية ذاتها؛ إذ تُمثل الحركة العرقيـة الشيشـانية تهديدا بالغًا لوحدة الدولة الروسية، ذلك بأن هـذه الحركـة يمكن أن تتخذ نبراسا من جانب جماعات عرقيـة روسـية أخرى؛ حيث إن روسيا تتكون مما يربو علـى ٣٧ جماعـة عرقية، ولعل في تأييد أنجوتشيا لاستقلال الشيشان ما يؤكـد مقولتنا هذه.

على أية حال فإن تحليلنا للحركة العرقية الشيشانية جـاء لكي يؤكد الحقيقة التي سبق أن سقناها والتي قوامهـا: أنـه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقـة في مجتمع تأسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.

وهكذا ونظرا لكل ما تقدم فقد انهارت إمبراطورية البلاشفة تحت وطأة الحركات العرقية، ذلك الانهيار الذي كانت له آثار دولية عظيمة الشأن طالت مقومات النسق الـدولي قاطبـة؛ إذ باختفاء الاتحاد السوفييتي (والذي كان يمثل أحد قطبي النسـق الدولي الذي قام غداة الحرب العالمية الثانية) أضحى القطـب الثاني (الولايات المتحدة) متفردا بدرجة التفوق العظمى التـي كانت تشاركه إياها إمبراطورية البلاشفة، وسرعان ما اتجهت الولايات المتحدة – التي باتت تُمثل قطب النسق الأوحد – إلى الأمم المتحدة باعتبارها منظمة قانونية لتتخذ منها سندا نظاميا لانفرادها بتقرير مصير علاقات القوى على مسـتوى النسـق العالمي، وبالتالي فقـد أضـحت المنظمـة الدولـة – لـدى الأمريكيين – مجرد أداة لإضفاء الشرعية على سياساتهم على المستوى العالمي. وذلك هو ما خلفه تفكك الاتحاد السـوفييتي منه آثار على خريطة توزيع القوى الدولية.

التقرير الختامي

استهدف هذا البحث – في المقام الأول – الإجابة علـى تساؤل هام قوامه:

هل هو من سبيل إلى استقرار سياسي ووحدة وطنية فـي مجتمع أسس بنيانه على التجمع الإجبـاري لشـعوب غيـر متجانسة قوميا؟ وبمعنى آخر فقد اسـتهدف البحـث هـدفًا يتمحور حول التعريف بظاهرة الحركات العرقية في العـالم المعاصر من حيث طبيعتها، وأسبابها، وأهدافها، ووسـائلها، وآثارها، على الحياة السياسية في البلدان التي توجـد بهـا، ولا سيما فيما يتصل بآثارها علـى الاسـتقرار السياسـي، وتداعياتها على الوحدة الوطنية، وكذا آثارها الدولية، وعلـى ذلك فقد تمثلت مادة البحث في ظاهرة الحركات العرقية فـي العالم المعاصر من حيث كنهها وأسبابها وآثارها في الحيـاة السياسية، وذلك كله من خلال العـرض لـبعض النمـاذج (الحالات) المعبرة عن هذه الظاهرة حال الحركات العرقيـة في الاتحاد السوفييتي (السابق)، والحركة العرقية الكرديـة، والحركة العرقية في جنوب السودان.. وغيرها.

أما فيما يتصل بمنهج الدراسة فإنه بحكـم طبيعـة مـادة البحث، وعلى مقتضى الهدف الذي حددناه له كان لا مناص من الالتزام بالمنهج الاختباري، فعمـدنا إلـى البـدء مـن المصادر والمراجع – ذات الصلة بمـادة البحـث – كـأداة للملاحظة، بغية تحليلها في سبيلنا إلى الوصول إلـى حكـم موضوعي بشأن هدف البحث، كمـا لجأنـا إلـى أسـلوب الملاحظة الذاتية المباشرة للواقع، ساعين إلى تسجيل أحداثه، ووقائعه في مجال التحركـات الفعليـة للحركـات العرقيـة المعاصرة.

وبصدد خطة الدراسة فقد قمنا بتقسيم بحثنا إلـى ثلاثـة أقسام وتقرير ختامي.

وقد عنونا هذه الأقسام الثلاث على النحو التالي:

القسم الأول : في الظاهرتين القومية والعرقية.

القسم الثاني : في التعريف بظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر.

القسم الثالث : في الحركات العرقيـة وانهيـار الاتحـاد السوفييتي السابق (دراسة خاصة).

وفيما يلي نعرض لأظهر ما خلصنا إليه من ملاحظات في كل من هذه الأقسام الثلاثة:

القسم الأول: وقد ضم فصلين انصب أولهما على التعريف بالدولة القومية، في حين عالج الثاني الظاهرة العرقية (الجماعات والحركات). أما فيما يتصل **بالفصل الأول** فقد خلصنا منه إلى أن الدولة القومية – بمقومها الرئيسي المتمثل في تجانس عنصرها البشري تجانسا قوميا – قد راحت تتميز عن الإمبراطوريات القديمة، تلك الإمبراطوريات التي كانت تقوم على التجميع الإجباري لشعوب متباينة الأصل واللغة والدين، وبالتالي فقد كان التجمع البشري لتلك الإمبراطوريات يفتقر إلى الرباط الموضوعي المتمثل في وحدة الأصل واللغة والدين من ناحية، كما عازه الرباط الذاتي المتمثل في الرغبة في الحياة المشتركة بين أفراده من ناحية أخرى. لذلك فقد كانت هذه إمبراطوريات تعاني من ظاهرة الحركات العرقية؛ إذ كانت كل جماعة عرقية تسعى بشتى السبل إلى الانفصال عن الإمبراطورية وتكوين دولة مستقلة تجمع شتاتها، الأمر الذي كان لا بد من أن يتمخض في النهاية عن اضمحلال

الإمبراطورية واندثارها. أما الدولة القومية – بركنها الركين المتمثل في التجانس القومي – فهي تُمثل بحق – مصلاً واقيا من ظاهرة الحركات العرقية، وبالتالي فهي تُعـد الصـورة المثلى للمجتمع السياسي.

أما **الفصل الثاني** والمعنون بالتعريف بالظاهرة العرقيـة فقد انتهينا من خلال مباحثه الخمسـة إلـى تقـديم تعريـف للجماعات العرقية، والوقوف على مقومات ذاتيتها، على نحو هيأ لاستجلاء الفارق بينها وبين ما قد يختلط بها أو يتـداخل معها من مفاهيم حال الجماعة السلالية، والأميـة، والأقليـة. كما عرضنا في هذا الفصل أيضا لأبـرز الاتجاهـات فيمـا يتصل بتصنيف الجماعات العرقية، ذلك فضلاً عن التعريف بالحركة العرقية ومقوماتها وأهدافها ووسائلها. ويتمثل أظهر ما انتهينا إليه بصدد ما تقدم فيما يلي:

١- إن الجماعة العرقية هي: تجمع بشري يرتبط أفـراده فيما بينهم من خلال روابـط فيزيقيـة أو بيولوجيـة (كوحدة الأصل أو السلالة) أو ثقافية (حال وحدة اللغة أو الدين أو الثقافة)، ويعيش هذا التجمـع فـي ظـل مجتمع سياسي أرحب، مشكلاً لإطار ثقافي حضاري مغاير للإطار الثقافي الحضـاري لبـاقي المجتمـع،

ويكون أفراد هذا التجمع مدركين لتمـايز مقومـات هويتهم وذاتيتهم، عاملين دوما من أجل الحفاظ علـى هذه المقومات في مواجهة عوامل الضعف والتحلل.

٢- إن مقومات الذاتية العرقية لا تقتصر على المقومات الفيزيقية أو البيولوجية (كوحدة السلالة أو السـمات الفيزيقية المشتركة)، وإنما تتضمن كذلك مقومـات ثقافية حال وحدة الدين، أو اللغة، أو الثقافة.

٣- الأقلية هي: الجماعة أو الجماعات العرقية ذات الكـم البشري الأقل في مجتمعها، والتي تتمايز عن غيرها من السكان من حيث السلالة، أو السمات الفيزيقية، أو اللغة، أو الدين، أو الثقافة، ويكون أفرادها مـدركين لمقومات ذاتيتهم وتمايزهم، ساعين على الدوام إلـى الحفاظ عليها، وغالبا ما تكـون هـذه الجماعـة أو الجماعات في وضع غير مسيطر في ذلك المجتمـع، كما يعاني كثير منها – بـدرجات متفاوتـة – مـن التمييز، أو الاضطهاد أو الاستبعاد في شتى قطاعات المجتمع السياسية، والاجتماعية والاقتصادية. وهكـذا فإن كل أقلية هي جماعة عرقية في حـين أن كـل جماعة عرقية ليست بالضرورة أقلية.

٤- إن الجماعات العرقية قد تكـون جماعـات سـلالية أو لغوية أو دينية، وإن كان أغلب الجماعات العرقية لا تقتصر الرابطة بين أفرادها على مقوم واحـد؛ إذ غالبا ما تكون الجماعات العرقية جماعـة سـلالية ولغوية، أو سلالية ولغوية ودينية... وهكـذا. مـن جانب آخر فإن الجماعات العرقية قد تكون جماعات مسيطرة، كما قد تكون جماعات غير مسيطرة فـي مجتمعها، كما أن أغلب الجماعات غير المسـيطرة هي أقليات يعـاني كثيـر منهـا مـن التمييـز، أو الاضطهاد، أو الاستبعاد، ولذلك نجد أن الحركـات العرقية يرتبط وجودها بالجماعات غير المسيطرة.

٥- الحركة العرقية هي حركة سياسية اجتماعية منظمة تنشأ في إطار جماعة عرقية غير مسيطرة (غالبـا ما تكون أقلية)، ويكون لهذه الحركة برنامج عمـل ينطوي على ما تصبو إليه من أهداف، وما تتوصل به من وسائل بغية بلوغ هذه الأهداف التي قد تتمثل في إعمال مبدأ المساواة بصـدد علاقـة الجماعـة بالجماعات لا سيما المسيطرة منها، كما قد تستهدف

الحركة في بعض الأحيان تحقيق نوع من الحكـم الذاتي لجماعتها على الإقليم الذي تقطنه، ذلك فضلاً عن أن ثمة حركات قد تتغيا الارتقاء بجماعتها إلى تبوء موقع السيطرة في مجتمعها، غير أن أغلـب الحركات العرقية ترمي إلى انفصال الجماعة عـن المجتمع السياسي الذي يشملها، وإقامة دولة مستقلة تجسد هويتها، أو الانضمام إلى دولة أخرى مجاورة تشاركها ذات المقومات العرقية، وفي سبيل تحقيق أهدافها تلجأ إلى استخدام وسائل عديدة بعضـها ذو طابع سلمي، وبعضها يرتكز إلى العنف.

أما **القسم الثاني** – والذي هو من بحثنا هذا بمثابة الصلب – فقد قدمنا فيه تحليلاً لظاهرة الحركات العرقية في العـالم المعاصر، واضعين نصب أعيننا الوقوف على السمات العامة المشتركة لتلك الحركات، والتي تجعل منها ظاهرة بحق، وقد خلصنا من تحليلنا للظاهرة موضع البحث إلى أن ثمة سمات عامة تشير الملاحظة إلى أن سائر الحركات العرقيـة تكـاد تشترك فيها، وتتمثل هذه السمات العامة المشتركة في:

١- إن الحركات العرقية ترتبط من حيث وجودها بالدول متنوعة العرقيات، سواء أكانت هذه الدول تدخل في مصاف الدول المتقدمة حال كندا وإسبانيا والمملكة المتحدة، أو كانت تنتمي إلى العالم الثالث حال كل من السودان، وليبريا، ورواندا، وبوروندي، والعراق، وسريلانكا، والهند، وإثيوبيا، وغيرها. وقد عرضنا بالتفصيل للحركة الكردية وكذا الحركة العرقية في جنوب السودان كنموذجين للحركات العرقية في العالم الثالث، كما عرضنا للحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي كنموذج للحركات العرقية في الدول التي تدخل في مصاف الدول المتقدمة.

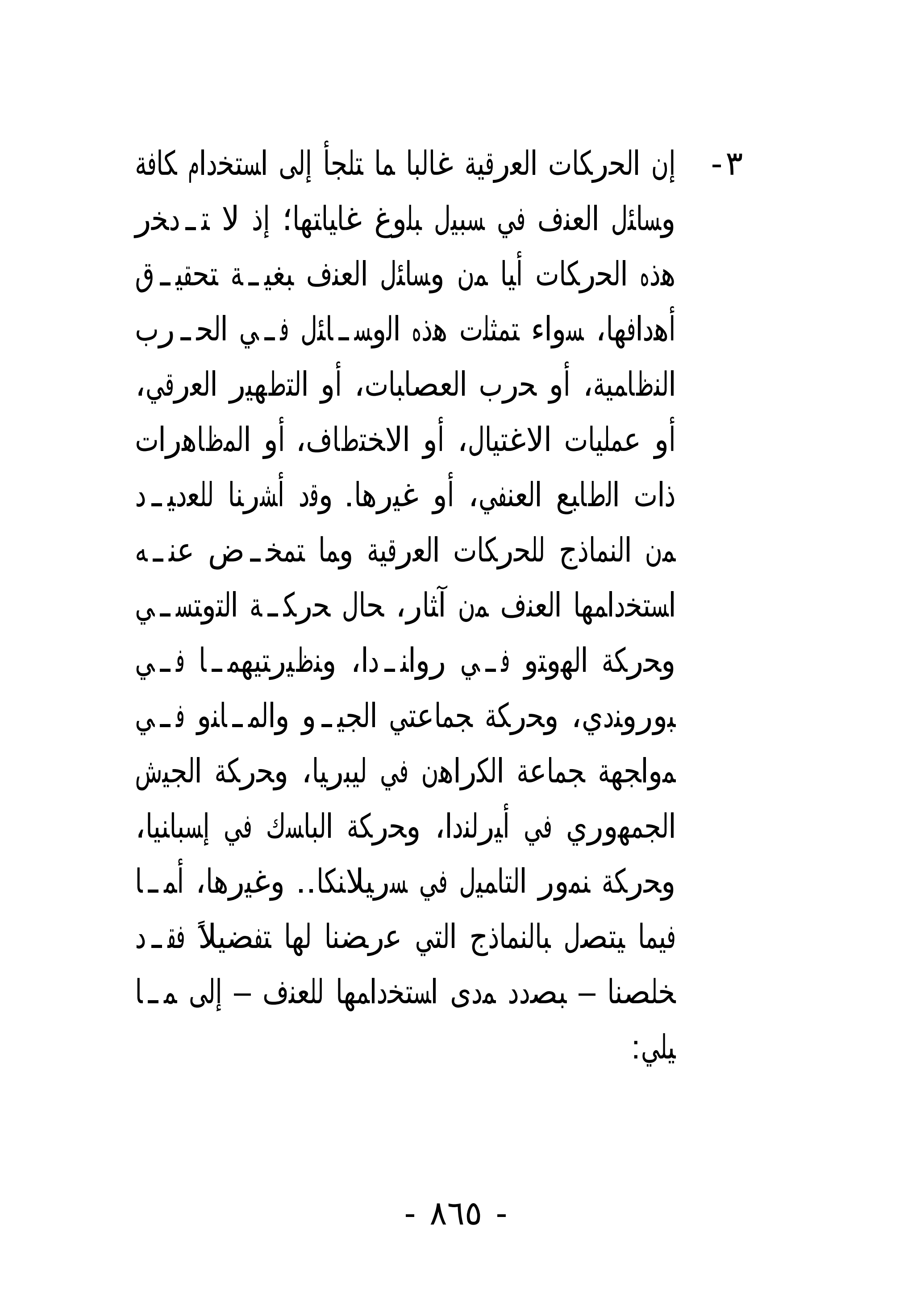
٢- إن الحركات العرقية غالبا ما تكون حركات انفصالية وقد أشرنا في هذا الصدد إلى نماذج عديدة للحركات العرقية الانفصالية حال الحركة التاميلية (نمور التاميل) في سريلانكا، وحركة مسلمي جامو وكشمير في الهند، وحركة تيمور الشرقية في إندونيسيا، وحركة الجيش الأيرلندي في أيرلندا

الشمالية بالمملكة المتحدة، وحركة الباسكيين في إسبانيا، وحركة مهاجر قومي في باكستان.. وغيرها. وذلك بطبيعة الحال فضلاً عن الحركات الثلاث التي عرضنا لها بالتفصيل، والتي انتهينا بصددها إلى ما يلي:

أ- الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي: وهي تستهدف انفصال إقليم كيبيك ذي الأغلبية الفرنسية عن كندا، وإقامة دولة مستقلة تجمع شتات الكنديين الفرنسيين، كما سبق أن أشرنا.

ب- الحركة العرقية في جنوب السودان: وهي تستهدف في جملتها انفصال جنوب السودان عن شماله، وإقامة دولة مستقلة تضم الجنوبيين الذين يعتبرون أنفسهم أفارقة، ويعتبرون الشماليين عربا، على النحو المشار إليه.

ج- الحركة العرقية الكردية داخل كل من تركيا والعراق وإيران: وتتمثل غاية المنتهى للأكراد في الانفصال بكردستان عن الدول الثلاث التي تتقاسمها، وإقامة دولة كردستانية تجمع شتات الأكراد وتجسد هويتهم، وذلك على النحو الذي عرضنا له بالتفصيل.



٣- إن الحركات العرقية غالبا ما تلجأ إلى استخدام كافة وسائل العنف في سبيل بلوغ غاياتها؛ إذ لا تدخر هذه الحركات أيا من وسائل العنف بغية تحقيق أهدافها، سواء تمثلت هذه الوسائل في الحرب النظامية، أو حرب العصابات، أو التطهير العرقي، أو عمليات الاغتيال، أو الاختطاف، أو المظاهرات ذات الطابع العنفي، أو غيرها. وقد أشرنا للعديد من النماذج للحركات العرقية وما تمخض عنه استخدامها العنف من آثار، حال حركة التوتسي وحركة الهوتو في رواندا، ونظيرتيهما في بوروندي، وحركة جماعتي الجيو والمانو في مواجهة جماعة الكراهن في ليبريا، وحركة الجيش الجمهوري في أيرلندا، وحركة الباسك في إسبانيا، وحركة نمور التاميل في سريلانكا.. وغيرها، أما فيما يتصل بالنماذج التي عرضنا لها تفضيلاً فقد خلصنا – بصدد مدى استخدامها للعنف – إلى ما يلي:

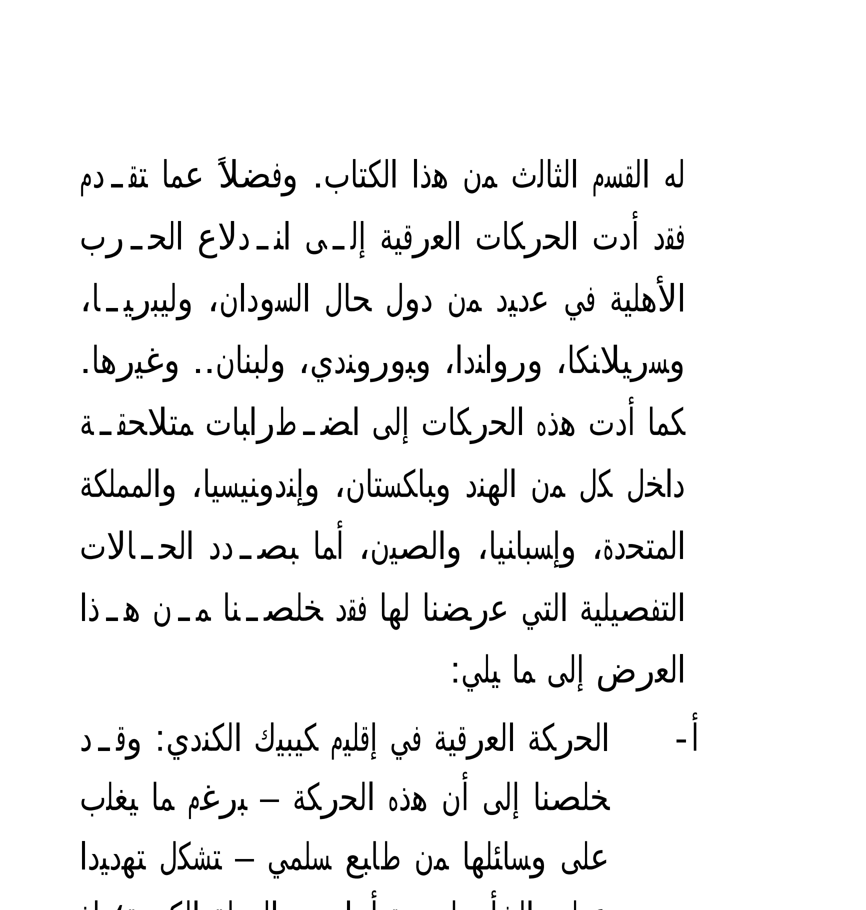
أ- **الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي:** وقد أشرنا بصددها إلى أن ثمة جناحا داخل التيار الانفصالي الكيبيكي لا يتورع عـن التوسـل بشتى وسائل العنف بغية بلوغ غايته، ويتمثل هذا الجناح في جبهة تحرير كيبيـك، تلـك الجبهة التي جعلت ديدنها عمليات الاختطاف، والاغتيال، والتخريـب، والإرهـاب بشـتى صوره. الأمر الذي كان من شأنه أن رصدنا ملاحظة قوامها أنه حتى في ظل المجتمعات الديمقراطية قد تنشأ حركات عرقية انفصالية يغلب على وسائل طابع العنف، وذلك علـى الرغم مما يتوافر في ظل هذه المجتمعات من قنوات عديدة شرعية للتعبيـر عـن الآراء، ولعله مما قد يؤكد صحة هذه الملاحظة مـا تقوم به الحركة العرقية الأيرلندية الانفصالية (ممثلة في الجيش الجمهوري) مـن أعمـال عنف متواصلة بغية الوصول إلـى هـدفها المتمثل في انفصال شمال أيرلندا عن المملكة المتحدة، وذلك كله على الرغم من الطبيعـة الديمقراطية للنظام السياسي البريطاني.

ب- **الحركة العرقية في جنوب السـودان:** وقـد دخلت هذه الحركة (ممثلة في الجيش الشعبي لتحرير السودان بزعامة جون جارانج) فـي حرب أهلية مع قوات الحكومة السودانية منذ عام ١٩٨٣، وقد تمخضت تلـك الحـرب – طبقًا لتقديرات الحكومة السودانية – خـلال الفتــرة (١٩٨٩ – ١٩٩٤) وحــدها عــن مصرع ما يربو على الخمسين ألف مسـلح، فضلاً عشرات الآلاف من المـدنيين، كمـا أسفرت الحرب عن تدمير عشرات القـرى والمدن، وفرار عشرات الآلاف مـن أبنـاء جنوب السودان إلى الدول المجاورة.

ج- **الحركة العرقية الكردية داخل كل من تركيـا والعراق وإيران:** وقد قام الأكـراد – علـى طول تاريخهم – بعشرات الثورة بغية تحقيق هدفهم في إنشاء كردستان المستقلة، ولعل من أبرز الأمثلة المعاصرة على لجـوئهم إلـى العنف ما قام به حزب العمال الكردستاني في

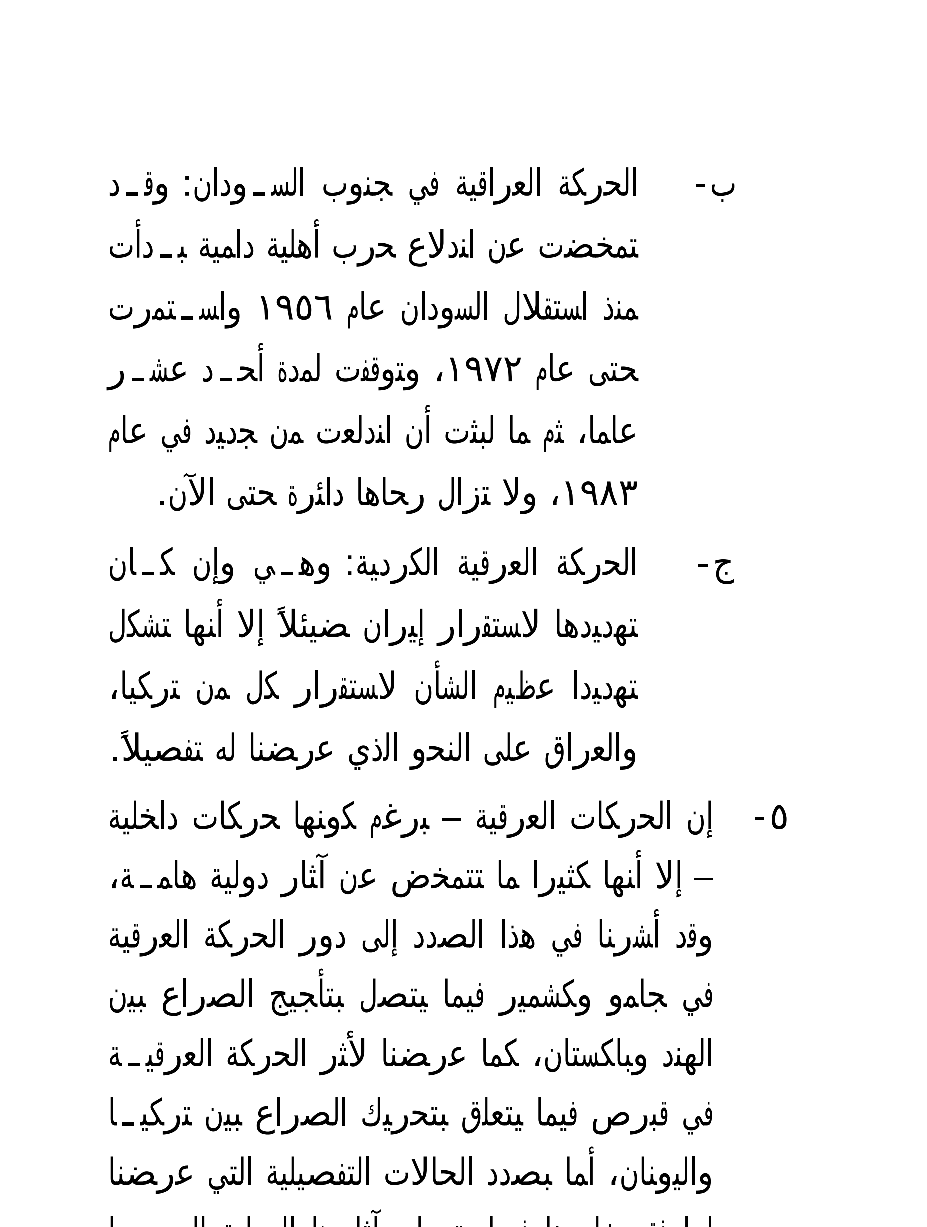
تركيا وحدها من عمليات عنف في مواجهـة المنشآت التركية منذ عـام ١٩٨٤، وعلـى سبيل المثال فقد قام الحزب – خلال الفتـرة (١٩٩٠ – ١٩٩٤) – بحوالي ٨٦٠٠ عملية عسكرية في مواجهة القـوات، والمنشـآت التركية.

٤- إن الحركات العرقية تشكل تهديدا بالغًا للاسـتقرار السياسي في المجتمعات التي توجد بها، كما أن لهذه الحركات آثارا سلبية لا يستهان بها علـى الوحـدة الوطنية لتلك المجتمعات، ذلك بأن هذه الحركـات تلجأ – كما سبق أن ذكرنا – إلـى شـتى وسـائل العنف في سبيل بلوغ أهدافها، والتي هي في الغالب ذات طبيعة انفصالية، وتأكيدا لهـذه الحقيقـة فقـد أشرنا إلى ما تمخضت عنه تلك الحركات من تمزق لأوصال العديد مـن الوحـدات السياسـية حـال يوغوسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا، وإثيوبيـا، والهنـد، والباكستان، والبوسنة، فضلاً عن الاتحاد السوفييتي والذي رأينا أن نعرض له بتفصيل يليق به، فأفردنا



له القسم الثالث من هذا الكتاب. وفضلاً عما تقدم فقد أدت الحركات العرقية إلى اندلاع الحرب الأهلية في عديد من دول حال السودان، وليبريا، وسريلانكا، ورواندا، وبوروندي، ولبنان.. وغيرها. كما أدت هذه الحركات إلى اضطرابات متلاحقة داخل كل من الهند وباكستان، وإندونيسيا، والمملكة المتحدة، وإسبانيا، والصين، أما بصدد الحالات التفصيلية التي عرضنا لها فقد خلصنا من هذا العرض إلى ما يلي:

أ- الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي: وقد خلصنا إلى أن هذه الحركة – برغم ما يغلب على وسائلها من طابع سلمي – تشكل تهديدا عظيم الشأن لوحدة أراضي الدولة الكندية؛ إذ في ظل وجودها بات الانقسام يشكل خطرا داهما يكاد يعصف بكيان هذه الدولة، ويجعل استقرارها في مهب الريح لا سيما وأن نتائج استفتاء صيف عام ١٩٩٥ قد أكدت تعاظم نسبة الكيبيكيين المؤيدين لانفصال كيبيك عن كندا.



ب- الحركة العراقية في جنوب السـودان: وقـد تمخضت عن اندلاع حرب أهلية دامية بـدأت منذ استقلال السودان عام ١٩٥٦ واسـتمرت حتى عام ١٩٧٢، وتوقفت لمدة أحـد عشـر عاما، ثم ما لبثت أن اندلعت من جديد في عام ١٩٨٣، ولا تزال رحاها دائرة حتى الآن.

ج- الحركة العرقية الكردية: وهـي وإن كـان تهديدها لاستقرار إيران ضيئلاً إلا أنها تشكل تهديدا عظيم الشأن لاستقرار كل من تركيا، والعراق على النحو الذي عرضنا له تفصيلاً.

٥- إن الحركات العرقية – برغم كونها حركات داخلية – إلا أنها كثيرا ما تتمخض عن آثار دولية هامـة، وقد أشرنا في هذا الصدد إلى دور الحركة العرقية في جامو وكشمير فيما يتصل بتأجيج الصراع بين الهند وباكستان، كما عرضنا لأثر الحركة العرقيـة في قبرص فيما يتعلق بتحريك الصراع بين تركيـا واليونان، أما بصدد الحالات التفصيلية التي عرضنا لها فقد خلصنا فيما يتصل بآثارها الدولية إلى مـا يلي:

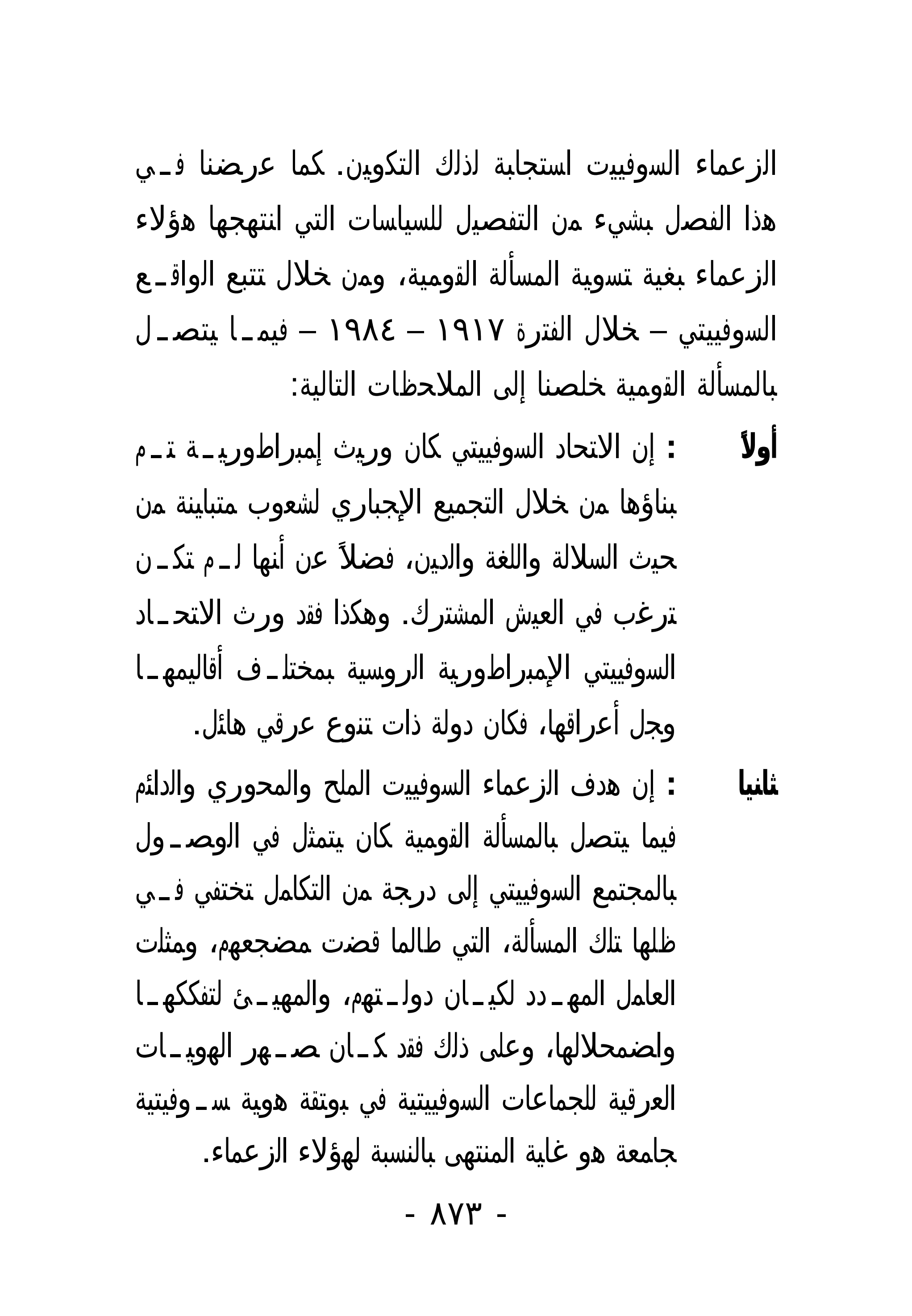
أ- الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي: وقـد خلصنا بصددها إلى أنها كانت لها دوما آثار سلبية هامة على العلاقات الكندية الفرنسية لا سيما خلال فترة اعتلاء ديجول لسدة الحكـم في فرنسا.

ب- الحركة العرقية في جنوب السـودان: وقـد أوضحنا أنها كانت لها آثـار سـلبية علـى العلاقات بين السودان وجيرانه الذين كـانوا يقدمون الدعم للانفصاليين في الجنوب حـال إثيوبيا (خلال عهدي الإمبراطور هيلاسلاسي والرئيس منجستو ماريام)، وأوغندا، وإريتريا في وقتنا الراهن.

ج- الحركة العرقية الكردية: وقد أوضحنا أنهـا كانت لها آثار هامة على العلاقات بين الدول المعنية بها؛ إذ كانـت – ولا تـزال – لهـا آثارها على العلاقات التركية الإيرانية، وكذا على العلاقات الإيرانية العراقية، والعلاقـات التركيـة العراقيـة، والعلاقـات السـورية التركية..، ثم رأينا تأثيرها على علاقة تركيا بالاتحاد الأوروبي.

وفي النهاية فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها بعد كل ما قدمنا ألا وهي أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانـه علـى التجميـع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.

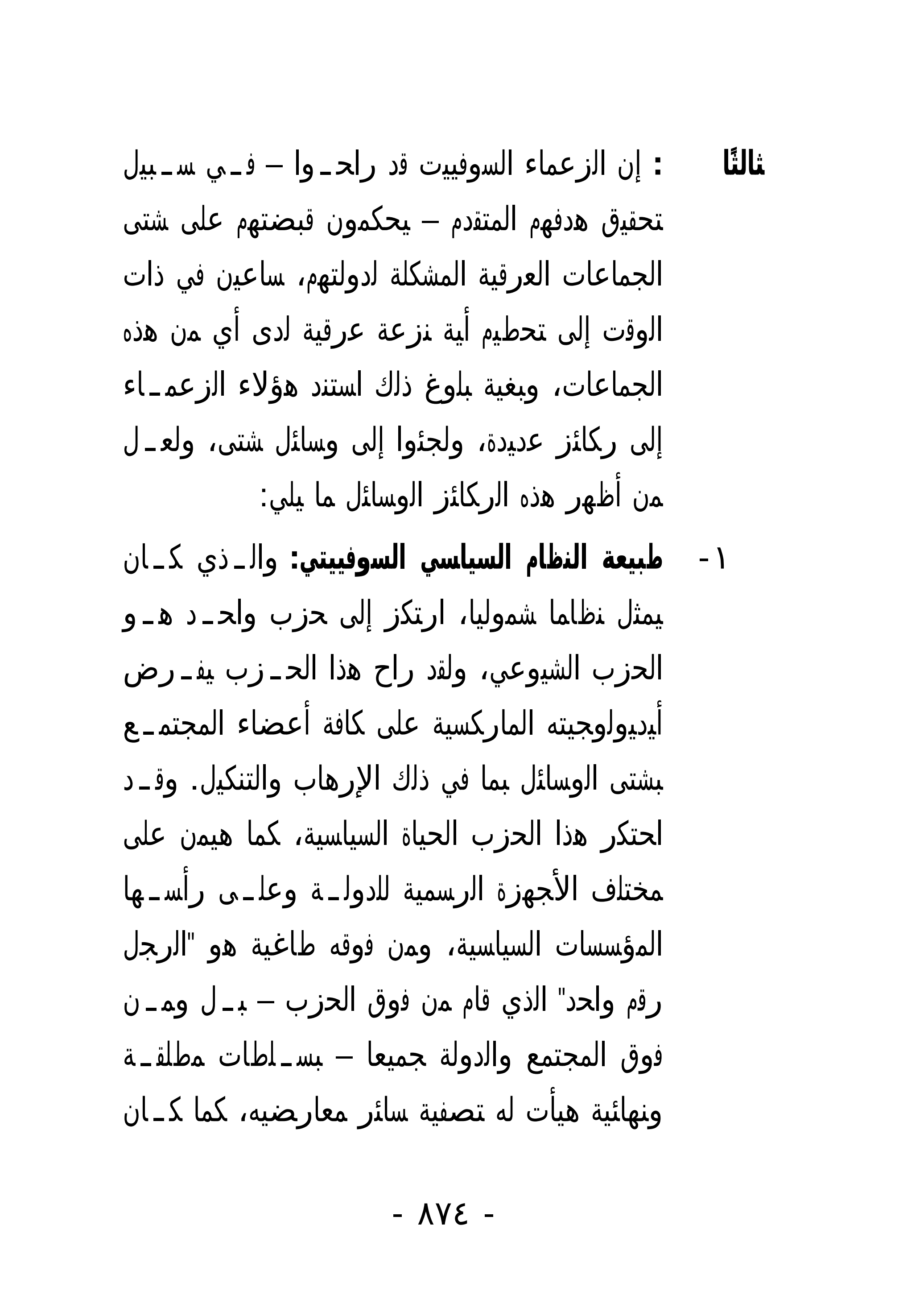
وبغية استجلاء كافة الحقائق التي وقفنا عليها من خـلال القسمين الأول والثاني توجنا بحثنا هذا بدراسـة للحركـات العرقية في الاتحاد السوفييتي (السابق)، نظرا لما كان لهـذه الحركات من آثار عظيمة الشأن على الواقع السياسـي فـي عالمنا المعاصر قاطبة، ذلك فضلاً عما انطوت عليـه هـذه الحركات من تنوع هائل من شأن الوقوف عليه وتحليلـه، أن يثري أي عمل علمي في مجال الحركات العرقية. ومن هنـا فقد أفردنا القسم الثالث من بحثنا هـذا لدراسـة الحركـات العرقية في الاتحاد السوفييتي، وقد ضمنا هذا القسم فصـلين عرضنا في أولهما بالتحليل للحركات العرقية فـي الاتحـاد السوفييتي السابق خلال الفترة الممتدة من قيام الثورة البلشفية (عام ١٩١٧) وحتى ما قبل اعتلاء جورباتشوف لسدة الحكم في الكريملين عام ١٩٨٥. وقد اقتضى ذلك التعريف بالتكوين العرقي للاتحاد السوفييتي، والتقسيمات الإدارية التي خطهـا



الزعماء السوفييت استجابة لذاك التكوين. كما عرضنا في هذا الفصل بشيء من التفصيل للسياسات التي انتهجها هؤلاء الزعماء بغية تسوية المسألة القومية، ومن خلال تتبع الواقع السوفييتي – خلال الفترة ١٩١٧ – ١٩٨٤ – فيما يتصل بالمسألة القومية خلصنا إلى الملاحظات التالية:

أولاً : إن الاتحاد السوفييتي كان وريث إمبراطورية تم بناؤها من خلال التجميع الإجباري لشعوب متباينة من حيث السلالة واللغة والدين، فضلاً عن أنها لم تكن ترغب في العيش المشترك. وهكذا فقد ورث الاتحاد السوفييتي الإمبراطورية الروسية بمختلف أقاليمها وجل أعراقها، فكان دولة ذات تنوع عرقي هائل.

ثانيا : إن هدف الزعماء السوفييت الملح والمحوري والدائم فيما يتصل بالمسألة القومية كان يتمثل في الوصول بالمجتمع السوفييتي إلى درجة من التكامل تختفي في ظلها تلك المسألة، التي طالما قضت مضجعهم، ومثلت العامل المهدد لكيان دولتهم، والمهيئ لتفككها واضمحلالها، وعلى ذلك فقد كان صهر الهويات العرقية للجماعات السوفييتية في بوتقة هوية سوفيتية جامعة هو غاية المنتهى بالنسبة لهؤلاء الزعماء.

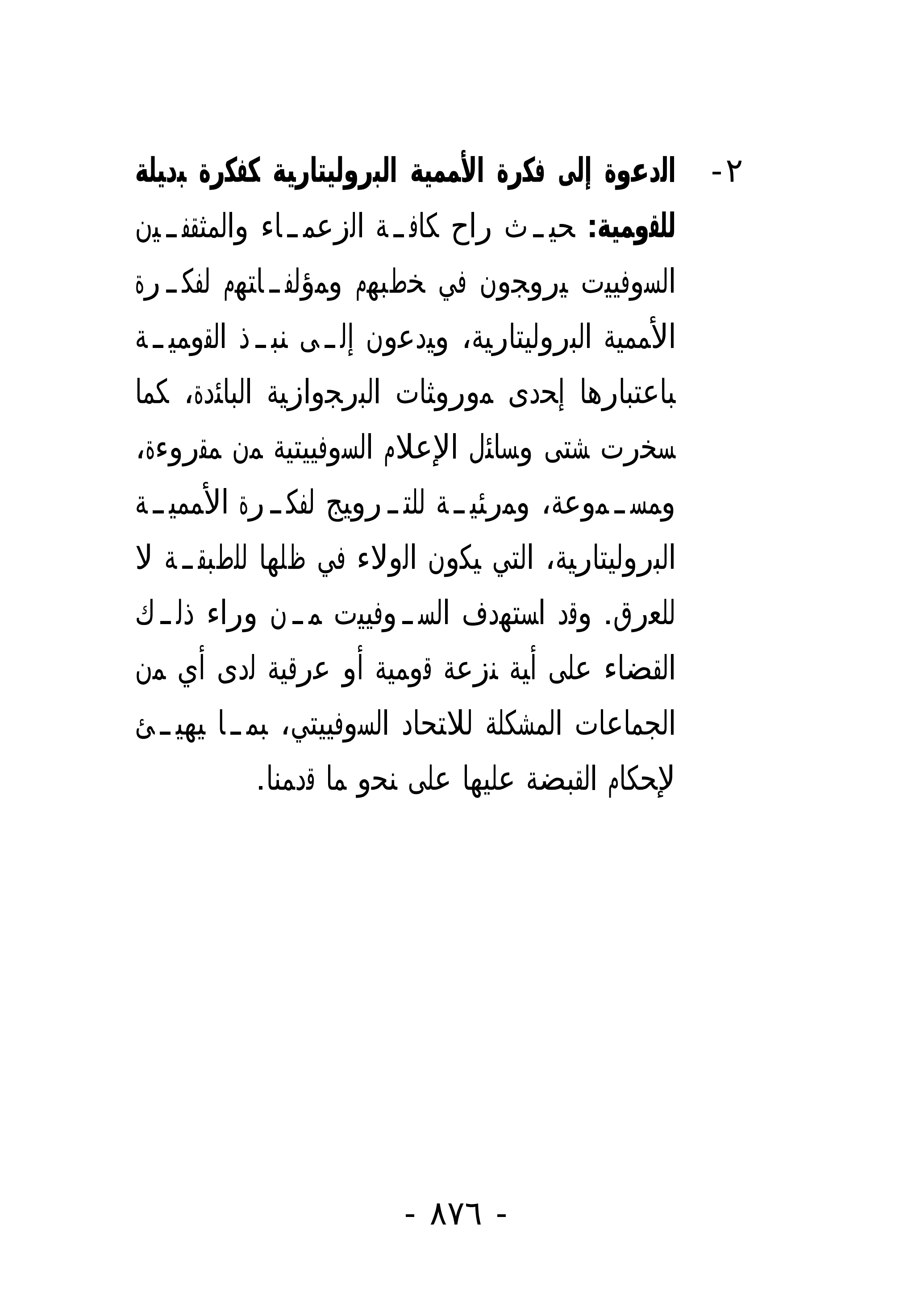


ثالثًا : إن الزعماء السوفييت قد راحـوا – فـي سـبيل تحقيق هدفهم المتقدم – يحكمون قبضتهم على شتى الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم، ساعين في ذات الوقت إلى تحطيم أية نزعة عرقية لدى أي من هذه الجماعات، وبغية بلوغ ذلك استند هؤلاء الزعمـاء إلى ركائز عديدة، ولجئوا إلى وسائل شتى، ولعـل من أظهر هذه الركائز الوسائل ما يلي:

١- **طبيعة النظام السياسي السوفييتي:** والـذي كـان يمثل نظاما شموليا، ارتكز إلى حزب واحـد هـو الحزب الشيوعي، ولقد راح هذا الحـزب يفـرض أيديولوجيته الماركسية على كافة أعضاء المجتمـع بشتى الوسائل بما في ذلك الإرهاب والتنكيل. وقـد احتكر هذا الحزب الحياة السياسية، كما هيمن على مختلف الأجهزة الرسمية للدولـة وعلـى رأسـها المؤسسات السياسية، ومن فوقه طاغية هو "الرجل رقم واحد" الذي قام من فوق الحزب – بـل ومـن فوق المجتمع والدولة جميعا – بسـلطات مطلقـة ونهائية هيأت له تصفية سائر معارضيه، كما كـان

الإعلام في ظل ذلك النظام موجهـا بحيـث كـان شاغله الأوحد هو الدعاية للنظام، والتعتيم على كافة أخطائه، وكل ذلك إلى جانب وضع قيود هائلة من جانب النظام على حرية الرأي، والتعبير، والعقيدة.

وفوق كل ما تقدم عمد الزعماء السوفييت بغيـة إحكـام السيطرة على الجماعات العرقية إلى تقليص الاختصاصـات المخولة للجمهوريات السوفييتية إلى أدنى حد ممكن (وذلـك بمقتضى الدساتير التي وضعها هؤلاء الزعماء)، كمـا تـم بمقتضى القانون العسكري لعـام ١٩٣٨ تفكيـك الوحـدات العسكرية الخاصة بالجمهوريات فلم يعد ثمة سـوى جـيش واحد متعدد العرقيات هو الجيش السوفييتي، أمـلاً فـي أن يكون هذا الجيش بمثابة النواة لخلق شعب سـوفيتي واحـد. وهكذا فقد مثل النظام السوفييتي – بمقوماته المشار إليهـا – إطارا ضاغطًا على الجماعات العرقيـة لـم تسـتطع إزاءه حراكًا.



٢- **الدعوة إلى فكرة الأممية البروليتارية كفكرة بديلة للقومية:** حيث راح كافة الزعماء والمثقفين السوفييت يروجون في خطبهم ومؤلفاتهم لفكرة الأممية البروليتارية، ويدعون إلى نبذ القومية باعتبارها إحدى موروثات البرجوازية البائدة، كما سخرت شتى وسائل الإعلام السوفييتية من مقروءة، ومسموعة، ومرئية للترويج لفكرة الأممية البروليتارية، التي يكون الولاء في ظلها للطبقة لا للعرق. وقد استهدف السوفييت من وراء ذلك القضاء على أية نزعة قومية أو عرقية لدى أي من الجماعات المشكلة للاتحاد السوفييتي، بما يهيئ لإحكام القبضة عليها على نحو ما قدمنا.

٣- **قمع أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الاتحاد السوفييتي:** حيث قـام السـوفييت بسـحق استقلال كل من أوكرانيا وأذربيجـان وجيورجيـا، وإبادة الحركة الانفصالية البخارية وحركة بسماتشي في آسيا الوسطى غداة الثورة البلشفية. ولم يكتـف السوفييت بذلك وإنما شرعوا مستخدمين جبـروتهم في اغتصاب دول بأكملها وضمها إلـى دولـتهم، فضلاً عن سلخ أجـزاء مـن أقـاليم دول أخـرى مجاورة ودمجها في الاتحاد السوفييتي، وذلك كلـه إبان الحرب العالمية الثانية. وقد تمثلت الدول التي ضمها السوفييت في دول البلطيق الثلاث (ليتوانيا – إستونيا – لاتفيا)، أما الأقاليم التي قاموا بالاستيلاء عليها عنوة وجبرا عن دولها الأصلية فقد تمثلت في كل من كاريليا الفنلنديـة، ومولـدافيا الرومانيـة. وفضلاً عن التجميع الجبري للشـعوب وإرغامهـا على الدخول في الحظيرة السوفييتية، لـم يسـمح السوفييت لأي من حلفـائهم فـي شـرق أوربـا بالانسحاب من حلف وارسو، وعلى سبيل المثـال فقد أجبرت الدبابات السوفييتية كلاً من المجر (عام

١٩٥٦) وتشيكوسلوفاكيا (عام ١٩٦٨) على الرضوخ لإرادة السوفييت، والعودة صاغرتين إلى الدوران في فلكهم داخل حظيرة حلف وارسو. وهكذا فإن كل ما تقدم يؤكد على أن السوفييت لم يكونوا ليوافقون على انفصال أية جمهورية سوفيتية عن الاتحاد السوفييتي، وبالتالي فإن "حق تقرير المصير" – الذي طالما تشدقوا به – وحق الانفصال – الذي طالما أكدوا التزامهم به وضمنوه سائر دساتيرهم – لم يكونا في الواقع سوى مجرد شعارين أجوفين رفعهما السوفييت بغية تحقيق مكاسب سياسية، ولم يلتزموهما البتة قيد أنملة، كما أننا لا نكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ما قلنا إن الاتحاد السوفييتي – في ضوء ما تقدم – كان يقوم – شأنه في ذلك شأن الإمبراطورية الروسية التي ورثها – على التجميع الإجباري للشعوب، وبالتالي فإننا نتفق مع الرأي القائل بأن الاتحاد السوفييتي كان يمثل إمبراطورية في عصر لا يعرف الإمبراطوريات.



٤- **السعي إلى طمس الهويـات العرقيـة للجماعـات المشكلة للاتحاد السوفييتي** مـن خـلال تقـويض مقوماتها وعلى رأسها الدين، وعلى نحـو يهيـئ لإمكانية إحكام السيطرة عليها، وصهرها في بوتقة هوية سوفيتية جامعة تجب ما عداها من هويـات، وتستمد ركيزتها الأساسية من نسق ثقافي سـوفيتي موحد هو "الثقافة البروليتارية" بمضمونها المتقدم.

٥- **سياسة الترويس والتي انطوت على أهداف ثقافية،** وأخرى تتصل بالكيانات البشـرية للجمهوريـات، وثالثة تتصل بسائر المؤسسات الاتحادية للدولة، أما الترويس الثقافي واللغوي فقد استهدف المساهمة في طمس الهويات العرقية لجماعات المحيط وتقويض مقومات ذاتياتها، على نحو يهيـئ لصـهرها مـع الروس في بوتقة واحدة، بما يؤدي إلى خلق هويـة واحدة، وللتأكيد لذلك لجأ السوفييت بجانب الترويس الثقافي واللغوي إلـى تـرويس الكيـان البشـري لجمهوريات المحيط بتوطين تجمعات بشرية روسية داخل أراضي هذه الجمهوريات على نحو ما قدمنا.

أما ترويس المؤسسات الاتحادية – وعلى رأسها الجيش والحزب الشيوعي – فقد استهدف الزعماء السـوفييت مـن ورائه إحكام قبضتهم على هذه المؤسسات، وبالتـالي علـى سائر الجمهوريات بما تنطوي عليها من جماعات عرقية.

٦- **اقتلاع الجماعات العرقية المتمـردة** من أراضـيها وتشتيتها في أرجاء آسيا الوسطى وأصقاع سيبيريا بمنأى عن مواطنها الأصلية، وهذا حال ما حـدث مع الأقليات التي اتهمها ستالين بالخيانة والتعـاون مع النازيين إبان الحرب العالميـة الثانيـة، وهـي الأقليات المتمثلة في الشيشان، والأنجوش، والبلقار، والكاراتشيز، وتتار القـرم، والكـالموك، وألمـان الفولجا.

رابعا : إنه من خلال الوسائل المتقدمة تمكـن الزعمـاء السوفييت بالفعل خلال الفتـرة (١٩١٧ – ١٩٨٤) من إحكام قبضتهم على سائر الجماعـات العرقيـة الخاضعة لنيرهم، والمشكلة لدولتهم، كمـا قـاموا بسحق أية حركة عرقية تستهدف انفصـال شـعبها عن الاتحاد السوفييتي، على نحو ما قدمنا.

خامسا : إن كافة الزعماء السوفييت الذين تعـاقبوا علـى الحكم في الكريملين بمن فيهم جورباتشوف ذاته – كانوا يؤكدون دوما على أنهم قد نجحوا في تسـوية المسألة القومية، وأن الصداقة بين سائر الشـعوب السوفييتية قد باتت تُمثل واقعا ملموسا، ودليلاً قاطعا على عظمة ثورتهم (ثورة أكتوبر).

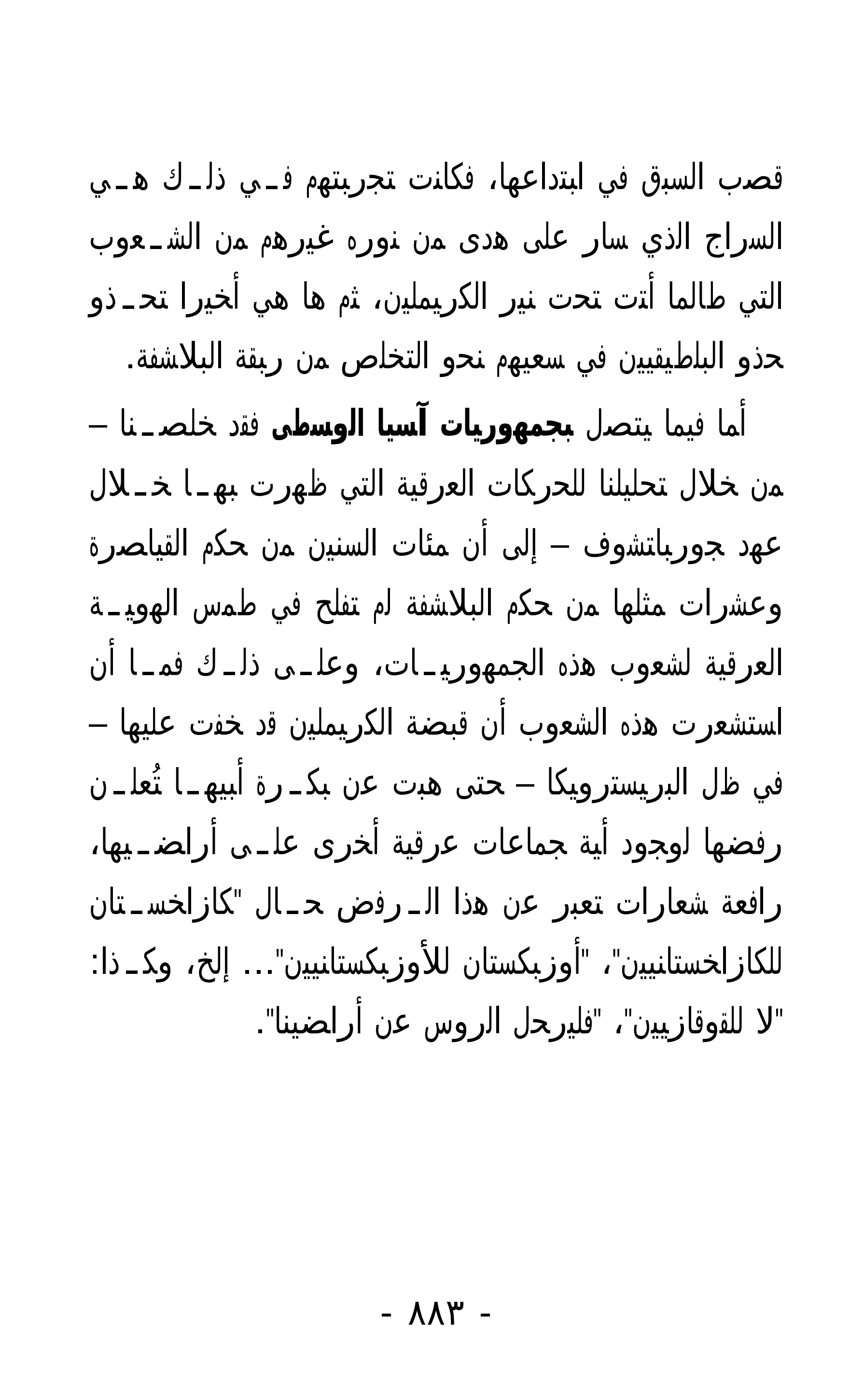
أما **الفصل الثاني** من هذا القسم فقد عرضنا مـن خلالـه للحركات العرقية في الاتحاد السوفييتي (السابق) خلال الحقبة الجورباتشوفية وما بعدها، وقد خلصنا من عرضنا هذا إلـى ما يلي:

لقد شهد العهد الجورباتشوفي ظهور العديد من الحركـات العرقية في جمهوريات المحيط السوفييتية، وهي الحركـات التي سرعان ما تعاظم شأنها في ظل ما هيأته الجلاسنوسـت من مناخ اتسم بالحرية إلى حد كبير، وعلى نحو هيأ لبعـث النزعات العرقية من مرقدها، ففي ظل الجلاسنوست وجـدت الجماعات العرقية نفسها وقد واتتها الفرصة كي تعبـر عـن مضمر نزعاتها. بعد قرون عديدة أحكمت القبضـة خلالهـا على تلك الجماعات من لدن حكام جبابرة، حكموها بالحديـد



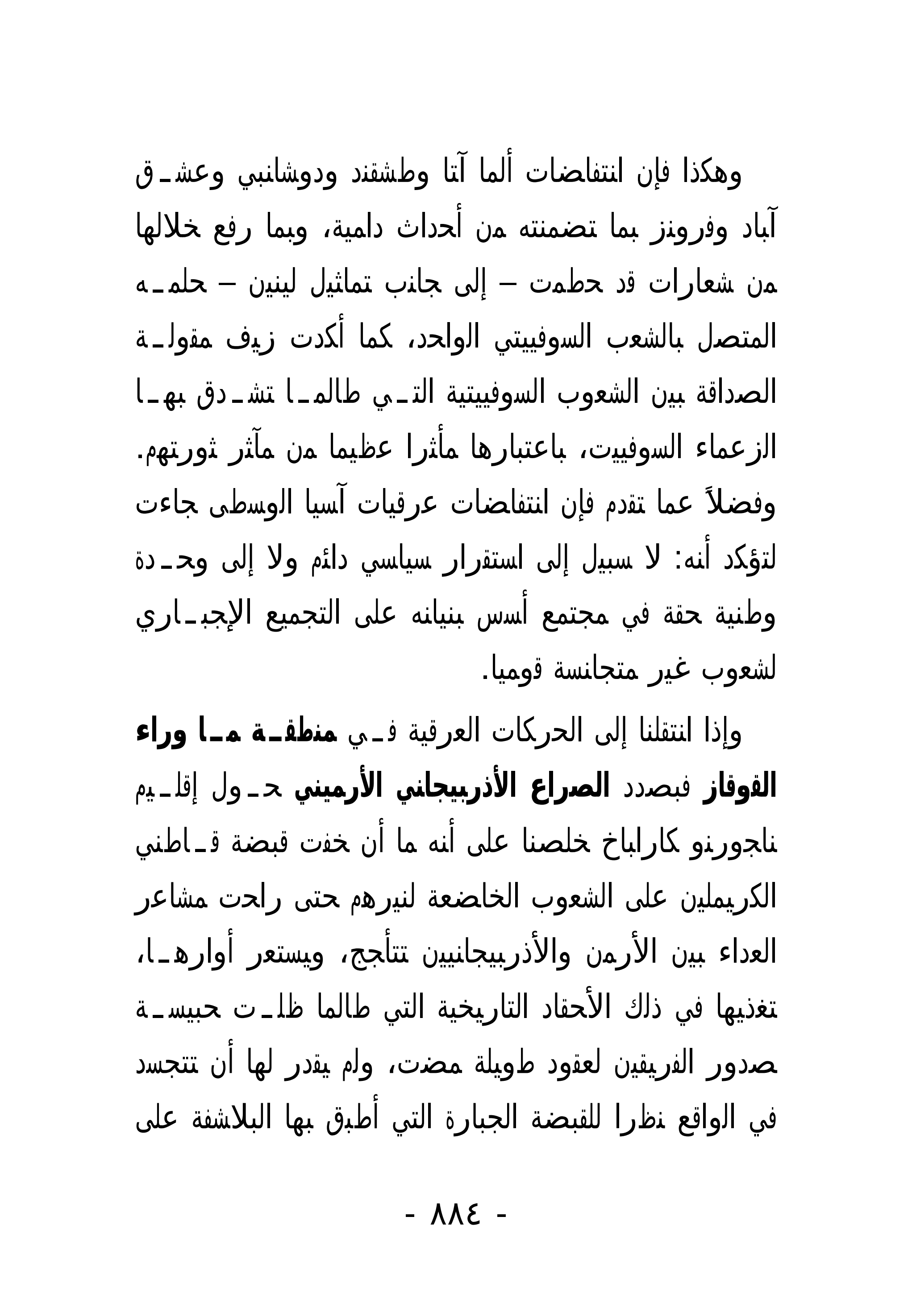
والنار، وكبلوها بأغلال القهر والاستبداد، وأذاقوها كافة صنوف الإرهاب والتنكيل، وما أن خفت القبضة عليها – في رحاب البريسترويكا – حتى راحت تدق طبول الحرب طلبا للاستقلال، والتخلص من ربقة أولئك الذين يقطنون الكريملين.

فبصدد **جمهوريات البلطيق** – بادئ ذي بدء – انتهينا إلى أن عقودا عديدة من السيطرة البلشفية لم تفلح في طمس الهويات العرقية للبلطيقيين، ذلك بأنهم – وبرغم جهود الكريملين المضنية لترويسهم – ظلوا قابضين على هوياتهم، عاضين بالنواجذ على مقومات ذاتياتهم، ناظرين إلى الاتحاد السوفييتي باعتباره دولة تحتل أراضيهم، وتغتصب حقهم في تقرير المصير. وعلى ذلك فما أن تخلص البلطيقيون من نير الإرهاب والكبت – بمجيء جورباتشوف إلى الكريملين – حتى اشرأبت أعناقهم نحو استعادة استقلاليتهم المغتصب، واسترجاع حريتهم السليبة، وسرعان ما ظهرت الحركات العرقية الانفصالية داخل جمهوريات البلطيق؛ حيث تجسدت هذه الحركات فيما يعرف بالجبهات الشعبية، تلك الجبهات التي كانت الجمهوريات البلطيقية مهدا لها، وكان للبلطيقيين



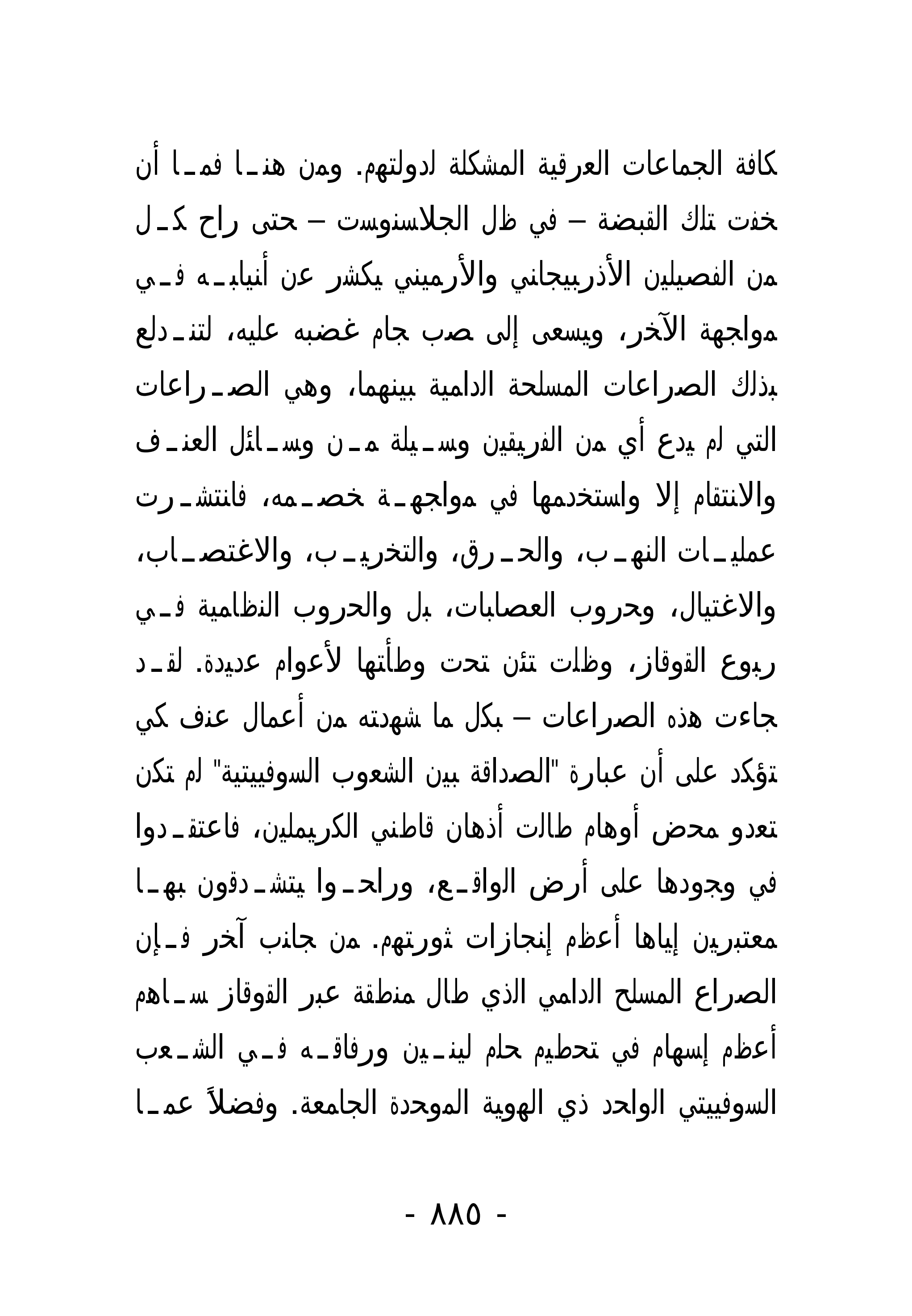
قصب السبق في ابتداعها، فكانت تجربتهم في ذلك هي السراج الذي سار على هدى من نوره غيرهم من الشعوب التي طالما أتت تحت نير الكريملين، ثم ها هي أخيرا تحذو حذو الباطيقيين في سعيهم نحو التخاص من ربقة البلاشفة.

أما فيما يتصل **بجمهوريات آسيا الوسطى** فقد خلصنا – من خلال تحليلنا للحركات العرقية التي ظهرت بها خلال عهد جورباتشوف – إلى أن مئات السنين من حكم القياصرة وعشرات مثلها من حكم البلاشفة لم تفلح في طمس الهوية العرقية لشعوب هذه الجمهوريات، وعلى ذلك فما أن استشعرت هذه الشعوب أن قبضة الكريملين قد خفت عليها – في ظل البريسترويكا – حتى هبت عن بكرة أبيها تُعلن رفضها لوجود أية جماعات عرقية أخرى على أراضيها، رافعة شعارات تعبر عن هذا الرفض حال "كازاخستان للكازاخستانيين"، "أوزبكستان للأوزبكستانيين"... إلخ، وكذا: "لا للقوقازيين"، "فليرحل الروس عن أراضينا".

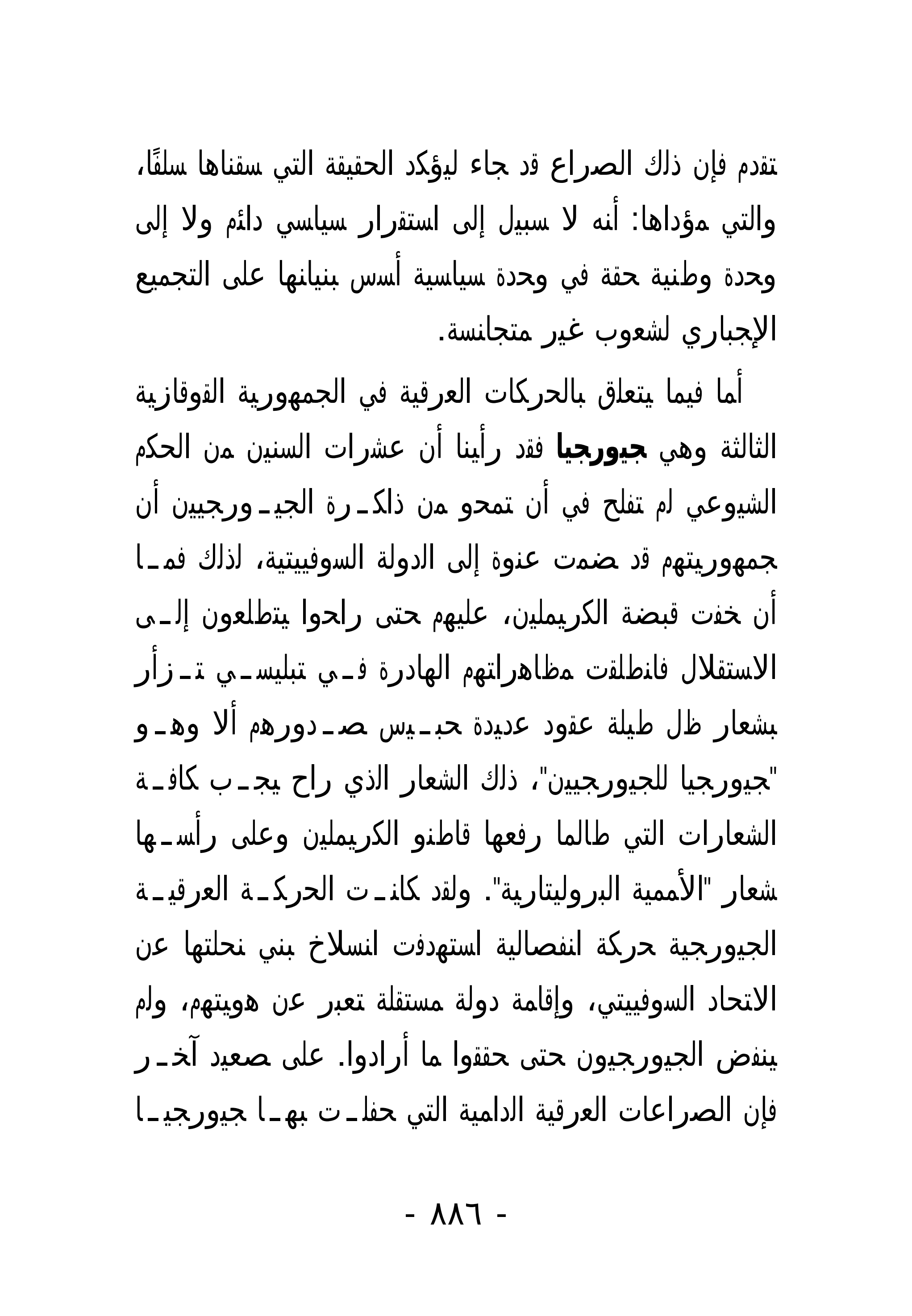


وهكذا فإن انتفاضات ألما آتا وطشقند ودوشانبي وعشـق آباد وفرونز بما تضمنته من أحداث دامية، وبما رفع خلالها من شعارات قد حطمت – إلى جانب تماثيل لينين – حلمـه المتصل بالشعب السوفييتي الواحد، كما أكدت زيف مقولـة الصداقة بين الشعوب السوفييتية التـي طالمـا تشـدق بهـا الزعماء السوفييت، باعتبارها مأثرا عظيما من مآثر ثورتهم. وفضلاً عما تقدم فإن انتفاضات عرقيات آسيا الوسطى جاءت لتؤكد أنه: لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحـدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجبـاري لشعوب غير متجانسة قوميا.

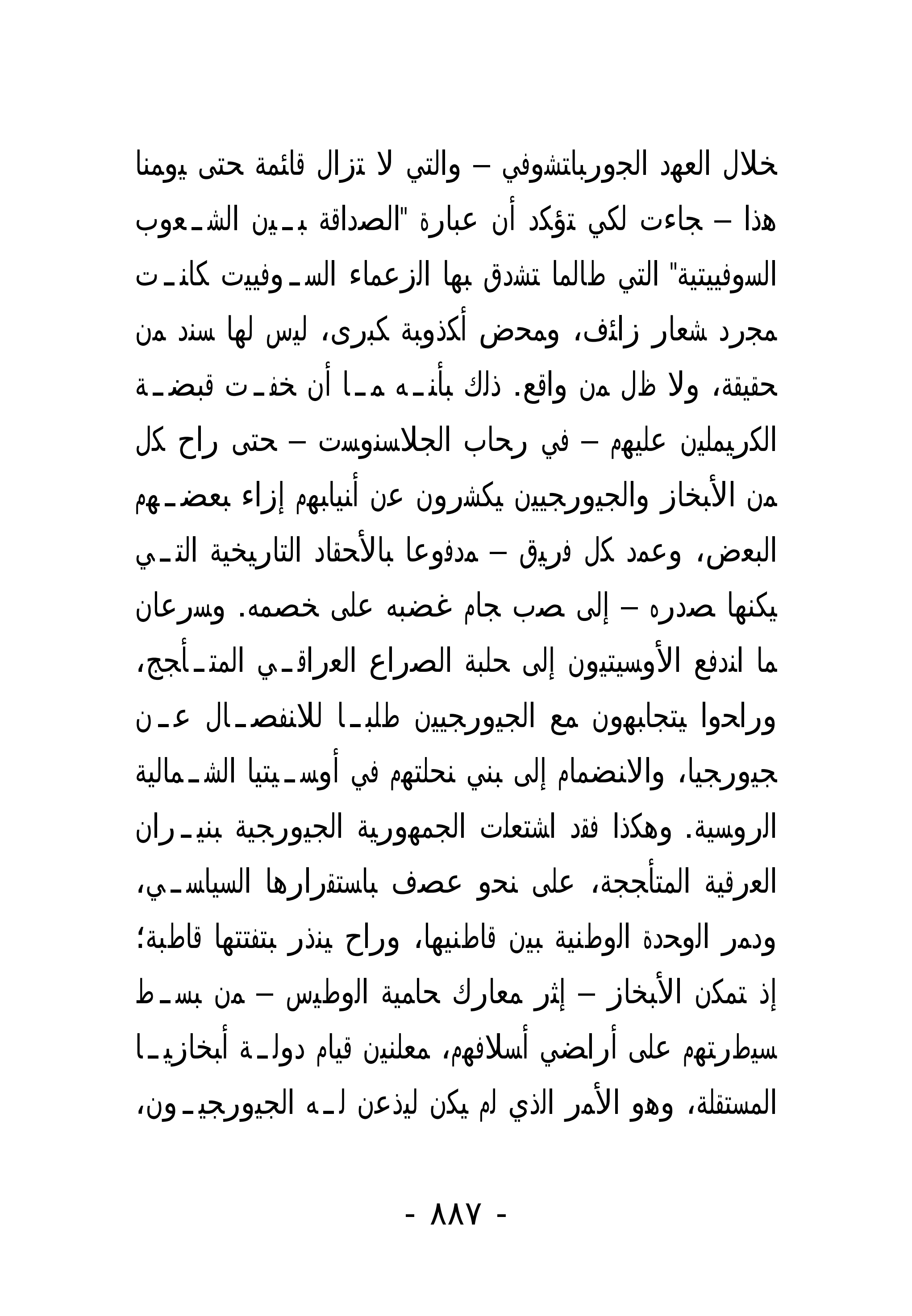
وإذا انتقلنا إلى الحركات العرقية فـي **منطقـة مـا وراء القوقاز** فبصدد **الصراع الأذربيجاني الأرميني** حـول إقلـيم ناجورنو كاراباخ خلصنا على أنه ما أن خفت قبضة قـاطني الكريملين على الشعوب الخاضعة لنيرهم حتى راحت مشاعر العداء بين الأرمن والأذربيجانيين تتأجج، ويستعر أوارهـا، تغذيها في ذلك الأحقاد التاريخية التي طالما ظلـت حبيسـة صدور الفريقين لعقود طويلة مضت، ولم يقدر لها أن تتجسد في الواقع نظرا للقبضة الجبارة التي أطبق بها البلاشفة على



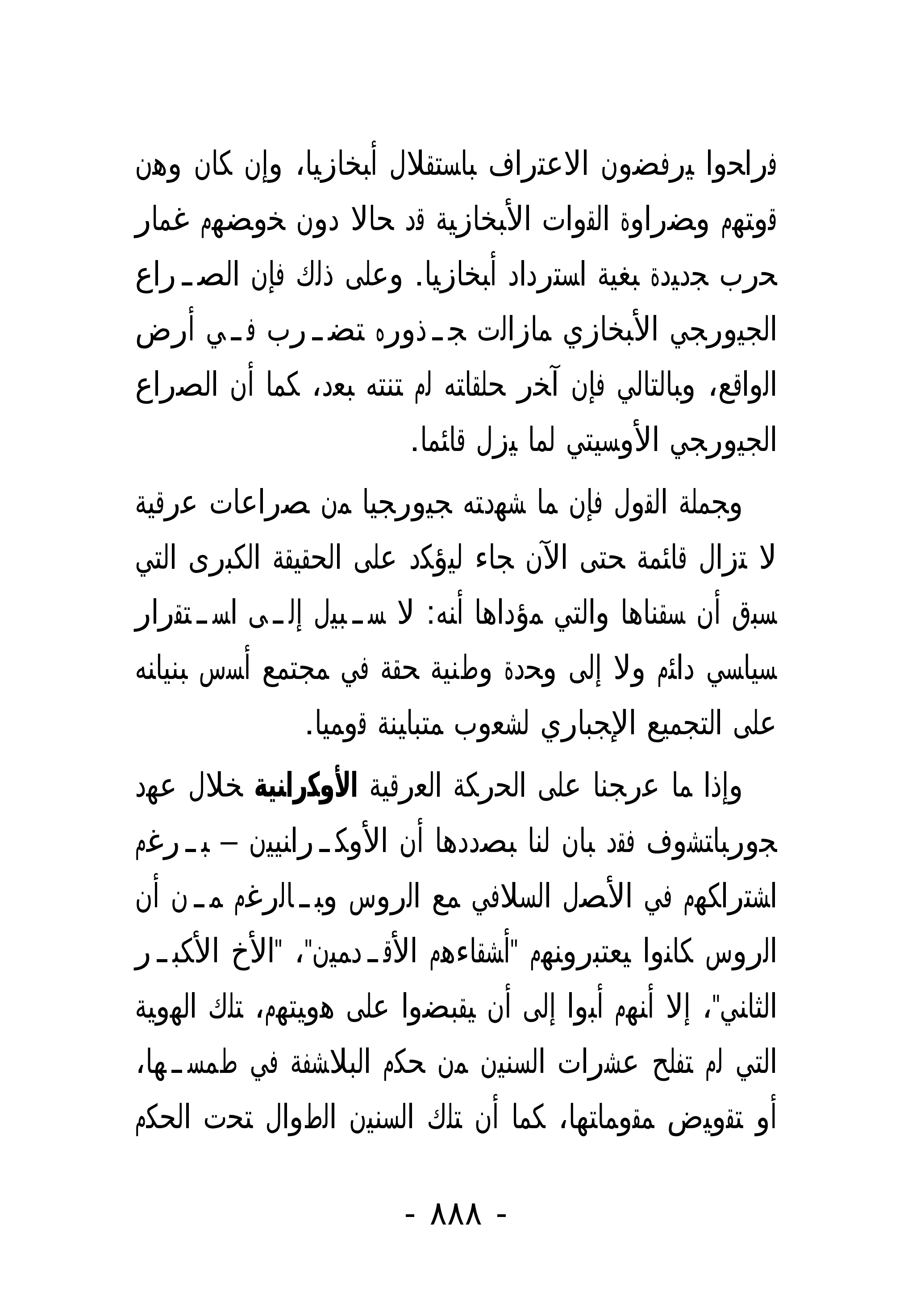
كافة الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم. ومن هنا فما أن خفت تلك القبضة – في ظل الجلاسنوست – حتى راح كل من الفصيلين الأذربيجاني والأرميني يكشر عن أنيابه في مواجهة الآخر، ويسعى إلى صب جام غضبه عليه، لتندلع بذلك الصراعات المسلحة الدامية بينهما، وهي الصراعات التي لم يدع أي من الفريقين وسيلة من وسائل العنف والانتقام إلا واستخدمها في مواجهة خصمه، فانتشرت عمليات النهب، والحرق، والتخريب، والاغتصاب، والاغتيال، وحروب العصابات، بل والحروب النظامية في ربوع القوقاز، وظلت تئن تحت وطأتها لأعوام عديدة. لقد جاءت هذه الصراعات – بكل ما شهدته من أعمال عنف كي تؤكد على أن عبارة "الصداقة بين الشعوب السوفييتية" لم تكن تعدو محض أوهام طالت أذهان قاطني الكريملين، فاعتقدوا في وجودها على أرض الواقع، وراحوا يتشدقون بها معتبرين إياها أعظم إنجازات ثورتهم. من جانب آخر فإن الصراع المسلح الدامي الذي طال منطقة عبر القوقاز ساهم أعظم إسهام في تحطيم حلم لينين ورفاقه في الشعب السوفييتي الواحد ذي الهوية الموحدة الجامعة. وفضلاً عما


تقدم فإن ذلك الصراع قد جاء ليؤكد الحقيقة التي سقناها سلفًا، والتي مؤداها: أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في وحدة سياسية أسس بنيانها على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة.

أما فيما يتعلق بالحركات العرقية في الجمهورية القوقازية الثالثة وهي **جيورجيا** فقد رأينا أن عشرات السنين من الحكم الشيوعي لم تفلح في أن تمحو من ذاكـرة الجيـورجيين أن جمهوريتهم قد ضمت عنوة إلى الدولة السوفييتية، لذلك فمـا أن خفت قبضة الكريملين، عليهم حتى راحوا يتطلعون إلـى الاستقلال فانطلقت مظاهراتهم الهادرة فـي تبليسـي تـزأر بشعار ظل طيلة عقود عديدة حبـيس صـدورهم ألا وهـو "جيورجيا للجيورجيين"، ذلك الشعار الذي راح يجـب كافـة الشعارات التي طالما رفعها قاطنو الكريملين وعلى رأسـها شعار "الأممية البروليتارية". ولقد كانـت الحركـة العرقيـة الجيورجية حركة انفصالية استهدفت انسلاخ بني نحلتها عن الاتحاد السوفييتي، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن هويتهم، ولم ينفض الجيورجيون حتى حققوا ما أرادوا. على صعيد آخـر فإن الصراعات العرقية الدامية التي حفلـت بهـا جيورجيـا

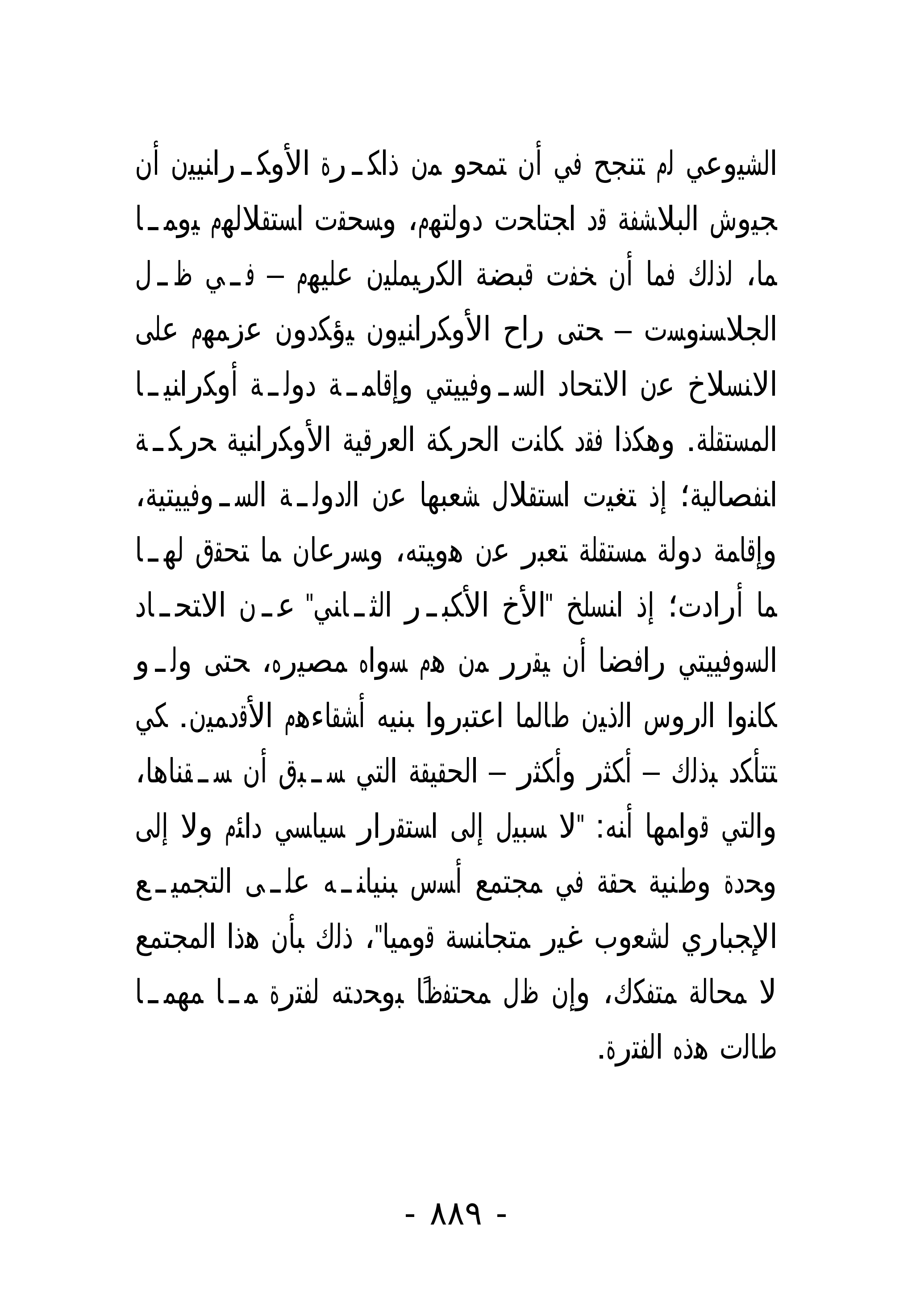


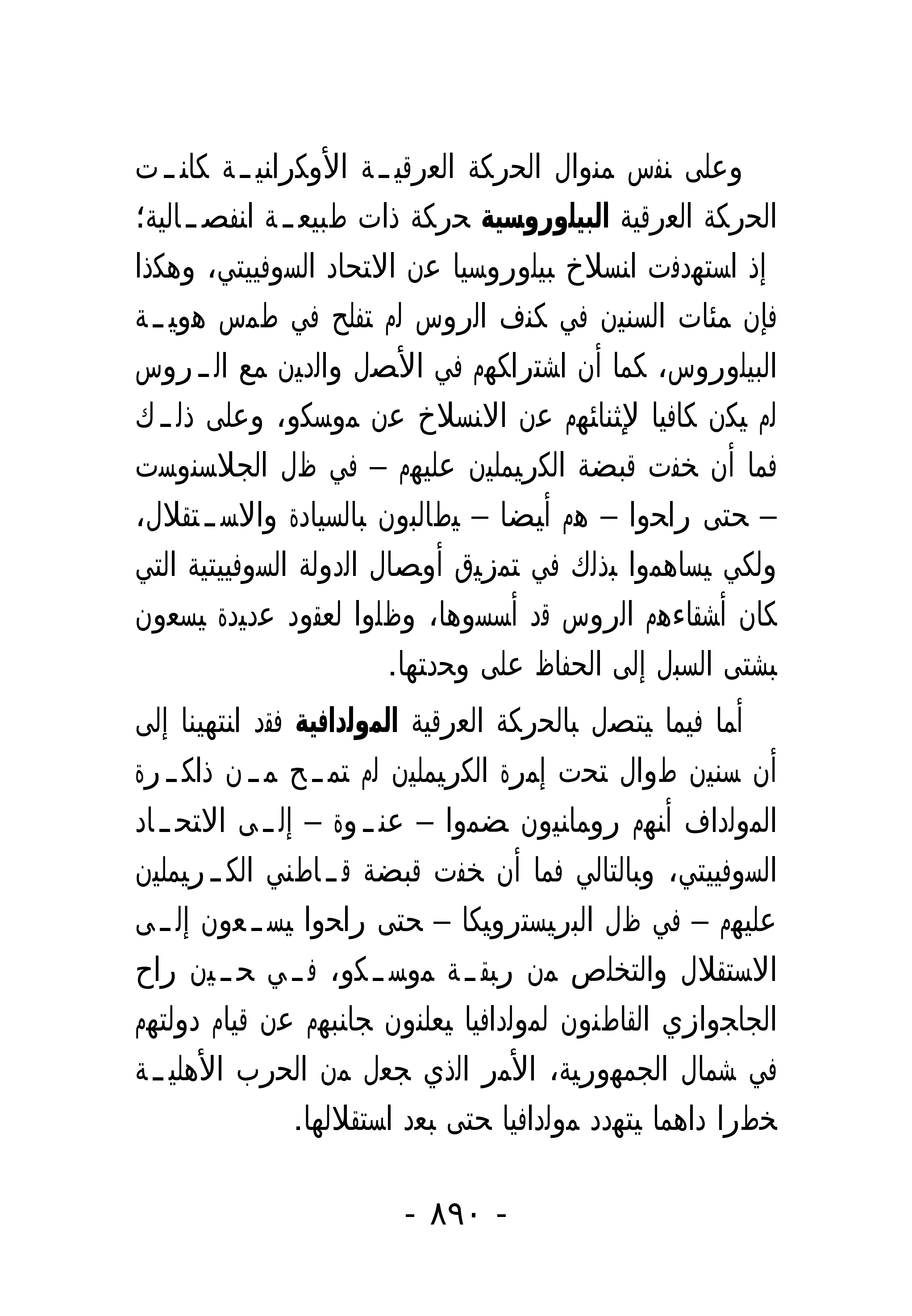
خلال العهد الجورباتشوفي – والتي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا – جاءت لكي تؤكد أن عبارة "الصداقة بـين الشـعوب السوفييتية" التي طالما تشدق بها الزعماء السـوفييت كانـت مجرد شعار زائف، ومحض أكذوبة كبرى، ليس لها سند من حقيقة، ولا ظل من واقع. ذلك بأنـه مـا أن خفـت قبضـة الكريملين عليهم – في رحاب الجلاسنوست – حتى راح كل من الأبخاز والجيورجيين يكشرون عن أنيابهم إزاء بعضـهم البعض، وعمد كل فريق – مدفوعا بالأحقاد التاريخية التـي يكنها صدره – إلى صب جام غضبه على خصمه. وسرعان ما اندفع الأوسيتيون إلى حلبة الصراع العراقـي المتـأجج، وراحوا يتجابهون مع الجيورجيين طلبـا للانفصـال عـن جيورجيا، والانضمام إلى بني نحلتهم في أوسـيتيا الشـمالية الروسية. وهكذا فقد اشتعلت الجمهورية الجيورجية بنيـران العرقية المتأججة، على نحو عصف باستقرارها السياسـي، ودمر الوحدة الوطنية بين قاطنيها، وراح ينذر بتفتتها قاطبة؛ إذ تمكن الأبخاز – إثر معارك حامية الوطيس – من بسـط سيطرتهم على أراضي أسلافهم، معلنين قيام دولـة أبخازيـا المستقلة، وهو الأمر الذي لم يكن ليذعن لـه الجيورجيـون،


فراحوا يرفضون الاعتراف باستقلال أبخازيا، وإن كان وهن قوتهم وضراوة القوات الأبخازية قد حالا دون خوضهم غمار حرب جديدة بغية استرداد أبخازيا. وعلى ذلك فإن الصـراع الجيورجي الأبخازي مازالت جـذوره تضـرب فـي أرض الواقع، وبالتالي فإن آخر حلقاته لم تنته بعد، كما أن الصراع الجيورجي الأوسيتي لما يزل قائما.

وجملة القول فإن ما شهدته جيورجيا من صراعات عرقية لا تزال قائمة حتى الآن جاء ليؤكد على الحقيقة الكبرى التي سبق أن سقناها والتي مؤداها أنه: لا سـبيل إلـى اسـتقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب متباينة قوميا.

وإذا ما عرجنا على الحركة العرقية **الأوكرانية** خلال عهد جورباتشوف فقد بان لنا بصددها أن الأوكـرانيين – بـرغم اشتراكهم في الأصل السلافي مع الروس وبـالرغم مـن أن الروس كانوا يعتبرونهم "أشقاءهم الأقـدمين"، "الأخ الأكبـر الثاني"، إلا أنهم أبوا إلى أن يقبضوا على هويتهم، تلك الهوية التي لم تفلح عشرات السنين من حكم البلاشفة في طمسـها، أو تقويض مقوماتها، كما أن تلك السنين الطوال تحت الحكم


الشيوعي لم تنجح في أن تمحو من ذاكـرة الأوكـرانيين أن جيوش البلاشفة قد اجتاحت دولتهم، وسحقت استقلالهم يومـا ما، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – فـي ظـل الجلاسنوست – حتى راح الأوكرانيون يؤكدون عزمهم على الانسلاخ عن الاتحاد السـوفييتي وإقامـة دولـة أوكرانيـا المستقلة. وهكذا فقد كانت الحركة العرقية الأوكرانية حركـة انفصالية؛ إذ تغيت استقلال شعبها عن الدولـة السـوفييتية، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن هويته، وسرعان ما تحقق لهـا ما أرادت؛ إذ انسلخ "الأخ الأكبـر الثـاني" عـن الاتحـاد السوفييتي رافضا أن يقرر من هم سواه مصيره، حتى ولـو كانوا الروس الذين طالما اعتبروا بنيه أشقاءهم الأقدمين. كي تتأكد بذلك – أكثر وأكثر – الحقيقة التي سـبق أن سـقناها، والتي قوامها أنه: "لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانـه علـى التجميـع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا"، ذلك بأن هذا المجتمع لا محالة متفكك، وإن ظل محتفظًا بوحدته لفترة مـا مهمـا طالت هذه الفترة.



وعلى نفس منوال الحركة العرقية الأوكرانية كانت الحركة العرقية **البيلوروسية** حركة ذات طبيعة انفصالية؛ إذ استهدفت انسلاخ بيلوروسيا عن الاتحاد السوفييتي، وهكذا فإن مئات السنين في كنف الروس لم تفلح في طمس هوية البيلوروس، كما أن اشتراكهم في الأصل والدين مع الروس لم يكن كافيا لإثنائهم عن الانسلاخ عن موسكو، وعلى ذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – في ظل الجلاسنوست – حتى راحوا – هم أيضا – يطالبون بالسيادة والاستقلال، ولكي يساهموا بذلك في تمزيق أوصال الدولة السوفييتية التي كان أشقاءهم الروس قد أسسوها، وظلوا لعقود عديدة يسعون بشتى السبل إلى الحفاظ على وحدتها.

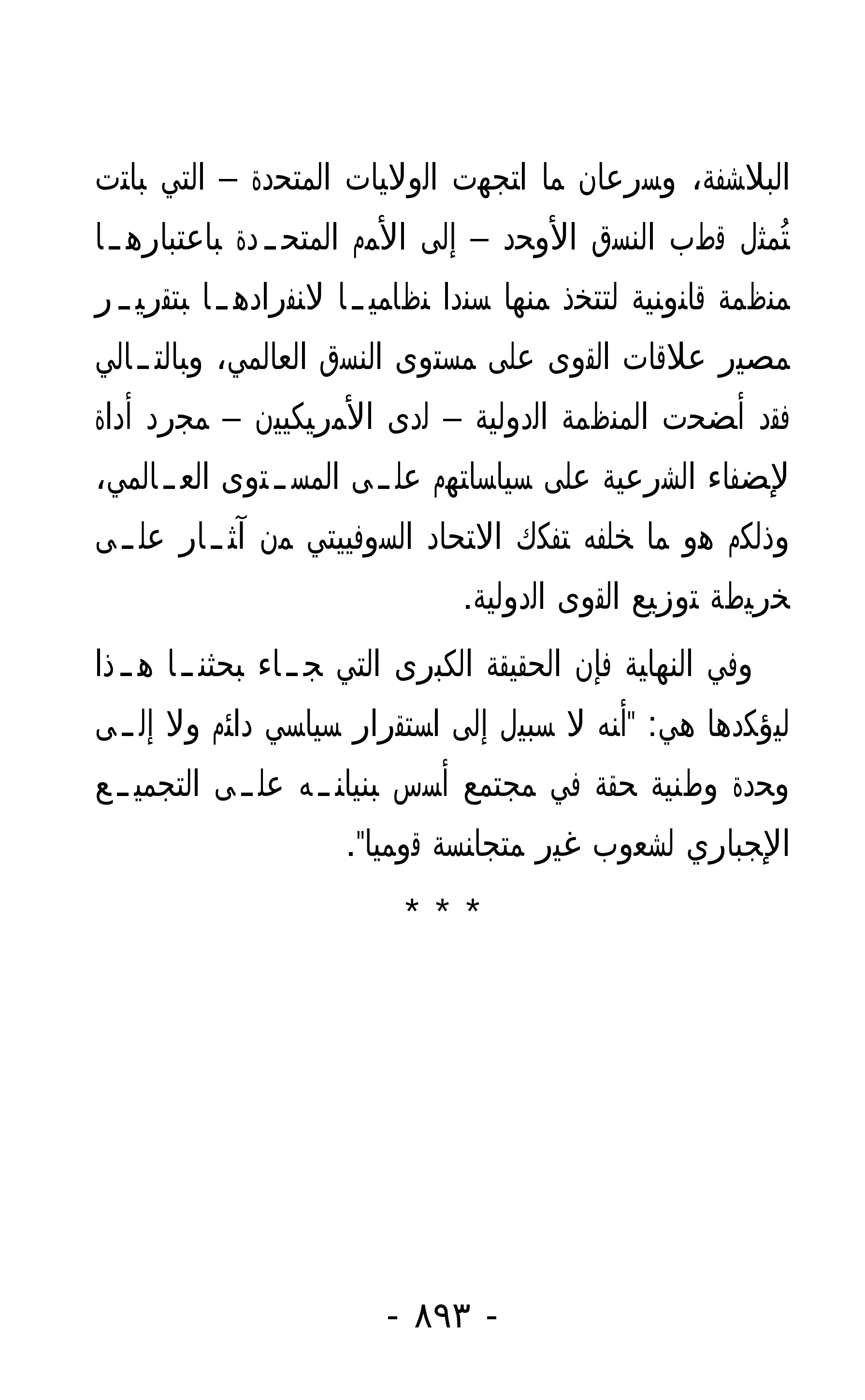
أما فيما يتصل بالحركة العرقية **المولدافية** فقد انتهينا إلى أن سنين طوال تحت إمرة الكريملين لم تمح من ذاكرة المولداف أنهم رومانيون ضموا – عنوة – إلى الاتحاد السوفييتي، وبالتالي فما أن خفت قبضة قاطني الكريملين عليهم – في ظل البريسترويكا – حتى راحوا يسعون إلى الاستقلال والتخلص من ربقة موسكو، في حين راح الجاجوازي القاطنون لمولدافيا يعلنون جانبهم عن قيام دولتهم في شمال الجمهورية، الأمر الذي جعل من الحرب الأهلية خطرا داهما يتهدد مولدافيا حتى بعد استقلالها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة **العرقية الشيشانية** فقد خلصنا إلى أن عقودا طويلة من الحكم القيصري وأخرى تحـت النيـر البلشفي لم تفلح في طمس الهوية العرقية للشيشان، كمـا لـم تنجح في أن تمحو من ذاكرتهم أن وطنهم قد ضم قسرا إلـى روسيا، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى راحوا يعدون العدة للاستقلال، ذلك الاستقلال الذي أعلنوه بالفعـل عندما كان الاتحاد السوفييتي يلفظ أنفاسـه الأخيـرة خـلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩١. وعلى الرغم من ضـراوة التدخل العسكري في شيشينيا في أواخر عـام ١٩٩٤ فـإن الشيشان قد استخدموا كافة الوسائل بغية الدفاع عن استقلالهم الوليد؛ إذ لجئوا إلى الحرب النظامية، وحـرب العصـابات، وعمليات الاختطاف، والاغتيـال... وغيرهـا، ولـم يفلـح الجبروت الروسي حتى يومنا هذا – نوفمبر ٢٠٠٠ – فـي إخماد نيران الحركة الانفصالية الشيشانية. وهكذا فإنه علـى الرغم من مرور ما يربو على التسع سـنوات علـى تفكـك الاتحاد السوفييتي فإن الصراعات العرقية لم تخمد بعد فـي جمهورياته (السابقة)؛ إذ لا تزال هذه الصراعات تُمثل تهديدا بالغًا لاستقرار العديد من هذه الجمهوريات وعلـى رأسـها

روسيا الاتحادية ذاتها؛ إذ تمثل الحركة العرقيـة الشيشـانية تهديدا بالغًا لوحدة الدولة الروسية، ذلك بأن هـذه الحركـة يمكن أن تتخذ نبراسا من جانب جماعات عرقيـة روسـية أخرى؛ حيث إن روسيا تتكون مما يربو علـى ٣٧ جماعـة عرقية، ولعل في تأييد أنجوتشيا لاستقلال الشيشان ما يؤكـد صحة مقولتنا هذه.

على أية حال فإن تحليلنا للحركة العرقية الشيشانية جـاء كي يؤكد الحقيقة التي سبق أن سقناها والتـي قوامهـا: أنـه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقـة في مجتمع تأسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.

وهكذا ونظرا لكل ما تقدم فقـد انهـارت إمبراطوريـة البلاشفة تحت وطأة الحركات العرقية، ذلك الانهيـار الـذي كانت له آثار دولية عظيمة الشأن طالـت مقومـات النسـق الدولي قاطبة؛ إذ باختفاء الاتحاد السوفييتي (والذي كان يمثل أحد قطبي النسق الدولي الذي قام غـداة الحـرب العالميـة الثانية) أضحى القطب الثاني (الولايـات المتحـدة) متفـردا بدرجة التفوق العظمى التي كانت تشاركه إياها إمبراطوريـة



البلاشفة، وسرعان ما اتجهت الولايات المتحدة – التي باتت تُمثل قطب النسق الأوحد – إلى الأمم المتحدة باعتبارها منظمة قانونية لتتخذ منها سندا نظاميا لانفرادها بتقرير مصير علاقات القوى على مستوى النسق العالمي، وبالتالي فقد أضحت المنظمة الدولية – لدى الأمريكيين – مجرد أداة لإضفاء الشرعية على سياساتهم على المستوى العالمي، وذلكم هو ما خلفه تفكك الاتحاد السوفييتي من آثار على خريطة توزيع القوى الدولية.

وفي النهاية فإن الحقيقة الكبرى التي جاء بحثنا هذا ليؤكدها هي: "أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا".

* * *

المراجع

أولاً: المراجع العربية

١- الكتب:

١- إبراهيم أحمد شلبي، **مبادئ القانون الدولي العـام،** مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٨.

٢- ....، **علم السياسة، دراسة فـي قواعـده الأصولية وضوابطه النظريـة،** الـدار الجامعيـة، ١٩٨٥.

٣- أبو خلدون ساطع الحصري، **حول القومية العربية،** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥.

٤- ....، **محاضرات في نشوء الفكرة القومية،** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥.

٥- ....، **ما هي القوميـة،** مركـز دراسـات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٥.

٦- ....، **أبحاث مختارة في القومية العربيـة،** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥.



٧- أبيل ألير، **جنوب السودان: التمادي في نقض المواثيق والعهود،** ترجمة: بشير محمد سعيد، ميدلايت المحدودة، لندن، ١٩٩٢.

٨- أحمد الصاوي، **الأقليات التاريخية في الوطن العربي،** مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٨٩.

٩- أحمد خاكي، **فلسفة القومية،** دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

١٠- أحمد سويلم العمري، **أصول العلاقات السياسية الدولية،** مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٩.

١١- أحمد سويلم العمري، **التفرقة العنصرية،** المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.

١٢- أحمد عطية ا ، **القاموس السياسي،** دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠.

١٣- أحمد وهبان، **العلاقات الأمريكية الأوروبيـة بـين التحالف والمصلحة،** مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٥.

١٤- إدوارد هاللت كـار، **ثـورة البلاشـفة (١٩١٧ – ١٩٢٣)،** الجزء الثالث، ترجمة: عبد الكريم أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

١٥- إسماعيل صبري مقلد، **العلاقات السياسية الدولية،** المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩١.

١٦- الشافعي محمد بشير، **القانون الدولي العـام فـي السلم والحرب،** مكتبة الجلاء الحديثة، المنصـورة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦.

١٧- أفنير كورلين، ستانيسلان تيـو تيـوكين، **سـقوط الإمبراطورية الروسية (١٩١٧)،** ترجمـة: أسـما حليم، دار الثقافة الجديدة، القاهرة (بدون تاريخ).

١٨- ألكسندر زيفيليف، **المسألة القومية فـي الاتحـاد السوفييتي،** دار نشر وكالة نوفوسـتي، موسـكو، ١٩٧١.

١٩- السيد محمد جبر، **المركز الـدولي للأقليـات فـي القانون الدولي العـام مـع المقارنـة بالشـريعة الإسلامية،** منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٠.

٢٠- ب. ج. غفورف وآخرون، **لينين والتحرر الوطني في الشرق،** ترجمة: مصطفى مجدي الجمـال، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٠.

٢١- برهان غليون، **المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات،** سينا للنشر، القاهرة، ١٩٨٨.

٢٢- بطرس بطرس غالي، محمـود خيـري عيسـى، **المدخل في علم السياسة،** مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨.

٢٣- بيير رنوفان، **تاريخ العلاقات الدولية: أزمات القرن العشـرين (١٩١٤ – ١٩٤٥)**، ترجمـة: جـلال يحيي، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩.

٢٤- تيد روبرت جار، **أقليات في خطر،** ترجمة: مجدي عبد الحكيم، سامية الشامي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥.

٢٥- جليلي جليل وآخرون، **الحركة الكردية في العصر الحديث**، ترجمة: عبدي حاجي، دار الرازي، بيروت، ١٩٩٢.

٢٦- ج. هـ. د. كول، **الاشتراكية والفاشية في ثلاثينيات هذا القرن**، ترجمة: عبد الحميد الإسلامبولي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، بدون تاريخ.

٢٧- حامد محمود عيسى، **المشكلة الكردية في الشرق الأوسط**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢.

٢٨- درية عوني، **عرب وأكراد، خصام أم وئام**، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣.

٢٩- دونالدنيف، **حرب السويس، كيف أدخل أيزنهاور أمريكا إلى الشرق الأوسط**، ترجمة: أحمد خضر، عبد السلام رضوان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠.

٣٠- س. س. جافان، **كردستان: أمة مقسمة في الشرق الأوسط**، بدون ذكر اسم مترجم أو ناشر، ١٩٦٣.

٣١- سعد الدين إبراهيم، **تأملات في مسألة الأقليات،** دار سعاد الصباح، القاهرة، الكويت، ١٩٩٢.

٣٢- ....، **الملـل والنحـل والأعـراق: همـوم الأقليات في الوطن العربي،** مركز ابـن خلـدون للدراسات الإنمائية، القاهرة، ١٩٩٤.

٣٣- ....، **هموم الأقليات**، التقرير السنوي الأول (١٩٩٣)، إصدارات مركز ابن خلدون، القـاهرة، ١٩٩٤.

٣٤- .... (مشرف)، **الملل والنحـل والأعـراق،** التقرير السنوي الثاني، ١٩٩٥، دار الأمين للنشـر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥.

٣٥- صلاح الدين عبد الوهاب، **أضواء على المجتمـع العربي،** المؤسسة المصـرية للتـأليف والترجمـة والطباعة والنشر، ١٩٦٣.

٣٦- صلاح بدر الدين، **القضية الكردية والنظام العالمي الجديد،** رابطة كاوا للثقافـة الكرديـة، بيـروت، ١٩٩٣.

٣٧- طلعت رميح، **مستقبل السودان: أزمة الحكم، أزمة الجنوب، أزمة الهوية،** بدون ناشر، ١٩٩٤.

٣٨- طلعت محمود عبد الـرازق (مقـرر) وآخـرون، **الأقليات في المنطقة العربية وتأثيرها على الأمـن القومي العربي،** تقرير صادر عـن وزارة الـدفاع المصرية (بدون تاريخ).

٣٩- عبد العزيز المهنا، **السودان وسط اللهب،** الكتـاب العالمي، قبرص، ١٩٩٤.

٤٠- عزيز الحاج، **القضية الكرديـة فـي العشـرينات،** المؤسسة العربية للدراسـات والنشـر، بيـروت، ١٩٨٤.

٤١- علي صادق أبو هيف، **القـانون الـدولي العـام،** الطبعة السابعة، منشـأة المعـارف، الإسـكندرية، ١٩٦٥.

٤٢- فاروق مصطفى إسماعيل، **العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية: دراسة في التكيـف والتمثيـل الثقافي،** الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٤٣- ف. ف. مينوركسـي، **الأكـراد: ملاحظـات وانطباعات**، ترجمـة، معـروف خزنـة دار، دار الكاتب، بيروت، ١٩٨٧.

٤٤- كينيث ليتل، **السلالة والمجتمع**، ترجمـة: محمـد جلال عباس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

٤٥- مازن بلال، **المسألة الكردية: الـوهم والحقيقـة**، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣.

٤٦- مجدي نصيف، **حرب البوسـنة والهرسـك: فـي إطارها السياسي، الاقتصادي، القومي، العرقـي، الديني**، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٣.

٤٧- محمد السماك، **الأقليات بين العروبة والإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠.

٤٨- محمد حافظ غانم، **مبادئ القانون الدولي العام**، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢.

٤٩- محمد سامي عبد الحميد، **أصول القـانون الـدولي العام**، الجزء الأول، الجماعـة الدوليـة، مؤسسـة الثقافة الجامعية، بدون تاريخ.

٥٠- محمد طه بدوي، **النظرية السياسية: النظرية العامة للمعرفة السياسية،** المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٨٦.

٥١- محمد طه بدوي، **محاضرات في مقومات الحياة السياسية في الولايات المتحدة** (غير منشورة)، ملقاة على طلبة ماجستير العلوم السياسية – كلية التجارة – جامعة الإسكندرية، ١٩٨٦.

٥٢- محمد طه بدوي – محمد طلعت الغنيمي، **دراسات سياسية وقومية،** منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٣.

٥٣- محمد طه بدوي وآخرون، **المجتمع العربي والقضية الفلسطينية،** دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣.

٥٤- محمد طه بدوي – ليلى أمين مرسي، **النظم والحياة السياسية** (بدون ناشر)، الإسكندرية، ١٩٩١.

٥٥- محمد طه بدوي – ليلى أمين مرسي، **النظرية العامة للعلاقات الدولية،** الطبعة الرابعة، الإسكندرية، ١٩٩٢.



٥٦- محمد عبد القادر أحمد، **الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي بين الماضي والحاضر،** مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٢.

٥٧- محمد فتحي الشاعر، **الأكراد في عهد عماد الدين زنكي،** توزيع دار المعارف، ١٩٩١.

٥٨- محمود إسماعيل محمد، **دراسات في العلوم السياسية،** مكتبة الإمارات، العين، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.

٥٩- ممدوح لطفي، **انهيار إمبراطورية شيوعية،** الدار المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢.

٦٠- ميخائيل جورباتشوف، **البريسترويكا: تفكير جديد لبلادنا وللعالم،** ترجمة: حمدي عبد الجواد، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، يناير ١٩٩٠.

٦١- نور الدين حاطوم، **تاريخ الحركات القومية،** الجزء الأول، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٧.

٦٢- ....، **حركة القومية الإيطالية،** معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١.

٦٣- ....، **حركة القومية الألمانية،** معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١.

٦٤- نيفين مسعد، **الأقليات والاستقرار السياسي في الوطن العربي،** مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨.

٦٥- هارولد نيكلسون، **الدبلوماسية،** ترجمة: محمد مختار الزقزوقي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٧.

٦٦- هيلين كاريير دانكوس، **نهاية الإمبراطورية السوفييتية: (مجد الأمم)،** ترجمة: إبراهيم العريس، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، الأرض للنشر، قبرص، ١٩٩٤.

٦٧- وائل أحمد علام، **حماية حقوق الأقليات في القانون الدولي العام،** دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٤.

٦٨- يسري عبد الرازق الجوهري، **السلالات البشرية،** دار الطلبة العرب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩.

٢- الأبحاث والتقارير والوثـائق المنشـورة بالدوريات:

١- إبراهيم عرفات، **بيانات وحقـائق عـن الاتحـاد السوفييتي،** مجلة السياسـة الدوليـة، العـدد ٩٤، أكتوبر ١٩٨٨.

٢- أحمد عباس عبد البـديع، **اضـطرابات جورجيـا ومشكلة القوميات في الاتحاد السـوفييتي،** مجلـة السياسة الدولية، العدد ٩٧، يوليو ١٩٨٩.

٣- أحمد مصطفى العملة، **أزمـة القوميـات وخطـر انهيار الاتحاد السوفييتي،** مجلة السياسة الدوليـة، العدد ١٠٣، يناير ١٩٩١.

٤- أحمد ناجي قمحه، **العنف الإسـلامي الهندوسـي،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٢، أبريل ١٩٩٣.

٥- أحمد يوسف القرعي، **مصر واسـتقلال إريتريـا،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٣، يوليو ١٩٩٣.

٦- إسماعيل صبري مقلد، **التقارب الأمريكي السوفييتي والحرب الباردة،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١٧، يوليو ١٩٦٥.

٧- أريك دانيلسون، **الجذور التاريخية للنزاع القائم في البلقان،** المجلة العربية للدراسات الدولية، السنة الخامسة، العدد الأول، شتاء ١٩٩٤، بيروت.

٨- التقرير الاستراتيجي العربي (١٩٩١)، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٩٢.

٩- التقرير الاستراتيجي العربي (١٩٩٣)، الأهرام – القاهرة، ١٩٩٣.

١٠- السيد السيد حجاج، **الحياة السياسية في السودان من الاستقلال يناير ١٩٥٦ حتى مايو ١٩٦٩،** مجلة كلية التجارة، جامعة الإسكندرية، (المجلد ١٩)، العدد الثاني لسنة ١٩٨٢.

١١- الكسندر بينجسن، **أفغانستان، الأفكار الخلفية السوفييتية،** ترجمة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩٣، يوليو ١٩٨٨.



١٢- الطاهر أحمد مكي، **الضغوط الداخلية على المسرح الإسباني**، العدد ٣٩، مجلة السياسة الدولية، ينـاير ١٩٧٥.

١٣- أماني الطرابيشي، **اضطرابات الأرمن في الاتحـاد السوفييتي**، العدد ٩٣، مجلة السياسة الدولية، يوليو ١٩٨٨.

١٤- أماني محمود فهمي، **تشيكوسلوفاكيا وأزمة البحث عن الهوية**، مجلة السياسة الدوليـة، العـدد ١١١، يناير ١٩٩٣.

١٥- أنور عبـد الملـك، **تحـرك الاتحـاد السـوفييتي المستقبلي**، مجلة السياسـة الدوليـة، العـدد ٩٤، أكتوبر ١٩٨٨.

١٦- جمال الدين محمد علي، **اغتيـال أنـديرا غانـدي ومستقبل القارة الهندية**، مجلة السياسـة الدوليـة، العدد ٧٩، يناير ١٩٨٥.

١٧- ....، اتفاق كولمبو بين الهنـد وسـريلانكا، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩٠، أكتوبر ١٩٨٧.

١٨- ....، **مشكلة كشمير واحتمالات النزاع المسلح في جنوب شرق آسيا،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١٠١، يوليو ١٩٩٠.

١٩- جهاد عودة، **الجزائر والمواجهة بين الدولة والبربر،** مجلة السياسة الدولية، العدد ٦١، يوليو ١٩٨٠.

٢٠- خيري عزيز، **التغييرات الدستورية في الاتحاد السوفييتي،** العدد ٥٠، مجلة السياسة الدولية، أكتوبر ١٩٧٧.

٢١- رولان لوم، فيليب ميشيه، **حل الدولة السوفييتية،** ترجمة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٠٤، أبريل ١٩٩١.

٢٢- سمعان بطرس فرج ا ، **الحركة الانفصالية في كندا،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١١، يناير ١٩٦٨.

٢٣- **شهريات مجلة السياسة الدولية،** العدد ٨٨، يناير ١٩٨٧.



٢٤- **شهريات مجلة السياسة الدولية**، العدد ٩٢، أبريل ١٩٨٨.

٢٥- **شهريات مجلة السياسة الدولية**، العدد ١٠١، يوليو ١٩٩٠.

٢٦- **شهريات مجلة السياسـة الدوليـة**، العـدد ١٠٢، أكتوبر ١٩٩٥.

٢٧- **شهريات مجلة السياسـة الدوليـة**، العـدد ١٠٤، أبريل ١٩٩١.

٢٨- **شهريات مجلة السياسة الدولية**، العدد ١٠٥، يوليو ١٩٩١.

٢٩- **شهريات مجلة السياسـة الدوليـة**، العـدد ١١٤، أكتوبر ١٩٩٣.

٣٠- **شهريات مجلة السياسـة الدوليـة**، العـدد ١٢٠، أبريل ١٩٩٥.

٣١- **شهريات مجلة السياسة الدولية**، العدد ١٢٣، يناير ١٩٩٦.



٣٢- طارق حسني أبـو سـنة، **بوروند ي والانقـلاب العسكري الثالث،** العدد ٩١، مجلة السياسة الدولية، يناير ١٩٨٨.

٣٣- عبد العزيز سليمان نوار، **الحرب الأهلية وأبعادهـا الطائفية،** العدد ٤٣، مجلة السياسة الدولية، ينـاير ١٩٧٦.

٣٤- عبد ا صالح، ناجورنو كاراباخ: **الصـراع بـين الجغرافيا والهوية القومية،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٠، أبريل ١٩٩٥.

٣٥- عبد الملك عودة، **مستقبل جنوب السـودان بـين وحدة الدولة أو الانفصال،** مجلة السياسة الدوليـة، العدد ١٠٩، يوليو ١٩٩٢.

٣٦- فتحي حسن عطوة، **اضطرابات التبـت: أسـبابها وأبعادها،** مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهـرام، القاهرة، العدد ٩١، يناير ١٩٨٨.

٣٧- فتحي عبد الفتاح، **ناميبيا: نهاية كـابوس وبدايـة وطن،** مجلة المنار، دار المنار، القاهرة، العدد ٦٠، ديسمبر ١٩٨٩.

٣٨- فرانسوا زتوم، **الدول السـوفييتية واللهفـة إلـى التحرر،** ترجمة: سوسن حسين، مجلـة السياسـة الدولية، العدد ١٠٤.

٣٩- محمد أبو الفضل، **المصالحة والحرب في جنـوب السودان،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٣، يناير ١٩٩٦.

٤٠- محمد بشير حامد، **نشر السلطة والتكامل القـومي في جنوب السودان،** مجلة السياسة الدولية، العـدد ٩١، يناير ١٩٨٨.

٤١- محمد علي المداح، **مشكلة الباسك بين الاسـتقلال والحكم الذاتي،** العدد ٥٩، مجلة السياسة الدوليـة، يناير ١٩٨٠.

٤٢- محمد عيسـى الشـرقاوي، **اسـتقلال زيمبـابوي ومستقبل الجنوب الإفريقـي، العـدد ٦٠، مجلـة السياسة الدولية، أبريل ١٩٨٠.**

٤٣- ....، **المشكلة الطائفية في الهنـد،** مجلـة السياسة الدولية، العدد ٧٣، يوليو ١٩٨٣.



٤٤- محمد مصطفى شحاتة، **أبعاد الحرب الأهليـة فـي ليبريا،** مجلة السياسة الدولية، العـدد ١٠٣، ينـاير ١٩٩١.

٤٥- محمود عبد المـنعم مرتضـى، **قضـية التمييـز العنصري في روديسيا،** العدد ٥، مجلـة السياسـة الدولية، يوليو ١٩٦٦.

٤٦- مختار شعيب عبد ا ، **الصراع القومي والعرقـي في الجمهوريات المستقلة: أبخازيا – جيورجيـا،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٠، أبريل ١٩٩٥.

٤٧- مختار شعيب، **"كيبيك" البركان الذي يهدد الوحـدة الكندية،** مجلة السياسة الدولية العدد ١٢٣، ينـاير ١٩٩٦.

٤٨- مراد إبراهيم الدسوقي، **روسيا والتركة العسـكرية للاتحاد السوفييتي،** مجلة السياسة الدوليـة، العـدد ١٠٩، يوليو ١٩٩٢.

٤٩- معتز محمد سلامة، **الأزمة ومستقبل الدولـة فـي أفغانستان،** العدد ١١١، مجلة السياسـة الدوليـة، يناير ١٩٩٣.



٥٠- ....، الصراع على الساحل الشرقي للبحر الأسود، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٥، يناير ١٩٩٤.

٥١- نازلي معوض أحمد، **كويبك والحركة الانفصالية في كندا،** مجلة السياسة الدولية، العدد ٤٨، أبريل ١٩٧٧.

٥٢- ....، **النظام الإسباني ما بعد الجنرال فرانكو،** العدد ٤٣، مجلة السياسة الدولية، يناير ١٩٧٦.

٥٣- ....، **إصلاحات جورباتشوف الداخلية والتغيير في السياسة الخارجية،** مجلة السياسة الدولية، العدد ٨٩، يوليو ١٩٨٧.

٥٤- نبيل صباغ، **كويبك ومصير الوحدة الكندية،** مجلة السياسة الدولية، العدد ٥٣، يوليو ١٩٧٨.

٥٥- نرمين السعدني، **تمرد الهنود الحمر والنظام السياسي المكسيكي،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٦، أبريل ١٩٩٤.

٥٦- نيفين القباح، **جنوب إفريقيا: والتوجه الصعب نحو التسوية،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١٠٩، يوليو ١٩٩٢.

٥٧- هيلين كاربر دانكوس، **انتفاضـة القوميـات فـي الاتحاد السوفييتي،** ترجمة: حسن نافعـة، مجلـة السياسة الدولية، العدد ٦٦، أكتوبر ١٩٨١.

٥٨- وثيقة منشورة بمجلة السياسة الدولية، العـدد ٩١، يناير ١٩٨٨، بعنوان: **اتفاقية أديس أبابا،** ترجمة: مجدي علي عطية.

٥٩- وليد محمد عبد الناصر، **العامل الإسلامي والـدور الإيراني في الجمهوريات الإسـلامية المسـتقلة،** مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٠، أبريل ١٩٩٥.

ثانيا: المراجع الأجنبية

١- Books:

١- Barghoorm, Fredrick C. & Remington, Thomas F., **Politics in Ussr,** Little Brown and Company, Third Edition. Boston, ١٩٨٦.

٢- Brzinsk, Zbigniew K., **The Soviet Block: Unity and Conflict,** Frederick A. Praeger Publisher, New York. ١٩٦١.

٣- Carr, E. H. and Others, **Nationalism**, Oxford University Press, London, ١٩٣٩.

٤- Cohen, Abner, **Urban Ethnicity,** Tavistock Publications, London, ١٩٧٤.

٥- Cramptan, R. J., **Eastern Europe in the Twentieth Century,** Routladge, London, ١٩٩٤.

٦- Denber, Rachel (ed.), **The Soviet Nationality Reader: The distengration in Context,** Wetview Press, Oxford, ١٩٩٢.

٧- **Encyclopedia Britannica,** Volume ١٥, William Benton Publisher, London.

٨- **Encyclopedia of the Social Science,** Volume Five, The Macmillan Company, New York.

٩- Featherstone, H. L., **A Century of Nationalism,** Thomas Nelson and Sons LTD., London, ١٩٣٩.

١٠- Harbutt, Frasher J., **The Iron Curtain: Churchill, America and the Origins of the Cold War,** Oxford University Press, New York, ١٩٨٦.

١١- Hidden, John & Salmon, Patrick, **The Baltic Nations and Europe Estonia, Latvia and Lithuania in the Twentieth Century,** Longman, London, ١٩٩١.

١٢- Hinsley, F. H., **Nationalism and The International System,** Hodder and Stoughron, London, ١٩٧٣.

١٣- Janawsky, Oscar I., **Nationalities and National Minorities,** Macmillan, New York, ١٩٤٥.

١٤- John, Hutchinson and Anthony D. Smith, **Nationalism,** Oxford University.

١٥- Kohn, Hans, **The Age of Nationalism,** Harrper & Brothers. Publishers, New York, ١٩٦٢.

١٦- McRoberts, Kenneth, **Quebec: Social Change and Political Crisis,** Third Edition, M. & S., Canada, ١٩٨٨.

١٧- McAuley, Martin (ed.), **Gorbachev and Perestroika,** Macmillan Press LTD., London, ١٩٩٠.

١٨- Maculey, Mary, **Soviet Politics: ١٩١٧ – ١٩٩١,** Oxford University Press, ١٩٩٢.

١٩- Urwin, Derek W., **Western Europe Since ١٩٤٥,** Londman. London, Fourth Edition, ١٩٨٩.

٢٠- Richmond, Anthony H., **Reading in Race and Ethinic Relations,** Pergamon Press, Oxford ١٩٧٢.

٢١- Roskin, Michael G. & Others, **Political Science: An Introduction,** Fourth Edition, Prentice – Hall International, Inc., ١٩٩١.

٢٢- Rothschild, Joseph, **Communist Eastern Europe,** Walker and Company, New York, ١٩٦٤.

٢٣- Russett, Bruce & Starr, Harvey, **World Politics: The Menu for Choice,** Second Edition W. H. Freeman and Company, New York, Oxford. ١٩٨٥.

٢٤- Smith, Gordon B., **Soviet Politics: Continuity and Contradiction,** Macmillan Education, London, ١٩٨٨.

٢٥- Smith, Graham, **The Nationalities Questions in Soviet Union,** Longman, London, ١٩٩٠.

٢٦- Wagley, Charles, **Minorities in the New World,** Colombia University Press, New York, ١٩٥٨.

٢٧- Weigall, David and Murphy, Michael, **European History,** B. P. P. Letts Educational, London, ١٩٩٣.

٢٨- Whitaker, Ben, Minorities: **a Question of Human Rights?** Pergamon Press, Oxford, ١٩٨٤.

٢٩- White, Stephen & Others, **Developments in East Europe Politics,** Macmillan ١٩٩٣.

٣٠- Wright, Martin (ed.), **Soviet Union: The Challenge of Chance: Countries in Crisis,** Longman ١٩٨٩.

٣١- Yourg, John W., **Cold War Europe: ١٩٤٥ to ١٩٨٩,** Edward Arnold, London, ١٩٩١.

٢- Periodicals:

١- Bercuson, David J., **Why Quebec and Canada Must Part?** Current History, March ١٩٩٥.

٢- Bialder, Seweyn, **The Death of Soviet Communism,** Foreign affairs, Winte, ١٩٩١ – ٩٢.

٣- Burg, Steven L., **Why Yugoslavia Fell a Part,** Current History, November, ١٩٩٣.

٤- Chavin, James, **Independent Central Asia: a Primer,** Current History, April, ١٩٩٤.

٥- Crowther, William, **Moldava after Independence,** Current History, October, ١٩٩٤.

٦- **Ethnic Conflicts Worldwide,** Current History, April, ١٩٩٣.

٧- Hulford, Robert, **Canada: a great northern paradox**., World Politics, Annual Editions, ١٩٩٠ – ٩١.

٨- Fuller, Elizabeth, **Georgia Since Independence: Plus Ca Change…,** Current History, October, ١٩٩٣.

٩- Fuller, Graham E., **Central Asia: The Question of Identity,** Current History, April, ١٩٩٤.

١٠- Gunter, Michael M., **The Kurdish Problem in Turkey,** The Middle East Journal, Summer, ١٩٨٨.

١١- Holloway, Steven., **Canada Without Qubec,** Orbis, Fall., ١٩٩٤.

١٢- Joseph T., **Canada If Quebec Secedes: a view from the United States,** Current History, March, ١٩٩٥.

١٣- Markus, Ustina, **Belarus: You can't go home again?,** Current History, October, ١٩٩٤.

١٤- Olcott, Martha Brill, **Central Asia's Post – Empire Politircs,** Orbis, Spring, ١٩٩٢.

١٥- .... **central Asia's Islamic A wakening.,** Current History, April, ١٩٩٤.

١٦- .... **central Asia: The Calculus of Independence,** Current History, October, ١٩٩٥.

١٧- Remington, Robin Alison, **Bosnia: The Tangled web,** Current History, November, ١٩٩٣.

١٨- Svec, Milan, **Czechoslovakia's Velvet Divorce,** Current History, November, ١٩٩٢.

١٩- Tadjbakhsh, Shahbanou, **Tajikistan: From Freedom to War,** Current History, April, ١٩٩٤.